أمين الريحاني

قلب لبنان

رحلات صغيرة في أجبالنا

مطابع صادر ريحاني ، بيروت

عُنيت بنشره وطبعه مطابع صادر ريحاني

بيروت، لبنان



امين الريحاني
بريشة الفنان العالمي أوبرهارت

الى صديقي شارل قرم
امين

الطبعة الاولى

محتويات الكتاب

•

منذ خمس وعشرين سنة قام امين الريحاني برحلته الاولى في البلاد العربية وقد ازمع ان يؤلف على اثرها سلسلة من الكتب تبدأ وتنتهي كما بدأت الرحلة وانتهت — اي بالحجاز ولبنان. وقد يتسع نطاقها كالمشاريع الاقتصادية في هذا الزمان، الى البلدان المجاورة — كسوريا وفلسطين ومصر وايران فالهند. وما ان باشر الريحاني بسياحاته الصغيرة في لبنان لوضع هذا الكتاب حتى عاجله الاجل قبل انجازه فجاء « قلب لبنان » كما تراه. غير ان الرغبة باطلاعك، ايها القارئ العزيز، على طريقة الريحاني الكتابية دفعتني الى نشر واثبات بعض الرحلات التي لم ينهها كما هي. وكان قد وضع لها تصاميم وملاحظات كادت تكون بمثابة الهيكل العظمي للجسم. وحسب « قلب لبنان » هذا ان يكون خلاصة ما انطبع في نفس الريحاني من هذه السياحات الصغيرة في جبالنا المحبوبة، انطباعات تتسم بخبرة واسعة من الاسفار والاطلاع والعلم والفن والنقد الاصلاحي والاخلاص، تلك الصفات التي عرف بها « الامين ».

البرت الريحاني

قد يكون المؤلف اراد بجمع المعلومات التالية وغيرها مما لم يتمكن من جمعها، وضع مقدمة لـ « قلب لبنان » هذا، فحُمّ القدر وحال دون ذلك. وقد اخترنا هذه الصفحة لعرض هذه المعلومات كي يستوحي القارئ تلك المقدمة المفروضة

مساحة لبنان

الطول ١٨٠ كيلو متراً. عرضاً وجنوباً ٢٩ كيلو متراً

يزداد الجبل سَعَةً وعلواً من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي — بين صيدا ومشغره لا يزيد عرضه على ٢٩ كيلو متراً ومن طرابلس والهرمل ٤٦ كيلو متراً

يقول بعض العلماء ان علو لبنان كان في الزمن السابق لعهد التاريخ اعلى منه اليوم بنحو (٣٠٠) متر — فعوامل الطبيعة تجرف كل حقبة من الزمن بضعة امتار من رأس الجبال. وان صح هذا القول صح قول الاقدمين ان لبنان كان متوجاً بالثلج الخالد فدُعيَ لذلك بلبنان اي الجبل الابيض

لغات اهل لبنان

اللغة البابلية (مراسلات تل العمارنة) كُتبت بهذه اللغة الممزوجة بالمصرية (اي المسمارية والهيروغليفية) فتناوبت في لبنان بعدها اللغات الآرامية، البابلية، الكنعانية، العربية — الايطوريون عرب اللجاء ادخلوا اللسان العربي الى لبنان .

اسماء لبنان

الاشوريون — لَبنانو

العبرانيون — لَبنون

الاراميون — لِبنون

ومنه استشق اليونان والرومان اسمه لبنانوس. فما اختلف الاسم على ممر الدهور اختلافاً يذكر — معناه الجبل الابيض، لبياض ثلوجه التي تكسو قممه. وللبنان معنى آخر في اللغات السابقة كما في العربية وهو اللبّان. اي البخور والكندر. ودُعي بذلك لما يفوح من جوانبه من الروائح العطرة التي تنشرها اشجاره ونباتاته ذات العرف الذكي.

السنديان — والاديرة — والزيتون — والارز. قال الامير مصطفى الشهابي: الارز من الفصيلة الصنوبرية. وليس من الصنوبر وهو غير الشربين رداً على من قال ان الارز من الصنوبر ويُقال له ايضاً الشربين. فرد عليه (في المقتطف) الاستاذ محمود مصطفى الدمياطي واورد ما جاء في المعجمات العربية مما يثبت ان الارز من الصنوبر وانه ذكر الصنوبر. وفي تاج العروس الارز بالفتح ويضم شجر الصنوبر — ويقول المستشرق الهولندي «دوزي» تحت مادة شربين انه معرب من اللغة الآرامية يقابلها باللغة الفرنسية le cedre ordinaire

الشربين في لبنان، يدعى السرو في مصر والجزائر — والعرعر في الشام هو الشربين في الجزائر.

انوار الكهرباء تختلط بالنجوم فتخطيء ان قلت هذا نجم سماوي او ذاك نور بيت لبناني

الرحلة الاولى

الى الارز

•

محتويات الرحلة

نظرة الى الماضي

في العود الى الماضي ترويح للنفس وتبريح . نذكر بعض ما مضى من الحياة ، فننتعش وننكمش ، ونبتسم ونكتئب ، ثم نحمد الله اننا نستطيع ان نحيي بالذكرى ما كان ، ونحمد الله ان ما كان لا يعود .

وأية الذكريات تصفو كلها ، او تصفو على الدوام ؟ واية الذكريات تعيد الينا ما تضمخت به من طيب الحياة ، ولا يكون فيه اثر لألم ، او ظل لغواية ؟ واية الذكريات تبعث فينا شيئاً من الحبور ، وتجدد بعض قديم السرور ، دون ان يهتز فينا الحنين ، وما يصحبه من غصص واغتمام .

وهل في كل حقائق الحياة اوضح واظهر من الحقيقة التي امست ذات امس ، ذات ذكر ، ذات خيال ؟ وهل الماضي في قشره ولبه غير ظل على الاجمال من الظلال ؟ انه مع ذلك حري بالتبصر والتفكير ، وان العود اليه ، على تعدد الوجوه فيه ، وتباين الالوان ، وعلى تباعد الصور بين ما هو كائن وما قد كان ، لا يخلو ، اذا ضربنا صفحاً عن لواعج الخيال ، ودواعي الحنين ، من شيء تتروح به القلوب ، وان لم يكن ذلك الشيء غير كلمة لكاتب او قصيدة لشاعر ، او صورة او مثال لفنان .

لا اريد في هذا المقام ان اشفع بالعبرة الذكرى ، بل اريد ان احيي بالذكرى بعض ما مضى ، واعطيك صورته مجردة من الشروح والتفسير ،

الا ، ا كان واجباً لازالة غامض او لاتمام ايضاح .

بعد التوكل اذن على الله ، وعلى الذاكرة ، اطوي من الماضي نحو ثلاثين سنة ، واقف عند السنة السابعة والتسعمائة والالف على كتف وادي الفريكة لاعرف الى القارىء شاباً لبنانياً كان قد هاجر الى اميريكة وعاد منهـا ، يحمل الكتب الادبية ، لا السندات المـالية ، واتخذ الوادي منسكاً له ، فبنى معبداً فيه ، او حسب معبداً كل مشهد من مشاهده ، بل كل مكان يقف فيه القلب مبتهجاً ، والفكر مستوحياً ، والروح خاشعة مطمئنة .

وكان ذلك الشاب مشغوفاً بالكتب والكتابة ، فانصرف بكل قواه وكل جنونه اليها . جفا الانس ، الا الفلاحين منهم ، وما واصل الجن ، الا من كان منهم نسيباً لشاعر او صنواً لمجان ضحاك . فظل على شيء من الانسية المؤنسة ، وما ادعى النبوة مرة ولا القداسة .

ولكنه رأى ان يعبد الله في المعبد الاكبر ، في الفلاة ، في الحقول ، في الوادي ، في ظلال الصنوبر والزيتون ، فقال الناس انه كافر ينكر وجود الله . وقد سمعه بعضهم يقول : الطبيعة امي ، ويرددها ، فقالوا انه يجدف على الله تعالى .

ورأوه يقف مأخوذاً عند وكر ترقرق فيه صغار الطيور ، او عند زهرة تنور بين الصخور ، او عند قندولة يفوح طيبها من بين الادغـال ، او على رابية خضراء فوق جبل اجرد اصم — رأوه يهيم في الحقول ، وفي الغابات ، فقالوا انه يتأثر الجن ، ويجتمع بهم في غـار الوادي ، وانه لذو جنة . فكانوا لذلك يجتمعون عليه ، فيضحكهم ويضحكونه ، فيحار فيهم السنونو ، ويهز برأسه قائلاً : مَن العاقل فيهم ياترى . ومَن المجنون ؟

ذلك الشاب ، بعد ان قضى نصف حيـاته في المدينة العظمى مدينة نويورك ، عاد الى مسقط رأسه في لبنان ينشد حقائق الوجود الكبرى ، فوجدها في العزلة ، او وجد في العزلة سبيلاً موصلة اليها . ووجدها في الطبيعة ، او وجد في الطبيعة الدليل الواضح الاصدق عليها . ووجدها في البساطة ،

و وجد في البساطة الطف ناحية من نواحيها . ووجدها في الجمال ، او وجد في الجمال الرمز الانور من رموزها . ووجدها في الوداعة ، بل وجد في الوداعة صورتها الساحرة ، وهي جالسة بين اختها الشمس واخيها القمر .

وفي تلك السنة التي وقفنا عندها ، في السنة السابعة والتسعماية والالف أحس ذلك الشاب ، وهو جالس على صخرة في الوادي ، في كل صنوبرة ساحقة ، ان يداً تمسح جبينه ، وتدلك ما بين عينيه ، فادرك انه في جبل القداسة ، وان كان لا يزال ابناؤه يبنون الكنائس ، وانه كيفما اتجه يرى للخالق اثراً في جمال الاودية ، وجلال الرواسي ، وادرك كذلك ان العبادة لا تلبس الثوب القاتم ، وان القداسة لا تعرو الوجه القمطرير ، وان الاشراق والبشاشة والضحك كلها من نعمائه تعالى .

لقد تجلت هذه الحقائق لذلك الشاب ، وهو جالس ذات يوم على صخرة فوق هاوية سحيقة ، تنتهي الى ضفة نهر مزدانة بالحور والدفلى ، تظلل مياهاً تجري جرياً هادئاً لتسقي في الساحل البساتين . تبارك العقم تحت رجليك ، والجمال بين يديك ، والنمو والاثمار امام ناظريك . اي ورب الارز . ان الشمس ترقص على الصخور ، وتحت الحور والدفلى تستريح ، وفي البساتين تتعاون والتربة على البر والتقوى .

الجبل المقدس — جبل لبنان .

ثم تجلى لذلك الشاب حقيقة اخرى جليلة ، وهي ان اقدس ما في الجبل المقدس هو الارز . فكيف يبني العابد معبده في الوادي ويظل ابن الطبيعة مقيماً فيه ثلاث سنوات ولا يزور اقدس مكان في لبنان ، لا يحج الارز ؟ هذا هو الكفر بعينه . وقد آلى ذلك الشاب على نفسه الا يكون من الكافرين .

التأهب للسفر

اعتزمت الرحيل الى الشمال لازور الارز، وشرعت اوطِّن للامر واتخذ له الاهبة. فما كانت الاسفار في تلك الايام كما هي اليوم فهي اسهل من نظم القصائد، واسلم من الجلوس في دور السينما. بل كانت، والحق يقال، من الامور المهمة الخطرة. تصدق فيها السجعتان وتترادفان: الاسفار، الاخطار.

اما العقبات، حرفاً ومعنى، والمشقات التي تذهب بالقوة والعزم ولا تبقي على غير الروح فيك، فحدث عنها ولا حرج. وقد كانت تكثر حتى بين واد وواد، فكيف بها بين اودية متعددة، سحيقة شاسعة، مختبئة بعضها وراء بعض، اولها يتصل بنهر الكلب، وآخرها بنهر قاديشا.

وما كان من اسباب الاسفار للركوب في تلك الايام غير العربات في اماكن محدودة، جلها في السواحل، والدواب في مسالك الجبال واوعارها.

اما العربات فقد كانت آية في الاتقان الشرقي، فلا يسلم فيها من الراكب غير الصبر والايمان. وما كانت طرق «الكروسة» والطرق «السلطانية» اقل من العربات حسناً واتقاناً.

بقيت الدواب لمن كان يأمل ان يسلم فيه غير الصبر والايمان. والدواب اربعة حمار وبغل وكديش وفرس. اما الجمل فليس منه في لبنان للاسفار، لان ذا السنام لا يفلح ولا يصلح في الجبال. وليس في الجبل افراس للاجرة.

والكديش مثل الجمل في الوعار الجبلية. فما هو ابن بجدتها. والكديش للسهول وللحراثه وللعربات في المدينة. وعندما ينتهي الكديش من مهنته. اي عندما يعجز عن القيام بها يعرض للبيع فيشتريه مغربي طواف يطوف البلاد حاملاً لذوي الاوجاع الدواء — دوآ — آ — عندي الدوآ — آ!! الكديش

والمغربي ذو الحشائش والعقاقير قلما يفترقان حقيقة ، وقلما يفترقان في صورة الحقيقة المؤنسة .

اما الحمار فان في الجبل انواعاً منه ، الا النوع الجميل الجليل اي القبرصي ما اكتحلت عيني برؤية قبرصي في لبنان . وجدت ما يشبهه في الحجاز ، وفي البحرين ، وخبرته في بعض رحلاتي هناك ، فكنت معجباً به ، وبجريه ، وحسن سلوكه كل الاعجاب . حتى ان صوته ليختلف عن اصوات سائر الحمير . وقد وصفه اللغوي المتنطس في قوله حمار جلاجل اي صافي النهيق . وليس في لبنان من الحمر المصرية المتحدرة من القبرصية . ليس في لبنان ، على قربه من قبرص فردوس الحمير ، غير كل ذي علة وعاهة . مما يشير الى ان في سلالة هذا الحيوان الطائع الوادع حلقة مفقودة ، وان هذه الحلقة وجدت عندنا .

ما بقي اذن غير البغال اختار منها بغلاً او بغلة . وبين الذكر والانثى من هذا الحيوان المشهور بالعصيان بون شاسع . بين الاثنين نسب يكاد ينحصر في النوع وفي الدم . اما في التفاصيل والصفات فالفوارق خفية وظاهرة ، والخفية لا يعرفها غير المكارين ، اما الظاهرة فالاهم فيها الرقبة والعين والاذن والحافر . فالرقبة في البغل قاسية ، لا تلين لطرف الرسن الذي يستعمله الراكب كالكرباج حتى ولا لحجر من يد المكاري . والعين تشتعل فتشتد احمراراً لاقل عامل خارجي مكدر للبغل والاذنان تجمعان في مقدمة الرأس وترهفان انذاراً بالويل والثبور . والحافر يلبي مسرعاً دعوة العين والاذنين ، فيرسل البغل الركلة تلو الركلة ، في الجو الى الوراء ، على الهواء ، اذا لم يكن هناك غير الهواء . ثم يحرن فيقف في السير ، ويدور دورات على محوره . ثم يأخذه الذعر ، فيعدو حتى يجن ، فيغار على اول توتة او دكة امامه . اما حمله فان كان من البضائع فهو ينتقل من ظهره الى تحت بطنه وان كان من البشر ، ولو فارساً ماهراً ، يود لوانه على الارض — هنيئاً لمن

هم على الارض—ولا يلبث ان يصير ممن يستحقون التعزية—والاعتناء الطبي.

اما البغلة فهي تمتاز عن اخيها بكل ما تقدم ذكره. رقبتها لينة، دقيقة الحس، وعينها ناعسة، واذنها ناعمة مسترخية، وحافرهـا قلما يُرفع في الهواء او عليه.

والبغلة تمتاز عن البغل بحسن صلاتها البشرية، وبما اورثتها تلك الصلات من الصفات الطيبة. كيف لا وما عرفت من بني آدم غير اصحاب الفضيلة واهل الحِجا والنهى، فتشرفت باسمائهم، واشتهرت بسجاياهم العقلية والروحية، فقال الناس: بغلة القاضي. ما شاء الله! وبغلة الرئيس، سبحـان الله، وبغلة المطران وبغلة الشريف تبارك اسم الله! وهناك من البغلات التاريخية بغلة ابن خلدون، التي احبها تيمورلنك قبل ان يراها — والاذن تعشق قبل العين حتى في المحاسن الحيوانية—فاهداها له المؤرخ المشهور يوم رافق الوفد الدمشقي اليه لمفاوضته في الصلح. وهناك دلدل البغلة الشهباء التي اهداها المقوقس صاحب الاسكندرية للنبي محمد صلى الله عليه وسلم. وهناك من البغلات الكريمات كثيرات لم يحظها الله بشاعر يتغنى بجمالها او بمؤرخ يشرّف صفحاته بذكر مآثرها.

اذن، على ظهر البغلة الى الارز. واين البغلة؟ سمعني قسيس القرية اسأل هذا السؤال فقال: «البغلة عند محبوب. ليس في المكارين اصدق من محبوب، واعلم منه بطرق الجبال. وليس في البغلات اعقل من بغلته. بغلة طائعة مباركة، بغلة لطيفة ظريفة.»

وضم القسيس اصابعه الاربعة الى باهمه ليشير الاشارة التي تثبت ما قال.

سمعت من القسيس، فطلبت محبوباً، وعقدنا المعاهدة: على مجيدي واحد من مجيديات الدولة العلية كل يوم اجرته واجرة بغلته، وضمانة بثمن البغلة اذا ادركنا قطاعُ الطريق. واحبوها وآثروها على مالنا وعلينا، ثم «شوفة خاطر» (اكرامية) عندما نعود من الارز سالمين. عقدنا المعاهدة وشهد

عليها مختار القرية وقسيسها .

وفي ذلك اليوم شمر كل من في البيت عن ساعده وساعدها — الام والشقيقة والخادم والخادمة يعاونهم الجيران — وشرعوا جميعاً يعملون في تحضير الزاد ... « امين ، يقبرني ، مسافر الى الارز » ... دُقت الكبة ، وشويت وقليت كباباً واقراصاً ، وذبحت الدجاجة الهندية وذبح الديك الرومي ، وسلقت البطاطا والبيض ، وطبخ بالزيت السبانخ وورق العريش وخُبز المرقوق على الصاج خاصة ... « امين يقبرني مسافر الى الارز » ... لتزويدنا بالخبز الطري . وقد نذرت ام امين النذور من شمع وزيت وبخور ، لكنيستي الفريكة وقرنة الحمراء من اجل المسافر العزيز ، ليحفظه الله في الطريق ويعيده الى بيته واهله سالماً .

هي أهبة السفر او بعضها . وجاء محبوب في فجر اليوم التالي يقود بغلته المحبوبة ، وقد اثقل عنقها بالقلائد والاطواق ، وفيها الشراريب والاجراس وفيها الودع والخرز ، وفي احداها بين الشرابتين خرزة (حجاب) العين . اطواق من الصوف ، حمراء زرقاء خضراء ، مجدولة مفتولة ، وبينها طوق مرصع بالودع ومزدان بصف من الجلاجل الصفراء المدورة — بعشرين منها . فكانت البغلة نوبة ماشية ، وكانت اذا هزت رقبتها ، او ضربت برأسها ذبابة هناك تخرج من تلك الاجراس اصوات وقرقعات تجفل المواشي ، وتفزع الطيور .

قلت لمحبوب لا بأس بهذه القلادة التي فيها التعاويذ ، وبهذه الحمراء الخضراء ذات الشراريب ، وبهذه المرصعة بالخرز والودع . اما الجلاجل — الجلاجل ، يا محبوب ، هي لعب الصغار ، وبغلتك كبيرة جليلة موقره ، لا يليق بها ما يليق بجحاش البغال .

فهز محبوب رأسه افقياً ، وهو ينتزع القلادة الموسيقية من رقبة محبوبته ويقول مخاطباً الهواء : هي تستأنس بالاجراس .

وكأني بمحبوبة تكذبه في الحال . فقد رمقتني بنظرة من عينها الناعسة، وهزت رأسها عمودياً لتخبرني شاكرة انهـا مرتاحة الى هذا التشذيب في زينتها .

بعد ذلك جاء الخادم بالسجادة وبمخدتين ، ففرش محبوب السجادة على ظهر البغلة ، ووضع تحتها الى الامام والى الوراء المخدتين . واوثقها بالحبال، فغدا الجلال سرجاً محكماً ناعماً .

وجاءت الخادمة وزوجة المختار بالخرج الثقيل ، وفي احد عدليه الزاد وفي الآخر حاجات السفر الاخرى ، فشُدّ الى مؤخر السرج .

وهذا ، يا محبوب ، المسدس . احمله انت . تمنطق به .

ذلك المسدس بمنطقته من الجلد هو مسدس عسكري طويل خطير، اشتريته في نويورك ، قبيل عودتي منها ، لما كان يشاع في الجالية هناك عن « الطيارين » قطاع الطرق في جبل لبنان . ولكني لم احمله مرة، ولا اضطررت مرة الى استعماله ؟ .

هذا بعض الحقيقة في امره . والبعض الآخر هو اني مـا تعودت حمل السلاح ، ولا تعلمت استعماله .

ولكني كنت استأنس بوجود ذلك المسدس في درج مكتبي . وثابرت في اذاعة خبره ، فاصبح مشهوراً ، وصار الناس يقولون : « مسدس الريحاني » كما يقولون : « اسطول بريطانية العظمى » ويسكتون .

نهر الكلب

ودعنا الاقارب والجيران في غمرة من القبلات والدموع . وكانت قبلة الام لابنها احر القبل ، يتبعها اشارة الصليب التي رسمتها على وجهه وصدره .

ومشى محبوب يقود البغلة ، ومشيت وراءها حتى طرف القرية . ذلك لان القسيس كان قد علمني شيئاً من الاصول المرعية في ركوب البغال . وردد النصائح قبل يوم السفر كما يردد الوصايا العشر . — لا تهز برجليك ، لا تلوح بيدك ، لا تحدب ظهرك ، لا تشد بالرسن في طلعة ، ولا ترخه في نزلة ، لا تركب داخل القرية ، اكرم المكاري . . .

خرجنا من القرية ماشين ، ومررنا بالكنيسة العتيقة عند طرف القرية المجاورة ، فوقف محبوب امام الباب ، ومسح العتبة بيده وقبلها ، ثم رسم اشارة الصليب على وجهه وقال : « تفضل يا معلمي اركب . »

ركبت بعون الله ، وكذلك بعون المكاري الذي احتفظ بالرسن · « ساقودها في هذه النزلة . » وطمأنني ، فما اطمأننت . فأخرج حلقة الجلال من تحت السجادة وقال : « تمسك بها ولا تخف . »

أذلني بـ « لا تخف » ولكني ، وهي المرة الاولى اعلو بغلاً بعد عودتي من اميريكه ، ابتلعتها ، واجتهدت في هضمها ، فكانت والحق يقال نافعة ، حملتني على مغالبة الخوف فغالبته ، وكنت من حين الى حين اترك الحلقة ، واشعر اني منتصر عليه .

ولكننا في نزلة تشتد وعورةً وانحدارا . هي نزلة النهر التي اعرفها ماشيا واعرف ان اشجع المكارين ، وامهر الفرسان ، لا ينزلها راكباً . فترجلت ومشيت وراء محبوب ومحبوبة .

النزلة الى الوادي — عقبة نهر الكلب — ان في جبال لبنان اطول منها مدى ، واشد انحداراً . ولكنها . في اندلاق وعورها ، وتدكدك صخورها واعوجاج سطورها ، هي فريدة وحيدة عجيبة .

وهي مع ذلك تدعى طريق النهر . لا يا سيدي ، لوكانت طريق النهر لذهبت مياهه بشيء من تلك الوعورة ، وذلك التدكدك والاعوجاج .

وهل هي الطريق الى النهر ؟ لا يا سيدي العزيز ، هي درجات ودكات وجور ، وصخور مكسرة مبعثرة في ذلك الانحدار الجبلي الى النهر . بيد ان ابن الجبل وبغله حفرا على مدى الايام جوانبها ، وغيّرا لونها . فصار احمر ادكن ، فاذا نظر اليها من بعيد ، من الجبل المقابل ، بدت كطريق بين اخضرار الادغال ، واغبرار الصخور .

قلت ابن الجبل وبغله ، فبالغت ، او ما حققت وما دققت . فان لها اعواناً لا تُرى ايديهم ، ولا تقدر بالمقاييس البشرية اعمالهم . فهذه درجة عالية غليظة يتبعها درجة واطئة وادعة ملساء اصطنعتها الارجل من اجيال جبلية ، الانسان والحيوان ، قديمة وحديثة . وهذه دكة هدمتها الامطار والرياح ، وجعلتها الايام والليالي درجات وفرجات ، تندمج الواحدة بالاخرى وهذه صخرة نقلها الزلزال من تحت قوادم النسور الى تحت حوافر البغال ، فحرنت عندها ، ودارت حولها ، فشقت طريقاً هيناً للانسان ، وجعلته مروثة لها . وهل وقع الحافر على الحافر اغرب من وقوف الدواب عند الرائحة الحامضة ووقع الروث على الروث ؟ وهذه صخور مركوم بعضها فوق بعض بشيء من النظام ، فجاءت تشبه درجات هرم الجيزه .

وهذه رجمة بيضاء تصل العقبة بطريق رحب عليه مسحة من التعبيد ، فالانسان والحيوان يتنفسان فيه الصعداء . ويقفان ليستمعا صوت النهر الصاعد من الهاوية بين سُمك الجبلين . لقد دنونا من المغارة وان كانت لا تزال محجوبة بحجاب من الصنوبر . وهذا صوت النهر يصل الينا كخوار

المواشي البعيد القرار فتهب ريح الصباح فتحمله وتجسمه ، فيبدو لنا كزئير السباع .

محبوب : « هذه المغارة • قف مكاني ومد نظرك بين الصنوبرتين هناك ، تر المياه قدام بابها . »

ووقفت محبوبته الى جنبي ، وحافرها على حافة الطريق ، وهي تتطال فوق الهاوية ، ثم تميل بوجهها الى المكان الذي اشار محبوب اليه . بغلة طائعة ، بغلة فهيمة !

مشينا وإياها فرحين في طريق لطيف الانحدار ، ذي درجات واسعة ليس فيها من التهدم ما يزعج الانس او الجان او خادمهما الحيوان . وقد بان النهر ، واعجب لسيف يلمع في نصابه ، وتبينت هناك الحوض الذي يستحم فيه صبيان القرية عندما يؤمون الوادي . هو الحوض بصخوره القائمة حوله في مجرى النهر .

وان بين تلك الصخور صخرة صنعتها العناصر والزمان كرسياً بمجلس مجوف وسندات للظهر ولليدين . صخرة ملساء ، مكونة الطف تكوين تجري فوقها المياه ، فتجلس فيها تحت شلال فضي ينصبّ فوق كتفيك وعلى صدرك وبين يديك . هو نعيم النهر ، نعيم الوادي ، نعيم الطبيعة ، أم الوادي والنهر وأمك وأمي .

هوذا العرش عرش الآله نبتون . اظنني اول من جلس عليه واسماه عرشاً فاصبح معروفاً بهذا الاسم الحديث . دللت المكاري محبوباً عليه فقال : « صرت افهم ابني حنا عندما يقول لي انه نازل واصحابه الى النهر ليجلسوا على العرش ويصيروا سلاطين . والله ، يا معلمي ، زدتَ عدد السلاطين والملوك في الفريكة . »[1]

---

(1) من اهل الفريكه رجل كان يكنى بالسلطان وآخر بالملك وسنحدثك عنهما فيما بعد .

— وانت يا محبوب سلطان .

— « كثر خير ربنا . والله يا معلمي من لا له ولا عليه في هذه الدنيا هو سلطان . وانا ، وحياة حنا وأم حنا ، لا علي ولا لي . لا اتدين ولا ادين . عندي هذه البغلة ، بمال السلطان ما ابيعها . وعندي موسم شرانق مائة اقة . وعندي من كرمي ثلاث خوابي نبيذ ، ومن زيتوني زيت السنة . وادفع الضريبة للحكومة والعشور المطران بالضبط غب الطلب . »

— السلطان لا يدفع لا ضريبة ولا عشور . انت احسن من السلطان .

قبل محبوب انامله ورفعها الى جبينه قائلاً : « كثر خير ربنا . » ثم وقف فوقفت البغلة ووقفتُ معها : « عندي سؤال يا معلمي ارجوك ان تجاوبني عليه . انت تقرأ في الكتب وتعلم كل شي . . من هو الذي سمى هذا النهر نهر الكلب ، ولماذا سماه بهذا الاسم ؟ »

قلت : اجاوب ماشيا . اما اني اقرأ في الكتب فهذا صحيح . واما اني اعلم كل شي . فهذا بعيد بعيد جداً عن الصحة . ومما لا اعلمه ، يا محبوب الاصل والسبب في اسم هذا النهر . فليس في الكتب الخبر اليقين . انما تقول ان اليونان كانوا يسمونه نهر الذئب . فكيف صار الذئب كلباً انا لا ادري . . .

— « ولا المنجم يدري ؟ »

— قد يدري المنجم ، ولا يدري العلماء .

ولا بأس ان اكمل كتابةً ما قلته لمحبوب . فقد يكون هناك غيره من المحابيب الراغبين بالعلم ، وان كان لا يفيد .

ان لسؤال محبوب جواباً في اساطير الاقدمين . فقد كان يحرس ممرَّ النهر كلب كبير خطير ، فصيح اللسان ، محب للالغاز ، فيطرحها على المارين ليحلوها . فمن حل لغزاً منها اعطاه الامان واذن له بالمرور ، ومن عجز ابتلعه ابتلاعاً ، دون ان يكسر عظماً من عظامه .

وقالت الاساطير ان الوثنيين نصبوا عند مصب النهر صنماً في صورة كلب كانوا يعبدونه لانه كان يرى العدو من بعيد فينبح لينبه عبّاده ويحذرهم منه .

وقالت كذلك ان بعض الصخور القريبة من النهر تشبه ذلك الصنم . .

– « تشبه الكلاب ؟ »

– نعم ، ومن الصخور ما يشبه الخنازير والثيران . وقيل لي ان في جوار فيترون كثيراً منها . ستراها اليوم . ولو كان اول من اسمى هذا النهر بالكلب كاتباً ، يا محبوب ، مثلي ، وكان مثلي ذا ضمير يحمله على تقدير فضول الناس ، لكان سجل في بطون الكتب اسمه والسبب في تسميته الكلبية للنهر ، كما ساسجل انا اخبار هذه الرحلة ، واخبارك انت ومحبوبة ، ولا انسى الصخرة في مجرى النهر التي اسميتها العرش ، فلا يحار ويتحزر احد بخصوصها وخصوصاً في المستقبل ، ولا احد يسأل السؤالات التي يجيب عليها العلماء حتى بما لا يفكه من الخرافات .

كنا قد وصلنا الى الطواحين التي تتدفق من فوهاتها المياه في شكل زهرة ضخمة من الاضاليا البيضاء او كدولاب كبير من دواليب الالعاب الناريه .

وقفنا عند الدكاكين ليشتري محبوب علبة سواكير ويسأل عن صحة صاحب الدكان وزوجته . ثم مشينا الى الجسر ذي القنطرة الواحدة العالية ، فاجتزناه الى ضفة النهر الشمالية ، فاصبحنا في كسروان ، في سفح الجبل المجلبب ، المزدان بغابات من الصنوبر سندسية الاخضرار ، وفيها الطريق تدعونا للتصعيد .

– « تفضل ، يا معلمي ، اركب . »

وبعد ان اعانني ، واطمأن لجلستي ، قدم لي الرسن قائلاً : « لا تشد ولا ترخي . هكذا . ولا تخف . »

كظمتها ثانية هذه ان «لاتخف» ولكني عزمت ان اقدم لمحبوب البرهان والدليل، قبل ان نصل الى آخر المرحلة في ذاك النهار، اني لا اعرف من الخوف اكثر مما اعرف من الحقيقة في اسم نهر الكلب.

وبدأتُ في الحال. بدأت اسوق البغلة بطرف الرسن، المس به رقبتها، فراحت تنهب العقبة نهباً، فصاح محبوب بي: «على مهل، يا معلمي، على مهل.» فذكرت اذ ذاك قول قسيس القرية ان ليس من الاصول المرعية في ركوب الدواب ان يركض الراكب دابته فور الركوب.

كانت الطريق تلتف حول جذوع الصنوبر، في فيئها العاطر المنعش، التفافاً هادئاً لطيفاً منبسطاً، فيمشي محبوب في المقربات ليدركنا.

ورأيته عندما دنونا من راس الجبل يشير بيده ان قف. فوقفت. فجاءني ينهج ويقول: السيكارة طيبة تحت هذه الصنوبرة. فاشعلت غليوني. وقررنا ان نأكل طعام الظهر قبل ان نصل الى ريفون، فلا نقف في البلدة، وان نواصل السير الى ميروبه فنبيت فيها.

استأنفنا السير. وكان محبوب يمشي الى جنب البغلة لا وراءها، حتى اذا استحثثتها فاسرعت، بادر اليها فمشى الهوينا ورأسه الى عنقها، فتحتذيه في مشيته بالرغم عما يكون من امر سائقها والرسن.

مررنا بطرف جعيتا فوق بستان الزيتون ذي الاشجار الهرمة التي يتجاوز عمر بعضها الالف سنة. ووقفنا بعد ساعة من السير في عرض الجبل عند دكان وخيمة بين صنوبرات وارفة الظلال، فربط محبوب البغلة وانزل الخرج ثم اخرج منديله الاحمر من جيبه يمسح به جبينه.

ليس في المشاهد الجبلية من هذا المكان بعجلتون اجمل من ناحية القاطع التي جئنا منها. فهناك بكفيا تحت جفن الجبل الاعلى، وبيت شباب على صدر الجبل تحتها، ومنها غرباً سلسلة من القرى — الشاوية والفريكة وقرنة الحمراء ومزرعة يشوع وديك المحدي وبيت الشعار — متصل بعضها ببعض

وهناك بيت الريحاني ، وقد ذهبت المسافة بالقليل من الارض المنحدرة منه الى شفا الوادي ، فيخيل للناظر اليه من هذا المكان انه قائم على جفن الوادي على شفا الهاوية .

جاء محبوب بالابريق يتبعه صاحب الدكان بكرسيين وطاولة صغيرة . وبين كان يخرج الزاد من الخرج اشار بابهامه الى فمه ، فطلبت له كأساً من العرق ، شربه صرفاً ، وأكل قرصاً من الكبة ، وهو يقول : اليوم يا معلمي عيدك . « فطلبت له كأساً آخر من العرق . »

وبعد ان انتهينا من الغداء نظرت اليه والغليون الفارغ بيدي ، ففهم وقال لصاحب الدكان : « اركيله للخواجه . معنا وقت . الاركيله طيبة تحت هذه الصنوبرة . »

وكان محبوب قد قسم الطريق الى ثلاث مراحل من اجل راحتي ، كما قال . ولكني علمت بالتقسيم ، بالتدريج ، انه كان يحرص على راحته كذلك وراحة بغلته المصونة محبوبة . وعلمت ايضاً بالاستقراء انه من الذين يعتقدون وان لم يقلها ، ان العجلة من الشيطان .

فما عجلنا في الخيمة بعجلتون . وما عجلنا في السير من عجلتون الى ريفون . ولكننا ، ونحن صاعدون الى فيترون ، في ارض صخرية جرداء لا ظل فيها ، شعرت بالحر ، فاستحثثت البغلة فلبت طائعة ، بارك الله فيها ، وهي تكدف فتردد الصخور صدى صوت حوافرها ، فعدا محبوب وراءنا وقطع القرية فادركنا وقال بشيء من التأنيب والخوف : « الوقعة بين هذه الصخور ملعونة . على مهل يامعلمي على مهل . »

فكلمته بلهجة فيها شيء من نعرة الظفر والتذكير : لا تخف ، يا محبوب ، لا تخف .

فضحك وقال : « والله يا معلمي صرت من الفوارس . »

وفي تلك الفينة وقفت محبوبة فجأة وركلت ركلة « عنيفة » ، وهي

تضرب وركيها بذنبها لتطرد ذبابة كانت تزعجها . كل ذلك بسرعة كادت تكون مفجعة . فقد تقلقل « الفارس » وهوى على ظهرها . ولولا لطف الله وبحبوب لطاح بين الصخور . يالذلة الفوارس !

مشينا بعد ذلك المشي الهون كما يقول عرب نجد ، ودخلنا عند الاصيل متحف الصخور في جوار فيترون .

اقول متحف الصخور ولا اغالي . فان هناك بقعة بركانية منقطعة النظير في لبنان . فهي لا تمتاز بتعدد وتركيب صخورها فقط ، بل تمتاز كذلك بالاشكال التي اتخذتها تلك الصخور . فكأن يد المكون الاعظم ، يدُ فنان جلس ها هنا ينحت التماثيل والاشكال البشرية والحيوانية والهندسية ، جلس ها هنا يعمل على هواه في هذه الصخور فكوّن منها كل ما يستطيع ان يتخيله اخصب الشعراء خيالا ، وكل ما يستطيع ان يبدعه ابعد العلماء تصوراً ، وفيها الجميل والرائع والفظيع والقبيح والغامض والمضحك من الصور والاشكال . فلا مبالغة في القول انه متحف الصخور .

ولا يمكن ان تتملأ العين منه بربع ساعة . فقد خرجت من متحف الطبيعة وفي النفس رغبة بالعودة اليه ، رغبة تحققت بعد بضع سنوات .

وهذا المتحف لا يبعد عن البلد فهو متنزه اهلها وخصوصاً الفتيات منهم والفتيان ، فتراهم عند الغروب بين تحف الصخور كقطيع من القطا ، او كسرب من الغزلان .

وما كان في الحسبان ان سنلاقي بفيترون من جميل المفاجئات اثنتين في وقت واحد . ذكرت الاولى وهي في المتحف .

وهذه الثانية عند طرف البلدة ، بعد ان مررنا بدير الرهبان ، حيانا احد ابنائها تحيةً حارة ، تحية معرفة وصداقة ومحبة ، ورحب بنا . فترجلت مدهوشاً لارد التحية .

ما كنت اعرف احداً في فيترون . ولكني علمت بعد ذلك ان خبر

سفرنا الى الارز وصل الى احد الاصدقاء ببيروت له صديق بفيترون، فكتب اليه يعلمه بقدومنا ويوصيه بنا .

وهذا الصديق الجديد — مضيفنا — الذي اصبح بعدئذ صديقاً عزيزاً، وظل شأنه كشأن الخمر والزمان، فصار صديقاً حميماً قديماً، هو الدكتور حنا دريان .

نبع الحديد

حططنا الرحال في فيترون، وكانت ليلةٌ في بيت دريان تذكر وتعاد. وقد تعددت بعدها العودات وكنا في كل عودة نشعر الشعور الاول، شعور الدهش والابتهاج، وقد قُرن بعدئذٍ بزيادة المعرفة والتقدير، وبزيادة الحب والاعجاب.

تمتاز الضيافة الكسروانية عن سواها في لبنان بشيء يصعب وصفه وتحديده. فهناك الكرم واللطف والمروءة وشيء معها يجعلها من الصفات التي لا تقيدها، وان أوجَبَتها، التقاليد والعادات. فقد تتغير العادات والتقاليد، وهي لا تتغير، كما هو الحال في هذا الزمان. فالضيافة الكسروانية لبنانية، وليست الضيافة اللبنانية دوماً كسروانية.

ولهذه الضيافة الكسروانية آفة من جنسها، تدخل على قلب الضيف شيئاً من الهم يمازج ما فيه من سرور، ويتغلب في بعض الاحايين عليه. لا نكران ان رب البيت يُسَر سروراً فائقاً صافياً بكل ما يبذله في سبيل ضيفه. ولكن الضيف، وخصوصاً اذا كان من ناحية المتن والشوف، حيث تتعدد النزل الحديثة، وتقل الضيافة المأثورة، يخشى ان يكون مقصراً — وسيكون ولا ريب مقصراً — ان انقلبت يوماً الآية وصار مضيفه ضيفاً في بيته.

فهو لا يخشى ان يقال في كرمه او ادبه او مروءته كلمة نقد معيبة، او كلمة تفسير مريبة، ولكنه يخشى ان يقال فيه انه لا يلح على الضيف ساعة الوداع الالحاح اللازم اللائق ليبقى يوماً او اسبوعاً او شهراً آخر في ضيافته، ولا يمزق ثوبه، وهو متمسك به، ليحول دون الارتحال.

وقد مزق الدكتور حنا دريان واهله ثوبي، صباح اليوم التالي، ساعة الرحيل، وما اذنوا باستئناف السفر الا بعد ان اقسمت يميناً مغلظة، بشرفي. بحياة أمي – وحق ربنا، ربي وربهم – ان اعرّج في العودة من الارز عليهم، واقيم عندهم اسبوعاً واحداً على الاقل.

– « الخرج ملان، والله، ملان. معنا من خيركم وخير الله ما يكفي لسفرة الى حلب. »

هذه الكلمات كان يرددها محبوب عند خروجي من البيت. وسمعت الخدم يقولون: « ما عملنا ما يليق بكم – ما في شي. من قيمتكم – لا تؤاخذونا » وهم يدسون في الخرج رزماً من الزاد، وزجاجات من النبيذ.

ثم جاء الدكتور حنا بمكتوب كتبه الى صديق له في المغيره واعطاه المكاري، وهو يقول له: « ناموا الليلة في المغيره. لا تتجاوزوها اليوم وان وصلتم اليها الظهر. واين الخطر؟ لا خطر هناك. ولكننا نريد راحة الافندي. »

ولكن المكارين الذين تحدث واياهم محبوب الليلة البارحة قالوا له ان الطريق الاعلى – في الصرود – لا يخلو من خطر. ونصحوا له ان يلزم الطريق الاسفل الى لاسا فالغابات والمغيرة.

فيترون هي في مستوى ضهور الشوير (١١٨٠ متراً) ان لم تكن تعلوها قليلاً. ولكن الارض منها صعوداً الى ميروبة وما دونها هي اخشن واوعر مـــن الارض بين ضهور الشوير مثلاً وعينطورة المتن. ولا عجب فقضاء المتن اكثر عمراناً من قضاء كسروان.

فالطريق من فيترون الى ميروبة، وان عدت « سالكه » وان كانت في بعض اجزائها تمر بين الكروم، هي من الصرود وخشونة الصرود بمكان. هي طريق كسروانية تتطاير الشرر والحصى من تحت حوافر الدواب فيها، وتسمع اصوات رناتها من وراء الصخور، ومن حنايا العقبات.

بعد ساعتين من السير مررنا في ضواحي ميروبا العالية وصعدنا من هناك بين الكروم الى الصرود الحقيقية، حيث يضمحل الاخضرار، وتضأل وتتضاءل الظلال، فتغدو في بادية صخرية قاحلة، شديد حرها، عميم نور شمسها، بعيدة القرار سكينتها. وهي مع ذلك لا تحرم حسنات الطبيعة كلها، بل تمتاز بحسنتين، بنعمتين، هما النسيم البارد المُنشِط، وينابيع المياه الباردة المنعشة.

ولعمري ان اللبناني اللاصق بصخور جباله هومثل الصرود في اخشيشانها، وفي نسيمها وينابيعها. هو ذلك النسيم العطر في لطفه ونعومته، وهو ينبوع الماء القراح في كرمه. وقل فيه بعد ذلك ما تشاء، فتظل كفة الخير في ميزانه راجحة.

وهذه من عيون الصرد عين الجرن، وعين القدح، وعين « فك جرابك» ونبع الحديد!

ما الذي جاء بنا الى نبع الحديد؟ كان يجب على محبوب ان يتخذ الطريق الاسفل، البعيد عن اوكار النسور — واللصوص — الى لاسا. فضلّ بين الصخور، دون ان يعلمني بذلك. وامعن في الطريق الذي كان يخشاه، الطريق العالي الى مغارة افقا.

وكنت قد طلبت منه ان نمر بافقا فجمجم الكلام ثم قال: واي شيء في مغارة افقا. وما هي مغارة افقا؟ قُدْح (ثقب) في جبل. غداً اشتري لك في بيروت صورتها فترى انها لا تستحق الزيارة. صورتها احسن منها، والله يا معلمي. وبعد ان تراها تقول صدق محبوب.»

وها نحن مع ذلك في نبع الحديد، الذي هو على ساعة فقط من المغارة، والطريق منه اليها ينحدر نزولا. فقد بلغنا في هذا المكان اعلى ما اجتزناه من الجبال. نبع الحديد ١٥٩٠ متراً هو بِرْكة في شكل تنور، بل بَرْكة بين الصخور، تنبع ماء زلالاً فيطفو على وجهه الحبب، كأنه في غليان. واذا مددت اليه يدك فانك لا تجلُد عليها اكثر من ربع دقيقة من شدة البرودة.

جربنا فعددت خمسة عشر وسحبت يدي متألماً . وعدَّ محبوب عشرين. اما المعاز الذي كان هناك عند وصولنا، فقد عد ثلاثين، وسحب يده من الماء هادئ البال فخورا .

المعاز على نبع الحديد شيء مألوف. ولا ازال اذكر ذلك المعاز الشاب بما رسخ في ذهني من جماله الجبلي البارز. في عين سوداء كبيرة براقة النور، وفم قرمزي مستفيض، كأنه الاله تموز .

وكان قد فك جرابه واخرج منه الخبز اليابس، الخبز لا غير، يبل الرغيف منه بالماء ، ويلفه ويكدمه كدمتين ، ومن حين الى حين يأخذ حجراً ويرمي به احدى العنزات الشاردة ليردها الى القطيع .

تظللنا صخرة بين تلك الصخور فانزل محبوب الخرج وفتحه ففاحت منه روائح الدجاج المقلي والكبة المشوية. وكان المعاز لا يزال يبل الرغفان ويكدم فناديته فقال : « كثر الله خيركم » فالححت، فجاء متردداً خجولاً، ثم جلس على حجر الى جنبي معتذراً. فشاركنا، وقبل ما قدمناه له من الزادين زاد الفريكة وزاد فيترون.

ثم قال : « ارجوكم ان تنتظروا دقيقة واحدة » وراح يثب بين الصخور كاحدى عنزاته، وعاد بعد قليل يحمل سطلاً من الحليب وهو لا يزال على حرارة الضرع فوضعناه في ماء النبع ليبرد فغدا بعد بضع دقائق كالحليب المثلج .

رأيت المكاري اثناء ذلك يكلم المعاز وسمعت هذا يقول : «هذه طريق افقا — وهناك — رمى بحجر من تحت الابط رمية معاز فتقوس عالياً — هناك . طريق لاسا . »

وكان محبوب سائراً في الطريق الذي يخشاه، الى المكان الذي شئته انا، وما شاءه هو خوفاً من قطاع الطريق ، فلما وصلنا الى حيث طاح حجر المعاز، بانت الجادة التي تدور غرباً بشمال ثم تستقيم غرباً، فتقطع ساقية تدعى نهر بوندي، فتمر بقرية شواتا، وكل سكانها، نحو ثلاثماية نفس،

من الشيعة ، ومنها الى لاسا.

عندما رفض محبوب ان يسير بي الى افقا ، وقال ان اشتري رسمها من بيروت وهو احسن منها، ظننت ان الرجل الكسل فيه يريد ان يختصر الطريق وعندما رأيت في تخوفه وضلاله دار دورة طويلة ودنا من افقا وحاد مع ذلك عنها، اصلحت ظني وقلت انه جبان.

ثم حدث الحادث الآخر الذي زاد بعلمي فيه واصلحه. كنا في النزلة مسددين الى لاسا. فمررنا بغابة من شجر الزمزريق الزاهر، فقلت لمحبوب: خذ هذه السكين وهات لي غصناً منه فقال: « قدامنا كثير من « السِيزَرْنيق ».

وما كان عليه الا ان يجتاز جداراً لا يزيد علوه على المتر الواحد ويمشي بضعة عشر متراً الى تلك الشجرة. فابى ، فسجلت عليه الجبن والكسل.

افقا « ثقب في جبل. وصورتها احسن منها ». هي ذي الجبانة المتفلسفة. « الزمزريق كثير في الطريق قدامنا ». هو ذا الكسل الكريم الكذاب.

ليس مثل الطريق، في كشف مخبئات الرفيق. ونحن لا نزال في المرحلة الثانية، لطف الله بنا، وستر عيوبنا.

الاودية المقدسة

من حسنات هذا الطريق الى الارز انه طريق جبلي يمر بك على ثلاثة انهر تاريخية، هي نهر الكلب ونهر ابراهيم ونهر قاديشا، وثلاثة مغاور أثرية عجيبة هي مغارة جعيتا، ومغارة أفقا، ومغارة بشراي.

ومن صفات هذه الانهر والمغاور صفة قدسية زرع بزورها الكهان، واتاها ذوو الورع والايمان، وضمّخها ببخوره الزمان. وقد غرست الامم الشرقية والغربية على ضفاف تلك الانهر اغراس الاساطير والخرافات، ووسمتها بالميسم الديني الوطني، فكانت يوماً فينيقية، ويوماً يونانية رومانية، ويوماً سريانية او ارامية او عربية.

لقد مررنا بآثار اليونان والرومان في نهر الكلب، ونحن الان مشرفون على فينيقية المتجسدة في هذا النهر الحامل اليوم رسماً سامياً ولكنه غير فينيقي. وللانسان وآثاره في الاسماء شؤون.

اما المغارة فهي في اسمها اقرب الى مصدر قداستها من النهر. ولولا جبانة المكاري محبوب لكنا واصلنا السير في الطريق العالي اليها. فالفرق في المسافة الى محجتنا بالمغيرة لا يربو على العشرة الكيلومترات. وسنعود الى هذا الموضوع، وستزور مغارة افقا ان شاء الله، وسنطلع القارىء على الحادث المنكود الذي حصل، ذلك الحادث الذي كاد يفرّق شملنا نحن الثلاثة، اي صاحب هذه الرحلة ومحبوب ومحبوبة.

انما اقول الان جبانة محبوب لم تخلُ من فائدة. فلولاها لكنا حرمنا رؤية بلدة في هذا الوادي الفينيقي المقدس، هي غريبة في اسمها، وفي اهلها، وفي اوضاعها الدينية.

هي قرية صغيرة كامنة آمنة في منعطف الوادي الذي ينبع في رأسه نبع الحديد، ويجري عند قدميه نهر آدونيس. وان في هذه القرية ثلاث من متناقضات الحياة، هي في اهل القرية، واسمها، وفي كرسي اسقفها، في اهلها المسلمين الشيعيين . وفي اسمها الهندي الطيبي ، وفي كرسيها الاسقفي المسيحي الكاثوليكي الماروني. فاين آدونيس وعشتاروت واين عبادهما من هذه الشطائب والشواذات؟

لا اظن ان المطران يوحنا مراد رئيس اساقفة ابرشية بعلبك يستطيع ان يخبرنا ما الاصل والسبب في اسم القرية التي هي مقره الصيفي. لاسا — من اين جاء هذا الاسم الى لبنان ؟

ان في بلاد المغول « بطينيت » مدينة لاسا المشهورة باديرتها ورهابينها وبوذيتها الكثيرة الطقوس والخرافات. لاسا — عرش الآلهة في لغة اهل الهند الاقدمين — لاسا ، المدينة المقدسة لبوذه والبوذيين — ما الصلة يا ترى بينها وبين هذه اللاسا اللبنانية، التي تحتوي على بضع عائلات مارونية شركاء السدة البطريركية، وما لا يربو عليهم من الشيعة .

كنت انا السائل هذه المرة، وكان سؤالي موجهاً الى محبوب لا الى محبوبة. وكنا نحن الثلاثة ماشين في هبوط الى لاسا، فوقفت البغلة، قبل ان يقف المكاري، عند بيت الى جنب الطريق، فقال محبوب :

— « وقفتُ هنا آخر مرة لاشتري فاصوليا، وهي لا تزال تعرف البيت. فهل بعد هذا تنكر انها بغلة فطنة ذكية ؟ »

— « ولِمَ لم تستمر في الطريق الاعلى الى افقا، وقد قلت لي انك سلكته مرات عديدة. »

— « لانها يا معلمي، فطنة ذكية. فهل ينصب الرجل العاقل مشنقته بيده ؟ لا، ولا البغلة العاقلة. ولا تنس، يا معلمي، اني مسؤول عنك. قلت لك ان صورة افقا احسن منها، وغداً تراها وتقول : صدق محبوب. »

– ما جاوبت على سؤالي الاول .

– « بخصوص لاسا ؟ والله يا معلمي اهلها اوادم . وصدقهم في البيع والشراء معروف . ولكنهم مثل العقبان الكاسرة ، عندما تضيق بهم الاحوال ، فيطلعون الى الجرود (الصرود) ويقطعون الطرق . »

– وهل تظن انهم اشجع من غيرهم ؟

– « اظن ان سلاحهم احسن »

– احسن من السلاح الحامله انت ، يا محبوب .

– « الله يخليك ، لا تكتر علي السؤالات . قلت لك ، يا معلمي ، اني مسؤول عنك . ومع ذلك اذا كنت تريد ان تذهب الى افقا . . . على رأسي وعيني . » ضرب البغلة بكفه على رقبتها فدارت كالدولاب ، فساقها صعداً وهو يصيح بها : « دِيه دِيه ! » ويسب دين افقا ودين الارز .

– لا تغضب ، يا محبوب ، لا تغضب . قريباً نصل الى المُغَيْرِه ، وعندما ترتاح تروق . دعني انا اسوق البغلة .

– « انا رايق ، والله رايق . ولكن سؤالاتك ، يا معلمي ، تعكر حتى نبع الحديد . »

– سؤالي هذه المرة ، يا محبوب ، هو بخصوص لاسا . . .

– « كل ما اعرفه عن لاسا هو اننا نحمل اليها فخار بيت شباب ونبيعه لاهلها باسعار زائدة ، ونشتري منهم الفاصوليا والحمص والعدس باسعار رخيصة . »

وكنا قد اجتزنا البلدة ذات الاسم المغولي ، ودخلنا قرية الغابات التي لا يخطأ اسمها ، فقد كان المكان للاشجار وفيه منها غابات قبل ان صار للانسان ، فبنى مكان الاشجار قرية على ضفة النهر الجنوبية . هو نهر ابرهيم ، قطعنا جسره الى الضفة الشمالية فوصلنا بعد ربع ساعة الى الساقية التي يجري فيها مياه العاقورا ، وتجتمع بعد الغابات بمياه النهر التاريخي . فقطعنا الجسر

الآخر الى المغيرة، القرية المقيم فيها من نحمل كتاباً اليه.

كانت المُغيرة قديماً تدعى بالاسم الفينيقي يانوح. وكان بيانوح في العهد الفينيقي هيكل لادونيس معاصر لهيكل افقا، فصار في العهد المسيحي ديراً، وصار الدير سدة للبطريركية المارونية، اقام ومات فيها ثمانية عشر بطريركاً ذكرهم الدويهي في المجمع اللبناني. ولا يزال في المُغيرة من الاثار الفينيقية بقايا قصر ونواميس، ومن آثار الرؤساء المارونيين ارزاق سنأكل الليلة من ريعها.

صعدنا الى بيت داود ملكون، الذي كان يومئذ خولياً للمطران يوسف دريان في ملك له بالمغيرة. وصاحب الملك والشريك امسيا في الجوار الواحد في غير هذه الفانية رحمها الله

اني لا ازال اذكر داود الطاهر المبتسم، الخفيف الظل، الذي كان يحسن النكتة كما يحسن قِرى الضيف، واذكر مع بسمته الطاهرة حديثه المفلفل. وقد تفلفل منه محبوب في تلك الليلة، وتغلغل الفلفل الى دمه، عندما كنا جالسين الى الطعام، على سجادة فُرشت فوق حصير على الارض، حول طبق من النحاس الابيض. وكان الحديث في قُطاع الطرق، فقال داود وهو يسكب العرق في قدح محبوب:

— « مساكين، الواحد منهم يخاف من خياله. ولكن اصواتهم عريضة وشواربهم طويلة مفتوله... سموهم « طيارين » لانهم اليوم هنا وغداً على النبع، وعند المغاره — مثل الطيور — بعيد الشبه. ولو علمتْ الحكومة ان سلاحهم مصدّي وبارودهم مثل التراب المندّى... ولكن الحكومة — ايضاً وايضاً — الحكومة تخاف من « الطيار » « والطيار » يخاف من خياله. »

— وهل الحكومة وحدها تخاف الطيارين — هذا محبوب...

استشاط محبوب غيظاً قبل ان نطقت باسمه، فرمى الكأس من يده

وهو يسب دين الطيارين ودين افقا.

وقد كان علي ان احفظ من وصايا قسيس الفريكة، في الاصول المرعية في ركوب الدواب، الوصية الاخيرة وهي: اكرم مكاريك. فلا اغيظ على الاقل محبوباً وان هو اغاظني.

بيد ان الكلمة التي فرطت مني زادت بعلمي، وفي كل علم شيء من الخير. فقد اكتشفت خلقاً اخر من اخلاق محبوب غير المحبوبة، فحملني ذلك على الكظم والتساهل اثناء الرحلة حباً بالسلامة، بل كنت اجامله، واتحاشى الامر المجرد فاقول: من فضلك، يا محبوب، هات الابريق، مثلاً، ومن فضلك فك الخرج. ومن فضلك افرش السجادة...

وقد أعجبَتْهُ هذه العبارة فاقتبسها، وراح منذ تلك الليلة يستعملها جزافاً، فقال وهو يخاطب داود ساعة كانت الخادمة تفرش لنا الفُرُشَ للنوم: «انا من فضلك انام على السطح.»

كان الشريك في تلك الايام ميسور الحال مناصفاً كان او مثالثاً او مرابعاً وموفور الكرامة، خصوصاً اذا كان خولياً لمطران، او شريكاً لملاك كبير ذي نفوذ سياسي. وقد كان داود شيخ ذلك الوادي، يعاونه في استثمار الملك معاونون، وتخدم احدى نسائهم في بيته.

وكان منزل ذلك الشريك، مثل منازل الشركاء والفلاحين جميعاً، ذا مسقّفٍ واحدٍ او بيتين مسقّفين يفتحان من احدى جهتيها على سطح لقبور تحتها، ويظلل السطح خيمة من الشيح. او من عرائش العنب. منزل مشرق تلعب الرياح فيه. مشرق الا في سقفه القاتم المخيف. وهو قائم على عمود واحد من حجر بجسرٍ وروافدٍ من خشب، يكسوها دخان الموقد بالسواد، وتختبىء فيها الحشرات والحيات، فيسقط منها في بعض الاحايين في طعامك وانت تأكل، او في فراشك وانت تنام.

ما كان شيء من هذا، والحمد لله، يوم اضافنا داود، فأكلنا دجاجه

الخمر وشربنا نبيذَهُ المعتق، وغنا آمنين منعمين في فرُشه النظيفة الوثيرة. لا ازال اذكر ما كان في ذلك البيت البسيط الحقير من اثر النظافة والاناقة في كل ما احتواه من فرش وماعون.

انها لضيافة جميلة في وداعتها، كبيرة في روحها. وما انتهت في صباح اليوم التالي عندما هممنا بالرحيل. حتى كان داود يجلّل حماره بينما كانت الخادمة تتبادل ومحبوباً آيات المجاملة والاعتذار. فقد اضافت الى ما تبقى من الزاد، زاداً جديداً، فصار خرجنا كالخرج المسحور للكردي المشهور في كتاب الف ليلة وليلة. فماذا تبتغي من الفواكه والخضر؟ وماذا تبتغي من المآكل؟ وماذا تبتغي من الشراب. الخمر، العرق، الكازوزا؟ حاضر، سيدي.

وركب داود في معيتنا الى نبع اللألو، مسافة ساعة ونصف ساعة. ووقفنا عند بيت شعر في الحي هناك كان داود، رحمه الله، يعرف صاحبته الحسناء. فسلم عليها سلام الاحباب فردت السلام بمثله وتمازحا بعد ذلك وتضاحكا. فاشار داود بعصاه الى القبة تحت صدرها، وهو يقول: «وابن من هذا؟» فاجابته الزينة ضاحكة: «الله اعلم»

ودعنا داود في اللألو، بعد ان دل محبوباً على الطريق. فمشينا شرقاً بشمال من اعلى مكان (١٨٠٠ متراً) ادركناه في ما تقدم من الرحلة، فمررنا فوق تنورين ثم صعدنا الى الجبل المكسو بالارز المعروف بارز الحدث او ارز «البطرك». ذلك لان هذه الغابات المزروعة بالارز والشربين هي مشاع لاهل الحدث، يشتركون في استغلالها حسب نظام وضعته البطريركية المارونية وتولت المحافظة عليه.

ومن هذه الغابة، التي تدنو في علوها من مستوى الارز الاشهر، نزلنا الى الحدث فانتهينا من الطرق الجبلية الوعرة الى طريق العربات، وهي تمتد من وسط الجبل على كتف وادي قاديشا من الحدث الى حصرون فبزعون فبشراي، في مستوى فوق سطح البحر يتراوح بين الثلاثمائة والاربعمائة

والالف من الامتار

وكان المكاري محبوب لا يزال عَكِر الخاطر متكرِّهاً من حديث الليلة البارحة وقد زاد طول مرحلتنا هذه الثالثة في سوء حاله، فصار يغتاظ من خياله اذا ما انعكس الى جنبه او امامه، فيسب دين كل شيء، لا لشيء سوى التعب والضجر.

وقد سب حتى بغلته محبوبة، وهي مصعِدة كالفرس الاصيل في جبل الحدث، ورماها بحجر اصاب ما وراء اذنها، فجمحت وشالت بذنبها، وكادت ترمي بفارسها الى الارض، لولم يكن قد اصبح حقاً من الفوارس.

وعندما ادركنا طريق العربات مشى الى البغلة، وحظر علي استعمال الرسن في استحثاثها. فسرنا سير الهون من الحدث الى بشراي، دون ان نقف للاستراحة. وقد كان محبوب يريد ان نقف في حصرون، او بزعون، او بشراي للغداء، فقلت جازماً: لا غداء ولا استراحة الا في الارز، فزاد ذلك في تعكّر مزاجه وتغيظه.

دِيهْ. دِيهْ!! كنا في الشوط الاخير بين بشراي والارز، نصعَد في جادة ضيقة، متعوجة، متهدمة، هائرة الحرف الخارجي، تدور دورةً لولبية، ونحن محشورون فيها بين حائط الجبل والخداره، بل بين سورٍ عالٍ يتجهم المسافرين، وهاوية سحيقة ترحب بهم. فضقت ذرعاً بهذا الطريق، وسئمت محبوبة ومشيتها وتخوفها وترددها. وكان قد حظر محبوب علي الرسن، اصوّت به على رقبتها، فحاولت ان استحثها بالقول المعروف وبالمجاملة: يابنت الحلال، يازينة البغال، ياعروس الدروب، ياقرة عين محبوب، يامباركة، يامحبوبة. انتهي كما بدأتِ. كوني حتى النهاية المثل الاعلى في النشاط وفي الفطنة والطاعة. لا تضيعي في هذه العقبة المقدسة ما احرزتِهِ من المجد في الرحلة كلها. ثم خاطبتها بلغة المكارين:

دِ يهْ ! دِ يهْ !!

فصاح محبوب بي: « بلا ديه ديه، يا معلمي، بلاها. البغلة لا تفهم بلسانك. اتركها لي. انا اكلمها. »

« دِ يهْ ! دين اصحابك، دِ يهْ !! »

وكانت محبوبة تخطو بضع خطوات مكسّرات، وتقف، ومحبوب صابر عليها، وهو يمشي ويقف معها، فمد يده الى الارض، عندما رآها في متسع من الجادة، وقذف بالحجر الاول فبعج وركها، وبالثاني فقوَّم اعوجاج رقبتها. ثم عدا وراءها، فادركها في منعطف الجادة، فمشى الى جنبها لاصقاً بها، فتلت انا الرسن — سرى الغيظ اليَّ — فدارت دورة حادَّة، فارتطم كفلها بصدر محبوب، فوقع الى الارض عند شفا الهاوية، وكاد يسقط فيها. تخيلته متدحرجاً كالصخر في ذلك المنحدر الهائل الى قعر الوادي، فارتعبت، وحزنت، واعتذرت.

— لا تؤاخذني، يا محبوب، لا تؤاخذني.

محبوب، وهو ينفض الغبار عن سراويله، ويصلح الكوفية على رأسه: « امشِ، يا معلمي، امشِ. اذا وقفنا في كل طلعة نؤآخذ بعضنا لا نصل اليوم. »

ولكننا، والحمدلله، اطللنا بعد قليل على الارز. وفي الساعة الثانية زوالية من اليوم العاشر، من شهر آب، من السنة السابعة والتسعماية والالف مسيحية، دخلنا الجوار المقدس سالمين جميعاً.

الارز

وصلنا اليك، يا ارز لبناني، سالمين.

ولكن الامل تدهور من علياه، والخيال طاح من سماه، والقلب نُكِب في ايمانه وهواه، عندما أطللتُ على مجدكَ المكوَّم تحت جفن الجبل.

مجد الارز — كنت اتخيله منتشراً فوق الرواسي، مخيِّماً على البطاح والربى، مرتفعاً كقوس قُزَحٍ فوق الاودية والسهول، حاملاً في عبيره شذا الازاهير وطيب الرياحين، جامعاً في ظلاله كل انواع الاخضرار، باسطاً من جلاله على وجه المياه، وبين صخور السواقي، وعند ملتقى الوهاد والشعاب— كنت اتخيل الارز في هذا المجد الرفيع العميم، فرأيته متروياً مقعنساً في حنيَّة من طرف فم الميزاب.

كنت اتخيل الجبل في ظل الارز، فالفيت الارز في ظل الجبل.

كنت اتخيل الزمان مجسماً في غابات الارز، فرأيت الارز مصغراً في كف الزمان.

كنت اتخيل اخضراراً يرتد البصر عن آفاقه حاسراً، وتتكسر اجنحة النسور في التحليق الى موطن بذوره وجذوره، فرأيت بقعة سوداء، في حنية دكناء، ونسراً يبسط فوقها جناح الكبرياء.

كنت اتخيل مجداً يملأ الجبال بطولها وعرضها وعلوها وانحدارها، ويرسل من علياه نفحات للمروج تزيد بعبيرها، وطيباً للسهول تنشره على مرجها وغديرها.

كنت اتخيل مجداً يقف نور الشمس في بابه، وضياء القمر في محرابه، فيرسلها الفاظاً قدسية، ترددها الاجيال والازمان.

كنت اتخيل امجاداً سندسية، على عروش ذهبية، في رحاب الهية.

كنت اتخيل كل هذا، قبل ان وقفت عند الباب، وبي دهش، وبي غمٌ. وبي حيرة محرقة.

فهل الارز صفحة من التاريخ ؟

وهل الارز قصيدة من قصائد الشعراء، او نشيد من انشاد الانبياء ؟

وهل الارز سطور في كتاب مقدس ؟

وهل الارز بخور في مبخرة الزمان ؟

وهل الارز مدَّة من قلم، ورسم على علَم ؟

قيل ان كل كبير في الطبيعة وفي الفنون هو صغير لمن في قربه. فيجب ان نبعد عنه قليلاً ليتجلى لنا ما فيه من سمو وجمال، ولندرك ما هو عليه من حقيقة العز والعظمة.

هذا القول يصح في بعض الاشياء، ولا يصح في غيرها. يصح مثلاً في الجبال العالية: فانك لا تدرك حقيقة العلو فيها وانت واقف في سفحها. ولا يصح في الصروح والمعابد والآثار والاشجار الكبرى.

فاذا وقفت في سفح جبل الارز تظن انك تستطيع ان تصعد في نحو ساعة الى اعلى قنة فيه. واذا نظرت في السماء الى القمر يطلع من وراء ضهر القضيب تظن ان في امكانك، لو كنت ذا جناح، ان تثب وثبة واحدة من احد اغصان الارز اليه. هي خدعة بصيرٍ، تريك المسافات مطوية.

وقد يصح ان نقول ان القرب يطوي المسافة العمودية، والبعد ينشرها اللهم البعد المحدود. فقد يأخذ الحقيقة شيء من الوهم عندما يتجاوز حداً ما، فيبدو الجبل العالي في نظرنا اعلى مما هو في افقه. ومما لا ريب ولا وهم فيه هو ان شيئاً من البعد واجب لادراك حقيقة العلو والجمال في الجبال.

اما في الصروح والمعابد الكبرى. وفي الآثار والاشجار العظيمة، فالحقيقة هي عكس ما اسلفت بيانه. فانك لا ترى المدهش العجيب في البنايات العالية، كناطحات السحاب بنويورك مثلاً، الا اذا دنوت منها.

ولا تشعر بهول العلو في العمد الستة في آثار بعلبك الا اذا وقفت في ظلها، او تحت افريزها.

ولا يتجلى لك الفن بكل جماله، والقداسة بكل جلالها، في معبد كبير مشهور، مثل كنيسة نوتردام في باريس او قبة الصخرة في القدس، الا اذا تجاوزت الظل، ودخلت الباب، ووقفت تحت القبة الى جنب عضادة شاهقة.

دخلت الغابة التاريخية القدسية، وانا اتلمس في سكينتها الرهيبة موطناً للقلب الهائم، ومحراباً للروح الخاشعة.

دخلت الهيكل مؤمناً مستأمناً، ومشيت في الاروقة المفروشة بالطنافس السوداء المصنوعة من ورق الارز وترابه، ووقفت تحت القبة الخضراء، الى جنب عضادة من العضادات الكبرى، وانا افكر بما دهمني ساعة الاستطلال، وما غمرني ساعة التجلي.

سكينة يحتضنها الجبل، ويعطر جوانبها الارز. سكينة تتهادى تحت الاغصان، فتجر الاذيال على ما تناثر منها، فتحدث صوتاً ولا صوت النسيم في السحر. صوتاً هو الهمس السهل الممتنع. الذي تجثو له اساليب البلاغة والبيان.

وقفت في ذلك الهيكل، تحت القبة الخضراء، بين العمد الساحقة، اعفر في تراب السكينة وجه الشك، وامسح بعطرها عين الشوق، وارهف همسها اذن الحب والغفران.

ثم سمعت للبلاغة اصواتاً قديمة، وللبيان لهجات غريبة، وللتمجيد همسات ونبرات، كانت تتساقط كورق الارز في احضان السكينة، او كقطر

نيسان على ورق التوت .

اصواتاً ناعمة عريضة، واصواتاً رفيعة حادة، واصواتاً كصدى اجراس المساء في الجبال، واصواتاً كهديل الحمام في سكينة الفجر، واصواتاً كهمس الاشجار على ضفاف الانهار، واصواتاً كطنين الذباب في الهجيرة، واصواتاً كدوي الامواج بين الصخور .

سمعت الفينيقي يصف محاسن خشب الارز في مصر ليسمع فرعون . خشب صلب صقيل، جميل اللون والعروق، جميل الرائحة، زينة الهياكل والقصور . الزمان لا يقوى عليه، ولا السوس يدنو منه . . . خشب عجيب، يابس كالجلمود، ملس كالزجاج، جميل كالورد . . .

وسمعت كلمات الفينيقي تردد في بلاط ملوك نينوة وآشور ، وفي بلاط ملوك فارس .

وسمعت اصوات الفؤوس والمناجل في الغابات ، واصوات المطارق والمناشير في مصانع طرابلس وجبيل .

وسمعت آشور بنبال يفاخر بجزيته من شجر الارز، وسنحاريب يتبجح انه زار الارز في شماريخ الجبال .

وسمعت بعد اصوات الفاتحين والناهبين، اصوات الجد والشعر والقداسة .

صاحب المزامير يهتف باسم اشجار الرب ارز لبنان

وصاحب نشيد الانشاد يتغنى بتخته المصنوع من شجر الارز، وبرائحة عروسه الشبيهة برائحة لبنان .

وسمعت اشعيا يمجد ارز لبنان العالي المرتفع، وعاموس يشبه الاموري الجبار بالارز .

وسمعت صوت يوشع يقول ان حسن الارز لفخر لبنان، المكللة قننه بغابات منه غبياء . وصوت حزقيال كدوي الامواج بين الصخور .

ارزة لبنان، بهيجة الافنان، وارفة الظل، شامخة القوام .

ارزة لبنان عظمتها المياه، ورفعها الغمر الى اعالي الجبال.

ارزة لبنان وقد عشش في اغصانها كل طيور السماء، وولد تحت فروعها كل حيوان البر وسكن في ظلالها كل الامم العظيمة.

بهيجة في سموقها، بهيجة في امتداد افنانها، بهيجة في تكوينها.

فحسدتها كل اشجار عدن التي هي في جنة الله.

وسمعت مؤرخ اليونان يؤيد شاعر اسرائيل ونبيه، وسمعت شعراء الفرنجة يرددون اصداء اصوات الانبياء والمؤرخين.

وكانت الغابة، وانا استمع اصوات الشعر والتاريخ، تتشبح امامي، وتمحي شيئاً فشيئاً. ثم شاهدت على رأس الجبل غابة كبرى، تمتد شرقاً بغرب وشمالاً بجنوب، يتلوها غابات غبياء.

وسمعت في تلك الغابات اصوات الفؤوس والمناجل، واصوات القطّاعين والحطابين.

ورأيت خشب تلك الغابات في مصر، يُصفّح بالواحه جدران قصور الفراعنة وهياكلهم، وتُذَرُّ نشارته على جثث الملوك المحنطة، وتضمخ بطيبه توابيت الموميات.

ورأيت خشب تلك الغابات في هياكل آشور، وفي قصور ملوك فارس.

وفي بلاط داود

وفي هيكل سليمان

وفي هياكل آلهة الرومان بإفسسْ وانطاكية

ورأيت خشب تلك الغابات في البحار فوق امواجها الصاخبة.

السفن التجارية، سفن الفينيقيين، التي اقتحمت اهوال اليمِّ عند اقدام هِرَقل، والتي شاهدتَ الامواج تفتتُ الصخور الكلسية على شواطيء الجزر البريطانية.

سفن الفينيقيين التي حملت الاصباغ والزجاج والمنسوجات من هذه

الشواطىء الشرقية القديمة الى شواطىء الغرب والشمال ، شواطىء الفرنجة .

سفن الفينيقيين التي عبرت بحر الظلمات الى العالم الحديث وطوت الشراع على شواطىء افريقية الغربية عند خط الاستواء .

سمعت اصوات الفؤوس والمناجل في الغابات .

وسمعت اصوات المطارق والمناشير في مصانع جبيل .

ورأيت خشب الارز في السفن الحربية التي غزا بها الفرس بلاد الاغريق .

سماع لاصوات الهدم في الغابات اللبنانية ، ولاصوات البناء في المصانع الفينيقية .

ان الاسكندر في سوق الخشب يبتغي من الارز اجوده لبناء الجسور امام صور فيصل الجزيرة بالمدينة . خشباً من ارزكم لِأُؤدِّب صور .

سماع لاصوات الفؤوس تردد صداها الاودية ، ولاصوات المطارق تحمل صداها الامواج من جبيل الى طرابلس ومن طرابلس الى ارواد .

لقد جاءنا طلب من الملك انطيغون . انطيغون الملك يأمر ببناء خمسمائة سفينة حربية . ليغزو بها المدينة التي تمردت على الاسكندر ، ليكتسح بها صور عروس فينيقية .

واصحاب الغابات فينيقيون ، وتجار الخشب فينيقيون ، وصانعو السفن فينيقيون ! ؟

اي نعم ، يا بني . وما خلا ذلك الزمان من الوطنيين . فقد كان هناك من تهامسوا في من آثروا مصلحتهم على مصلحة الوطن . وقد كان هناك صوت عالٍ للتذمر ، وصوت آخر للاحتجاج .

ولكنها التجارة ، يا بني ، التجارة على الدوام ، في كل زمان ومكان .

هذا خشب الارز في اسطول انطيغون الملك .

وهذا ، بعد الف سنة، خشب الارز في اساطيل الخليفة الاموي الاول معاوية بن ابي سفيان. وتلك الاساطيل صنع الفينيقيين. . .

كلنا للوطن، كلنا للعلم.

عفاش ورفاش

ما كان في الارز من بناء في تلك الايام غير كنيسة صغيرة ودكان. وما كان من مأوى للسياح غير بضع خيمات عتيقة مرقعة، منصوبة داخل السور. فاستأجرت خيمة منها وقلت لمحبوب: الضيافة ثلاثة ايام. انت الان ضيفي، وانا ضيف الرب.

— « انت، يامعلمي، تغلبني في كل شي. ما عدا — لا تؤاخذني — انا رحت اليوم الى الكنيسة وسمعت قداس الخوري. وانت، يامعلمي، زارك الخوري وعزمك وما رحت. فمن منا يكون ضيف الرب ؟ »

— وبهذه غلبتني، يا محبوب. اسمع القداس غداً عنك وعني. وسلم على الخوري.

« وهو قال لي. سلم على معلمك. آدمي. هذا الخوري، وكريم. عزمني للفطور معه والح علي. ففطرنا ومشينا بعد ذلك في هذه الغابة العجيبة، وما اكثر عجائبها: دلني الخوري على الارزة التي كان يسكن في جذعها الناسك. والارزة التي فيها جرن ماء، والجرن ملآن — بركته لا تنقطع — الجرن في جسم الشجرة والماء في الجرن، من اين يجي ؟ هي عجيبة من عجائب الرب الكثيرة، اخبرني الخوري عنها كلها. »

— من آمن بالحجر يبرأ. اما قالها السيد المسيح ؟

— « بلى. وانا من الذين آمنوا. ما خبرتك عن الجرح في رجلي. وما الفائدة ؟ كنت اتعب، اهلك، في الطريق. وكنت اعض على جرحي وامشي، وانت « تخيل » البغلة، ولا تدري، ولا تكترث »

واتهمته فوق ذلك بالكسل ! انه حقاً لامر عجيب. وعندما نزع

محبوب حذاءه ليريني الجرح– جرحاً بليغاً في رجله اليمنى تحت الكاحل بحجم حبة الفول ولكنه مقيح وملتهب، عراني من الدهش والخجل والحزن شيء شديد .

– « كان اكبر مما ترى . ولكني مسحته بالماء من جرن الارزة . وهو الان احسن . سبحان الله . »

فقلت له آنئذ لا بأس اذا فقأناه ودهناه كذلك بصبغة اليود، واخرجت الموسى والزجاجة من حقيبتي، فقال : « لا، يا معلمي، دوا الرب يكفي . »

رأيته غير مرة يزور الشجرة ذات الجرن، وبعد ان يمسح جرحه بمائها يمسح وجهه كذلك . كأنه خارج من الكنيسة .

وكان محبوب في تلك الايام من السعداء في الناس ، راضياً مرضياً، لا عمل له غير الاكل والحديث وزيارة الاشجار المباركة – والنوم . وكان النوم احب اليه بعد زيارته للشجرة ذات الجرن، من كل شيء آخر .

ولكنه ابى ان ينام في الخيمة معي . ففرش فراشه تحت خيمة الرب، كما كان يقول، وعلى سجادة الارز الناعمة .

– « انا، يا معلمي، انام على فراش وسجادة، وانت تنام على فراش وثلاثة الواح . ولكني بقربك لا تخف . »

– وهل يخاف من يقيم في ارز الرب، يا محبوب ؟

– « الخوف، يامعلمي، ما له قاعدة . ابو مخايل جاري يمسك الثور الهائج بقرونه، ويسحب الحية من جحرها . ولكن عندما امرأته تنادي : يابو مخايل! يركض اليها مثل المذعور وعندما توبخه وتسب اجداده لتقصير منه او اهمال، يرجف امامها مثل القصبة . الخوف ما له قاعدة . »

– وهل يصح كلامك في كل الناس – وهل يصح فيك ؟

رمى السيكارة من يده بشيء من الغيظ وقال : « انا لا اخاف غير الله . ولكن عندما اكون مع ذات مثالك، وتكون امه واخوه وعمته وخالته

والقسيس والمختار وصوني فيه اخاف من اجله — من اجلك يا معلمي — اخاف وان من خيالي. لا تتعجب. اذا تخلى الله عن انسان فلا خلاف بين خياله وخيال الموت. ارحمنا يارب ساعة التخلي . »

اشعل سيكارة وهو يردد « ارحمنا يارب ساعة التخلي » ثم قال: « ولا تظنني ذكرت الخيال لاضحكك او لاجاريك في الحديث ، في هذه الطلعة الاخيرة ، طلعة الارز خفت والله من خيالي. في هذه الطلعة المشؤمة كان التعب هالك البغلة وكانت البغلة متخوفة من الطريق مثلك ومثلي، ومتكرهة من حياتها. فلما رأت خيالي امامها جفلت و « عنطزت[1] » ولو لم اسرع اليها واسكن روعها كانت تهورت وتهورت انت معها . كله من خيالي، من خيال صاحبها . فهل تلومني اذا قلت اني اخاف خيالي من اجلك . . . »

كفانا من هذا الحديث. « علمني من فضلك نصف ما تعلمته انت من الكتب بخصوص الارز. كم عمر الارزة من الارزات الكبيرة القريبة من الكنيسة »

— يقول احد العلماء، ان اكبر شجرة من تلك الشجرات عمرها ثلاثة آلاف سنة، اي انها كانت غرسة صغيرة يوم كان سليمان الحكيم جالساً على عرشه في اورشليم.

— « وكيف توصل العلماء الى هذا العلم ؟ »

الاشجار عقد تنبىء بعمرها. الا تعرف انت عمر الصنوبرة من عقدها ؟

—وما دامت ترتفع ، وتظهر العقد، العلمُ سهل. ولكن عندما تقف في ارتفاعها، وينحصر نموها في جسمها في تخنها يصعب معرفة عمرها .

— ليس على العلماء . فان في جذع الشجرة ما ينبئ كذلك بعمرها فاذا نشرتها ترى في جذعها دوائر، الدائرة تلو الاخرى، من قطبها الى قشرها

(١) فرقعت : عدت شديدا ومالت بمنفها

وهذه الدوائر مثل العقد في الخارج تساعد في معرفة عمرها. هل قست الارزة التي قرب الكنيسة ؟

— « قستها، بالحبل. وهذا هو. »

مدَّ الحبل فقسناه من رأسه الى المكان المعقود فاذا هو ثلاثة وعشرون ذراعاً. اي ان قطر جذع تلك الارزة هو نحو اربعة عشر متراً.

— « واذا تحققنا عمر الكبيرة، افلا يمكننا ان نعرف بالنسبة عمر غيرها ؟ هذه الارزة العالية مثلاً. كبرها في علوها. »

« ويمكننا انت وانا ان نطوقها باذرعنا. فما هو عمرها. »

— علوها بالتقريب عشرون متراً. ولا اظن ان عمرها يزيد على ثلاثمائة سنة بل عند العلماء من اخبار التاريخ ما يثبت ذلك. فان في هذه الغابة اليوم نحو اربعمائة شجرة كبيرة ووسط وصغيرة، وما كان فيها منذ ثلاثمائة سنة، بشهادة من ساحوا في هذه البلاد من علماء الفرنجة، اكثر من خمس وعشرين شجرة. وتلك الغابة الصغيرة بعد مائة سنة، اي في القرن الثامن عشر، نقصت عشر شجرات اي لم يكن هاهنا غير خمس عشرة شجرة، وهي هذه الكبيرة الضخمة التي نراها اليوم. ثم اخذت الغابة تتجدد فاصبحت شجراتها في القرن الماضي ثلاثماية وخمسة وسبعين شجرة بشهادة عالم الماني زارها في اوائل القرن التاسع عشر وعدها. وبعد ذلك زارها عالم سويسري فأيد فيما كتب قول من تقدمه.

— « اذا كان عددها ٣٧٥ منذ مائة سنة، وهو اليوم ٤٠٠ فما زادت غير خمس وعشرين شجرة. وهذا قليل. »

— ولولا عناية بطاركة الموارنة، كما يقول الدويهي وغيره من العلماء المحققين المدققين، لما زادت قطعاً. بل كانت نقصت واوشكت ان تضمحل. ولكن اولئك البطاركة رحمهم الله كانوا يهددون بالحرم كل من قطع منها شيئاً.

– « هم البطاركة – الله يحرس دينهم ! »

– ولكن حرم البطريرك، يا محبوب، لا يؤثر بالرعد والبرق والامطار والرياح. لا يؤثر بالزوابع والزلازل والاعاصير. وقد كان الرب نفسه يغضب في بعض الاوقات على الموارنة كما هو غاضب اليوم، فيرسل الرياح والاعاصير والزلازل على ارزهم تذكيراً وتأديباً. وقد ذكر النبي داود ذلك مرة في مزاميره، فقال (المزمور ٢٩) «صوت الرب مكسر الارز، ويكسر الرب ارز لبنان. »

– « علمك بحر يا معلمي، بحر. ولكن ما كل العلوم تلذ الناس. انا لا تؤاخذني – افضل ان اجلس او اتمدد تحت هذه الشجرات العالية واتأمل الشيء الذي لا اظنك انتبهت اليه – عشق الارزات بعضها لبعض. انا دائماً اقول لأم حنا: بين الاشجار، مثل ما بين النساء والرجال، عشق وغرام. انظر الى ذلك الغصن الممدد من هذه الشجرة الى جارتها، اللاصق بغصن من اغصانها. وقد ولد من عناق الغصنين غصن ثالث، هو الابن – الاب والام والابن، هذه عائلة مقدسة. وانظر الى تلك الشجرة أم الجذعين. انا اقول، على قصر باعي في العلوم، كما تقول انت، يا معلمي، انا اقول ان الواحد من الغصنين ذكر والثاني انثى. ورب الارز كلل العريس والعروس، وظل الواحد يلزّ الى الاخر حتى لصق الصدر بالصدر، ودام العشق والغرام، وصار للزوجين اولاد – هذه الاغصان الكبيرة العالية. وستعيش هذه العائلة المباركة كما عاشت الارزة القريبة من الكنيسة، ستعيش ثلاثة آلاف سنة واكثر، ان شاء الله. »

– اللهم زد وبارك.

– « واكتب، يا معلمي، في كتابك، الذي سيقرأه الناس بعد ثلاثة آلاف سنة ان شاء الله، كما تقرأ انت اليوم مزامير داود » (شككت في حسن نية محبوب في هذا الدعاء. ولكني قبلته متواضعاً) « اكتب في

كتابك، يا معلمي، اني انا ابو حنا محبوب بن جرجس بن انطون الملّاح رافقتك الى الارز وقلت ان بين الاشجار من العشق والغرام اكثر مما بين البشر. وان احسن ما في هذه الغابة، بعد الارزة التي فيها جرن الماء المقدس، الارزات المتلازّة المتزوجة، العاشق بعضها لبعض . »

من حق الزائر للارز في تلك الايام ان يدعى حاجاً، لا لقداسة المكان فقط، بل لمسلكه الوعر ايضاً، وخصوصاً القسم الاخير منه. ولا عجب اذا كان الزوار الحجاج في تلك الايام قليلين. ما رأينا مُدَّة اقامتنا هناك غير الخوري وصاحب الدكان، وبعض الرعاة والحطابين في الجوار المقدس، وحاجيّن لا غير، لا من السياح الاجانب، بل من اهل البلاد.

وكنت ارى محبوباً يحدث كل راع او حطاب يراه ليزيد بعلمه واطمئنانه فيما يتعلق بالطريق الذي قررناه – بالاجماع – صوناً لانفسنا وللبغلة. فلا نعود في ذلك الجبل الذي يفصل – كان يفصل – بشراي عن الارز . فنتدهور كلنا ونهلك في مهاويه.

ومع انه لم يكن يعرف طريق الصرد الاعلى الذي عزمنا على العودة فيه، ومع ان ذاك الطريق يستوجب التصعيد الى قمة جبل الارز، الى ضهر القضيب، فما بدا منه شيء من الاعتراض او التردد .

وقد سألته عن جرحه ونحن نتأهب للعودة صباح اليوم الرابع ، فقال لي انه احسن: ولكني رأيته يزور ارزته المعبودة، قبل ان يرفع المخلاة من رقبة محبوبة ويربطها وراء الخرج ايذاناً بالرحيل. رأيته يزور تلك الارزة، ويدهن رجله بماء من جذعها، ويدهن كذلك جبينه، وهو يرسم على وجهه شارة الصليب .

ثم جاء الخوري يودعنا وهو يحمل غصناً من الارز قدمه لي قائلاً : « بركة الارز ترافقكم دائماً . » وقد كان لعمله هذا وقع جميل في نفسي دام ذكره طويلاً. واني اذكره اليوم، بعد ثلاثين سنة، بمثل ما تقبلته

يومئذٍ من الامتنان والاعجاب. هوذا الراعي الصالح الذي يعدو وراء الشارد من الخراف ليرده الى الحظيرة. انما السيد المسيح قال لتلاميذه: اذهبوا الى الخراف الضالة. وقد قال اكثر من ذلك كما رواه متى في انجيله (١٨ : ١٢)

ودعت ذلك الخوري المحترم وتوكلت على الله. وودعه محبوب مكملاً ما ظنه نقصاً في دعائي: «وعلى سيدة الارز.»

كانت الشمس ترسل طلائع نورها، فتلمع وتتلألأُ على حافة ضهر القضيب، ساعة شرّقنا وشرعنا نصعَد في الجبل.

ان ارتفاع الصرود اللبنانية يتراوح بين الف وخمسمائة وبين الفي متر، وفيها طرق مسلوكة لا يشينها غير العقبات من السهول اليها. اما الطرق نفسها فانها على الاجمال في مستوى واحد، او في انحدارٍ او صعودٍ سهلٍ منبسط، وهي تمتاز بحسنات الجو العالي لمن لا يشكون ضيقاً في التنفس او نقصاً او زيادة في ضغط الدم.

والارز (١٩٢٥ متراً) يُعَدُّ في الصرود، ومن الارز الى ما فوقه يُعَدّ في السماء. ولا غرو، فما كانت الطيارة قد أذلَّت الاجواء العالية، كما تفعل اليوم، فنحسبها من غبار الارض. كان العلاء علاء بكل ما في معانيه من روعةٍ ومجدٍ واعتزاز.

الى ما فوق الصرود اذن، الى قنن الرواسي، الى شماريخ الجبال! واظنني تبجحت يومئذٍ مثل سنحاريب ملك آشور عندما عاد الى نينوه من الغزوة السورية يقول: وقد زرنا الارز في شماريخ لبنان!

كانت الساعة الاولى من التصعيد ساعة ميمونة كريمة حملت اللذة والنشاط لصاحب الرحلة، ولصاحب البغلة، وللبغلة نفسها. فقد كانت محبوبة «تأخذ الطلمات» — لغة المكارين — كانها شربة ماء او حفنة شعير. وكانت على خفتها وسرعتها متمكنة الخطى، فيُرَدّدُ صدى وقعها بين

الصخور، ويتطاير من تحت سنابكها الشرر والحصى . وما كان من حاجة الى استحثاثها بالرسن او بغيره ، ولا الى تشجيعها بـ « ديه » مني او من محبوب

الى العلياء، الى الاعالي ! وكانت محبوبة تقف هنيهة في حَنِيَّةٍ من حنايا الطريق وتتلفت لتسرح نظرها فيما كان يتسع من الافق الغربي وراءها . أفق يبعد فيدنو لونه من لون السماء، ونحن نمعن في التصعيد . وهناك غابة الارز، فهي تصغر شيئاً فشيئاً، وقد غدت في نهاية امرها وامرنا منها مثل كومة شيحٍ في ظل الجبل .

الى العلياء ! الى الاعالي ! وما ابهج التصعيد، وما اطيب الهواء، وما انعم اشعة الشمس الشارقة في وجوهنا ، وما اكرم الجبل بها، وان ضاق طريقاً بنا، وما آنس العزلة التي تدنينا من القنن، من الشماريخ، ومما فوقها من سماء ضاحكةٍ مرحبةٍ موالية .

لا يعرف السائح كل لذات الجبل، وكل جماله، وكل معانيه، وكل مصادر الصحة والوحي فيه، الا بعد ان يقف ولو مرة واحدة على سطحه .

اننا لا نزال في العقبة الى السطح، الى ضهر القضيب . وقد بدا التعب بعد الساعة الاولى من التصعيد، في خطى محبوبة، وفي وقفاتها عند حنايا الطريق .

وفي خطى محبوب كذلك . فها هو يقف ويستوقفنا . وها هو يخلع حذاءه، ويخرج المنديل الاحمر من جيبه ، فيقطع بالسكين قطعة منه، يضمد بها جرحه، ثم يثني مؤخر الحذاء الى الداخل (يكحفه) ويلبسه ويمشي .

وعندما سألته عن الجرح قال : « احسن، يا معلمي احسن . » ولكني احسست بما وراء « الاحسن » من تجلد وكظم وشجاعة . وخفت ان يكون قد ازداد التهاب الجرح، فعرضت عليه الاسعاف، فشدَّ عصاه وراء

كتفيه، كتف يديه عليها، وهزّ برأسه. فاستأنفنا التصعيد انما بالرفق وسمعته يقول: «هذه طريق بعلبك لا يقطعها غير المفادي بروحه.»

وكنا قد دنونا من القنة التي تشرف شرقاً على بعلبك ومن الصخرة العجيبة في وضعها عند تلك القنة. هناك تنتقل في دقيقة واحدة من المغرب الى المشرق هناك وانت تصعد حول تلك الصخرة تدنو من الخط الفاصل، فتقف على ضلع الطريق بين الافقين. وهناك الاعجوبة. فان خطوة واحدة شرقاً تنقلك من الآفاق البحرية الى الآفاق البرية، ومن وادي قاديشا الى سهول بعلبك، ومن هيكل الارز الى هيكل الشمس:

وقبل ان تخطو الخطوة الاخيرة فتولي وجهك شطر المشرق، قف قليلاً هناك على حرف الافق الغربي ترَ مشهداً منقطع النظير في جبال العالم. وما الاودية والشعاب ينقطع بعضها عن بعض ثم يتصل، وما الانهر والسواقي يفترق بعضها عن بعض ثم يلتقي، وما الحقول المزروعة والمحصودة المتعددة الالوان، وما البطاح والآكام يتدرج بعضها الى بعض فتتموج وتلمع في اخضرارها واصفرارها وما الوهاد السحيقة والصخور الصماء تحنو عليها، ما هذه بكل محاسن ذلك المشهد الجليل الغريب. فان هناك دونه، على بعدٍ محسوس مستحب، ازرقاق البحر، وهو يتشحُ ليدنو من ازرقاق السماء. وهناك في الناحية الشمالية من الافق البحري تبدو لك، حين يكون الجو صافياً شفافاً، بقعة قاتمة صغيرة هي جزيرة ارواد.

وقفة عند تلك الصخرة، ثم خطوة حولها، فيختفي المشهد الغربي باجمعه، وينكشف امامك المشهد الشرقي بسهوله وقراه، ومروجه ورباه، والوان ارضه وسمائه.

بعد قليل من هذا المشهد الفسيح نجنح جنوباً الى طريق الجرد الاعلى. ذلك الطريق الممتد بين حافتي قمة الجبل، بين شماريخه، فيختفي عن النظر، شيئاً فشيئاً، الافقان الغربي والشرقي.

وهذا الطريق، الذي يبدأ عند ضهر القضيب (٣٠٦٧ متراً) بانحدار لا يدرك بالحس ولا يُرى، وينتهي في العاقورة (١٤٥٠ متراً) هو نحو خمسة عشر كيلومتراً.

ومن صفاته ان في جدرانه الى الغرب والى الشرق، التي تعلو كلما امعنا جنوباً، فرجات هي كالشبابيك، ترينا طوراً الافق الغربي، وتارة الشرقي، فتلمح منها البحر حيناً، وحيناً السهول.

وفي منتصف الطريق بين ضهر القضيب والعاقورة، فوق تنورين، عين روما، المعروفة عند الرعاة والحطابين ببركتها المشهورة باعجوبتها في هذه النواحي الشمالية.

وقد حدثنا خوري الارز بها، واشاد بمحاسنها، وخصوصاً بالاعجوبة. «اشربوا من ملئها البارد، واذا كان هناك احد الرعاة تشاهدون الاعجوبة.»

وكانت آمال محبوب بهذه العين تدنو من اعانته بالارزة ذات الجرن. فصبر على جرحه، ولكنه غُلِبَ قبل ان يصل الى محجته. فقد كنا في الساعة السادسة من السير، وكان قد ظهر العرج في مشية محبوب.

وقف ووقفتْ محبوبة، فترجلت لاتفقد الجرح، فاذا به قد انفقأ وسالت المادة منه. فبادرت الى الخرج وعدت بزجاجة من الماء المطهر وبلفة من القطن. فغسل هو الجرح، بعد ان الححت عليه، ثم طلب الموسى، فترددت فكرر الطلب فرفضت، الا ان اكون الجراح. فنسل اذ ذاك سلسلة في وسطه معلقاً بطرفها سكين جزينية كبيرة وباشر العملية الجراحية. كشط اللحم المقيح المهتري بضربات عنيفة شقت اللحم السليم فسال منه الدم. فعل ذلك والعين منه جامدة، والوجه هادئ. كأنه يقشر خيارة او ليمونة. وبعد ذلك قبل أن يدهنه بصبغة اليود.

كنا لا نزال على نصف ساعة من العين ومن وقت الغداء. فقدمت له البغلة ليركب فابى الا ان يمشي. فقلت: اذن اردفك. فابى. فركبت،

واستأنفنا السير .

« لسنا بعيدين عن العين وقد سبقتنا المعزى اليها . »

قال هذا وهو يشير الى الابعار الطرية في الطريق . ولقد كان الدليل صادقاً . فهاك القطيع ، وهاك المعاز مستنداً على بندقيته ، وهاك في ظل البندقية العين .

— عين روما ، اشربوا من مائها وشاهدوا الاعجوبة .

وما الاعجوبة ؟ سألت المعاز ، فقال : « تفضل » وتقدمني فنزل بضع درجات ، ووقف على الاخيرة عند حوض صغير ، لا يتجاوز المتر ونصف المتر طولاً والثلاثة الارباع من المتر عرضاً ، وهو ملآن ، وليس في جوانبه اثر ظاهر لمجرى المياه . الا تحت الدرجة الاخيرة ، فان بين اسفلها وبين المياه طبقة هواء — فراغاً — علوه نحو خمس اصابع .

قال المعاز : « هذه العين لا تزيد ولا تنقص ، لا في الصيف ولا في الشتاء . تسقي مائة رأس ، الف رأس ، من المعزى ولا تنقص . »

كذلك قال الخوري . بل هذا هو الشائع في تلك النواحي عن عين روما .

المعاز : « تريد البرهان : ابق مكانك لاسقي عنزاتي » وشرع يخرج من الحوض السطل تلو السطل ليملأ للقطيع جرناً الى جنب العين وهو يقول : « عين مباركة . مثل قدرة الرب لا تتغير . »

وانها حقاً لا تتغير . فقد ملأ المعاز الجرن وما ظهر في العين نقصان . اما السبب فقد لا يسر ذكره المؤمنين . ان نقل الماء بالسطل من الحوض تحت الدرجات الى الجرن فوقها هو عمل بطيء ، فلا يكاد يظهر الفرق الطفيف في مستوى الماء حتى يختفي . وليس للمستقي ان يراه . فلو كان لنا ان نستخرج الماء الذي في الحوض بطريقة سريعة ، بمضخة مثلاً ، لظهر السبب ، وزال العجب .

ومما لا شك فيه هو ان للحوض مجرى مياه قلما يتغير لقربه من مخازن الثلج الدائم في هذه الاعالي، وله منفذ تحت الدرجة الاخيرة تجري منه المياه التي تفيض فيه. وهذا المنفذ وذلك المجرى محجوبان عن الانظار .

فلا عجب اذا قال المعاز والحطاب، وصدقهما اهل القرية انها لاعجوبة.

اذن. لا بد ان يكون للرب يد في امتلاء الحوض على الدوام، ولا بد ان تكون تلك اليد الربانية البيضاء متصلة بسبب من الاسباب الحقيقة. مثل مجرى العين ومنفذها. بتقوى ابناء هذه الجبال وايمانهم .

فالاعجوبة هي في ايمان الناس اكثر مما هي في عين روما او في الارزة ذات الثقب المتحجر في جذعها.

واذا قصرت الامطار في املاء الجرن فليس اسهل على الرجل الصالح المؤمن من ان يعاونها، لتتم الاعجوبة، ولتكمل مشيئة الرب.

بقي ان اقول لا دخل لروما او للرومانيين في اسم العين. فان اللفظة سريانية كما قيل ومعناها العين الباردة.

جلسنا في جوارها للغداء والاستراحة، فشربنا من مائها البارد القراح، وسقينا محبوبة، وغسلنا جرح محبوب. ثم استأنفنا السير بأمل منتعش ونشاط مستجد، فمررنا بمقالع من البلاط الابيض الشبيه بالرخام – وما اكثره في تلك الصرود – ثم انبأتنا البيادر بدنونا من الارض المزروعة والعمران، فوصلنا الى العاقورة في الاصيل، والى المجدل فالمُغيرة قبل الغروب .

حلت البركة

من مفاجآت الحياة مفاجأة تفعل باليقين فعلها، فتزعزعه او تغيره، وقلما تزعج او تسيء. ومفاجأة تسيء وتؤلم، وقلما تغير مما في القلب من عقيدة وايمان.

خذ المثل الاول. قد اتهمت محبوباً بالكسل والجبانة، وما تسرعت بالتهمة، بل كنت ادق من مدعي الجمهورية العام في التحقيق، وفي الاستقراء والاستنتاج، وما اكتفيت بالدليل الواحد والشهادة الواحدة. حفظت الحقائق وسلسلتها، وعندما اجتمع لدي منها ما ظننته كافياً – وما اظنه يكفي مدعي الجمهورية العام – قررت التهمة واثبتها بالبرهان والدليل، وسجلت الحكم على المكاري محبوب بالكسل والجبانة.

ثم كانت المفاجأة في الارز، ساعة كشف لي عن جرحه، في المكان المعول عليه بالمشي في عقَبَة، وكان قد مشى، مع ذلك، خمسين كيلومتراً، دون ان يقول اخ او يفوه بكلمة. وقد مشى ايضاً من الارز الى ضهر القضيب، وعمل العملية الجراحية في طريق الصرد الاعلى، بسكين جزّار، دون ان يحرك عصباً في وجهه او شعرة من جفونه. فهل يحق ان اقول بعد هذا ان محبوباً كسلان جبان؟

هذه المفاجأة بالحقيقة الكبرى، غيرت يقيني المبني على الحقائق الصغيرة التي لا تخلو من باطن خفي، من بطانة مجهولة. على انها ما ازعجتني ولا اساءت الي. بل كنت، والحق يقال، مسروراً بما بان، ناسياً لما كان.

وخذ المثل الثاني: لقد آمن محبوب بالحجر – آمن بالارزة ذات الجرن، وبمائها المقدس، فدهن به جرحه، ووجهه، وروحه، وهو يتوقع الشفاء العاجل، ويرى – او تريه عين الايمان – التحسين يوماً فيوماً، فكان الامر

عكساً عليه، وفاجأته الصرود بالحقيقة المؤلمة حقاً، فآلمته ألماً شديداً، دون ان تغير بعقيدته، او تؤثر بايمانه.

هذا المثال الصغير، المأخوذ من لوح صغائر الامور، اثبته ها هنا بما يستحقه من البيان والتوكيد لانه مثال كذلك للكبير الخطير في حياتنا الاجتماعية والسياسية والعلمية. فكم من المفاجآت التي تزعزع منا اليقين، وتغير الاعتقاد، وتقضي على ما قررناه من «قواعد ثابتة» في السياسة وفي العلوم؟ وهي تزعجنا وتؤلمنا بقدر ما لنا فيما تغير من مصلحة او كرامة. ولكنها لا تؤلم ولا تزعج اذا نحن آثرنا الحقيقة فيها على الكرامة والمصلحة.

وكم من المفاجآت التي تزعجنا، تؤلمنا، تحزننا، وتحسرنا فوق ذلك المال والجاه والبنين، او السيادة والعز والاقتدار، ولا تغير ما رسخ فينا مما تعلمناه، او اكتسبناه، او ورثناه من خرافة او سخافة، او من عادة سقيمة وتقليد عقيم.

هذه الظاهرة الطبيعية النفسية شائعة، وتكاد تكون عامة. وسأحضرها الان في احوال شخصين ترافقا وتعاملا مدة من الزمن لاريك ظاهرة نفسية اخرى عجيبة. فان الذي ينتفع بمثل هذه المفاجآت انتفاعاً عقلياً، بل انتفاعاً ادبياً روحياً، فيؤثر الحقيقة على مصلحته وكرامته، يكون غالباً مغبوناً مغلوباً. والذي يتوجع ويتألم ويظل متمسكاً بما ورثه او اكتسبه من الترهات، او ما تعلمه من الخرافات، يكون غالباً الغالب المكرم كل الاكرام. الاول في نظر الناس خاطئ، ضعيف متندم، والثاني بطل جبار.

كذلك كنا نحن الاثنين محبوبا وهذا الكاتب في نظر داود ملكون مضيفنا للمرة الثانية في المغيرة. فقد تحدثنا تلك الليلة، ونحن جالسون الى السماط، بما كان من امرنا، فجهرت بالحقيقة المذلة ظاهراً لنفسي، المشرفة في

كل حال لمحبوب، فاكبر داود المكاري وقال متحمساً: « انا رفيقكم غداً الى افقا، وحق الله. وسنذهب كلنا الى المغارة راكبين. محبوب يستاهل احسن الحمير. وعندنا حمار يعجبك ليطمئن بالك. »

وفي تلك الليلة بدل ان يشرب محبوب العرق غسل به جرحه، فضّله — هي العقيدة الموروثة — على الماء المطهر (السليماني) وصبغة اليود. ولكن الجرح استمر في التهاب، فغدا كالمجيدي حجماً بعد ان كان كالفولة، وتجدد التقيح فيه. مما زاد بتخوفي وقضى على رغبتي بزيارة افقا، فصمّمت على العودة في الطريق الاقصر الى الفريكة.

وهناك عامل آخر من عوامل هذا الانقلاب لا اخفيه عن القارىء. وقد جعلته شاهداً للمظهر النفسي باجمعه في اشخاص الرواية الثلاثة. فقد احسست تلك الليلة برعدة صحبها شيء من الحمى، ونهضت صباح اليوم التالي على غير نشاطي المألوف، فنظرت الى لساني في المرآة وقلت لنفسي: لا كلام بعدا هذا. العود احمد.

ولكن الشخصين الآخرين في الرواية الرفيق والمضيف، اصبحا من السياح المغامرين، واشدّ رغبة مني في زيارة افقا.

ومن الغريب العجيب، في كل هذه المفاجآت، ان شجاعتي انتقلت الى محبوب، وخوفَ محبوب سرى الي، فتفلسفتُ او بالحري تفلسفتِ الجبانة دفاعاً عني.

— وما نفع المسدس العسكري الخطير، ومحبوب لا يستطيع ان يقف على رجله ليدافع عن نفسه؟ وهل شاهدت في زمانك بطلاً على حمار، او قرأت في غير القصص الرومنتيقية اخبارَ حمارٍ عنتري، كحمار سنكويتزا مثلاً في رواية دون كيشوت؟ ولو فرضنا ان حمار سنكويتزا تجسد في حمار داود ملكون بيانوح الفينيقيين، بالمغيرة، فهل تظنه يهجم على قطاع الطريق في وعور الجبال اللبنانية كما كان يهجم على دواليب الهواء في

السهول الاسبانية ؟ كيفما نظرنا الى هذه المسألة نرى الحمار فيها والبطل والمسدس متنافرين غير مؤتلفين، متباينين غير متجانسين، فلا يجتمعون في مكان واحد، ووقت واحد، وخطر واحد، ويفلحون.

لذلك اشيح بوجهي عن افقا، ولو حرمت نفسي مشاهدة غارها وآثارها في هذه الرحلة.

وبعد المشادة والمناقشة بيني وبين البطل محبوب والفدائي داود تلك الليلة اجمعنا الرأي على ان يكون للبغلة المحبوبة رفيق من الحمير للرفيق المجروح، وان يكون الحمّار ممن يقوون على المشي، ويعرفون مسالك الجبال.

وقد قررنا كذلك ان ننهض في اليوم التالي مع نجمة الصبح —الزهرة— اي قبل ساعة الفجر، ونشد للرحيل لنصل الى الفريكة في ذلك النهار.

وكذلك كان. مشت القافلة، ساعة كانت الزهرة تتلألأ عند حرف الافق الشرقي العالي. مشت القافلة في السكينة الرهيبة التي هي همزة الوصل بين الليل والفجر، يتقدمها محبوب راكباً حماره، والى جنبه الحمّار حاملاً عصاه على كتفه كالبندقية، ووراءه محبوبة الرضيّة المرضيّة، كأنها في غبطة علوية لرؤيتها صاحبها راكباً.

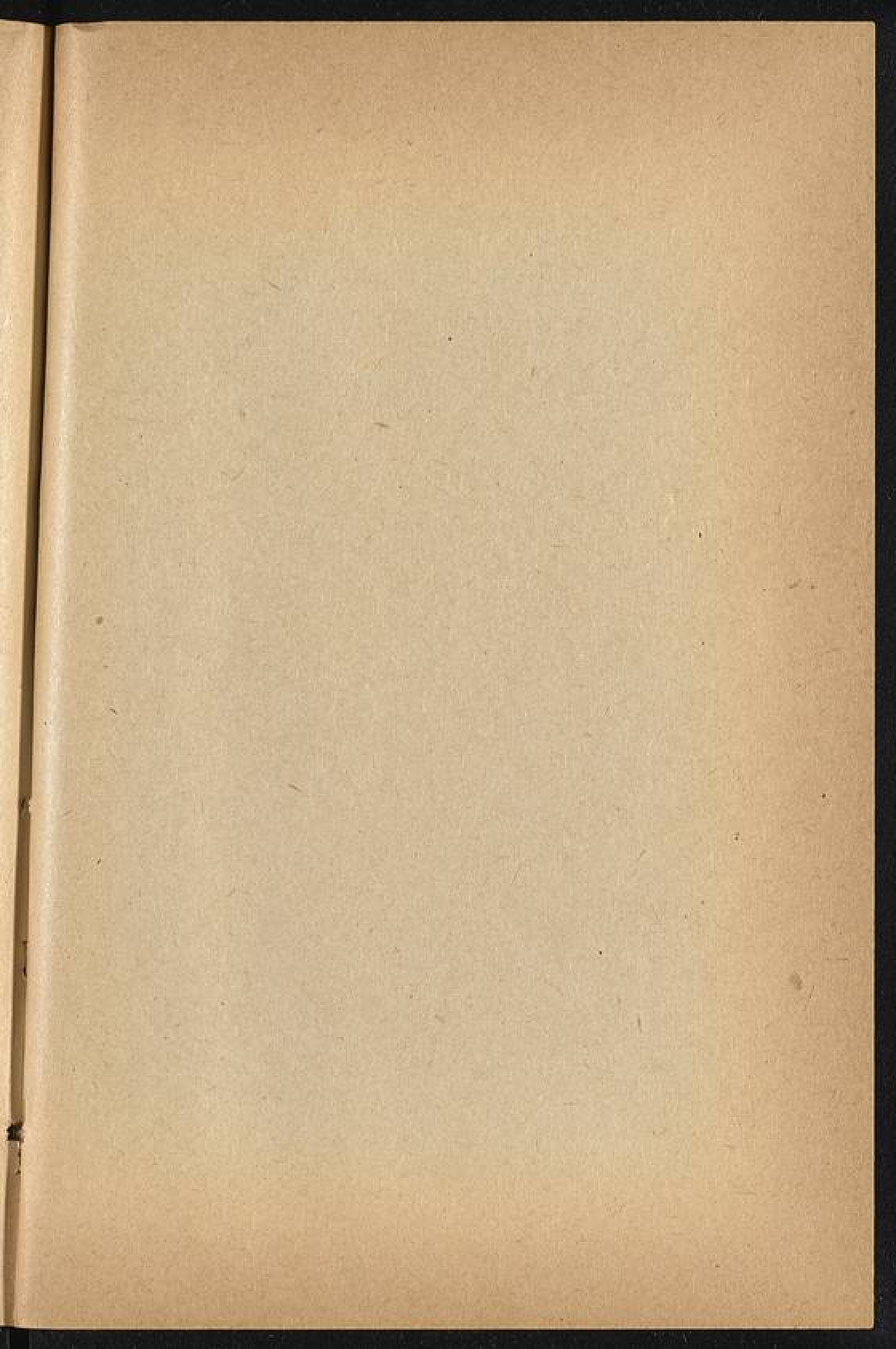
وقد اجتزنا بأمان الله الشعاب والآكام والينابيع، فاستقام لنا الظل بفيترون، فدخلنا البلدة وخرجنا منها ساعة كان الناس يأكلون او ينامون القيلولة، فما رآنا احد من آل دريان الكرام، الذين كانوا ينتظرون عودتنا ليضيفونا اسبوعاً على الاقل كاملاً.

وكان الجوع قد أخذ فينا جميعاً، واتعبنا السير، فحططنا الرحال في القُليعات للغداء والاستراحة. ثم نزلنا الى داريّا، ومنها الى نهر الكلب، الناضب صيفاً في كل ما هو شرقي المغارة منه، فردّد الجبلان صدى وقع الحوافر على بلاطه وبين صخوره. ومن هناك شرعنا في التصعيد الى عين

الحروبة فالميأسه فوادي شاهين فبيت شباب، فادركنا ساعة الغسق طريق العربات، ونزلنا فيه على ظلام الشاوية، ومنها الى الفريكة، فدخلناها آمنين عندما كان البدر يطل عليها من وراء جبل صنين.

وفي اليوم الثالث، بعد عودتنا من الارز، جاء محبوب يعرج ويعكز على عصاه ليزور « معلمه » الذي كان طريح الفراش من مرض جلدي سرى مكروبه اليه يوم كان « ضيف الرب » في تلك الخيمة العتيقة الوسخة بالارز .

وبعد التحدث بالبركات الظاهرة والخفية، والموجعة والمبهجة، قدمت لمحبوب الاكرامية التي وعدته بها قبل السفر، فابى ان يأخذها وقال : « ما عدنا ، يا معلمي، سالمين . فقد حلّت البركة علي وعليك . ولكن، يامعلمي، الله يجرّب خائفيه . »



الرحلة الثانية

حيث شاء الطريق

•

محتويات الرحلة

الاخ هنا

تعودتُ المشي في الجبال لا رغبة بالنزهة فقط بل حباً بالاستكشاف عن جمال الطبيعة في مشاهدها ومكنوناتها. مارست المشي قليلاً في بادىء الامر، فقويت عليه، فصرت ابن بجدته، كما يقال، اهبط الوادي، واصعد فيه، واتسلق الصخور، واقفز فوق الدكات، كالاشداء من ابناء القرية. بل صرت صنواً للرعاة والحطابين منهم، اباريهم متى شاءوا، ولا خوف علي. وصار المشي يشوقني حباً به لا بشيء سواه، مثل كل عمل يحسنه المرء فيهواه، فنشأتْ فيَّ، بعد العودة من الارز، رغبةٌ برحلةٍ على الرجل مثل المكارين – رحلةٍ طويلة، لا تعد بالساعات بل بالايام.

ولكني عدوت عن المألوف حتى في هذا الشيء، الذي يحسبه ابن الجبل غير مألوف لدى من كان مثلي. ولا اخفي عليك ان والدي كان من خواجات لبنان،وفوق ذلك من «الكرخنجية» فيه، اي من اصحاب معامل الحرير. فوجب على اولاده ان يترفعوا عن العمل مهما كان صغيرا. فاذا كان الابريق مثلاً قيد يد احدهم في البيت، وهو متربع على الديوان يدخن الاركيلة، فينبغي له ان يصفق بيديه ويقول بلهجة السيد الآمر: هات الابريق يا ولد. واذا شاء السفر فيجب ان يكون ذلك على فرس من الجياد او بغلة من كريمات البغال، تعلو جلالها سجادة ووسائد مشدودة اليه (تقدم المثال في

« محبوبة » بغلة محبوب) ويمشي الى جانبها خادم او الى جانبيها خادمان.

على اني، كما علمتَ، او كما بدأت تعلم، ارغب عن المألوف في كل شيء، ولا تبهجني الأبهة، ولا يغمني ضياعها، اذا ما وطنت النفس على امرٍ فيه الشواذ كله او بعضه. فالرحلة ماشياً تقررت في نفسي، وقد ازمعت الرحيل كذلك وحدي. هذه في غير المألوف فعلة مزدوجة — فعلتان. وهناك الثالثة، وهي افظع الفعلات في نظر الجيران. ذلك اني فكرت في الضيافة اللبنانية، وفي الاستكشاف عن حقيقتها الكلية. فقد اسلفت القول انها في كسروان وافرة الحواشي، طيبة الاريج. وقد تفوق بمحاسنها الجمة سواها في اماكن اخرى من الجبل. هذا ما وددت ان اتحققه بالخُبر والمشاهدة.

وما كنت في تلك الايام اتحرج من اختبار الامور بنفسي مهما كانت المشقة او التضحية، او مهما كانت البهجة متافهة. اضف الى ذلك اني مثل اكثر اللبنانيين من نسلٍ ورعٍ تقيٍ متقشف. وقد كانت زهرة هذا النسل في الماضي تختار الصخور والاودية والمغاور تنوّر بها. وبكلمة لا مجاز فيها كان الاجداد يتنسكون حتى التوحش، اي حتى الوحشة والجوع، فينأون عن الانس ومنازل الانس، ويقتدون قولاً وعملاً بالسيد المسيح، فلا يحملون ذهباً او فضة.

هي ذي كبيرة التجاوز في رحلتي. فقد وطنت النفس على الاقتداء باجدادي القديسين وبالسيد ذي المجد الاعلى، فلا احمل في الترحال، شيئاً من زادٍ او مال. وساسير على بركة الله وحدي. بيد اني لم اكن وحدي في البيت، فاستقل في تنفيذ ما قررت. فلما علمتْ بالامر الوالدة، رحمها الله، رفعت يديها الى السماء متوسلة، ثم الي مضطربة مستنكرة. فقالت ان ذلك مستحيل، وانه جنون مني. فقلت انه جنون الايمان. وما الايمان؟ تناقشنا فيما هو الايمان نظراً وعملاً، ثم تساومنا سواماً دَوْلياً. قبلت الوالدة،

وهي التقية النقية، ان اتشبه بالنساك، وقبلت انا بما فرضته علي، اي بالرفيق، فلا ارحل الرحلة وحدي.

وكان في بيتنا يومئذٍ راهبٌ حوليٌّ - مبتدئ ابنُ سنة - يدعى الاخ حنا. هو شاب من القرية ذو فطنة راجحة، ومخيلة واسعة، يكره الفلاحة والزراعة، ويزدري رعاية البقر او الغنم او المعزى، ولا يطيب له المشي كالمكارين وراء البغال. فقد كان الاخ حنا يحلم الاحلام الذهبية في ظل الزيتونة الهرمة المجاورة للدير القديم. كان يحلم بالثروة او بالسيادة. وبما ان الهجرة لم تكن متيسرة له تغلبت السيادة على الثروة في حلمه الذهبي، حلم الشاب الذكي الكسلان.

ها قد فاجأتك بالسر في باطن حاله. فقد كان الاخ حنا يقول: اني اتشوق الى خدمة الله. اريد ان اكون راهباً متعبداً. انما رغبته بالرهبنة كانت مقيدة بمطامع دنيوية. نعم. كان الاخ حنا طموحاً، يمد يده ليتناول القمر. وكان يرى السلم امامه كانه سلم يعقوب منصوباً بين الارض والسماء، فيردد في نفسه، ويُسر في بعض الاحايين الى رفقائه في القرية، هذا النغم في حلقات التصعيد الى العلاء: الاخ حنا - القس حنا - المدبر حنا - الرئيس حنا ومن الرهبان من تختارهم النعمة الالهية للاسقفية، فيقفز الرئيس حنا الى صاحب السيادة الاسقف حنا. وما يدريك، فان في كل اسقف جرثومة بطريركية. وما يدريك، فقد تكون هذه الجرثومة كامنة بين اضلع ابن الفريكة هذا. اذن، ليست الدرجة العليا في خدمة الرب القدوس بالامر المستحيل. واذن - حنا بنعمة الله بطريرك الطائفة المارونية، بطريرك انطاكية وسائر المشرق!!

هذا هو الحلم الذهبي الذي كان يحلمه حنا بن جرجس بن بطرس الملّاح في ظل الزيتونة الهرمة المجاورة للدير القديم. بل هذا ما كان يقوله لبعض رفقائه في الفريكة. ولكن ابا حنا كان يقول، بعد ان هرب ابنه من

البيت: « كسلان، وجبان، ودائماً جوعان. هرب من الشغل، فاستراح المعجن منه. والى اين هرب؟ الى الدير! كأن الدير قصر البرامكة. الله يساعده على ما في الدير.»

وما عتم الاخ حنا ان رأى ما في الدير. فقد كان يعمل في بيت ابيه ساعتين او ثلاث ساعات في النهار، فيرعى الغنمات، ويحلب البقرة، ويوقد لأمه النار وهي تخبز له الخبز على « الصاج »، فصار يعمل في حراثة الارض، ارض الدير، وفي خدمة رؤسائه الرهبان، اثنتي عشرة ساعة في النهار ما عدا ساعات الصلاة والتهجد. كان يأكل اللحم في بيت ابيه مرةً او مرتين في الاسبوع، اي في الآحاد والاعياد، فصار مثال التقشف، لا يأكل غير « المخلوطة » – طبيخ من العدس والحمص – ولا يشم رائحة اللحم الا على مائدة الرئيس. كان معجن الخبز في بيت ابيه طوع يده، يسحب منه الرغيف تلو الرغيف ولا يُرَد ولا يُسأل، فصارت تَعد عليه الارغفة وما يشفعها من بصل او زيتون. كان يسمع القول المعروف من والديه ممزوجاً في بعض الاحايين بشيء من التوبيخ لوفرة اكله وقلة شغله، فامسى في الدير لا يسمع غير كلمات التوبيخ والانذار اذا شوهد مرةً جالساً على صخرة يستريح، او متأبطاً رغيفاً وهو سائر الى الحقل. واين الزيتونة الهرمة يحلم في ظلها حلمه الذهبي؟

ثلاثة اشهر من هذا الكد والنصب والجوع – جوع الجسد وجوع الروح – ومن الأوامر المدبجة بغليظ الكلام، ثلاثة اشهر كاملة تحملها وصبر عليها لمجد يسوع بن مريم. وكان في تلك الاثناء، وهو يختلس الدقائق للتأمل، يرى حلمه الذهبي متشبحاً امامه، فيشتد اسوداداً ثم يختفي. ويبدو تارة كالتنين وطوراً كالحية. هالته هذه الرؤيا، وروَّعته في تردادها. وفي ذات يوم وهو عائد من الحقل تخيل ظله منتصباً امامه، فتناول حجراً وضربه به، فرآه احد الرهبان، فسارع الى الرئيس يقول: « جنَّ الاخ حنا،

يا محترم. فقد رأيته يرشق خياله بالحجارة، وسمعته يسب الدين.»

وفي اليوم التالي، بعد ان وقف الاخ حنا في حضرة الرئيس يستمع كلمات التوبيخ والانذار، رأى الراهب الذي وشى به، فعاتبه، فانكر الراهب الأمر، فدعاه كذاباً منافقاً، فتشاجرا، فرمى الاخُ الصادق الاخَ الكاذب حجراً شج به رأسه. ثم فرَّ هارباً من الدير.

عاد الاخ حنا تائباً الى بيت ابيه. ولكن اباه ابى ان يقبل توبته، فطرده من البيت. وما أفلحت أم حنا بتوسطها من اجله. فقد كان ابو حنا رجلاً عنيداً، وذا قلب كالصوان. فراح الاخ المطرود يطوف في القرية وجوارها، طالباً عملاً، مسترزقاً، وما استطاع، وهو المعجز في الهرب، ان يهرب من الجوع. فرثت لحاله الوالدة، فاستخدمته في البيت، وهي ترجو ان تعود النعمة الى قلبه، فيعود الى الدير.

طابت للاخ حنا الاقامة في بيتنا لاسباب ثلاثة على ما اظن. فما كان عليه غير القهوة والاراكيل يعملها ويقدمها للزائرين. وما كان عليه من مراقبة في المطبخ، فيأكل ما تشتهيه نفسه وساعة تشتهي. وقد توفرت لديه ساعات الفراغ فكان يملأها بالتأمل — والنوم!

ومع ذلك فقد احببت الرويهب حنا، لانه كان قليل الكلام، وكان يحسن عمل القهوة، وما كان مثل اخوانه الرهابين يكثر من مجالسة النساء ووعظهن. وهناك سبب آخر في حبي له، وهو اني، على رغبتي بالنسك والتقشف، كنت احس بسرور يخالطه بعض الزهو، بل بتموجات من الاحساسين تتموج في قلبي، وانا اناديه قائلاً: هات القهوة يا «خي» حنا، هات الاركيلة يا «خي» حنا!

فيجيء الاخ حنا بطلعته المشرقة، وقد زينها بلحية فتية مدورة، وبقامته الطويلة، وقد البسها الثوب الاسود والقلنسوه، يجيء والطبق بيده، وهي ممدودة مرفوعة الى مستوى لحيته، كأنه تعلم الخدمة في نزل بباريس،

او في الفاتيكان برومه.

هي ذي الابهة بعينها. راهب في خدمة من لا يحب كثيراً اصحاب القلانس. وقد أطعت الوالدة، كما اسلفت القول، فقبلت الاخ حنا رفيقاً لي في الرحلة السعيدة.

بسم الله — وهذه شمس ايلول تطل من وراء جبل صنين لترحب بنا.

— «الى اين يا خواجا امين؟»

— «الى حيث يشاء الطريق، يا «خي» حنا، ويشاء الله.»

وسرنا على بركة الله. الاخ حنا في ثوبه الاسود وقلنسوته، وقد القى بجبته على كتفه، وانا في ثوب افرنجي من النسيج الاصفر — الكاكي — العسكري — وبيدي عصا من السنديان. ومما زاد في غرابة القيافة قماطات من الجوخ مشدودة حول الساق على الطريقة العسكرية، وبرنيطة سوداء قوراء الحرف فوق شعر مسترسل، بل فوق شلالات من الشعر.

اثنان قلما اجتمعا في القصد الواحد، وقلما شوهد مثلهما في الطريق.

— «ما اظن الرحلة طويلة يا خواجا امين.»

— الرحلة بيدنا يا «خي» حنا والعودة بيد الله.

دير مار جرجس

ليس من اغراض هذا الكتاب، وهو كتاب اسفار ومشاهدات، سردُ الاخبار الشخصية او العائلية. ولكننا نحدثك ونحن سائرون بما فيه منها عبرة او ذكرى، ونروي من الحوادث التاريخية، الخصوصية والعامة، ما لا يخلو من فائدة او تفكهة. بل نزيد على ذلك، من حين الى حين، عندما نقف في التسيار نستريح. فاذا كان هناك مشهد جميل وصفناه، او أثر قديم استنطقناه، واشرنا الى الطريف من ماضيه. وما آثار الامم غير نتيجة ظاهرة لجهود افراد منها امتازوا عن السواد بافكارهم واعمالهم، او باطماعهم اوغطرستهم، اوبشيء مَلَكَهم من المثل الاعلى في طلب السيادة والمجد.

هذا الدير القديم مثلاً، القائم على رابية صخرية بين الفريكة والشاوية، المخمَّرَةُ حجارتُه من عوامل الطبيعة والزمان — من الامطار والرياح والتراب والشمس — هو دير مار جرجس بحِرذُقْ (لا تسألني عن النعت في اسمه. فان الالغاز والاصول الخفية في اعلام هذا الجبل لتكثر في تاريخه القديم والحديث)

الذي اعلمه هو ان هذا الدير كان للرهبان في القرن الثامن عشر، فصار في القرن التالي للراهبات، ثم تحوّل الى مدرسة اكليريكية في عهد المطران يوسف جعجع، ثم الى بيت خصوصي ومعصرة للدبس والخمر، ثم الى مدرسة علمانية انشأها المرحوم نعوم مكرزل قبل ان هاجر الى الولايات المتحدة الاميركية، وكان هذا الكاتب من تلاميذها في العاشرة من سنه. اما اليوم فالدير أثر من الآثار المسربلة بجلال العتق والقدم.

لقد جئتك بالعنوان لبعض الفصول في تاريخه، ولا بأس بصفحة منه الخصها لما فيها من التفكهة. هذا الدير واملاكه الكثيرة هو وقف « مشايخ بيت الحايك » من بيت شباب « وقفاً مخلَّداً » لقاء بركة نشدوها، ومساعدة حدودها. فقد جاء في صك الملك المحبوس، الذي أقرَّهُ المطران باسيل عبد الاحد البجاني سنة ١٧٣٢ ، ان للمحتاجين من اسرة الواقفين حق الإعاشة من الدير، وللاسرة كلها قداسان اثنان كل سنة رحمةً وبركة. اي ان غابة الصنوبر التي تكسو هذه الرابية، واحراج السنديان والملول دونها، والاراضي الواسعة بدكَّاتها وبطاحها، المغروسة كرماً وتوتاً وزيتوناً، هي كلها للدير لقاء قداسين اثنين يقدسهما الرئيس او احد رهبانه المعاونين، خلاصاً لانفس الواقفين!

وقد حل محل الرهبان، بعد حُقب من الدهر، راهبات كن في الدير غير خاشعات، على ما يظهر، وغير تقيات. فقد جاء في اخبارهن انهن في العقد السابع من القرن التاسع عشر اقلقن راحة اسقف الابرشية المطران يوسف جعجع، فغضب عليهن غضبةً مشرِدة. وقد كان ذلك الحبر المفضال مشهوراً بعدله، ودمقراطيته، وشدة ساعده، يشارك عماله في حراثة الارض، له ضربة معولٍ فالحة، وضربة مهدَّةٍ تفتت الصخور. وكان في احكامه، مثله في معوله ومهدَّته، ذا مآثر مجيدة، لا يهاود في الحق، ولا يلين للباطل.

فلما حدث الشقاق في الدير، وتطاير من مبخرة الكنيسة شررُ الاحقاد والشهوات، انذر اولئك الراهبات، ثم هددهن بالطرد، ثم طردهن واقفل الدير، فامسى فارغاً عامراً لا متعبدون فيه ولا متعبدات.

وفي كتاب كتبه المطران جعجع سنة ١٨٧٠ الى رئيس مجمع الايمان المقدس برومه، ليرفعه الى قداسة البابا، قال انه عازم على تجديد الدير بعد ان « فرَّق الراهبات بعضهن عن بعض »... « لاجل طمأنينتهن وراحتهن » واستأذن بان يجعله مدرسة اكليريكية، فاذن البابا بذلك. ولكن تلك

المدرسة الاكليريكية، مثل المدرسة العلمانية المكرزلية بعدها، لم تدم طويلاً.

ولقد كانت مدرسة نعوم، على قصر مدتها، كثيرة التنقل. فقد أنشأها في عين عار، ثم نقلها بعد سنة الى دير مار جرجس هذا، ومن الدير بعد نصف سنة الى الفريكة، وبعد ذلك ببضعة اشهر انتقلت الى رحمته تعالى.

اني اذكر من ايامها في عين عار يوماً مجيداً. فقد كان قنصل فرنسة ماراً بالبلدة في طريقه من بيروت الى مصيفه بيكفيا. فخرج تلاميذ المدرسة باثواب العيد صفاً مبهجاً وراء معلمهم نعوم، يرحبون بسعادة القنصل في ساحة البلدة، بين مزراب العين ومدخنة معمل الحرير.

وكان معلمنا، غفر الله ذنوبه، قد نظم في مدح القنصل ودولته قصيدة رنانة، فاختارني لالقائها، فالقيتها بلهجة أعجبت القنصل، فخصني بعطفه ووعد بان يستصحبني عندما يعود في آخر الصيف الى بلاده لاتعلم في احدى مدارسها.

بعد هذا الفوز المبين اعتراني شيء من الزهو، فأثر في دروسي وسلوكي. فقد كنت الاول في الصف، فصرت دون ذلك بدرجات، وكنت العاقل الطائع البار، فصرت « كبير الرأس » مشاكساً مشاغباً. ولا ازال اذكر قصاصاً قاصَنيهِ المعلم نعوم، وهو انه ضربني على رؤوس اناملي مجموعا بعضها الى بعض عشر ضربات شديدات بالمسطرة!

لا احاول التحليل والاستقراء لما كان من تأثير هذين الحادثين في نفسي، اي عطف القنصل الفرنسي واخلافه بعدئذٍ بوعده، وقصاص نعوم القاسي. ولكني اذكر كذلك اني تأثرت من معلمي في دير مار جرجس. فقد دعاني يوماً للوحة التمرين السوداء، وقال: خذ الطبشورة واكتب. فوقفت امام اللوحة والطبشورة بيدي انتظر الاملاء. فقال: اكتب – الحمار. فكتبت – الحمار. فقال: اكتب – امين. فكتبت – نعوم.

فضحك التلاميذ واستشاط نعوم غيظاً. ثم امرني ان اقف ووجهي الى الحائط عشر دقائق.

مورنا تحت الدير الذي يبعث هذه الذكريات من تلافيف الماضي. وحسبي ما تقدم من الاكليريكية والعلمانية منها، العامة والخاصة. وها نحن امام الكنيسة القديمة حيث كان الدير الصغير قبل ان نُقل الى رأس الرابية و كُبِّر بعد ان وقف له آل حائك الوقف الذي تقدم ذكره.

هي كنيسة صغيرة حقيرة، ينبت عند جدرانها العليق والقندول، لا جرس في قبتها، ولا قفل لبابها. حولها مقبرة اهل الشاوية، وهي بضع حجرات مربعة تعلوها الصُلُب والقباب، منها حجرة بيت الريحاني، في ظل ثلاث سنديانات فتيات الى جانب الطريق. ها هنا مدفون الوالد والوالدة، والعم والعمة، والجد والجدة، وها هنا، في ظل هذه الثلاث السنديانات، عند سفح هذه الرابية المكللة بالصنوبر الدائم الاخضرار، اريد ان تتفيأ عظامي ابد الدهر. واني منذ الان استنزل لعنة الله على من يقطع هذه الشجرات الثلاث المقدسة او يمسها بسوء. واني اسأله تعالى ان يسبغ الرحمة والنعمة على كل من يعتني بها، فيدفع عنها عاديات الزمان والفساد، ويشذبها لتنمو في جمالها وتدوم، فتفرش ظلالها فوق المقبرة والكنيسة، ولكل من شاء الاستراحة من المارين. اني انظر الى هذه السنديانات الثلاث بعين الغيب فاراها بعد الف سنة — وقد اعود بعد الف سنة فاراها يومئذ بالعين التي تراها اليوم — قائمةً ها هنا يزورها الناس ويتبركون بها كما يزورون في هذا الزمان الارز.

قلت هذا للاخ حنا فقال: « افكارك مثل اعمالك، يا خواجا امين، غريبة عجيبة. وهل تظن ان الانسان بعد موته يعود الى الارض ؟ »

قلت: « الهندوس يعتقدون بالتقمص او التناسخ، اي بانتقال النفس الناطقة من جسد الى جسد. ولكل انسان تقمصات عدة تتنوع بحسب اعماله الصالحة او الطالحة. فالصالحون بعض الصلاح يتدرجون في التقمص،

وهو دوماً في ارتفاع، فيعودون الى هذه الارض مراراً الى ان يدركوا درجة الكمال الروحي، فيندمجون اذ ذاك بالفيض الازلي الابدي الذي يُدعى عندهم نرڤانا . »

هزّ الاخ حنا برأسه، وهو ينقل جبته الملقاة على كتفه الى الكتف الاخرى، ثم قال: « هذا فوق ادراكي. واذا كان لي ان اعود الى هذه الارض، فافضل ان التجسد في سنديانة من هذه السنديانات لادفع عنها الاذى، واظل ابداً في جواركم. »

الاخ حنا الخالد في سنديانة مقبرة مار جرجس. اعجبني هذا التخيل منه. ولكنه في تجسده الحاضر لا يطمئن الى ظل من ظلال الاديرة.

مررنا بقرية الشاوية، مسقط رأس الوالد، فسألني سؤالاً يتعلق بالعائلة. ما الذي حمل والدي على نقل بيته الى الفريكة؟ يظهر ان التنقل من الصفات اللازمة لبيت الريحاني. منذ ثلاثمائة سنة ويزيد نقل جد العائلة من بجة في جبيل الى بيت شباب. وبعدها بمئة سنة نقل الخوري (ثم المطران) باسيل عبد الاحد البجاني من بيت شباب الى القرية المجاورة لها اي الشاوية. فبنى له قلّايةً فيها، وكان الآس الذي يدعى في هذا الجبل « الريحان » يكثر في تلك الناحية، فقال الناس: قلاية الريحان. ثم نُسبنا اليه فقالوا: بيت الريحاني. وهذه بيوتنا لا تزال قائمة تحت بيت شباب ولكنها مهجورة. هي اليوم خبر بعد عين، وغداً لا عين ولا خبر.

اما السبب في انتقال الوالد الى الفريكة فهو الحب. كان والدي شريكاً لخاله امين هاشم في معمل الحرير بالفريكة. فاضطر ان يقضي معظم ايامه فيها، وقد كان يجتمع في بيت خاله بانيسة جفّال طعمة من قرنة الحمراء، وهي في بيت عمتها امرأة خال ابي فاحب فارس انيسة، واحبت انيسة فارساً، فانغرس الحب في قلبيهما، ثم نوّر بالزواج فأثمر، فكنت انا بكرهما الغالي، اطال الله بعمري وجمّل احوالي . . .

فهمت، يا اخ حنا، ما جاوبت بالتدقيق على سؤالك. فقد اختلف فارس وانيسة قبل الزواج في امر جوهري، هو محل الاقامة. وذلك لان انيسة جفال طعمه، لِعُنجهية طعمية فيها، رفضت ان تسكن في الشاوية، وابى فارس انطون الريحاني، لعنجهيته الريحانية، ان ينقل بيته الى قرنة الحمراء او يسكن في بيت عمه هناك. وكاد الخلاف يؤدي الى المشاقة والجفا، لولا الحب قاهر العنجهيات البشرية. فقد اوحى الحب اليهما بالمساومة فتساوما من اجله، وتقرر بالاجماع في مجلس عائلي ألّا يقيم العروسان في الشاوية ولا في قرنة الحمراء، بل فيما بينهما، في قرية الفريكة! وهكذا كان.

وهذا هو السبب في نقمة اهل الشاوية علي. فان الشهرة التي جناها الدهر على الفريكة في عهدي كان ينبغي ان تكون للشاوية. ولكنهم يقولون: وان كان البيت بالفريكة فالمقبرة عندنا. وقد تدوم المقابر، والبيوت لا تدوم. سبحان الحي الباقي.

الضيعة وضيعاتها

في تحديد القاموس لبعض الالفاظ ما لا ينير من الذهن موضع الابهام، فيلبلبل ويغيظ. ومن هذه الالفاظ القرية والدسكرة والمدينة والمزرعة والضيعة التي يهمنا الان التدقيق في معانيها. فأية منها تطلق على « البيتين والتنور » في عرف اللبنانيين، واية منها تليق بما هو اكبر من « المصر الجامع » واصغر من المدينة المنوّرة؟

ان في جبل لبنان من « الامصار الجامعة » ما لا يتجاوز عدد سكانها المئة نفس، وفيه ما يتجاوز الثلاثين الفاً، وفيه ما بين الاثنين الكثير. فهل لنا ان نبدأ بالدسكرة، ونتدرج منها الى القرية فالبلد فالمدينة؟

ولكن المدينة المنورة تدعى قرية الانصار، ومكة المكرمة تدعى بالبلد. أفيجوز لنا اذن ان نقول قرية بيروت « ونسمي نيويورك او باريس البلد؟

اما المدينة فهي في عرف ارباب القاموس ما كان حولها سورٌ بخلاف البلد او القرية. ولكننا نحتاج في هذا الزمان الى غير هذا التحديد، والا فالمدن الحديثة، وهي غير مسوَّرة، تُعد من القرى. خذ المعقول اذن، ودع عنك الاصطلاحات اللغوية. فالقياس المعقول في تحديد القرية او البلد او المدينة هو عدد السكان.

وهذا ما يتقيد به اصحاب القواميس الاوروبية. فاذا لجأنا الى القاموس الانكليزي مثلاً نرى التحديد دقيقاً معقولاً لا ابهام فيه. ان للصف الواحد او للصفين من البيوت في بقعة معينة اسماً واحداً لا اسمين، وهو هَمْلِت (Hamlet) ويجيء بعده فيلج (Village) اي القرية في

اصطلاح الناس، ثم طَوْن (Tawn) وهي اكبر من القرية، واصغر من المدينة. هذا صريح صحيح.

فهل لنا ان نجدد التحديد العربي بما يماثل ذلك فنقول دسكرة، او مزرعة في اصطلاح العامة (Hamlet) وقرية لما فوقها، اي (Village) ثم بلد (Tawn) ثم مدينة ؟

على ان في قرى لبنان تفاوتاً لا يرضى اهلها باهماله. فالفريكة « بيتان وتنور » اي دسكرة او مزرعة. لا مماراة في ذلك، ولا اعتراض عليه، لا مني ولا من مختار المزرعة او قسيسها. او بعبدات مثلاً والخنشارة وقرنة الحمرا. فهي من القرى، ولا اظن ان احداً من اهلها يدعي انها من المدن.

على ان هناك امصاراً مجموعة مثل بيت شباب وبكفيا وبشراي ودير القمر ما لا تُعد من القرى ولا من المدن. فان قلت قرية بيت شباب مثلاً نهض منها الف شاب لدفع الاهانة. ولا يكترثون لما قال القاموس في القرية، وان المدينة المنورة قد شرفت اللفظة بان انتحلتها اسماً لها فدعيت قرية الانصار.

بقيت البلد، واليك ما قاله فيها الفيروزابادي: « البلد والبلدة مكة شرفها الله تعالى وكل قطعة من الارض مستحيزة، عامرة او غامرة. والبلد التراب والقبر والمقبرة » اذن يصح ان نطلق اللفظة على الدسكرة والقرية والمزرعة، وعلى الغامرة منها مثل العامرة، اي على المقبرة! فاين التدقيق والقياس المعقول في هذا التحديد ؟

اما اهل بيت شباب فكأني بهم قد استناروا بنور احد ادبائهم او بعلم كهنتهم المتأدبين، فنبذوا البلدة والمقبرة كما نبذوا القرية والدسكرة، وأسموا « قطعة ارضهم المستحيزة » ضيعة. بل هي الضيعة المشرّفة بأل التعريف. وقد اعترف بهذا الاسم اهل القرى المجاورة لها، من ديك المحدي

الى الشاوية، فيقول احدهم، اذا كان ذاهباً الى بيت شباب او قادماً منها: « رايح الى الضيعة، جاي من الضيعة. »

ولكننا لا نزال في مبهمات الفيروزابادي واخوانه اللغويين. فالضيعة لا تدخل في تحديدات « قطع الارض المستحيزة » اي المجموعة. الضيعة — خذني بحلمك وعُد معي الى القاموس — هي الارض المغلّة. وليست ارض بيت شباب على شيء يذكر من الغلة. والضيعة حرفة الرجل وصناعته. ها هنا بصيص من النور. ها هنا شيء من الحقيقة. واذا كانت قد خفيت على اهل بيت شباب فها هي «حباً وكرامة» ظاهرة جلية. لقد امتازت بيت شباب بصناعاتها، بضيعاتها العديدة. وبحسب القياسات كلها، العقلية واللغوية، والتصويرية والمعنوية، يجب ان تدعى وبحق، هي تدعى الضيعة.

وقد كانت الضيعة في تلك الايام، اي منذ عشرين سنة، عامرةً مزدهرةً بالضيعات، بالصناعات. تُصنع فيها الاجراس، وتنسج المنسوجات الوطنية (الديا) ويُعمل الفخار، وتُحَل في معاملها شرانق الحرير. وقد كان حدادها ونجّارها وبنّاؤها، مثل نسّاجها وفخّاريها، مشهورين في القاطع، بل في المتن، بل في جبال لبنان شمالاً وجنوباً.

وما اجمل هذه الضيعة مشهداً للقادمين اليها من الفريكة، او للمشرفين عليها من طرف بكفيا الغربي. انها تملأ صدر الجبل ببيوتها وبساتينها ومصانعها وكنائسها، تحيط بها غابات الصنوبر، وتكللها الكروم. كثيرة الينابيع، غزيرة المياه. يتصاعد من مداخن معاملها الدخان، وتنتشر من جنائنها الروائح الزكية.

ضيعة متصاعدة بجمالها، متضمة بعمرانها، تملأ صدر الجبل الطويل العالي، الذي يتصل جنوباً بجبل بكفيا، ويدنو شمالاً من جبل كسروان. الاول من منازلها بعلو ستمائة متر عن سطح البحر، والاخير سبعمائة وخمسين متراً.

وبين اسفلها واعلاها تجتمع البيوت بعضها فوق بعض، وتنتثر وتتسلسل، وتستدير، باشكال فاتنة من الحجارة البيضاء والسطوح الحمراء المسنَّمة، وقد تخللتها جميعاً بساتين التوت، وبواسق الحور والجوز والصفصاف .

اما سوقها فهو مؤلف من ثلاث ساحات، السفلى والوسطى والعليا، يصل بعضها ببعض طريق العربات الكثير التكويع والالتفاف—والاجراف الهائرة. على انك تستقبل في الساحة الاولى كنيسة السيدة — سيدة الجوزة— فتنذر لها نذر السلامة اذا كنت من المؤمنين، وتستمر في العربة مصعداً في ذلك الطريق اللولبي، ولا خوف عليك ان شاء الله.

اما اذا كنت من غير المؤمنين بالسيدات القديسات وكنائسهن — وما اكثر كنائسهن في الضيعة — فخير لك ان تسلك الجادات ذوات الادراج، المتغلغلة في صميم البلدة، فتعرج في التوقل على بيوت الصناعات ومعاملها .

هي الجادات التي سلكناها انا والاخ حنا بالرغم عن تردده وتبرُّمه، لانه في السير مثل المياه الجارية. يَدُور الدورات ليخلص من الاوعار والعقبات. وفي عقبات الضيعة تُحَلُّ الركب، وتُفَكُّ الرقاب. سلكنا احدى الجادات مستهترين، وما كنا آسفين. فاول ما استوقفنا بيتٌ فيه نول، وفي حفرة النول، وراء الخشبة، حورية شبابية، تشغل في النسيج يديها ورجليها. فاليد الواحدة على الخشبة، والاخرى تقبض على حبل المكوك، ورجلاها الحافيتان تصعدان وتنزلان على الدواستين كانها تمرنهما على الرقص. هي فتاة النول المتحرك المتحركة. وليس صوته، وهو كصوت الدف، الذي استوقفنا، بل صوتها وهي تغني « العتابا » . ولكنها، عندما وقفنا في الباب المفتوح، توقفت عن الغناء والعمل ودعتنا الى الدخول. وكانت هناك امرأة اخرى جالسة على وسادة امام دولاب اللُّحمة، وهي تديره باليمنى، وتعالج باليسرى الخيط وهو يلتف على البكرة التي تستعملها الناسجة في مكوكها .

وقفت السيدة وخرجت الفتاة من نولها ترحيباً بنا. فعلمنا ونحن نمتحن لطفها بالسؤالات ان الفتاة عروس جديدة، وان زوجها مدير في معمل الحرير، وان المرأة التي تعدّ لها البكر للمكوك هي حماتها. وعلمنا كذلك ان في الضيعة اكثر من الف نول للنسيج الوطني تديرها النساء، والرجال، فيتعاون في العمل الاخ واخته، او الزوج وزوجته، واحياناً العائلة كلها.

هوذا العمل الحر الشريف — النول في البيت تُشغله ساعة تشاء، وقدر ما تشاء من الوقت — ساعتين او عشر ساعات او عشرين ساعة في النهار. النول في البيت هو رمز الحرية في العمل. وهو فوق ذلك سياج الكرامة، ومصدر الرزق، والحافظ الاكبر للصحة والعافية. فان ساعات في النول تشغل يديك ورجليك هي خير الالعاب الرياضية.

كنت ترى النول في كل بيت من بيت شباب قبل الحرب العظمى. بل كان في كل بيت نولان او ثلاثة انوال. وكان الانتاج من النسيج الوطني يضاهي الانتاج، كميةً لا ثمناً، من الحرير. فيصدر التجار منه الى خارج الجبل وخارج سورية — الى مصر وقبرص والاناضول.

ثم نُكب النول في الحرب العظمى وبعدها، وكادت تضمحل صناعة الحياكة. طغت عليها الاقمشة الاوروبية المنسوجة على الانوال الميكانيكية. وطغت عليها الهجرة، فقد هاجر من اهل بيت شباب اكثر من ثلث سكانها. وقد طغى على النول كذلك فساد الاخلاق، فصارت النساء يترفعن عنه، ويتكلن على رجالهن بافريقية — على ازواجهن او اخوتهن وآبائهن — بكل ما يحتجن اليه من ملبوس ورزق، ومن ادوات الزينة والبهرجة.

ثم نُكب لبنان في عهد الانتداب الفرنسي بازمة اقتصادية شديدة، فصار الناس يبحثون عن (دفاتر اجدادهم) وقام من بيت شباب اناس يجددون صناعة النسيج الوطني، ويتفننون بها ليقبل عليها ابناء هذا الزمان. ولكن العمال قليلون. وليس في الضيعة اليوم وفي مزارعها ومزارع بكفيا مقدار

ما كان في الضيعة وحدها من الانوال منذ ثلاثين سنة. ولكن صوت النول قد عاد اليها والحمد لله، وسيعود اليها كذلك صوت فتاة النول، وهو ينسج لقلبها ثوباً من «المواليا».

وهناك، بالرغم عن الهجرة، جهود تبذل في تجديد الصناعات الاخرى التي كادت تضمحل بعد الحرب. على ان النجّار والبنّا، والحداد والفخّاري كلهم او اكثرهم فتنوا بافريقية، تلك الساحرة السوداء، وراحوا يلبونها. واذا كان في الضيعة اليوم نجار او حداد او بنّاء فانه يعمل بهمة باردة، وبروح يعتريها السأم. ان افريقية تناديه.

ولا تغني عن افريقية حتى صناعة الاجراس، وفيها السر المكنون الذي يتوارثه آل نفاع ابأ عن جد من قديم الزمان. فمن في لبنان، في سورية، يجيد صب الاجراس اجادة هؤلاء الشبابيين؟ ومن يدرك السر في الاجادة؟ ان الجرس لفي صوته. وان في الاصوات لسحرا. تشهد على ذلك اجراس الكنائس في جبل لبنان، وهي تختلف في اصواتها وتتنوع ما شاء الصانع وشاء فنه. فمن العريض البعيد الصدى الى الحاد واللّين والدقيق، وبين الطرفين الوان واطايب من التهدار والطنين.

صوت الاجراس عند الغروب، يدوي في قباب الاديرة على قمم الجبال، فيحمله النسيم وتجسمه اصداء الاودية، فيتموج ويتشّح في الفضاء، فيزداد جاجلة وشجوا. هو ينادينا كما نادى الاجداد. هو يبعث في النفس الخشوع والتقوى. هو يذكر بالماضي كقصيدة او انشودة. جرس الغروب، جرس الصلاة من اجل اولئك الذين سبقونا الى دار الخلود — من اجل الاموات. جرس الذكريات التي يتعانق فيها الحزن والسرور. جرس الآمال التي يرددها تهدار الحديد، وتضمخها الاودية بشذى الزنابق والرياحين. كل مرة اسمع جرس المساء يرسل صوته المهيب من قبة الدير القائم على رأس الجبل بيت شباب اتصور اشياء من الذهب والحرير تُنظم تراتيل محزنة،

واشتمْ روائح البخور في الفضاء.. هو الخيال في الفن المسيحي على مائدة السماء، هو السحر في الحزن المسربل بالغسق....

هي ذي ضيعة الضيعات في بيت شباب. وهي كذلك تكاد تضمحل. يقول لك صانع الاجراس ان الطلب محدود، والارباح قليلة، وان تكاليف الحياة تعددت، وان، وان — وهذه افريقية تنادي، دوماً تنادي. واللبنانيون يلبون. لبيكِ، ايتها الساحرة السوداء، لبيكِ! الحياة والموت بيديكِ!...

ومعمل الحرير. هل جاءك نبأ الدودة التي تُغرس من اجلها بساتين التوت، وتُشيَّد الخصاص، تلك البذرة الغالية الكامن فيها خيط الحرير. بذرة قزٍّ ساكنة، فجرثومة متحركة، فدودة نهمة، تأكل من ورق التوت ليل نهار سبعة ايام متواصلة، ثم تصوم يوماً كاملاً، ثم تعيد الكرة على الاطباق الخضراء، وبعد صومات واكلات معدودة تصعد الى الشيح لتحوك الشرانقة حبساً لها من حرير، فيحين يوم القطاف، وما يصحبه من امل بموسم مبارك. وهذي هي الشرانق تنقل الى المعامل فتخنق في مخانقها وليةُ نعمة الانسان، ثم تنقل الشرانق المخنَّقة فيها الديدان، الى اجران المعمل وفيها المياه الحامية، وراءها الحلالات والحلالون يتناولون باناملهم خيوطها الذهبية، فتُحل، فتُلفُّ على الدواليب، ثم يُرزم الحرير المحلول خُصلاً، فبالاتٍ تشحن الى اوروبه.

والحلالون والحلالات. سمعتهم يرتلون الصلوات ساعة الغروب، وهم في عملهم بين الاجران والدواليب. ترفع جميلة الصوت منهم صوتها بطلبة العذراء: «كيرياليسون كريستياليسون. ياسلطانة العذارى، ياسلطانة الملائكة!» فيردد العمال خمسون او مئة منهم: «تضرعي لاجلنا.» فهل يخطر في بالك ان في هذا الزمان الصناعي الاقتصادي المادي، المضطرب المضطرم بحروب العمال وارباب المال، لا يزال من نسل آدم من يعملون راضين قانعين،

ناعمي البال، ويرتلون فوق ذلك اثناء العمل ؟!

انها لظاهرة عجيبة، وقد كانت في لبنان من الظاهرات المألوفة العادية. وهناك حركة الموسم، موسم الشرانق، وما اكثر بركاتها. لقد كانت تشعر بها حتى قوافل البغال وهي تحمل احمالها الغالية، اكياس الشرانق، من شتى القرى الى شتى المعامل، فتتهادى في زينتها وبين قلادات الودع جلاجل تسمعك دوياً فيه البشرى، «جات الشرانق!» فيه الخير، فيه الجذل....

هي الضيعات الضائعة، تحل محلها البطالة والكسل والقنوط. هي المعامل المقفلة تعزيك بها الكنائس — في بيت شباب عشر منها — والاديرة للرهبان والراهبات. هي الثروة الذاهبة تندبها الجرائد — في بيت شباب جريدتان — والازياء الفرنجية — هي الكرامة الوطنية ترفل بالحرير النباتي — الاصطناعي — وتأكل خبزها مغموساً بعرق افريقية!

على ان هناك صناعة واحدة لا تزال قائمة وان كان قد قل انتاجها. فقد لبى حتى الفخاري نداء تلك الساحرة السوداء، ومن ثلاثين معملاً للفخار لم يبق غير بضعة معامل. منها معمل صديقي ورفيقي في المدرسة الحاج ابو يسوع. فقد قرأنا معاً كراسة الابجد والمزمور الاول من مزامير النبي داود. قرأناهما على الشدياق متى، تحت الجوزة في الساحة السفلى، يوم كان والدي مقيماً ببيت شباب، اي في العشر الثامن من القرن الماضي، وهو يدير احد معامل الحرير فيها. اظنك تذكر القول المأثور: من علمني حرفاً كنت له عبداً. اذن للشدياق متى رحمه الله عبيد كثيرون. وقد سبقت شهرته في هذه الناحية من الجبل شهرة معلمي الثاني نعوم مكرزل.

ترحمت على الشدياق متى. ولكن ابا يسوع لا يشاركني في هذا الترحم. فقد كان بعض التلاميذ يقولون يومئذ في معلمهم الشدياق: «ضاعت السبتيّة فيه.» والسبتية، طالت ايامك، ارغفة من الخبز يحملها كل تلميذ يوم السبت الى المعلم متى. لقاء التعليم. والحاج ابو يسوع لا يزال يردد هذه

الكلمات: «ضاعت السبتية فيه.» ذلك لانه، على ما يرى، لم يكن مرموقاً بنظره الاعلى. ما أذكى فيه شعلة النبوغ كما اذكاها في سواه — في انا مثلاً. وكثيراً ما يقول مسائلاً: «ما السبب في الفرق بيني وبين امين؟ قد لقطنا الحرف معاً في مدرسة الشدياق متى. تحت الجوزة، امام كنيسة سيدة الجوزة. واين هو اليوم واين انا؟ هو الفيلسوف، وانا؟ ما انا؟ فاخوري يلعب بالتراب... انا اظن ان الشدياق اعطاك مفتاح العلم يا امين، وحرمني اياه. فهل تلومني اذا قلت: ضاعت السبتية فيه!»

على ان الحاج يسوع فيلسوف مطبوع. لا تسحره افريقية، ولا تغره الدنيا. القناعة كنز لا يفنى — الصحة هي النعمة الكبرى — الاستغناء هو الغنى. هي الكلمات التي يرددها دائماً. وهو يستمع كذلك الكلمات الكاهن في ايام الاعياد والآحاد، فيحفظ منها ما يلتئم وفلسفته، وينبذ الباقي نبذاً هادئاً، ولا ادعاء ولا كبرياء. «الانسان من التراب، يا امين. والذي يشتغل بالتراب هو اقرب الى الله من الذي يشتغل بالحرير.»

هذا الفخاري الحكيم، اللاعب بالطين، يعتقد كذلك ان الله خلق آدم من تربة بيت شباب، من هذا الصلصال الذي تصنع منه القوارير والخوابي. انه لمن الطف اللاعبين بالطين، كما انه اكثرهم فطنة وحكمة. ولكنه، مثل زملائه وابناء عمه جميعاً، لا يزال في صناعته حيث كان شالوم بن شولام في ايام رفقة زوجة اسحق بن ابراهيم أب الآباء عليهم السلام. وان اليد التي تكوّن الطين على الدولاب جفنةً «او قارورةً» لهي اليد التي لا تستعين بغير العين والذاكرة لتنقل الينا ما كان منذ خمسة الاف سنة منتهى الاتقان في الصناعة، وما يزال بعد خمسة الاف سنة في كراسة الابجد منها.

فان شئت ان تشاهد الفخاري الذي صنع قوارير الزيت للشونمية في قديم الزمان، وتشاهده في عمله يعد الطين ويكوّنه بيدين كالتراب لوناً

وليناً، ويسيرَ الدولاب برجله الحافية الشبيهة بكتلة من الحوُّارى – تراب بتراب ! – والى التراب نعود ! – فزر الفخاري الفيلسوف بضيعة بيت شباب .

في ظلال الجوز

دخلنا بيت شباب بسلام، وطفنا في معاملها وبيوت صناعاتها بسلام وامان، تخللها حادث غير جدير بالذكر لولا الاشارة الشيطانية فيه. فقد اجتمع حولنا زمرة من الاولاد، وسمع الاخ حنا احدهم يقول لرفيقه: «هذا اللي حرمه المطران» فهمس الكلمة في اذني وهو يستعجلني في الخروج من الضيعة.

ما خبني امرنا على اولئك الاولاد، وكاد لذلك يضطرب. فقد خشي الاخ حنا على روحي، بل خشي كذلك على روحه، اذ ان خبر فراره من الدير قد شاع، ومزق الاسماع. فلا عجب اذ خُيل اليه، كما أسرَّ بعدئذٍ الي، انه سمعهم يقولون كذلك: «وهذا اللي، هرب من الدير» اثنان كافران، تجمع عليهما الصبيان — عجل يا خواجا امين.

ان من الواجب علي الان، وان عجّلنا، ان احيط القارئ علماً بخبر الحرم الاسقفي. لقد اشرت في الفصل الاول من الرحلة الاولى الى عقيدة الكاتب الدينية الشاذة، وما كان من تأثيرها في اهل الفريكة. فقد وقفوا حائرين تجاه بدعة فاقت ادراكهم، وكان من حسن تعقلهم انهم في تلك الحيرة آثروا الحياد على اظهار العداء او الولاء.

وقد كان كتابي «المحالفة الثلاثية في المملكة الحيوانية» حديث العهد يومئذٍ، واثره عالقاً في انفس الناس، وكلهم او اكثرهم لا يقرأون. انما الاشاعات تعددت، وتجاوزت في انتشارها حدود الفريكة، فانبرى من احدى القرى المجاورة احد ذوي الغيرة على الدين يهيج جيرانه على الكافر. وقد الف المتهيجون لجنة دفاع عن الفضيلة والايمان، وراحوا يحتجون الى

اسقف الابرشية، ويطلبون مساعدته في استئصال شأفة الكفر من بينهم. الحرم، باسيدنا، الحرم. لا يؤدبه غير الحرم! فأستجاب سيادته طلبتهم، وأصدر حرماً كبيراً رهيباً يمنع فيه امين بن فارس بن انطون الريحاني القاطن في الفريكة بابرشية قهرص «من قبول الاسرار الكنسية ومن شركة المؤمنين ومخالطتهم.» او بالحري يمنع المؤمنين من مخالطته.

وقد كنت في تلك الايام شديد التمسك، بقواعد التنسك، أؤثر الوحدة الكلية على مخالطة الناس، فجاء الحرم في وقته ومحله، فكتبت الى سيادة الاسقف اشكره عليه، والى اهل الفريكة احضهم على طاعة اسقفهم، فيعملون بما يوجبه الحرم عليهم، ويتركونني وشأني.

استمرت هذه الحال بضعة اشهر، والناس بين محبذ، ومنكر، وطائع وساخر، فما نجم من الضرر ما يذكر، والحمدلله، لا على المحروم، ولا على جيرانه المؤمنين. على ان المحروم ظل موضوع احاديثهم ردحاً من الدهر، وغدا كالثور الابلق، يشار اليه بالبنان في القرى المجاورة للفريكة، وحتى في بيت شباب كما يبدو في الحادث الذي استوجب هذا البيان.

وبين نحن في تلك الحلقة من المتجمعين، وقد اقتدوا بنا في التسآل فأمطرونا وابلاً منه، سمعنا صوتاً كصوت جرس من اجراس بني نفاع ينتهر اولئك الصِبية، ويشتتهم ذعراً ووجلا. ثم سلم صاحب الصوت علينا، وهو يعتذر عن فضولهم ويقول: شرفتم الضيعة. اهلا وسهلاً بكم.

لقد كان لظهور سعيد الحائك في تلك الساعة وذلك المكان وقع جميل في نفسي ونفس الرفيق. اما تعليل الظهور، فهو كما علمنا ان سعيداً رآنا من شرفة بيته، فبادر الينا لينقذنا من صِبية البلد، ويدعونا الى البيت للغداء.

وقد كان سعيد في تلك الايام ولا يزال في مقدمة الشبان المثقفين الاحرار. وهو اول من خاطر بروحه فاحتقر حدود ذلك الحرم واقتحمها، فزارني في الفريكة، لا معزياً كما قال، بل مهنئاً. هي جرأة تذكر في تلك

الايام. بل ان سعيداً الحائك في الجبل وقسطنطين يني في بيروت كانا الاثنين الاولين من الانصار بعيد عودتي من اميركة في صيف السنة الرابعة من القرن العشرين. اني اذكر لهما هذه المأثرة وتلك الجرأة على الدوام.

ولا بأس ونحن في الطريق الى بيت سعيد بان ازيد القارئ علماً به وان كان يكره الظهور. فان المروءة والحمية تغلبان المرء بما يريد، والحقيقة نفسها لا تحترم مشيئة الناس. اقول اذن ولا حرج ان سعيداً من اسرة لبنانية كريمة يكثر فيها الطموح وحب المغامرة. فقد كان عم سعيد الشيخ ابو اسكندر الحائك رحمه الله اول من مدَّ ببصره وبغية قلبه الى ما وراء الافق البحري، الى الغرب، فهاجر الى مصر ثم الى انكلترة يحمل ما يحسنه من اللغة الانكليزية الى من يحتاج الى علمه من السياح.

ثم اقتدى به ابو سعيد فصار مثل اخيه رفيقاً لاولئك الانكليز والاميركيين الذين تشوقهم بلادنا، فيؤمونها سائحين، متنزهين ومستكشفين. فلا عجب اذا اقتفى سعيد اثر ابيه وعمه فراح يحمل مصباح الهداية في الاسفار في شرقنا العربي، فاشتهر في هذه المهنة، وكان الرفيق فيها للكثيرين من اهل الجاه والمال والعلم، فافاد واستفاد، وغدا بين اهله مقدماً عُرف بأصالة الرأي، والجرأة الادبية، وحرية الفكر والعمل.

وقد سافر سعيد مرتين الى الولايات المتحدة، فتعرف هناك الى صديقي — وصديق العرب والجياد العربية — الفنان المشهور هومر داڤنپورت. وقد سمع من غيره وهو هناك ما جعله يصدق كل ما قاله في من أحب، ثم قرأ كتيبي الاول « التساهل الديني » والثاني « المحالفة الثلاثية » وعاد بعد سنة يحمل الكُتيبين في حقيبته، ومعهما الى مؤلفهما سلام الاحرار، من وراء البحار.

بل جاء وفي جراب علمه بذور جديدة للزارعين. فمن مزاياه الحميدة انه لا يريد ان يستأثر بفضل او نعمة، ويعزُّ عليه ان يقال ان ابس في بيت شباب

من الشبان الاحرار سواه. إنَّ فيه شيئاً من نفسية الرسل الاطهار، يسارع الى نشر ما يدركه من علم، ولا ينفك يدعو لما يتيقنه من حقيقة او عقيدة.

ولا بد في مثل هذه الحال ان يكون من المزعجين، اي من اولئك المختارين، ذوي الغيرة والحماس، الذين لا يحسبون حساباً لما قد ينجم عن غيرتهم وحماسهم من الكرب لانفسهم ولاصدقائهم. فقد كان سعيد النصير الاول، كما قلت، الذي تجاسر ان يزور الفريكة بالرغم عن غضب الاكليروس على ناسكها. اما اليوم فالسعيدون كثيرون بفضله، ومع ان عددهم لا ينسيني السعيد الاول، فقد صرت اخشى من الازدياد على وحدتي، وصار الناسك يستغفر الله لصديقه الرسول.

اما وقد عرفتك اليه فيما هو بارز من مزاياه فلا يجوز ان اهمل واحدة منها. هو اخو اسفار. هو رفيق الكبار. هو في مقدمة الاحرار، وهو صديق الابرار. فيجب ان تعلم كذلك انه من اولئك الذين يرفعهم العرب الى اعلى منزلة من الفضل، اي انه من اهل الكرم والجود. على ان الكرم انواع، منه المكتسب، ومنه الموروث، ومنه الطبيعي. فصاحب الكرم المكتسب ينشد في كرمه الوجاهة والسيادة. وصاحب الكرم الموروث يرعى التقاليد في الكرم محافظةً على ارث مجيد او غير مجيد في بيته. اما الثالث فهو لا يرى في الكرم غير الكرم اولاً وآخراً. هوذا الكرم الطبيعي، وان فيه لصاحبه اللذة الكبرى.

ليس احب الى قلب سعيد من الضيافة، ويندر من هم اكرم منه فيها واعلم. قد يكون لمهنته الفضل في ذلك العلم، اما الباقي فمن فضل ربك. ولكن العلم وحده يدهشك، ويثير فيك الاعجاب به. ان صديقي كمربي ضميم في اقامة المآدب، وانه لأمهر من عرفت في ارتجالها، اذا جاز التعبير، هو شاعرها. هو سيدها. هو مجنونها. ولا اظن ان اجنبياً يمر ببيت شباب

دون ان يعلم به سعيد الحائك، فيقطع عليه الطريق، ويفرض عليه الضيافة...

وصلنا الى البيت القائم في قلب الضيعة، عند سَنَدٍ من الجبل، في ظلال بواسق الجوز، وقد تخللتها المياه الفضية، الجارية من ينابيع الساحة العليا. على ان الطريق اليه، مثلها امام بابه، محفورة في أسناد الجبل، وقلما تتسع. تدخل من الجهة الشرقية والجبل وراءك قائم كسور الصين. اما من الجهة الغربية فالمشهد متزامي الاطراف جليل مهيب. هناك من قرى بيت شباب الشاوية والقنيطرة والفريكة. وهناك الى الشمال جبل كسروان بصخوره ونفانفه الهائلة، وبغاباته وقراه المطمئنة، وباديرته المستأثرة بالربى المحصنة بها. وهناك دون الاديرة والغابات خط ازرق، او بالحري جدار ازرق متصل بالسماء — هو البحر كما يبدو من اعالي الجبال، وهنالك اشياء بيضاء شبيهة بالحمام هي اشرعة المراكب التي كانت قديماً سيدة البحر المتوسط.

كانت الساعة تدنو من الظهر عندما وصلنا الى البيت. وقد رحبت بنا نساؤه الفاضلات أم سعيد وزوجته وامرأة عمه، وشرعن يُهيّئن «لقمة» للضيوف. وما اكثر المقدمات لتلك «اللقمة»! فقد جاءتنا احدى السيدات بكؤوس من شراب التوت، ثم جاءت الخادمة بالقهوة والاراكيل، وبعد قليل دخل الخادم يحمل طبقاً كبيراً، مزيناً بالقناني، ومزدحماً بالمقبلات.

قد تظن ان المشروب والمقبلات في الضيافة اللبنانية حيلة يحتالون بها على الضيف فيشغلونه في الوقت الذي يقتضيه تحضير الطعام. ان في هذا الظن بعض الاثم او كله. فالمقبلات نفسها تدهشك بتعداد اشكالها والوانها، البسيطة والمركبة، المطبوخة والخضراء، المجلوبة من البحار ومما وراء البحار، ومن شتى البساتين والبلدان. فهناك لحم الخنزير الاميريكي، ومعجون الكبد الفرنسي، والسردين الطلياني، والجبن الهولندي. وهنالك الباذنجان المكبس الدمشقي، والفستق الحلبي، وحشيشة البحر البيروتية،

والقصبة النيئة الشبابيه، والكلاوي المشوية. وهناك البذورات، قوافي قصيدة المقبلات. ومعها من المشروب العرق والبيرا والوسكي والسودا. .
كأن لصاحبنا « جراب الكردي » المشهور في قصة من قصص الف ليلة وليلة. هات، يا خادم الجراب ! لبيك، يا صاحب الجراب.

هوذا المضيف الذي يتبارى الذوق والكرم في ضيافته. ثم يدهشك الدهشة الكبرى، اذ يدعوك الى « اللقمة » — الى مائدة هي بنت ساعتها — بعد ساعة ونصف ساعة من وصولك.

هي الإدارة والحركة والاناقة التي تتصف بها النُزُل الكبيرة في المدن العظمى. وهو الكرم الذي يتصف به اللبناني الكريم. وهي السرعة في التحضير التي تمرن عليها مضيفنا في مهنته. مأدبة فاخرة يسحرهـا من عالم الغيب الى عالم الوجود خادمُ « جراب الكردي »، فاتحتها لحوم افرنجية ممزوجة بالبقولات اللبنانية، وخاتمتها ثمار الجبل، وبين الاثنتين فصول شائقة تتمثل فيها الالوان الوطنية التي تتقدمها الكبة النيئه، ويتلوها الدجاج المحمّر، والمحاشي على انواعها.

وقد شربنا من خمر لبنان المعتقة، التي تفوق الـ« شري » الاسبانية، والـ « پورت » الانكليزية، والـ « ديبونه » الفرنسية، تفوقها كلها بطيب المرار والشذى، وبنعومة الحد والصفاء. شربنا على ذكر اصدقائنا في الغرب، وفي مقدمة الاجانب منهم، ذلك الاميركي المحب للسوريين، هومَر دافنپورت رحمه الله. وشربنا على ذكر اصدقائنا الوطنيين، وفي مقدمتهم ذلك الشبابي الكريم، اول من هاجر من بيت شباب الى فرنسه، واصبح نقيب التجار في باريس، ذلك التاجر الاديب، والعربي اللبناني الصميم، عباس البجاني رحمه الله رحمة واسعة.

وكنت ارى سعيداً يخص بالاكرام الاخ حنا عندما علم انه فرَّ هارباً من الدير، وانه قريباً يخلع الثوب الاسود ويهجر الجبل كما هجر الرهابين.

هو الذي جهر بذلك، بعد ان افرغ الكأس الثانية من الخمر:
« سنسافر الى اميركة ان شاء الله » قالها بهذه اللغة الفصحى وسكت.
انه لقليل الكلام، وخصوصاً عند الطعام، فلا يجمع بين العملين الاكل والحديث. بيد انه في الاول أمهر منه في الثاني. كيف لا، وهو يهجم على السماط هجمات الابطال. يدير خبزته في صحن الكبة فيزول نصفه بلحظة عين، ويتناول الدجاجة بكلتا يديه فيذهب بالفخذين، وانت تستشهد الملكين، ويلتهم محشي الكوسى الحشاية تلو الحشاية كانها حبات من الزيتون! لله درّ الاخ حنا، القاهر الخوان، المذلّ الجفان.

حاول سعيد ان يملأ له الكأس الثالثة من الخمر، فحلت دون ذلك، فجمجم صدى اعتراضي، وفي صدره رغبة كامنة. فقد كان يظن اننا سنقضي النهار والليل عند صاحبنا، وأخطأ الظن. وهل يجوز، بعد هذه المأدبة، ان تلقي على مضيفك اثقال اختها؟ او ان تخجله فتحمله على الاعتذار ساعة العشاء؟ مع اني كنت متيقناً انه يستطيع ان يفوق خيره خيراً وابداعه ابداعاً بعد ست ساعات اخرى فقد احجمت، واستأذنت بالرحيل.

وكانت ضجة اسف صادقة، لا احاول ان اصفها، اشترك فيها صاحب البيت وخواتينه الكريمات. فذكروني في العزيمة والالحاف، وفي استحلافهم اياي باني اعود لاقضي عندهم بضعة ايام، ذكروني باصدقائي الكسروانيين. فوعدت وودعت. بل وعدت ليُؤْذَنَ لنا بالوداع.

وما رضي سعيد بوداع واحد في بيته، فرافقنا، أسند معنا الى رأس الضيعة، فوقفنا هناك مودعين الوداع الاخير.

سطوح الجبال

ان للجبال في تكوينها انواعاً من العظمة والجمال لا يدركها المرء وهو بوسطها او بالقرب منها. فهي لا تبدو بشتى اشكالها، وبما يرمز الى حالها، الا من المشارف العالية، او من المواقف الكشافة، النائية نأياً متوسطاً لا يحول دون مدّ البصر ولا يزيد عليه. فالقرب يشوّهها، والبعد يموّهها، فتبدو كالاطلال حيناً، وحيناً كالظلال. اما اذا اشرفتَ عليها، او نظرتَ من المكان الكشاف اليها، فانك اتراها مجموعةً متقطعة، متموجةً متسلسلة، هاويةً شامخة، مرحِبةً متجهمة، مطمئِنةً منذرة. هاكها تحت قدميك فاغرةً فاها، هاكها امام ناظريك ناشرةً بهاها، هاكه الطريق المباح، لذوي الاجنحة والرياح—

وللمتطاولين عليهم. فها نحن في رأس الجبل المتمدد على صدره بيتُ شباب. وهذه القرى المنتثرة في ناحيتها الغربية هي من الوجهة الاجتماعية صغيرة حقيرة. ينظر اليها ابناء الضيعة من أسنادهم ومنحدراتهم نظرة الواقف على القنة الى المقيم في سفح الجبل، او في وادٍ من اوديته، او بين اضلعه وروابيه، هي محتقرة مستضعفة، واهلها فلاحون مزارعون.

اما المشهد الطبيعي، المنفصل عن الحالة الاجتماعية، فهو من اعالي بيت شباب مشهد رائع في تنوع اشكاله، القائمة في اوديته، المتسلسلة في روابيه، المحصنة بين اضلعه، الحافلة بالدساكر والقرى. وما اجملها في هذا الموقف، تلك القرى المغمورة بشمس الهجير، فتبدو بقرميدها الاحمر خلال البساتين والغابات كجُزُرٍ من المرجان في بحورٍ من الزمرد واللازورد.

ودعناها من المكان الذي هو الافق الشرقي للناظر اليه منها، المكان

الذي تشرّفه شمس الصباح بَنسمها، وبوطء قدمها. وولينا الوجه شطر المشرق، فاذا هناك، فوق الرواسي العديدة سيدها الاكبر صنين. جبل صنين، احد جبابرة السلسلة اللبنانية، قد تعودت ان اشاهده في اوج مجده، وفي سائر عظمته، من الفريكة، فرابني بل خيّبني عندما شاهدته للمرة الاولى من مكان اعلى من الفريكة واقرب اليه.

وهل يتجلى بكليته، بمهابته وجلاله، باشراقه وظلاله، بشموخه واستئثاره، وبما يطأطيء الرأس عند قدميه من الآكام والربى، وبما يمثل بين يديه من الاودية والانجاد، هل يتجلى صنين بمجموع عظمته وجماله من غير الجهة البحرية، من احدى الآكام الغربية؟ فلو نظرت اليه من سهل البقاع مثلاً لما رأيت غير نصفه الاعلى، ولَضاعت نوافل مجده كلها. ولو وقفت عند نبعهِ ورفعت اليه البصر لبدا لك مقطوعاً مبتوراً، جافاً جافياً، لا تدمّثه شمس الفجر، ولا تؤثر به شمس الغروب.

صنين ساعة الغروب! هل شاهدته مرةً يتجلبب بالالوان التي تنسجها له الشمس الغاربة على منوال الغيوم البحرية؟ هاكه في جلباب فضي. هاكه في ثوب ارجواني. هاكه في قميص من نسج الورد والزعفران. هاكه في جبة الغسق البحران. وهل شاهدته ساعة الفجر، ساعة تطل الشمس من وراء عرشه فترسل اشعتها الناعمة على الحقول والآكام، وفوق الاودية الماثلة بين يديه، فتستخرج من مشبّحاتها حقائق الفن في الحياة؟ ساعة الشروق تستيقظ رغبة صنين، وتلبس على مهل ثيابها، فهي اذ ذاك بهجة للناظرين. فالغابات المنتشرة بين الربى تغدو خضراء، والآكام القائمة دونها دكناء، والبطاح الرملية صفراء، والاودية السحيقة سحماء، والحقول المفلوحة المزروعة بنية حمراء. وبينها اديرة عامرة في وحدتها، تفرش قرميد سطوحها لنور الفجر، فيلمع فيه الذهب، وترفع زجاج نوافذها لنور المغيب، فيبرق فيه الماس.

اما الشموس في رائعة النهار فان وهج الاشعة العمودية يذهب بالالوان الا الاسحم منها في الغابات، والادكن المخطط بالخطوط الصهباء — أثر الحديد — في الآكام الصخرية. وهناك في التلوين عوامل جوية اخرى غير ما يكون منها في ساعتي الشروق والغروب. فالضباب الشفاف بعد المطر مثلاً يتخلل النور والظلال، فتتميز الالوان بعضها عن بعض، فيبدو أثر الحديد في الصخور أشد احمرارا، وتغدو خضرة الحقول اصفى اخضرارا، وتبرز حروف الآكام جلية، فتشعر بما يفصل بعضها عن بعض من الوهاد، وهي في كل حال سحيقة قصية خفية.

ليس للجبال حدود مسنّمة كما يظهر في الآفاق. بل ان الارض لتنفرج وراء كل افق وتتسع. وان لكل جبل مدارج من السفح الى القنة، وسطحاً دونها فسيحا. وهناك للجبل الواحد سطحان وثلاثة سطوح، قائم بعضها فوق بعض.

اننا الان سائرون على سطح جبل بيت شباب الممتدّ شرقاً من بكفيا الى بتغرين. وهو يتراوح في علوه عن سطح البحر بين التسعمئة والالف متر. اي ان في مستواه صعوداً خفيفاً من الغرب الى الشرق — من بكفيا الى بتغرين — لا يتجاوز المئة متر. اما في الجهة الشمالية فهو يتهدم فيتقطع وهاداً واودية، فتتكون فيها الاضلع والآكام، وهي تنحدر كلها هادئة حيناً، وحيناً مضطربة، بفعل العناصر العادية او الزلازل، حتى نهر الصليب.

ولكن في الجهة الجنوبية أسناداً تصل بك مدارجها الى سطح آخر من هذا الجبل، مستواه مئتان وخمسون متراً اعلى من مستوى السطح السائرين الان عليه. فمن ضهور الشوير (١٢٠٠ متر) الى المروج (١٢٢٠ متراً) الى المتن، (١٢٠٠ متر) ثم يستمر الإسناد الى عينطورة (١٣٥٠ متراً) والى ما فوقها من الصرود التي تتصل بالقنن العليا المشرفة على سهل البقاع.

ان شكل الجبل اذن هو على الاجمال مدرّج، الا ان الدرجة منه قطعة من الارض واسعة، وآخره مسطح لا مسنم. زد على ذلك ان الدرجات متهدمة هائرة. والاصح ان يقال انها تهدمت منذ مئات الالوف من السنين وثبتت في هذا الشكل المتهدم، الذي يتخلل وهاده، ويلصق بثناياه العمران! فالانسان وهو ينشد مكاناً يقطن فيه يختار اولاً ما كان قريباً من المياه، ثم ما كان خصب التربة قليل الوعور. هذا على الاجمال.

على ان اجدادنا اللبنانيين الاقدمين كانوا يفضلون الاماكن الوعرة، على ما يظهر، النائية عن الطريق العام، لا اتقاء اللصوص فقط، بل خلاصاً مما كان في ذلك الزمان أشر الشرور، اي من التسخير — الاستعباد — المدني، او الاضطهاد الديني.

بكفيا — بيت الصخرة، كما يقول العالمون بالاصول السريانية، فهل يعلم احد اولئك المتضلعين من علوم الاقدمين وآثارهم كيف ابتُنيت بكفيا. ومن ذا الذي وضع الحجر الاول في البيت الاول منها؟ اني اتمثل ذلك الكلداني المتكلِّد الذي فرّ هارباً من تسخير ملك جبيل، او من اضطهاد كهان البعل، وبنى له كوخاً في ظل هذه الصخرة، على رفٍّ من رفاف هذا الجبل، وأسماه بكفيا.

وقد يكون لصاً شريداً، او مجرماً طريداً. ذلك الادمي الدوسري الذي توقل هذا الجبل الى سطحه فاختار زاوية من احدى زواياه أوى الى كهف فيها، وأسماه وادي شاهين مثلاً او باسم حرفته ابو ميزان.

بعد ان تخرج من بكفيا، قرة عين المصطافين، ينحدر سطح الجبل الى الشمال انحداراً هادئاً، فيتسع ويتقطع حقولاً وآكاماً، تطمئن اليها المزارع التابعة لبكفيا. فتعمر وتزدهر كوادي شاهين وعين الخروبة والمياسة وحملايا تحت شوايه — وابو ميزان تحتها وفيها «شركا» دير مار الياس شوايه للروم — وتحت ابو ميزان في قعر الوادي دير شمرا وهي مزرعة

مار الياس شوايه للموارنة. وهناك اراض اخرى مزروعة هي ملك دير مار انطونيوس (بيت شباب) وغيرها لدير مار نوهرا القائم في الحرج بين بيت شباب وبكفيا. كل ما هو مزروع من سطح الجبل الى النهر هو للاديرة!

كادت الاديرة واملاكها تنسينا الطريق. فهناك الجبل الى الجنوب – الى يميننا – في أسناد مستمر، فنجتاز – ولا نرى – ضهور الشوير فوقنا، ثم المروج، وبين القريتين غابة من الصنوبر جليلة ظليلة، امست بعدئذ محط رحال المتأنقين من المصطافين، فصارت تدعى بالافرنجية « بواده بولون. » واننا نثأر للعربية من الذين اسموها بهذا الاسم فنعربه ونختصره فنقول: حرج بولان.

وهذه شوايه الى يسارنا، وهذا، الى اليمين على تلك الرابية، الدير المزدوج المعد للصالحين من رهابين الموارنة والروم. هو دير النبي ايلياس الماروني، وهو دير النبي ايلياس الارثوذوكسي. والديران متحاذيان، غير متخازيين. الا ان الماروني منهما، وهو وقف المطران فيلبس الجميّل الذي استوطن جده شوايه في اوائل القرن الثامن عشر، أثار حرباً بين الرهبان وسيادة الاسقف، اختلطت فيها المطامع الرهبانية – الحلبية واللبنانية – فتدخل البطاركة في الامر وانقذوا الدير من براثن الاطماع والاحقاد، فصفت الهبة للنبي ايلياس الماروني المجاور لاخيه النبي ايلياس الارثوذوكسي. وفي الديرين اليوم سلام، والحمدلله – وخمر معتقة.

قال احد السياح الانكليز، الذي زار لبنان في اوائل القرن التاسع عشر، ان الاديرة ترحب بالطارئين وتضيفهم « وتقدم لهم، بكرم شرقي، من جيد الخمور اللبنانية. » لذلك كان يفضل ضيافة الاديرة على سواها. ولكن ذلك الانكليزي لم يكن محروماً مثل هذا الكاتب « من مخالطة المؤمنين » قد كان في النية، مع ذلك، ان ازور دير الايلياسين النبيين عليهما السلام، وابيت فيه، لولا رفيقي الاخ حنا الهارب من الاديرة. فسُنّة السفر

تقضي بألّا تعرّض رفيقك لشرور الزمان، او لكيد الرهبان.

لذلك استمررنا سائرين، فوصلنا الى الخنشارة القائمة في ارض يكثر فيها معدن الحديد. وقد استثمره في القرن الماضي ابراهيم باشا عندما كان محتلاً هذه البلاد. هذا ما يقوله شيوخ القرية، ويزيدون عليه ان اثر المناجم والمسابك لا يزال بادياً للعيان. ما عاينّا ذلك الاثر، ولا كذبنا الخبر.

على ان في الخنشارة ما يدل عليها من الآثار الحية الطيبة. فما لا ريب فيه ان لهذه القرية فضلاً على طرق جبل لبنان، وان للخزنة اللبنانية فضلاً على اسرة مساحة المشهورة ببنّائيها ومهندسيها. هذا في ايامنا السعيدة. اما في الزمن الماضي الاسعد فقد نبغ في الخنشارة عدد غامر من رجال الدين وفيهم الايكونومسة والمطارين من ابرار بيتَي الكفوري والرياشي، الذين خدموا ربهم بقدر ما فقهوا من اغراضه، وادركوا من الوهيته. فأين منهم مَن هم مِن مشاهير هذا الزمان ؟

كدت انسى، ولا غفران لو نسيت، من قام في هذا الزمان من آل كفوري يقتفون اثر اجدادهم الصالحين، في خدمة رب العالمين، ويزيدون عليها خدمة اخوانهم بني آدم في هذه الدنيا قبل الاخرة. ولا شك عندي ان روح اولئك الايكونومسة والمطارين تنظر اليوم بعين الرضى عن المكملين لعهم، المقدسين لسرهم، من انسبائهم العصريين، وفي مقدمتهم الخوري بولس الكفوري رحمه الله، والاستاذ جورج الكفوري امد الله بايامه.

على ان شهرة الاثنين الكفوريين هي كالحبة اذا قيست بتلك القبة الحمراء لشهرة ذلك الرياشي «التائه» الاستاذ اسكندر، المعلم الاكبر، للفن الاشهر، الممجد الغرام، بين الانام، المشعل للسرور مصابيح في هذه الفانية، الرافع علم المسيح للمومس والزانية. فان شهرة اسكندر شهرة دوسرية اذا نفخت شهرة من تقدمه من ابرار اسرته واسرة كفوري نفخةً واحدة

جعلتها هباء منثورا .

قرأنا السلام على الرياشي والكفوري، وعلى بني سماحة وواصلنا السير الى بتغرين، فادركنا « خراجها » - تخومها - بعيد الغروب .

حكيم بتغرين

سألت الاخ حنا، قبل ان دخلنا القرية: اي بيت نطرق للمبيت.

فاجابني مستفهماً: وهلا تعرف احداً في بتغرين ؟

فقلت معترضاً : وهل تظن ان لي في كل قرية من قرى لبنان صديقاً مضيافاً كمن لقينا في بيت شباب ؟

فقال مستنكراً : وهل تنزل ضيفاً على الغريب ؟

فقلت ماضياً في الاستفهام والاعتراض: وهل اخشى ان أُرَدَّ خائباً وانت معي ؟

— « ارجوك، يا معلمي، ألَّا تتهكم علي . »

— انت تخشى ان نعامل كشحاذين الكلدان . وما ضرنا اذا نمنا في الفلاة، او في تنور ؟

— « انا اعتدت المشقات . ولكني اخشى عليك منها. وقد اوصتني الوالدة بك . »

— اذن، جاوب على سؤالي الاول : اي بيت نطرق للمبيت ؟

— « ما لنا غير بيت الشيخ، شيخ القرية . »

— أتريد ان تقول: عصفور باليد ولا عشرة بالشجرة. انت ثعاب في ثوب راهب. سنتعدى بتغرين، ونظل ماشين الى بسكنتا.

— « الى بسكنتا ؟ أنقطع وادي الجماجم في الليل ؟ ! »

— وما المانع ؟

— « لا تؤاخذني، يا معلمي، هذا جنون منك . »

— وهل تأبى ان تجن مثلي ؟ اذن، عُد الى البيت. انا ماشٍ الليلة الى

بسكنتا.

قلت هذا بشيء من الغضب، وخلّفته. فلحق بي مسرعاً، وهو يقسم بالله، ويسب الشيطان.

فقلت: وما معنى القسم والسب، يا «خي» حنا؟

فاستوقفني وهو ينهج ويقول: والله، يا معلمي...

— والله — وبعد والله ماذا؟

— انا لا اخشى ان انام في الفلاة، ولا اخشى ان امشي في الليل. ولكني اخشى عليك. ووادي الجماجم واد هائل مخيف.»

— وممَّ الخوف؟ ان كان في الوادي وحوش ضارية، فالقديس فرنسيس شفيعنا لديها. القديس فرنسيس الاسيسي هو قديسي الاطهر، وهو العاقد والذئاب معاهدات ولاء ووفاء. وان كان في وادي الجماجم قطاع طرق، فهم هناك يسلبون المسافرين اموالهم. فماذا يسلبوننا ونحن لا نحمل ذهباً ولا فضة.

— «كلامك على الرأس والعين يا معلمي. ولكني لا اخفي عليك...»

— قل. افصح عما بك.

— «المشي، لا في النهار ولا في الليل، يتعبني. ولكنه يؤثر بمعدتي التأثير المفجع.»

— وهل انت جائع؟ امأدبةً منذ ساعتين وانت الآن جوعان؟

— «المشي يعجل بالهضم، يا معلمي، ويهيج الشهوة للاكل.»

— انت تفكر اذن بعشائك.

— «بعشائنا، يا معلمي.»

— ثعلب انت في ثوب الرهبان. سننام الليلة بلا عشاء.

— «كما تريد — كما تريد.»

وكنا قد دنونا من البيت الاول في بتغرين، فخفضت الصوت، وانطفت

اللهجة، فقلت مطمئناً الرفيق: سيكون لك ما تشاء. قل ان شاء الله.

– « ان شاء الله. »

– وتحقيقاً للامل سنختار المبيت على خيرة الله. قل: على خيرة الله.

– « على خيرة الله. »

– سنعُد اذن اثني عشر بيتاً، ونطرق، بعد التوكل على الله، باب البيت الثالث عشر.

– «اتختار العدد ١٣، سمعتك مرةً تقول ان الناس باميريكة يتشاءمون به.»

– وهل نحن الآن باميريكة؟ وهل من شؤم او سوء مع توكل على الله. توكل على الله يا «خي» حنا.

– « توكلت عليه عندما دخلت الدير، يا معلمي. »

– فأنقذك، سبحانه وتعالى، من الدير.

– « صحيح، صحيح. توكلت على الله، توكلت عليه تعالى. »

– وهوذا البيت الاول من بيوت بتغرين، عُدّ، ولا تخطأ في العد.

سرنا بين بساتين من التوت، نعد البيوت، بصوت فضّاح سمعه الواقفون في ابواب الدكاكين فتهامسوا، وسمعه الصبيان في الطريق فقهقهوا، كأنهم يقولون: بالغريبين مس من الجنون.

وها نحن امام البيت الثالث عشر المحاذي للطريق. هو بيت وضيع، يقوم امامه، ملاصقاً للحائط، بعض اشجار الازدلخت. وقد كان الباب مفتوحاً، وصاحب البيت واقفاً هناك، فسلمنا عليه باللغة اللبنانية: « تمسيكم بالخير. » فرد السلام بمثله: اسعد الله مساكم. تفضلوا. تفضلوا.

فتفضلنا. او بالحري وقفنا مستبشرين، فأثلث قائلاً: تفضلوا، واردفها بـ« شرفوا ».

دخلنا البيت مطمئنين، فاذا نحن في دار منه صغيرة، مرصوفة بالبلاط البلدي، والى جانبيها ديوانان متقابلان عربيان بمساندهما وقماشها الشامي

المخطط، ومقصورهما المخرّج الاطراف، الناصع البياض.

جلسنا على الديوان، وكان المألوف من السلام. ثم انتقل صاحب البيت الى الفصل الثاني من الحديث فسألنا: من اين حضرتكم.

قلت: من الفريكة. انا امين بن فارس الريحاني، وحضرته الاخ حنا ابن جرجس بن بطرس الملاح.

وقد سرني ان يكون للاسمين وقع واحد في نفسه. سرني ان شهرة «الكافر»[1] لم تصل الى بتغرين.

ثم سألنا عن بعض من يعرفهم في الفريكة وجوارها، ففتح للاخ حنا باباً للحديث.

وكان قد أوعز الى امرأته بتقديم القهوة، فجاءت خلال الحديث بها. وبعد ان شربناها ودعونا بدوامها، سألنا صاحبُ البيت السؤال الثالث: وهل جئتم تستشيرون الطبيب؟

الطبيب! كنت قد سمعت بحكيم بتغرين، الذائع الصيت ليس في قضاء المتن فقط، بل في كل اقضية لبنان، فيقول الناس، ان كان في كسروان او في الشوف. حكيم بتغرين، وكفى. ومنهم من كانوا يعرفونه باسمه الاول فيقولون: حبيب البتغريني.

ما كان حبيب من الاطباء الرسميين، الحاملين الشهادات الفخمة، المكتوبة باللغتين العربية والتركية في ذلك الزمان. ولا كان من الدجالين، ابناء عم المغاربة، الذين يداوون جميع الامراض بالاعشاب وبالقراءة في كتب السحر والتنجيم.

بل كان طبيباً قليل العلم بما في الكتب[1] كثيره بالخبر والتجربة.

---

(١) من الكلمات العربية المأثورة: من اخذ النحو عن الكتب لحن في الكلام، ومن اخذ الفقه عن الكتب افسد في الاحكام، ومن اخذ الطب عن الكتب قتل الانام.

وقد اشتهر خصوصاً بالجراحة والتجبير، فكان يجيئه المعلولون من اقاصي الجبل، فيتزلهم في بيته الذي كان شبه مستشفى، ويحسن معاملتهم ان لم يحسن المعالجة. فمن اخلاقه الطيبة انه كان كريماً متواضعاً، وما كان يطمع بالمال.

اجل كان، رحمه الله، من الطراز القديم المبارك، من سلالة اولئك المحسنين الى الناس بما عملوا وان قل علمهم. ولا اظن ان اغلاطهم في المداواة كانت اكثر من اغلاط اطباء هذا الزمان الرسميين، او ان ضحايا جهلهم، او تدجيل بعضهم، كانت اوفر مما هي في المستشفيات الحديثة — ومما هو مؤكد محقق ان اولئك الاطباء، المتخرجين من مدرسة التجارب والزمان، كانوا مشهورين ببرهم، فكان اشدهم حباً للمال يداوي المرضى مجاناً اكثر من النطاسي الشفيق الكريم في هذا الزمان تباركت تلك الاخلاق العالية، وتبارك العلم الذي لا يفسدها.

ومما هو جدير بالذكر والاعتبار — ما زلنا في الموضوع — ان الامراض في زماننا هي على الاجمال سريعة في مجراها، مثل غيرها من مظاهر الحياة. نعم، هي سريعة الفتك والقضاء — على الاجمال. وما كانت الابهة صفةً ملازمةً للمهنة كما هي اليوم.

في ذلك الزمان زمان، البتغريني حبيب واسلافه الصالحين، كان يجيء من قبل المريض احد اهله او اصدقائه، ومعه بغلة بسجادة فوق جلالها لحضرة الحكيم فيركب حضرته، وتسير البغلة سير الخالي البال المتنزه، ويسير الرسول ماشياً على هواها، وراءها او قدامها. وكان يستمر السفر يوماً او يومين او ثلاثة ايام في بعض الاحايين، فيصل الحكيم الى بيت المريض، فيجده هناك، منتظراً نعمة الشفاء والعافية. حتى وان تكررت العيادة الطويلة السفر، الكثيرة المشقات، فالمريض لا يخيب امل الحكيم اذا شفي او مات فعلى مهل في الحالين، على مهل.

اما اليوم فالمريض في بسكنتا مثلاً يطلب النطاسي الشهير في بيروت، فيركب هذا سيارته الكبيرة الفخمة، ويعطيها البنزين بكرم اميركي، فيصل الى تلك الضيعة في سفح جبل صنين بعد ساعة ونصف ساعة، فيلقى المريض في حالة يهز لها رأسه، او يلقاه وقد لفظ النفس الاخير او كاد، فيقبض اجرته نقداً ذهباً، ويعود الى المدينة باسرع مما جاء منها. ولا يهمه ان العجلة من الشيطان، وان عزرائيل هو ابن عمه.

اما في قديم الزمان، وفي زمان حبيب البتغريني، فقد كان الحكيم يركب البغلة او الآتان، ويقول للشيطان: لا تستعجلني، ولا تطمع برجائي. فاني طبيب مؤمن بالله وبرسله، وبقديسيه واوليائه جميعاً، وما انت الا شيطان. فاذا كنت المبشر بـ «مشمّرِ الاردان»[1] فامسح العرق من جبينك، واجلس هنيهة فنستريح ونريح البغلة. ومتى وصلنا نخيب مسعاك ان شاء الله، ولا يخيب املي.

وهكذا الحكيم حبيب في بيته مثله في عيادته، لا يعجل ولا يستعجل. قال لنا ثلاثاً: تفضلوا. ثم قال: شرفوا. ثم سلم سلاماً لبنانياً فسأل عن حالنا وعن الاصحاب في القرية، وقدم خلال ذلك القهوة، فشربناها ونحن ننفخ فيها لنبرّدَ حرارتها — والاخ حنا يصوّت في النفخ والشرب صوت صفير البلبل — كل ذلك على مهل، على مهل، الى ان حان وقت العمل فسألنا: هل جئتم تستشيرون الطبيب؟

وما ذهب شيء من رخيم صوته، او لطف ابتسامته، عندما اجبته قائلاً: اننا والحمد لله بخير. ولكننا على سفر، ولا بد من مبيت. ورفيقي يشكو الجوع.

فقال الحكيم هاشا باشا: اهلاً وسهلاً ومرحبا. وكررها. ثم نهض

---

(1) «يمشي وعزرائيل من خلفه مشمّرِ الأردان للقبضِ»

ينادي السيدة زوجته، وهو يعتذر الينا عما قد يكون من تقصير: نحن نبكر في العشاء، فقد سبقناكم. ولكن المثل يقول: خير الجود الموجود.

وبعد قليل دعتنا السيدة الى السماط، وفي وسطه من عشاء البيت البطاطة باللحم والارز، وحولها الزيادة – نعمة كريم – تتقدمها بيضات مقلية بالدهن معها بصلات بيضاء كبيرات مدورات، وتحف بها سلطة البندورة وصحاف من الجبن والزيتون، وجفنة كبيرة من التين المطبوخ، ووَفرة من الخبز الرقيق.

انطح الزاد يا «خي» حنا.

رسم الاخ حنا شارة الصليب على وجهه، ومد يده الى بصلة من البصلات، فقطع رأسها باسنانه، ووضعها على الارض فضربها بجموعة يده، فسال منها العصير، فسال له لعابُه. ولا تظنه اكتفى بالبيضات والبصلات. يكفي ان اقول انه، بعد اربع ساعات من تلك المأدبة الفاخرة في بيت شباب، فتك بسماط الحكيم حبيب فتكاً ذريعاً. وبعد ان «حلى ضرسه» بلقمات عظيمات من التين المطبوخ، وتلمظ شاكراً حامداً، رسم شارة الصليب ثانية على وجهه، ونهض والعافية ملء جبته.

ومع العافية السلامة، والرغبة في دوامها. الا انه ارتاب على ما يظهر في دوامها اذا استمر مرافقاً لي في هذه الرحلة. فقد سمعته، قبل ان دخلنا غرفة النوم، يسأل الحكيم عن وادي الجماجم، ورأيته يهز بجمجمته.

وفي صباح اليوم التالي ناديت، عندما افقت، الاخ حنا، فلم يجبني. انهض يا «خي» حنا. سبقتنا الشمس يا «خي» حنا. لا جواب، ولا صوت شخير او صفير. قد يكون سبقني الى الدار. اخطأت الظن. قد يكون منتظراً خارج البيت. أسرفت في الامل.

ثم سألت الحكيم: اين الاخ حنا؟ ولكن الحكيم لا يدري ولا المنجم يدري. على ان زوجة الحكيم قالت انها سمعت الباب يُفتح باكراً،

فنظرت من الشباك، فرأت الراهب في الطريق، وهو يمشي مسرعاً صوب الخنشارة!

حاشية : قد يسأل القارىء عن مصير الاخ حنا بعد ذلك، فاني مقصر الجواب، اذ لست الان مؤلف رواية لا تتبع سيرة روحي الحميدة. جل ما اعلمه انه عاد الى الفريكة، وخلع بعدئذ عذاره الاسود – ثوب الراهب – واعتذاره لابس الخلاعة، ثم سافر « مسرورا بخلعه وخامته » – العفو يا سيدي الفارض (١) – الى اميركة.

حاشية اخرى : كان حبيب البتغريني الحكيم الوحيد يومئذ في بتغرين. وهو اليوم السلف الصالح لرهط من الاطباء الرسميين، من أُسر صليبا والمر وصوايا، الحاملين الشهادات المزينة بالختوم الذهبية – المفترَض صلاحهم. وهناك رهط اخر من اسياد هذه الاسر الثلاث الحاملين اللقب الجزل الجليل «ايكونوموس» واكثرهم اصبحوا من المجاورين لربهم. اما اذا كانوا من غير المجاورين، لا سمح الله، فالثلاثة النوابغ البتغريون الاصل او المولد، متري المر الموسيقي ودعيس المر المحامي ايلياس المر المهندس، يشفعون بايكونومسة بلدهم واطبائها ان شاء الله

(١) « خلعت عذاري واعتذاري لابس الخلاعة مسرورا بخلعي وخامتي » الفارض

وادي الجماجم

كانت الشمس الشارقة تبعد عن قنة صنين السخماء بعداً يربو على الالف ميل في الحساب الفلكي، ولا يتجاوز الميلين فيما يتراءى للاديب او البقال. والاصح ان يقال كان قد دار شرقاً نحو الف ميل من الكرة الارضية، بعد ان بزغت الشمس من وراء صنين، احدى الرواسي البارزة في السلسلة التي تدعى جبل لبنان — لله من التدقيقات العلمية! كلما دققت توغلت في الخطأ. فالاديب العربي يقول في الشمس وارضها في مثل هذه الساعة من النهار: تكبدتِ الشمس السماء، ولا يبالي ان كانت كَبِيْداء السماء فوق لبنان، او فيما وراء الدَّبَرات.

وحسبي انا ان اقول انها كانت هنالك، شمس ذلك النهار من ايلول — هنالك في مطلع مجدها الارضي المسمّى في القاموس الضحى، تغمر الاودية والجبال، والقرى والكروم، بعديق نورها وحرارته، عندما وقفت اودع مضيفي الكريمين، فارتفع صوت الحكيم وصوت زوجته بالنفس الواحد، واللهجة الواحدة، ان لا يجوز ذلك ولا يليق. فيجب ان اقيم عندهم يومين او ثلاثة ايام. فشكرتهما واصررت على الوداع، فقال الحكيم ان اجتيازي وادي الجماجم وحدي مغامرة لا تخلو من خطر. فما عدلت عن قصدي. وقالت سيدة البيت ان المسافة بعيدة، وقد لا اصل الى بسكنتا حتى الغروب، واني قبل ان ابلغ حرج الصنوبر (في الجبل المقابل لِبتغرين) احس بالجوع. قالت هذا واستمهلتني. ثم عادت تحمل رزمةً صغيرةً ملفوفةً بجرنال، مربوطةً بخيط من المِصّيص، وهي تقول: لا تؤاخذنا. غض النظر.

حملت الرزمة الصغيرة في حجنة عصاي على كتفي، والرزمة الاخرى الكبيرة، – رزمة اللطف والكرم – في قلبي، ومشيت اقصد بسكنتا، وانا اتأمل هذه الفطرة الطيبة في اللبناني، واقول لنفسي: ان بيتاً واحداً في كل قرية من قرى لبنان، مثل هذا البيت الكريم، يكفي ليمحو ذنوب اهل الجبل جميعاً.

وما ان خرجت من بتغرين حتى اطللت على الوادي العميق الهائل، وادي الجماجم، الذي ذكره صاحب القاموس فقال انه سمي بهذا الاسم «لحروب وقعت فيه، فتراكمت فيه جماجم القتلى حتى سدّت طريق النهر الجاري هناك.»

وهذا هو الطريق الى النهر، يدور منحدراً في نَعف الجبل، ثم يدور فيدور، فلا ترى غير اليسير منه البادي امامك. اما في النَعف الآخر السحيق، المقابل لجبل بتغرين، فالطريق يبدو لناظريك بكامله، وهو ينساب كالحية الرقشاء بين الادغال الخضراء الصفراء، والصخور الدكناء السحماء، صاعداً متلوياً، من ضفة النهر الى الحرج المظلل السَنَد الاعلى من الجبل.

ان وادي الجماجم لاشد اودية لبنان وحشة وهولا. فلا عجب اذا روّع مجرّدُ اسمِهِ الاخ حنا، ففضل سلامة الجسد على سلامة السمعة.

بيد ان المشاهد الطبيعية، على هولها ووحشتها، هي حافلة بانواع المحاسن المغرية الفتانة، شكلاً ولوناً ومعنى. فبعد قليل من السير في الطريق المنحدر المتلوي، نجتاز بساتين التوت والكروم، فنبلغ الوعور الملتفة فيها ادغال العفص والملول، الناشرة على حواشيها اعلام القندول والعُلّيق، والغار والزمزريق، فتحييك منها الازاهير الصفراء والبنفسجية، والعناقيد الحمراء والارجوانية، والروائح الناعمة الندية. تحييك من اجناب الطريق، وتحييك من مختبآتها بين الصخور والآكام.

هناك العطار الاعظم يمزج روائح التربة النديّة، بروائح الاشجار المخضلة، بروائح النباتات العطرية، وما ابقى فصل الجفاف من الازاهير البرية وان قلّت، المجهولة الاسماء، فينتشر من مجموعها نفحةٌ طيبةٌ مركبةٌ عجيبة يعجز عن تحليلها علماء النبات والكيمياء.

وهنالك الفنان الخالد يمزج اخضرار الارض بازرقاق السماء، والاثنين بذهب الشمس، وفضة السُحُب الشفافة، فيبلغ في فن التلوين حد الاعجاز الذي يتوق دوماً اليه ويحاول ادراكه الفنانون الفانون.

وفي شتى أنحاء الوادي ترى آثار المثّال الاكبر، وقد نحتَ من الصخور التماثيل العجيبة في معانيها، الغريبة في الغازها، المدهشة المروّعة في ظاهر اشكالها، وقد جمع بعضها فناً الى فن — كفن المصور مثلاً وفن البناء — وجمالاً الى جمال، وروعةً تنساق اليها الروائع. فهاك جداراً عالياً قائماً تحت جفن الجبل، اجتمعت فيه المحاسن الهندسية والنباتية، فغدا كواجهة معبدٍ من معابد الهند. وهاك صخرةً ملساء، منحوتةً في ساعة جذلٍ والهام، فبدت كأبي الهول، وقد نبت في فمه الصعتر والقرقفان، وبين مخالبه القندول، يفوح زهره طيباً في الربيع، فيتغلغل في صميم الغاب، وتنطلق من فمه في الفصول جميعاً كلمات الصعتر الزكية تحيي العابرين.

حياك الله، يا ابا الهول، الناطق بالصعتر والقرقفان. حياك الله، يا قرقفان، حياك. للنسور وحدها ذراك. وحيا زهورك الشوكية البنفسجية، المنقطعة النظير، بين الازاهير.

وادي الجماجم! غفر الله لمن أسماه. فما عثرت على جمجمة او عظم من جمجمة فيه ولا رأيت حيواناً من الحيوانات الضارية فيه، لا ذئب، ولا ضبع ولا شبه ضبع او ذئب في الطريق او في ما دون الطريق. وادي الجماجم في الزمان الغابر — وادي الروائع في هذا الزمان. ها كذ في بحر من النور، فوق بحر من السكون، فوق بحر من السلامة والاطمئنان. ترتل فيه

الجنادب تراتيل الظهر والمساء، ويؤذن فيه الوروار ودويك الجبل، وتغرد فيه الحساسين. وانك لتسمع ايضاً من حين الى حين وقع حوافر الدواب، وهي تنزل او تصعد في مدارجه، فيردد صداها بين الصخور.

والمعلقات من الصخور، والهاويات تحتها! هاويات سحيقات، تسكن فيها اجنحة النسور، وهي هابطة سابحة جامدة، كأنها من جلد او ورق، ثم تنزو فيها الحياة فتصفق، فتحلق الى ما فوق الاسناد.

مشيت ساعةً مشية من لا يعرف هماً من هموم الدنيا، مشية المتنزه المسحور، بل المتعبد المحبور، فنسيت المسافات والوعور، ونسيت المهاوي والصخور المعلقة. اجل، لقد سُحرت بما شاهدت من روائع التكوين، وبما استنشقت من اريج الازاهير والرياحين، وبما سمعت من الحان السكينة الموّشاة بذهب الشمس.

وما ادركت اني مسحور الا عندما فوجئت بالخطر المهلك، وانا واقف على حافة الهاوية، فانهارت الارض تحت قدمي، فرحت متزحلقاً ثم سابحاً على ظهري بضعة امتار، فانقذتني شجيرة من الآس تشبثت بها، وعدت أدِبُ الى الطريق سالماً والحمدلله.

ذكرتني هذه الزحلقة بما ينهار احياناً من الجبال نفسها، أبان الزلازل، فتنفلت صخرة من بين اخواتها، او ينفصل جزء من الجبل عن اصله، ويروح سابحاً او متدحرجاً الى اعماق الوادي. وقد قرأت في تاريخ الامير حيدر الشهابي ما يلي انقله بالحرف الواحد:

« زلزل سفح جبل نهر الصفا الذي هو تحت قرية كفرنبرخ وانسلخ عن اصله ومال الى الجهة الثانية التي تحت قرية مجد المعوش حتى التصق بها وردم مجرى النهر الذي كان في الوادي بين الجانبين واندثر تحت ذلك الردم عدة عقارات. وكان في الوادي قرية صغيرة فهلك جميع اهلها تحت الردم. وقيل انه كان رجل حاملاً كوران نحل وسائراً في ذلك السفح

فلما زلزل ومال سار مع تلك الارض المائلة . وقد دخله الاندهاش والارتعاش من سير الارض به ولم يشعر الا وهو في الجانب الثاني الذي تحت قرية مجد المعوش المذكورة وبقي سالماً . الا انه زال عقله مما صادفه من انتقال الارض به من جهة الى جهة . وهذه الخسفة كانت في الثامن عشر من كانون الاول سنة ١٧٦٧ م ١١٨١ هـ . »

وفي ذلك اليوم من ايلول من السنة الخامسة والتسعمئة والالف مسيحية، والثالثة والعشرين والثلاثمئة والالف هجرية، ما « زال » عقلي انا مما حدث في وادي الجماجم، بل كدت انتقل الانتقال المطلق، وانا واقف فوق الهاوية، مسحور بها، ثم متزحلق على ظهري اليها، وهي فاغرة فاها لتضمني الى سكينتها الابدية !

ولقد أوقف الخوف فيَّ حس التلذذ بجمال الطبيعة ومحاسنها. فسددت خطواتي بشيء من الاسراع، وعيناي كنوريَ السيارة لا تحيدان عن الطريق امامي، الى ان بلغت قعر الوادي، فجلست على صخرة، في ظل دُفلةٍ هناك، اتأمل مدارج الجبل الذي هبطت منه، واحمد الله على السلامة .

وما علو ذلك الجبل بشيء يذكر لمن اعتاد التصعيد في جبال سويسرة مثلاً او جبال طيبة بأسيه. فالانحدار من بتغرين الى نهر الصليب في قعر الوادي هو نحو ثمانمئة قدم، اي ان علو الوادي عن سطح البحر، في هذه الناحية منه ، لا يتجاوز الخمسمئة والالفين من الاقدام. وعلو بسكنتا يبلغ اربعة آلاف قدم. فالذي عليَّ من التصعيد اذن هو نحو ضعف المسافة التي اجتزتها من بتغرين الى النهر .

الف وخمسمئة قدم من التصعيد! ما راقني هذا الحساب. وكنت اشعر فوق ذلك، وانا في قعر الوادي الضيق، بين الجبلين ، بشيء من الانقباض – بكثير من الانقباض. وسرعان ما ذهبت محاسن الطبيعة التي ملأت صدري في سويعة من الزمن جذلا وحبورا .

ذهبتْ من افق احساسي، لامن الوادي، وهي منتشرة في كل مكان منه. فصوت جري الماء بين الصخور هو اعذب من صوت الجنادب وشذى النباتات والازاهير هو اشد في مضائق الجبال منه في مسارحها. والسكينة في قعر الوادي هي ابلغ معنىً منها في اعاليه. ما تغيرت المحسوسات، وما ذهب شيء من جمالها وبهجتها. انما تغير الاحساس الانساني الذي يسجّل فيه وجودها.

والذي غير الاحساس هو الخوف المستولي على صاحبه. فلو لقيت قاطع الطريق في تلك الساعة لنسيت ان اقول له: لست احمل ذهباً او فضة، ولرفعت يديَّ مستسلماً. ولو لقيت ذئباً لما خطر لي ان اذكّره بمعاهدة الذئاب وقديسي الاطهر فرنسيس الاسيسي رضي الله عنه.

وما سبب الخوف، يا رجل ؟ وقد نجوت، بفضل شجرة الآس، يد الله، من الهلاك. افليس من المعقول، بل من الواجب ايضاً، ان تكون شاكراً مسرورا ؟ اني شاكر مسرور، ولكن اثر الخوف لا يزال عالقاً بنفسي، ومخيماً عليها. ورب اثر اشد من الحدث المسبب له. فقد سرى من القلب الى المخيلة، فتخيل لي ان وادي الجماجم جمجمة عظيمة هائلة، مشقوقة الرأس، واني انا حشرة في قعرها.

فانتفضت اذ ذاك ورفعت صوتي بالغناء، فعصاني، على قباحته، وردّني الى نفسي، فعاودني التصور السقيم، حشرة في قعر جمجمة !! حشرة في قعر جمجمة ! ثم بغتة وعيت، وابيت، وشفيت. او بالحري سقت فكري على مخيلتي فدحرها، ووبخ الصوت الذي سخر مني، وقد شبّته غناء فكان مكاء. تيقنت اذ ذاك ان الخوف الذي غشيني كالكابوس اضمحل او كاد، وعادت الحشرة في الجمجمة بشراً مفكراً حكيماً، ثم نهض ذلك البشر يحمل زاده في حُجنة عصاه، ويصعد في الجبل.

ساعةً — ساعتين. والطريق الذي تراءى لي من الجبل المقابل كالحية

يتعرج صاعداً امامي، ولا ينتهي. وشمس ايلول في رائعة النهار تبعث الذكرى بايامها في تموز. وانا في التصعيد اسدد الخطوات ولا الوي على شيء.

لقد اسرعت في البدء فاخطأت، اذ ما عتمت ان ثقلت رجلي، وثقل النفس في صدري، وثقلت حتى العصا في يدي.

ثم عراني العطش – والجوع! فجلست في فيء صخرة استريح، وانظر بعين «كاسرة» الى الزاد بين يدي. ما الحيلة؟ هل يغني الخبز عن الماء؟ بالعكس. اذن الى الامام، الى الاعالي. استأنفت التصعيد، وفي القلب صوت ينادي غابة الصنوبر! اين انت، ايتها الغابة؟ ساعة اخرى من التعب والعطش والجوع...

وهاك الغابة تفرش ظلالها الندية لثقيلي الاحمال والتعبين. تبارك الصنوبر، وتباركت ظلاله. لقد أمسكت الرمق مني، واعادت الي شيئاً من القوة والامل. فدخلت الغابة حامداً شاكراً، وانسرحت في ظل اول شجرة منها.

اني انبه ها هنا الى خطإٍ فيما كان من مسلكي، ما اعدته بعد ذلك. فاذا كنت ماشياً في الجبال، ايها القارىء العزيز، وامامك وادٍ عميق تجتازه من جبل الى جبل، فلا تشغل نفسك، وانت هابط، بمحاسن الطبيعة. انزل مسرعاً، ولا تكترث لشيء حولك او امامك. ثم صعّد في الأسناد على مهل، واستمتع بكل ما هناك من جمال الطبيعة ومدهشاتها. فكلما عراك شيء من التعب قف هنيهة، وسرح النظر والنفس فيما حولك. استنشق – وانت في حال الادراك – الهواء الصافي، والروائح الطيبة تنتعش. استمع لصرير الجنادب وللنسور تصفق بأجنحتها تستأنس. ثم خذ بضع ورقات من الغار والقصعين فادلك بها يديك وجبينك تسترح وتستعدِ النشاط والعافية. انك اذا فعلت ذلك لا تشعر بشيء من التعب في التصعيد، مهما كان من وعورة الجبل.

بعد ربع ساعة في ظلال الصنوبر استأنفت السير آملاً بقرب الوصول الى بيت يقيني سورة العطش. فما كدت اجتاز الغابة حتى بدا ذلك البيت على حاشية ظلها. هو بيت قديمٌ مربع بسطح منبسط من التراب، حوله بستان تين وكرمة.

وهناك صبي يرعى بقرة في الجوار. ناديته فبادر الي. نشدت الماء، فراح مسرعاً الى البيت، وعاد يحمل الابريق.

وكنت قد فككت الرزمة التي زوّدتنيها زوجة الحكيم ببتغرين، فاذا فيها البيض المسلوق والبصل، والجبن والزيتون، والخبز الرقيق، ومنه رغيفٌ ملفوف مستقل يحتوي على كتلة كبيرة من التين المطبوخ بدبس الخرنوب. ففرشت الجريدة على بساط ناعم من ورق الصنوبر اليابس، وصففت الزاد عليها، ودعوت الصبي ليجلس امامي ويشاركني. فشكر واعتذر. ثم قال انه تغدى. ثم قبل ان يأخذ لقمة من التين المطبوخ. عملت لفافةً منه في نصف رغيف من الخبز، وقدمتها له. فتناولها هاشاً، وعاد يعدو الى البيت. فسألته، وانا في دهشة من امره، ان يرجع، فاشار بيده اشارة الايجاب.

وبعد قليل عاد، وفي احدى يديه عنب، وفي الاخرى تين اخضر. والاثنان ينضجان في تلك الاعالي من الجبل (٣٥٠٠ — ٤٠٠٠ قدم) بعد اسبوعين او ثلاثة اسابيع من نضجها في الفريكة وجوارها. نحن نقول: عيد الرب (اب) بلغ الحبُ (نضج العنب) وكلما علوت على الفريكة تأخر عيد الرب، او بالحري بلوغ الحب. فبين نحن نقطف الكرمة اهل بسكنتا «يحبحبون» عناقيدها.

وهذا الصبي يحمل الي من خير السنة عناقيد عجمية، وتيناً ارجواني اللون. انه حقاً لبناني كريم، لبناني من الطراز الاول، من الطراز القديم. ولقد ذكرني، عندما بادر الي بابريق الماء، بتلك السامرية التي خُلِدت في

سيرة المسيح. كأنه من سلالتها المباركة.

عملت لفافة اخرى مما تبقى من التين، فأخذها كما أخذ الاولى ولم يأكلها. فسألته السبب في ذلك فقال: « انا لا احب التين المطبوخ، ولكن اختي الصغيرة في البيت تحبه كثيراً »

اسمه طنوس. وهو في الثانية عشرة من سنه. ازرق العين، وردي الخدين. في صوته رنة الثقة بالنفس، وفي حركاته يتبارى اللطف والنشاط. وهو يحب المسافرين لانه سافر مرة « سفرة طويلة » وعرف « الناس الاوادم. »

— والى اين سافرت، يا طنوس؟

— « الى فاريّه، ومنها نزلنا الى جونية — جونية مدينة كبيرة وفي دكاكينها كل شيء. — ومنها عدنا عن طريق انطلياس وبكفيا الى البيت. بقينا غايبين عشرة ايام — كنت انا والوالد. واشترينا هذه البقرة، وعنزة قبرصية. اشترينا القبرصية في فاريّه، وبعناها في سوق جونية وربحنا فيها مجيديان. »

وقد اخبرني ان له اخاً اكبر منه « عنده حمار يكاري عليه » واخت غير الصغيرة، التي تحب التين المطبوخ، اخت كبيرة « تزوجت في السنة الماضية عا اميريكه »

اي ان شاباً من القرية عاد موفقاً من اميريكة، فاقترن بأُخته، ورجع واياها الى محل تجارته هناك.

وابو العين الزرقاء، طنوس، التاجر بالبقر والمعزى، عاقد النية على السفر الى اميريكة، حيث اخته وصهره.

— وفي اميريكة نتاجر ونربح (هو يتكلم غالباً مثل بابا رومه بضمير الجمع) ونصير « زناكيل » (اغنياء) ان شاء الله.

قبل ان ودعت طنوس، ودعوت « لهم » بالتوفيق، سألته اذا كانت بسكنتا لا تزال بعيدة، فاجاب: « وصلت. اول بيت منها نصيبه من راس الشير (الصخر) هناك. بضربة حجر. »

صنين

قال فكتور هوغو : الضيافة مفتاح الاخاء الانساني والشعوب المضيافة عماد الانسانية.

وقال كاتب اغريقي قديم: الحرية وحسن الضيافة هما عنوان العظمة في الشعوب.

فالشعب اللبناني العربي ، في عرف الافرنسي الشهير ، هو من عماد الانسانية لانه مضياف.

ولكنه، في عرف الكاتب الاغريقي، لم يبلغ من العظمة الا نصفها او بعضها اي القسم القائم بحسن الضيافة. اما القسم الآخر، اي الحرية، فهو لا يزال مفتقراً اليه. هو لا يزال ينشد الحرية، ويتغنى بها، ويسلي نفسه بخيالها وقصائد شعرائه فيها.

ليس اجمل من لبنان في جبال الارض. وان الله ليكلأ هذا الجمال، ويصونه في شكله كما في جوهره. فلا خوف عليه في الحالين. اما الشعب اللبناني فمن يكلؤه يا ترى، ويصونه في حسن ضيافته؟ الحرية — ولا مرية في ذلك. ان كلمة الفيلسوف الاغريقي لهي عين الصواب فالشعب الحر يستطيع ان يكون مضيافاً، والضيافة مع الحرية تدوم. اما بدون الحرية فالشك في دوامها اقرب الى الذهن منها الى اليقين

خذ العرب في شبه الجزيرة مثلاً تجدهم يقدسون بعد الدين اثنتين: الحرية والضيافة. وخذ المثل الآخر من الامة الاميركية وهو نقيض الاول. الضيافة موجودة وخصوصاً في الولايات الجنوبية والغربية. ولكنها لا تحسب من المزايا الاميركية البارزة. هنالك ضيافة فياضة فواحة لامعة

الحواشي، باهرة الاسباب في طبقة الاغنياء من الامة. على ان مزايا الامة — الحسنة منها والسيئة — انما هي التي تغلب في شعبها المتوسط والفقير لا في اغنيائها. فالعظمة الحقيقية لا تزال ناقصة هناك كما هي في لبنان.

وعندنا في لبنان عكس ما في اميركة. فالضيافة لا تزال مرعية كواجب من الواجبات الانسانية، في الحياة اللبنانية، وخصوصاً في الطبقتين، المتوسطة والفقيرة: اما الطبقة العالية، في الاصطلاح المدني، اي طبقة الاغنياء، فهي مثلها في اميركة، تسرف في الضيافة تارةً طلباً لجاه، او حرصاً على سمعة، وطوراً تعتصم بما للفرنجة من تقاليد وعادات، فتلجأُ الى النُزُل لتقوم بواجبٍ باردٍ في ضيافة رسمية. وكلما كثرت النزل الحديثة في لبنان، وانتشرت تجارة الاصطياف، قلّتِ الضيافة الحقيقية العربية الجميلة الاصل والأثر، في بيوت اللبنانيين، ومما لا ريب فيه انها كانت في الماضي شاملة عامّة.

جاء في كتاب انكليزي لاحد السياح، الذي ساح في هذه الجبال في اوائل القرن الماضي، ما يلي:

«لا خوف على السائح من ان يقضي ليلته في الحرج، او في كوخ لاحد الرعاة. فان اجمل اسباب السياحة في جبال لبنان هو انك تسيح متأكداً ما سيكون حظك من الضيافة في آخر كل نهار، فانك تتوفق دائماً الى بيت تنزل فيه ضيفاً كريماً مكرماً.»

وانك لتجد، بعد مئة سنة، اماكن في جبالنا، مثل كسروان ونواحي الشمال، وبعض المتن، كالناحية منه التي جبتها ماشياً، يصح فيها هذا القول. فهي لا تزال عامرة بالضيافة، عنوان فخرنا اللبناني العربي.

فحبذا المحافظة على هذه الحلة الطيبة العالية. حبذا الرجال يجاهدون في سبيل الحرية، ويصونون هذه الحرية، مصدر الاباءة والفضل والكرم. وحبذا النساء يشاركن الرجال في الجهاد، فيضمنَّ السعادة لابناء هذا الجيل

ويتيقن انهم سوف ينشأون احراراً كراماً، يقرون الضيف، ويأبون الحيف، ويضربون بالسيف. فلا يقال في المستقبل: كان الخازني، وكان الحبيشي. بل يكون ابناء المستقبل كلهم جميعاً من الطراز الاول الواحد الذي تغتبط به ارواح اولئك الاجداد، فيشتهون تجسداً آخر دنيوياً ليفوقوا ما كان من ماضيهم في ضرب السيف، ودفع الحيف، وقرى الضيف.

عرضت لي هذه الخواطر بعد ان ودعت الولد طنوس، وانا افكر في فطرته اللبنانية، الطيبة — في لطفه ومعروفه واريحيته — وفيما قاله عند الوداع: سنسافر الى اميركة ونتاجر ونربح ونصير «زناكيل» (اغنياء) وكانت الخواطر والحقائق تتجاذبني، فتغالب العقل مني، وتملك الشعور. وهل للشعور مجال في معترك الحقائق الراهنة؟ وهل تنكر الحقيقة الغالية التي تكاد تنحصر اليوم في المهاجرة والمتاجرة والمال؟ لا سبيل الى انكارها ولا حيلة في دفع ما يجره الاقرار بها من النغص والالم.

وما كانت النفس خالية من النغص تلك الليلة، وانا احدث امرأة شاءت التقادير ان تكون مضيفتي. رأيتها في الطريق اذ دخلت البلدة، فمسيتها بالخير فمستني بالسعادة، وهي تنظر الي بعين الاستغراب والاستحباب. فما ترددت في المحادثة التي ادت الى التعارف. سألتني هل كنت في اميركة فسرها الجواب. وعندما علمت أني اعرف احد انسبائها في نويورك، اهتشت لذكري اسمه اهتشاشاً تخلله شيء من حرارة الذكرى ومن ثلجها.

كانت في العقد الرابع من سنها وعلى شيء غير يسير من الملاحة. وصارت بعد هجرة النسيب اماً لثلاثة اولاد وارملة تحسن حجاب ما في نفسها.

جلسنا واولادها الثلاثة، ايلياس وبطرس وبولس، الى طبق من النحاس الابيض، ترفعه عن الارض وتختفي تحته طاولة صغيرة واطئة. وعلى الطبق الطبخة التي كانت طبختها الام لاولادها، وهي المجدرة، وما اضافته

اليها، اكراماً للضيف، من عجة البيض واللبن.

قالت ام ايلياس وهي تقدم مسنداً لاجلس عليه. لا تقدر ان تتربع مثلنا وانت في هذه الثياب الفرنجية. وكانت قد مددتني قبل العشاء على فراش السوآلات واستخرجت من جيوب النفس بعض مكنوناتها، فنادتني باسمي الاول وسألتني ثلاثة سوآلات مزعجة.

– هل انت متزوج يا خواجا امين ؟

– لا يا ست ام الياس.

– وهل توفقت في اميركة

– والحمدلله.

– وهل رجعت الى بلادك تفتش عن عروس ؟

ما شئت ان يكون جوابي سلبياً كذلك او مبهماً، ولا شئت ان يكون كاذباً. فسكت، فاردفت سؤالها بكلمة استدراك قائلة: «.. عرفت بعد مَن رجع من اميركة لغير هذه الغاية. كأن اميركة ما فيها بنات. ولكن ابن خالي عمل بالعكس. هجر بلاده وتزوج في اميركة.»

وقفت هنيهة ثم قالت: وما رأيك في الزواج ؟

– للزواج، يا ست ام ايلياس، صورة ظاهرة وصورة خفية. فالخفية لا يعرفها غير الله، والظاهرة مثل الطغراء السلطانية، يعرفها كل الناس ولا احد يفهمها.

– «مشبكة، ملبكة، ولكنها ظريفة. اظن هذا معناك. ولا اظنك تنكر ان الزواج ضروري للشباب الذين مثلك ومثل ابني ايلياس.»

– وما قول ايلياس ؟

– هو خاطب ومتردد.

– في الاثنين معاً ضرر. والخير اما في الخطبة واما في الامتناع.

– الحق معك. كم مرة قلت لايلياس هذا القول. فقال ايلياس مغتاظاً:

وما الفائدة من هذا الحديث . دعي الرجل يأكل .

فقالت الام . الحق معك ، شغلناه بالحكي . ما اكلت من العجة يا خواجا امين . يظهر انك تحب المجدرة مثل ابني بولس

بولس ثاني اولادها لا يتجاوز السادسة عشرة من سنه، وهو يتعلم في مدرسة ابتدائية بالبلدة . فقال متنطعاً : واحب غيرها من الأكل . الرجال لا يفضلون طبخة على طبخة .

بطرس ثالث الثلاثة واذكاهم، مال بوجهه الي وفي عينه تألقٌ من الخبث وقال : اسأله هل يحب المعمول .

بولس : وحضرتك يا نور عيني لا تحب المعمول .

بطرس : احبه واحبه ولا استحي ولا اكذب .

بولس : من هو الكذاب

بطرس : لا انا ولا ايلياس .

بولس : وحق الصليب ان أعدتها . . .

بطرس يمد لسانه متحدياً، وبولس يهم بضربه، فتصيح الام بهما : « عيب عليكم . استحوا . اسكتوا . ذكر المعمول يخجلنا . وقصته، يا خواجا امين، قصة . لنا اقارب في زحله وعدونا بزياره فارسلت بطرس الى بيروت لشراء بعض حاجات البيت ومنها للضيوف علبة معمول . ولكن يوم موعد الزيارة ما جاء احد . كتبوا معتذرين وقالوا انهم سيزورونا الاحد التالي . وَمَرّ الاحد وما جاء احد منهم . وعلبة المعمول منتظرتهم في الخزانة والاولاد هاجوا وماجوا ففتحت الخزانة وأبحتها لهم، فهجموا عليها كلهم هجمة واحــدة . وبعد يومين، وحياتك، جاء الضيوف وعلبة المعمول فارغة ! الذي قلته لهم اقوله لك الان، ياخواجا امين لا تؤآخذنا . الحلو في بيتنا لا يدوم ما زال الثلاثة موجودين . »

دعوت لاولادها بالصحة والهناء وطول العمر وبما في ذلك لها من الخير

والنعمة، وقمت وانا افرك جبيني وأجرّ خطواتي، ففهمت، وهي الفطنة، اني الى النوم اميلُ فقالت تهوّن علي: «قطع وادي الجماجم يقطع الظهر. ودواء التعب النوم»

هي الحقيقة بعينها، نطقت بها عيني لطفاً منها، كأنها تعلمت ادب الضيافة في بيت امير عربي كريم. وما بيتهم غير مربع كبير مفروش بالحصر وآخر صغير الى جنبه، فرشت لي وحدي فيه، فرشة وثيرة نظيفة، على الارض، وَلكني نمت تلك الليلة مِل. جفني حتى على الارض اليابسة العارية.

نهضت باكراً في اليوم التالي لاواصل السير الى نبع صنين. وكانت ام ايلياس قد علمت، من سؤالاتها لي، بعض غرضي من هذه الرحلة، فمنعتني من السفر باكراً وقالت ان لاخيها دكاناً على النبع، وان ابنها ايلياس يكاري له. وانه ذاهب في ذلك اليوم اليه.

— «بعد ساعة يمشي فتمشي معه. الاحسن ان يكون معك رفيق يعرف الطريق.»

وكان كذلك. مشينا ساعة الضحى انا وايلياس وراء البغل المحمل زيتاً وسمناً وصابوناً الى دكان خاله على النبع. الطريق من بسكنتا اليه طريق صُرد وعِر تكثر فيه العقبات القصيرة بين مدات طويلة من عرض الجبل. وكلها او جلها بين الكروم والحقول المزروعة. وفي المسافة سير ساعتين من السير الهون. والف وخمسمئة قدم من التصعيد. اي ان نبع صنين يعلو على بسكنتا بقدر علو الفريكة عن انطلياس (بسكنتا ١٢٥٠ متراً عن سطح البحر والنبع ١٨٥٠ متراً)

سرنا في هذا الطريق انا وايلياس ورفيق ثالث هو السكوت، شاطره كلانا انسَه واطمئنانه. وما تخلف الرفيق الثالث عنا الا مرةً عندما سألني ايلياس عن ابن خال امه في اميريكه، وهل هو موفق في اشغاله وفي حياته الزوجية. بما اعلم، وما كان بالشيء الكثير. فعاد السكوت يرافقنا، ويسترعي

نظري انا الى ما يتراكم من الجبال والربى ويبدو ويختفي من الاودية والبطاح غرباً من صنين.

وكنت في ذلك السكون والسكوت اتأمل الاحتكاكات الذهنية والروحية في خصبها وعقمها، في حرارتها وبردها، في تصادفها وتعانقها، في اضطرابها وسكينتها. فما اعجبها في كل حال من احوالها. لقد احسست، عندما رأيت ام ايلياس في الطريق، ومشيت واياهـا الى بيتها، أن هنالك ذهنية يقظة مضطربة وثابة، ذات اعصاب دقيقة متينة كخيوط الكتان، بل وكأسلاك الكهرباء. وشعرت أن وراء تلك الذهنية روحـاً تصبو الى الاتصال بغيرها من الارواح، فيطيب لها الاخذ والاعطاء، واستعراض ممكنات السعادة والشقاء في هذه الحياة الدنيا. هي ذهنيةُ اديبةٍ مفكرةٍ في جسم جبليةٍ فلاحة. هي روحيةُ اميرةٍ كريمةٍ في شخصيةٍ بسيطةٍ وادعة. فلا عجب اذا أنِستُ بها، وعدوت معها الى سوق الفكر والروح، فرحاً مطمئناً، كأني اعرفها منذ ايام الصبا، فأخذت وأعطيت، واسفرت واستسفرت وكان كلانا في الحالين من الفرحين الرابحين.

اما الابن ايلياس فما انعم الله عليه بشيء من شمائل امه. فما لمست طرفاً من ذهنيته المنكمشة الجافة، ولا رأيت بصيصاً من روحيته الصغيرة المتوارية ترافقنا وما التقينا. سرنا ساعتين في انفصال ملموس اذا صح التعبير. كلانا بعيدٌ عن الاخر بعداً شاسعاً. كأن ايلياس في وادي الفريكة وكأني في صرود صنين.

واني استطيع الآن وانا سائر وابن أم ايلياس الى النبع ان انظر من قمة ذلك الزمان الى المستقبل، فارى بعين الغيب في ذلك الطريق مشهداً ينتشر، جزؤاً جزؤاً واجمالاً، كأنه مكوّن قبل وجوده بعشرين سنة.

فمن سنة ١٩٠٦ نثب وثبة الى الامام فنقف عند سنة ١٩٢٧، بين صيفها وخريفها، في سفح جبل صنين خارج بسكنتا، نتأهب للرحيل. هات

وسادة للسيدة... هات سجادة للاستاذ .. هذا البغل حرون لا يوافق..
هذه البغلة للآنسة سلمى. وهذه للسيدة نجلا. وهذه للشقيقة ادال، جهز
السروج كلها بالركب، يارجل. والاجمة. انك لتركب شموساً واقماراً.
فهل يمكنك ان تتصور ما يحدث اذا هوت الشمس عن ظهر بغلك. الرُكُب
والاجمة — لا تتحرك بلاها

مشت القافلة الى نبع صنين. وهناك فيها شمس الربيع الكاتبة
الاديبة سلمى صائغ، وشمس الصيف المثقفة الاديبة نجلا الكفوري. وهناك
بين الشمسين كواكب نيرة، تتلألأ على جوانبها وامامها وورائها من حين
الى حين النجمة عائدة ابنة سلمى،التي هي اليوم زوجة الشاعر اللبكي صلاح

وهناك بين الفرسان قمر العلمانية في التعليم جورج كفوري، يخب الى
الى جنبه البغل الحامل قمر الدنيا العلمانية اللبنانية يومئذ، وقمر العلمان
والادب الريّان اليوم خليل تقي الدين. والى الجنب الآخر كوكب هوى
قبل اوانه، بعد ان أثار لاول مرة في الادب العربي فلك الشعر الرمزي —
اديب مظهر رحمه الله. ويجيء وراءهم وهو يحث حماره القبعصي قمر الدينيين
الاديب المسلم المسيحي تقي الدين الصلح، ومعه قمر المطابع العربية في
البلاد اللبنانية والسورية، وناشر اعلامها واسقامها في الافلاك القانونية
والادبية، يوسف ابراهيم صادر. وفي تلك القافلة الشعشاعة، كنت ترى
الدليل الامين، تارة في المقدمة ، وطوراً في المؤخرة، يجد الشموس والاقمار
كما يفعل الآن.... ورأس الفضيلة في الادب الامانة...

مشت القافلة التي تراءت سنة ١٩٠٦ امامي، وانا اليوم اراها اذا ما
نظرت الى الوراء. انها في الحالين قافلة نورٌ وهدى مرت ذات يوم في صرود
صنين، وهي لا تزال من الذكريات الطيبة.

وفي هذه الصرود كوخ في صخر اسمه الشخروب، بقي طوال الدهر
نكرة مثل المزارعين والرعاة الذين كانوا يأوون اليه. بقي نكرة الى ان

شع فيه نور الفكر والادب بعد ثلاثين سنة من هذه الرحلة. لست ادري اين كان ميخائيل نعيمة يومئذ يرد موارد العلم، ويثقف ما وُهب من ذكاء، وما اكتسب من ادب. ولكني وانا انظر الى المستقبل بعين ثاقبة صائبة ارى ميخائيل، وقد اتخذ الشخروب، في العقد الثالث من هذا القرن العشرين، منسكاً له، يطبخ فيه طبخات صوفية، ويعمل التوابل والحوامض الادبية، ويوزعها في الكتب والمقالات على الناس لوجه الله تعالى. هنيئاً للنساك الاقدمين اجدادنا المتعبدين المتصوفين هنيئاً لميخائيل، فقد عاد اليهم في القرن العشرين، عن طريق اميريكة ثم صنين، واندمج في سلكهم الطاهر

وهنالك في نويورك اليوم صوت ينادي صنينا ويحن اليه صنين صوت الناي الى الغابة الذي قطع منها. هو صوت احد ابناء صنين الاخلياء، وقد زادته الغربة حباً وشوقاً وتحنانا. وما قضت على البلبل الغريد الذي اختبأ بين اضلعه يوم رحل من بسكنتا في العقد الاخير من القرن السابق فقد ظل ذلك البلبل مختبئاً صامتاً ربع قرن من الزمن. فرأى صاحبه الثلج ذات يوم يتراكم في اسواق نويورك، وسمع زقزقة طير شريد يحوم حول المدخنة على سطح من سطوحها ليصطلي، فهزّه تهزيزاً رافقه الهزج، فسمعتهُ ربة الشعر وساقت اليه القوافي العذبة الملتاعة.

في ذلك اليوم، منذ ربع قرن من زماننا، بين ثلوج نويورك، وفي ظل مدخنة من مداخنها، ولد شاعر صنين، على بعد سبعة الاف ميل من صنين في ذلك اليوم أطل على هذه الفانية رشيد ايوب الشاعر الدرويش، ولا يزال الجسم منه مكبّلاً بالكبول الاميريكية، يروح ويجيء في اسواق نيويورك ومكاتبها، كالماشي في نومه، تأكل نعاله وحشة التمدن وتخترق الاضالع منه الى الصميم.

بلسم صنين ابعث به اليك ايها الشاعر الدرويش. طِيبَ بُطمِهِ، وقندولِهِ وورزّالِهِ، ابثه الرياح لتحمله الى مأوى جسمك في نويورك، وتضمخ به انفاسك وقوافيك.

مع المكارين

كانت ام ايلياس قد عهدت الى ابنها بأن يوصي بي اخاها بطرس صاحب الدكان على النبع. ففعل ذلك عند وصولنا، فرحب بطرس بي وانزلني على السطح في خيمة من الشيح يغطي ارضها حصير عليه فرشة مطوية. ثم قال: «ستنام عندنا الليلة – حات الحركة – وغداً صباحاً تمشي مع المكارين الى زحلة.»

ما كان يومئذ من عمران على النبع غير هذا الدكان وبيت يجاوره لاحد المزارعين. وكان صاحب الدكان يتناقش وصاحب البيت ساعة وصلنا، ويردد الاثنان بلهجة حادة مقرونة بالمسبات ذكر بقرات وراعيها. ففهمت من المناقشة ان الولد الراعي نؤوم، وان البقرات، أثناء نومه، تغتنم الفرصة فتسرح وترعى في حقل لبطرس.

وقد استؤنفت المناقشة في اصيل ذلك النهار، وكادت تفضي المسبات فيها الى معركة دامية لولا توسط المكارين. فرجع صاحب البقرات متدهدهاً – بلغة المقامات – الى بيته، تحت وابل من شتائم بطرس القذعة، وهو يقف، الفينة بعد الفينة، ليردها عليه مثنى وثلاث ورباع – بلغة الوحي السماوي.

بطرس: «يا كذاب – يا منافق – يا لص.»

صاحب البقرات: «انت الكذاب انت الكذاب الخ. انت اللص، انت اللص الخ.»

إعجب لهذا الانسان وقد خلقه الله على شكله ومثاله. وهو مع ذلك لا يستطيع ان يعيش وجاره بصفاء وهناء حتى في اعالي الجبال، في مهد

السكينة والنور. رفعه خمسة الاف قدم من الهيئة الاجتماعية الكاذبة المضطربة المتطاحنة المتكالبة، فحمل معه الى رأس الجبل جرائم التكالب والضغينة والاقتتال. كل ذلك من اجل بقرة رعت في مرجة تحبها. وهل رأيت زمانك بقرات تقتتل وتتناحر من اجل مرعاها؟ ان في الحقل حشيشا يكفيها جميعاً. والارض بطولها وعرضها تضيق بالانسان. من هو الحيوان يا ترى؟ وهل يتميز الانسان عن الحيوان بالمشي على الاثنتين؟

بت تلك الليلة في خيمة الشيخ دون ان ادعو بالخير لبشر. ولقد بلغ التأثر القرف عندما قمت باكراً، في اليوم التالي، فسمعت صاحب البقرة ينادي من سطح بيته صاحب الدكان. ورأيت بطرس يخرج مسرعاً من دكانه، ظناً منه ان هناك حادثاً يستوجب الاهتمام، فيطلق صوته سائلاً: من صاحب الصوت؟ فيسمعه يصيح: انت المنافق! انت اللص!

وهذا في صفاء الفجر، قبل بزوغ الشمس، على علو خمسة آلاف قدم من حضيض البشرية! اوَتقول لي إن في صرود الجبال يحلو التأمل والصلاة، ويعمر القلب بالحب الانساني؟...

عجلت في لبس ثيابي، وكان المكارون قد شدوا الرحال. فاغتدينا على الاقدام، والطير في وكناتها، كما يقول الشاعر. خرجنا من بين بواسق الحور والدلب، فمررنا بالنبع المنبجس من بين الصخور، فأسندنا في الطريق الصخري الوعر الى ضلع من الجبل هو الافق بعينه، فاشرفنا منه على افق آخر، ارض هي في شكلها كالارجوحة بين الافقين.

اني في كتابة هذه الرحلة اليوم استعين بذكراتي في تلك الايام، واعجب وانا اقرؤها لما كان من مغامرة وتلفيق، ولمن كانوا رفقاء الطريق.

قال احدهم يخاطبني: سمعنا في الدكان انك مهندس.

وقال الآخر: وسمعت انا على النبع انك معلم اولاد

وقال الثالث: وقالوا انك قسيس بروتستنت فمن الصادق منهم ؟
قلت: كلهم صادقون فقد مارست هذه المهن كلها.
قال الاول: وما هي مهنة حضرتك اليوم؟
قلت: مبشر بالانجيل.

فضحك الثاني وقال: اسمع هذه الحكاية. كان احد المبشرين مثل حضرتك ماراً بكنيسة في الجبل ساعة كان الناس في الصلاة، فقال لاحد الواقفين في باب الكنيسة، وهو يضرب بيده على قفاه — كان الانجيل في جيبة بنطالونه من وراء. — قال القسيس وهو يضرب بيده على قفاه: «درب السما من هنا — من هنا»

للمكاري لسان تنبت فيه المسبات والنكات، زاهرة شائكة. وهو على الاجمال ذكي الفؤاد يقظ الفكر، تعلمه الفلوات، وتؤدبه الشدائد. كان في الماضي يغني وهو يتبختر وراء بغله فتردد صدى صوته الاودية. وكان صبوراً الا على بغله، لا يكلمه بغير الحصى واللعنات. وهو مع ذلك مشرق المحيا. مزاح ضحاك. كأنه يقول: ما ضر الفحش ونحن في الفلاة. شمس الجبل تطهر كل شيء. وهواء الجبل يكنس كل شيء..

قال البلاذري في فتوح البلدان: نقل معاوية في سنة ٤٩ ه الى السواحل قوماً من زُطّ البصرة. (وهم يدعون ايضاً بالمطربية لان مهنتهم التطريب) ان المكارين على ما اظن من سلالة اولئك الزُطّ.

والى القارئ، اقدم الان رفقاء الطريق.

هذا ابو العباءة في سراويل من الخام المصبوغ بالنيل، يشدّه بنطاق من الجلد، وفي النطاق سكين طويل شبه خنجر، معلق بسلسلة صفراء. عباءته قصيرة مخططة، وعمارته لُبادة طويلة بنية، تذكّر بعمارة الدراويش المولويين، وقد لف عليها الكوفية، وأطلق الذؤابة فوق اذنه.

ابو العباءة هذا يكثر في حديثه من ذكر النساء. هو مجان فاسق، خلقه

مزيج من الرمل الذهبي والزبل. هو الذي حكى حكاية المبشر بالانجيل.

وهذا ابو كبران. كبرانه من الصوف المنسوج في خيام البدو، يلبس السراويل المزنقة، اللاصقة بالكاحل والساق، المنفرجة في قاقوقها، ويحتذي حذاء — مداساً — مثقلاً نعله بالمسامير.

ابو كبران لا يضحك الا مرة في السنة يوم يعترف ويتناول القربان المقدس. هذا الذي قال فيه ابو العباءة وما أثبت القول هو ولا نفاه.

وهاك مدنياً في اعجب القيافات من رأسه الى قدميه. حذاء طويل بشرائط غير مشدودة، فوقه سراويل من الخام المصبوغ، فوقها صدرية زرٌ زرٌ واحد منها، فوقها ساكو افرنجية فضفاضة مرقعة الكوعين، وفوق الجميع على الرأس طربوش كان احمر اللون في قديم الزمان..

هذا المدني معجب بنفسه، ولا يرثي لنفس سواها في الدنيا.

وهاك بدوياً بعباءة خشنة مخططة، وكوفية بلا عقال مشدودة حول عنقه، وجزمة الى ما تحت الركبة تنزل فيها رجلاه على الرحب والسعة.

هذا البدوي ينظر الى المدني نظرة تسآل وازدراء، ويحسب نفسه فوق الجميع.

قال يخاطبني بعد ان سمع حكاية المبشر بالانجيل: «وانت، يا زين، ما تقول بدرب السما. دلنا عليها وحياة والديك.»

ابو عباءة: حضرته يا زين، قاصد زحله ليدل اهلها. والله اذا وعظت عن المسيح في زحلة يقوم الكواتله عليك و«يرطوك» قتلة مشبعة. وما ربحك من الوعظ؟ يجب ان يكون اكثر من ربح الحوارنة لان عملك اهم وفيه خطر.

ابو كبران: مهنة الاكليروس ان كانوا من الحوارنة او من القسس العرو تستثنت اربح المهن واهونها. ولكن الله سبحانه يوزع المهن على الناس. انا والمطران... مثلاً قرأنا في كتاب واحد تحت السنديانة. وكنت انا اذكى منه، وكنت اساعده واصلح غلطاته في القرائة. فاين انا اليوم واين

سيادته ؟ سبحان الله

فقال البدوي يغير الحديث : سمعنا انك لاتحب المال، ولا تحمل في رحلاتك ولا باره .

قلت : صدق من اخبرك .

وفي تلك الآونة اخرجت ساعتي من جيبي مستطلعاً الوقت، فرآها ذلك البدوي وهش لها، ثم قال : ويكفي قاطع الطريق ان تكون معك هذه الساعة فقط . ويكفيه ما انت لابس، يا زين، هذا الحذاء - هذه الثياب الفرنجية . ألا تخاف من قطاع الطريق .

قلت : وهل اخاف منهم وانتم الرفقاء ؟

فقال ابو الطربوش يشير الى البدوي : هو منهم . حاميها حراميها .

فصاح البدوي به : يا ملعون الوالدين ! لو كنت كلك من ذهب، والله بالله، لبصقت عليك .

ابو الطربوش : المجنون يحاسب البدوي على ما يقول .

البدوي : تقول اني مجنون ! خسئت يا ملعون الوالدين .

قال هذا وبصق امامه .

فقال ابو الطربوش : البصقة - وصاحبها - تحت رجلي .

قالها وهو يدوس ما استقر على حجر من فم البدوي . فهم بضربه، فحال ابو كبران دون ذلك . وقال ابو العباءة للاثنين : من مثلكم لا يرافق الاوادم . اسكتوا . اعقلوا . والا . . .

سحب السكين من نطاقه ولوح بها .

فسكت البدوي وابو الطربوش، ومشى الواحد منهما بعيداً عن الآخر ثم ساد في القافلة السكون مدة من الزمن، ونحن نقطع تلك الاصقاع الكثيرة الآفاق . ما عرفت طريقاً في الجبال شبيها بهذا الطريق من صنين الى زحله - لا بوعورته، فهو في بعضه سهل موطأ - بل بآفاقه الغريبة المتعددة -

المضنية الرهيبة لمثلي.

مثل لنفسك لوحة من طين فيها منخفضات بضلوع حولها، هي كالجور تتلو الواحدة الاخرى. وفي هذه الجور والضلوع حولها طريق تسلكه طائفة من النمل هي قافلتنا. من الضلع الاول تهبط الى الجورة فتجتازها الى الضلع الثاني، ومنه الى الثالث المقابل له، ومنه الى الرابع، فالخامس، فالسادس، وكل جورة لا تتجاوز مسافتها. من الضلع الى الضلع الكيلومتراً الواحد.

هي الآفاق الواطئة الضيقة، تكاد ترهق النفس فيها. هي الآفاق المتعددة تمحو صورة الرجاء من قلب المسافر، اذ يقف بين كل افقين منها، ولا يدري اين تنتهي السلسلة، واين زحلة. كنت كل مرة نجتاز افقاً ونشرف على آخر اظن ان زحلة وراء ذلك الافق. فعددت عشرة منها، وبقيت افكر فيما قرأته للشاعر الايطالي العظيم دَنْتِه في روايته الخالدة — الكوماديا البشرية — من الوصف الرائع المروّع لطبقات الجحيم.

وفي هذه الصورة من حالي سألني ابو عباءة سؤالاً بارداً، وقد اراد بذلك ان يتطرف في الحديث الى النساء. فكان له ما يريد، فحكى الحكاية التي حكاها ولا شك مئة مرة من قبل، وختمها بهذه الكلمة: كيد النسوان مثل كيد الرهبان، واشد يا سيدي، اشد.

فقال البدوي: انتم النصارى لا تحسنون معاملة النساء. العصا لمن عصا. و« حنا » نقول: « العُصَيّة للمَرْيَة. »

فاندفع ابو طربوش وقال: البدو وحوش.

البدوي: يا ملعون الوالدين، قال لك الرجل: اسكت: وتعود « تحنشي ».

ابو طربوش: « احنشي » واسكت.

البدوي: وتستهزىء بي ؟! والله بالله يهجم، وهو يقسم بالله، عليه.

ابو كبعان: يا قرد — رجعنا لا كل ا . . . اذبحه وخلصنا منه ومنك.

ابو عباءة، وهو يسحب السكين ويلوح بها: اسكتوا يا ولاد الزنى اسكتوا. والا انا اذبحكم كلكم.

وكانت الدرب قد ضاقت، ونحن نجتاز احد الآفاق، فمدنا نمشي صفاً يتقدمنا ابو طربوش، ويتبعه ابو كبران فالبدوي، فابو العباءة وهذا الرفيق ابو السؤال الواحد: واين زحلة؟

سألت سؤالي هذه المرة بصوت عال جريح، فجاء البلسم من ابي طربوش، وهو في منعطف الطريق: هذا السهل — ومتى قلت السهل قلت زحلة.

وشد ما كان فرحي عندما اشرفت على سهل البقاع البهيج الاخضرار، الناعم الانوار، وقد ترقرقت خلال قطع من الغمام. وبعد مدةٍ ليست بالقصيرة ولا بالطويلة، من الانحدار، وصلنا الى عين حزير، فوقفنا امام دكانها، فنادى ابو كبران صاحبة الدكان باسمها، فخرجت مسيحية مسلّمةً مرحبة. ثم جاءتنا بابريق الماء فشرب الاربعة وودعوا وكنت انا من المودعين.

تخلفت عنهم لانني فضلت الاستراحة في عين حزير على ان اصل الى زحلة وبي شيء من الضنك والتعب. وكنت احس بالجوع فتذكرت الزوّادة التي زوّدني بها صاحب الدكان في صنين اخو تلك السامرية في بسكنتا. فاستودعتها المكاري ابا العباءة فوضعها في مخلاة بغله المعلقة في مؤخر الجلال وما ان هممت بطلبها حتى رأيته عائداً بها فأعطانيها قائلاً:

نسّتك مسيحية الزوادة اه

قالها الخبيث وهو يغمز بعينيه.

وكانت مسيحية من الرجراجات المكسرات الخطى. وقد اسرفت في الكحل والمساحيق فصعب التكهن بسنها. الا انها، على كثرة من يغدون عليها من المكارين والمسافرين، سهلة الانقياد للحديث، بارعة في

تصريفه فباغتتني بقولها: انت من اميريكة.

فقلت لبناني كان في اميريكة.

فقالت مثبتة ما استتر من علمها: «هذا معناي وانا كنت في اميريكة — في النا'يرك. » ثم سألتني بالانكليزية اذا كنت اتكلم بها فسرها جداً جوابي، ودعتني للجلوس وهي تقدم لي كرسياً، وتجلس على آخر امامي.

ثم اندفعت تتكلم عن « النا'يرك ». وشارع السوريين فيها، وتسألني عمن كانت تعرفهم هناك، كل ذلك وهي متبسطة اللسان، مشروحة الصدر. فجاوبتها باللغة التي احبتها، على ما كان من لهجتها الانكليزية السقيمة، ولفظها الفضاح.

قالت: « آي ليك النا'يرك يونو You Kno »

قلت: آي ليك إتْ تو يونو

وكانت هذه الـ« يونو » كلمة السر بيننا. فعرضت علي كأساً من العرق، فرفضت شاكراً. وقلت: اسمحي لي ان افتح زوادتي في دكانك. فصاحت بملء صوتها: ياعيب الشوم! انت الآن ضيفنا. بعد قليل يعود زوجي من الكروم فتتغدى معنا وتأكل من عنبنا.

حاولت ان اثنيها عن عزمها فما انثنت. بل أصرت بالانكليزية على ان اشاركها الغداء. ودخلت الى غرفة وراء الدكان وعادت، ثم دخلت وعادت، فتكررت منها هذه الاحتجابات والتجليات، وكانت تسألني كل مرة تعود، سؤالاً او تذكرني بما كانت تحبه في « النا'يرك »

— « آي ليك كوني ايلند يونو. »

وفي عودتها الرابعة او الخامسة من غرفة الاسرار جاءت تحمل طبقاً من نحاس عليه فنجانان وهي تقول: والقهوة، الا تحب القهوة؟ تفضل.

وبين نحن نشرب القهوة عاد زوجها من الكروم يحمل سلة عنب. فعرفتني اليه قائلة بالانكليزية: « هيْ كمْ فرام نايرُك يونو »

فما كان وقع الخبر في نفس زوجها بالشيء الخطير. كأنما لو قالت: هو قادم من بيروت مثلاً او من زحلة. فقد اخبرني انه اقام في نويورك ثلاث سنوات حسبها ثلاثين سنة، وانه لا يحب الغربة، وان بلادنا في نظره اجمل بلاد الله.

فقالت مسيحية: لا تصدقه. لو توفقنا ما عدنا. كم مرة قلت لك يا حنا إحك الصحيح دائماً. خذ الفناجين اغسلها وردها الى الخزانة.

فامتثل حنا امرها وراحت هي تحضر الطعام. فرشت المائدة الصغيرة بغطاء من القماش المشمَّع، ودخلت الى الغرفة تكمل عملها. وقد كان حنا الخادم الطائع الوديع فجاء يحمل صحناً من البيض المقلي ثم صحناً من مُتَبَّل الباذنجان، ثم اللبنة والخبز والعنب.

فاستأذنت ان اضيف اليها ما كان معي، ففتحت الزوادة فاذا فيها ثلاث بيضات مسلوقة وبصلتان وثلاثة قوالب من الجبن الطري ملفوفة كلها بارغفة من الخبز.

احبت مسيحية الجبن وقالت انها ستطلب من صاحب الدكان بصنين بضعة ارطال منه.

وبعد الغداء تمت القيلولة في الغرفة المجاورة للدكان، وفيها ما عدا ادوات الطبخ، ديوان وسرير. نمت على الديوان، فامرت مسيحية ان انام على السرير وهي تقول: اهلاً وسهلاً بلهجة من السرور صادقة.

وقد الحت عند الوداع ان اقيم عندها ذلك اليوم فشكرتها بالعربية والانكليزية — وسجلت اسمها مع اسم أم ايلياس البسكنتاوية في سفر الخالدات من النساء.

وأستكبر الاخبار قبل لقائها فلما التقينا صغر الخبرَ الخُبرُ

احببت هذه المدينة، واحببت اهلها، يوم لم اكن اعرف من وطني سوى اسمه – يوم كنت في الولايات المتحدة الاميركية. وعندما عدت الى سورية كانت اولى رغباتي ان ازور زحله، فجئتها ماشياً من الفريكة، ونسيت مشقة السفر ساعة اشرفت عليها من بين الكروم، وقلت: صدقوا والله – « زحله عروس مزينة » ! فان منظر مدينتكم من اي من هذه المشارف حولها لمن ابهج المناظر في لبنان.

وقفت بين الكروم، على تلك الربوة الجميلة، وحييت المدينة التي هي مسقط رأس اعز اصدقائي في المهجر، وحييت فيها بواسق الحور، لسانِ حال رجالها، وروافه الصفصاف، لسانِ حال نسائها، ولُجين البردوني الجاري في حياة ابنائها. وقفت متأملاً هذه المدينة المختبئة بين الجبال كلؤلؤة بين الصخور، او كزنبقة بين الادغال، واردد قول الشاعر الانكليزي غراي:

كم زهرة وسط الآفاق عابقةٍ وحسنها غير منظور من البشرِ

من الخطبة – الترقيع في العمل – التي القيتها في زحله في صيف سنة ١٩٠٨

اراني في كتابة هذه الرحلة آتياً بما لم تستطعه الاوائل، ولن يستطيعه المتأخرون، حاضراً واستقبالا، الا اذا لجأوا الى طريقتي واقتدوا بي. فان جمع الاضداد لا يستحيل، وبعث الاموات غير مستغرب، اذا استعرضنا

حقائق التاريخ، وتصرفنا بتنظيمها تصرف الصائغ او الفنان هاك ولا عجب، الحاضر والماضي والمستقبل في زمان واحد، ومكان واحد (وهل كان للزمان، قبل ان رأت عينُ الانسان الليل والنهار ماضٍ ومستقبل ؟) قف حيثما اقف الآن اذن، بعيداً بعض البعد عن « عَدّاد » الزمان، ترَ الاعجوبة ، ولا عجب . فهاك السائح سنة ١٩٠٦ ، والخطيب ١٩٠٨، والكاتب سنة ١٩٣٨، وقد اجتمعوا في شخص واحد، وفي وقت واحد ، بَل وفي ساعة واحدة، هي الساعة التي انا فيها . كيف لا وانا الان رفيق المكارين المشدّين الى زحلة، والخطيب في حفلةٍ سياسيةٍ بزحله في اوائل عهد الدستور ، والكاتب المدون الخبرين، الجامع للنقيضين، فيستشهد بما هو آتٍ على ما قد فات، ويقرن من لم يكن قد آنس الوجود بمن كان يجوب الآفاق ليدرك الادب من الحب الاسمى .

شربنا على ذكر الحبيب مدامةً سكرنا بها من قبل ان يخلق الكرم

اي زحلة، ربة الوادي، ومحجة القلوب ، زيديني حباً ، زيديني نوراً ، زيديني صفاء في التحنان، وصدقاً واخلاصاً في البيان. ان فيك الاحرار والاحبار، وخلاني وريبَ زماني . ان فيك الشعراء والابطال، احبائي وحجة ايامي (وهل تستغرب الحيوة، والحنينُ الى جنب الينبوع . تقيم ؟) ان فيك جمالاً يغبض، وقد فاضت على ضفتي نهره افانين الفصوف واسقام الزمان .

اي زحلة، ربة الكرمة والساقي، وحبيبة العود والناي، زيديني علماً ونورا . ان فيك الشعراء والادباء والخطباء، وان فيك للعقل السدة العلياء . خطبتْ ودك بنت الحان، وتغنت بواديك الركبان، ومجد بردونك امراء الشعر والبيان . وما كل يوم تقال لك الكلمة القاسية الصافية، المجردة من كل شيء غير الصدق والحب . اذن، استعصي لها، واحفظيها .

زرت الوادي في ايام مجده الاول، الصافي كمجد الجبال . فابهجتي محاسنه الطبيعية الجمة — فسحاته المترقرق فيها نور الشمس، خلواته الظليلة

العابقة بطيب الرياحين، صفصافه المتبجح على ضفتي النهر، حوره الناشر فوق الصخور اعلامه، والهواء المصفّى في مضائق صنين ورواسيه، تستنشقه الطيور فيحلو منها التغريد. وها هنا بين هذه المبهجات بضعة مقاهٍ متباعدة متهامسة، فلا يُجرِّدُ الانس والسرور من المسارح الفسيحة — لا يحتبس للمتنزهين نظر فيها، ولا تُصَدّ نواعم الاصوات. بل يأمن المرء حتى على افكاره، فيرسلها مطلقة محلّقة، ويسمع حفيف اجنحتها في مخابىء الافنان، ولفائف الوادي.

اي وادي العرائش، عرائش الحب والجمال، والسكون والجلال، واللهو والخيال، اي وادي البردوني، ملعب الصبيان والصبايا، مضرب الالباء والاصفياء، محجة القلوب الورعة، والقلوب المنعمة، والقلوب الطائعة القانعة — عرش ربة القوافي والاوتار — هودج العروس المزينة! كنتِ للطبيعة يومئذ، وكنتِ لابنائها المحبين للطبيعة المقيمين في جوارها الطاهر.

جلست يومئذ تحت العرائش، بين العروش السندسية الزاهرة، وحييت اربابها تحية الحب والاجلال، وحييت يومها الذي كان دوماً يوم عيد. وحملت من الذكريات اطيبها واحلاها، فرفعت لها العرائش في الفؤاد، وتعهدتها بيدَي الغبطة والحبور، وبزورات « هي غُرر في جبين السنين.

ثم قضت الايام بغيبة طويلة الامد، تغيرت في اثنائها الاحوال، وعقليةُ النساء والرجال، فصارت تجارات الناس وشؤون الدول موكولة كلها بالطبل والزمر — بالدعايات تمهد لها وتغري بها، وتنشر اعلام فخرها وكسبها في اربعة اقطار الدنيا. وما كانت زحلة لتتفرّد فتُستثنى. فراح الحُداة يغنون للوادي، وانطلق البشر يبشرون في كل صقع وبلد بمحاسنه. الصُفّةُ، الصُفّةُ! الاصطيافُ الاصطياف!

وجاء الناس من كل حدب وصوب يصطافون، وسارع الى الوادي المتاجرون والمرتزقون، فغدت المسارح مضائق، والمضائق مطابخ ومختليات. فتبدّل طيب الرياحين بروائح الشواء والاراكيل والأبخرة، وقد تخللتها جميعاً

انفاس الناس المجدّين في القُصوف والمتفرجين غصّت ضفتا النهر بالمقاهي، وسممت الطيور دق الاجران، فهجرت الافنان !

اَلصُّفَّةَ ! صُفَّةُ المتنزهين والمصطافين — زرتها في مساء يوم من ايام الصيف، بعد ان امست اشهر من عليقة موسى فهالني ما رأيت. جموعاً محشودة في اذرع من الارض معدودة، الى موائد ممدودة، تكاد تكون متلاصقة، فيجلس الناس اليها والظهر الى الظهر، والساق الى الساق، رجالا ونساء.. وهم على العرق والكُبّة منكبُّون، يشربون ويأكلون. ويدخنون ويتخدرون.

الا فليعذر القاري.. اني متغيظ لفرط الحب ! لولا ذلك لما حركت اليراع بكلمة في هذا المشهد المقزّز — (منظر الناس يأكلون حتى في ذوق واناقة هو غير مستحب) — لو كانت المقاهي غير متصل بعضها ببعض، ولو كانت الموائد فيها غير متلاصقة متلازّه، فلا يرى الناس حولها غير الناس حولهم، ولا يرون من الوادي غير اغصان الاشجار فوق الرؤوس وقد انعكست فيها انوار الكهرباء..

وهواء الوادي المصفّى في مضائق صنين ورواسيه — انه لمثقل بابخرة المطابخ ودخان الاراكيل، والحامض الكربونيك ! واريج الوادي الفائح من ازاهره ورياحينه — لقد تبدل بروائح الشواء والتنبك والعرق، المختلطة بها انفاس الناس الكربونية. وزقزقة الطيور في الوادي — لقد قتلتها المدقة وهي تدق في اجران الكبة على الدوام ! . وهاكم الخدامين وقد شمروا على زنودهم ورفعوا اطباق المشروب والطعام فوق رؤوسهم، يخطون بين الموائد والجموع المزدحمة، ويصيحون : « الدرب — افتحوا الدرب ! »

زحلة عروس مزينة، ومزينة بمصطافيها. اين ابناؤك النوابغ يتداركون ما ذهب من جمال واديك ؟ اين راعيك[1] يندب مهبط الوحي فيك ؟ اين

---

(١) راجي الراعي

شكريك[1] يرفع صوته عليك كما يرفعه على الظالمين. اين شبلك[2] يعيد اليك بيانُه الرياحين، ويقنع الطيور فتعود مغردة الى افنان صفصافك وحورك، واين خليلاك من بني معلوف الاخوان فوزي وشفيق، يضفران اكاليل الشعر لجمالك المتواري بين الصخور القائمة، والعرائش الخرساء.

اعود الى ذلك الجمال في يوم مجده، فتحزنني الذكرى، فيبادر الفكر اليَّ مؤاسياً. الانسان يشوه جمال الطبيعة باعمال تدفعه اليها اطماعه المادية. والانسان يعوض عن فعلات اخيه الانسان باعمال توحيها اليه المطامح الروحية معولٌ يهدم صروح الجمال، التي لا تُرى كاملة بغير عين الروح، ومعول يبني صروحاً للعبقرية خالدة. والهادم والباني أخوان يتنازعان عوامل الحياة ويعملان في الهدم والبناء على الدوام. انما الكفيل بالتعويض الاكبر بل ببقاء كل اثر مجيد من آثار العبقرية انما هو الزمان.

قلت ان صروح الجمال لا ترى كاملة بغير عين الروح، والانسان الهدام لا يهدم غير الظاهر منها. اما جمالها الروحي، فهو ينتقل او يتحول الى مجارف البنائين — الى لوحة المصور، الى قيثارة المنشد، الى صومعة الشاعر، الى براعة الاديب، هي مصادر الوحي المتألقة يرونها في خرائب الاقدمين كما يرونها في خرائب الطبيعة، وقد غزاها الانسان كسباً وإثراء. هي هي الارث الخالد للفنون الجميلة

لقد ثُلَّ عرش الوادي فورث مجده الشعراء، ولقد فاز بالقسط الاكبر ابن زحلة الخالد فوزي المعلوف، فحمله الى ما وراء البحار. راح مثقلاً بوقر العبقرية، مكبلاً بقيودها، ففك القيود هناك — في العزازيل — واعاد الينا وحي الوادي في كتاب من الشعر خالد هو «بساط الريح»

وانه ليليق بي ان اثبت في هذا المقام ما كتبته اعجاباً واجلالا في هذا

(١) شكري بخاش

(٢) شبلي دموس

الاثر الشعري الفريد في بابه، وفي شكله وحلياته – فقد كتب مقدمته الاديب الاسباني المعجب بالعرب فرنسيسكو فيلاسباسا، وصور صوره الرمزية الملونة المصور الروسي الي اكجانوفتش المتشرب روح كتابنا العربي الخالد كتاب – الف ليلة وليلة – ثلاثة.

«على بساط الريح»

مررت باشباح الاحزان، في ظلمات الزمان،
غداة لاحت في الافق الاسنى،
في الجادة اللازوردية، بين الفرقدين والجوزاء،
ثريا جديدة ذات نجمات ثلاث باهرات،
فسمعتهن يخاطبن من لا تراه العين الفانية.
فقالت الاولى: ثلاثة قلوب في عقل واحد يرتلون.
وقالت الثانية: ثلاثة عقول في قلب واحد يسبحون.
وقالت الثالثة: ثلاثة ارواح على بساط واحد يسبحون.
وقلن كلهن بصوت واحد وقور وديع: هو بساط الريح، بساطنا، بساط الشعر والفن والثقافة، بساط الاثير، مهد الحقيقة والخيال – بساط الالوهية.
وقالت الاولى كبيرتهن، ذات اللسان العربي، والصوت اللبناني: وهو صنع يدها المحركة لايدينا، وصنع قلبها النابض في قلوبنا.

. . .

وسمعت اصواتاً تتعالى من حشد الاشباح، اشباح الاحزان، وهي تقول: سعدنا يوماً وشقينا دهرا.

فجاء الصوت من وراء الحجب مجيباً: احببتم وما آمنتم، آمنتم وما احببتم، احببتم وآمنتم وما فاديتم بشيء لكم.

—٢—

مررت في شفق الزمان باولي الاجنحة المتكسرة، بحشد قاتم منهم ومنهن.

وقد وقفوا في الوادي الذي ينير نصفه قمر من اقمار الشمس الكبرى، فسمعت اصواتاً تتصاعد من ناحية الوادي العاتمة وهي تقول:

عصفت الرياح فكسرت منا الاجنحة.

والصوت من ناحية النور يجيب: لا تتهموا الرياح. فقد آمنتم بالاجنحة والدواليب، وما آمنتم بما يحرك محركاتها. آمنتم بالكهرباء، وما آمنتم بمنشئها. آمنتم بالطيارة، وما آمنتم ببساط الريح.

—٣—

وقفت في قلب الوادي، عند ملتقى الظل والنور، فسمعت صوتاً آخر يقول:

حيوا من احبوا، وآمنوا، وابدعوا، وفادوا بانفسهم محبين، مؤمنين، مبدعين.

وحيوا منهم الثلاثة في الثريا الجديدة، العربي والروسي والاسباني، وحيوا فيهم الحقيقة الكبرى طي الخيال.

وحيوا فيهم الخيال الاتم للحقيقة الكبرى.

بل حيوا فيهم الحب ورموزه، والشعر وكنوزه، والثقافة ودليلها الابصر الاعلم.

كان فوزي رحمه الله، واخوه شفيق طال بقاؤه، ولَيدين يلعبان بالكلل ويطيران طيارة الورق يوم زرت زحله الزيارة الاولى، ونزلت ضيفاً على ابيهما صديقي الابر الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف، صاحب المؤلفات التاريخية القيمة. وكان الابن الاصغر شفيق السابق اخاه لا الى النظم على ما اعلم، بل الى طبع شيء من منظومه في ديوان صغير اسماه الاحلام. فاهداني نسخة منه للنقد، فكتبت اليه كتاباً انقل منه ما يلي:

اشهد انك شاعر. ولكنك في « الاحلام » بعيد عن كنه الحياة ومقاصدها الكبرى. لقد كانت هذه اللهجة — لهجة الكآبة والحزن — زيّاً بين الشعراء في زمن بيرون وميسه. وهي في ابناء الشرق، وخصوصاً فينا نحن السوريين، داء دفين. فما فضل الشاعر وهو يبكي ويئن مثل سائر الناس.

اما من الوجهة الفنية فان في « احلامك » كثيراً من بديع التصور، وجميل الخيال، ورقة التعبير، ونعومة الديباجة. ولكنك مقلد، يا صديقي. لا اقول انك مقلد لجبران، وهو مثلك في دموعه من المقلدين. إقرأوا اشعيا بدلاً من ان تغمسوا ارواحكم في دموع ارميا. عودا الى شكسبير وغوته — اذا كان لا بد من العود — بدل ان تحرقوا اصابعكم ومآقيكم في مراحل ميسه وبيرون.

ليس الشاعر، يا صديقي، زنبقة في جمجمة. ان في هذا التصور غلواً يسقم، وليس فيه شيء من الحقيقة والجمال. ان فيه تحقيراً للجنس الانساني، وانت وانا وجبران منه، والحمد لله. وان في الكون وفي الحياة جمالا اسمى وابهى واعظم واجل من جمال الزنبقة اللطيف المحدود، وانت وانا وجبران، والشمس والقمر والمجرة، لمعات من ذلك الجمال، والحمد لله.

اما الشاعر فهو من الناس، من صميم الناس. وليس من ظن نفسه فوق الناس بابن عم، لابن ابن عم، اصغر الشعراء. ان الشاعر الحقيقي مرآة الجماعات، ومصباح آمالهم في الظلمات، وانه لعون في الملمات وسيف في النكبات. الشاعر الحقيقي يشيد للامم قصوراً من الحب والحكمة والجمال والأمل. كفكفوا دموعكم، سلمكم الله، وارفعوا لهذه الامة التي تتخبط في الظلمات مشعالا فيه نور، فيه أمل، فيه صحة وعافية.

هذه الكلمة القاسية، لو كُتبت الى ذي ادعاء وغرور، لهاج وماج، وحمل علي في الجرائد حملات من هياجه شعراً ونثرا: او انه كان سكت وامسك عن النظم حياته. اما المعلوف شفيق فقد نشر كتابي في احدى الجرائد، واستمر ينظم ويستسفر مجلدات الوحي، وهو يبعد المحجات للشاعر فيه، فجاءنا بعد عشر سنوات بالكتاب الذي يجوز ان يُدعى صنو « بساط الريح » وقد تفضل فاهداني نسخة منه فطالعتها، فاذا شاعرها غير شاعر « الاحلام » واذا هو مثل اخيه مبتكر مبدع، لا اثر في مسلكه، ولا في فنه، ولا في روحه لاحد من الشعراء المتقدمين او العصريين. ولا اثر فيه للدموع! وهو القائل في قصيدة رائعة تلاها في الحفلة التي اقامتها العصبة الاندلسية في سان بولو تكريماً له بعد ظهور كتابه:

حجّبت عن اهل الحياة دموعهم   وددرت عليهم بالرحيق المبرّد

واني الان اثبت الكتاب الذي كتبته اليه، والجواب الذي جاءني منه مثالاً لادب بارائي الشاعر فيه، وكان هو المجلي:

صديقي العزيز شفيق معلوف حفظه الله

ان ديوانك « عبقر » لتحفة شعرية فنية مطبعية، تحق المفاخرة به ليس عندكم في البرازيل وعندنا في لبنان فقط، بل في العالم العربي اجمع. واني اشكرك شكراً جماً على اهدائي نسخة منه

فاضعها الى جانب « بساط الريح » مع دواوين أخر في مكتبي، وهي كلها من كنوز العالم الخالدة.

واني اؤكد لك، يا ثاني الثلاثة — رحم الله فوزي وشدد جناحي رياض — ان سروري وفخري بصداقتي لكم، المنبثقة من صداقتي للعلامة المفضال والدكم، لا يؤثران بما اقول في شعركم. فقد اغضبتك مرة، على ما اظن، في فجر نبوغك.

اما وقد ذكرت الوالد فيجب عليَّ ان اقول، قبل ان احصر الكلام فيك، انه فريد زمانه، بل فريد ازمنة التاريخ قديماً وحديثاً. فهل يا ترى جاء في تواريخ المتقدمين والمتأخرين ذكر والد كان له من ابنائه ثلاثة شعراء! لا اظنك تجد نظيراً، عالماً او امياً، لصديقي العزيز والدك ولو فتشت عنه في تواريخ العالم كلها. فهنيئاً له ثم هنيئاً له.

ولكن لهذه النعمة الفريدة ناحية أخرى جديرة بالنظر. ليت شعري ماذا كنت اقول وبماذا كنت اشعر، لو كنت انا أباً لثلاثة شعراء، وكل منهم يروم مشاركتي في الكرسي التي لي، او الموعود بها، في دار الخلود؟ وقد لا يكون من قسمتي في سفر الشهرة والمجد غير سطر واحد يحمل للعالم خبري كله، وهو اني والد الشعراء الثلاثة!

ومع ذلك يجب علي، كأب يحترمه الناس، ان افتخر امام الناس بشعرائي الثلاثة الاعزاء، واتصنع الفرح والابتهاج، ولو ركبوا على منكبي وشرعوا ينظمون الشعر ويرتلون. اما امام الله فاني والله استجير برب عبقر منهم، واقول لوالدتهم — ولكن ما الذي اقول للوالدة التي ارضعتهم حليب العبقرية؟

وما هي هذه العبقرية التي تشقي صاحبها، على الغالب،

وتسحر الناس ؟ لقد حملت اخاك فوزي على بساط الريح الى اعلى آفاق الحياة العاطرة الساكنة، الخالدة في تسلسل الحانها واشجانها. ولقد حملتك انت الى عالم الجن الصخاب المهاب – بشهادتك – الخالد في تسلسل اوهامه واحلامه. ومن الحقائق ما كانت امس من الاوهام ، ومن مفاجئات الوجود ما كانت احلاماً. اوليس الشاعر ادرى الناس بذلك ؟

ولكنك حملت الى « عبقر » عقيدة واهية، وقساوة متناهية، وسخرية آسفة لاهية. وقد كان شيطانك مخيفاً (أتذكر شيطان ابراهيم الموصلي الذي زاره ذات ليلة كما جاء في قصة من قصص الف ليلة وليلة، وعلمه الغناء؟)وكانت عبقرك غير مستحبة فقد جاء التنافر في وصفك لها اذ قلت :

غمائم زرق على متنها   منازل جدرانها تسطع

فافسدت هذا الجمال في البيت الثاني :

تثور في ابراجها ضجة   بها يضيق الافق الاوسع

وقد كانت ساحرتك فظيعة

تضطرب   الارض   متى   اقبلت
قاذفة اليست (عازفة) احسن عزيفها المنكرا

يظهر لي ان علم والدك ، الحافلة به صفحات المقدمة لديوانك، ما أثر بك او بيقينك السابي في الجن. فانت، على رغبتك في استكشاف امورهم واستطلاع اخبار عبقر ديارهم، لا ترى فيها غير ملعب لعبقريتك، ومصدر وحي لما قررت من اتجاه شعرك.

سامحك الله، ووقاك شر من وصفت، وان كان في وصفك من الابداع ما يعبث بالقلوب وطوراً يروعها. ولقد وددت لو ان

الساحرة من الجنس الذي لا يروع الناس. ووددت لو انها ساحرة جميلة لها فيما تقول شيء من الجدة والجمال فاذا بها شتامة سبابة فظيعة مثل جنايات القصص المفجعة.

والشاعر، يا اخي، كما يتمثل في اكبر العباقرة حتى وفي اكبر الساخرين المتهكمين منهم، لا يتجرد كل التجرد من الرأفة والرجاء، وحسن الظن والأمل.

فهو يجلد الناس باسواط غضبهم، او يخجلهم بقهقهات سخريته، ولكنه لا يهدم الجسر القائم بين حياتهم هذه وبين الحياة الأخرى.

أقول الاخرى لا الآخرة، لاني ممن يعتقدون بحياة أخرى هنالك، فيما وراء عبقرك وفوق ابسطة الريح كلها. بل اني اعتقد بحيوانات أخريات، وان كنا لا ندرك اليوم كنهها واهدافها اننا لا نزال في القشور من اسرار الوجود

فهل يجوز ان تقول: تلاشت الاوهام، واهلها ماتوا.

وما استدراكك، على جماله، بخير من ادعائك:

لكن من يهزّ منا الرفات

فهو الذي ...

لا تستطيب النجوم – غير تهاليله وليس تبكي الغيوم في غير منديله

هوذا الجمال والروعة في الحزن الابدي. وهوذا الحزن الابدي في الحب الذي قلت انه «لصيق الثرى»

فياأخي الشاعر، فتحت كتاب «عبقر» وانا اتصور فيه الخير الاكبر الاصفى، او اتأمل ان يكون في الاقل حاملاً لبني آدم الذين يجتازون في هذا الزمان اشد واظلم العقبات المفجعة، شيئاً من نور العطف والامل، واشياء مؤاسية منعشة من وراء

سجوف الغيب، فكان غير ما تصورت، وغير ما املت

لا تظن، رعاك الله، ان هذه الحال النفسية حالت دون تقديري محاسن شعرك، واستطيابي نتائج عبقريتك. فقد تصفحت الديوان تصفحاً عندما وصل الي، فاستوقفني في بعض مقاطعه سهام نارية مغلفة بسحب شفافة، ورائحة كبريتية، يخالطها روائح الادغال العطرة، كما استوقفتني رسومه، وقد اجاد المصور في اكثرها رمزاً وفناً

ثم طالعت الديوان مطالعة المتلذذ المتأمل، وقد ابهجته آفاق فيه لألاءة، وارعشته هاويات صخورها هاوية، وقعورها شاوية. وهو في الحالين معجب بالهام صاحبه وبخياله، وبما في فكره من بلاغة ووضوح. ولست مبالغاً في قولي ان في ديوانك هذا شيئاً غير يسير من روعة الشعر الابدية، وفيه للخيال والفكر امثلة نادرة من القوة والجسارة، وفيه من السلاسة والانسجام والاقتصاد باللفظ، ما لا تجده في كثير من القصائد الطويلة والدواوين الضخام

فاهنئك وادعو لك بالمزيد مما وهبت واحرزت حفظك الله واطال عزيز بقائك

الفريكة في ٦ تشرين الاول ١٩٣٦

صديقك : امين الريحاني

وهاك بعض ما جاء في الجواب :

شئت يا سيدي الاستاذ — من حيث لا تريد — حشري بين عبدة التقريظ وما انا منهم. تقول انك أغضبتني مرة في فجر نبوغي، وتعني نقدك الاحلام منذ عشر سنين. فنفياً لظنك افيدك انني نشرت مقالك المذكور منذ اكثر من عام في مجلة « العصبة »

عندنا، وإخالك لا تحمل عملي على غير محمل الاعجاب والتقدير وفي نقدك ما فيه من نظرات خبير ناضج وآراء فيلسوف حكيم

اما وقد عرفتك الى هذه الناحية من نفسي فقد جاز لي ان أجاذبك الرأي فيما كتبته عن « عبقر » لا حباً مني بالجدل بل طمعاً بالاستزادة من ترشف معين حكمتك، والاستعانة بجليل آرائك

تقول في مستهل نقدك : انني «حملت الى عبقر عقيدة واهية» ثم في مكان آخر : « انا لا نزال في القشور من اسرار الوجود » فماذا عليَّ اذن ونحن لم نكتشف بعد سر الوجود، اذا كنت في عبقر شاعر جمال لا شاعر عقيدة، فيممتها غير ناشد للناس فلسفة من وراء الغيب بل متغنياً فيها بجمال الحياة وهناء أهل الحياة ؟

بل ماذا عليَّ اذا جلدت شرور الناس بسوط المرافة «الشتامة الفظيعة » او اكبرت بهجات الحياة بلسان الجنة الجميلة الساحرة، ما زلت قد فتحت جفني في عبقر على متناقضات الحياة جميلها وقبيحها، فرسمت في ألواحي ما وقعت عليه باصرتي واحست به نفسي ؟

اما ان اكون حسب قولك « قد هدمت الجسر القائم بين حياة الناس والحياة الاخرى » لاعتقادك « بحياة أخرى بل بحيوانات أخريات » حددت مكانها « وراء عبقر وفوق ابسطة الريح » فذاك معتقد يرتكز على الظن ويتكي على عصا الايمان، والايمان عزاء للناس وأمل، ولكنه في رأيي ضعف منهم وخور، ولو تسامت في البشر الثقافة الباطنية فكانوا ابطالا في المعتقد الذي لا غبار عليه للحدس والظنون، اذن لاشفقوا على العمر القصير يقطعونه على الارض بالاذى والشرور، وجملوا وجوه الحياة

القبيحة، ورفعوا بينهم ألوية العدل والحق والسلام، حتى اذا انتقلوا الى الحياة الاخرى حلموا بالارض في السماء عوضاً عن ان يحلموا بالسماء على الارض

وما انا في شعري سوى قلب مؤمن أطل على الاحياء من جفن ملحد
سلكت سبيلاً قد اكون ضللته وربة غاوٍ بالغواية يهتدي

« حلموا بالارض في السماء » . هوذا الشاعر رائد الفكر الرائع — السديد ؟ — في الخيال المشرق البعيد، البعيد على الدوام.

يجب ان تكون حياتنا الدنيا احسن ما في الحياة البشرية كلها، ان كان هنا وهناك وهنالك انها لفكرة مروّعة، وان فيها ليتسع مجال البحث. فهل يفضل الانسان نعيماً يتبعه الموت على موت يتبعه نعيم ؟

لا اريد ان تكون الكلمة الاخيرة لي. فالشاعر، وهو ضيفي في هذا الكتاب، احق بها.

اذن : ان نحلم بالارض في السماء خير من ان نحلم بالسماء على الارض.

واذن : اعود الى الرحلة، فاختم هذا الفصل بالكلمة التي عنونته بها — زحلة عروس مزيّنة — وازيد : ومزينة بنوابغها.

القصر المنيف

ودعت زحلة ومضيفي فيها العلامة المفضال ابا الشعراء الثلاثة الاستاذ عيسى المعلوف، وحملت عصا الترحال، متوكلاً على الله، وراجياً ان يجعل المرحلة الاخيرة خير المراحل، او يختمها بمثل ما تقدمها، في الاقل، من خير ونعمة.

ولّيت وجهي شطر الغرب الجنوبي، بعد خروجي من زحلة، وسرت في طريق معبدة للعربات، في سهل البقاع، بين الحقول المزروعة، والكروم التي تكسو الربى، تلك الكروم الوديعة الجاثية على الارض، وقد اختبأ العنب تحت اخضرارها البهيج.

وهذي من الكروم ابهجها اخضراراً، واجملها منظراً، واكثرها رعايةً، واغناها ثماراً. كل جفنة منها تنطق بالشكر لليد العاملة فيها، الحارثةِ المشذِّبة المثابرة، المستمدةِ حذقها من العلم الفني، واخلاصها من الخُبر والحب، واختصاصها في الادارة والنظام.

كروم هي بهجة البقاع وفخره، في وسطها بيوت تقارنها ذوقاً واتقاناً— لا فخامة ولا ابهة تشوهها. بيوت واطئة السطوح وادعة، ظاهرها يحدّث بداخلها، ويحملك على الاعجاب والاحترام. وبين تلك البيوت كنيسة مثلها وادعة وبناية أخرى ذات قبة لا تشبه قباب الكنائس.

اننا في الكسارة، ايها القارىء العزيز، كسارة الآباء اليسوعيين، وقد برَزَتْ فيها حقيقةٌ من حقائق الحياة الدنيا، حقيقةٌ تدعو للاعجاب، وتثير الشجَن والاكتئاب.

– أتقنِ العمل الفني، وأحكمْ عرى التضامن والنظام، وثابرْ واجتهدْ،

تكسب الدنيا – والآخرة . ؟ ! كن ما تشاء في باطن حالك ، مؤمناً او ملحداً، عفيفاً او فاسقاً، حنوناً رؤوفاً او عاتياً، وكن طائعاً مجتهداً غيوراً صبوراً تظفر بالنعمة، خيرك الاكبر. وما سوى ذلك باطل كله وقبض الريح، اعلم ذلك، ايها الاب المحترم، وادأب عاملاً، لا لخيرك، ولا لخير الناس، ولا لخير الوطن، بل للخير الاكبر الذي يشمل الوطن والناس جميعاً، الخير الاكبر الذي يبدأ برهبنتك، وينتهي، بعد كنيستك – برهبنتك.

قال النبي داود يا بنيّ، أعطني قلبك. كأني باليسوعي الاكبر يقول لاخيه : يا أخي، أعطني ارادتك. وكأني بكل اب يسوعي يقول للعامل او الخادم او التلميذ في ذمته : يا بُنيّ، أعطني الارادة منك واليد والعقل، وَخلِّ القلب، يخدمك في الزلفى اليه تعالى. أُسلكِ المسلك الذي يؤدي الى الغرض المنشود، وان كان المسلك مظلماً، وان كان كثير الاعوجاج.

العملَ العمل. الطاعةَ الطاعة. النظامَ النظام – وسبحان العالم بذات الصدور. دَعِ المؤذن يؤذن بالفلاح، ودونك بالثار. دَعِ المصلح ينشد الحرية، ودونك بالسلطة التي تسيطر عليها. دَعِ المتفلسف يتفلسف بالحق والعدل والمساواة، وحسبك القوة والسلامة والطمأنينة التي تقوم مقامها. يا أخي، أعطني الارادة منك واليد والعقل، أعطِك الخبز والقناعة، وأعطك الحكمة الموزونة في ميزان السوق. وكل ما سوى ذلك باطل وقبض الريح

وهاك المثل الاعلى في الكساره – كروماً هي بهجة للناظرين، وكنيسة هي الستر اليقين، ومرصداً لا يشين، وخمراً فاخراً يباع للمؤمنين ولغير المؤمنين، فقل السلام على اليسوعيين.

على ان هناك ما يدهش حقاً ويغيظ. اليسوعيون يعطوننا المثل الاعلى في العمل، والجيران من اهل البلاد يرون بعيونهم ويسمعون بآذانهم، ولا يتعلمون، ولا يقتدون. فما زلت تمر بالكروم البهيجة العامرة فقل انها للآباء المحترمين. وعندما تدرك حدود ارضهم تستقبل كروم الاهالي الناطقة

بكسل اصحابها، وبالجهل منهم والاهمال. ان الفرق بين الكرمين، كرم اليسوعيين وكرم الوطني كالفرق بين البقرة السمينة واختها العجفاء.

وصلت الى تَعلُبايا، فعرجت على بيت لشريك احد الاغنياء. وقد كانت الوالدة تصلي من اجل هذا الغني صلاة خاصة، ما اظنها تجديه نفعاً يوم القيامة فقد كان مرابياً، يبز سائر المرابين اللبنانيين بنعومة صوته، ولطف ابتسامه، ودقة اسلوبه. وقد كان يسوعياً في ادارة شؤونه. أعطني يا بني، ارادتك ويدك وعقلك، وخلِّ قلبك لك ولربك. هو السيد المطاع، وهو السيد الوديع الحكيم. كان يعمل عمله باسماً مغوياً على الدوام، يمد يده الى كيسك فيوهمك انه يضع فيه، بينما يأخذ منه المال، قد يكون اقتبس هذا الرجل بعض علمه باخلاق الناس من جيرانه الاباء المحترمين. وقد تكون تلك السجايا سجايا فطرية. ولكنه وشركاءه جاوروا اليسوعيين، وما اكتسبوا شيئاً مما ظهر في ارضهم من مظاهر العلم الفني، او من مظاهر الاجتهاد والاتقان في العمل.

اكلت لقمة في بيت الشريك وواصلت السير الى شتوره، التي كانت يومئذ بكاملها ملك امرأة لبنانية زَنَمرَدَه اسمها شق مثل عملها من الحديد. ولقد جارت الاباء اليسوعيين في مضماري الزراعة والتجاره. وكان شأنها في النجاح شأنهم — او كاد يكون. مما لا ريب فيه ان خمر شتورة كان مشهوراً كخمر الكساره، وكانت الزَّنَمرَدِيّه واليسوعية فرسي رهان.

وفي ذلك الزمان ما كان في ساحة شتوره — طريق بيروت دمشق — غير خان واحد وفندق ومقهى. يتثاءب الناس فيها، وتتثاءب هي في ظلال الصفصاف. وما كانت لتحلم بن سيجي. شتوره في المستقبل ويشرف اسم الفنادق فيها، فيرفعها الى منزلة النزُل العصرية. فهاكم اليوم ايلياس المسابكي نسيب القديسين، ومُطعم الجياع والمساكين ومُؤوي المعرّسين، ومقيم المآدب للفرنسيين، مجاناً لوجه الله في اكثر الاحايين.

وعلى ذكر المآدب نحيي اميرها وخطيبها ونحن مارّون بارضه ومقره نحيي روحه المبخرة المعسلة. فقد كان يخدن الامراء والحكام، وكل صاحب لقبٍ ومقام، وخطيبَ المحافل الرسمية، في سورية ولبنان. هو المبخّر الاكبر، والمهلل الاشهر، حيثما حل امير او سعيد او صاحب دولة خطير، هو سليم ايوب ثابت، تغمده الله برحمته.

هذا قصره في زبدل، وهذا المفرق في الطريق، جنوباً منه، يمتد بين بساتين التوت الغضة، وهو مزيّن الجنبين بالحور والصفصاف فيظلّك ويرافقك الى عين البَركة في الجوار الشريف.

ان الاسم ليستوي ومسمّاه. فهناك نبع ضحضاح، وشادروان يَليق بالملاح والاقداح، وظلال للصفصاف وارفة، وسكينة ضمختها الرياحين بطيب شذاها تتهامس فيها الاغصان كلما مر النسيم، وتصفق طرباً لكل زورة من رياح الشرق والجنوب، فتغرّدُ لها العنادل والحساسين. انك لتسمع في عين البركة همسة من همس الجنة، فتنسيك ما انت مقيدٌ به من زمانٍ ومكان، فاذا كنت وحدك فمسرحاً للاحلام، واذا كنت والحبيب فهنيئاً للحسون والعندليب.

استأنفت السير الى المريجات، مسقط رأس الفوارس الثلاثة اميل وفيليب وفيليكس، وُلدُ المحامي حبيب فارس رحمه الله، وزوجته الافرنسية الجنس السُويدنبُورغية المذهب — اقلية الاقليات المذهبية في هذه البلاد.

ما كنت اعرف احداً منهم في تلك الايام، فمررت بمهد الذكاء. والادب مرّة الغريب. وعوضت بعد ذلك عما كان من جهل بما لا يزال كائناً من صداقة مقرونة بالحب والاعجاب. وَليَعذُر الاخوَان فيليب واميل اذا انا اختصصت فيليكس بما يستحقه من رزال الذكر وقندوله. وهو اللبناني المحب لنباتات الجبل العطرية، الزاهرة والشائكة. ورب شائكةٍ زاهرة ازكى شذى من زاهرة ناعمة.

فيليكس فارس الاخ الحبيب، والزميل الكئيب، المشرب بنانه تصوُّفَ أُمِه، الناشر اعلام الفكر الحر والانسانية الحرة في البلاد، خطابةً وكتابةً نثراً وشعراً، الضارب في اللانهاية خيام خياله، المسيِّر في هذه الفانية قوافل بيانه، وقد بذل بسخاء عجيب مما وُهِب واكتَسَب في سبيل الاجانب المسيطرين — الترك والفرنسيين — وندم الندامة الكبرى بعد ذلك.

فيليكس فارس الملوح من اغواره للجوزاء، الناظر من عليائه، بعين الرأفة والحنان، الى المستنقعات البشرية.

فيليكس الخطيب المفوّه، فيليكس الشاعر الملوَّع، فيليكس الاديب المُرَوَّع — فيليكس الضحية الكبرى، ضحية الادب وضحية السياسة! فلو انه حصر قواه ومواهبه في الادب لكان اليوم من اكبر ادباء العرب. ولو انه تجرد للسياسة لكان اليوم السياسي الكبير فكراً وعملاً، ونزاهة وقدراً. ولكن للدهر في نوابغه بهجاتٍ وغصات، وهَتَفاتٍ وأَنّات.

صعدت من المريجات في الجبل الشبيه بجبل الحياة الذي صعد فيليكس فيه، فكنت مكتئباً مثله مما تعالى امامي وانعطف وتوارى حولي من الأسناد القاحلة والربى الماحلة. هو الجبل الغامر في شطره الشرقي المشرف على سهل البقاع، العامر بالقرى والبساتين في شطره الغربي المشرف على البحر المتوسط. الا ان الشطر الشرقي لا يخلو من اصقاعٍ تلطفها الكروم، ووعورٍ مخضرة ببعض الاخضرار يسرح فيها قطعان من المعزى، تنقط صخورها الدكناء وترقشها، فتبدو كصورة صورها بريشة الحبر احد المصورين. هي الصرود في أجف حالها، وخصوصاً حول ضهر البيدر، القنة العليا في الجبل، (١٥٠٠ متر) القريبة من مستوى النبع في سفح صنين.

ومن ضهر البيدر ننزل في انحدار خفيف، والتفاف يحجب حيناً الوادي الممتدة فيه سكة الحديد، وحيناً يشرف عليه، فنصل الى المديرج، ومنها الى المحجة القصوى، مصيف اعيان بيروت، صوفر العامرة، صوفر الشامخة

الشائقة، صوفر ذات القصور المنيفة، ونقطة دائرة الاصطياف والقمار في لبنان .

عندما خرجت من البيت بالفريكة كنت مقيماً في ذهني محجتين لهذه الرحلة، هما زحلة وصوفر. الاولى لشوق نشأ عن حبي لابناء زحلة وبناتها في نويورك، والثاني لفضول هو ان اتفرج على اعيان بعوت في لهوهم، وعلى « الكازينو » مفخرتهم الكبرى، فأرى للمرة الاولى — العلم بالشيء ولا الجهل به — دولاب الـ « روليت ».

وما كان يومئذ في لبنان غير « كازينو » صوفر، ولا كان في بلدات الاصطياف اكبر وافخم من النزل نزلها. فالفضول اذن مغفور .

ها اناذا في القصر المنيف، والحمد لله. العفو ، ايها القارىء العزيز، لقد استعجلت النعمة. فاني لا ازال في الروضة الزاهرة، القائم في وسطها القصر، جالساً على احد المجالس المنتثرة بين اشجارها السامقة، جالساً استريح وأُهيّئ النفس للنعمة الكبرى. ولكني، وانا في تلك الحال، استشففت ما حولي ومَن، فاذا بالعيون، عيون السيدات والسادة، الجالسين الى الموائد المدورة بين الاشجار يشربون القهوة او الشاي، اذا بتلك العيون تسدد الي سهام التساؤل والتعجب. واذا بصواحبها واصحابها يتهامسون ويتهاتفون ! ماذا ؟ قيافتي ؟ شكلي ؟ لا انكر اني كنت فذاً شاذاً في الاثنين . ولكن المتمدنات والمتمدنين، والمهذبات والمهذبين، لا يستغربون مستغرباً في الحياة. او انهم يغضون الطرف شأن الكرام.

دخلت النزل فراراً من نظراتهم الحادة. ومشيت في ناحية من الدار غصت بالناس، وهم يدخلون باباً هناك ويخرجون منه. فتبعت رهطاً من الداخلين، فاذا انا في البهو الكبير، الحافل بالموائد الزرقاء ، الجالس اليها اللاعبون واللاعبات بالـ « بوكر » والدياكا، وقد سادهم السكون والوقار، وشيء بين الاثنين لا ادري ما اسميه. هل هو العياء ؟ هل هو القرف ؟ هل

هو اليأس المتشبث بالامل ؟ هل هو التحجر الروحي ؟ ام هل هو مزيج من جميعها مخدّر للاعصاب وللاذهان ؟

خلت اولئك الناس في معبد يصلون. وخلتهم في قهوة يتعاطون الحشيش. وخلتهم في مؤامرات سياسية. وتصورت النساء وايديهن في جيوب الرجال، والرجال وايديهم في اكياس النساء، وروح الحظ بجناحيه، الاسود والابيض، يرفرف عليهم جميعاً. دعهم يلعبون، ويقرفون، وييأسون ويدفنون موتاهم.

هي ذي ال « رُولِتْ » بمائدتها الطويلة الخضراء المدبجة بالارقام وبالمربعات الخضراء والحمراء، المزدانة بتلك الدائرة العجيبة في وسطها وبدولابها الاعجب. وهوذا القيم الموقر واقفاً وراءها وكرة العاج البيضاء الصغيرة بيده، والى جنبه الة بعصا طويلة يجرف بها المال ويدفعه. والناس امام المائدة يضعون اموالهم على الارقام او على احد المربعات الخضراء والحمراء. العب، العب!

وعندما تنتهي عملية المشارطة يقول القيم بصوت السيد الوقور، وبالافرنسية: Rien né va plus ثم يدير ذلك الدولاب، ويطلق في جورة دائرته كرة العاج، فيدور الجميع دورة واحدة سريعة تكاد لا تتميز من سرعتها، وتخف بعد هنيهة رويداً رويداً، فتظهر الكرة وهي تدور وتتنقل في ثقب في الدائرة المجوفة الى آخر، من رقم الى رقم ولون الى لون، وعيون اللاعبين شاخصة اليها محدقة بها، والقلوب منهم خائفة واجفة فترسو الكرة الى ان يهدأ الدولاب في الثقب الذي فيه نعيمٌ لاناس وجحيم لآخرين. فيوزع القيم المال على الرابحين، ويجرف اليه ما تبقى على المائدة. العب، العب!

لا اكتمك اني في مشاهدتي الاولى لهذا الاختراع العجيب أخذت به، سُحرت به. وحسبت نفسي سعيداً بان ادركت مأرباً هو ان ارى

ال « رولت » طالما رغبته وعللته بالآمال. وبين انا في هذه الغبطة حدجني احد اللاعبين، الخاسرين، على ما اظن، بنظرة منكرة، وارسل القيم من طرف جفنه برقية الى الحاجب، فجاء الحاجب، وهو جبار عمليق في بزة عربية — سراويل من الجوخ و كبران مقصب ومنطقه من حرير الشبقلي — جاء هذا الحاجب بين انا في قلب الغبطة والغبطة في قلبي، فوضع على كتفي يداً ضخمة ثقيلة وقال: «تفرجت؟ قلت انفرج. قال: تفضل قلت: لفرجة أخرى؟ فاعاد الكلمة: تفضل، وهو يتقدمني. فاستوقفته سائلاً: هلا يعرف غير هذه الكلمة؟

فاعادها دون ان يغير لهجته الناعمة، وعاد يلقي يده على كتفي، وهو يفتح الباب. فقلت بشيء من الغيظ. وما المعنى؟ أتطردني؟

فاضاف هذه المرة الى كلمته الفذة قائلاً: ممنوع الدخول لغير المقيمين في « الاوتيل»

كنت اعلم ان الكازينو مفتوحة لكل الناس المقيمين وغير المقيمين ولكني لم اقل له: انت كذاب. هو عمليق وما انا بجبار. فقلت وانا أفكر في قيافتي وشكلي. اني اقصد « الاوتيل » للاقامة.

فقال: تفضل ادلك على المكتب تسجل فيه الاسم الكريم.

فقلت: انك تحسن النطق كما تحسن الطرد.

ثم جازفت بالسلامة فغيرت اللهجة قائلاً: ولكنك ستندم على فعلك. ستندم. اين المكتب؟ اين المدير؟

وكان المدير انعم صوتاً، واعذب منطقاً من الحاجب.

— « الاوتيل ملان، موسيو»

— ولا سرير فارغ في غرفة صغيرة

— « ولا سرير واحد موسيو. »

— انام على الديوان في الدار

— « غير ممكن، موسيو. غير ممكن. »

فهمت كل ما وراء هذا اللطف المنكر. الضيوف — يجب ان تحافظ على راحة الضيوف — وخصوصاً على عيونهم.

مشيت عائداً الى الباب، فمررت بمرآة على الحائط، فوقفت لحظة امامها، وقلت في نفسي: انك حقاً شيء مفزع.

ولكني عقدت النية على ان انزل في النزل العظيم تلك الليلة، والا اكن مدحوراً.

خرجت الى الجنينة فاتجه الامل اتجاها جديداً. القطار من بيروت يصل الى صوفر ساعة الغروب مقلّاً المصطافين الذين يذهبون كل يوم الى اشغالهم ويعودون. فلا بد ان يكون بينهم من يعرفني فيعينني على « المتمدنيين » وينقذني من عار الخيبة.

جلست على احد المجالس في الجنينة انتظر، وما كان موعد وصول القطار بعيداً.

طُردت من النزل، نعم، وقد وصل الخبر الى جريدة ببيروت في اليوم التالي، فنشرته بشيء من المبالغة، فتناقلته بعدئذ الجرائد في الوطن والمهجر، وجسمته ليليق بالمطالعة فقالت اني ضربت الحاجب بعصاي فشججت رأسه!

كنت في تلك الايام نحيلاً استعذب قول المتنبي — لولا مخاطبتي اياك لم ترني. وما كنت احسب نفسي مثل جلياط، قوتي بشعري. وقد قلت لك ان الحاجب عمليق جبار، ونسيت ان اقول ان شاربيه كانا طويلان مفتولان مقعنسسان عظيمان. يضرب صاحبهما بالسيف اعتزازاً بهما، ودفاعاً عن عظمتهما فهل يعقل ان اكون جازفت بالسلامة بغير تلك الكلمة: ستندم على فعلتك هذه انما هذه هي الحقيقة بكاملها.

وبعد هذا التصحيح في الرواية اعود الى القصة ارويها بما تقدم من التدقيق والتحقيق، فلا تُعَد من خزعبلات التاريخ.

جلست في الجنينة انتظر الفرج من عالم الغيب . وما همتني عيون الناس، وقد ازدادت عدداً وشغفاً، لما ذاع في الحال من خبري داخل النزل. واظنني نمت او تناومت، فلا ترى عيني تلك العيون. بل اغمضت جفني وانا اروح القلب بشيء من التفلسف واعتصم بالصبر. في تلك الساعة، وانا في هذه الحال، شعرت بيد تهزني هزةً لطيفة، فانفتحت عيناي على صورة الفرج والحبور. كان القطار قد وصل من بيروت، وكانت اليد يد صديقي العزيز الأبر جرجي ديمتري سرسق، جابر عثرات الكرام في زمانه – « هذا انت يا امين ! متى جيت ؟ ولماذا انت هنا ؟ قم ندخل « الاوتل » .

قصصت عليه قصتي فضحك، وهو يرمقني بنظرة لمست شعري وشامت قدمي. ثم بدا في وجهه التغيظ، فأخذ بيدي ودخلنا النزل وهناك في مكتب المدير صبّ صديقي جام غضبه.

– أتعرف من أهنت ؟ هذا فلان – هذا – هذا – (الخ) ابن مرعي. تعال يا مرعي استغفر الافندي. (يجيء الحاجب فيستغفر جرجي بك ويستغفرني)

ثم الى المدير : أعطه احسن غرفة عندكم.

فينادي المدير احد الخدم ويأمره ان يدلني على الغرفة. وبعد قليل يجيئني الخادم وبيده من صديقي مشط وفرشاة. ثم يجيء، باشارة منه، مسّاح الاحذية.

وبعد ان نفضت عني غبار الطريق ، وغسلت ، وسرحت بالمشط شعري، وبعد ان عادت اللمعة الى حذائي، نزلت الى الدار حيث كان جرجي بك ينتظرني للعشاء.

دخلنا ردهة الطعام الطويلة، وكان اكثر الضيوف قد جلسوا الى الموائد المتعددة فيها فمشينا جنباً الى جنب الى المائدة الصغيرة المختصة بصديقي، وانا معجب بجرأته الادبية التي احتضنتني، على ما كان من قيافتي وأمري،

واقتحمت بي تقاليد الاعيان وترهات كبريائهم. فاعاد الي شيئاً من بهجة الحياة، فنظرت الى الضيوف لارى اين تلك العيون التي غزتني في الجنينة، فحملتني على الفرار منها، اين هي؟ هي الان مقصورة مغضوضة. هي الان عيون كرام الناس — كرام الناس بالقوة. إعجب لهذه الهيئة الاجتماعية، التي تُذِلَ وَتُذَلَ، بقدر ما فيها من جهل وكبريا،، وبقدر ما فيها من تسكسك وخنوع . . . جرجي ديمتري سرسق صديق الرجل، اسكتي . . . هو من اصدقا. جرجي ديمتري، «مُن شيْر» غض النظر . . .

وقد أُقيمت في المنزل تلك الليلة حفلة راقصة، فوقفت وصديقي في البهو الكبير نشاهد الراقصين، واكثرهم في الثياب الرسمية، والراقصات في شتى الازياء الباريسية، والفساطين كلها مقورة الصدر «دِكُلتِه». وقد كان يُحسَب هذا الزي في تلك الايام ضرباً من الخلاعة. فقلت لصديقي، في سذاجة مصطنعة، لا اطيق مثل هذا المشهد بدون اجتماع. فهل يُباح في هذا المنزل؟

ما جازت سذاجتي عليه، فجاراني بها قائلاً: أيتهن تريد؟

فأشرت الى دعشوقة شقراء، في ثوب بنفسجي اللون، فناداها باسمها، فاقبلت تتغنغ بالافرنسية، فقدمني اليها قائلاً: هذا فلان الكاتب الشاعر.

فقهقهت وهي تقول: Vous vous moquez de moi وراحت مُدبرة، فكفَرت واسترضت.

قال صديقي ضاحكاً: اتريد غيرها. فقلت اشكرك أكتفيت.

وفي صباح اليوم التالي ناديت الخادم وسألته اذا كان في المنزل ماء حارٌ للاستحمام.

فقال: حاضر، سيدي. ساشعل النار في «الأزان» وبعد ربع ساعة تشرف الحمام.

انتظرت ربع ساعة، وربعين آخرين بعد ذلك، ثم رحت «اشرَّف»

الحمام، ففتحت الباب، فرُددت مدحوراً. ردني الدخان الذي انتشر من الغرفة كما لو كانت فوهة بركانٍ مستعر، واستمر في ذلك فملأ الدار، فهرع الخدم وهم يصيحون : النار ! النار !

النار ! سمعها الضيوف، فخرجوا من غرفهم، رجالاً ونساء والبعض منهم في ثياب النوم، وقد استولى الخوف والذعر عليهم جميعاً، فتزاحموا على الدرج وتقافزوا الى الطابق الاسفل.

ماذا جرى ؟ اضرم الخادم النار في موقد خزان الماء، ومضى في اعماله الاخرى. وكان قسطل الخزان مكسوراً، فامتلأت الغرفة، حُشيت حشواً، بالدخان.

ولقد ادرك ذلك احد الخدم فوقف في الباب يهز برأسه، فدفعت به الى داخل الغرفة صائحاً : هز يديك افتح الشباك.

وبعد قليل جاءني يقول: راح الدخان. طار كله من الشباك. تفضل شرف.

فشرفت المكان ثانية فاذا بالماء الحار في الخزان قد برد !

سألت الخادم: ولماذا لا تصلحون القسطل ؟

فاجاب، وهو يهز رأسه: لو كان القسطل وحده كانت المسألة هينة.

قلت: وهلا يستحم الضيوف ؟

قال: مرة في الزمان يطلب ضيف مثل حضرتك الحمام. واليوم نصلح القسطل، وغداً ان شاء الله يكون لك ما تريد.

قلت: اشكرك، اكتفيت.

نعم، اكتفيت بما في النزل الشريف، والقصر المنيف، من طيبات الحياة.

وقد كان في النية ان اكمل الرحلة ماشياً الى الفريكة فأمرّ بجبالنا في طريقي الى صليما، ومنها الى بعبدات، فبكفيا، فبيت شباب.

ولكن صديقي جرجي ديمتري سرسق، رضي الله عنه، ابى علي ذلك.

وقال بشيء من التأنيب: أما اكتفيت بستة ايام من المشي ؟

فقلت: اكتفيت، ان شئت انت.

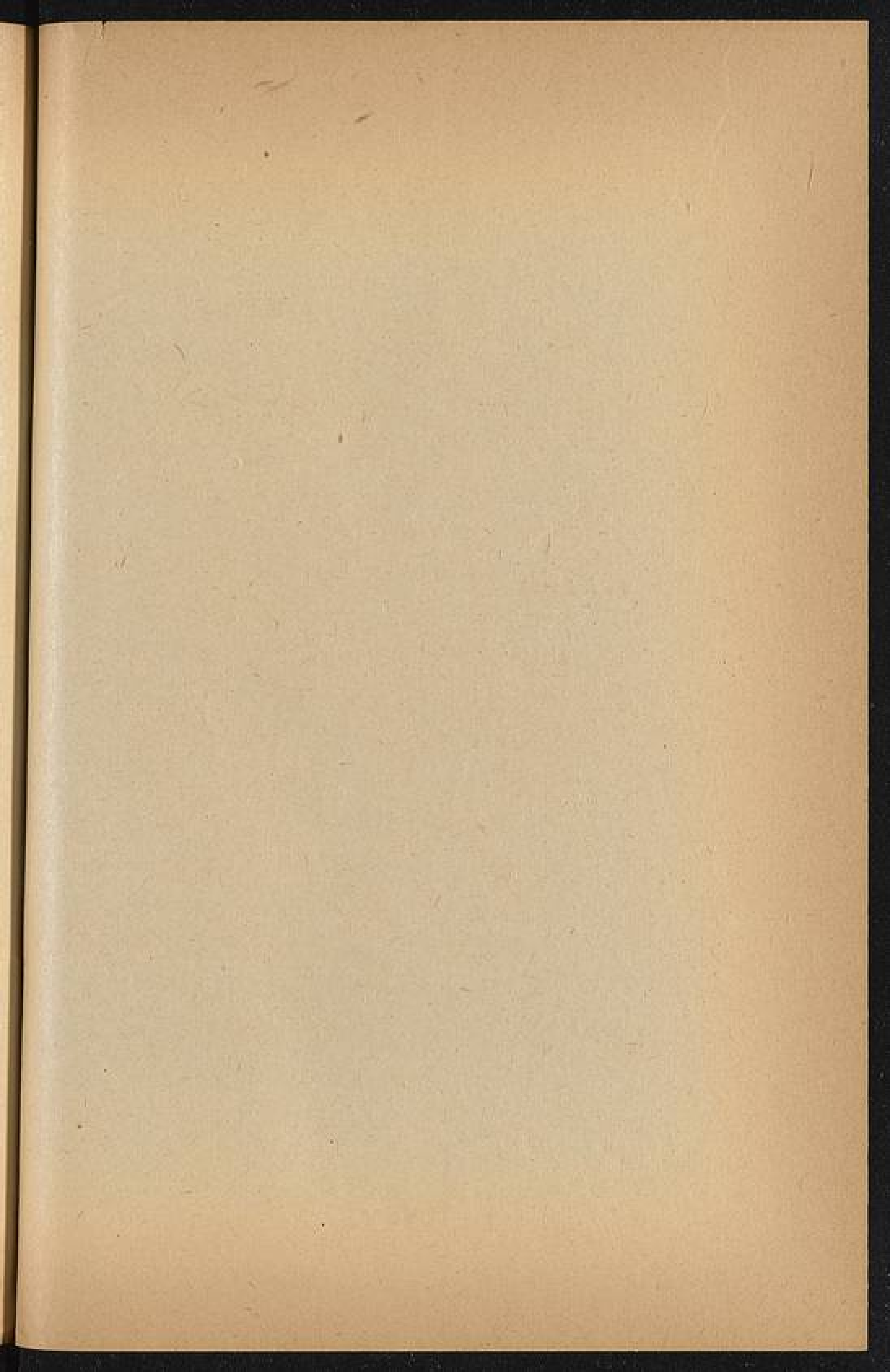
وقد رافقته، اذعاناً لمشيئته، في القطار الى بيروت.

الرحلة الثالثة

بلاد جبيل

•

محتويات الرحلة



الشريك [1]

يقول العالمون بتاريخ الأُسر اللبنانية، وفي طليعتهم صديقي الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف (وهل في الطليعة او في المؤخرة غيره ؟) ان اكثر اللبنانيين في وسط لبنان وفي طرفه الجنوبي انتزحوا قديماً من الشمال، وخصوصاً من جبيل. وما سألت لبنانياً او بيروتياً جبلي المحتد: من اين اجدادك ؟ الا واجابني: اصلاً من جبيل. وان انت سألت احد المتضلعين بالعلوم الفينيقية، والتاريخ الفينيقي، او المغرمين بالفينيقيات (اي بالاشياء الفينيقية المعقولة والمنقولة، وغير المعقولة والمنقولة) ان سألت هذا الفاضل: من اين نحن ؟ قال لك فوراً: كلنا من جبيل !

تباركت جبيل، وتباركت ثمرة — ثمرات — بطنها. انها على ما يظهر مهد الجنس اللبناني. وقد يكتشف غداً الاثريون فيما ينقبون، تحت الارض البكر، على الشواطئ المجيدة، وبين الصخور الخالدة، ما يمكنهم من الاثبات ان جبيل هي مهد الجنس الانساني ، ومنها تفرعت، وانتشرت شرقاً وغرباً ، مدنياتُ العالم كلها. اني ادعو لهم بالتوفيق، واعلل النفس بالنبأ العظيم.

---

(١) الشريك في اصطلاح اللبنانيين هو الموكّل بالملك، القائم به مناصفة او مرابعة او بثلث ريعه.

حسبي اليوم ما هو ينبوع الجبور لاخواني المعاصرين. فاني مثلهم في التاريخ الحديث – اني من جبيل كيف لا وقد انتزح اجدادي منذ مائتي سنة، من قلب تلك البلاد – من بَجّة (نحن، دام فضلك، بجانيون) – وتوطنوا بيت شباب ومزارعها، القائم بعضها على كتف الوادي الذي اصبح يُدعى بوادي الفريكة. وقد كان جدي لابي، رحمها الله يحن دوماً الى تلك البلاد، ويكثر من الرحلات اليها، فيقبل ترابها بعد مشقات السفر، ويعود الى اهله باحمال من خيرها – من تبغها المشهور وتينها المجفف – وبقطيع من مواشيها.

كان جدي اذن تاجراً، وكانت التجارة في تلك الايام تقوم على الاغلب بالمقايضة. فماذا كان يحمل الى بلاد جبيل غير المال. لست متيقناً انه كان يحمل مالاً. فهل كان يحمل سيفاً ويروح غازياً بلاد اجداده، فيعود منها غانماً ظافراً، ام هل كان يسوق اليها قطيعاً من الغنم، ومعه حمل من الحرير، ويعود الى اهله بقطيع من البقر، وباحمال من التبغ والتين؟

ما خطر لي في صباي ان اتحقق هذه المسألة. ولكني اعلم ان تجارة جدي كانت مثل سائر التجارات، مصدراً للكسب، ومعرضة للخسارة وكان الكسب وكان الدَين، وكان على ما يظهر العجز لدى بعض الجُبيليين. فاضاف جدي الارض الى مكاسبه، وعاد كأجداده مُلّاكاً في جبيل.

وقد ورث والدي بعض تلك الاملاك، فَبُلِيَ بها. ما استطاع ان يبيعها بما يدنو من اصل الدين، ولا ان يستثمرها بواسطة شركاه لا يتفننون في الاستثمار، ولا ان ينقلها الى وادي الفريكة. بقيت له – وعليه – الى آخر ايامه، فكُتب لي – وعلي – الاهتمام بها مثله والاغتمام!

وقد رحلت مرة، مثل جدي ووالدي، الى بلاد جبيل، استقصي خبر ذلك العقار. وصلت الى نهر ابراهيم في عربة أثرية، عليها جلال العتق والقدم، يجرها حصانان من ضوامر الخيل الاصيلة، هزيلان جائعان حزينان.

وهناك وقفنا. كان ذلك في العهد السعيد، السابق لعهد البنزين والحديد. ولم يكن في تلك الناحية من الجبل طريق حتى للعربات. وما كان بجوار النهر لا خيل، ولا بغال، فاستأجرت ما وجدت — حماراً ابن أتان، وبما ان صاحبه لم يكن يعرف الطريق استأجرت كذلك دليلاً.

ورحنا نصعد في وادي نهر ابراهيم، وادي ادونيس، في موكب فينيقي قروي، يتوسطه السيد راكب الحمار، وبتقدمه الدليل، ويحمي المؤخرة الحمّار، وبيده قضيب من الصفصاف.

وكان الحمّار شغفاً بصوته، فاطلقه بالمواليا، فازعج الدليل، فأسكته. ثم خطر للدليل ان يقوم مقامه في إطرابي وتطريبي، فكان صوته انكر من صوت الحمار، فأسكتُّه، ورحنا نصعد في ذلك الجبل ساكتين واجمين، حتى وصلنا الى المكان الذي يشرف على البطحاء المدفون فيها كنز العائلة.

اني لا ازال اذكر ذلك المكان واذكر اسمه. هو بير الهَيْتي في الطريق الى قُرطُبه. واني اذكر كذلك ان فيه ديراً للرهابين، وان رئيس الدير، عندما شاهد الموكب — سيداً على حمار ومعه رجلان يمشيان امامه ووراءه — ظنه موكب القائمقام او ابن عمه، ودعانا للاستراحة.

وما كنت في قبول الدعوة من المحبورين. فقد شاهدت في الدير كاهناً عرفته في نيويورك — كان يرعى الخِراف المارونية هناك، بل كان يُخرفه — فتشاءمت به، وما أطلت الاقامة. ولا الرئيس، بعد ان عرفني، ألحَّ في الدعوة لفنجانٍ من القهوة. فاكتفينا بالماء من ابريقه، وودعناه شاكرين.

نزلنا في العقبة من بير الهَيْتي ماشين كلنا، نسوق الحمار امامنا، حتى بلغنا البطحاء. فأعدت تنظيم الموكب، اكراماً لاهل القرية، وخصوصاً «للشريك» الذي كان يفاخرهم بـ«معلّميه». اي نعم. استأنفت الركوب، وأمشيت الدليل امامي، والحمّار ورائي، وسرنا بهذه الأُبَّهة الى قرية الحُصون، المحصَّن فيها الكنز العظيم.

وهناك نزلنا على « الشريك » فرحب بنا ترحيب مكمودٍ لا مسعود. ولكن « الشريكة » امرأته ذبحت لنا الذبيحة – دجاجةً فينيقيةَ العمر، وجعلتها بيت القصيد لمأدبةٍ فُتحت بزيتونٍ من ارضنا» وخُتمت بجبنٍ من ضرع بقرتنا.

ثم جاء اهل القرية، يتقدمهم الكاهن، مسلمين مرحبين – ومتفرجين. فحدثونا – والحديث ذو شجون، كما يقول الكاتب ابن زيزفون – بل صوّحونا بالسؤالات كما يقول صاحب المقامات. سألونا عن اهلهم في اميركة، وعن الشرانق في جهاتنا، وعن اسعار القمح والشعير وعن الصابون، والزيت والزيتون، وعن البقر وسوقها والمعزى ومرعاها، وعن وعن، فأحرجوا حتى الدجاجة في بطن « الفيلسوف الفصيح » فجلجلت وكادت تصيح.

وكأنهم سمعوا او احسوا او تصوروا ذلك فما انصرفوا. وقرأت الشريكة النبيهة في عينيَ الامنية القصوى، ففرشتْ لي على السطح، تحت خيمة من الشيح كان لا يزال طرياً طيبَ الاريج – فرشت فراشين، اكرمها الله، الواحد فوق الآخر، وما تمكنتْ، بما في قلبها من اللطف والحب، من ازالة ما في حشوهما مما لست اعرفه. ومَن غير الساحر يستطيع ان يعمل من الفراشين الخشنين فراشاً ناعماً وثيراً؟ بيد اني كنت شاكراً للشيح طيبَه، ورحت استنشقه كمن يتمنى سكرةً منه، فينام اذ ذاك على الحجارة.

ولكن النجوم أفسدت على الشيح عمله. فقد كانت الليلة صافية الاديم، وكانت الكواكب كلها في اصفى وابهج احوالها. فبت ارعى النجوم، كما يقول الشاعر، واصحح ما تعلمته من علم الفلك في ليالي لبنان الصافية.

وكنت وانا اقيس المسافات، بين الثريا والميزان، مثلاً، او بين الدبين الاكبر والاصغر، بالقياس النظري، اقول في نفسي. من الممكن اجتياز هذه المسافة على حمارٍ بساعةٍ واحدةٍ او ساعتين. ثم استنشق نشقات كبيرة

من طيب الشيخ، وانا اقول : اني اسلمك روحي. فما كان سبحانه وتعالى
يمد يداً اليها.

وماذا بعد ذلك يعين غير الاحلام ونظم الاشعار ؟ اظنني نظمت
بيتين من الشعر باللغة الانكليزية، لارسلها الى صديق لي بنيويورك، انبئه
فيهما برحلتي هذه العجيبة، اي رحلتي على حمار ابن اتان، من الثُريا الى الميزان !

وكنت بعد كل شطحه من شطحات الخيال، وكل نشقة من نشقات
القصمين والوزال، اعود الى حلمي الذهبي، فاقول لنفسي اليقظة الارقة
المتضجرة – اقول لها مطمئناً : غداً يدفع الشريك ما تأخر من حسابه –
قسمتنا من ريع الارض مدة عشر سنوات – فأعود الى الفريكة. كما كان
يعود اجدادي من رحلاتهم، غانماً ظافراً.

وجاء الصباح البسّام، مبدِّد الاحلام، فافضى الشريك الي باخباره التي
بدأت وانتهت بالويل والبلاء. وكانت بلاياه، يا معلمي، من الزمان،
ومن الحكومة، ومن المرابين، ومن الجيران المعتدين، والبلبلة الكبرى،
يا معلمي ...

فهمت بالاستقراء والاستنتاج، قبل ان فاه ببيت القصيد، ان الكنز
قد ذاب، ولاجداء في السؤال عن قسمة او حساب. ولكن المخيلة خذلتني،
فما ماشتني الى اقصى حدود النكبة.

فبعد ان شربنا القهوة، واكلنا العنب والتين، وجاءت الشريكة
بارجيلة استعارتها من بيت كاهن القرية، كشف الشريك الستار عن كل
ما به. فعلمت أن البيت مرهون، والملك غارق بالديون، والدهر، يا معلمي،
ملعون ابن ملعون.

فهلّا تشبهت انا بوالدي الكريم، وبجدي الاكرم، رحمهما الله، فرفعت
يد الدائن عن البيت، وانقذت الملك من براثن المرابين ؟ !

وقد اقسم الشريك بالله وبمريم العذراء وبجميع القديسين انه يعيد اليَّ

المال بعد سنتين، ويعيد الارض الى سابق خيرها وخصبها، فتجيئنا اذ ذاك قسمتنا في كل موسم – وحياة الله، يا معلمي، وحق جميع القديسين !

• • •

ركبت حماري وسقته مسرعاً صوب العقبة، فعدا الدليل والحمّار ورائي، فصحت بهما: المواليا، المواليا ! فرفعا عقيرتيهما معاً بالغناء، فاستعذبته والله في تلك الساعة، وشاركت به .

« فغفور » الخوري

ما ذهبت جبيل من خاطري، بالرغم من الغزوة الاولى المخفقة، ولا عرا ذكرها شيء من الاهمال او الفتور. فقد زرت ذات يوم المدينة المشهورة، على الشاطىء القديم، ونزلت ضيفاً على المدير في القلمة (كان لي في تلك الايام، اصدقاء في دور الاحكام) وسمرنا على ذكر الاجداد الصناديد، الذين سخروا الامواج والحيتان لاغراضهم البعيدة، فحلمت تلك الليلة اني امير الاسطول، المحاصر بلاد الغول، بامر عزبعل الملك.

وبعد ايام جنحت الى الجبل في التسيار، وانا لا ازال انشد البلاد التي تدر لبناً وعسلاً، البلاد التي كان يحدث عنها جدي ووالدي، بلاد الاجداد الجدد، بالنسبة التاريخية، فوصلت الى عمشيت، واقمت في ظلال الفضل والكرم فيها، فعلمت أن آباء من احبهم قلبي كانوا يعرفون ويحبون الجد والعم والوالد، ويضيفون اكراماً لهم، كل من جاء من وادي نهر الكلب صنو وادي نهر ابراهيم.

ولكن عمشيت باب بلاد جبيل، وما انا ممن يرضون بالوقوف في الابواب. فاين بَجّة، واين معاد، واين الثلث الآخر من البلاد [1]

مرت الايام والليالي، وتخللتها الاسفار في المغارب والمشارق، وانا في اشد ازدحام الافكار والعواطف، اقول للنفس من حين الى حين: وبلاد جبيل، يا بنت الحلال، متى نشد اليها الرحال ؟

شددنا ذات يوم الرحال على الطريقة الحديثة، فراحت السيارة تعدو

---

(١) يقول اهل جبيل بجة ومعاد ثلثا البلاد

بالدقائق الاميال، وتطوي الشاطى. طيها للجبال، طيّاً يرقص الثعابين، ويجمد الدم في رقاب «البعارين». عليهم يا ابنة الشيطان، وَدَعي الفارض يسوق الاظعان.

ومررنا كالسهم في جبيل، ودخلنا عمشيت وخرجنا منها كالقنبلة، وقد أُطلقت من مدفع جبار، ورحنا نصعّد - والحمد لله - في البلاد المنشودة المحبوبة، تصعيداً رهواً، بين الربى والبطاح، المزدانة بالشيح والقندول، الخالية من الانس والجن، فبلغنا الوادي القائمة فوق حبالين، فاذا في الطريق التي تمنطق تلك القرية. ثلاثة من الغيد في زيٍ اوروبي، من الرأس الى القدم، يُزلن الوحشة من ذلك الوادي، ويدخلن السرور على القلوب. فهلا يليق ان نمر بهن إلّا كما مرّ سائق الاظعان بذات الشيح؟

اوقفنا السيارة وحييناهن، فرددن التحية باحسن منها، وبشِشن وهششن لنا، ودعوننا الى بيوتهن. فكن في الكرم والمعروف بنات الجبل المبارك، لا غبار عليهن، فما غيّر الزي الاوروبي ما فطرن عليه من بساطة الروح ودماثة الاخلاق. لا وربي الفينيقي وربك المسيحي، فلا القرمز على الشفاه افسد المنطق منهن، ولا العصي بالايدي، يعتصين عليها، كذّبت ما في القلوب.

ودّعنا الطيور التي كانت تزقزق على اغصان التين، ترحيباً بنا، وبالغيد الساحرات قلوبنا، واجتزنا حبالين التي تكاد تكون مهجورة لولا من شاهدنا - ولا هجران مع حسان - فاستمررنا في التصعيد الى القرية المجاورة لها، فعرجنا على شامات، وزرنا بيتها الاعلى، وفيه كاهن واسقف وبنات لبنانيات، ما عرفن من المدنية غير حسناتها. تباركت احشاؤك ايتها اللبنانية الجبيلية.

وما انا بالغريب في بيوت الكهان، وان كنت غريب الايمان. فقد

كان جد جدي لابي اسقفاً،[1] وكان على ما يقال من العلماء الصالحين، بل من الاذكياء اللامعين. حدثني احد شيوخ العائلة عن احد شيوخ آل خازن قال: شاء شيخٌ خازني ان يختبر علم المطران باسيل عبد الاحد[2]، جدي، فخاطبه ذات يوم قائلاً: لكل ما خلق الله منفعة يا سيدنا، الا هذه الصخور. فما الفائدة منها؟ ولماذا خلقها الله؟ فاجابه المطران باسيل فوراً: هذه الصخور، يا ابني، هي عظام الارض.

وفي البيت الاعلى بشامات كاهن صارع الصخور فصرعها، وبرهن عملاً على ما قاله الاسقف جدي. فقد كسا «عظام الارض» ثوباً من «اللحم» — من التراب الذي جلبه اليها — ثم غرس الاغراس والعرائش، فازدهرت وأثمرت، وفرشت الارض، عطفاً وحناناً، بظلالها.

وللكاهن الجبار بشامات أثر آخر في مغالبة الصخور، أثر فريد عجيب، هو ظاهراً حائط ضخم مستدير، قائم على صدر الجبل، من وسطه الى اعلاه، وهو يستوقف نظرك، ويوقظ فيك الحيرة والاعجاب وانت في الطريق صاعد الى البيت. فما هذه الاكمة يا ترى، وما وراءها؟ ما رأيت أتوناً بهذه الضخامة. وليس في هذا الجبل الماء الذي يستوجب السد. فهل هو حصن فينيقي، ام أثر روماني، ام صليبي؟ ما تمالكنا بعد وصولنا ان سألنا، فقيل لنا: هذا قُبْقُور (قمقور) الخوري.

ثم مشينا والكاهن اليه، فاذا نحن على سطح مقبرة، في شكل هلال هو من الطرف الى الطرف نحو خمسة عشر متراً، ومثلُ ذلك علو الحائط الذي رأيناه من الطريق. قلت انه مقبرة، والكاهن يقول انه قُبْقُور. فهل انا اعلم منه بما هو بنات افكاره، ومن جليل آثاره؟ اقول، نعم. هو مقبرة

(١) ما كان محظورا في تلك الايام ان يسام الكاهن المتزوج اسقفاً

(٢) عبد الاحد اسم العائلة والريحاني نسبة الى الريحان — الآس — الذي كان يكثر في جوار بيتنا القديم.

لان الكاهن المحترم الجبار دفن فيه كل ما كان حول بيته من الحجارة! فبدل ان ينقل العمال تلك الحجارة من ارضه، ويرمون بها في منحدر الجبل فتنتهي الى الطريق فتسدها، قد بنى ذلك الحائط الشاهق سداً منيعاً، وملأ بالحجارة الحفرة التي تكوَّنت وراءه.

هي ذي المقهوة وفيها «عظام الارض»! ومن بنات افكار هذا الكاهن في العمران انه بنى في اثناء الردم مربعات صغيرة، متراً بمتر، هي الآن – او بالاحرى عندما رأيناها – حُفَر في السطح، عمق الواحدة ينيف على المتر. وهذه الحفر ستُملأ تراباً، وستزرع فيها الاشجار المظللة.

وسيجلس الكاهن اذ ذاك تحت تلك الاشجار، فوق «عظام الارض»، هو وآله وصحبه، الى مائدة صفت عليها الجفان الصغيرة، وفي وسطها زجاجة العرق! هذا ما قاله لنا، حياه الله.

ومن يقول بعد هذا ان اجدادنا كانوا جبابرة واننا نحن اقزام؟

قد لا تجد في جبل لبنان كله صنواً لهذا القهقور. ولكنك، اذا ما جنحت عن طريق «التمدن»، وتغلغلت في القرى، تجد لصاحبه الكاهن، بين الفلاحين، اخواناً في العزم والهمة والنشاط.

هذا الكاهن هو والد المطران بولس عقل.

وفي المطران بولس، حياه الله، ووفقنا الى الصواب واياه، شيء من صخور لبنان، واشياء من ثماره. فهل يسمح بالاستعارة؟ العفو، العفو. اِنْدع «القمقور» في مجد وحدته.

اما اني شعرت في ذلك البيت اني في بيتي فَلِأسباب ذكرت بعضها. وازيد هاهنا ان اهله لبنانيون جبيليون، وانا لبناني جبيلي، اما الأثواب، سوداء كانت او ارجوانية، فهي لا تخفي ما في القلوب.

ولو لم يكن غير «القمقور» لكفى به صلة للحب والاعجاب. ولكن هناك غير «القمقور» وغير المطران بولس. هناك الكريمات المهذبات الواقفات

في تهذيبهن بين الحرية والتقليد. فالعقل حر، والنفس مقيدة بتقليد لبناني هو حصن الاخلاق والسلوك.

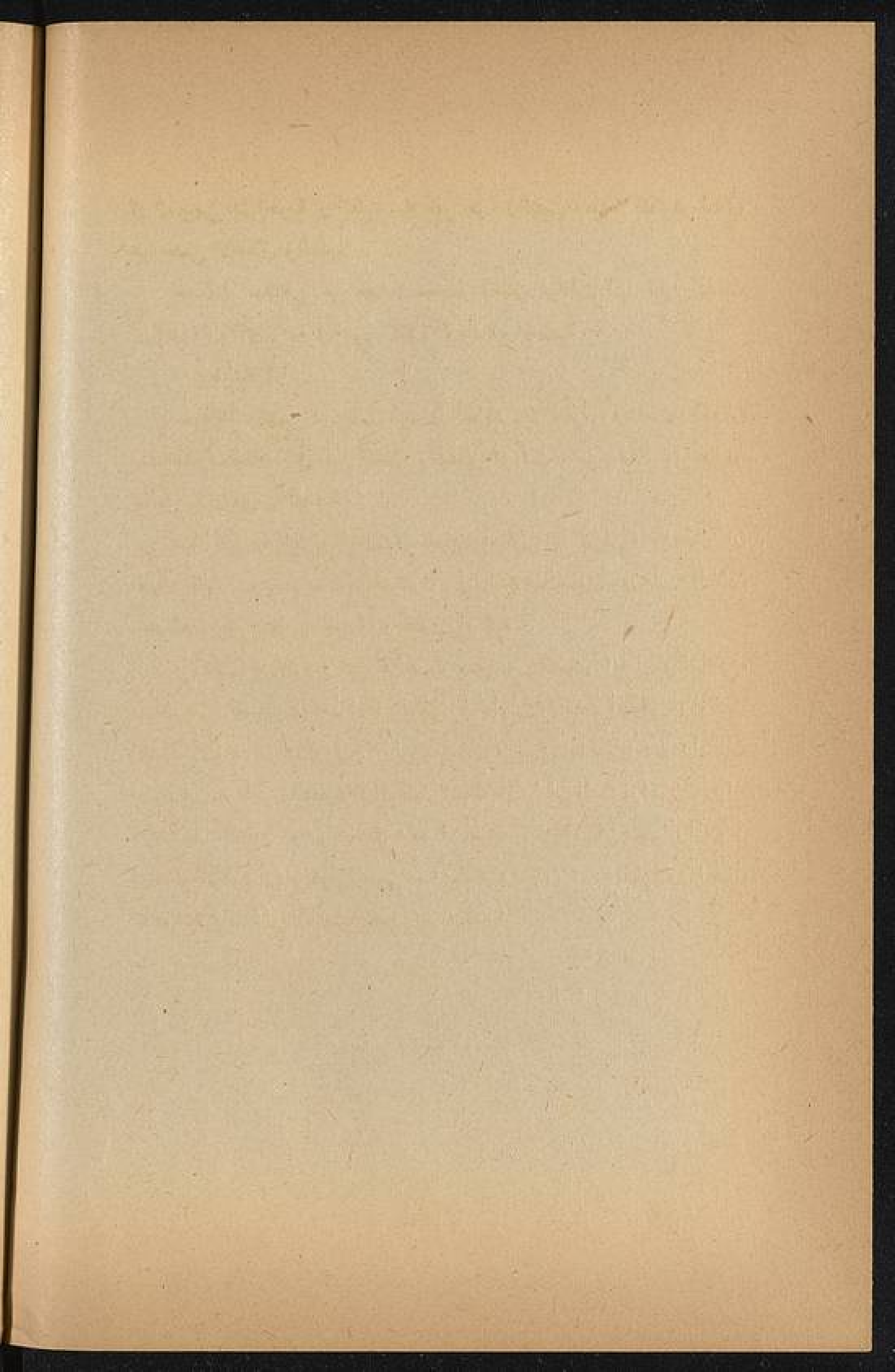
حدثتنا احداهن عن جبران معجبةً ناقدة. وقالت انها تقرأ كذلك الريحاني، وترتأي رأيه في امور كثيرة، وطنية واجتماعية.

— ودينية ؟!

سبحانك اللهم. فان انت شيدت القهاقير بين العقول، ورفعت الجدران عند حدود العقائد، في ثغور الشك واليقين، فما أقمتَ، جل جلالك، حداً او حاجزاً بين القلوب الصافية.

عدنا من حبالين وشامات، حاملين اعذب الذكريات، وآسفين ان النهار قصر دون رغبتنا بالاستمرار في السير، متغلغلين في قلب البلاد، مستنشقين نفح النفوس الطيبة، والقلوب الزكية.

وكنت افكر، ونحن عائدون مسرعون نطوي الجبل والشاطىء طياً ادهش الغسق، وأغاظ الليل البطيء الخطوات، كنت افكر في اولئك اللبنانيات المهذَّبات، اللواتي لا يزلن بعيدات عن برق المدنية الخُلَّب، اولئك المتواريات في القرى القصية، وافكر كذلك في شبان المدن الراغبين بالزواج — الشبانِ العاقلين وان قلوا في هذه الايام — كنت افكر فيهم والله وفي اولئك الكريمات، واقول لنفسي ما اعيد قوله الآن : — فتشوا في الجبال تجدوا، وأمعنوا في التفتيش تجدوا، وتسعدوا.

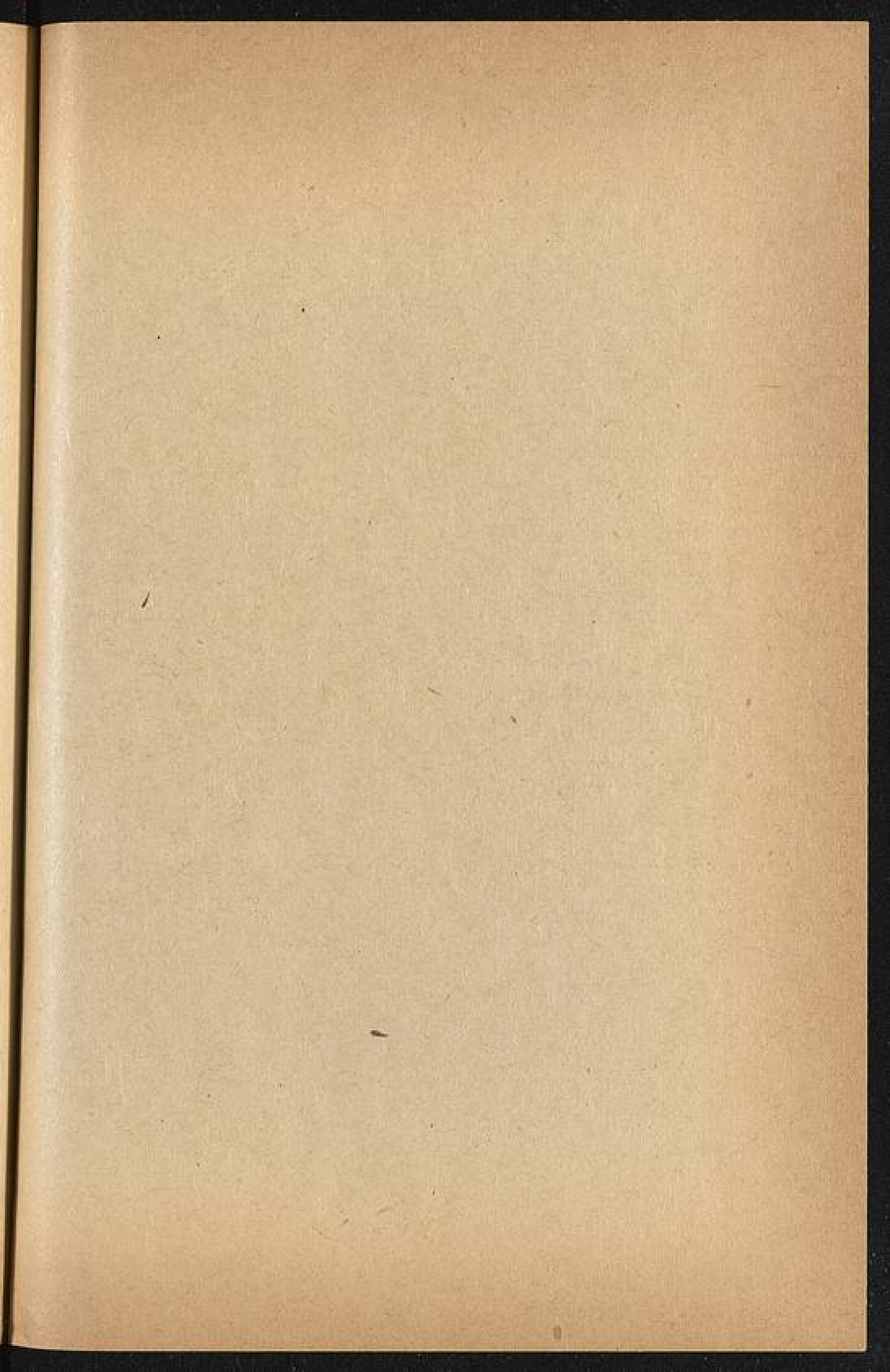


الرحلة الرابعة

ارز جاج

•

محتويات الرحلة



الى جاج

مرت الايام، وما نسيت اني بدأت برحلة لبنانية صغيرة، وما اكملتها. ولا ذهب من البال ان الوادي الذي دخلته، وتذوقت محاسنه الطبيعية والبشرية، ينتهي الى جاج، وان جاج هي الباب الى جبل هناك يكتنز من الارز كنوزاً مجهولة. نعم، مجهولة، الا ممن يقيمون بذلك الجوار. وقد لا يكون بينهم من زار ذلك الارز غير الصياد والمعاز، والفلاح الذي لا يزال لصيق الارض وعشيقها.

وكيف الوصول الى جاج، كنت اعرف منها الاسم لا غير. واني اذكره (كما اذكر غيره من اسماء المزارع الجبيلية) منذ الصبى، يوم كنت في نويورك. أيدهشك ان ذكر جبيل وانا وُلِد في نويورك، ومن قاطع المتن؟ رحم الله والدي، الذي كان تاجراً هناك. وقد كنت كاتباً في مخزنه، قبل ان صرت كاتباً في مخزن الحياة. وكان فريق ممن يتعاطون التجارة معه من مهاجري بلاد جبيل، فتعلمت صغيراً ان الفظ اسماء قراهم. حاقل، لحفد، مشمش، بجّة، معاد، حبالين — اسماء رسخت في الذهن، ودخلت القلب، واستحبت الاقامة. اني اذكرها على الدوام، واشعر في زيارتي لتلك القرى بلذة الحبيب العائد الى قديم حبه.

أضف الى ذلك صفحة من كتاب الحياة الحديث. فان هناك، في تلك

الاودية والبطاح من الادباء والمحامين والاطباء من هم مقيمون على دين اجدادهم، اعني في محبة الارض والتمسك بذوائبها. فلا يطيب لهم غير الصخور التي ولدوا في ظلالها، والوعور التي لعبوا فيها، وتعلموا الابجد و «طوبى للرجل» تحت سندياناتها وزواتينها. فهم يقيمون اليوم هناك في قصور شيدوها، ولا يبالون انها على مسافة ساعة او ساعتين من طريق العربات.

ان لي بين هؤلاء اصدقاء احباء. منهم كاهن ماروني عربي، يعلّم البيان في مدرسة اسقفية لاهوتية، ويعمل تركيةً غير ذلك. فهو العالم، وهو الزارع. كيف لا، وفي تربة القديس اوغسطينوس، بين رياحين القديس توما الاكويني الذابلة، يغرس ارز لبنان، وآس سورية، ونخيل العراق، وسَلَم نجد وعراره.

ومنهم استاذ آخر يعلم البيان الاعلى في مدرستين، الواحدة وطنية والاخرى انسانية، فيزرع بذور الحقيقة الكبرى في بستان الحقيقة الصغيرة، ويروي ازاهر الحقيقة الصغيرة بالمياه المجلوبة من ينابيع الحقيقة الكبرى. حيا الله ابا محمد مارون عبود المتنسك صيفاً بعين كفاع. وقد قيل لي ان له خَوَرْنقاً هناك.

سألت عن عين كفاع في رحلتيَ الاولى والثانية، وكان في النية اكتشافها، ومفاجأة الصديق فيها. ولكنها في ثنيّة مخبيّة، وعن الطريق قصيّة. فغبطت ابا محمد وحسبته في الحكمة كبيري واستاذي. كيف لا وقد اختار لنسكه ذلك المكان، بين الاضلع الجبيلية من لبنان. فاين الفريكة في العزلة من عين كفاع؟ ان ابا محمد هناك لفي حصن حصين. هو قريب من بجّة، وبعيد عنها. وهو بعيد جداً — اترك الا «جدّ» بعيد» للادباء المجددين — هو بعيد جداً عن الطريق السلطانية. وانا بالفريكة تحت الطريق، عرضةً لكل هابط وكل متشرد. هنيئاً لك يا مارون،

والسلام عليك.

ولو كان لي ان ارسل اليك برقية سلكية او لا سلكية لتوافينا الى جاج، وتحج معنا ارزه، لفعلت. ولكانت الحجة افضل قربةً بك اليه تعالى، ولكنت انت من الحجاج المكرمين. كيف لا وزوجة مضيفنا من السيدات المهذبات اللواتي يؤثرن في مطالعتهن الادب الحر الراقي نثراً وشعرا، والمضيف من الاطباء الافاضل، الذين تغربوا في ايام الحروب وتجربوا، وعرفوا من الحياة فرنجها وتركها وعربها، فذاقوا ما كان كامناً او مجهولا من مرها وحلوها. فالاثنان في العروبة صنوان، وفي حب الوطن من لبنان ثم من عدنان.

ولا عجب ان نرى لعدنان في جبيل الأثر الطيب والذكر الجميل. فان الفينيقي والعربي من اصل واحد هو السامية، ومن بلاد واحدة هي بلاد العرب[1]. وان في اللألؤ غرساً عربياً قديماً، راسخ الجذور، وارف الظل. وقد نثرت الرياح من روحه في هذه الاودية والبطاح، وبين تلك الصخور العالية المنيعة.

هي العروبة في لبنان. وقد عطرت سيدتي الطريق بذكرها، والتغني بها. هو لبنان في العروبة، وقد أنسانا الدكتور وحشة الاودية، وعري الربى، فيما وراءه لزَجال لبنان رشيد نخله.

قلت « عري الربى » وما بالغت. فان جبيل، بعد ان نجتاز حبالين، لقاحلة موحشة، وخصوصاً في آخر الصيف. وكأني بهذه الارض القديمة ملّت العمران، فكمد قلب البطاح والشعبان، واسودّ وجهها. ولا غرو وينابيع القرى ضئيلة، والارض غير ذات فيوض.

بيد ان الهواء، ونحن نصعد من شامات الى حاقل، يشفع بما تنبو العين عنه. والمشاهد، ونحن نعلو، تتنوع وتتسع. فهاك بجّه على ربوتها وراء

---

(١) راجع كتابي « ملوك العرب » الجزء الثاني صفحة ١٨٩

شامات، ودونها، في الافق على رأس الجبل، ظلالٌ سحياء في سُحبٍ شفافة، هي معاد.

ان لسلسلة لبنان شكلاً جيولوجياً في مصابّ انهاره يكاد يكون مطردا. فقد حفرت هذه المصاب، واكثرها غربية، طرقاً الى البحر هي الاودية. وهذه الاودية تضيق وتنفرج، وفقاً لانحدارها القائم او المنبسط، وبحسب قوة السيول. فالاودية هي من السلسلة ادوات وصلها، والى جوانب الاودية وعلى اكتافها، في بطاحها، وبين اضلعها، وعلى رؤوسها، نشأت القرى والمزارع، وبُنيت الدكات، لحفظ التربة، وغرس الاشجار.

ولكل وادٍ من هذه الاودية مدخل على الساحل هو في الغالب الى جانب النهر، وطريق — للدواب قديماً، وللعربات والسيارات اليوم — تنتهي الى اقصى قرية فيه واعلاها. فمن انطلياس مثلاً تصعد الى بسكنتا، ومن جونيه الى فاريا، ومن نهر ابراهيم الى العاقورة، ومن جبيل الى جاج.

اما الوادي ونهره فلا يسايران الطريق دائماً، وقد يختفيان في معظمها، كوادي جاج مثلاً ونهره الناضب في الصيف. فبعد ان نعبر الجسر الذي يُدعى باسمه محرّفاً، اي جسر الدجاج، قرب جبيل، يتوارى عن الابصار، اذ نصعد الى عمشيت، فلا نراه الا بعد التصعيد من حبالين، ثم بين حاقل ولحفد حيث تدنو من الالف متر في العلو عن سطح البحر. فلا عجب اذا كانت لحفد مصيفاً لبعض العائلات من جبيل وعمشيت.

وهناك العين الى جانب الطريق تجري في ميزاب من الحجر، وهناك القهوة تحت الخيمة قبالها، لتثبت ان لحفد هي مصيف هذه الناحية من جبيل. وحسب المصطاف، بعد الهواء الطيب والماء الزلال. هذه الخيمة المسقوفة بالشيح، وحسبه فيها الارجيلة والنرد. بيد ان هناك غيرهما من اسباب الغبطة، كالعرق مثلاً. ثم جرن الكبة على الدوام. ثم المتصيد في اعالي هذه الجبال، الحافلة بالحجال. وماذا بعد ذلك يبتغي المصطاف العاقل؟ الرقص.

والغناء وملكة الجمال ؟

اذا صبر القارىء على شجون الطريق – والحديث – واستمر في مرافقتنا، تمتع ان شاء الله بكل ما تشتاقه نفسه من محاسن الاصطياف او مغرياته، وان المحاسن في هذه البقعة من الجبل لصافية في بساطتها. وانها لطاهرة – بقدر الامكان. هي فينيقية في معظمها، وقد لطفها الزمان. وقل هي عربية عليها مسحة من الزهو الفينيقي. حسبنا هذه الكلمة في محاسن ما سنشاهد، ايها الرفيق الصبور، ولك الرأي بعد ذلك والحكم.

اما وقد ذكرنا الطريق فلا بد قبل ان نصل الى آخره من كلمة فيه. هو لايزال من التراب والحصى، ولا يعرف شيئاً من نعيم الزفت الذي تستمتع به طرق السواحل. وهو من الساحل الى لحفد طريق عربات، لا طريق سيارات، وخصوصاً في اكواعه الكثيرة الضيقة. ولا اذكر انه يدر الثناء على مديرية النافعة، الا في بضع اماكن منه جديدة، او بالحري جديدة الترميم. وفيما تبقى منه هو يوبخ المديرية المحترمة، ويرميها احياناً بالحجارة – تتطاير الحجارة من تحت الدواليب !

اما من لحفد الى جاج فالطريق لا يعنى المديرية المذكورة ولا يهمها. ما هو بطريقها. لا حفرة لها فيه ولا حجر. ولا هي تبالي بما يقوله فيها اهل جاج. فقد ألِفتْ في العاصمة كل قول، وهي في الصبر من سلالة ايوب الصديق.

حدثني الدكتور قال : كتبنا المعاريض، وألفنا الوفود – قطعنا الجهد والورق والاحذية طالبين مستعطفين – وما كانت الحكومة لتسمع او تجيب. على انّ الطريق من لحفد الى جاج ؟ لا تتجاوز الخمسة كيلو مترات. ذهب الامل، وفرغ الصبر. فاستفزت الغيرة شباننا ورجالنا، فشمروا للعمل. شقوا الطريق، وعمروه وعبدوه، دون ان يكلفوا بشيء من المساعدة احداً من غير جاج.

ويقول شبان جاج : لولا همة الدكتور وغيرته ما تم العمل.

الضيافة اللبنانية

لا يزال في بلاد جبيل رجال – ونسوةٌ هن اخوات الرجال في الملمات، وفي المسرات. ولا تزال الضيافة اللبنانية المتصفة بالكرم والمعروف، المزدانة باللطف والبساطة، من العادات المرعية هناك، كما هي في الاماكن اللبنانية الاخرى، البعيدة عن لألاء الاصطياف وضوضائه.

وفي جاج المضيافة بيت وارف الظل، رحب الذرا، كسنديانة الكنيسة هناك. ولسنديانة الكنيسة، بارك الله فيها وفيك، شهرة جبيلية بعيدة الآفاق وظلال ترحب بمؤتمرات الاهالي السياسية، كما ترحب بمدرسة الاولاد الابجدية.

نزلنا في البيت الذي يشرف على السنديانة، ويتصل في اوشاجه بما وراء الافق الجبلي شرقاً بشمال، اي بتنورين. قد لا تدرك ما هناك من هذا الوصف الجغرافي. فاعلم ان بين تنورين وجاج الجبال والصخور، ووُكورَ الحجال والنسور، وغابات ارزٍ تحضنها الدهور. وبالرغم من ذلك قد غزاها الدكتور، وغنم احدى بناتها، فصار يونس المغوار، نسيباً لفرحات الجبار، وعُقد بين البلدين معاهدة ولاء وحسنِ جوار.

وكانت بنت فرحات شقيقة الدكتور يوسف وبنت يونس، شقيقة الدرويش اسعد وزوجة الدكتور، كوكبي تلك الليلة، ومحوري الحياة فيها. فاضرمتا نيران الضيافة، واشعلتا انوار المسرة والانس.

وجاء شباب القرية بما وُهبوا واكتسبوا من علمٍ وفنٍ ومعرفة، فكان بينهم القوال والرقاص والنافخ بالقصب. وجاءت البنات ذوات الجمال القروي الوديع، تساعدن ربة البيت، فكانت احداهن تقدم الشراب،

والاخرى القهوة، وتجيء الثالثة بالماء من العين الى المطبخ والرابعة تهيء الاراجيل، وكلهن يعملن فَرِحات جَذِلاَت، كأنهن في عرسٍ اخ لهن. هي المروءة يتغذى القروي والقروية صغيرين بلبنها.

وكنا كأننا في عرس. وعندما جلسنا الى المائدة شاء رب البيت ان يكون العشاء مصحوباً بشيء من الموسيقى والغناء، كما لو كنا في لوكندة باريسية، فأرسلت شقيقته صوتها الشجي ببيتٍ من « العتابا »، ونفخ القصاب بقصبه مرافقاً لها. وكان احد الشبان يباريها، فيبدأ حيثما تقف، دون ان يبعد عن النغم والمعنى.

اني ممن يعجبون بهذا العربي البدوي، الذي تصفو فيه عواطف الحب وتشتد لواعجه. واني ممن يطربهم صوت القصب، ذلك الصوت العريض الاجش، الذي تتمثل فيه خشونة البادية، ونغمها الوحيد، نغم الوحشة والقسوة والامل. اما الرقصة البدوية الشهيرة التي تدعى « الدبكة » فهي من الفن العالي بمكان. ان في خطواتها همسَ المرأة، ونبرةَ الرجل. وان فيها الحركاتِ الهادئةَ المترددة، تقطعها وتصلها الحركاتُ الآمرةُ المهدِدة.

يا حلوه بحياة قدك

والحلوة تميل بقدها، وتغنج برجلها، فيضرب الشاب الارضَ برجله ويكمل البيت:

بدنا بوسه من خدك

وعُقدت السلسلة تلك الليلة من الشباب والبنات، وكانت على رأسها ربة البيت وهي تلوّح بالمنديل. فنفخ القصاب بقصبه، وصفق احد اخوانه بيديه هاتفاً: « زقفه » يا شباب! فلعب الطرب في النفوس، وخفّت الايدي والرؤوس. فكنا كلنا مسوقين بالنغَم الوحيدَ، والنظْم الفريد — نغم القصب العميق، ونظم الارجل الرشيق. وكان القصاب وهو في وسط السلسلة المستديرة التي تكاد تصير حلقةً، يحنو رأسه حيناً وحيناً يرفعه،

فيذوب هياما، ويزيد بنار « الدبكة » اضراما.

يا حلوه بجياة قدك

بدنا بوسة من خدك

حيهلا – حيهلا !

وبعد « الدبكة » أخليت الساحة لاحدى البنات اللواتي يحسن الرقص وحيدات، فغير النافخ بالقصب نغمه، فوقفت صاحبة القد الاهيف، والوجه المليح، وقد غضت من طرفها، ومالت الى الكتف برأسها، ثم بسطت يديها، وطفقت تقدم الرجل اليمنى، وتجر رأس اليسرى وراءها، فتمد الخطوات وتدوّرها كانها تكتب برجليها احرف الحب. ثم تثني منها الزند، وتهز الكتف هزةً لطيفة، فيغار العنق مما انثنى الى جنبيه، فيعطف ويميل، ويرسل الى الصدر، في هزات امامية، رسائل غرامية، فيهيج الطرب في حمامتيه الرابضتين، فينتفضان ويتذبذبان، والمليحة واقفة هنيهةً مفروشة الذراعين، ولا أثر في وجهها من الادراك او الاشارة لما في تلك الهزهزات من المغريات.

هنيهةً في ذلك الاوج من سذاجة فنها، ثم تدرج واليد على خصرها، والأخرى أمامها، فتثني منها العطفين، وتعيد الكتابة برجليها لرسالة الحب، مسرعة حينا، وحيناً متمهلة، ثم تقف فجأةً، وتنحني للسلام، كتلميذة مدرسة مثلت دورها.

وما عاب رقصها هذا غير المفاجأة في الختام. فلو انها عندما تتمهل في خطواتها تستمر متمهلة، وهي تبعد من وسط الساحة، فتتوارى كالطيف، لكللت فنها بالذوبان، عكس الراقصة الاوروبية التي تختمه بالعنف والهياج. وعندي ان الحالة الاولى هي اقرب الى الحقيقة، واشد وقعاً في النفوس المهذبة.

لنستمر فيما يسر ويطرب، فلا نستوقفك للشرح والانتقاد. ما

اقتصر برنامج تلك الليلة على ما تقدم وصفه من رقص وغناء. فها ان الساحة خالية، وكان كوكبا البيت، شقيقة الدكتور وزوجته، قد تواريا، فسكن الدار، وساد السكوت. هي الفترة المألوفة بين الفصل والفصل في الرواية. ولكننا في بيت لبناني، لا في ملهى من الملاهي. فبتنا لذلك حائرين، ومتوقعين شيئاً جديداً.

وكان ذلك الشيء الجديد، ودوت الدار، لدى ظهوره، بالتصفيق والقهقهة. هوذا «الكركوز»! شيء متحرك في كيس اسود، مشدود الوسط، يميل ببطء يمنة ويسرة، ويداه وهما في الكيس، ممدودتان متحركتان. شيء فظيعٌ مضحكٌ معاً، كالمفزعة التي تُنصَب في الكروم. وطفق هذا الشيء يرقص، ويهز رأسه الضخم، الذي هو نصف جسمه، ويحرك يديه القصيرتين، ويدور على محوره كاللعبة الصينية.

قلت لجاري: ما احذق هذا الولد. وكنت قد ظننت انهم ركبوا في رأسه قفصاً ليكبروه، فيجعلوه كنصف جسمه. فقال الجار مصححاً خطأي: هو شاب يجيد الرقص. وقد وُضع على رأسه طبق، وأُلبس هذا الفستان الفضفاض، المربوط فوق رأسه، المغطي حتى قدميه. اما اليدان فهما عصا شُدت تحت الفستان في الوسط، وتدلت الاردان من طرفيها البارزين، فتهتز كما ترى كلما انثنى.

انه حقاً لكركوز غريب، بل اختراع في المسخرات عجيب. ما رأيت قبلاً مثله. ولكنه، كما قيل لي، شيء معروف شائع في ليالي الطرب اللبنانية. انما ذلك لا ينقص من قيمته المسرحية. هو آية في السخرية والفظاعة، ولا اظنك تجد له مثيلاً في غير آلهة اليابان، ولعب الصينيين.

مثل «الكركوز» دوره وانصرف. ثم جاء دور هذا الكاتب المظلوم المرهق بالادب والسياسة حتى في نزاهته. فقد هبط علينا ادباء القرية في اثناء الدور الكركوزي. جاءوا يسلمون ويتعرفون بالاديب الكبير الخ،

ويتحدثون اليه. جاءوا يرهقونه بالسؤالات، والمناقشات، الادبية والاجتماعية والسياسية والدينية. فهذا طالب حقوق، وذاك طالب طب، والثالث طالب لاهوت في ثوبه الاسود، والرابع خريج احدى الكليات، ومراسل احدى الجرائد الكبرى في العاصمة. وكلهم من محبي الادب والشعر، ومن اساطين السياسة، وفيهم المحب، والمؤمن، والمعجب، والمناقش، والمتفرج. فهات ما عندك يا « فيلسوف ».

ما لبثت ليلة الطرب، ان تحولت الى ليلة كرب. فكنت اجيب على السؤالات بايجاز الكهان الاقدمين، واسلم في المناقشات لاتخلص منها، وانا اعلل النفس بعودة القصاب الى القصب، وربة البيت الى « المواليا ». هيهات، هيهات. فقد ختم الكركوز الليلة بالضحك، وختمها الادباء بالجدل.

« والخير والشر ممزوجان ما افترقا
فكل شهد عليه الصاب مذرور »

طريق المعزى وطريق الجن

الى الارز – ارز جاج – ارز الرب

نهضنا صباح اليوم التالي باكراً، ومضيفنا الدكتور فرحات واهله يعدون العدة للرحيل. وكان في الجماعة من جاج من يجهلون مثلنا ما وراء تلك الآفاق السحماء الشاهقة، فشدوا للرحلة الاولى الحقاق قائلين، تنشيطاً لانفسهم وتشجيعاً لنا: هي ساعة الماشي، واقل منها للراكب.

– وهذا حمارك يا استاذ. لا تؤاخذنا. ليس مثل الحمير لطريق «الجرد»

فقلت في نفسي: أليس من العار ان اسخر الحمار لساعة في الجبل؟ وهب انها ساعتان أيركب الأتن مَن علا النجدية من الخيل، والعمانية من من الابل؟

فاخرت ساكتاً وكابرت. الا اني محب للمشي، راغب دائماً به، وخصوصاً في اعالي الجبال، حيث يجف الهواء، ويصفو الجو، وتخف حرارة الشمس. فاعتزمت المشي، واخترت من ادباء الليلة البارحة رفيقاً، فشاء ان يرافقني شقيق الدكتور فرحات. وهو مثل ابيه واخيه من العمالقة. وكان الاثنان في انتظاري صباح ذاك اليوم، وفي كتف احدهما بندقية الصيد.

تركنا القوم يتأهبون، والمكارين يحملون الزاد والماء، ومشينا من جاج ساعة الضحى – كان ينبغي ان نكون في تلك الساعة بالارز. ولكن الحملة ليست حملتي. فما انا غير واحد من الضيوف، وفيهم السيدات اللواتي لا يخرجن من الخدور قبل ان يوردن الخدود، ويقرمزن الشفاه – طاحت بي الحملة، فاخرجتني عن المعنى المقصود، وهو انه كان ينبغي ان نسبق الشمس في التسيار ولا ندعها تسبقنا. ولكنها في اعالي الجبال – نحن الان

على الف واربعمائة متر فوق سطح البحر – وفي اواخر ايلول، قلما تجوز. هذا ما قلته وتحققته في الساعة الاولى من التصعيد.

وكنا لا نزال في عقبات، صخورها وادعة، وحجارتها تحت الاقدام ثابتة – عقبات مجاملات، تلين جوانبها للعفص والزعرور، ولا تخلو من دغل، طيب الاريج. وهي تشرف في المنعطفات على البطاح البنّية التربة – غير المزروعة – والصفراء – بعد الحصاد – وتخلو بك في فيئات تحلو بها الاستراحة.

وكان الرفيقان الاديبان قد بدأا بمساجلة شعرية لينسياني، كما قالا، مشقات الطريق. وكلاهما كثير الرواية، سريع الخاطر. فعجبت لثباتهما في الميدان. فقال السمراني: «وما شغل الاديب في هذه القرى الجبلية القصية غير قراءة الشعر وحفظه». اما المساجلة فقد كانت من النوع الذي يروي الاول فيها بيتاً، فيجيء الثاني ببيت، يبدأ بحرف القافية المتقدمة. فبُدىء ببيت للمتنبي من احدى قصائده اللامية، فكان الجواب فوراً:

لا تشترِ العبد إلا والعصا معَهُ

إن العبيد لَانجاس مناكيدُ

ومما ادهشني قولهما انهما يستمران في المساجلة بضع ساعات، دون غالب فيها ومغلوب، ويستأنفانها احياناً في اليوم التالي. ومع ان هذا النوع من المساجله هو اهونها، فان في بعض القوافي ما يُعجز وصلها اكبر الرواة. ومن مُلَحها ان تكون الابيات لشاعر واحد، ومن معجزاتها ان تكون من القصيدة الواحدة. كأن يقول الاول:

سائق الاظعان يطوي البيد طي الخ

فيجيب الثاني من نفس الديوان:

يا قبلتي في صلاتي اذا وقفت اصلي.

او يقول:

عدوك مذموم بكل لسان
ولو كان من اعدائك القمران

فيجيب الثاني من نفس القصيدة:

نفى وقعَ اطراف الرماح برمحه
ولم يخشَ وقع النجم والدبران

وبينا نحن مصعدون، والمساجلة في ازدهار، رأى الاديب الصياد سرباً من الحجال، او سمع حفيف اجنحتها، فنسي الشعر والشعراء، وراح واثباً من صخر الى صخر، ثم مشى مسرعاً مترفقاً، فجاز الشِعب، وتوارى عن البصر. وما سمعنا بعد ذلك طلق بندقية، ولا رأينا اثراً له او للحجال.

مشينا انا والرفيق فرحات في بسطةٍ من السكوت، وكنا قد سلكنا مقربةً تعلو الطريق، فشاهدنا في المنعطف الاسفل رفاقنا المتخلفين، وكلهم رجال ونساء، ما عدا المكارين والخدم، فهم راكبون الاحمرة. العفو، قارئي. فقد سرى الي شيء من نهمة الادباء المجددين في اختيار الغريب من الجمع. هي فعلة واحدة لا ثانية لها. فالعفو، ايها الراكبون الحمير.

وهذا الدكتور فرحات ينادينا، واخته الشفيقة تستوقفنا، وزوجته الكريمة تلوّح لنا بالمنديل – قفوا – قفوا! وبرزت القافلة بكاملها، صفاً واحداً في الطريق الضيق، فوقفنا ننتظر السادس او السابع منها، وهو حمار الدكتور. فترجل عندما دنا منا، ودعاني للركوب. فشكرت واعتذرت. وترجلت زوجته، فتشكرت واستغفرت. – اني ناذر نذراً يا سيدتي، وكان من الواجب علي ان امشي الى الارز حافياً.

فضحكت وهي تقول: نذر مقبول ان شاء الله.

ثم سألنا عن اخينا الصياد، فقال احد الخدم: هو هناك. – اين؟ فرفع رأسه ثم مد يده مشيراً الى صخر شاهق بعيد، فوق الصخور المظللة

الشِماب، ودونها. هناك، تحت تلك الغيمة البيضاء، على رأس الصخر القائم كالعضادة في هيكل الطبيعة، انتصب الرفيق، وأهوى ببندقيته. ثم صاح ينادينا، واستمر الصوت مجلجلاً، فتضاعف الصدى. فهتف فرحات قائلاً: هو يروي الشعر والله. سمعت البيت. وسمعت القافية. هي بائية. لبيك يا سمراني، لبيك!

« بيض صنائعنا، سود وقائعنا، خضرٌ مرابعنا، حمرٌ مواضينا »

واين المرابع الخضر الان، يا فرحات؟ كنا قد بلغنا قنة الجبل الثاني، وسلكنا الوعر عِرضاً الى سفح الجبل القائم امامنا، وما فيه أثر لِأخضرٍ صانه الظل، او لاخضرٍ عَصْفَرَته الشمس. جبلٌ اشهبُ تتخلله خطوطٌ وبقعٌ سحماء، هي ظلال الاضلع والشقوق في الصخور. وبين تلك الصخور سيول جافة، او منحدرات فُرشت بالحجارة. فقال الرفيق العمليق، وهو يدل على الطريق التي تلف حول ذاك الجبل: الاحسن ان « نقودم » (اي نسلك « القادومية » اي المُقَرِّبه)

وكنا قد أعرضنا عن طريق الدواب، ثم عن طريق المِعْزى، وها نحن نعرض عن الطريقين، فنتوقّل حيث لا أثَرَ حتى لذوات الاظلاف — نسلك طريق الجن! ويا له من طريق! يا له من منحدر يكاد يكون عمودياً. وحجارته انواع واشكال، كلسية وصوانية، خشنة وملساء، مسنونة ومدورة. فتزل حيناً بالقدم، وحيناً تقرصها، فاشعر انها خرقت النعل. وكانت الشمس قد تسنَّمت السماء، فاشتدت حرارتها، فسال العرق منا، وجفت اللهاة.

وهذه صخرة ضخمة تعترضنا. — هات يدك، يا استاذ.

فقلت للرفيق العمليق: ساجلس قليلاً في ظلها، ثم اساورها.

وفكرت اذ جلست في ما خبرت من المسالك الوعرة في الجبال والصحاري، مشياً وركوباً، وفي مشقات الاسفار كلها، فكانت هذه

اشدها واخبثها. مشينا فيها على المحددات – على الظُبى – وكنا فيها متوقلين. وكنا في التوقل مستعينين بالايدي.

اذا الكُماة تنحوا ان ينالهم حدُّ الظُبات وصلناها بايدينا.

ثم فكَّرت فيما قلت منذ نصف ساعة، فكرت في النذر، فتمثلت نفسي اصعد حافياً في طريق الجن، والقديسان انطونيوس وفرنسيس آخذان بيدَي.

وبينا نحن في هذه المحنة سألني الرفيق رأيي في الادب الجديد والادباء المجددين. لله ما تفعل البطولة! فلو كان لي ان اجيبه في تلك الفينة لقلت: الاديب المجدد يقول في مثل هذه الحال: انبهرت (اي انقطع نفسي وتتابع من الاعياء) ومن جديد الادب ان تستعمل الاشتقاق الآخر الغريبَ من بَهر، فتقول: أبهرت. (اي احترقتُ من حرّ بَهرة النهار)

ولكني، بدل ذلك، سألت الرفيق الاديب: اين الارز، يا اخي؟ هل هو وراء هذه القنة؟

فلاح لي انه لا يدري. فقد زار الارز مرة في صباه، وهذه بعد عشرين سنة المرة الثانية.

بيد انه طمأنني. فعندما بلغنا القنة قال هاتفاً مستبشرا، وهو يدل على الجبل المقابل: هناك بوابة الحجر. حدقِ النظر ترَ بعض القافلة يجتازونها. فان وراءها الارز.

حمدنا الله. ونزلنا الى الشِعب فأجتزناه، وعدنا الى التصعيد. فبلغنا البوابة، وهي مضيق بين الصخور، ودخلناها، وخرجنا منها، وأطللنا على جبل آخر اشهب شامخٍ هائلٍ فظيع!

– واين الارز، يا اخي؟

– هو ولا ريب وراء هذا الجبل.

وكانت الطرق كلها، طريق الدواب وطريق المعزى – وطريق الجن –

قد امست واحدة، سيلاً من الحجارة! فلا سبيل الى الاختيار، ولا فائدة فيه.

توكلنا على الله. قحمنا تلك الوعور، وصعدنا بين تلك الصخور، والنفس ينقطع، والركاب ترتعش. اقول: الركاب، لان رفيقي اعترف بما عراه مثلي من العياء والوهن. وما رأينا، ونحن نتوقل الجبل الخامس او السادس، رأس غصن من الارز. لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم.

وها هنا ايضاً سألني الرفيق العزيز سؤالاً آخر، لا اذكر اني سمعت منه غير: ما قولك يا استاذ... ولكني اذكر اني قطعت عليه الكلام قائلاً: ارجوك ان ترجئ السؤالات الى ان نبلغ المحجة.

وهذه القنة السادسة بلغناها. وهذا هو الوادي السابع اشرفنا عليه. وهاك — والحمد ثم الحمد لله — الارز!

وما كان بيننا وبينه ظاهراً غير مسافة قصيرة لا تتجاوز المائتين من الامتار، فمشينا نصفها فاذا نحن على شفا هوّة سحيقة هائلة!

اذا كنت طالعت، ايها القارئ الاديب، ملحمةً من الملاحم المشهورة، الالياذة مثلاً لهوميروس، او الانياذة لفرجيل، فانك تذكر، ولا شك، المشقات والاخطار التي يخلقها الشاعر ويرسم بها السُّبُلَ الى غرضه الاعلى. وهذا الطريق الذي اجتزناه سالمين، هو ملحمة الطبيعة الى غرضها الاعلى — الى الارز.

ولكننا حتى الآن لم نصل اليه. هو امامنا، والمهواة بيننا وبينه تحيط به كالهالة، غرباً بجنوب. هي منطقة حَرَمِهِ هي حَدَبَةُ سيفِهِ، هي خندق حصنِهِ.

وعلينا ان ندور بها اليه. وما ذلك بالامر الهين. لا شيء هين في صرود الجبال. درنا بالهالة. وهي لا تختلف في مسلكها، صعوداً وهبوطاً، عما خبرنا وقاسينا من المسالك الخشنة.

ولكننا في اثناء الدوران، ونحن نعتصي بين الصخور، مررنا بصهريج

من الصهاريج الصخرية الطبيعية، عمقه نحو خمسة وعشرين متراً الخازنة فيه السماء ثلجها من شتاء الى شتاء.

هوذا الثلج الخالد في الجوار المقدس.

هي ذي الصفاوة الابدية في ظلال الاوز.

الارز

رفعت حجراً من حجارة الطريق الى فمي، فقبلته ثلاثاً ورعاً حامداً، آملاً، قبل ان دخلت الظلال القدسية.

واستغفرت الارز لامتهاني حرمة عزلته – هذه العزلة الفريدة، في اعالي الجبال، فوق وكر النسور، وراء حُجب الآفاق.

استغفرت الارز لاني جئت اشق ستار كعبته، جئت استكشف مكنون سره.

• • •

إيه، ربة الاشجار، وسيدة الجبل الجبار،

انت الرافعة اعلامك الخضراء، بين هذه الصخور الدكناء،

بنت الجديدين، واخت القمرين، حدثيني.

حدثيني وعلميني، وارفعيني الى علياء اعانك.

فقد جئتك مستعلماً، مسترفعاً، مستمداً من ينبوعك العالي القوة والحكمة.

• • •

حدثيني عن رياح الشمال.

– تجيئني مولولةً نائحة، فاوقفها لتستريح، فتستحيل انفاساً عطرية.

حدثيني عن الغيث اذا همى.

هو يرقص على الصخور حولي، فتقهقه هازئة، ويضرب على اوتار قيثارتي، فتُسمِعه اغانيَ البلابلِ والامواج.

حدثيني عن العواصف.

— هي تصعد هائجة من الاودية، وتهبط مجلجلة من الآفاق، فتدق حولي طبولها، فافتح لها قلبي، فتدخل ثائرة. ثم تتحول اصواتها، بين ذراعي، الى اصوات البوق والمزمار والناي، ثم تسكن وتنام، تحت اجنحة السلام.

حدثيني عن الثلوج.

— هي حصني في الشتاء، ودرعي في الربيع، فتفت من ساعد العاصفة، وتلطف حرارة الحب الجمال. وهي في الصيف أمُّ جذوري، ترضعهن تحت التراب، وبين اصول الصخور، فيبتهج قلبي، ويرتفع رأسي ثناء وحمدا.

حدثيني عن السيول.

— تعبث في بيتي وتعيث، فتعرّي مني الجذور، فأنثر فوقها ريشي في الصيف والخريف. وقد تعاونني الايام، فتحمل الي التراب على جناح الرياح، فألبس جذوري ثوباً جديداً.

حدثيني عن الصخور.

— هي المحدثة قبلي وبعدي. منها ترابي، واليها مصيري. وهي في حياتي قرة عيني، وزينة نفسي. بل هي هيكلي الخالد، العامر اليوم بي، السائلُ غداً عني.

حدثيني عن السُحب.

— هي حجابي وجلبابي، وهي بخور محرابي، والفصول.

— والفصول الشتاء سميري، والربيع سفيري، والصيف قيّمي النَدي، والخريف كاهن معبدي.

حدثيني عن الجديدين.

النهار جليسي، والليل ضجيعي، وللاثنين يد في قدمي واجلي.

وعن القمرين.

— الشمس مديرة اسبابي، والقمر الحاجب في بابي. الشمس تطعم اخضراري، والقمر يحفظ اسراري.

والنجوم.

– هي ايدي الله الوردية الفضية الذهبية البنفسجية. هي هي ايدي الله تعطي ولا تسأل، تنثر ولا تستعيد.

هي ايدي الله التي تحمل الي كل ما فيه جمال وابتهاج وسكينة وهدى.

ايدي الله – النجوم – ربات الشعر، ربات الفنون، ربات الخيال الصَّفِيِّ والغبطة الشجية.

النجوم هن الحسان اللواتي ينشدن في ظلال منسكي. وهن العذارى اللواتي يرقصن في معبدي.

النجوم هن الوفيات الصفيات. البعيدات القريبات، اللواتي يزن وجومي، ويلأمن كلومي، ويعلمنني الابتسام، ونسج الاحلام.

• • •

أرز جبالي، ارز اجدادي،
ان لياليك لياليَّ، وان نجومك نجومي.

المسافة بين جاج والارز مسافات. فهي قصيرة للماشي، اذا كان من الفلاحين او الرعاة الاشداء، فيجتازها بساعة واحدة. وهي طويلة على الراكب الذي يدور بالطريق، فلا يقطعها باقل من ساعة ونصف ساعة. وهي طويلة جداً لمن يكابر مثلي، فيأبى ان يركب حماراً، ويعجب انه توقل خمسة الجبال بساعتين لا غير — ويفاخر بذلك.

بلغنا المحجة، ايها القارئ الكريم، ونحن ننهج إعياء وعطشا. وكان الرفاق قد وصلوا قبلنا، وارسلوا من يستطيعون النزول الى اقرب صهريج من صهاريج الثلج، فجاءوهم بحمل منه. اما الحملة — اي الماء والزاد — فقد كانت تخلفت في الطريق، فشاهدنا الرفاق وبيد كل منهم قطعة من الثلج يمتصها ليفثأ حر العطش.

والرفيقات — السيدات الطروبات الخفيفات الروح والرجل — شاهدناهن، وربك، في قلب احدى الارزات الكبرى، جالسات بين الفروع الضخمة، وبايديهن قطع من الثلج يمتصصنها، فتحمرُّ من الشفاه. ما اغرب من الخيال غير الحقيقة. فهاكم حور الجنان، يلعبن بين الاغصان، ويأكلن اقراصاً من العسل واللبن. وما اللبن والعسل في مثل هذه الحال بالذ من الثلج!

جلسنا على حجارة تحت تلك الارزة، ورفعنا الى الحور الوجوه، وفتحنا الافواه نلتقط الثلج من ايديهن، فاثلجن منا الصدور حقيقةً لا مجازاً، وضحكنا كالصبيان، وما بالينا بما كان، فنسينا عرق السفر، وقد نفخت فيه ريح باردة، فارتعشنا، ورحنا ننشد الشمس.

ثم جلنا في الغابة، القائمة على منحدر شكله مستطيل، وفيها اربعون ارزة ونيف، خمسٌ منها ضخمة قديمة، دائرةُ احداها نحو ستة امتار، وعلوها نحو ثلاثين متراً

ان لهذه الارزات الكبيرة شكلاً في النمو غريباً، ما رأيت مثله في ارز بشراي. فالجذع، بعد ارتفاع متر او مترين من الارض، يتسع في نموه، فيتكون فوق الجذع الاول جذع ثان، دائرته تزيد الدائرة الاولى مترين او ثلاثة امتار. فيبدو اسفل الشجرة كالمائدة المستديرة بقاعدتها، وتنشأ من المائدة الفروع الضخمة التي تعلو نحو خمسة وعشرين متراً.

عددت في احدى هذه الارزات اثنى عشر فرعاً، وكلها كبيرة قوية طويلة، فيصح ان نقول ان اثنتي عشرة ارزة نمت من الجذع الواحد، او بالحري من المائدة الواحدة، وتتراوح دائراتها بين المتر الواحد والمترين.

اما الأُخرى من اشجار هذه الغابة، فان منها بضع ارزات مزدوجة ومثلثة الجذوع. وما تبقى هو من ذات الجذع الواحد الطويل القويم، ويتراوح طولها بين الخمسة عشر والخمسة والعشرين متراً. اما الدائرة فلا تتجاوز في الكبيرة منها المترين.

لست من العالمين المدققين في عمر الاشجار. ولكني اظن ان الارزات الخمس الكبرى زرعت في هذه الغابة، منذ مائتين او ثلاثمائة سنة، وان عمر الامهات يتراوح بين الخمسمائة والستمائة سنة. ففي ذلك الزمان كانت البذور تقع في تربة قليلة الظلال قليلة الجذور، ترعاها الشمس بحرارتها، ولا تمحقها حيث تنبت اقدام الناس، كما هي الحالة اليوم في ارز بشراي. فانك ترى تحت اكثر الاشجار مئات من النُبَيتات الخضراء الارزية، في شكل ٧، اي ذات فرعين، ولا تعيش واحدة منها لكثافة الظل وامتلاء التربة بالجذور، التي تستنفد كل غذاء فيها [١].

(١) وقد قال المهندس الزراعي اسعد يونس، بعد قراءة ما تقدم ذكره، ومن الاسباب، بل اهمها، الجفاف في الصيف.

ومما يُرجح صدق ظني ان الارزات الكبرى زرعت في هذه الغابة هو وجود ارزات فريدة، متوسطة الحجم، متبعثرة في هذا الجوار، بين صخوره، وفي منحدراته الحصوية. ومن تلك الارزات الوحيدات في عزلتها ومجدها، ما هو من الشكل الواسع الهرمي، اي الواسع الاغصان الافقية.

عددنا تلك الوحيدات، التي هي فوق الغابة ودونها، شرقاً بشمال، فاذا هي سبع عشرة ارزة. وكل واحدة منها آية في جمال نموها المستوي، وفي محيطها الصخري، وفي ذلك الرونق الفني الذي تظهره الاضداد. هي اهرام خضراء، بين جلاميد دكناء، وفي انحدارات جرداء بيضاء. وعندما يصعد الضباب، وترق حواشيه، تبدو تلك الوحيدات الجميلات فيه كالحسناء في حجابها، ترفعه وتسدله غنجاً ودلالاً، او كالراقصة في سرابيلها الشفافة، التي تظهر محاسن جسمها وتخفيها. ثم ينجلي الضباب، فيبدو الاخضرار ندياً، صقيلاً جديداً، كأنه خرج في تلك الساعة من مصبغة الله تعالى.

قلت ان في الغابة اربعين شجرة ونيفاً، وفي جوارها الظاهر للعيان سبع عشرة شجرة مشتتة. وقد اخبرني الناطور، واثبت قوله العارفون من ابناء جاج، ان في تلك الصرود، بين الافق الكبير الذي يخفي تنورين عن الابصار، وبين الآفاق الصغيرة التي دونه — في الشعاب وعلى اكتاف الاودية — سبع غابات اخرى، وان مجموع ما في اعالي جبال جاج هو يربو على اربعمائة شجرة.

هذا ارز جاج الذي يعلو عن سطح البحر نحو الفي متر. ولا يبعد اكثر من سبع ساعات مشياً من جبيل، ميناء فينيقية القديم. ولا ريب ان هذه سبع الغابات الصغيرة كانت غابةً واحدة كبرى في قديم الزمان. بل ان جبال جاج كانت مكسوة بالارز، الذي كان يدعى أرز الرب.

ولماذا دُعي ارز لبنان بارز الرب؟ وهل كان يدعى كذلك في عهد الفينيقيين؟ الجواب على السؤال الاول معروف، وغير مشكوك فيه، لدى

نصارى الجبل. والجواب على الثاني مجهول لديهم ولدي. فاذا كان هناك من يستطيع الجواب عليه، فهو ذلك العالم بتاريخ الفينيقيين، صديقي الابر شارل قرم. اني احيلك اذن اليه، واسلفك الآن بالقليل من علمي.

فقد فتحت دائرة المعارف، وقرأت ما جاء فيها عن الارز، فاذا فيه ان في جبال حمالايا، الحافلة باديرة البوذيين، ارزاً شبيهاً بارز لبنان، يُدعى أرز الرب! فهل يُدعى بهذا الاسم هناك لانه في جوار الاديرة والمعابد، اولانه اكثر الاشجار مناعةً، واجملها شكلاً، واطولها عمرا؟ وهل جاءنا هذا النوع من الارز، وهذا الاسم اسمه، في قديم الزمان — الزمان السابق للعهد الفينيقي — من تلك الجبال، جبال حمالايا؟ اني استرعي لهذه المسألة نظر انتباه صديقي القرم.

واعود الى ما يهمني الآن من الموضوع. فاذا سلمت بان ارز لبنان سُمِّيَ بارز الرب لان سليمان بن داود استجلب منه الى القدس لبناء الهيكل، هيكلِ الرب، فينبغي ان اسلم ايضاً بان الميناء الذي شُحن الارز منه هو ميناء جبيل. ولا يعقل ان يكون الملك حيرام جلب الارز براً الى صور، ومنها شحنه بحراً الى فلسطين.

اقول هذا. ثم اعيد ما قلت ان ارز جاج هو على مسافة سبع ساعات من جبيل. اما ارز بشراي فهو على مسافة خمس عشرة ساعة وزيادة. فمن أية الغابتين قُطع الارز الذي حملته المراكب الفينيقية الجُبيلية الى ميناء فلسطين لبناء هيكل الرب؟

أيُعقل أن يكون التاجر الفينيقي قد فضَّل الأبعدَ على الاقرب، وما بالى بالنفقات؟ أيُعقل أن يكون قد فادى بقسم من ارباحه اكراماً لوادي قاديشه؟

اني اعتقد ان تجار الاخشاب الفينيقيين الجُبَيليين فضلوا الغابات القريبة على البعيدة، لان نقل الاشجار المقطوعة منها هو اقل نفقةً واسهل. هذا هو المعقول الذي يدحض المنقول وينفيه.

ان ارز الرب اذن هو هنا بجوار جاج، في جبال تنورين.

الصخور

والصخور ؟

هل وقفت مرة بين الصخور، في اعالي الجبال، تتأمل تكوينها واشكالها، ومعاني جمالها وجلالها ؟

وهل نظرت خلال الهياكل الطبيعية المتهدمة الى ما وراء العُمُد والجدران — الى روح الكيان، ويد الزمان ؟

هل في شموخها غير العز، وفي روعتها غير الصولة، وفي هولها غير الاخطار، وفي رسوخها غير القوة، وفي تخاريبها غير الضعف، وفي صفوفها غير الفوضى، وفي منعرجاتها غير الجهل والحيرة.

• • •

الصخور الشاهقة المحلِّقة، الصخور الرابضة والواثبة والهاوية، الصخور المانعة الواجمة المنذرة، الصخور المكسَّرة المشققة المشتَّتة، الصخور المتكاتفة والمتخاذلة — هل وقفت مرة تتأملها، وتحاول الدخول الى قلبها، الى السر المكنون فيها.

ان في قلبها النواة التي كانت تموع تحت الامواج، في قعور البحار.

ان في قلبها جرثومة الحياة الازلية الابدية.

ان في قلبها الذرّةَ السرية، التي تحيا بالتحطيم، فتغدو غذاءً وشذىً في الاشجار والازهار.

ان في قلبها سجنَ الانانية، وصمتَ الاحزان

ان في قلبها الرمزَ الخالد لسوط الزمان.

ان في قلبها رسالةَ التصعيد، حتى في الجلاميد.

من قعور البحار الى اعالي الجبال — من ظلمات المرحلة المُجَرْثَمَة المُطَحْلَبَة، الى اوج النور والتبلور والصفاء — هذه مرحلة الصخور، بل ملحمتها.

وهل في شموخها غير العز والمجد؟ ان فيه ضرائحَ التضحيات، واحاجيَ الموت والحياة.

وهل في روعتها غير الصولة والجلال؟ إنَّ فيها الصبر القاتم، والعزم الواجم، والصمت الدائم.

وهل في هولها غير الاخطار؟ ان فيه نبأ البراكين والسعير، وقصة الزلازل والاعاصير.

وهل في رسوخها غير القوة؟ ان فيه بيان الاقدار، وسلاسل الليل والنهار.

وهل في تخاريبها غير الدليل على الضعف والوَهن؟ إنَّ فيها الدليل على عطفٍ لا يزال في قلبها حياً، وعلى حنان لا يزال ندياً. ان في تخاريبها بيتاً للعُصْفُور، ومأوىً للحلزون. وان فيها نايات للرياح.

وهل في صفوفها غير الفوضى؟ ان فيها تتمثل اوليات الحياة في التحرير والتقييد، وسُنَنَ الحياة في التنوع والتوحيد.

وهل في منعرجها وتقطُّعِها غيرُ الجهل والحيرة؟ ان فيها علماً وهدياً ووحياً لارباب الفنون.

• • •

هي الصخور، الناطحات السُّحُب، القاطعات الطرق على النسور.

هي الصخور الحاضنات البطاح، الحارسات مضائق الرياح.

هي الصخور المزينة الصرود، الرافعة لمنزلة البنود.

هي الصخور الجاثمة الواجمة، الساخرة بالبروق والرعود.

هي الصخور الحافظة للارز الابواب، الضاربة حول الارز الاطناب، الحاملة عرش الارز على المناكب والرقاب.

الجبلات تحت الارز

جلسنا في طرف الغابة الاعلى، تحت الارزة الكبرى، ننتظر الرفاق الآخرين، القادمين من وراء الجبل الجنوبي — من اللالو. فقد كنا على عهد وإياهم، عُقد في بيروت، وعلى يقين، لما كان من التأكيد، انهم سيصلون قبلنا.

وكانت الحملة قد وصلت، فسارع الخدم الينا بالماء من عين جاج، وقد بردوه بثلج الارز.

بيد اننا، بعد الارتواء والاستراحة، شعرنا بالجوع، ووهن الصبر في بعضنا، فتهامسوا متضجرين. وما كل من رافقنا كان بالارز وبالصخور مفتوناً، فأشفقنا على يومنا من التضجر، وبتنا نرقب المضيق بين الصخور، في الافق الاعلى — المضيق الذي يجوزه القادم من تنورين او من اللالو — علنا نرى خيالا هناك يبعث الامل والنشاط في النفوس.

وبينا نحن كذلك اذا بضيوف آخرين يلقون في الارز عصا التصعيد. فكان الدكتور فرحات قد دعا بعض اصدقائه واصدقائي من آل لحود المصيفين باحفد، فوصلوا دون ان نراهم. ولكننا سمعنا اصوات التأهيل والترحيب، فرحنا نشارك بها، وكنا بين شاهدنا فرحين مبتهجين. كيف لا، وبينهم ثلاثٌ من الغيد ينسين الرجال، وخصوصاً في وعور الجبال، العطش والجوع.

ثلاث من الحسان يلبسن اثواباً بسيطة ولكنها انيقة، وينتعلن النعال، ويحملن العصي، ولا يبدو على وجوههن أثر من التعب او من حرارة الشمس. فورد الخدود وياسمينها ناضر غير ندي، وقرمز الشفاه ثابت في

مكانه، والاصوات منهن صافية كذلك رنانة، كانهن خرجن في ذلك الحين من خدورهن.

فكانت الدهشة الاولى، وكان السؤال بعد السلام: جئتن راكبات؟

فأجابت احداهن: نحن من هذا الجبل، فلا يعصي الجبل على ارجلنا.

فقلت في نفسي: أوَفي هذا الجبل مثل هذا القنص؟ ثم سألت متأكداً: جئتن ماشيات؟!

– نعم ماشيات.

– من جاج؟

– بل من لِحِفِد.

وكانت الدهشة الثانية مقرونة بالفخر والاعجاب. فمن لا يفخر ويعجب بالفتاة اللبنانية المهذّبة المنعّمة، التي تستطيع ان تخشوشن كالرجال، بل تباري الرجال وتفوق بعضهم عزماً ونشاطاً.

سَرَتْ في الجماعة، بعد وصول الضيوف الجدد، نسماتُ انس، منعشة، فغاض الضجر، وفاضت الاحاديث.

وكانت الدهشة الثالثة ان احدى الحسان [1] «بنات هذا الجبل» من الاديبات اللواتي يحببن العرب، ويعجبن بالاداب العربية، وبكل شيء عربي. وكلهن، مثل زوجة الدكتور فرحات وشقيقته، يحسن الفرنسية، ولا يتكلمن بغير العربية، وهن من قلب لبنان، يا قارئي العزيز، يحببنه حب مؤلف «الجبل الملهم» له، ويغرن عليه غيرة ناظم النشيد اللبناني، ويفاخرن به مفاخرة كاتب هذه السطور فهن اللبنانيات، العربيات، الكريمات، اللواتي نفاخرُ بهن، ونطأطىء الرؤوس لهن.

(١) هي الاديبة فيولومن لحود. قد ترددت في ذكر اسمها، ثم قيل لي لابأس بذلك. وما ذكر الكاتب لها، وقد اجلّها الله تعالى، فشرفها بالجمالين، جمال الوجه وجمال العقل. انه لكريم، وانه لحفيظ.

سأل احد الادباء – والحديث حتى تحت الارز ذو شجون – ما هو الجمال ؟

فتناول الموضوع بعض من حضر ، وأبديت الآراء.. ثم قالت احدى الحسان : الجمال ذوق، والاذواق تختلف.

فقالت الأُخرى وهي اجمل منها : الجمال الحقيقي هو الكامن فيما ظهر من الجمال.

فصفقنا لها بالايدي، وهتف الاديب قائلاً : مرحى، مرحى ! ثم همس في اذني : لولا الخوف من التحاسد بينهن لانتخبناها ملكة الجمال.

كنت ابعد الناس في تلك الساعة عن ملكات الجمال الاصطيافية، وقل الصيفية، وما كنت في تأملي الجمال اللبناني تحت الارز، مسترسلاً الى العاطفة اكثر مني الى العقل. بيد ان المكان فعله في الرؤوس كما في النفوس. فان اقلّ النساء جمالاً هي جميلة تحت الارز. هذي هي حقيقة لا تُنكر. وهناك حقيقة أُخرى : ليس اجمل من المرأة الجميلة غير المرأة الجميلة تحت الارز.

هذا ما كنت اقوله في نفسي عندما بَهتني ذاك الاديب بفكرة انتخاب ملكة الجمال الاصطيافية.

ثم خرجنا من الظلال، ومشينا بين الصخور، في بَهرة النهار، وانا لا ازال اتأمل الجمال النسائي، وافرش زاويةً في القلب للبناني منه، فنعيت رأيي في الجميلة تحت الارز، وقلت ليس اجمل من الجميلة غير الجميلة بين الصخور. واني على صواب في القولين.

ان الجميلة تحت الارز تعارض بمحاسنها شيئاً جليلاً في محاسن المخلوقات، ولا تضيرها المعارضة، بل تزيد برونق تلك المحاسن البشرية. وان الجميلة بين الصخور لألطف وابهى وانعم ما خلق الله، امام اشد مخلوقاته قسوة ووجوماً وهولاً. انها في المحيط الاول شطحة للخالق في الابداع، وانها في المحيط الثاني آية من آياته تعالى.

وهناك فارق آخر. ان بعض محاسن الجميلة المنعّمة، كنور العين، وبريق الابتسام، تزداد حسناً في الظلال. اما الوجه اجمالاً، ببشرته وأسِرّته، وبانواره وظلاله، فهو اجمل بين الصخور، في نور الشمس، من تحت الاشجار الظليلة.

وبعد هذا التفلسف اقول ان اجمل ما يفعل الرجل في تلك الاعالي، بين تلك الصخور، هو ان يقبّل الوجه الجميل، اعجاباً واجلالاً، ولو كان وجه امرأته. وان ذكرى هذه القبلة لَتنطبع في القلبين، قلب المرأة وقلب الرجل، مع ذكريات المكان، فترسخ رسوخ تلك الصخور، وتظل خضراء مثل الارز. فهل فعل ذلك احد منا نحن الرجال ؟ وهل كان « الفيلسوف » في تلك الساعة الفريدة، قدوة يُقتَدَى به ؟

لله ما تفعل التَّجِلةُ والشهرة. فقد كنت « فيلسوفاً » محترماً (وقاك الله الفلسفة والاحترام، ايها القارىء العزيز، وجعل ذكرياتك كلها جميلة) اقول: كنت ساعتئذٍ « فيلسوفاً » محترماً، وما كانت، والسفاه ! القبلة.

عفوكِ، ايتها القارئة الحسناء. اقبل يدكِ، وأضع زهرةً من العُصْفُر — زهرة الجبل الاولى بعد الصيف — على ضريح السُّوَيعة التي فقدناها . . . .

اعود الى قصة النهار. بينا نحن جالسون على الصخور، سمعنا طلقة رصاص، فبادرنا الى ناحية الصوت، فاذا بالصيادين يتبارون بالرمي ويفاخرون واذا بشاب يحمل سيكارة بيده، واقفٍ على خمسة امتارٍ منهم، والاصوات فوضى من مُستَعِرِ الكلام. دنونا من اصحابها مستفهمين، ففهمنا ان احدهم يدَّعي، والثاني يتنفَّج، انه بطلقةٍ واحدةٍ من رصاص مسدسه، يشطر السيكارة التي بيد الشاب شطرين. والشاب واقف هناك غيرَ هيّاب، وقد تمثلت فيه شجاعة البُله. فاوقفنا هذه البطولة في غرتها، وقلنا للقوم سائلين: وهل ينقص شيء من مهارة الرامي يا ترى اذا كانت السيكارة بيد الصخر، لا بيد الشاب ؟ ضعوها على الصخر، وهاتوا برهانكم ان كنتم صادقين.

صمع الابطال لنا، فاوقفت السيكارة على الصخر. ثم أطلق عليها البطل الاول مسدسه، فراحت الرصاصة في الهواء صاردة، واطلق الثاني رصاصة، فأصابت الصخر وما تقلقلت السيكاره. سبحان الله، والحمد لله. هنأنا الرامين بمهارتهم، وهنأنا الشجاع الابله بسلامة يده !

وها ان البنادق تدوي بين الصخور. فقد مل الرجال الانتظار، على ما يظهر، وراحوا يتلهون بالرمي. ثم سمعناهم يهجزون، ورأيناهم، والبنادق بايديهم مرفوعة، ماشين في الطريق المؤدية الى الجبل الاعلى. فقد ابصروا في المضيق الرفقاء القادمين من اللالوء، وراحوا يلاقونهم هازجين.

« يا بيكنا ظُل وشوف
لمع البيارق والسيوف.
يا بيكنا طال المدى
وسلاحنا اكلهُ ألصدا »

وأُطلقت البنادق والمسدسات، فرفع الستار عن مشهد العيد، ورفعت النساء اصواتهن بالتغاريد.

وكان الضباب قد غير وجه الجو، فتكاثف فوق الجبال، وبدأ في تلك الساعة يذوب، فامطرتنا السماء رذاذاً، كان له نغم شجي بين اغصان الارز، ومنظر شيق وهو يتساقط في الغابة كخيوط من الفضة.

اذ ذاك جاءني نبي الجماعة، الذي كان يتنبأ منذ الليلة البارحة بان سيكون اليوم ماطراً، جاءني، وفي طراف عينه النكتة، وفي طرف فمه لفظة الظفر. فقلت له قبل ان يتلفظ بها : ما شاء ربك ان يكون المشهد ناقصاً. فقد مثّله لنا في الصيف، وها هو، سبحانه وتعالى، يرينا من جماله الشتاء.

فهز النبي رأسه وهو يقول : جعنا، والله، جعنا.

وكان وقت الانتظار يقصر سريعاً. فهاكم جماعة اللالوء يظهرون بين

الصخور، ثم يختفون. وهم جميعاً ماشون! حياهم الله وحياهن. وكان دوي البنادق، واصوات المازجين، تزداد روعة في البعد والخفاء، فتسمع من البيت صدى «السيوف»، وجلجلةَ «المدى» و«الصدا». فتفعل في النفوس ما لا يفعله القرب والنظر.

ومن تظن كان في الطليعة؟ مَن السابق؟ غادة والله من الغيد. غادةٌ شقراء هيفاء، من المنعَّمات. وصلت وهي تتنفس تنفُّساً متصلاً رهواً هادئاً. كأنها قادمة من الكنيسة او اليها.

رحبنا بها، وهتفنا بحياتها، واكبرنا عزمها، ثم اجلسناها على ديوان الشرف — عباءة مفروشة فوق الحجارة — تحت الارزة الكبرى.

وتواصلت بعد ذلك الاهازيج، وأطلق الرصاص، والاغاريد. فأطل من بين الصخور الدنية فريق من «الفرسان» يحملون على اكتافهم سيد اللألوء، وابن هذه الجبال البار، اسعد يونس.

فرحبنا نحن به، وهتفنا بحياته، واكبرنا عزمه. ثم اجلسناه الى جنب الشقراء الهيفاء، على ديوان الشرف، تحت الارزة الكبرى.

ثم وصلت مَتوسطة الجيش، وفي مقدمتها ولد صغير، وجبار في الخميْر، هو ابن اسعد يونس، وغادة أخرى من المنعَّمات، هي شقيقة الشقراء. فرحبنا بها، وهتفنا بحياتها الخ.

ثم تجددت طلقات البنادق، وعلت اصوات المازجين، وبانت المؤخرة، وقد حمل «الفرسان» على الاكتاف، بل رفعوا فوق رؤوسهم، من تقدمها، وهو روح «الجبل الملهم» وشاعر الشمس، وصديق كل موهوب ومظلوم، شارل قرم.

فرحبنا به ثلاثاً، وهتفنا بحياته ثلاثاً، واجلسناه على الحجر الاخشن بين الشقيقتين.

وكنا في ذلك من الظالمين. فقد كان ينبغي ان نلبسه العباءة، وننادي

الطبيب. غير ان صوته نفى ما بوجهه من امتقاع. فقد خرج من اللألوء محموماً، فاشتدت الحمى في الطريق، وكانت حرارته، بعد اربع ساعات من المشي والتصعيد في اوعر الجبال، تدنو من درجة التسع والثلاثين. فثابر مع ذلك وجلد، فادهش رفقاءه وادهشنا. بل كان هو البرهان على ان القوى المعنوية والروحية تقوم مقام القوى الجسدية، وتبلغ ما تبلغه، اللهم اذا كان المرء مسروراً مبتهجاً بعمله.

وقد قال انا شارل قرم: المشاهد التي كانت تنكشف امامي، المشهد بعد المشهد، وتتنوع في عظمتها وجلالها، انستني والله الحمى. واني أؤكد لكم ان الابتهاج يشد الركاب.

فما اشفقنا عليه بعد هذا البيان والجبروت.

وكانت قد سكتت البنادق، وسكت الهازجون، فنفخ القصَّاب بقصبه، وبادر الرجال والنساء الى الساحة يعقدون الحلقة، حلقة « الدبكة »

« يا غُزَيِّلةِ العل القنا
اشربي لَقَلْبك : هنـا
يا دلك وان مت انا
بعدي من تصاحبا »

واشتد صوت المزمار، وصفق بالايدي الكبار والصغار، وكان اسعد يونس في رأس الحلقة، يطأ الثرى حيناً كالغزال، وحيناً كالرئبال، وصوته الجهوري البدوي يبعث الحماس في الصدور، ويدوي في الارز، وبين الصخور.

حيّاً هلا، حيّاً هلا!

ثم مُد السماط، على بلاطة كبيرة، صُفّت حولها الحجارة، فجلس فريق عليها، وجلس الآخرون في حلقات اخرى، فجاءت بنات القرية والخدم باللحوم المشوية والنيئة، وبالمحاشي والكباب. وكانت شقيقة الدكتور فرحات تدور بالضيوف، وبيدها الكؤوس، والى جنبها شاب يحمل العرق،

أدرها، ايها الساقي،
وقل : اهلاً بعشاقي.

اما زوجة الدكتور فقد كنا نراها في كل مكان، مديرة وخادمة معاً، فتغذي الحلقات وتؤنسها بما تحمله بيدها وبقلبها.

ليعذرني القارئ اذا انا تغنيت بهؤلاء اللبنانيات ومثيلاتهن، أخواتي في هذا الجبل — أخواتنا اللواتي بقين لنا وللجبل بما هو الارث اللبناني، اي الكرم واللطف والمروءة والوداعة.

جلست الى السماط بين اثنتين منهن، وقبالة الشقيقتين الباسمتين على الدوام. قيل لي انهما من مصر. فما ادهشني جمال الخَلق والخُلق فيهما، كما ادهشني منهما ذلك العزم والنشاط. فقد قحمتا مشقات الطريق، وذلّلتا عقبات الجبال، كالرجال.

من مصر هما ؟ لا، يا سيدي. ان والدهما لبناني، وامهما لبنانية كسروانية. ولكن الوالدين هجرا لبنان قديماً، وتمصرا، بل تفرنجا. غفر الله ما تقدم من تفرنجهما وما تأخر. فان البذرة، بذرتهما، ما فقدت، برغم التفرنج، شيئاً من الفطرة اللبنانية الطيبة، او من النشاط اللبناني. حيا الله الشقيقتين اللبنانيتين. وبما انهما حجتا ارز جاج مشياً، قد غفرنا لهما الثغثغة بالفرنسية.

عادت الشمس تشق الغيوم شقاً رقيقاً، وتشرق إشراقاً ناعماً، في البعيد من المشهد المنبسط امامنا، شرقاً بشمال. فرأيناها تضيء البحر عند رأس الشقعة، وتشع فوق جبال الكوره. ثم لاحت طرابلس من خلال حجابها الشفاف، وظهرت، بعد قليل، ارواد.

استمرت الشمس تسرّح السُحُب بأناملها الذهبية، ففتحت نافذةً لنورها فوق البترون، وباباً فوق دوما، وشرعت تنسج من ذهبها، ومن فضة السحُب في جوّنا العالي، فتُلبِس الارز والصخور السرابيل الموشيَّة.

ودّعنا هذا المشهد الرائع الساحر، وعدنا جميعاً في اقرب الطرق، اي في المقربات التي لا طريق ولا مسلك فيها. وكان يأخذ بعضنا بايدي البعض، ونحن نعبر المنحدرات التي لا تصلح حتى للتدحرج والزحلقة.

ومع ذلك كنا نسمع صوت القصب على الدوام، ونسمع الهازجين يهزجون. وكلما وصلنا الى منبسط بين الصخور، او الى سفح من الجبل ممدود، كان يعقد الراقصون والراقصات الحلقة. « الدبكة » حتى النهاية!

وهذه ارزة من الارزات الوحيدات، ترافقنا في الدوران، تشيعنا لطفاً وكرماً، ثم تودعنا، فتحجبها عنا شوامخ الجلاميد.

وهذه الشمس تغيب، والقصب يودّعها بنغم الفراق والعتاب.

ونحن لا نزال في منتصف الطريق، فنثب حيناً فوق الصخور، ونتسلل حيناً تحتها، في غسق يعدو فنباريه، لنصل الى الطريق السالك الامين.

وهناك، انارت لنا السماء بعض النجوم — فرافقتنا الى جاج.

الرحلة الخامسة

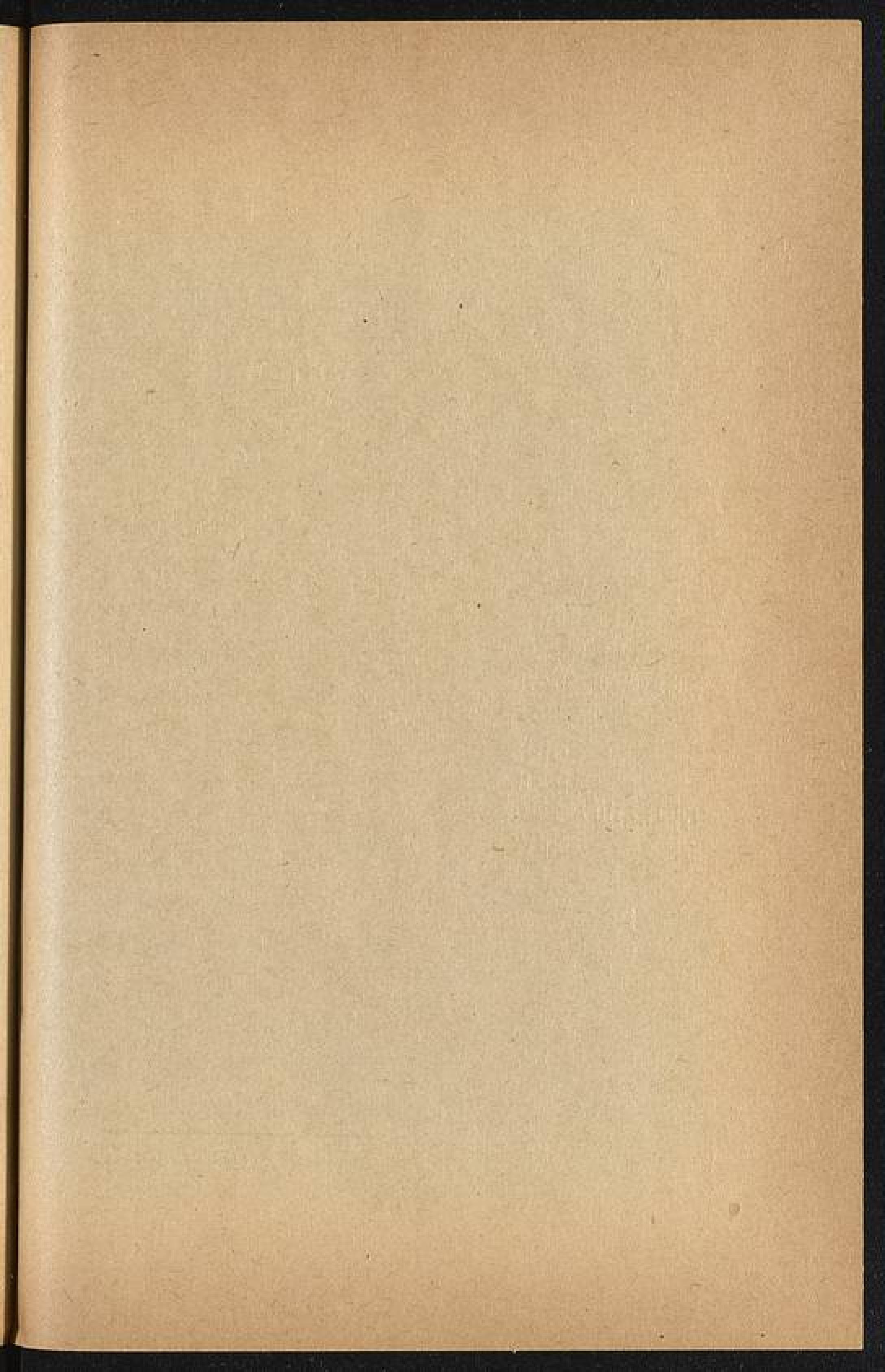
الى اللاءلوء (١)

•

محتويات الرحلة

على نهر ابراهيم
الانتداب اللبناني على اليمن
عين البطرك
اللألوء
المير بشير
ما تمتاز به المأدبة اللبنانية
الآفاق

(١) المعروف باللقلوق



الى اللاذقية

لا نزال في البلاد التي نزح منها الاجداد، في جبيل. وانه ليجدر بنا، قبل ان تتحرك القافلة، قافلة السيارات، ان نعرف الى القارى. رفقاء الطريق، وهم في هذه الرحلة، كتب الله لنا فيها السلامة، كثيرون.

اقول « كثيرون »، ولا اقول « كُثُرٌ » جرياً على اسلوب المتنطسين، لاني اكره هذا التجدد اللفظي، بل هذا البعث اللغوي في الادب الحديث، واكره كذلك الالفاظ الثلاثية الساكنة العين اذا جاءت في آخر الجملة او عند الوقف منها فلا استعمل غير ما ليس مَفرٌ منه. الساكنة العين، الساكنة القلب، الساكنة الروح — المائتة! انها مع ذلك تتجاسر على الفم فتأمره بالوقف، ثم بالجري، عابثة متحكمة. اما اذا جاءت في آخر الجملة — وما اكثر الكتاب الذين لا يحسنون انتخاب الكلمة التي يحسن الوقف عندها — فلا مناص اذ ذاك، ولا مفرٌ من الوقفتين، وفيها ما هو اخبث من الموت. فيها تلقط الاسنان اللسان، اذا لم يكن سريع الحركة خفيفها، كما يلقط الفخ الفرنجي الجراذين.

اما في « كثيرون » فلا خوف عليك من العين الساكنة، من القلب الساكن، من الوقفة التي هي اخبث من الموت. انك في « كثيرون » لفي بحبوحة من الحركة، بل من الحياة.

عسى ان يتقبل منا ارباب اللغة النُطُس — العفو، المتنطسون — هذه الفذلكة اللغوية، كما يتقبل الله الفاتحة من المؤمنين. الاتقيا. وعسى ان يكون لنا من لدنه تعالى ما يكون للاتقيا. المؤمنين، فتُذلَّل امامنا العقاب الصعاب، ولا نلقى في الجبال غير الاحباب.

وها نحن في الموعد المعين للاجتماع، على نهر ابراهيم، انا في غير المكان المعروف المكشوف، الذي كنا نرى فيه، الى جنبَي الطريق عند الجسر، مقهى ونسوةً وخيمةً واسرَّة في نظرةٍ واحدة. اما النسوة فلا يزلن هناك، يقفن على الابواب، وفي خدودهن الجلنار الرطيب، وعلى ثغورهن ابتسام الحبيب، وتحت اهدابهن المثقلة بالإثمدِ تأهيل وترحيب. تباركت يا جبيل بناتك الفينيقيات، وتبارك ربُّهن القديم الذي لا يزال يرعاهن، ويضرم من نار هيكله في احشائهن.

وقفنا بين تلك المقاهي، ثم عدنا ادراجنا. ما ضللنا الطريق، ولكن مغاني النهر ارتقت وتراجعت، فجاء من يدعونا الى الايوان، في البستان، وراء الجادة العامة، وبمعزلٍ عن العوام — الانعام — من بني آدم.

نعم لقد تمدن النهر، فصار يهمس ولا يصيح، ويقول في الضيافة القول الصريح الفصيح. كيف لا وقد غدا الدكان على الطريق، مُقهىً عند المضيق، على الضفة الجوانية، وراء ستار من العرائش والقصب الفارسي، في بحبوحة من ظلال الدلب والصفصاف.

انما في الطريق اليها نمر بجسر الحجر القديم، الذي لا يزال عامراً للمكارين والمزارعين. والى جنب الطريق بين البحر والجسر ارض عالية مغروسة بالموز والليمون غرساً جديداً ينبىء بزراعة جديدة في هذه الاراضي القديمة. فلا تكاد تسأل وكيف تسقى هذه البساتين والنهر منخفض عنها حتى تصل الى من يجيب على سؤالك. هوذا بيت الطاقة المائية، وفيه الادوات والمضخات تسيِّر مياه النهر فترفعها اربعين قدماً الى ما فوق مستوى تلك البساتين فتحمل اليها الحياة، وتبعث فيها اسباب الثروة والعمران.

وهناك على ضفة النهر الأُخرى مطحنة ومعمل ثلج على الماء، ورجال ونساء يشتغلون فيها، ودواب محملة تذهب وتجيء، وغنم وبقر ترعى بين

اشجار التوت، واسراب من الطيور الدواجن تنعم بنقاق – بخيرات – الطاحون .

اما المقهى فهو وراء بيت الطاقة وقبالة معمل الثلج . هو التمدن الحديث بادواته الاقتصادية والزراعية والصناعية . وان في المقهى مظهراً آخر من مظاهر الرقي ، ان فيها خداماً يحسنون الخدمة ، ولا يشار كونك في الحديث وان فيها صفاً من بواسق الدلب فخماً جليلاً ، يبسط ظلاله على صف من الموائد القائم الى جنبها ، في خطٍ ذي أهِلَة طويل ، درابزون من الباطون ، يفصل بينها وبين النهر .

وقلما تثقل او تجف تلك الظلال ، ظلال الدلب والصفصاف ، لما يغشيها على الدوام من النسيم وهو قلما يجيء صفر اليدين . فان جاء من البحر يحمل اليها شيئاً من ريحه الرطبة المالحة ، وان جاء من الجبال يمر بالبساتين ، فيتزود من طيب اريجها لينشره في تلك الظلال . فهناك على هامش المقهى بستان من الزهور ، دونه بستان من البقول ، دونه بستان من الموز والليمون ، يختفي اقصاه في شِعب الوادي .

ولا عَلَمَ للحور الفينيقيات ، ولا اثر لهن في هذه الجنان . اما اذا ابصرت ورد الخدود في احدى نوافذ البيت ، بيت صاحب المقهى الشبيه في اطنافه الرحبة بدارٍ صينية ، فلا اظن انك تؤثره على ورد البستان القريب منك . ذلك لان جوَّ المكان يرفع بك الى مستوى الغبطة الروحية ، ويدخل على القلب سروراً مصفًى بصفاة السكينة والاطمئنان ، فتكتفي من الورد بمنظره ، ومن الصفصاف بظله ، ومن النسم بطيبه ، ومن النهر بزهوِ امواجه .

وقد تقف على شفا الضفة وراء الدرابزون تنظر الى تلك الامواج ، كما يقف المسافر على ظهر الباخرة ينظر الى البحر ، فتسترسل الى احلامك ، فيحدث اثناء ذلك الحدث العجيب ، تتم المعجزة . فبين انت تحدق بالمياه الجاريه ينعكس المشهد ، فتظن نفسك على ظهر مركب يجري في النهر

جرياً معاكساً لجري امواجه التي تبدو ساكنة . هي خدعة بصر تصورُ اليك انك صاعدٌ من النهر الى الجبل !

واذا كان لا يروقك مثل هذا اللهو في التزهات، وكنت تؤثر الحقيقة على الخيال حتى في جنان نهر ابراهيم، فان في الاوزّ وهو يخوض عباب النهر ما يستوقف منك البصر والبصيرة. هاكه في حِماه بالقرب من الطاحون. وهاك إوزّة تتهادى الى المياه، فتخوض الرقراق ماشيةً، فيغمرها بعد قليل حتى جناحيها، فتنشرهما وهي تركب ظهر الموجة، فتجري بها تجاه البحر. ثم تعود تلك الإوزّة صعوداً في النهر، وهي تسبح بزهوٍ آمنةً مطمئنة. مع انها تغالب الماء الجاري عليها. ولكنها لا تهن ولا تختصر العودة. بل تستمر سابحةً الى المكان الذي نزلت منه، فتعود الى لهوها ومرعاها، الى حِماها، تحت صفصافات المطحنة.

ليس ما ذكرت من أمر الإوزّة بأهم ما استدعى نظرك اليه فانك اذا صبرت في مراقبتها ربع ساعة فقط تعجب لفطنة فيها. فهي تخوض عباب النهر بضع مرات متوالية، فتركب امواجه نزولاً، وتغالبها وهي تسبح صعوداً. وبما ان العودة عليها، والسباحة عكس مجرى النهر، فهي تدرك مقدار ما تستطيع منها، فلا تمعن في الركوب نزولاً، بل تقف عند حدٍ فلا تتجاوزه، وقلما يتغير. ومن هناك تعود سابحة الى حِماها تحت صفصافات المطحنة. انها لبطة فطنة حكيمة، وقلما تجد بين البط البشري من يدرك حكمتها ويعمل بها، فكم من الناس لا يحسبون للعودة حساباً في ركوبهم مطايا الاطماع واللذات.

العفو ايها القارىء.. فقد لا يروقك مثل هذه الابحاث ولا يصيب الاطناب في وصف البطّ هوى في نفسك، فها نحن على ضفة النهر، الناعسة في تلك البقعة امواجُه، الرافلة في غلائل النسيم العاطر. جلسنا الى الموائد في ظلال الدلب، فجاء الخدم بـ«طاولات» اللعب، ثم بالاراكيل والقهوة، وبعد

ذلك بالعرق والمازا، ثم بالغداء. ورأس محاسنه سمك النهر المشهور. فأكلنا السمكة تلو السمكة حتى رأسها.

والعفو ثانية ايها القارئ العزيز. فقد نسيت ما وعدتك به، وهو ان اعرف اليك الرفقاء. ما فات الوقت. وما تحركت القافلة. فاننا في انتظار من لا يسرع في عمل من اعماله، الا اذا كان الخير في ذلك العمل لغيره، لا لنفسه.

ها هو يطلع علينا كشمس تموز – شمس الشهر والاله القديم معاً – مبسوط الذراعين، مورد الوجنتين، مسلماً باللسان وبالقلب والعين. ها هو يدرج بين رفيقين، رجل وامرأة، من الشعوب القاطنة فيما وراء البحرين، البحر الابيض وبحر الظلمات.

هو شارل قرم الذي نهض من فراشه ذات يوم مثل اللورد بيرون، والشهرة امامه تحمل اليه القهوة والسيكارة على طبق من الفضة، وبينهما اكليل من الشوك؟ من الغار؟ هو اكليل ولا نكران، رفعه شارل بين يديه، ونظر بعطف اليه، نظرةً واحدةً لا غير. ثم وقف امام المرآة، بعد خروجه من الحمام، وضحك ضحكةً «رابليةً»[1]

فقالت الشهرة: يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً.

وراحت تتأثر شارل قرم لتثأر منه. ففر شارل هارباً، وهام على وجهه في الاودية – والشعراء في كل واد يهيمون. وها كه الآن في وادي اجدادنا الفينيقيين، وادي آدونيس وافروديت، يستعيذ بهما من الطاغوت.

وهاك احد غلمان الشهرة، حورية الطاغوت، جاء من اميركة ليبحث عن حقيقة هذا الشاعر اللبناني الفينيقي الفرنسي، ويسأله، اذا ظفر به،

---

(١) نسبة الى فرانسوا رابله (١٤٨٣ – ١٥٥٣) الكاتب الفرنسي المشهور بتهكمه ومجونه

اقول اذا ظفر به لانه قد يكون من اساطير بلاد الاساطير. فاذا تيقن انه حقيقة شعرية بشرية تُلمَسُ وتُرى فعليه ان يسأله لماذا ضحك تلك الضحكة «الرابلية» صباح اليوم العظيم ساعة خرج من الحمام.

أَلِمِثل هذا تكون الاكاليل؟ او بمثل هذا تعامل الربة الحمراء حورية الطاغوت؟ انها وطاغوتها يرسلان اليك، حتى من اميركة، من يحسن الكلام، ومعه الكأس التي شربها قبلك المقربون، وودوا لو كانوا نسياً منسياً.

وخمول ذكرى في الانام.

وهذا ابو كلام جاء ينشره.

— «وانت ايضاً شاعر؟ واين تعلمت؟ وما اسم ديوانك الاول — وكم ديواناً نظمت؟ وما اسم امك؟ وهل انت متزوج؟ وهل زوجتك شاعرة مثلك — زوجتي كاتبة — وهل القراء في هذه البلاد يقبلون على الشعر؟ وما هي المآكل التي تفضلها على سواها — والمشروب — والالعاب والالوان — و.»

جاء هذا الرجل من لدن الطاغوت، من البلاد التي هي دون الاطلس وراء الاوقيانوس. جاء يجمع شتات العلوم ليكتب مقالا او كتاباً، شأن اخوانه الاميركيين الذين يسيحون في الارض مستكشفين عجائبها وغرائبها، فيدخلون المدينة مع الشمس ويخرجون منها مع الشمس بعد ان يكونوا قابلوا كل من هو ذو شأن فيها، وتحدثوا اليه ثم يكتبون كتاباً عليها ولا كتاب عجائب المخلوقات والحيوانات.

وجاء الرجل الاديب تصحبه زوجته الاديبة. فتاة ذات عين جامدة، وفم رقيق كورق الورد جاء يحمل الى شارل قرم تلك الكأس... جاء يقتله. فاصطحبه شارل بالسيارة، واصطحب حرمه المصون، الى الوادي المشهور وادي آدونيس.

من ذا الذي يقول ان شارل قرم لا يحسن السياسة وانه من الطاهرين؟
حمل شارل ذلك الاديب الينا لينجو منه. فنجا هو، ولولا من كان معنا من ابطال الحديث وفي مقدمتهم سليل الخثين رفيقنا العزيز ابراهيم حتي، لما نجونا نحن، لا والله.

فالسلام على ابراهيم من اقام في نويورك وعرف كيف تؤكل مملكة الثرثرة حتى رأسها. فلقد انبرى ابراهيم لذلك الاديب واجلسه على كرسي التحقيق بعد ان كان هو المحقق، وصوب عليه مدفعاً رشاشاً من السؤآلات. عليه وعلى زوجته الاديبة. جاوب ايها الرجل. جاوبي ايتها المرأة. إنَ من يكلمك الآن يحزُ رقاب النساء وهو يضحك الضحكة التي تضحك العرجاء والمسحاء والعوراء. ومن رفقائنا الاديب العالي الجبين الناصع اليقين، ذو المال والبنين، توفيق حسن الشرتوني، فلو لم يكن توفيق اديباً مبنّكا، او متأدبا متمولا، لكان نائباً من نواب الامة او مستنطقا في الحكومة. فهو في سؤآلاته يبدأ دوماً بالالف، ولا ينتهي بالياء. لانه يعود من الياء لينتهي بالألِف.

جاء توفيق ينجد ابراهيم على الاميركي. وكان عمه ترجمانه — عمه الاسكندر الضحاك، وهو يحسن الانكليزية كما يحسن تصريف الامور المالية. ويحسن كذلك المصارحة والمطارحة، في الاحاديث الحامضة والمالحة.

وكان بين الرفقاء سيدات وأوانس لبنانيات يزيّنَّ المجالس، بالعيون النواعس، والعيون النجل فكسفن الاميركية ذات العين الجامدة، وسألنها اذا كانت تحسن الفرنسية. فقالت: والاسف لا. وسكتت.

وسكت كذلك زوجها الصنديد، بعد ان وقف، والحق يقال، وقفة صامدة — تذكر ولا تعاد — امام المدافع الرشاشة التي اطلقها عليه الملازم ابراهيم، والمعاونان توفيق واسكندر.

الانتداب اللبناني على البحر

خرجنا من المقهى سالمين جميعاً. وركبنا السيارات التي طوت من طريق البحر بضعة عشر كيلومتراً حتى ضواحي جبيل فجنحت هناك الى طريق لولبية، حديثة العهد، حسنة التعبيد، فمررنا بالبلاط القرية الوحيدة بين الساحل وطرزاي. وفي البلاط كنيسة قديمة لفت اليها نظرنا شارل قرم.

وعندما شارل قرم يلفت نظرك الى أثر قديم في لبنان فقل انه فينيقي، او ان فيه شيئاً فينيقياً، حجراً من معبد، او صخراً من مدفن وهذه الكنيسة بنيت على ما يظهر من خرائب قديمة. هي ولا ريب سابقة للعهد الروماني اليوناني. نعم، هي فينيقية.

وهذا الطريق يزداد عمراناً كلما ارتقينا فيه. هو احسن ما رأينا من الطرق التي لم تظفر بعد بنعيم الزفت. وهو من الساحل الى طرزاي اثنان وعشرون كيلومتراً، يشرف على وادٍ الى اليمين، منبسط الارجاء كثير الاخضرار والحراثة. وفي منحدراته المقابلة لنا قرى عديدة منها القرية المدفونة فيها «العوده»[1]، قرية الحصون: رأيتها تنعم بسهل لطيف الانحدار، لا كما بدت لنا يوم نزلنا اليها من بير الهيتي، كأنها في قعر وادٍ سحيق. وفي ذلك البرهان والدليل على ان حقيقة الاشياء لا تظهر بكاملها اذا نظر اليها من موقف واحد، او وجهة واحدة. فالحصون من بير الهيتي مدفونة في الوادي، والحصون من طريق طرزاي قائمة على صدر الوادي متبجبجةً به.

في طرزاي التي تعلو عن البحر تسعمائة وخمسين متراً، نبع غزير وخيمة ودكان، وشبه نزل اسرته البيضاء بادية للعيان يحمّصها نور الشمس. وهي

(١) راجع الرحلة الاولى

كلها اي الخيمة والنزل والدكان تشرف على الوادي الذي تركب طرزاي على منكبيه وتهز رجليها. وانك الترى بين الرجلين بيوتاً للفلاحين واراضي مزروعة. قيل لنا ان اكثرها للرهابين.

جلسنا في الخيمة نستريح ونسرح النظر في ذلك الوادي المنبسط تحتنا شرقاً بغرب، المدفونة فيه، هناك، تحت ذلك الجبل، « العودة » اي كنز الاجداد. نظرت اليه النظرة الاخيرة، نظرة الوداع

واجتمعنا في الخيمة بأحد ابناء الحكومة اللبنانية الدبّاسية، احد ابنائها الابرار، الحاملين في صدورهم ذكرى اليمة، وعلى صدورهم في عروة الزر العليا شريطة جوقة الشرف.

تستمر الطريق الممتازة بتعبيدها من طرزاي الى قرطبة ولها فرع يصعد الى اهمج واللالؤ.. هو الطريق الذي سلكناه وهو كثير الاكواع، شديد الانحدار، خشن وعر، عكس ما تقدمه في التعبيد والاعتناء.

وبعد نحو مائتي متر من التصعيد وصلنا الى اهمج قاعدة صرود بلاد جبيل من ايام فخر الدين الى ايام الامير بشير الى الغاء المديريات الى عهد المتصرفين، التي تعلو الفاً وثلاثمائة متر عن البحر. وهذه آبارها القديمة ونواويسها الفينيقية وهذه كنيستها، وهذه سندياناتها الهرمة تظلل ساحتها وهناك كتابات لاتينية والطريق التي شقها احد قادة الرومان والتي تربط بيبلوس (جبيل) بمدينة الشمس (بعلبكّ). وهناك بيت صديقنا وصديق الخيل العربية العالم بخصائلها واصيلاتها، الناشر علمه في كتاب بين الناس، خدمة للؤلؤة البادية، الفرس التي انجبت ذلك النسل الشريف المنتشرة سليلاته في العالم شرقاً وغرباً.

وانك حيث تكون في العالم، في توكيو او في لندن، في سان فرنسيسكو او في لننغراد حين تقول الخيل الاصيلة تقول العرب. ونحن في لبنان لا نعرف من يعرف عن الخيل العربية اكثر من نجيب بك الخوري

الاهمجي، القاطن هذه البلدة، القانع بقسمته في الحياة بظلال سنديانا تها وذكرى بطولة ابنائها.

وهاكم عمال « النافعة » يعملون في تصليح الطريق. وهاكم في الجبال مظهر الهول والجلال نشاهده بُعَيد الخروج من اهمج. فقد قل الاخضرار، وكثرت الصخور، ودكت قمم الجبال بعضها في بعض. اما الوادي الى عيننا فهو آخذ بالتقلص، يضيق ثم يضيق فيغدو فوق اهمج ظليلاً قاتماً سحيقاً.

لقد ذكرتني هذه المشاهد الرائعة بجبال اليمن وخصوصاً عندما بدا على قمة من القمم بيت فلاح — كوخٌ من حجارة، لونُها كلون الصخر الذي قدت منه. وكذلك في اليمن فانهم يبنون بروجهم وحصونهم على قمم الجبال من حجارتها، بالوانها الواحدة، فيختلط بعضها ببعض، ولا تظهر للعدو الصائل . فالانسان هنا بلبنان، وهناك باليمن، يتخذ من لون محيطه لوناً يختفي هو فيه عن الابصار، شأن الطيور دفاعاً عن النفس

وهؤلاء العمال والمكارون ما برحوا يلبسون العباءة القصيرة الاكمام المقصبة الظهر. هي العباءة الاميرية في القرن الماضي، هي العباءة اليمانية القديمة التي لا تزال تلبس هناك. لك ان تقول ان الجبال جبال حيث كانت، وان الجبليين اخوان في كل مكان، ان لم يكن الامر كذلك، فهو شبه ذلك.

واني لذلك اسأل سؤآلا. ان هؤلاء اللبنانيين يذكرونني في غير واحدة من احوالهم، وفي الكثير من سحناتهم واشكالهم، باهل اليمن. فالجمجمة الطويلة. وعظم الخد العالي، والانف الطويل والوجه المخروط، والفم المستفيض كلها من عرب حِمْيَر. فما الصلة يا ترى بين اللبنانيين وبين اولئك العرب ؟ هل اللبناني جد حمير، ام هل حمير جد اللبناني ؟

اني اجنح الى الاعتقاد بان الهجرة القديمة السابقة للتاريخ، كانت من

الشمال الى الجنوب، وخصوصاً بعد العهد الجليدي الأخير الذي عم البلاد الشمالية كلها حتى البحر المتوسط، اي منذ خمسين الف سنة. فنزح من نجا من السكان الى البلاد الجنوبية، فهل من حرج علي في اعتقادي ان الهجرة القديمة السابقة لتاريخنا المعروف حتى الآن، كانت من الشمال الى الجنوب، ومن لبنان في هذه البقعة المباركة، الى خولان وهمدان في اليمن!

وما يدريك ان الاذواء هم من سلالة شعب قطن قديماً هذه الجبال التي دعيت بعدئذ بلبنان. فهرب من بحر الجليد، هرب جنوباً، وما وقف، وما اطمأن، الا عندما وصل الى جبال مثل جباله، وما يدريك ان الزيود اليوم، وهم يزينون رؤوسهم باغصان من الحبق (الريحان) والموارنة الذين يزرعون الحبق (الريحان) في مصاطب بيوتهم الجبلية هم ابناء عم، هم جميعاً من سلالة جبلية واحدة.

وما يدريك ان زيد بن زين العابدين هو منحدر من آدونس زين الآلهة. أفلا يحق للبنانيين بعد هذا ان يدّعوا ملكية اليمن، وان يبسطوا حمايتهم على تلك البلاد السعيدة. فما قول غبطة البطريرك عريضة بانتداب لبناني في صنعا؟!

عين البطرك

وصلنا الى رأس الوادي الذي كان يزداد ضيقاً، ويقل عمقاً كلما امعنا في التصعيد. وفي هذه المظاهر الجيولوجية، في الجبال العالية خصوصاً لانها مجردة مما يخفيها او يخفي بعض نواحي غورها، ما يستوقف الانظار ويسترعي الابصار.

فقد وصلنا، بعد الاشراف على الوادي، الى مدخله، الى رأسه، الى مضيقه، الى اضعف مواطن ضعفه، حيث اخترقته قديماً مياه الاعاصير ورياحها. وعندما نقول قديماً نعود في علم طبقات الارض الى ملايين من السنين تتراوح بين العشرين والاربعين مليون سنة.

في هذا الممر، هذا المضيق، انسابت المياه، ارسلت السهول انهارها الطامية فشرعت تحفر في الوادي غرباً، فتزداد قوة كلما ازدادت انحدارا — ويزداد الوادي عمقاً واتساعاً. ثم جاء الانسان الفلاح، بعد الانسان الصياد، فبنى الدكات وحبس وراءها التراب، وزرع في التراب الحنطة والشعير. ونحن ابناء ذلك الانسان الفلاح نعبّد اليوم الطرق، ونسير في السيارات، لندرك الاعالي التي لانت جوانبها لسواعده، ولبت احشاءها الصوت منه والمحراث.

دخلنا المضيق، والطريق فيه يفعل بالاضلع والاحشا. فعله العجيب فشعرنا اننا مسافرون في آلة بخارية لتكسير الحجارة. ونحن الحجارة المكسرة. ما رثيت لاحد في القافلة رثائي لصديقي قرم لاني ادركت ان الطريق لا تضر به بقدر ما تضر بكرم اخلاقه ورقة شعوره تجاه رفيقيه ضيفيه الاميركيين. وقد ترجلوا جميعاً ومشوا ليخففوا عليهم بعض مشقات الطريق

قلت ان اجمل ما في اعالي الجبال لمن له المام بعلم الجيولوجيا مظاهر التكوين والتفكك. واجمل ما في هذه المظاهر المفاجئآت الجيولوجية ما طال بنا المضيق فانتهينا منه الى سهول فسيحة غناء وربى مليحة خضراء، ومياه جارية لألاء. هوذا منبع البركات. هي ذي الينابيع وهي ذي ثمار جهود الانسان.

انها لجميلة هذه الحقول الخضراء المخططة الملونة المدبجة بالازهار والاصفرار. صفوف البطاطا كانها الكتائب المنظمة، وصفوف البندوره كانها سلاسل من الزمرد طويلة. وحقول الحنطة والشعير، وسهول تهتز فيها اعلام الذرة، ويسمع فيها عجيج المواشي، ونهيق الأتن وصهيل الجياد. اضف اليها الاصوات البشرية صوت الانسان الخشن الهادي، صوت الزراع والفلاح.

وما تلك الصخرة الشامخة هناك، ووراء ذلك البيت على تلك الربوة؟ كانها مسلة فرعون، وكأن البيت ضريح تحتها. وهناك مصطبة وعلى المصطبة امرؤ وامرأة — بل على المصطبة اذ تدنو منها يظهر ثلاثة او اربعة رجال، وبينهم الامرأة الواحدة، وقفوا ينظرون الينا، ويتوقعون وقوفنا عند الدرج المؤدي اليهم

ما المكان بضريح، بل هو دكان في تلك الصخرة، والى جنبه جوزة قديمة العهد، عميمة الظل، كثيرة الثمار. وقفت السيارة. فخرجنا منها وصعدنا ذلك المكان لا لغرض سوى الفضول — وهو غرض محمود لطلاب العلم. فقد رغبنا بعلم يمكننا من افادة القاري، بعد ان اغريناه بقولنا انه بيت في صخرة، او انه نشأ من الصخرة، او ان الصخرة نشأت فيه، فعلينا ان نصدق القاريء الخبر.

واول ما نصححه من الظنون هو ان البنا ليس بضريح وليس بدكان. هو بيت صغير لاحد المزارعين من اهمج، صاحب هذه الحقول المزروعة التي

مررنا بها. وانه وامرأته يسارعان الى استقبالنا والترحيب بنا. جاءتنا السيدة بالكراسي، وراح الرجل لغرضه

قلنا : الابريق من فضلكم.

وكان الرجل قد عاد يحمل طبقاً عليه زجاجات وكؤوس.

— « تفضلوا. اشربوا البيره ثم نجيئكم بالماء »

وأصروا بالبقاء للقهوة . « وكيف لا تشربون القهوة عندنا ؟ »

ذكرتني هذه الضيافة باليمن. بذلك السلطان الذي ارسل الخدم المسلحين ليدركونا بالفطور

والضيافة لا تسأل السؤآلات قبل ان يتم عملها فبين نحن نشرب القهوة سأل أحد الرجال الاشداء — وما برح الشمال ينبت من هؤلاء الرجال — سأل قائلاً: من الافاضل ؟ فدل احدنا الي وذكرني الآخر باسمي.

فهتف الرجل هتاف الدهشة والتعجب. هو ممن يطالعون الجرائد، ويقرأون الكتب، ويفتخرون — خشيت ان يكون ممن لا يفتخرون

قالت السيدة تعرف الرجل الينا: حضرته الشيخ بطرس سابا الخوري

وقال الشيخ بطرس يعرف الينا صاحب البيت: وحضرته السيد سابا بطرس ابريانوس وحضرتها حرمته.

أدب التعرف بالضبط الانكليزي . كأن اهمج بلدة في جبال اسكتلنده .

وقد اعجبني من الشيخ قوله: الحرمة. لانها في عرف اهل الذوق الطف من زوجة وعقيلة وقرينة — ومدام : ليس في « الحرمة » ما تشتم منه القيود — عقيلة الرجل — مصفدته قرينته

في « الحرمة » احترام ومحرم وفي « الحرمة » عروبة صافية.

ولكن اسم زوجها ؟ ابريانوس ؟ ! ماذا تفعل يا رجل به ؟ ومن اين جاء ابريانوس. ان ذا الاسم ليقتل كل أمل بالوحدة اللبنانية اليانية وكل

امل بالانتداب اللبناني على اليمن. على ان هذا الرجل ذا الاسماء الثلاثة الفظيعة — سابا بطرس ابريانوس — هو من خير الرجال. يقري الضيف، ويضرب بالسيف، ويبني بيته، مثل صنوه في خولان، ومثل اخوانه النسور، بين الصخور.

سألنا حضرة الحرمة عن الجوزة وما قدر ما تحمل من الجوز فقالت: من الخمسة آلاف الى الستة.

قال الشيخ بطرس: ولكن شجرتك، يا استاذ، تحمل اكثر من ذلك وثمارها الذ وانفع.

غصصت بالقهوة — وناديت شارل قرم لاعرف الشيخ اليه،

مهما يكن من مجاملة هؤلاء اللبنانيين، فان ترحيبهم بنا وتكريمهم لنا قبل ان يعرفونا لأثر طيب من الآثار اللبنانية القديمة، التي تتجلى بالضيافة والكرم واللطف والمعروف. هي ذي الفطرة الطيبة في اللبناني — هي ذي المزايا التي شرفت اجداده قديماً وما برحت تشرفه في هذه الاماكن القصية. ان البعد عن التمدن لخير ونعمة.

قبل ان ودعنا الرجل الكريم الرفيع الشأن صاحب الاسم الفظيع وودعنا حرمته المحترمة، والشيخ بطرس الفاضل درنا حوالي البيت نستكشف سره وسر الصخرة. فما هناك سر يذكر. هناك صخرة قائمة منذ القدم في شكل مسله — صخرة طويلة رفيعة، والكوخ مبني الى جنبها او بالحري أمامها فيظهر من بعيد كثقب في اسفلها.

ثم جاءنا احد الشبان بالابريق. كنا نسينا الابريق فشربنا من ماء النبع البارد كالثلج. وزادنا الشيخ بطرس علماً بالمكان. فالبيت والصخرة والجورة والنبع — كلها بمجموعها تدعى عين البطرك.

قلنا متنطسين: عين البطريرك

قال الشيخ بطرس: وان نقص منها حرفان فلا يضر ذلك بالعين، ولا

بالبطريرك .

توفيق الشرتوني : كأن احد البطاركة مرّ يوماً من هنا وشرب من هذه العين فاطلق الاسم عليها .

الشيخ بطرس اظن ذلك .

السيد ابريانوس : بل هي الحقيقة ، وصار يجب ان نسميها الآن عين الريحاني .

فماذا اقول انا بسابا بطرس ابريانوس ؟ ان الحياة لا تصفو لاحد من الناس . وان صفت في نبعها ، فقد تتعكر في جرن العبادة .

اعلى مكان في طريق الجبل. العامر بدن الاصطياف هو ضهر البيدر (١٥٥٠ متراً) ولكنه، فوق زفت الطريق وتحته، منحدر انحداراً سريعاً، فيذوب ثلجه في الشتاء، ولا تحمل تربته في الصيف ما يستحق الذكر من الكلا. حتى اذا ما ذكرنا المعزى وكثيراً ما ترى المعزى هناك تغمز وتهز بأذنابها — لا كلا. ولا ماء.

اما القاع المنبسط تحت ضهر البيدر فهو عند شتورة لا يعلو عن البحر اكثر من تسعمائة مترٍ، وهو لمركزه، وتوسط علوه، وغزارة مياهه، خصب التربة جزيل الخيرات. هو للبنان مخزن الحنطة والحبوب على انواعها.

ولكن اللاّلوء (١٨٥٠ متراً) اعلى من ذلك السهل الذي ينساب فيه نهر الليطاني، واعلى من ضهر البيدر. وهو مع ذلك غني التربة غزير المياه. ذلك لانه محاط بالجبال التي يذوب ثلجها حباً اليه، وتحمل سيولها ما يجدد على الدوام خيره المستثمر — او المدفون.

وفي تلك الجبال، اولياء نعمة اللاّلوء، قمم تتجاوز في علوها عن البحر ثلاثة الاف متر

عجيبة هي هذه الطبقات الخصيبة في اعالي الجبال بين طبقات تحتها وفوقها صخرية مستوحشة. كأن الله كوّر وحفر الجبل، الذي هو اليوم جبال، ورمى في الحفرة حفنة من التراب وقال للانسان: هوذا ميراثك. فاحرث وازرع تكن من الظافرين.

على ان ارض اللاّلوء تفتقر الى التشجير. فلو زرع الحور والصفصاف الشائك على اطراف الحقول في الاقل، تحديداً للاملاك، اصانتها من الرياح،

ودبجتها بالظلال، وجعلت الاقامة فيها مستحبة لغير المزارعين. وانه لمن الممكن ان يزرع التفاح الاميركي الاحمر الفاخر في هذه الاماكن العالية، الباردة الجو والتربة والمياه. وانه لمن الفضول والتطفل ان ادلي برأي زراعي، ونحن قاصدون الى بيت من هو شيخ الزراعة واستاذها ومهندسها في هذه الجبال.

لِنُمسِكْ اذن عن الزراعة، ونستمر في السير. فبعد عين البطرك نمر بعين البياضة، ونعلم ان في هذه الصرود عيوناً كبيرة وانها تشترك بالاسم الواحد اللالو. الذي يفتح الآن ذراعيه مرحباً بنا.

فقد تحسَّن الطريق، واتسع الافق، وامسى الجو مربعاً لاشعة شمس الاصيل ونفحات نسيم الغسق، وفاحت الارض بالروائح الطيبة التي تحير حتى العطار، حتى الكيماوي، فلا يدرك بالتحقيق طبيعتها المركبة الغامضة.

واني اسارع الى اطمئنانك، اذا كنت تخشى البرد، ان شمس الظهيرة اشد حراً في اللالو منها في الساحل، وهي لا تحمل معها، عندما تغيب كل حرارتها، بل تودع الليل شيئاً منها فتدفيء جوانبه، ولا يضطر الانسان الى اكثر من غطاء واحد في الصيف.

قلت في ما اسلفت كلمة شعرية في حفر رأس الجبل ونثر حفنة من التراب في الحفرة. فيجب علي ان اخبرك ان العلم والشعر لا يختلفان في هذه المسألة كثيراً، الا في كيفية العمل، وفي الوقت الذي يستوجبه العمل. فمنذ عشرة ملايين او عشرين مليون سنة في تاريخ الارض الجيولوجي — العلماء متفقون في الرقم الاول مختلفون في الثاني — كانت هذه الجورة او الحفرة الواسعة العميقة بحيرة يسبح فيها التمساح والدلفين، ويرتادها الوعل واليَحْمُور. ثم علت المياه في اعصار طالت مدتها، فاشتد في طميها الضغط على جوانب البحيرة، فهدَّ اضعف موطن فيها، اخترق الطبقات الكلسية الرملية في الجبل الى الغرب، فتكون المضيق الذي مررنا به، واخذت المياه

بعد ذلك تحفر في الوادي، الذي اشرفنا في الطريق عليه، وتتوسع وتتعمق وتتفنن في عملها، فكانت الشعاب والمنعطفات، وكانت الاغوار والانجاد، وكانت البطاح والربى، وكانت السيول والسهول والمنحدرات والغدران.

وهذه البحيرة الجافة اليوم، المتجمع فيها تراب الجبال ورواسب السيول، المتصدع جانبها الغربي، المندرسة جوانبها الغربية الشرقية، هذه البحيرة الجافة تدعى اليوم اللالوء.

ومن اين جاء هذا الاسم؟ من ذا الذي اخترعه؟ وما السبب في اصله؟ وما المناسبة في وضعه؟ وفي اي زمن عُرف المكان به؟ وهل هو اسم مكان او حيوان او انسان؟ لقد سرت اليَّ عدوى التسآل من هذا الاميركي الاديب رسول الشهرة او جزَّارها الى شارل قرم.

انه لامر ذو كرب بيد ان الجهل اشد كربا منه. يقف الجهل مستعجماً – اشرقت عليَّ هذه اللفظة صباح اليوم فاستغوتني فاستأذنك فيها. اني اقف مستعجماً، اي صامتاً عاجزاً، امامك، ومكروباً كذلك، اسأل السؤآلات باسم هذا المكان ومن اجله، ولا استطيع ان اجاوب عليها.

فهل هو اللالوء بالهمزة والسكون ام اللقلوق بالقاف المعجمة؟ سمعت الناس هناك في اهمج وطرزيا يقولون اللالوء، ورآني احدهم اكتبها بالهمزة فقال انها خطأ وانها بالقاف اصح، وما كان لفظه للقاف يختلف كثيراً عن لفظه للهمزة. وسمعت من يلفظها بالقاف لفظاً بليغاً، ويريد ان تكتب بالهمزة. ان اهل القرى في الصرود حائرون وجاهلون مثلي.

لاحرج اذن في التقدير والتخمين. فهل سُمّيت الينابيع هذه باللقلوق، من لقلق اي صوّت. ليس لينبوع من الينابيع العديدة اليوم صوت يذكر.

ام هل أوحى بالاسم طير اللقلاق؟ هو اليوم غير موجود، ولا أثر له في تلك الاعالي الجبلية.

مما لا ريب فيه ان العربان كانوا يردون هذه الينابيع فيستقون

ويغسلون اغنامهم – ويلقلقون (اللفظة اللبنانية عامة) اي يعيشون بالمياه، ويوسخون ما حول الينابيع فتمسي مستنقعات وموحلات تصح فيها اللفظة اللبنانية العامة – لقلوق. ان ذلك ممكن

ولكن المهذبين من اهل القرى المجاورة وممن يؤمون المكان في الصيف، لا يروقهم هذا التأويل، ويؤثرون تخفيف القاف – ليتمكن بعضهم من لفظها ؟ !

اعجبني قول احدهم، وهو من المتحزبين لِلّألُو. ان اللفظة مشتقة من اللؤلؤ، تشبيها بالحبب الذي يطفو على وجه المياه عند رأس النبع. ان هذا التأويل مستساغ، وانه من البيان بمكان. بيد ان عندي ما هو احسن منه، واقرب الى المعقول. ان اللّألو – وقد قررناه بالهمزة الساكنة – مشتق من لَألأَ اي لمع وبرق. والمياه في انصبابها او في تفجرها تلمع لماناً متسلسلاً اي متلألئاً.

وقد قررنا امراً آخر وهو ان الذي اسماه بهذا الاسم هو شاعر من شعراء عرب النَعَم – رائد القوم، اول من رأى المياه في هذه الاعالي المستوحشة فخُيّل اليه النعيم، وكل شيء يلمع، ويتلألأ في النعيم، فنطق بالشعر وقال اللّألو :

اننا الآن في قاب الحي، بين خيام العرب، بل بين بيوت الشعر، وقد تخللها بضعة بيوت من الحجر. وان في الساحة طائفةً من اشجار الحور والجوز والصفصاف. وأُتناً في ظلالها واغناماً يرعاها الذباب، وولداناً في قمصان زرقاء يلعبون، واصواتاً تُسمع فتستهجن، اصواتاً عالية رفيعة، ولهجاتٍ مستنكرة لا بدوية هي ولا عاقورية او اهمجية.

فهل هي في التطور مثل اهل الحي ؟ وهل تؤثر بيوت الحجر بصوت المرء ولهجته ؟ هل الصوت العريض يرِق، والعالي يخفت، والاجش ينعم، بين الجدران وتحت السقوف المبطنة بالكلس والطين ؟ ام هل يخجل

البدوي من صوته العريض الاجش كلما وقع نظره على الحذاء الاصفر او الاسود اللماع في رجله ? فيحاول ان يلطِّف الصوت، فتفعل المحاولات فعلها الخبيث، فتفسده وهي آخذة به الى فردوس التمدن ? ويلي من هذا الاميركي الاديب البحاثة الذي سرت الي مكروباته الشبيهة في شكلها البكتيريولوجي بعلامة الاستفهام ? ...

عرب اللألوء من عرب النُعَيم، وهم فخذان بنو غشوم والدُوَيعو اما تاريخهم في هذه البقعة اللبنانية فهو مثل اسم المكان مجهول. من المحقق انهم كانوا هنا في عهد الامير بشير الكبير. ومن المرجح انهم أموا هذه الجبال، او نقلوا اليها، او أذنوا في استيطانها. في عهد الامير فخر الدين المعني.

وهم اليوم قليلون، وقلما ينقص عددهم وقلما يزيد. ان الكبار المعمرين في القرى المجاورة يذكرونهم ويقولون انهم كانوا نحو ثمانين بيتاً، اي نحو خمسمائة نفس، وانهم لا يزالون كذلك.

اما تطورهم فاحسن ما في مظاهره ان المتحضرين يرسلون اولادهم الى المدارس وادهش ما في مظاهره يختص بالمرأة – أم المدهشات – وستراه في حينه ومكانه.

المير بشير

حدثنا الشيخ اسكندر الخوري الاهمجي، الذي كان مديراً في هذه الناحية في العهد العثماني، قال :

« كانت هذه الاراضي في ايام الميربشير ملك الحكومة، او ملكاً اقطاعياً. فباعها المير من اهالي اهمج وتنورين والعاقورة، وهبهم اياها، لقاء خمسة وثلاثين غرشاً تدفعه كل ضيعة من هذه الضيع الثلاث سنوياً. كل هذه الاراضي من نبع الحديد الى حدود الحدث بمئاية غرش وخمسة غروش. البيع شرعي والصك مسجل ونسخة الصك عندنا »

والشيخ اسكندر يثبت اللألوء بالهمز . « اذا كان لا يثبتها التاريخ والعلم فيجب ان يثبتها الذوق . »

قال هذا وسارع الى ربة البيت يسلم عليها ،

كنا في الساحة امام الدار نحو خمسين ضيفاً فضيفا ، يدور كل على محور نفسه، ويأمل ان يتخطره، او ان يتسع محور غيره للامتزاج، فتتذوق الانفس ما يجود به التعاون والحديث.

وكان الجو صافياً شفافاً، والهواء جافاً ذا نفحة باردة وكان الحديث في اول الامر شبيهاً بالجو والهواء، لما لصق بنا من الروح المكوية بالنشاء. روح المدينة والمدنية، وحين يبدأ النشاء يذوب تبين الجوانب القاسية الحادة من النفس، فيرفع كل امرىء قناعه ولا تصدق البسمات واللهجات، الا بعد ساعة الغروب.

— « وهل في الجبل غير صوفر وعاليه ان للراحة او للصحة او لشم الهواء ؟ تكسرت اضلعي في هذه الطريق. وعندما خرجنا من السيارة

غشي انكسر كعب بوطي — جامه جامه ده لا في —

صاحبة هذا الكلام آنسة لبنانية المولد افرنسية اللسان . فكلمها توفيق الشرتوني بالعربية، وابراهيم حتي بالانكليزية وكسر عليها اسكندر حداد قضيباً من افرنسيته.

— « الاخطار، يا حضرة الآنسة، لذة الاسفار . »

— « كيكل دي ؟ ما فهمت. »

— « ولذة الحياة بالتنقل . »

— « الذين يتصون عصير البرتقال بقصبة افرنجية في صوفر وعاليه . يُظلَمون اذا دعوا الى مثل هذا المكان »

— « ولكن الحق على من يقبل الدعوة . »

رفعت الآنسة قبعتها الحمراء عن رأسها بحركة سريعة غضبى، ومرت باليد الأخرى على شعرها الاسود تردهُ بعنف الى الوراء، وهي تقول: «صحيح صحيح. ولكني سمعت من اخي وهي المرة الاولى والاخيرة .»

اخوها ضاحكاً : « كل مرة تقول هذا القول. ولكنها تعود الى البيت راضية مسرورة . »

بين نحن في هذه الورطة نحاول ان نجبر ما تكسر في تلك الآنسة المنكوبة من اضلعها وقلبها وكعب حذائها، اذا بشارل قرم مسرعاً الينا، وفي عينه شكاية وفي فمه اعتذار .

— « يجب ان اعود الآن الى المدينة »

دهشنا جميعا — صُعقنا .

— « الاميريكي ومدامته في ضيافتي . والسيدة تريد ان ترجع حالا، لانها تخاف الطريق، وتخاف العلو، وتخاف برد الليل، ولا تريد ان ترافق القمر، فيتحتم عليّ الرجوع معها. »

— « ولكن السيدة لا تريد ان ترافق القمر . انت قلت . »

– الله يخليك واجب علي ان ارجع معهما.

– « لا والله – ما هو بواجب عليك. »

وكان الغضب قد حل محل الدهشة، فكملت قائلاً: « اني اعلم منك بهؤلاء الاميركيين والاميركيات واعرف اللغة التي يفهمونها ويقدرونها حق التقدير. لقد جئت انت معنا وستعود معنا. حدث هذه الآنسة المجنونة بصوفر وعاليه وقل لها ان اللألوء لا يستحق غضبها، وانا اخلصك من الاميركي والاميركية دون ان اضر بسمعتك الرفيعة الغالية. »

وسارعت الى الاستاذ الاميركي:

« اننا هنا لعقد مؤتمر زراعي، يا سيدي. ومن الضرورة ان يشترك فيه الشاعر الذي جئت من اميركة باسم الشهرة تحمل اليه مشعلاً من النور، وحملاً من الزهور. فهو يشكرك، ونحن نشكرك، ونأسف اننا لا نستطيع ان نعود جميعاً معك الى المدينة. فاذا كانت زوجتك تمشي الطريق، والاماكن العالية والمظلمة، ولا تريد ان تبقى لساعة القمر، فالاحسن ان تعجل بالرجوع. وهذا السائق (كنت قد ناديت سائق سيارة قرم) هو امهر سائق في الجمهورية اللبنانية. اعصابه هادئة، وفكره مثل يديه يظل على الدولاب، وعيناه تخترقان الظلمات، وهو مع ذلك لا يتجاوز في المنعطفات والمنحدرات عشرة الاميال في سيره. هو تحت امرك. اوصل الاستاذ ومدامته الى نزلها ببيروت واذهب انت بعد ذلك الى بيتك. وسأعتذر عنكما لرب البيت، وابلغ الرفقاء سلامكما. »

وكان شارل قرم قد نسي الاميركية على ما يظهر في دفاعه عن أخته اللبنانية، فسمعته وانا عائد يوبخ الجماعة.

– « عيب عليكم. اتناقشون هذه الفتاة ولو كانت على غير حق؟ اتناقشونها بدل ان ترفقوا لها الكلام وتسلوها وتقولوا لها الحق معك، الحق معك. وتثنوا على ادبها وجمالها، ووطنيتها. فهل فضلت على هذا المكان

بلداً في الصين ؟. لا ما خرجت في تفضيلها عن لبنان. اما اذا كنتم ترغبون المناقشة فهذه السيدة... تناقشكم. وهي لا تكلمكم بغير العربية — مثلي الآن.»

وكانت السيدة ... قد انضمت الى الحلقة فانبرت للدفاع عن الدعشوقة الدعجاء العين.

— «الحق معها. وماذا في هذه الارض القفراء لمثلها. الصخور للبنات والشباب، بدل الموسيقى والرقص وشم النسيم! اين الحكمة واين العدل في معاملتهم معاملة الكبار الذين تعبوا من الدنيا؟ انا نفسي اكره الصخور ان في الجبال او في البيوت. الحق مع البنت ليس في لبنان مثل صوفر وعاليه، وحوالي صوفر وعاليه اماكن كثيرة للنزهة.»

ورأيت ابراهيم حتي الذي كان واقفاً الى جنب شارل قرم يشحذ سكينه فقال :

— «يا ست. ما زلت متيقنة ان ليس في لبنان للراحة وشم النسيم غير صوفر وعاليه فلماذا خاطرت براحتك العزيزة في مجيئك الى اللألؤ؟ يا ست...

اشفقت على السيدة من سكين ابرهيم. وكان لحسن الحظ قد عاد الينا الشيخ اسكندر الحوري، فاغتنمت الفرصة لانقذ السيدة والآنسة معاً وسألته سؤآلا عن الامير بشير.

الشيخ اسكندر: «كان المير بشير يرسل خيله لتربّع في اللألؤ، ثم يجي هو ليقضي شهرين من الصيف على مياهه. كان يحب اللألؤ. يا استاذ. وحيثما كان ينصب خيامه، كان ينصب كذلك المشنقة. ومكان المشنقة لا يزال معروفاً. عدل المير بشير.»

ابراهيم حتي: «وكان عدله يشمل النساء، ولا ريب. لولا ذلك لما كان ينصب المشنقة.»

شارل قرم: المرأة يا اخي ابراهيم هي الطاغية الكبرى

ابراهيم: احسنت احسنت.

شارل: ولكن الرجل هو المجرم الاكبر كل الشرائع الظالمة التي سببت الجرائم والحروب في العالم سنها الرجل.

الشيخ اسكندر: «هذا صحيح. والمرأة مسكينة. كان المير بشير يقول ...»

ما سمعنا ما كان يقوله الامير بشير لان اسكندر الحداد ارتطم في تلك الفينة بنا وهو يقول: السلام عليكم. جئت ادعوكم الى داخل البيت باسم «ادجوني وُوْكرَ.»

ما تمتاز به المأدبة اللبنانية

سأل احد الواقفين حول مائدة الشراب : «ومن هو أدجوني و وكر ؟»

فشرع اسكندر الحداد يقص قصة رجل كان دوماً يشكو الم المعدة، فاشار عليه احد الاطباء بالمشي، وآخر بالحمية، وقال له الثالث دونك والوسكي. وبما ان الرجل كان اكولا وكان يكره المشي – وقف اسكندر بغتة وهو ينظر الى الباب ثم قال مختصراً : « كان يدعى ذلك الرجل أدجوني و وكر » وراح يسلم على المطران بولس عقل.

رجل المال ورجل اللاهوت كلاهما يحتاج الى الآخر. فلا غنى لصاحب المال عن اللاهوت لتسديد حسابه في الآخرة، ولا غنى لصاحب اللاهوت عن المال يعمر به الحياة الدنيا

على ان المطران بولس عقل كما يقال، يختلف في هذا الامر عن سواه من اصحاب الارجوان، وقد يكون المبنّك اسكندر عالماً بذلك فلا يخشاه، ولا يرى بأساً بلاهوته.

والمطران بولس يمتاز ايضاً بمرونة طبعه الاجتماعي فلا يجم في مجلس انيس، ولا يتجهم الزجاجة والكاس. وان له فوق ذلك ذوقاً رفيعاً في الموسيقى والغناء.

فلا عجب اذا كان رب البيت واللآلؤ، اسعد يونس صديقاً حميماً للمطران بولس. فالمارونية وحدها لا تجمع بين رجلين اذا كان لا يجمع بينهما الذوق وكرم الاخلاق – والغنى. اما مضيفنا اسعد يونس فهو شيخ المهندسين في لبنان والثقة في علم الزراعة. في هذا الشرق العربي، وهو فوق ذلك صديق الادباء والفنانين، هو من اتباع ابراهيم الموصلي ومن المتشيعين للقصب

والناي، ومن القليلين في لبنان الذين يحسنون الاغاني البدوية.

وقد حمل اسعد الناي في الحرب العظمى – الناي لا البندقية – يوم كان طريداً شريداً في فلسطين. حمل الناي واصطنع لبس الدراويش، وراح سائحاً مغنياً اغاني البدو من مكان الى آخر، فاجتاز الحدود، وعاد الى ارض الجدود، بفضل الدروشة والانشاد.

وهو اليوم يستطيع ان ينقل قسماً من المدنية بكامل حسناته – وفيه الادب والشعر والفن والعلم والفضل والجاه والجمال الفتان – يستطيع ان ينقل هذه المجموعة الممتازة من لوح المدنية في المدينة الى هذا المكان الوعر الطريق، العالي القصي، المنبسط بين الجبال في صرودها، المشرف على الجبال في عروضها، المنعل فرس الشمس في النهار، الحامل خرج القمر في الليل – الى هذا المكان الذي يدعى اللّالو.

يجمعهم ويطعمهم. والطعام اقل ما يكون من كرم بيت لبناني أصيل.

لقد جلست الى موائد كبار القوم في البلاد الاوروبية والاميركية وعرفت من المآكل افخرها واندرها واطيبها، وقد آكلت كذلك الامراء والملوك في هذا الشرق العربي، وما شعرت بما اشعر به وانا على مائدة لبنانية.

وما السبب في ذلك ؟ لا تمتاز المائدة اللبنانية في الترتيب والاناقة، ولا في المآكل الفاخرة النادرة، ولا في مهارة الطباخين وكياسة الخدم وحذقهم ان فيها، ولا نكران، من نفضله نحن اللبنانيين على سواه من المآكل ولكن ذلك لا يحملني على التفضيل المطلق فارفع مائدة ابن جبلي على موائد كبار القوم في الغرب وموائد الامراء والملوك في هذه البلاد العربية.

فما الذي يحملني على التفضيل اذن ؟ ان كل شيء في الموائد الرسمية رسمي جامد بعيد عما يهز القلب منك. ان في الموائد الرسمية ما تعجب به وتلتذ به وتظل بعيداً عما كان من اسبابه، ومن العوامل في تحضيره.

وراء المآدب الرسمية يد عاملة وعلم وفن واتقان

ووراء المآدب اللبنانية – ولا يمكننا ان نقول انها رسمية او غير رسمية، ولا يمكننا ان نصفها بغير قولنا انها لبنانية – وراء هذه المآدب علم واتقان وقلوب!

ومن يحسن طبخ المآكل الاهلية مثل امهاتنا ومثل شقيقاتنا ومثل زوجاتنا؟ واية مأدبة لبنانية، وان تعدد الطباخون فيها والخدم، لا تشترك ربة البيت في تحضيرها؟ وكثيراً ما تكون هي العاملة الاولى تعاونها نسوة القرية، وتجيء البنات والشبان للخدمة حباً وكرامة.

اجل، ان في كل لون من الوان المأدبة اللبنانية شيئاً من قلب ربة البيت، ومن قلوب المعاونات والمعاونين لها.

ومما امتازت به مأدبة اللألوء اليونسية خطبة لشارل قرم باللغة العربية. شارل قرم اللبناني الذي ينظم الشعر بلغة راسين وموليار فتجلس له باريس، وتعجب به، وتكرمه وتكبره، لا يحسن لغة اجداده الاقربين – العرب – ولا يعرف ان يقول: احبك بلغة اجداده الابعدين – الفينيقيين – هذا فيما تقدم من زمانه – ولكنه في زماننا – بعد ان حظينا بمعرفته ونعمنا بحبه والفته، وامتنعنا عن محادثته بغير هذه اللغة الشريفة لغة الضاد صار يقول: انها دسيسة منكم ونعم الدسيسة. ما قالها بهذه العبارة الفصيحة ولكنه قالها وافهمنا اياها. وقد قال كذلك: «ستعلموني لغة ابي وامي وساكون ممنوناً لكم.»

وفي تلك الليلة باللألوء، على المائدة اليونسية وقف شاعر الشمس، الناظم قلادة درية لجيدها، وقف شاعر الجبل الملهم الملبس لبنان جلباب المجد والجلال، وقف شارل قرم يخطب بالعربية. فادهشنا جميعاً، وأثار فينا جميعاً الحب والحماس والاعجاب

أتسألني ماذا قال؟ وماذا يهم ما قال؟ لقد خطب باللغة العربية وكفى

وبين كان يخطب كانت الدبكة حامية في الساحة على نور مصباح، معلق، بغصن، من شجرة الجوز.

هي العروبة باجمعها، بضيافتها بفصاحتها بكرمها وبدبكتها وقصبها.

تعال نشاهد الدبكة، الحلقة — هي حلقة كبيرة عامرة — وقد وعدتك كلمة عن تطور المرأة العربية في اللألو، واليك بمثال التطور فهو خير من الكتابة. ان النسوة اللواتي ترى في الحلقة اللابسات الجوارب الحرير المحتذيات الاحذية الفرنجية العالية الكعاب، انهن من عرب اللألو.!

فقد ينسين كل ما ورثنه من قديم العادات والتقاليد، ولا ينسين الدبكة واهازيجها.

الآفاق

ليس من المستحيل ان تنشأ في اللألو نهضة زراعية حديثة، ينضم تحت لوائها اولئك العربان من عرب النعيم، فيشتركون هم واخوانهم اللبنانيون في الحراثة والزراعة. وليس بالعجيب ان يعود الى الفرس العربية في هذه الصرود سالف مجدها، فيقتني المزارع الخيل، ويربيها، ويستخدمها في جولاته في هذا القاع وما يجاوره من البقاع. فما كل عمل من اعمال الناس في الجبال يقتضي العجلة، وما كل عمل من الاعمال الاقتصادية والزراعية يهدر نفقات البنزين.

وليس بالعجيب ان يزداد عدد البيوت في هذا القاع وفي رباه، فيغدو مصيفاً لابناء الذوق السليم والفكر والحكمة، لا لابناء التمدن العربي الصوفري أضمُّ هذا الى الثابت من يقيني لاني ارى رائدَ اللَّألو اسعد يونس يهجر الحكومة لينصرف الى الزراعة في ارض اجداده، واسمع المزارعين من اهل اهمج وتنورين يقولون ان للَّألو مستقبلاً باهراً

وليس ذلك من اباطيل الأمل او بنات الخيال. فالعوامل متوفرة والاسباب متيسرة، الكامنة منها والظاهرة. فتعود الخيول العربية الى هذه الربوع، وتزداد فيها بيوت الاصطياف، فيجيئها مصطافاً مَن يبتغي الراحة والصحة لنفسه ولاهله، والعامل الذي يروم من الآفاق الجبلية سكينة لاعصابه ومهرباً من تكاليف الحياة، والاديب الذي ينشد آفاق الوحي الرحبة نهاراً وسماء الوحي القريبة ليلاً بقمرها ونجومها، ويكون لمن يريد من هؤلاء الحكماء ابناء البساطة والذوق السليم، ان يتنزه كل يوم على صهوة حصان عربي في هذه السهول، بين هذه الجبال، فيتمثل وهو

وحصانه يسبحان في العلاء، بقول المتنبي :

أعز مكان في الدُنى سرج سابح   وخير جليس في الانام كتاب

واذا كنت ممن ملوا الكتب والمطالعة، ولا يحسنون او لا يلذ لهم ركوب الخيل فهناك البندقية، وهناك الصيد. فان في اللألوء كثيراً من الفري والأبار والهدهد والحجل، وخصوصاً في ايام الحصاد. فالحجل مثلاً يجيء ليصطاد الجندب (القبوط) في الزرع فيجيء ابن تنورين او ابن اهمج فيصطاد الحجل.

واذا كنت لا تجد شيئاً من السلوى او السرور او الفائدة، في بندقية الصيد، او في كتاب او « صهوة سابح » فان ساعة من المشي قبل طلوع الشمس او ساعة عند الغروب او ساعتين كل يوم في نسيم الفجر العاطر، وسكون المغيب الساحر، تعيدان اليك كل ما فقدته من أمل بالحياة، او تزيدان، وتضاعفان كل ما عندك من الآمال، ومن العزم والقوة للعمل.

ان اعلى بقعة في اللألوء هي الرابية القائم عليها بيت اسعد يونس (١٨٥٣ متراً) وان دائرة المشاهد من هذا المكان مترامية الاطراف، رحبة الآفاق، كثيرة المحاسن العلية، والابعاد الجبلية.

ليكن اتجاهنا شرقاً بشمال. ان على سفح الجبل الاول شيئاً قاتماً كالسحاب مقيماً على الدوام هناك . هو ارز الحدث. ووراء ذلك الجبل ثلاث قُنَن، بعضها فوق بعض، تحجب الاخيرة منها غابة الارز الكبرى — ارز بشراي — وهو على ساعتين مشياً او ركوباً على الخيل من اللألوء. وان بيننا وبين الجبل الاقرب الينا، على مسافة كيلو مترين منا تحتجب بلدة تنورين، وبين جبل الحدث والقنة العليا في القنن الثلاث المذكورة، فرجة كبيرة تريك عندما يصفو الجو شيئاً من البحر، وقسما من طرابلس.

أمِلْ بوجهك الى الغرب الشمالي ترَ جداراً اغرش اسحم جداراً عالياً

طويلاً هائلاً، يبسط ظله في الاصيل عند اقدام تنورين وينشره في الصباح على ارز جاج وراءه، وعلى بيوت اهمج الى جانبه الغربي. هو جدار لحصن في السماء، هو سور لمدينة في عالم الاهوال. لونه كلون النسور او السباع وظهره كالمنشار. وهو في حده المسنن اشد وضوحاً وجلاء ومضاء بين فينتي الغروب والغسق. فهو ساعتئذ صمصام فاصل قاطع بين الارض والسماء.

وهناك على اعلى قنة من ذلك الجبل علم يُرى بالناظور نصبته ادارة المساحة الانتدابية. وهناك بين تلك الصخور، تحت ذلك العلم، جادة تصل اللالوء بارز جاج.

اذا كنت لا ترغب كثيرا بالمشي، اولا تقوى على المشي في الاوعار والتصعيد في الجبال، فاياك وذاك الطريق. قد يقول لك المعاز: الطريق سالكه، وليس بين اللالوء والارز اكثر من ساعتين للماشي وانا اقول لك: الطريق مهلكة، واذا خرجت من اللالوء صباحاً قد لا تصل الى ارز جاج قبل الغروب. هذا اذا وصلت في حالة لا تستوجب اعتناء ممرضة او طبيب.

لنستأنف الوصف لدائرة المشاهد العظمى. اننا لا نزال في الاتجاه الغربي الشمالي. فاذا مررت بنظرك على الجدار الخطير تقف في طرفه الغربي عند قنة كالهرم، هي قنة جبل حفرون، وفيها أثر لا يرى الا عند الدنو من الجبل في العودة الى اهمج. هو اثر قديم — فينيقي بشهادة اخينا شارل قوم

اما الجهة الشرقية من الدائرة فوراء جبالها درب سالكه كما يقول المعاز. هي درب الجرد بين العاقورة وضهر القضيب التي مر ذكرها في الرحلة الاولى ونحن عائدون من الارز

كلمة اخرى، وقبل ان نولي وجهنا شطر الافق الجنوبي، انك في اللالوء فاذا كنت تحب مراقبة طلوع البدر، تشاهد بدراً منقطع النظير في بهائه وكبره، وفي صفاء وجهه ووضوح هالته، وفي قربه من موطىء قدميك. فهو يطلع من وراء جبل قائم كالسور، دون انحدار والتواء، ويرسل اشعته

من رأس الجبل الى الساحة امام بيت يونس في خط مستقيم – الضلع الثالث من المثلث – لا يتجاوز الكيلومترين طولا.

كيلومتران اثنان بينك وبين القمر. وان الطيارة في هذه الايام لتأكل خمس كيلومترات من الجو ارتفاعاً وتقول: هات هات. فاين القمر منها؟ واين تكون من قمر اللالو. وهو يحيك لها، اذا طارت في سمائه، شباكاً من الاشعة التي تزداد طولا كلما دنت منها. ومع ذلك هي لا تتجاوز، من رأس الجبل الى موطىء قدميك، كيلو مترين اثنين. لا يجوز الامعان في الموضوع، فاتورط واورّط القارئ. في حقائق هي كالاوهام، واوهام هي كالحقائق.

لنعد اذن الى ما تبقى من دائرة المشاهد العظمى. ان اهم القرى جنوباً من اللألو. هي قرطبة والعاقورة ولاسه. ومن الجبال البادية كالسحاب على الافق البعيد جبل يدعى مشاع الفتوح، دونه قرى كسروان ميروبه وحراجل وفاريا. اما هذه القرى فهي لا ترى من اللألو. الا بعين الخيال اذا كان صاحبه عالمًا بما في احضان تلك الجبال.

والى جنب مشاع الفتوح جبل آخر اطول منه واعلى، تتلألأ فيه في الشمس المشرقة بُقع بيضاء هي الثلج في ثنياته وتخاريبه.

وهذه التخاريب والثنيات الحافظة للثلج صيف شتاء، على الدوام، هي في الطرف الشمالي من جبل صنين

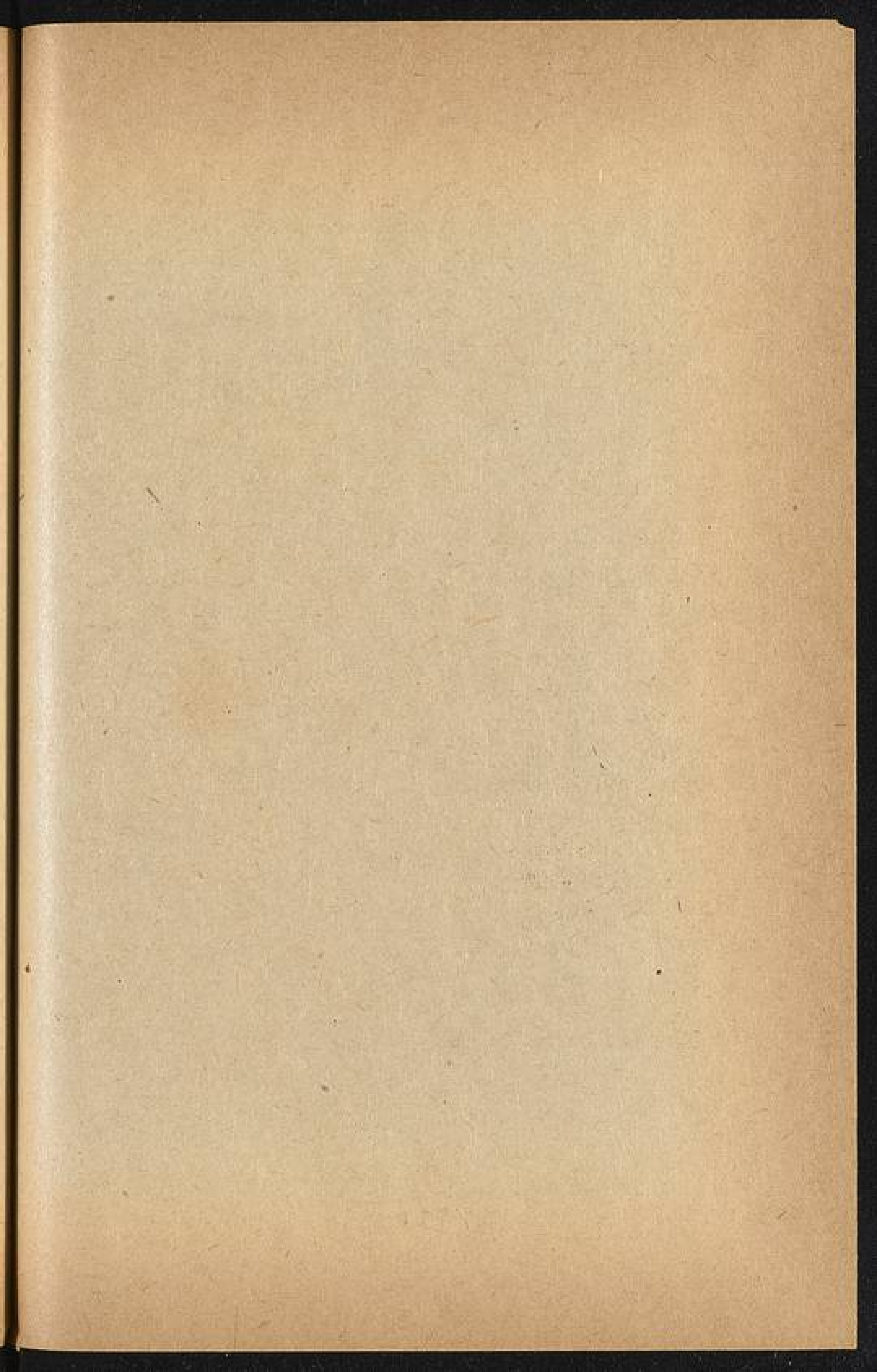
وجبل صنين اطال الله بعمرك يطل على وادي الفريكة.

الرحلة السادسة

افقـــا

•

محتويات الرحلة



غرائب الآثار

لكل نواحي الجبل حد غربي واحد هو البحر، وحد شرقي واحد هو الانجاد التي يشرف بعضها على سهل البقاع. اما الحدود الجنوبية والشمالية فهي على الاجمال الاودية التي تنحدر غرباً من الصرود، والانهر التي تجري فيها، فنهر الكلب مثلاً هو الحد الفاصل بين المتن وكسروان. ووادي الصليب في بعضه يفصل كسروان عن الفتوح. ونهر ابراهيم يجري بين جبال الفتوح جنوباً منه وبلاد جبيل شمالا.

وها نحن للمرة الرابعة في البلاد الجبلية نسلك الطريق التي سلكناها سابقاً الى طورزيا، فيصبح نهر ابراهيم وراء الجبل الجنوبي، وعلى قنته قرية بير الهيت، ويظل محتجباً حتى نصل الى المشنقة، القرية المعروفة بخرائبها القديمة.

لقد تقدم في الرحلة السابقة وصف الطريق وواديه من الساحل الى طورزيا، فاشملنا منها مصعدين، ثم شرّقنا الى اهمج فاللاّلو.

اما الان فإننا نستمر في الطريق من طورزيا شرقاً، فنشرف على وادي فرحدٌ الى اليمين، ونمر بثلاث قرى هي الحريق والصوانة وعلمات اكبر الثلاث. هي علمات المشهورة قديماً بتبغها، ذلك التبغ الذي كان يتغزل به الجد والعم والوالد، ويتاجرون وهم يتغزلون.

بلغنا المشنقة وهي على ستين كيلومتراً من بيروت، والف ومائتي متر علواً من البحر. بلغناها وما رأينا منها غير دكان على الطريق، وبعض المكارين يحمّلون بغالهم خشباً، قُطِع حطباً للوقود، والواحاً وروافد للبناء.

هي ذي صورة قديمة فينيقية حيَّة، بل هي صفحة من الماضي صادقة الحبر والمعنى. وهي ذي الجبال التي كانت تكسوها غابات الارز والشربين في ذلك الزمان. وهوذا الحطاب والتاجر يرافقهما المكارون...

إزرع ولا تقطع! لا اظن ان الفينيقيين كانوا من اصدقاء الشجرة، او انهم اسسوا جمعية، وسنوا شريعة من اجلها، لوجهها الكريم. كان الفينيقيون يقطعون، ويبيعون، ولا يبالون بما سيكون من مستقبل الغابات، غابات الصنوبر والارز والشربين.

وما ابصر من الملوك الفاتحين نتيجة اعمالهم غير ذلك الروماني الوثني أدريان، الذي عمل بنصف حكمة اصدقاء الشجرة في زماننا، فحَرَّم القطع، وما أمر بالغرس. ومع ذلك ما نعم لبنان بغاباته النعمة الكبرى، الشاملة الدائمة. فقد حرمته التجارة اياها، فعُرِّيَتِ الاودية والآكام والصرود من ثوبها السندسي، الا ما ابقى عليه منه الزمان، او ما نثرته الرياح من البذور الحية، فنمت افراداً وازواجاً بين الصخور، وجاءت جمعية اصدقاء الشجرة في هذه الايام تحاول اصلاح ما افسدته الاجيال الماضية، فتوفقت بعض التوفيق في محاولاتها، عملاً وارشاداً غرساً ودعاوة. ولكان فضلها اكبر وأعم لو آزرتها الحكومة مؤازرةً فعالةً صادقةَ التنفيذ. تنشر جمعية الشجرة أمرها في انحاء الجبل مكتوباً بخط عريض جميل: إزرعْ ولا تقطع! ويصدر مدير الزراعة قانونه: لا قطع الا باذن الحكومة. وبعد ذلك ماذا؟ عندما تعطي الحكومة الاذن ولا تشرف على تنفيذه الاشراف الفني الواجب فيتصرف الملاك به كما تشاء مطامعه التجارية او حاجته المادية الوقتية، فيفوز في طمعه او جهله على الحكومة والجمعية معاً.

تركنا الحطابين والمكارين في عملهم، يحمّلون الاخشاب المقطوعة من غابات الصنوبر والسنديان والشربين، في الجبال القائمة فوق ضفاف نهر ابراهيم، بين المشنقة وقرطبة، ومشينا وراء الرفيق الدليل الاستاذ يوسف الحويك، الغيور على آثار لبنان غيرة اصدقاء الشجرة على اشجاره، فنكبنا عن طريق العربات، وبعد بضع دقائق من السير في طريق قديم بين الصخور، وصلنا الى الاخربة المبعثرة على قمة الجبل.

هناك بقية سور مستطيل مربع كان يسوّر الهيكل والابنية اللاحقة به، وقد امست من الاطلال الدوارس، ولم يبق غير بعض القواعد لِعُمُد الهيكل، وقد قام الشوك عندها خطيبا.

اما الارض التي يضمها السور، فقد زُرعت صفوفاً معدودةً من التبغ، الذي كان يزرعه ابناء علمات بلا حساب في الماضي. وامسى زرعه اليوم مقيداً بقوانين شركة الاحتكار الاجنبية.

التبغ في ارض الهيكل الذي طالما انتشر منه قُتار المحرقات والبخور! اشعلْ غليونك، وافتح عيون خيالك. اي، بعل شمون، كم حُرق على مذبحك من القرابين؟ وكم من عباد الله جاءوك خاشعين ضارعين؟ كم من القلوب البشرية حملت اليك احمالها المكشوفة والمحجّبة؟ كم من القلوب التقية حطت رحالها في هيكلك، وعرضت بين يديك، وعند قدميك، كل ما احتوته من الحب والشوق، والخوف والورع، والامل والرجاء؟ وكأين من شهوة شارده، ونزوةٍ مطاردة، تجشمت مشقات الزيارة، لتظفر بالنعمة الكبرى — النعمةِ الفانية الكبرى — ساعةٍ قدسية تتلوها الساعة الاباحية، ساعةُ النشوة والمتعة والحلول الرباني ...

أشعلْ غليونك، وافتح عيون خيالك. إحرقْ من تبغ هذا الزمان على ذكر آدونيس فتى الفتيان، ادونيس المعبود الاعلى، آله الحب والالم والبعث والخلود. وهل هناك مَفَرٌّ وانعتاق؟ هل يخلو حب من الم؟ وهل ينجو

الألم من الموت ؟ وهل يحرم الموت النعمة الكبرى – البعث والخلود ؟ – ان في الطبيعة او في الحياة البشرية ، او في حياة الانسان الاجتماعية والوطنية ؟

فلو كان آدونيس متجسداً اليوم، ومقيماً في هذا الجبل اللبناني، لرأى الخنزير البري في اسواق المدينة، وفي دوائر الحكم، لا في الاودية والغابات، ولَصُرع في قتاله كما صُرع الرؤساء والزعماء في هذه الايام. على ان صرعة الآله لغير صرعة السياسيين، كهاناً كانوا او تجارا. ولا عجب. ان صرعةً فيها شجاعة الايمان والتضحية لَتثمر روح التضحية والايمان في اجيال من الناس. اما الصرعة التي فيها ارادة غاوية، ذات عين لاوية، يُقاد صاحبها بدعوة الى مأدبة، او برشوة ووسام، فماذا تثمر، يا رعاك الله.

أشعل غليونك وارسل دخانَهُ عمداً وحلقات في هذه الساحة التي ضجت حول مُخَدِّع هيكلها حلقات من الكهان ومن المتعبدين والمتعبدات، وكلهم يبكون ادونيس ويندبون – يبكون الشجاعة والبطولة والتضحية، وهي اليوم وَهُمُ جميعاً، ذكرٌ لنار استحالت دخاناً ورماداً، فانتشر الدخان في هذا الفضاء، ولصق الرماد بهذه الصخور فغدت غرشاء دكناء.

والى هذه الصخور كان يلجأ الانسان فيما يشتهيه من خلود الذكر، والسعادة الابدية. فركن اليها، وآمن بثباتها ووفائها – وفاء الجلاميد. احفر ايها الحفار، وصور معبودي ومعبودتي الى جنب ضريح الحبيب. احفر الرسم الخالد، والكلمة الخالدة. بورك فيك

واين من الضريح اليوم ذاك الحبيب، وذلك الحفار ؟ ليس في هذه النواويس الفاغرة افواهها – فقد كسر الفلاح اغطيتها لينحت منها العتبات لابواب بيته – ليس فيها عظم او شظيَّة عظم بشري. هي خالية خاوية، الا من عنكبوت بنت بيتها في احدى زوايا الناووس، او دودة ضلت في جوانبه الجافة العقيمة. هي النواويس الفاغرة افواهها للأيام والليالي. هي

الصخور البكماء وقد محت رسومها الامطار والاعاصير. هي الآثار البائدة وقد صفر فيها الزمان صفير العدم.

وقفنا في طريق قُرطبة القديم، بين صخرين، على مائة متر من السور، فاذا هناك النواويس الفارغة، والأُطر المنقوشة في الصخور، وقد امّحى ما كان ضمنها من «كلمة خالدة» و«رسم لا يزول» دلني صديقي الحويك على شيء شبيه بظل شخص واقف هناك، في احد تلك الأُطر، والى رسم دارس في إطار آخر، قال انه رسم امرأة جالسة تنوح. اهي عشتر تبكي ادونيس؟ هذا ما يقوله الأثريون الذين يقرأون الممحيَّ من الكتابات.

دع عنك الطلول الدوارس، والآثار الممحاة، وتعال نسرح النظر من رأس الرابية في المشاهد حولنا. هناك شمالاً إهمج وقد بدت سنديانات كنيستها كشامة في خد الجبل. وهناك غرباً طرزيًّا، على كتف وادي فَرحَد، وقد لمع زجاج مقهاها كالماس في نور شمس الضحى. وهذه شرقاً بشمال عقبة علمات، وفيها طريق ذو عشرة اكواع، علينا اجتيازه الى قُرطبة وهذا شرقاً بجنوب وادي نهر ادونيس، ودونه جبل موسى في حلته السندسية الوارفة، وقد تنوع اخضرارها، فأشرق في البساتين، واقتمّ في الغابات، وظهر خلاله بقاع قهباء. هي قرى شوّرن والعبري وفراد، كل في عزلة عن اختها، لاجادة بينها تُرى ولا سبيل.

ليس في كل ما شاهدت من مشارف لبنان مثل هذه القرى في وحدتها، ووحشتها، وشطِّ مزارها. وانك لتعجب بابنائها المتغلغلين في تلك الاحراج، المقيمين في الاغوار المقتمة، فتكاد تنكر انهم من سلالة آدم. وما هم من غيرها. ما هم من الجن، بل من الإنس الاكارين، يحرثون الارض، ويحتطبون، ويأكلون ويتناسلون. وقد نأوا عن العالم نأي النساك الاقدمين. بل حسبتهم، وانا اشاهد منازلهم القهباء، المسطحة المربعة، بين ذلك الاخضرار الهادىء، حسبتهم في منتأى الارواح. يستحيل الوصول

اليهم، ويُستحب الوصول، وتُستحب الاقامة. فما اجمل الاسترسال الى ربات النوى والنسيان في تلك السكينة المشرفة على النهر المقدس، نهر ادونيس. هو هو الجمال الذي تراه العين ولا تدركه المتعة الهدّامة. هو هو الجمال الذي يظل جمالاً ما زال قصياً عصياً.

عدنا الى طريقنا المعبّد نستأنف السير الى قرطبة. فصعدنا في الجبل الشرقي ونحن نجتاز اكواع الطريق العشرة، الواحد بعد الآخر، فتغير ُبعيد الأخير الافق، وانكشف امامنا مشهد جديد رائع، تلمع في قعره مياه النهر، وتبدو دون جبل موسى قنة سحياء جرداء للجبل الحاضن بين صخوره نبع الحديد. وهناك قنن اخرى، ترى من فرجة فيها طرفاً ناصع البياض. هو طرف من صنين الذي يبقى الثلج فيه حتى اواخر الصيف.

وهاك وادي ادونيس المنعم بوفر من الاخضرار والطيب. هاك قصيدة ادونيس السندسية العطرية الصوفية، وقد تنوعت اياتها شكلاً ولوناً وشذىً ومعنى. هوذا حرج من شجر البطم، وفيه عناقيد القرمز تداعب ذخائر البخور. وهوذا حرج من السنديان وفيه القوة والنشوء والخلود كامنة كلها في بلوطة من بلوطه. وهاك غابة من الشربين نسيب الارز، وشريك مجده وجلاله. وهاك ادغالاً وآجاماً تفوح بطيب الغار والصعتر والقصعين. وهناك في اطراف الوادي ومنعطفاته سرحات من الصنوبر تفرش فيئها الندي للخنشار والسوسن. وهاك اغرب ما في المعاني والاسرار، رحبةً حافلة بالجوز، وفيه الحب الذي هو للسمك كالخمر للانسان، يأخذه الصياد، فيلقيه في البحر فتسكر به الاسماك، فيصطادها وهي سكارى.

– اكلنا على ذكر الحبيب بنادق الجوز، فسكرنا بها، ووقعنا في شرك الانسان، هبلته أمه!

عروض من الوادي القدسي نجتازها، فنبلغ منعطفاً يخفيها ويخفيه. ثم

ينكشف امامنا مشهد آخر من مشاهد هذا الجبل الفتانة. هي الغابات تؤدي الى البساتين. هي الحقول تبشر بالمروج الذهبية. مروج وبساتين تجري فيها السواقي والعيون، فتمتد منها القني للري. بساتين ومروج تزينها بواسق الحور، ونواعس الصفصاف — هاهنا الجنائن والكروم — التين والعنب والثمار اليانعة. هاهنا التوت يجاهد جهاده الاخير، ويندب مواسم الحرير. هاهنا الحقول المزروعة تزدهي بشتى البقول للمطبخ والمائدة. هاهنا قُرطُبة محية تلك الاندلسية العظمى، قُرطُبة العرب. وهي على مسافة اثنين وسبعين كيلومتراً من بيروت، وعلى علو الف ومائتين وستين متراً من البحر. للاب اغوسطين السخن مؤرخ قرطبة وشاعرها اجتهاد في تفسير اسم بلده، لا يتجاوز السريانية. وعندي ان اكثر اسماء قرى الجبل القديمة يمكن حلها وشرحها وردها الى اللغة السريانية والعربية شقيقة الفينيقية وابنة عم العبرية وسنمثل لك الخطأ في كثير من هذه الاجتهادات السريانية في فصل آخر. ان شاء الله أمّا الآن فاننا نعارض اجتهاد الاب السخن باجتهاد آخر — وللقارىء ان يختار منه ما يحلو لنفسه.

ليست قرطبة لفظة عربية ولا سريانية انما هي اسبانية تكتب هكذا (Cordova) فعربها عرب الاندلس كما عربوا غيرها من اسماء البلدان فقالوا اشبيلية وغرناطة كما قالوا قرطبة.

وبعد سقوط الاندلس وجلاء العرب عنها في اواخر القرن الخامس عشر عاد منهم في منتصف القرن التالي المنحدرون من العرب الفاتحين عرب الشام الى بلاد اجدادهم وفي القلب شيء من الحنين وعندي ان بعض هؤلاء العائدين من قرطبة الى حمص او حماة دخلوا لبنان في الطريق الاقصر والاشهر، اي طريق بعلبك العاقورة، ومنها تقدموا غرباً فرأوا في جوار العاقورة ارضاً خضراء حافلة بالغابات والمياه تشرف الى وادٍ رهيب جميل ذكرتهم ببلاد الاندلس. بل بقرطبة البلد المهجور فحطوا الرحال ها هنا،

وبنوا البيوت وغرسوا الاشجار والازهار واسموا المكان قُرطُبة. والدليل على صحة هذا الاجتهاد ما في قرطبة اليوم من الاسر العربية الاصل . بشهادة مؤرخها وشاعرها الراهب اللبناني اغوسطين السخن .

والسخنيون انفسهم من اقحاح العرب ، يمتون بالنسب الى قيس التنوخي، فكعب اليماني، فصيفي بن سبا . هم من صميم قحطان. وقد قال شاعرهم في رثاء احد كبارهم :

في سهل تدمر او سبا وتهامة   لجدوده عبق زكيٌ طيبُ

حَيّى الله بني سُخنَة والأُسر العربية الأُخرى في قرطبة — وغفر الله ذنوب شاعرهم الشعرية — ونفع لبنان بهم جميعاً .

وقفنا في سوق البلدة للتحية ، فشربنا القهوة في احد مقاهيها ، واستأنفنا السير الى العاقورة . ان بين البلدتين بضعة عشر كيلومتراً، واخربة في منتصف الطريق الى جنبه تدعى دير الازرق . وما ادراك ما دير الازرق . ليس للاسم العربي صلة ظاهرة بما هناك اليوم من بقايا سور قديم، وجدران هيكل كان كنيسة بيزنطية، بعد ان كان معبداً رومانياً بعد ان كان هيكلا اغريقيا، بعد ان كان مذبحاً لآلهة من آلهة الفينيقيين .

مذابح الآلهة — هياكل الآلهة — خرائب الآلهة ! بين هذه الحجارة المبعثرة، والعمد المحطمة، والجدران المتهدمة، وعند هذه الابواب الفاغرة فاها لفراغين، امامها ووراءها، يهمس الزمان كلمته الخالده : لا شيء مما بناه الانسان يدوم .

لا شيء بين هذه الاخربة اليوم، وأمام هذه الابواب ووراءها، غير ما علاها من العليق، وما ظللها من السنديان. ظللها، وارسل جذوره بين حجارتها لتكمل الهدم . جذوراً هي كالثعابين المتحجرة تحت اسكفة الباب، وحجارة تلصق بالجذور كانها تستجدي الحياة فيها، او تلوذ بها من وحشة الاطلال، ومن الاضمحلال .

كل بيت للهدم ما بنته الورقا. والسيد الرفيع العماد

انها بقيناً لخرائب موحشة مفجعة . علق أثرها بالنفس حتى دنونا من العاقورة، فاستقبلنا هناك البيادر ، الرائعة في فيض من الشمس ، والفلاحون على البيادر، يسوقون البقر في دوائر مباركة، والقمح تحت النوارج ينطلق من قيوده الذهبية، من سنابله.

هي الحياة المقرونة بالعمل . هو العمل المكلل بالحرية .

الحياة — العمل — الحرية — هو ذا مظهر من مظاهر القداسة الحقيقية الخالدة.

العاقورة

قلت في فصل سابق ان اكثر الأُسَر اللبنانية القاطنة في اواسط لبنان نزحت من بلاد جبيل. فينبغي ان اضيف الى ذلك ان في صرود جبيل بلدة عريقة في القِدَم، وكثيرة الشعوب والهجر، هي العاقورة. وان صح قول بعض العلماء والاثريين ان الانسان في هذه الديار توطن الجبال العالية قبل السواحل والسهول، فيجب ان تنقل مهد الشعوب اللبنانية من مدينة جبيل الى سفح جبلَي القرن والمنيطرة، الى ما بين هذه الصخور العاقورية والعيون المنبجسة منها.

ولكن البحث عن المهود، بشريةً كانت او حيوانيةً اونباتية، يؤدي بنا الى غياهب الحياة الاولى على هذه البسيطة، فيزيدنا بلبالاً، وقلما يفيد. إن في الامر حقيقةً بارزة، هي الغموض. فاذا استطاع العلماء ان يحددوا المكان والزمان لمسقط رأس الجُندب الاول مثلاً، او لمنبت الارزة الاولى، فقد يستطيعون ان يكتشفوا مهد شعبٍ من شعوب الارض.

حسبنا الان التاريخ الذي بين يدينا للاديب المحترم الخوري لويس هاشم، فأن في فصوله الاولى اشياء من العلم المفيد، التاريخي والاثري، وفي فصوله الاخرى بحراً من علم الانساب اللبنانية المفيد لاصحابها، المدهش لغيرهم من اللبنانيين. واول ما يدهش من هذا العلم تعدد الأُسر التي هجرت الى العاقوره قديماً، ونزحت بعدئذ منها، ما عدا التي لا تزال مقيمة فيها. فبعد ان قرأت الفصول الاولى، وتصفحت خمس المئة صفحة التي تليها، وصلت الى الفهورست، وفيه من اسماء الأسر اللبنانية العاقورية الاصل ما يسر الخواطر، ويبهج القلوب، في كل زاوية من زوايا لبنان، جنوباً وشمالاً، ساحلاً وجبلاً.

ان في الفهورست اسماء مائتين وخمسين عائلة. فهل في جبال لبنان ما يُذكر مما فوق المائتين والخمسين ؟ يظهر، يارعاك الله، اننا جميعاً من العاقورة، بشهادة المؤرخ المحترم الخوري لويس الهاشم. جميعاً، اقول، إلا أهل بجه ومعاد. فما جاء في ذلك الفهورست اسم البَجانيين. على ان هناك فروعهم بالزواج. خذني انا مثلا. فاني بجاني من ابي، هاشمي غصوبي « عاقوري » من جدتي لابي، وأَشْقري « عاقوري » من جدتي لأُمي.

ان اكثر الأُسر العاقورية او اهمها متحدرة من العرب. فالهاشميون من سلالة احد الصحابة هاشم بن عتبه، الذي تشيع بعدئذٍ لعلي بن ابي طالب، واقام في بلاد العجم. ثم نزح من ابنائه الى لبنان، فتنصروا – لخير ارواحهم – وكان كبيرهم الشيخ هاشم اول من قطن في العاقورة. واسرة نور الدين نزحت من دمشق الى بعلبك، ثم الى العاقورة، فتعددت فروعها، وبرز فيها فرع ايلياس المعروف اليوم بفرع جرمانوس. وهناك بنو كرَيدي وبنو حرب، وغيرهم كثيرون، النازحون من حوران وما دونها جنوباً.

على انك في هذه الأُسر العاقورية، تجد تناقضاً صريحاً قبيحاً في الكثير من اسماء ابنائها. فالعربية والعجمية والرومانية والسريانية تتبارى فيها، وهي تتعانق وترضخ للنير الواحد المتعدد الالوان.

خذ الامثلة من صقر بن قانصوه، وقانصوه بن قسطنطين وزوجته مسيحية. وما قولك بجناً بن ابي الغيث نسيب العربي الكامل عماد ابي الغيث ؟ اما يوسف عرب فلا بأس به، واما غريغاريوس عرب فانه لافظع من رستم بن ساسين، وادريس بن ارسانيوس. وما قولك، دام ذوقك الرفيع، بخازكيَّه – زهرة من شيراز بين النساء – وولديها جرمانوس ورومانوس ؟! وهلا ترى الكفر في الشدياق سركيس نور الدين، والبطريرك جرجس عَميره ؟

ليت شعري ما السبب في كثرة هذه الاسماء – جرمانوس رومانوس

ابريانوس فنيانوس – في هذه الناحية من لبنان وقلتها او عدمها في النواحي الأخرى ؟ أَلِأَن الدين يتغلب على الجنسية فيقتل الاسم العربي باسم سرياني او آرامي او بيزنطي ؟ وصاحب الاسم المقتول لا يبالي.

لقد كان العواقرة في عهد الفينيقيين اكثر الناس تعبداً للبعل والبعلة، واشدهم تمسكاً باهداب هياكلها، حتى في عهدَي اليونان والرومان. كما انهم اليوم من اشد الموارنة تحمساً لمار مارون، والكهانه ورهابينه. وكأين من آله ومن معبدٍ وهيكل، وكأين من عقيدة او خرافة دينية، تخللت حياة العواقرة في سالف الازمان، من عشتر الى العذراء مريم، ومن بعل شمون الى القديس مارون!

يقول مؤرخهم المحترم ان العاقوره «مشتل طوائف» ولكنه لم يبق في المشتل – او في الحرج – غير طائفة واحدة والحمد لله. ومن المعقول ألاّ تشذ هذه الطائفة الواحدة عن الطوائف الاخرى البائدة التي تقدمتها، فتحل محلها الطائفة الوطنية اللبنانية العربية، وتكون، بفضل العواقرة الجبابرة، في مقدمة الحاملين لواء العروبة.

اقول «الجبابرة» ولا اجاري مؤرخ العاقورة وشاعرها. ولكني استنكر قول الاول في وصفها: «مأوى الجبابرة، ومعقل الابطال»، واستهجن البيت:

هي للجبابرة الاولى اعتصموا بها من كل طاغيةٍ وكل هوانِ

ولماذا الاستنكار والاستهجان؟ ان في هذا المديح، نثراً وشعراً، شيئاً من قبيح التناقض. فالمعتصم غير البطل المستبسل. لا بد للمعتصم من ان يكون قد فرَّ من شرٍ او مكروه – فرَّ هاربا. فهل يُحسب الهارب، ايها الشاعر، جبارا؟ وهل تُعد المعاقل، ايها المؤرخ، للابطال؟ ان المعقل الاوحد للبطل انما هو قلبه وحسامه.

اما ان يكون ابناء العاقورة من الابطال الجبابرة، فذلك لا يستغرب.

ان للبيئة الطبيعية، كما للبيئة الاجتماعية، مفعولها في نشوء الانسان وتكوّن طبائعه. والبيئة الطبيعية في هذه الاعالي الجبلية (١٤٥٠ الى ٢٣٠٠ متر فوق البحر) تضخِم العظم، وتحمِي الدم، وتشد العصب في ابنائها.

الك ان تسأل : وهل تتفرد العاقوره بهذه البيئة، وانتاجها البشري ؟ فأجيب على سؤآلك بما فيه الايضاح كله. ان في لبنان غير العاقوره من البيئات الطبيعية العالية، ذات العوامل المذكورة للدم والعصب والعظام، كزحلة مثلاً وبشراي واهدن. وليس فيها ما في العاقورة وجوارها من العوامل الطبيعية الهدامة، التي تربي فيمن يقيمون بين اخطارها الكامنة والظاهرة قوى خاصة للدفاع عن النفس والحمى، فتولّد فيهم الشدة والشجاعة والجلادة والاستبسال، اي العناصر المادية للبطولة. اما عناصرها الروحية والمعنوية، فقد تنشأ وقد لا تنشأ عنها، ان لها حالات وشروطاً خاصة بها، لا نظنها تتم في ابناء البيئة التي هي الآن موضوع بحثنا.

فقد نبغ في العاقوره مئات من رجال الدين في سائر الازمنة، الوثنية والمسيحية [1]. وفيها من الكنائس، ومن بقايا الهياكل، عدد كبير، وما استشهد من ابنائها احد، على ما نعلم، وليس بين قديسيها قديس واحد وطني عاقوري.

اما في التمرد على الحكام، وفي الدفاع عن حقوق مهضومة او مزعومة، وفي الحروب الاهلية، او ما يسمونه عندهم «هوشات» فانهم في مقدمة اللبنانيين. لقد ذكر المؤرخ عشرين حادثاً، ذهب فيها عشرون قتيلاً، في عشرين سنة (١٩٠٥ — ١٩٢٦). اي قتيل كل عام. وقد استكثر العدد واعتذر، قال ان اكثر اسباب هذه العداوات والإحن تنشأ عن المشاعات العمومية.

وما كانت الحكومة في عهد من عهودها لتحسم خلافاً قام بين من

(١) «فقد اقام فيها بعد الملك الظاهر الى سنة ١٦٤٩ (اي خلال ٣٥٠ سنة) واحد وعشرون مطراناً». تاريخ العاقورة

ادّعوا « وصل ليلى »، او تحدد ارضاً مشاعةً بينهم.

بيد ان الصائل الاكبر على هذه الارض، وعلى العاقوره والعواقره اجمالاً، انما هو جبل العاقوره بنفسه. ذلك الجبل القائم شمالاً وشرقاً، الممتد جنوباً، المؤلف من قلاع وحصون صخرية، يتخللها منحدرات طرية التربة، لا تحول الحصون والقلاع دون انهيارها في فصل الربيع كل بضع سنوات او بضع عشرة سنةٍ مرةً. وفي فصل الشتاء تنهار الثلوج انهيارها المهلك الهدام. وفي اوقات لا تُعرف ساعتها تزور الزلازل العاقورة لتكمل عمل الاعاصير والثلوج

هي ذي العناصر الهدامة المهلكة في البيئة الطبيعية التي اسلفت ذكرها. وهي ذي اسباب البطولة في العواقرة، فالنكبات التي تدهم اهل البلد الواحد، فيشتركون في احتمالها، وفي التغلب على اهوالها، تولد فيهم من القوة والعزم والشجاعة ما يكمن منها في اصلابهم، ويظهر في نسلهم، فينشأون بُسلاء اشداء.

خسفات وزحفات وزلازل كل عشر او بضع عشرةٍ من السنين، والعواقرة مقيمون منذ القدم في ظلالها، وبين يديها القابضة على الصواعق والنار والصخور والدُواخ، فلا يتزحزحون، ولا يبالون. فلو لم يكونوا ابطالاً لما كانت اليوم العاقورة ولما كان اهلها.

لقد شاهدنا اثر الزحفة الاخيرة (١٩٣٧) وقرأنا في تاريخ العاقورة اخبار الزحفات والخسفات الحديثة التي تقدمتها (١٩٠٣ — ١٩١١ افقا — ١٩٢٩) فما وجدنا في الصفحة المكتوبة غير ما سمعنا من افواه الناس، ولا غير ما رأينا في صفحة الوجود. فان ادوات الحرب الحديثة — الدبابات المجهزة بالمدافع الرشاشة، والطيارات المسلحة بالقنابل، تقصر دون اهوال الاعاصير والانقلابات الارضية.

هناك في الجبل الشرقي الشمالي منحدر ترابي حصوي، منه مملوك، ومنه مشاع، وكله مشوشب او مزروع، تكسوه حلة زمردية من رأسه

الى أسفله عند ضفة النهر. وفي هذا الجبل المنحدر انحداراً حاداً بيوت للفلاحين، ودكات بنى جدرانها اصحاب الاملاك صوناً للتربه، ولِما غُرس او زُرع فيها. هذا الجبل القائم بين حصنين من الصخور، الى الشمال والى الجنوب، هو في الربيع بهجة للعيون خصوصاً اذا شوهد من مدخل العاقورة الجنوبي الغربي.

اما اليوم (١٩٣٨) فانك لترى فيه بقعةً كبيرة، وسعها نحو اربعين متراً، وطولها من القمة الى السفح عند ضفة نهر الرُوَيس، نحو ثلاثمائة متر، هي سمراء حمراء، لا نبتة، ولا دكة ولا اثر لبناء فيها. بقعة منخفضة جرداء بين شِقَّي الجبل الاخضر الى جنبيها. هذي هي زحلة او زحفة السنة الماضية. وهي اصغر مما تقدمها واقل ضرراً.

ان الزحفات والخسفات اسباباً اربعة هي (١) غزارة الامطار و(٢) تراكم الردم من تراب وحجارة وغيرها على سطح الارض و(٣) التحول في طبيعة التربة الداخلية و(٤) انهيار الارض عند ضفة الانهار من فيضانها فيزحف ما فوقها. وقد تجتمع الاسباب الاربعة في الزحفة او الخسفة الواحدة.

اما الخسفة فهي تحدث في الارض المنبسطة اذ تسوخ طبقة من التراب في بطنها، لسبب من الاسباب التي مَرَّ ذكرها، فتتقلص، او تهبط، فيهبط ما فوقها من ارض، وما عليها من شجر او بناء.

واما الزحفة او الزحلة فهي ما ينهار من اعالي الارض المنحدرة الى الى اسفلها. فتبدأ في اماكن مختلفة، وقلما تستقيم في خطوطها الاولية. فيستمر التشقق ويمتد، وينعكف وينحدر، في ايام الزحلة التي تدوم شهراً او شهرين. فتغور منها عيون، وتنبجس عيون، وتردَم السواقي، وتَسد الطرق، وتفيض الانهار، وتحتقن فتتغير مجاريها، ومتى قرنت الامطار بالثلوج تزداد الشدة على الاهلين ويزداد الخراب.

٥ — وكان الجليد شديداً (زحفة سنة ١٩٢٩) فكنت ترى مناظر

مدهشة. كان الثلج يرتفع كالآكام، وكالصخور العظيمة. وفي اعالي الفراديس كان يشبه الخيام والمغاور والكهوف ... وكان الانخساف يشتد يوماً فيوماً، فكانت الانهر تقذف الصخور بدويّ كالرعد. فالنهر الكبير اختلط بالنهر الصغير ... ثم تحول الصغير عن مجراه، واختلط بالكبير عند عريض ابي مرعب، فتكوّنَ بحيرات وبعد ايام انشقت البحيرات وغار ماؤها واضمحلت. وتغير شكل الارض »[1]

فغدت الأودية آكاماً، والآكام وهادا. واصبح السهل مضيقاً، والمضيق بركاً من الماء. طمى نهر الدباغة على اراضي البياضة، فاتلف الاشجار – الدلب والصفصاف والحور – وذهب بكروم العنب وبساتين التوت – « وكان نبع مسعود غزيراً قرب حرف الابيض فاختفى، واضمحلت الطواحين، وبانت اشجار ارز مذهلة في استقامتها وطولها وثخنها ورائحتها الزكية ... واشجار ضخمة ثقيلة جداً، غريبة الجنس، شبيهة بالابنوس »[2]

سألنا فلاحاً على البيادر ان يصف لنا زحلة السنة الماضية فقال: « كانت الارض تتشقق، وتزحل، وتغلي بالوحل. وكان يتصاعد من الوحل دخان له رائحة مثل الكبريت. »

ولا غرو، وفي ارض العاقورة، فوق ما ذكرت، معادن وعيون كبريتية ومتفجرات!

وفي بعض الاحايين يتبع سنة الزحفة شتاء قليل الهد والامطار والثلوج فيجيء الجراد، في الربيع الذي يليه، من ناحية بعلبك الى العاقورة وضواحيها، فيختم الزحفة الارضية بزحفة على المزروعات.

زحفات وخسفات! والعاقوري مقيم في ارضها، مهيمن على اسباب الحياة فيها، فينسى ما كان من نكبة أمس، ويستقبل بقلب صلب هادىء نكبة الغد، ولا يتزحزح، ولا يبالي. انه حقاً لبطل جبار.

---

(١) و(٢) تاريخ العاقورة: صفحات ١٤٨–١٥١

ما اشتهرت العاقورة بالخسفات و « الهوشات » فقط، بل بها وجد العلماء والأثريون فيها، وفي ضواحيها، من الآثار القديمة ايضاً، آثار الهياكل والمعابد، والقلاع والحصون، لسائر العهود السالفة، من الفينيقية والاشورية الى البيزنطية والصليبية .

فقد مر بالعاقورة الفاتحون من بابل واشور، وزار العاقورة غير واحد من عواهل الرومان، ويمم العاقورة للدرس والتنقيب طائفة من العلماء، اشهرهم الرحالة السويسري جوهان بركهارت والعلامة الفرنسي ارنست رنان. فعثروا على كثير من الآثار والكتابات والنواويس، في البلدة وفي ضواحيها، واخصها الطريق الشرقي الاقدم.

ذلك الطريق من جبيل الى العاقورة، ومنها الى بحيرة اليمونة فبعلبك، هو طريق الفاتحين من بابل واشور الى السواحل الفينيقية، كما انه طريق القوافل التجارية من جبيل الى بلاد الكلدان، ومنها الى خليج فارس فالهند

ذلك الطريق هو طريق الرومان العسكري من جبيل الى بعلبك فتدمر، كما انه الطريق الذي طالما ضج بالاحمال الثقيلة، منها الحجارة الضخمة والعمد السامقة المصرية لبناء هيكل الشمس.

يقول رنان ان هذا الطريق هو اقدم طرق الدنيا، لما في جانبيه من الكتابات الهيروغليفية والفينيقية والمسمارية واليونانية واللاتينية.

هي كلمة كبيرة — اقدم طرق الدنيا — لعالم من كبار العلماء المحققين المدققين . فقد يكون اختط هذا الطريق غير الاشوريين، وغير الفينيقيين. قد يكون فاتح هذا الطريق الانسان الاول، وهو يصعد في هذه الصرود،

حاملاً دبوسه الظرّاني للصيد. وما يدريك انه من الطريق السابقة للعهود الظرّانية كلها.

اقدم طريق في الدنيا! اني اقف على قارعته، امام عالمه الفرنسي الشهير، مؤمناً خاشعاً. ولكني ارى في الجوار هناك، جنوباً من هذا الطريق، شكلاً من الجبال الرواسي، واشكالاً من الصخور الشامخة، لها من السحر ما ليس لربة بابل، ولها من القدم ما ليس لاقدم العهود البشرية.

اجل ان هناك انصاباً طبيعية تحقر عندها انصاب الانسان والامم. ان هناك رواسي هي في شكلها كالأهرام، وقد شهدت في قدمها كل طرق الحياة الحيوانية الانسانية، من الهلامية، الى الفقرية، الى ذوات الثدي، الى ذلك الواقف على رجليه، الى غير الفاتحين من الملوك، الى الحامل بين كتفيه رأس أمير من امراء العلم، وقد احتوى القوة الفكرية التي تستطيع ان تزن الجبال، بل تزن الارض، وتقيس المسافات النُورِيّة بين الافلاك والنجوم.

هذه الجبال، جبال العاقورة، التي قال فيها رِنان انها اجمل من جبال الألب، تستوقفك اياً كنت، فلاحاً او عالماً او قائداً للجنود. وتستهويك، وتجنح الفكر فيك، ان كنت من الادباء الذين يحسنون مزج العلم والشعر مزجاً فنياً.

عندئذ تنتقل من القديم في تاريخ الانسان الى القديم في تاريخ الكون. وهذه الرواسي العجيبة الاشكال اعرق الارضين قدماً، واروعها شكلاً وخبراً.

فاذا قال العالم الأثري في طريق قديم انه اقدم الطرق في الدنيا، وانه يتجاوز تاريخ الانسان الى عهده السابق للعهد الظرّاني، فلا يبلغ عمره، وهو كذلك، عشرين الف سنة.

اما اذا قلنا ان هذا الهرم المدرّج عند مدخل العاقورة هو اقدم ما قام

من الاطواد في لبنان، فكم يبلغ عمره يا ترى ؟ اننا هاهنا لفي عالم القياس الذي يشبه عالم الخيال ويختلط به.

فما عمر هذا الهرم – هذا الجبل – هذه الارض – هذا الكون ما عمره وما منشاؤه ؟

كلما تقدم العلم، وتوفرت لدى العلماء اسباب البحث والتحقيق، دنونا من عالم الشعر والخيال، فيبدو الكون قصيدة الهية، مطلعها السُدُم، وبيتها الأخير – اليوم – هو هذا الكاتب الواقف خاشعاً امامها، الناطق بحرف واحد من احرف كلمة البيت الاولى.

كان العلماء يقولون ان عمر الكون هو نحو مائة وخمسين مليون سنة. وهم اليوم يقولون، بناء على الاكتشافات الفلكية بواسطة اكبر مرقب في العالم (مرقب مرصد ولسن في الولايات المتحدة) ان عمر الشمس، وكذلك عمر الكون الذي هي احدى شموسه، هو اكثر من خمسمئة مليون سنة.

ونحن لا نعرف من تاريخ الانسان، منذ بدأ ينقش كلمته الاولى على الصخور، اكثر من سبعة آلاف سنة . . .

وان لهذه الصخور نفسها تاريخاً قديماً، يبدو تاريخ الانسان بالنسبة اليه، كحبة الخردل بالنسبة الى هذا الجبل. وذلك بالحساب الذي امسى قديماً مهملاً اجل، ان للصخور مراحل فيما كان من سُوَاخها الحامي، وتبخرها وتكتلها، وخلوها من أثر الحياة، وفيما كان من معاصرتها للاحياء الهلامية، كما ان لها مراحل في برودتها وتجمدها، وفي احتوائها على الحيوانات البحرية المتحجرة. وان لكل مرحلة من مراحلها عدداً من السنين يصدم الفكر البشري في تبخره صدمة عنيفة مدوّخة.

فقد كنا امس نقول ونعدّ[1] على هذا المنوال: من العهد السُواخي

(1) راجع اللائحة والفصل المعنون بسجل الصخور في تاريخ العالم لـ ه. ج. ولس. صفحة ١١ . اما الرقمان في كل مرحلة فهما يجمعان بين ما اختلف فيه من التقدير العلمي.

الحامي الى عهد الاحياء الهلامية اربعة واربعون او اربعمائة واربعون مليوناً من السنين. ومن الهلاميات الى العقارب البحرية اربعة وعشرون مليون سنة او مائتان واربعون مليوناً من السنين. ومن العقارب البحرية الى الحيوان البحري الهري الاول اثنا عشر مليون سنة او مائة وعشرون مليوناً من السنين. الى آخر اللائحة اي الى عهد الثديّيات والكلاء والغابات، فيظل بيننا وبين ذات الثدي الاولى عشرة ملايين او مائة مليون من السنين.

كنا امس نقول هذا القول ونردد هذه الارقام، فصرنا اليوم نقول: على المستر ولس ان يصحح لائحته. كيف لا، وقد بان لعلماء الفلك من اكتشافاتهم الحديثة للسُدم أن عمر الشمس وكذلك الكون التي هي احدى شموسه، يتجاوز الف مليون سنة.

«واذا حُلّت الصخور المحتوية على مواد مشعة عرف العلماء المدة التي انقضت منذ تجمدت تلك الصخور. وقد تبينوا ان اقدم الصخور التي درست على هذه الطريقة يرتد تاريخ تجمدها الى ١٧٥٠ مليون سنة!»[1]

اقدم طريق في الدنيا، اين هو؟ دليني عليه، ايتها الجبال المتحدرة من الازل، المتجلببة بالخلود. انت التي شاهدت الحوت الاول يخرج من الماء ليستنشق الهواء، ويصطلي بنور الشمس، انت التي رأيت التمساح الاول يتفيأ النخيل على هذه السواحل الشرقية، انت التي سمعت الجُندب الاول ينشد نشيده الوحيد في ليالي الصيف، الفارغة من كل حي مغرّدٍ سواه. انت التي شاهدت الكركدن الاول يشق طريقه في الغابات تحت قدميك، افلا تدلينني على اقدم طريق في الدنيا؟

ايتها الجبال التي وقف الماضي في كل ادواره أمامها، فاستعرضت

---

(١) المقتطف: الجزء الثالث من المجلد الثالث والتسعين صفحة ٢٦٧

حيواناته وشعوبه وجنوده وملوكه ولياليه، وسمعت عواء ثعالبه، وزئير سباعه وسمعت كذلك عويل ابنائه الادميين، كما سمعت اناشيدهم الوطنية، وتراتيلهم الدينية، وزفير ساعاتهم الغرامية، ايتها الجبال المتجلببة بالخلود، انك لاجمل واعظم واروع من جبال الآلهة في عاصمتَي الاغريق والرومان.

ايتها الاهرام المدرّجة، المدفونة في احشائك اجيال من الاحياء البحرية والبرية، المشيدة طبقاتك بعضها فوق بعض في الازمنة التي كان الانسان فكرةً او حلماً او سراً في قلب الكائنات، الناطقة هندستك بالفن الاعلى، المزينة بالرواشن والاطناف، المعطرة جوانبك بأطايب الرياحين — بالغار والبطم والآس والقصعين — القائمة على اكتافك الصبيات من الاهرام — هرم فوق هرم — شيدتها الايام، ودرّجتها الرياح والاعاصير، انك حقاً لأعظم واجمل واقدس واثبت من كل ما شيده الانسان من الاهرام، ومن الهياكل والابراج، ان كان في مصر او في الهند والصين.

لقد وقف أمامك ذلك العالم الشاعر الفيلسوف، الذي وقف على الأكروبول في آثينا يمجد آلهة اليونان، ويطري الثقافة اليونانية، ببيانه المشبع علماً وفلسفةً وشعراً، وما رأى، يوم وقف امامك غير انك اجمل من جبال الالب، وازكى رائحة منها.

عفا الله عن رنان، الذي شُغل يومئذٍ بالزائل من آثار الانسان عن الخالد من آثار الطبيعة.

الغابة المغضوب عليها

بعد ان نمر بظل الهرم المدرَّج، ونجتاز جسراً من الحجر صغيراً، امام غار في الجبل القائم بين الهرمين، نمشي الى مفرق الطريق، فنجنح الى فرع منه جديد، لا يزال العمال يعملون في شقه وتعبيده.

هو الطريق الى منبع نهر ادونيس وهيكلها الاكبر — هو الطريق الى أفقا. ولقد كنا مسرورين بأن نؤم ماشين ذلك المكان الذي قدسه الاقدمون. جئناه حاجين، نحن الاربعة الميامين، الفنان يوسف الحويك، ورجلي الدنيا الحكيمين يوسف صادر وابراهيم حتي، وكاتب هذه الرحلات، حاجين على الاقدام في يوم من ايام آب، ساعة تفتح الشمس ابوابها على المصاريع، فيتبلج الفضاء بالنور الهزاز، وتتوهج النار على الارض.

يا لصفاء تلك السماء! لا غيمة في فضائها الشعشاع لا غيمة واحدة وقد ضنت علينا بغيمة من رحمتها. ولكن الصرود تكفر عن مظالم الصفاء السماوي بعض التكفير، فتلاطف الحرارة بنسمات طيبات باردات من نسمات الجبال العالية.

مشينا نحو كيلومترين في الطريق الذي كان يعمل العمال في شقه وتعبيده، فكثرت فيه الحجارة والتراب والغبار. ان ذلك على الحاج يسير. ومع ذلك نكبنا عن الطريق، فاقتفينا أثر الفلاحين في جادة تتعرج بين الحقول المزروعة، والصخور المنثورة، الى غابة من الشربين[1] قديمة العهد، كثيرة النكبات.

---

(١) من اشجار الجبل القديمة الارز والسرو والشربين. اما العرعر الذي يذكره بعض الكتاب مع السرو فهو الاسم الفارسي الاصل للسرو نفسه. والشربين يختلف عن السرو بانه اكبر ورقاً منه، واصغر ثمراً.

ما رأيت في جبل لبنان شجراً تنقبض له النفس ، وترثي لحاله، مثل هذه الاشجار المقطعة ، المهشمة، المشتتة في الطريق الى افقا. هي الغابة المغضوب عليها، المنكوبة بما جنى عليها الانسان والزمان، وليس فيها شجرة مستقيمة سوية، الا بعض الفتيات التي غُرست حديثاً، او بالاحرى نشأت مما نثرته الرياح من بذور الامات، فصادفت شيئاً من التربة الصالحة بين الصخور، فنمت هنا وهناك شجيرات نضرات رشيقات.

اما الاشجار الأخرى فهي جديرة بان يقف عندها نبي شاعر مثل ارميا، يندب يومها الغابر، ويرثي مجدها. لله من يد الانسان، الطامع بجزمة من الحطب. لله من هذا القاطع طريق الغابات - يسطو على الجذوع والفروع من اشجارها، فيفتح قلبها للرياح والاعاصير، فتكسّر وتصوّح ما يبقى فيه من اسباب النشوء والحسن، بل من اسباب الحياة.

اني اتخيل هذه الغابة في مجدها، يوم كانت تظلل هذا الجبل من العاقورة الى افقا، فيعلو اخضرارها الآفاق، ويحجب الطرق التي تنساب خلاله الى الهيكل الاكبر. واني اتمثل، من الزوار الاقدمين، اولئك العواهل والقواد الرومان الذين حجوا هذا المكان المقدس باسم الزهرة وادونيس، فحملوا اليها القرابين متشفعين بها، وامروا بما فيه صون هيكلها، وازدياد خيره ومجده.

ومن اولئك ادريان، الامبراطور الرحّالة، المتعبد للزهرة، المشيّد لها الهياكل في الشرق والغرب؛ المحرّم قطع الاشجار - السرو والشربين والارز - في جبل لبنان، وخصوصاً في الطريق الى افقا المكرّمة. وكأني به، وهو حاج في حاشيته الملكية، في بدء القرن الثاني للمسيح، قد شاهد ما شاهدناه نحن من اثر غزوات الحطابين، وعلى الاخص في غابات السرو والارز والشربين، وقد قُدست لهيكل الزهرة، فامر بالمحافظة عليها، وحرّم قطعها.

وقد تكون زهت بعد ذلك، وظلت زاهية، الى يوم الهياكل العصيب، يوم اضمحلال الوثنية في لبنان، فعاد اللبناني بعد ذلك الى عادة اجداده القديمة، يرسل فأسه في الغابات فاتكاً عاثثاً، ولا يبالي بما في عمله من عوامل الخراب في الاودية والجبال.

لذلك لم يبق من الغابات القديمة غير غابتَي الارز في بشري وجاج، وهذه الشبيهة بالغابة، الحاملة جذوعها وفروعها احتجاجاً صارخاً على جرائر الحطابين. تلك الجذوع الهرمة الجافة المجوَّفة المحدودبة المهشمة، لو رأيتها في الغسق، او في شيء من ضوء القمر، لبدت كالمخلوقات الممسوخة، او كالخيالات المجسدة لأُولي الالم والغم والقنوط.

تلك الجذوع المرعبة، وقد امتدت جذورها على الارض وبين الحجارة، كالافاعي والثعابين. تلك الجذوع الفظيعة الاشكال، وقد بدت كرؤوس الافيال بخراطيمها المنتشرة، وكاعناق الجمال المدفونة اجسامها في الرمال، وكقرون الاوعال المتشعبة، وكاقسامٍ محطمةٍ من تمثال اللاوَكون [1]

وها كها كافراس النهر الواقفة على رجليها، الرافعة يديها الى العلاء. وها كها جنيَّةً برزت أنيابها، وتشعَّث الشعر على كتفيها. وهاك ثالوثَ الهول، جذعاً تجسم من ثلاث لعنات جهنمية : ظهركِ في عنقكِ وعنقك بين ساقيكِ ان شاء الله ! تلك الجذوع المبقورة — تلك الجذوع الممسوخة—تلك الجذوع المحطمة المهشَّمة، انها على بؤس حالها، لا تيأس من الحياة. على ان الاغصان الجديدة التي تنمو في جوانبها وبين جروحها تزيد المشهد كآبةً وقبحاً.

قال الحويك الفنان، وهو يحاول ان يخفف وقع المشهد في نفسي : هي اطياف الزوار عبادِ عشتروت.

---

(١) لاوَكونُ (Laocoon) هو التمثال الذي يمثل كاهن طروادة وابنيه وقد التفت على اجسامهم الثعابين.

وقلت : وهذه العجوز المرعبة، القابضة على صخرة [1] لترميني بها، اين منها تلك المتعبِّدة لعشترة وآدونيس ؟ »

فقال الفنان : « وفي الاشكال المرعبة شيء من روعة الفن . »

ثم ذكرني بذلك التمثال الاغريقي — لاوكون، اي الكاهن وولديه يصارعون الافاعي.

وما اكثر أمثاله في جذوع هذه الاشجار وفروعها. ان في عجائب المسخ والتشويه ما يفوق هولاً تصور هوميروس ودَنْتِه.

هي الغابة المغضوب عليها. وكأني بها تقول، لو كانت ذات مشيئة ولسان : اقطعوني من اصولي واحرقوني — احرقوا جذوري وجذوعي وفروعي كلها، ولا تدعوني على وجه البسيطة مثالاً مروِّعاً منكراً لنقمة الآلهة.

---

(1) حجر ضخم عالق بين جذعيها، نموا حواله وهما يُطفقان عليه.

الفريكة فقلا

كنا نقف في الغابة المغضوب عليها لنريح النظر منها، لننظر الى ما دونها من الآفاق، وان ضاقت جوانبها. فكان يمتد منها أُفق واحد هو الغربي الجنوبي، وتُسد الآفاق الأخرى. هنالك فوق نهر ادونيس يلتقي جبل موسى بجبل علمات، وهاهنا ينطوي وراءنا الطريق. ومن حين الى حين تنكشف امامنا الحقول الخضراء، وقد رفعت صفوفُ الذُّرة اعلامها فيها، ونثرت البطاطس عليها الازاهر البيضاء.

وهاك فلاحاً يزرع الحب الذي سيحصد في الخريف. وهاك شاباً يقنّي الماء بمعوله الطويل، يقني ويغني ليفرّج عما بصدره من الم الفراق والنوى — يغني العتابا بصوت اجشّ طويل المدى:

« سافر بابور ما انكسرَتْ ماكنتو
سافر بابور ما انكسرت ماكنتو
بِخسِبكُم يا حبابي ما كُنتو
ناس كثير عاشو بلا صحاب »

مشينا ساعة ونصف ساعة في تلك الشمس المحرقة، لولا نسمات الصرود الباردة تلطف حرها، والطريق ينعرج امامنا، ويختفي وراءنا، دون ان يبدو منه لضالتنا المنشودة اثرٌ او خيال.

قال الرفيق الحويك، وهو في المشي من المجرَّبين المعزَّزين.

عَملَّسٌ اسفار اذا استقبلت له   سموم كحر النار لم يتلثم

ولا كان يعتمر بعمارة عربية او افرنجية. قال عندما باشرنا المشي « أفقا هي على ساعة من مفرق الطريق »

فذكرنا الرفيق ابراهيم بذلك، وهو يشد على رأسه منشفة الحمام التي اعدها لمياه النبع. ثم قال: «ليس في هذا الجبل بشر واحد يحسن الدلالة وتقدير المسافات. هذا يوسف الحويك الفنان النقاد، الطويل الباع في العلوم والفنون، الدقيق النظر في كل شيء. سوى بلايا الحياة البشرية، فهو لا يبالي بها. اما اذا سألته عن المسافة بين بلد وبلد، فهو يقول لك ما لا يختلف عن قول المعاز او الفلاح «شربة سيكارة!» وسيكارته ساعة، وساعته مثل ساعة المعاز نصف نهار.»

وكان الرفيق الآخر الاكبر سناً فينا، والأطول قامة، والأكثر وقاراً، الرفيق المطربش، المجلبب بجلباب السفر، الحامل السبحة بيسراه، والمنديل بيمناه يمسح به العرق من جبينه، كان هذا الرفيق السكوت الصبور قد تقدمنا، فاشرف على مرابع الانس في منحدر الوادي فبشر سميّه الفنان وراءه، فبشر الفنان ابراهيم، فبشر من جاء في المؤخرة، فقلت: وانه من ابراهيم، وانه بسم الله الرحمن الرحيم.

ما كنا نظن ان هناك في جوار افقا اثراً للانسان في هذا الزمان. ففوجئنا ببيت له فوق النهر، على منكب عريض من الجبل، وببساتين حول البيت، وبحقول حول البساتين مزروعة. هي المنيطرة مزرعة الانسان المتنسك فيها. بل هي جنة معلقة بين النهر والجبل.

هبطنا اليها، ووقفنا اذ دنونا من بيت صاحبها. وقفنا ننظر في أمر حيوي من امور الانسان اليومية. وامورهم شورى بينهم. فتشاورنا. وكنت انا القائل بزيارة المغارة والآثار، ثم العودة الى العاقورة للغداء. وكانت الساعة تدنو من الظهر. فقال نسطور[1] الجماعة الرفيق يوسف صادر: «من حسن الادب، بل من الواجب علينا، ان نزور اولاً صاحب هذا البيت وبعد ذلك نقرر امرنا. واذكروا الآية: كل امرىء بما كسب رهين.»

(١) نسطور المشهور في الالياذة بالحكمة واصالة الرأي

فقال الرفيق الحويك : « ما فهمت الآية . ولكني فهمت كلامك . »

اما رأيه المبني على ما فهم ، والمفصح عن تردده ، فهو يقسم ، مثل علم اللاهوت الى قسمين ، نظري وعملي . فالنظري لاهوتي باطني ، احترمناه وما فهمناه ، والعملي تحول ، بعد المراجعة ، من التردد الى القبول .

ولكن الرفيق ابراهيم قال بصراحته المعهودة انه لا يعرف الرجل ، ولا يليق لذلك ان يأكل في بيته .

فاجابه نسطورنا ، العالم كل العلم بما يليق وما لا يليق في ادب الاجتماع ، قائلاً : « ستتعرف اليه اولاً ، فيزول المحظور في قبول الفطور .

كذلك تمت الشورى بيننا ؛ فتقدمنا بخطوة واحدة ، وبقلب — في الظاهر — واحد ، الى بيت صاحب الجنة ، ودخلناه متكاتفين ، متكلين على الله ، فاذا نحن في صحن للدار رحب ، تخيم عليه دالية جبارة ، تتدلى منها عناقيد العنب ، التي كانت لا تزال ، لسوء الحظ ، خضراء الحب حامضة .
والى جانب الدار مجلس مكشوف ، وشيخ في قميص النوم جالس هناك يدخن الاركيلة ، وعند الحافة الفاصلة بين المجلس وصحن الدار رجل واقف يصطنع خنجراً ، وآخر جالس عند الموقد يصنع القهوة .

فعندما رأى الشيخ رفيقنا الحويك نسي ان يسلم علينا ، ويرحب بنا او انه ظن ان السلام على واحد منا ، والترحيب به ، يشملان الجميع .

وقد استأنست انا بالمعاميل بين يدي القهوجي ، تلك المعاميل العربية اليدوية التي طالما ابتهجت عيناي بها ، وصفق القلب لها طربا . فهي ذي الركوات الطويلة البلابل ، والفناجين القيشانية الزرقاء ، والقهوة — جاءنا الخادم بها — بقليل منها في كعب الفنجان ، وفيها حب الهال ، فشعرت اني في ضيافة شيخ عربي . ولكني ، وانا اتلذذ بهذا الشعور ، سمعت الشيخ يقول للرفيق الحويك : « واين صورة مار تقلا ؟ » أما وعدتني بها آخر مرة زرتنا ؟

فهمت اذ ذاك القسم الباطني اللاهوتي لما قدّم رفيقنا الفنان في مجلس الشورى خارج البيت. فهمت معنى التردد في قبوله اقتراح الرفيق يوسف صادر. وسمعته يجمجم الكلام، المركب من الاعذار، وكيد الاقدار، فيزداد الشيخ حدّه، وتزداد حجته شدّة، فرأينا ان نتوسط بينهما، حباً بالسلم، وما يليه من مؤانسة.

فرحب الرفيق بالواسطة، ومهّد لها بان عرفنا الى معذّبه، فاردفنا التمهيد بآخر عرفنا فيه انفسنا، فما حرّك اسمٌ من الاسماء قلب الشيخ فرحاً او كدراً

ثم تحول المجلس الى محكمة، فعلمنا من قصة الشيخ جبرائيل جرمانوس آل نور الدين انه في عهد البطريرك ايلياس الحويك، عم اخينا يوسف، اجتمع ذات يوم في المقر البطريركي بالاخ المذكور، واوصاه على صورة زيتية للقديسة تقلا. ثم ارسل اليه ثمنها سلفاً – خمس ليرات ذهباً عثمانية – بواسطة الاسقف .... في بكركي. ولكن لم يصل الى يوسف ذهب واحد منها.

ومع ذلك فقد وعد بان يصور القديسة المذكورة مجاناً لوجهها الكريم، وان كان لم يرَه في حياته كلها، السابق منها والحاضر، ولا يعرف شيئاً من سيرتها، ولا سمع بشيء مما صنعته من العجائب.

عندئذ طلبت الشيخة زوجة الشيخ جبرائيل الكلام، فقالت القول الموجز المفيد، وارسلت خادمها الى الكنيسه الصغيرة في جوار البيت، تحقيقاً لقولها، فعاد الخادم يحمل صورة ملونةً لماعةً مطبوعةً على الحجر في المانية، فتناولتها الشيخة التقية بكلتا يديها، وقبلتها، ثم شرعت تحدث عنها، وتشرح معانيها للرفيق الفنان.

كانت القديسة تقلا، عليها السلام، ابنة اميرٍ وثني، فتنصرت، فغاظ تنصرها الملك، فامر بان تطرح الى السباع. وها هي بين السباع، عليها

السلام. هذا السبع (تدل الشيخة عليه بسبابتها) يقبل يدها، وهذا السبع الآخر يقبل رجليها. وهذا السبع الكبير يقف امامها كالخادم المطيع، وهنا (وهي لا تزال تدل بالسبابة) مقصورة الامبراطور وهو وحاشيته فيها يتفرجون. هذه من عجائب القديسة تقلا، عليها السلام.

أبرقت عين الفنان، فقال بلهجة الخلاص والفرح: « عال. سانقل هذه الصورة كما هي، بسباعها وملوكها، ساعطيك، ياشيخ جبرايل، صورة زيتية طبق الاصل. »

فقال الشيخ: « ولكني لا اكتفي بوعدك. قد وعدتني مراراً واخلفت. اريد كفالة. فهل يكفلك احد من رفاقك هؤلاء الافاضل؟ »

تطوعنا جميعاً بالصوت الواحد، وكان الصوت من اعماق كياننا — من البطن الفارغ، فاختار الشيخ جرمانوس الاستاذ يوسف صادر، لسمعته الطيبة، ولانه ذو عقار ببيروت يعزز الكفالة. فاذا تفلت الفنان هذه المرة ايضاً، فالكفيل والعقار بيده —

وقد علمنا بعد الغداء، الذي تلطفت بتحضيره الشيخة الفاضلة ورجالها، ان الشيخ جبرائيل سافر في صباه الى اميركه، والقى مراسيه في جزيرة سان دومنغو هناك، فاتجر فيها وأثرى، وتزوج بكريمة من كريمات الجزيرة. ثم عاد بها وبثروته الى مسقط رأسه العاقورة فتوفيت فيها رحمها الله، فدفنت في كنيسة القديسة تقلا.

وعلمنا كذلك انه بنى الكنيسة الصغيرة في جوار البيت له وللفلاحين « شركائه » وتخليداً للذكرى الغالية. فان في قلبه مقاماً للحب، وآخر للتقوى.

— وكان جبرائيل بن جرمانوس متعبداً، مثل زوجته الثانية الحازنية، للقديسة تقلا، عليها السلام، فبنى لها كنيسة، وكلف فناناً شهيراً ان يصور لها صورة زيتية....

– وكان الامبراطور الروماني ادريان متعبّداً للزهرة، فبنى لها الهياكل، وقرّب لها القرابين . . . .

– ومن ادريان الى جرمانوس ، ومن الربة الزهرة الى القديسة تقلا الف وثمانمائة سنة من الزمان، ومقدار شعرة من الفرق في الايمان .

من المُنيطرة، جنة جرمانوس، الى مغارة أفقا، ننزل نحو مائتي مترٍ في جادة وعرة، تجري في اقسامٍ منها المياه الردغة، وقد اختلط بها في جوارٍ منها روث الماشية، ونبتت على جوانبها الدوالي الشائكة والنباتات المنبوذة، منها نبت البَرْعُون ذو حبٍ كبيرٍ كحب الآس، غير انه اسود اللون، ولا يُؤكل.

وقد عثرنا في هذه الجادة، (تعلو الفاً ومئتي مترٍ) فوق البحر، على محارةٍ صغيرة متحجرة! حيوانةٍ بحرية صامتةٍ ناطقة! ايه، يا ابنة اليم الطامي، الحاملة نبأ الدهور، مذ كانت الامواج تتلاطم بين هذه الجلاميد، فتقذف بك الى الشاطىء، تحت تلك الاطناف، ثم تعود بك الى بيتك المائي، كنتِ يومئذٍ تختلجين - تنعمين - في صدفتك الطرية الشفافة، فشهدتِ الكارثة التي حلت بعدئذٍ بكِ، وباخواتك البحرية عرفتِ، ايتها المخلوقة اللطيفة، عاقبة السروح والطموح، تركتك الامواج وشأنك يوم كانت هي تتقهقر من هذه الجبال. هجرك ابو العين الزرقاء فمُتِّ ظمأً بين هذه الصخور. ولكن صغرك صانك من الكوارث المحطِّمة. وها انت ذا اليوم، بعد ملايين من السنين، محارة حصوية سليمة بين يدي.

وأمامنا، في هذه المهاوي المهابة الهائلة، نبأٌ آخر من انباء الزمان. هناك صفحة من كتاب الجيولوجيا، نقرأ فيها سيرة تكوين الطبقات الكلسية، بعضها فوق بعض. هناك المثال الناطق في شكل نصف دائرة، تبدأ في الجهة الشمالية وتختفي في الجنوبية. هناك الاهاب المشمخرَّة، وقد ارتفعت خمسمائة مترٍ فوق المغارة والوادي، وفي تكوينها انواع من التربة

والصخور. قسم منها مرعى للغنم والمعزى، وقسم قاحل حصوي، ينحدر انحداراً شديداً، تخصه السيول بالخَسفات.

تلك الدائرة من الجدران الناطحة السحاب، يزينها نطاق من الصخر الاقهب مطَّردٌ سوي، هو كالطنف في اسفله، وكالرَّفِ في اعلاه، وفيه مثال التكوُّن المائل للطبقات الكلسية، وبعض الاشكال الافقية والعمودية — حجارة مصفوفة بعضها الى جنب بعض، وطبقات مرصوفة بعضها فوق بعض.

انه لاعظم ما في المكان من هولٍ رابض، وروعة شامخةٍ هاوية. هذا النطاق يمتد مع الجبل جنوباً بغرب، وينقطع في الناحية الشمالية. وقد سقط قسم منه، نحو عشرين متراً، في زحفة سنة ١٩٠٥، تلك الزحفة التي ذهبت بقرية افقا، فامست اثراً بعد عين. وهناك حجارة الطبقة الكلسية، منتثرة في كل مكان.

ان في طبقات الصخور انواعاً من الطراوة والقساوة. فالطبقة الطرية تفعل فيها السيول والرياح افعالها العجيبة، فتكوِّن الكهوف فيها والاطناف، او تحفر فيها متغلغلة فينهار ما فوقها.

ان في قرية الغابات وحولها البرهان والدليل على هذا المظهر من المظاهر الجيولوجية. هناك رُجام الحجارة والجلاميد — ركام منها — وقد تفلتت من طبقتها بعد ان أتمت السيول والرياح عملها في الطبقة الطرية تحتها. هي آثار زحفةٍ طاميةٍ هائلة، قذفت برخام الصخور في كل مكان، فتراها في الحقول المزروعة، وعلى ضفة النهر. الغابات، وفوقها جبل الزحفات، ينذرها على الدوام، وهي مثل پمپاي في ظل ڤزُفيوس، لا تبالي.

قبل ان نصل الى المغارة نشاهد في الجهة الشمالية من سفح الجبل مثال الغيران في بدء تكوينها. فالمياه تنبجس من بين الصخور والطبقات الكلسية في مكانين قد يصيران بعد الف سنة مغارتين، تتدفق منها المياه

كما تتدفق اليوم من المغارة الكبرى.

قلت هذا لصديقتي الكاتبة المشهورة مي، التي كانت جارتنا بالفريكة في صيف ١٩٣٨، فقالت: « وساعود انا الى الارض بعد الف سنة وازور ذلك المكان لاتحقق صدق نبوّتك. »

فقلت: موعدنا افقا بعد الف سنة! وقد تشهد مي الاعجوبة، وتكون هي جزءاً منها، اذ تجلس هناك، في ظل تلك الجوزة، او في ظل الجوزة التي ستكون هناك، وهذا الكتاب بيدها، تقرأ فيه النبوّة وتقول: مثل كل الانبياء..

الف سنة الى الامام، فهل تعلمين، ايتها العزيزة، بكل ما انطوى من الزمان واحداث الانسان؟ وهل تذكرين؟

الف سنة الى الوراء.. فهل كنت تعلم بشيء من مطويات الزمان المقبل، ايها العاهل الروماني العظيم؟ ليت شعري هل كانت المياه تنبجس من جوانب هذا الجبل الشمالية يوم حج ادريان هذا المكان؟ ليت شعري هل كان في حاشيته الملكية مَن تهمه المشاهد الطبيعية اكثر من المناسك الدينية؟ لو كان ذلك لعلمنا اليوم بعض ما كان من محيط افقا الطبيعي في تلك الايام.

لقد كانت المغارة، ولا ريب، ها هنا في مكانها فتتدفق منها المياه الباردة العذبة كما تتدفق في يومنا، فتهبط شلالاً تحت الطريق. وكان الطريق اليها طريقين كما هو اليوم، الواحد الجنوب الغربي، يمر بنبع الحديد، والثاني من الناحية الشمالية التي اجتزناها.

وهذه الحجارة المنحوتة المبعثرة على رأس الرابية، وفي جوانبها الى اسفلها – الى النهر – المتراكمة هنا وهناك، القائم بينها اجزاء من الحائط نجت من الكارثة، هذه الحجارة المنبوذة اليوم كانت يومئذ منضدة تنضيداً هندسياً جميلاً، وكانت يومئذ من مقدسات اجمل الربات والارباب، الزهرة وآدونيس هيكل ادونيس والزهره، هيكل عَشتَر وتموز، اني اتصوره قائماً

بفخامته وجلاله على هذه الربوة، بين هذه الجبال، امام تلك المياه المزبدة المعرقة المتدفقة من الغار، يحيط به سور لا تزال آثاره بادية للعيان، ضمته ساحات كبيرة، فيها الحيوانات الطائفة، وبحيرة الاسماك المقدسة.

وقد كان في الساحة التي امام باب الهيكل تمثالان ضخمان لِآلتَي التناسل الفرج والذكر.

هيكل عشتر، هيكل تموز – الحرم الاكبر الاقدس في البلاد الفينيقية – كان يغص بالزوار في العيد السنوي، في الربيع. فيجيئه الاتقياء والاشقياء من كل فج وصوب، من البلدان الفينيقية والعربية، ومن بابل واشور يجيئونه خاشعين، يجيئونه صاخبين، يجيئونه متكسّبين، يجيئونه حاجين حاملين القرابين.

هيكل الزهرة، اغنى الهياكل الرومانية الفينيقية في البلاد السورية. جاءه ذات يوم ذلك الحاكم الروماني الظلّيم – الغني الجشع الاثيم – مرقص كراسوس [1] فنهبه نهباً، بعد ان كان قد حارب (الهوسين الأشكان) ونهب البلاد العراقية. قضى كراسوس هذا بضعة ايام يزن الاواني الفضية والذهبية والتحف الثمينة التي اخذها من هيكل افقا.

لقد حججت معنا، ايها القارئ. فهل تريد ان تحج مع الفينيقيين؟ انك لتسمع العج والثج قبل ان تشرف على الهيكل. وانك لتسمع اصوات الطبول والصنوج والمزامير، واصوات الكهان وهم يرتلون، واصوات الحجاج، نساء ورجالاً، وهم يولولون وينتحبون. لقد ملأت الاصوات هذه الزاوية العالية من الجبال، وانتشرت في الوادي، فتراجعت اصداؤها فيه، وبين رواسيه، فاقلقت النسور وروعت الذئاب.

وانك لتشعر بلهب النيران، وتشتم روائح الدخان، وانت تعبر منعطف الطريق، فتشرف على الهيكل في البطحاء، بين الاهاب المشمخرة.

---

(1) Marcus Crasus (١١٥ – ٥٣ ق. م.)

وهناك الكهان وسدنة الهيكل، ثلاثمائة منهم، يتقدمون المتعبدين بالمشاعل في موكب مَهاب مَهال. وما المشاعل ؟ اشجار يقطعونها من الغابات فيعلقون عليها القرابين، ويحرقونها.

وهناك المومسات، بنات الهيكل، يرقصن رقصة الورع والغرام. وهناك الرجال يقلّسون — ينفخون بالمزامير، ويضربون بالصنوج والطبول، وهم ينشدون الاناشيد — وبينهم حلقة من الراقصين، رقص الدراويش في هذه الايام : يفتلون، يقفزون، يطوون الصدور والخصور — ويزحفون على البطون.

وهناك المهوّسين المهوّكين، وقد حملوا السياخ وقطع الخزف، يطعنون بها صدورهم، ويخدشون الوجوه والزنود (حُسَيْنيّو ذلك الزمان) ومنهم يقطعون قطعاً من اجسامهم، ومنهم يخصون انفسهم، فيقدمون ما يقطعون قرباناً للمعبودة والمعبود

وهناك المخنثين، وقد طلوا وجوههم بالعُمَرة، وراحوا يَغدون في اسواق المدينة، طالبين الالبسة النسائية، فيلبسون لبس النساء تشبها بربتهم عَشْتَر العالية. ثم يخلعون تلك الالبسة، ويرقصون عراةً مع المومسات، تقديساً للوصال الشِقّيّ.

وما هذا الذي يرمون به من سطح المعبد ؟ اكياس فيها عجول ؟ لا تصدق ما يقولون. ان في تلك الاكياس اطفالاً بشرية تُقدم ذبيحة للآلهة ....

— وجاء اليونان، وبعدهم الرومان، فاقتبسوا الاساطير عمن تقدمهم، وحسنوا فيها وغيّروا، فصارت عشتر تعرف بِأسْتَرْته ثم بالزهره، وتطهّرت العبادات والمناسك بعض التطهير من شعوذات الكهان، ورجس المتعبدين.

— ثم جاءت المسيحية تحارب الاصنام والتوثن جميعاً، فدخلت لبنان

في اوائل القرن الرابع قبل تنصُّر قسطنطين. ثم امر هذا الملك، بُعَيد تنصُّره، بهدم الهياكل الوثنية كلها، تعويضاً لاركان « ذلك الزَّون الرجس » فهُدم هيكل افقا في السنة الخامسة والعشرين والثلاثمائة، وأُجلي سكان البلدة الى بعلبك.

ولكن اللبنانيين ظلوا متمسكين بالوثنية واصنامها، وكانوا في أواخر القرن الرابع قد اعادوا بناء هيكل افقا. قال المطران يوسف دريان [1] نقلاً عن تيودوريطوس ان يوحنا فم الذهب (٣٤٥ – ٤٠٧) « لما علم ان سكان فينيقية ما زالوا يمرحون جنوناً في سبيل الاوثان، جمع بعض الرهبان ممن اكلتهم غيرة الله، وعززهم بالاوامر الملكية العالية، وارسلهم على هياكل الاصنام فخربوها، وقتلوا الوثنيين اللبنانيين. » [2]

ولكنهم لم يخربوها كلها، على ما يظهر، ولا استطاعوا ان يبيدوا جميع الوثنيين. فظلت شراذم منهم « تمرح جنوباً » وبقيت بعض الهياكل قائمة، ومنها هيكل افقا، الى عهد يوستينيانوس حتى اواخر القرن السادس. وفي عهد هذا الملك السعيد، جاءت الزلازل تمد المسيحية ورهبانها (٥٢٧ – ٥٦٥) فضربت الهيكل الاكبر الضربة القاضية، فجعلت اعلاه اسفله، فامسى – وظل كما نراه اليوم – طللاً دارساً قارساً يصح فيه قول الشاعر الحلبي عمر ابو ريشا :

« لقد تعبت منه كف الدمار وباتت تخاف أذى لمسهِ
هنا ينفض الوهم اشباحه وينتحر الموت من يأسهِ

فما اصحها كلمة فيما هناك من اوهام واخرافات، هجرها الموت، فتكاد تكون خالدة في تجددها الدائم.

---

(١) البراهين الراهنة في اصل المردة والجراجمة والموارنة، صفحة : ١٧٨

(٢) وقد كتب الى روفينوس يقول : « بلغني ان شرور فينيقية قد تجدد شرارها، وزاد كيد الوثنيين. » فحمل عليهم المسيحيون باسم الدين. وكانوا جميعاً متكايدين.

فلقد نبت فيما تبقى من الحائط الشرقي، بين مداميك الاساس ، في جوانب الربوة، شجرة جوز واخرى من التين.

وما سلم من كل ذلك المجد « والجنون » غير خرافة ورثتها « سيدة » هذا الزمان عن بعلة الزمان الغابر. فالتينة من طائفة تلك الاشجار المقدسة — قُدِّسَتْ للسيدة القديسة المسيحية، لها المجد.

وان جهلة الشيعية في هذا الجوار لفي مقدمة من يقولون: « لها المجد. » ويجيئون الشجرة حاجين، فيعلقون على اغصانها الرقاع، وينذرون لها النذور. تباركت البعلات في كل زمان.

من «مفكرات العبادات الوثنية»، وخزعبلات العقائد الكهنوتية، اعود بالقارىء الى الاسطورة الاولى ومنشأها في هذا الشرق الادنى. فان فيها بصيصاً من النور الازلي الخالد. وقد أبرق للمرة الاولى في قلب شاعر او حكيم، وقف متبصراً متحيراً في بعض اعاجيب هذا الوجود.

هي الاسطورة التي صنع منها الكهان ديناً منظماً، ديناً رسمياً ذا عقائد وتقاليد ومناسك وعبادات، مادية الشكل والمعنى، ومستهجنة في اكثر الاحايين منكرة.

ولكن مغزاها، على تطورها المادي المنكر، وروحها الشعري الجميل، ظل مثل اصلها واحداً في كل زمان ومكان.

اعود بالقارىء الى عهدها الاول، الى ذلك الماضي الذي كان قديماً حتى في ايام سَنكُنْ يَتُن الكاتب الفينيقي الاشهر، الى أُور الكلدانيين، بل الى لاغاش السومرية.

هنالك، في ذلك الزمان، رأى الشاعر حبة الحنطة تدفن في الارض، ثم تبعث حبة عشرين وثلاثين حبة في السنبلة الواحدة، فتصور السر او السحر او القوة العجيبة في ظلمات الارض، وقال لنفسه ثم لاخوانه: لا بد ان يكون لهذه القوة رب يرعاها، ويجدد في كل عام مظهرها.

اذن على الانسان ان يعبد ذلك الرب، ليضمن دوام خيره ورضاه.

هي ذي الفكرة الاولى في الاسطورة الاولى. وقد سُمّي هذا الرب بلغة السومريين دُموزي، اي الابن الذي يصعد من العالم الادنى، الابن البار المطيع — المبعوث.

ثم احب دُموزي اخته إنّيني ربة الارض والسماء حباً عذرياً ، فصارت تنزل الى أرالو، اي العالم الادنى، كل عام، بعد وفاته، لتعيده الى الارض. وقد جاء في رواية اخرى ان دُموزي هو رب المواشي والحقول والري ، وانه لِأم الارض الزوجُ والاخُ والحبيب. في كلا الحالين تثبت الآثار انه هو الذي صعد من اعماق العالم.

وبعد ذلك أُدخل على الاسطورة رمز الحياة والموت، في النبات الذابل صيفاً، والمخضرّ ربيعاً، فصار دُموزي يموت في كل صيف، ويبعث حياً في كل ربيع.

لذلك كان يقام له مأتم في منتصف فصل الصيف من كل عام، اي في الشهر الذي يُعرف عندنا بتموز. وقد كان يدعى في لاغاش ونيبور شهرَ رحيل إنّيني ، اي الشهر الذي تغيب فيه لتبحث عن حبيبها. إنّيني سيدة السماء، تنشد سيد الارض في اعماق الارض.

وعندما اقتبس البابليون هذه الاسطورة عن السومريين دعوا شهر الرحيل بتموز اي شهر الآله، واسموا اخته عشتر، اي الربة العذراء. ان الصلة بين تموز ودُموزي ظاهرة ، كما ان الفرق ظاهر بين عشتر وإنّيني. اما سبب الفرق فهو ان العقاديين اسموا هذه الربة أشداد بلهجتهم الخاصة ، فنقلها البابليون عنهم، فصارت أشداد عشتَر، وذُكرت في التوراة بزيادة الواو والتاء — عشتروت.

وكما تطور الاسم تطور الحب كذلك في الاسطورة، فلم يعد عذرياً . اقترن تموز بعشتر في بابل. وقيل في ذاك اقوالاً متناقضة ، فكانت تذكر الربة الزوجة في صلوات البابليين ومناجاتهم تارة كالاخت، وطوراً كالام. وكالام العذراء حيناً، وحيناً كالزوجة الام. فضلًا عن انها كانت تدعى بربة الخصب ، وربة القمر.

هي الصفة اللاهوتية التي اكتسبتها الاسطورة في بابل، على يد الكهان

قبل ان انتشرت في الشرق الادنى. ولقد جاء ذكرها في الآداب السريانية، كما انها حلت محل الدين عند الصابئين بحرّان، فظلوا يعبدون عشتر وتموز حتى القرون الوسطى من العهد المسيحي. وكانوا يغالون بمناقب تموز وكراماته، فيقولون انه يشفي الامراض، ويستجيب الطلبات كلها وان له سلطاناً على الشياطين. هي الآثار البابلية في الاسطوره.

وهناك تطورات اخرى بابلية وطنية. فالبابليون، يوم كانوا يجاهدون السومريين والاشوريين ليبسطوا سيادتهم على البلادين، رأوا ان يشركوا تموز بمردوخ الههم الاكبر. او انهم انتحلوا معنى الاسطورة الاصلي، فقرنوه بالوطنية البابلية، وصاروا يقيمون لمردوخ عيداً في شهر نيسان – في الربيع – شبيهاً بالعيد السومري.

– هاكم الهنا الاكبر مسجوناً في العالم الادنى. وهاكم كهاننا يندبونه، ونساءنا ينتحبن عند قبره. وها زوجته بلتيس تهبط الى عالم الظلمات، باحثةً عنه، فتعود ظافرةً به: ينهض مردوخ من قبره حياً. مردوخ – تموز آله الحياة والموت والبعث والخلود!

من اور الكلدانيين ولاغاش الى بابل واشور، ومنها الى فينيقية، تنتقل الاسطورة الخالدة، وتتحول في بعضها، دون ان يتغير معناها ومغزاها.

من دموزي الى تموز الى ادونيس – تعددت الاسماء والرب واحد. اما الاسم الاخير فهو فينيقي مشتق من آدون اي سيد.

ولآدون هذا اسطورة فينيقية خاصة هي الحاشية او الملحق للاسطورة الاصلية. آدون هو ابن مُرّة ابنة سنيراس ملك قبرص. ولد في البلاد العربية، حيث فرت امه هاربةً من ظلم والدها. ثم عادت به شاباً الى جبيل.

وقد كان آدون مثال الجمال الكامل، جمال الخَلق والخُلق. فسمعت به عشتر ربة السماء، فشغفت بحبه، فنزلت من عليائها لتقيم واياه. وكان

ادونيس ولعاً بالصيد، فخرج ذات يوم لغرضه المحبوب، بالرغم من تضرُّع حبيبته، وهي في وجل من ذلك، فتأثر خنزيراً برياً، ورماه بسهم من كنانته، فهجم الخنزير عليه، وأرداه قتيلاً.

وهناك رواية اخرى هي ان ادونيس هو ابن مُرَّة من زوجها ثيلس الملك السوري. ولكن ربة الجمال أفرديت أغرت الأُمَّ بابنها، فاحبته حباً شقياً، فغضب الملك زوجها، وَهَمَّ بقتلها، فَأَدخلت افرديت الرحمة على قلبه، فمسخها شجرة، دُعيت باسمها. وبعد عشرة اشهر انشقت الشجرة، وانبثق منها ادونيس، فافتتنت افروديت (أسترته — عشتر) بجماله فخبأته بصندوق، ووكلت به ربة الظلمات پرسَفُونه، فحبسته عندها، وأبت بعد ذلك ان تعيده الى افروديت. فرفعت الامر الى آله الآلهة زوس، فامر بان يقيم آدونيس ثلث مدة السنة وَپرسَفُونه، وثلثاً وافروديت، ويكون في الثالث الآخر حراً يقيم حيث يشاء.

انك لترى في هذه الرواية الشعرية جمال الحقيقة مقترناً بجمال الحرية. فالآله يغيب في الشتاء فهو اذ ذاك زوج لِرَبَّة الظلمات بِرسَفُونه، ويعود في الربيع، ليكون زوجاً لِأفروديت، ويتحرر في الخريف من قيظ الصيف، وبرد الشتاء. هي ذي الاسطورة السومرية البابلية الفينيقية في تطورها الشعري.

وقد تطور كذلك عيد رب الاسطورة. فقد كان الفينيقيون يبكون آدونيس، ويقيمون له المناحات في الربيع كل عام، فصار العيد في إبان الحضارة الاغريقية عيداً للحمد والجذل. وكيف لا يكون الجذل، وآدونيس قد عاد الى الحياة، بُعث حياً اكراماً للحب الخالد، حب عشتَر ربةِ القمر، ربة الخصب، ربة الجمال. وكانت تمثَّل حاملة المغزل ايضاً والصولجان على رأسها هالة من النور، ممنطقة بنطاق ذهبي، راكبةً في عربةٍ يجرها أسدان.

اما العيد الادونيسي المجيد فقد كان يقام في اماكن متعددة من بلاد الاغريق، وفي جبيل منذ القرن الخامس قبل المسيح، كما كانت تقام المناحات تخالطها الخلاعات قبل ذلك.

فكان يُندب ادونيس في ذلك العيد الاغريقي الفينيقي ويُمَجَّد معاً — الا هو عيد الموت والحياة — الموت والبعث والخلود، كما كان اصلاً في أور وَلاغاش، اي في مهد الاسطورة

وعندما انتقلت الاسطورة من الاغريق الى الرومان،ظل اسم ربها واحداً — ادونيس — وتغير اسم الربة عشتر فصار ڤنيس،اي الزهرة. على انه كان للرومان في بلاد الأفراج (آسيه الصغرى) اسطورة اخرى رَبُّها أَتِيس،هي شبيهة في بعضها باسطورة آدونيس،وفي البعض الآخر بما اكتسبته من الصفة اللاهوتية في بابل

وهاك الاسطورة الأَتيسيَّة. ولد أَتيس من أغدِسْتِس خنثى للآله الاكبر زوس. فعشقت الام ابنها، فصدها عنه، فأَلحفت، ففرَّ منها وَجَبَّ فرجَه تحت شجرة من الصنوبر، فنبت البنفسج من دمه عند جذعها (وفي اسطورة ادونيس ينبت من دمه زهر الشقيق) فقضى تحت الصنوبرة نحبه، وراحت امه تندبه وتبكيه.

وفي رواية أُخرى ان الأم اتخذت ابنها بعلاً لها، فقتله ابوها، فهامت على وجهها تندب الابنَ الزوجَ حبيبها.

وهناك رواية للشاعر أُڤيد جاء فيها ان حب الام لابنها كان عذرياً (هو الاصل السومري) فهي الام العذراء. ولكنها مع ذلك قتلت الفتاة التي احبها اتيس، فَجُن وجنى على نفسه تلك الجناية الوحشية ظاهراً، الرمزية اللاهوتية باطناً (الاصل البابلي) فحزنت عليه جميع النساء، واقيمت له المناحات كل عام.

وفي رواية ثالثة تجتمع الوثنيتان الرومانية والفينيقية. اي ان أتيس بعد نكبته، خرج للصيد، فارسل عليه الآله زوس خنزيراً برياً، فطارده

اتيس، فارتد الخنزير عليه وأرداه. وقد ادخل الأتيسيون على حفلات آلههم السنوية شيئاً من عبادة اله الخمر الاغريقي دِيُونيسوس (باخوس الرومان) فاختلط الفسق والخلاعة بمظاهر الحزن والنحيب.

هذا التوحيد بين ربين، او الاقتباس والادماج في الربوبة والعبادات، لجأ اليه الكهان والحكام لاغراض سياسية دينية. فقد اسلفت القول على ما كان في بابل من الشركة بين ادونيس ومردوخ، كما كان بعدئذ بين دِيُونيسوس وآدونيس، ثم بين الربتين عشتر وجونون ابنة المشتري اله الآلهة. وقد ادخل المصريون كذلك شيئاً من عبادة مَرقد آله الرقص والجذل على عبادة بِس آله المآدب عندهم.

اما ما اقتبسوه من الاسطورة الخالده، وادمجوه في عبادة أيزيس وأزيريس، فان له روايتين. الاولى هي ان أُزيريس، ربَ العالم الادنى، قتله اخوه شِيت او مست، وان أيزيس، اخت أُزيريس وزوجته، استولت على الجثة، وساعدها أبيس احد آلهة العالم الادنى في اقامة المأتم الذي ظهرت فيه الاعجوبة. وما الاعجوبة؟ فقد البست الاسطورة صفةً مصريةً اهلية، هي سحر الكهان ممثلٌ في حب أيزيس. وهذه القوة السحرية اعادت الى جثة أزيريس الحياة، فمشى منتصراً الى العالم الادنى، واصبح ربه الاكبر، اي رب الاموات.

وقد كان المصريون يرون في أيزيس المثل الاعلى للأم والزوجة، ويرون في هُورُسَ ابنها كل صفات الابن البار، فعادوا في ذلك الى الاصل السومري الى الابن السميع المطيع.

اما الرواية الثانية فهي ان أُزيريس كان رب الزراعة — مثل اتيس الذي انبثق من شجرة الصنوبر، ومثل ادونيس الذي نبتت من دمه ازاهر الشقيق — وهو مثله ايضاً في انه سوري الاصل. دخل مصر مع الملوك الرعاة، ثم تحوّل تحوُّلاً وطنياً، فأُشرك مع تيس المِعز الذي كان يعبد هناك.

وبعد ذلك قرنت عبادته بعبادة الهين من آلهة ممفيس، هي الثور والغراب.

ومما يدل على ان أيزيس جاءت كذلك من سورية. بحثها عن زوجها المقتول الذي وجدته في صندوق من خشب الارز في جبيل. اضف الى ذلك تلك الحقيقة البارزة في كل آلهة المصريين، الاهذين الالهين، وهي أنّ رؤوسهم رؤوس حيوانات، ورأسى أزيريس وأيزيس رأسان بشريان. ومن التقاليد المتأصلة في هذه الاسطورة الخالدة هو ان أزيريس، مثل ادونيس وتموز، يُبعث حياً كلما نبت الحب اي في الربيع.

وقد كان المتعبدون في كل الامم التي مرّ ذكرها يضعون بعض البذور في اوانٍ خزفية، قبيل هذا الفصل فتنمو وترمز الى حقيقة التجدد والخلود. هذه العادة لا تزال متبعة في ايامنا — جاءتنا من السومريين على يد كل من ذكرت من الامم البائدة — هذه العادة، التي يزيد عمرها على ستة الاف سنة، متّبعة في زماننا عند الطوائف كلها، فيضعون الحبوب — القمح والعدس والحمص — في اوانٍ خزفية في آخر فصل الشتاء، لتنبت في عيد الفصح عند المسيحيين، وفي اوائل الربيع عند المسلمين. وان في الحالين تتمثل الاسطورة في معناها الخالد، ذلك المعنى الذي لا يتغير، وان تغيرت الاسماء، وتطورت الاشكال والروايات.

فاذا كنت تتبعت فيما قدمناه نشوء هذه الاسطورة، وانتقالها من امة الى امة — من السومريين الى البابليين والاشوريين الى الفينيقيين، ومنهم الى المصريين والاغريق والرومان — من دُموزي وإِنيني الى تموز وعشتر، الى عشتر وادونيس، الى أيزيس وأزِيريس، الى ادونيس والزُهرة — ترى ان تموز وادونيس وأزيريس متسلسلون من دُموزي السومري، وان عشتر وأيزيس وافروديت والزُهرة متسلسلات من إنيني السومرية. وانك لتتأكد فوق ذلك ان المغزى الاصلي في حياتهم جميعاً هو واحد — الحب والألم، والموت والفداء، والبعث والخلود.

على ان الحب تنوع وتطور في ادوار الاقتباس كلها. فكان عذرياً عند الاولين، فصار شِبْقيًا سالمًا، ثم شِبْقيًا لاهوتياً، ثم شِبْقيًا مادياً صرفاً — فكانت الزوجة. والزوجة الام — والزوجة الام العذراء. — والزوجة الاخت — والزوجة التي كانت اختاً واماً للآلهة الحبيب وقد كانت الثلاثة واحدة في عشتر وأيزيس، في زمن من الاسطورة، او في عقيدة طائفة من ابنائها. وكانت الاخت الزوجة في حالات أُخرى — وتفرقت الثلاثة، فانحصر منها الحب الشِبْقيّ الشعري في حب الزهرة وافروديت.

هي الاسطورة الشعرية الدينية السومرية، تعود الى اصلها مصقولة منمقةً عند الاغريق والرومان لعلو منزلة الشعر في الشعبين.

وهي الاسطورة التي اصطبغت بصبغة اللاهوت عند المصريين والفينيقيين لتسلط الكهان في الامتين.

ومما هو جدير بالذكر ان هذه العبادات للام الالهية وابنها — للطبيعة والربيع — وتلك العقائد في الموت والبعث والفداء، هي مصدر الدين المسيحي القائم على العقائد اللاهوتية الثلاث — الام الآلهية، والآله الفادي، والبعث والخلود.

العيد والشعر

ان في آداب الاغريق والرومان قصصاً نثرية وشعرية تصف عيد آدونيس كما كان يقام في جبيل وغيرها من المدن في عهد السلوقيين والبطالسة. ومن الشعر العالي في وصف ذلك العيد قصيدة للشاعر الاغريقي ثِيُقْريطُس، هي الخامسة عشرة في ديوانه، يصف فيها الاحتفال الادونيسي في الاسكندرية وصفاً ناطقاً رائعاً، يعيد ذلك الزمان الى يومنا، فتشعر وانت تقرأ القصيدة، بعد الفين وثلاثمائة سنة، انك تشهد ذلك العيد، وتسمع تلك الاناشيد.

كان ثِيُقْريطُس، السِرَقسْطي المولد، مقيماً في جزيرة صقليب في القرن الثالث قبل المسيح. وقد يمم الاسكندرية في عهد بطليموس الثاني، فمدحه في شعره، ونظم القصيدة الادونيسية يوم كان هناك في السنة السادسة والستين والمائتين.

وكان بطليموس قد تجاوز في حروبه وفتوحاته فلسطين، فاستولى على جبل لبنان، وجامل اهله في دينهم، فجعل عيدهم الوطني، عيد آدونيس، من الاعياد الاغريقية.

وكان اولئك الاغريق يفوقون سائر الامم المتحضرة في حبهم للجمال، وفي مآثرهم الفنية والادبية الممجدة للجمال في دينهم ودنياهم، فمثلوا ذلك العيد تمثيلاً شعرياً رائعاً. واهتم الملوك البطالسة اهتماماً خاصاً به، فكان الاحتفال الاسكندري السنوي اجمل الاحتفالات الادونيسية في البلدان الفينيقية والاغريقية جمعاء.

وان في قصيدة ثيقريطُس وصفاً جميلاً لذلك الاحتفال، بل فيها صورة

حية نضرة متحركة ناطقة، أخذها الشاعر في ذلك الزمان من لوح الوجود، وارسلها الى الاجيال المقبلة بواسطة امرأتين، من نساء الاسكندرية، تشهدان العيد، وتصفان ما شاهدتاه وصفاً صادقاً بليغاً.

ومن جميل ما في القصيدة صورة ناطقة لنساء ذلك الزمان، فترى انهن لا يختلفن في معظم شؤونهن ومزاياهن الانثوية عن نساء زماننا.

ها هن في طريقهن الى دار الاحتفال، رُكسينا ورفيقتها جُرجا ووصيفتاهما.

— عجلي، يا جرجا. لقد دنا وقت الافتتاح — وقد يكون ازدحم المكان بالناس فلا نجد مجلساً.

— بهلة الآلهة على صانع هذا النعل فانه يقرص رجلي.

— حلّي السير، حليه. او انزعي النعل واحمليه — لك رجل جميلة فلا بأس بعرضها عارية. عجلي، عجلي.

وها هن في الدار المكتظة بالناس، وقد نصب في وسطها، فوق اريكة سندسية، تمثال الفتى الفينيقي الذي افتتنت بجماله الربة افروديت، وافتتن بعدها كل واحدة من سلالة حواء في الشرق الادنى، فكن يندبنه في موته ويهللن يوم عيده لبعثه، ذلك البعث الذي كان ينعش في قلوب النساء الحب الجامع الكليّ — الحب الواحد الاعظم — اي حب المرأة لولدها الحبيب، ولحبيبها الزوج، ولزوجها وولدها معاً.

ما كادت رُكسينا تبصر التمثال وما تحته حتى هتفت قائلة: هوذا آدونيس على سريره الفضي. ما اجمله حتى في الموت. وما اجمل محياه. وما اجمل شعره المتجعد حول ثغره.

وما كانت جُرجا اقل احساساً ووجداً من رفيقتها.

— وتلك الشفتان الورديتان — ما الذ قطف الورد منها.

— وتلك الجراح القرمزيه كانها لا تزال تختلج بانفاسه المودّعة.

– آدون – آدون ! ما اجملك، وما اعزك حتى في الموت !

وبين هي تهتف بهذه الكلمات، وبلهجة غرامية مصلصلة، زجرها احد الرجال قائلاً : كفاكِ ثرثرة، ايتها المرأة.

ان في القصيدة من هذا التصوير الاخلاقي ما يمثل لنا جزءاً قيماً من تلك الحياة الغابرة. وقد اسمى الشاعر قصيدته ادونيازوسي اي النساء في عيد ادونس. واهم ما فيها لما نحن في صدده هو نشيد العيد الذي كانت تنشده منشدة رسمية منتخبة من منشدات الهيكل الملكي.

النشيد (١)

ألا عودي الينا يا معبودة قبرص، ويا معشوقة صقليب.

ايتها الحبيبة افروديت، اهجري اليوم الشواطئ الذهبية، وسارعي الينا.

لقد عادت الايام بآدونيسك المحبوب، عادت به الينا من تلك الشواطئ السحاء، التي لا ينور فيها الزهر، ولا تخضر فيها الرياحين.

وها نحن في شهر تموز

وها هي الساعة النادرة الغالية، تمشي الينا بالكنز الاندر الاغلى.

هي تدنو بخطوات صامتة.

بخطوات بطيئة خفيفة تتقدم البعث المنير للعالم.

انها لابطأ ما في الحياة من رسل البعث والخلود.

وان لبطئها سبباً، هو ما تحمله لهذا الانسان الفاني من الذكريات الخالدة. تلك الذكريات الطيبة الاريج التي تلأم جروح الزمان، وتنسي

---

(١) مترجمة عن ترجمة انكليزية لصديق الشاعر الاميركي المتضلع من آداب الاغريق ماريون ميلار. وقد طبعت ترجمته لديوان ثيوقريطس طبعة جميلة في نويورك.

المرء الغموم والاشجان.

فيا ابنة دَيونَة الخالدة، يا ربة الحسن والحب، يا كثيرة الاسماء السرية، يا سيدة الهياكل والمذابح القدسية، لقد عاد آدونيسك اليوم، فعودي انت اليه.

لقد عاد فتى الفتيان، وهو الآن في ارفع مكان.

ها كه فوق سدّته السندسيه، يزينها رُكام من الثار، وركام من الازهار وان لنضجها ونورها الواناً من الشفق، يزيدها خوانٌ من الفضة جمالا.

وقد تغلفت جميعها بغلاف شفاف، نسجته المباخر الذهبية، يحرق فيها البخور من البلاد السورية.

وما تلك الاقراص؟ وما تلك النجوم؟ وهي الحلاوى المنقطعة النظير، ضع يد الحسان — صنعتها من الدقيق الابيض، المختلط بسحوق الصعتر والغار، المعجون بزيت الزيتون وبشهد القفير. صنعتها يد الحسان اشكالاً فاتنةً من حيوان الجو والبر والبحار — من ذوات الاجنحة والقوادم والمخالب.

فاعجب لهذه الحلاوى التي تحسبها تعدو وتدب وتطير.

وهناك تحت طنف من الحبق والخندقوق، محبوك باغصان القصعين والغار، هناك في بيت الشيح الندي، محفوف باطيار الحب والشوق، فرش السريران بالفرش الجميل الديباج والالوان.

اجل ان لتلك الالوان فتنةً تفتن حتى اولئك الذين اخترعوا الارجوان[1] وان لتلك الاشكال من النسيج جمالا يستوقف الرعاة فيسألون: من اين هذا الصوف الشبيه بغيوم الصيف.

سريران الواحد لافروديت، والآخر لآدونيس، فتى الزمان، وعريس كل عام.

---

(١) الفينيقيين

فتى المشاق ! ان قبلته لكقبلة النور لندى الفجر.
فتى الخلود ! ان ثغره لكورق الورد ناعم قانٍ على الدوام.
انعمي يا أفروديت به. عمي مساء، يا افروديت بين ذراعي الحبيب.
وخذي من الليل لحافاً الى ان يتلألأ على مضجعك ندَى الصباح.
وغداً، ساعة انبلاج الفجر، نجيء نسبح ادونيس، ونحمل جثمانه الى البحر، الابدي الاحزان.

فنشق الاثواب ونحل الغدائر، ونردد مع الامواج النحيب، ونشارك في الندب الرياح.

انك، يا آدونيس، لمنقطع النظير بين الابطال، وانك لفريد بين شبيهي الآلهة [1]

انك الوحيد الفريد الذي له ان يعود من غياهب الجحيم الى هذا العالم.

فلا أغامِمنون المغوار، من جَرّ على الاغريق الويل والدمار، ولا بيروس ولا هكتور مِن كرام الابطال، ولا مَن دوخوا البلدان، وادهشوا الزمان، في التاريخ القديم، وفيما قبل التاريخ، لا ينعم واحد من اولئك الابطال وشبه الآلهة بما نعمت انت به. وليس فيهم من حظي حتى باليسير من هذه الكرامة.

فيا ادونيس الحبيب، كن انت كذلك كريماً.

الحفنا بكرمك، واَخصصنا بنعمائك، فتستيقظ الحياة في الاشجار، ويستيقظ الحب في البشر.

---

(١) لقد اكرم بطليموس آدونيس اكراماً للفينيقيين، ولكنه اكراما لآلهة اجداده، ورعياً لشعور رعاياه الاغريق، ما اذن بان يدعى آلها. فلم يرفعه الى مقام الآلهة، خشية ان يغضب الملك. ولكنه وصفه بشبيه الآلهة – او بالحري دعاه demigod نصف إله.

الوداع، آدون، الوداع.
لعام، آخر – السلام.
فقد كنت خيراً في القِدم،
وخير انت على الدوام

نهر آدونيس

اني افضل الاسم الاصلي لهذا النهر على اسمه الحاضر الذي لا يُعرف اصل له. وان قيل لي ان ابراهيم كان اميراً على المردة، فسُمِّي النهر باسمه، اقول ومن المَرَدَة، ومن اميرهم، اذا ما ذكر الاله العزيز، اجمل آلهة الاقدمين، واكرم ابطال الاساطير — آدونيس ؟

وهوذا النهر الذي قُدس لذكره، ودُعي قديماً باسمه. فيجب ان يعاد الاسم اليه، احتراماً للتاريخ — وآدونيس طرفة المؤرخين — واكراماً للشعر — وادونيس حبيب الشعراء، قديماً وحديثاً، من ثِيُقْريطُس وأُوڤيد الى شِلِي وشكسبير.

ليس نهر ادونيس من الانهر العظيمة في الارض. هو طفل في نظر النيل والفرات. هو قزم في عين الغنج واليَنْغَسِي. هو ساقية اذا ما جرى الى جنب الامازون والميسيسِبي، ولكنه على صغره عزيز الذكر، رفيع الشأن، ردد اسمه الانسان في هياكله، وفي عقائده، وفي شعره واساطيره.

ما عرف هذا النهر الحيتان والتماسيح، ولا سمع في عهده الادونيسي زئير الأُسُد، وعجيج الافيال. ولكنه عرف البخور، يُحرق على ضفافه، وسمع الاناشيد تنشد في واديه.

ما جرت السفن في نهر آدونيس، ولا رُفعت فوق مياهه اعلام النواتي والجنود، ولا شيدت على ضفافه الابراج والقلاع. ولكن الآلهة مشت على امواجه، والليل رفع فوقها راية الاحزان، فخرت لها النساء ساجدات، وتطأطأت لها رؤوس الملوك والكهان.

ليس لنهر آدونيس سهول تموج بطيّب الاخضرار، ولا مدن تباهي

النجوم بالانوار، ولا خطوط من الحديد يُسيَّر عليها الحديد الجبار. ولكنّ له من ذوات الزيوت والعطور غابات، ومن رواسي الجبال قنناً في الغروب مذهبات، وفي الصباح بالدمقس رافلات، ومن اضواء الليل والنهار آيات فوق آيات، في الانجاد، وفي الوهاد

من مخازن الثلج العالية الخفيّة، الى السراديب الكلسية والرملية، في ظلمات بردها مثلها لا يزول، الى الباب الذي تحرسه الشمس في النهار، والقمر والنجوم في الليل — الى باب الغار الذي يشرف اليوم على البطحاء المنكوبة، وكان يشرف في قديم الزمان على هيكل ربة الحب والجمال، ومنه يتدفق ذوب اللجين شلالاً صفياً، ويتكون بحيرةً لازوردية، ومن الشلال الاول والبحيرة الاولى الى الوادي، بين السهول المزروعة، والربى المخضوضرة، تحت ابواب مساكن الانسان، وكهوف الدببة والذئاب، الى المنفرجات في الصخور، والبحيرات في البطاح، في اغوار تتسع جنباتها وتضيق، بين الهباب تزداد علواً وهولاً كلما ازدادت الاغوار مدى، تحت ارائك النسور وفي ظلال الصنوبر والشربين حيناً، وحيناً في ظلال الدلب والصفصاف، الى التربة المنبسطة اللينة، عند بقية قناة رومانية، الى بساتين الموز والليمون، الى الساحل الذهبي، الى البيت الخالد، الى البحر! — هي ذي طريق نهر ادونيس، وهي لا تتجاوز ثلاثين كيلو متراً من علو الفين متر — من الثلج الى الرمال. هو اصغر نهر مقدس في العالم، وهو في نظرنا نحن ابناء هذا الجبل النهر الاجمل الأعز بين الانهار.

لقد طفنا الجبال القائمة الى ضفتيه، وعند منبعه ومصبّه، فاشرفنا على واديه من خرائب المشنقة، وعلى مياهه من مروج قرطبه، وحججنا نبعه من العاقورة على الاقدام، ثم عدنا الى الساحل فسرنا على ضفة النهر اليسرى (الجنوبية) الى رواقه البحري، فصعدنا في جبل الفتوح، واشرفنا من احدى هضابه على القناة التي كانت تحمل في عهد الرومان المياه الى جبيل،

والتي ترتفع اليوم في بقية منها فوق بساتين الموز والليمون، ورحنا ممعنين في التصعيد، متغلغلين في صميم الجبل، فاختفى عنا النهر وواديه، وما عاد ليغرينا المشهد حتى اطللنا على يحشوش .

وقد كانت يحشوش تزهو في قديم الزمان، بهيكل من هياكل «الآله المتألم»[1]، فوقفنا على سطح احد بيوتها ننظر الى لمعات من النهر في الناحية الغربية، وقد انحدر اليها الجبل انحداراً لطيفاً حافلاً بالكروم والبساتين. ونظرنا الى النهر من الناحية الشرقية، فاذا هو يجري مزبداً بين الصخور، في مضيق الوادي، تحت ناظري جبل موسى وجبل المشنقة.

آدونيس، ادونيس! لا يزال اسمك يردد في الجبال والاودية، ولا يزال ذكرك ندياً عاطراً، ولا تزال تنوّر من اجلك كل ربيع الشقائق القرمزية — شقائق الذكرى الدامية.

وهوذا رسمك في ذلك الصراع المجيد، صراع النور والظلمة، صراع الربيع والشتاء، صراع الحياة والموت. فأرداك خنزير البر وما افناك. اثخنك جراحاً، فنطق كل جرح بالكلمة الخالدة: الحياة نزاع فالم فموت فبعث فخلود.

نكبنا عن الطريق في الغينه، ومشينا في حقول زرعت توتاً وزيتوناً الى الصخرة المنقوش فيها الاثر الادونيسي. وهو اطاران، الواحد يحتوي على صورة الآله والخنزير البري يتصارعان، وفي الثاني صورة امرأة جالسة تبكي الآله المذبوح.

وهناك تحت تلك الصخرة ناووس لا غطاء له، فقد حطمه ولا ريب احد الفلاحين ليصنع منه اسكفة لباب بيته كما فعل اخوانه في اغطية نواويس المشنقة. وهو، اي الناووس، يستخدم اليوم كحوض للمياه، يسقي

---

(١) يحشوش لفظة سريانية معناها الآله المتألم.

منه الفلاح الجاني حقيلاً من ارضه.

وهناك ايضاً، الى جنب الناووس، تحت الصخرة الاثرية، تشويه آخر، اراده بعض الفرنجة، على ما اظن، ان يكون حاشيةً حديثةً لتاريخ الأثر القديم. هناك نقشت باللغة الفرنسية هذه الكلمات :

Ici Maurice Barrès s'arrêta pour aimer et comprendre nos âmes.

وهاك حرفياً الترجمة :

ها هنا وقف موريس بارس ليحب ويفهم ارواحنا.

فمنها نعلم ان موريس بارس، الكاتب الفرنسي، الذي نشأ تأثراً على الهيئة الاجتماعية والدينية، ومات مستسلماً، زار هذا المكان. ونعلم كذلك انه وقف ها هنا وقفة الفيلسوف او العالم او الشاعر او المتعبد. وقد يكون وقف وقفة الجاهل الحائر العييّ، فشاء هو، او شاء رفيقه، او شاء احد المعجبين به، ان يشركه في الخلود وآدونيس، فحفر خبر زيارته، وزاد عليه الكلمة التي لا اظن يغبط العالم الفيلسوف على معناها، اذا كان لها شيء من المعنى.

وَلكِنا سكتنا عن هذا التشويه لو اكتفى كاتبه بِـ « ها هنا وقف موريس بارِس » ولكنه وقف، لا حباً باستنطاق الآثار، على ما يظهر، ولا اجلالاً لادونيس، بل « ليحب ارواحنا ويفهمها. » بارك الله فيه.

على اننا في ريب من مرجع ضمير الجمع في « ارواحنا » ارواح من، يا سيدي الحفار العيّار ؟ أأرواح الفرنسيس ؟ أأرواح اللبنانيين ؟ أارواح الفينيقيين عبدة أدونيس ؟ ام ارواح اخوان ذلك الذي صرع الآله وارداه ؟ اننا لفي بريَّة من درر المعاني، واننا لنخشى عليه من الخنازير.

فبعد « الحب » و« الفهم »، يا ايها الزائر الكبير، ماذا ؟ ماذا حملت الى اهل هذه البلاد في حقيبتك غير الحب والفهم، وقد كنت يومئذٍ نائباً في مجلس النواب الفرنسي ؟

اني اقف عند ذكرى زيارتك، لا كما وقفت انت « لافهم واحب ».
بل اقف حائراً في امر ابناء بلادك الاذكياء المشغوفين بالمجد، وامر ابناء بلادي الاوفياء المشغوفين بالعاطفة.

بحشوش

ان لافقا غير الطريق الذي سلكناه، اي طريق جبيل، الذي تقدم وصفه في فصول هذه الرحلة. فالطريق الآخر هو طريق الفتوح او فتوح كسروان، وهو يبدأ في المعاملتين، فيمر بغزير وعرمون فالكفور، فالغينه، فيحشوش، ومنها او من الغينة ينجد المسافر، فيمر بنبع الحديد، ويستمر شرقاً بشمال، فيصل الى افقا من الناحية الجنوبية.

وفي هذين الطريقين اخربة وآثار لهياكل وانصاب فينيقية رومانية تقدم ذكرها، فكانت الغينة اولها، وما هي بآخرها في طريقنا هذا. فان لادونيس ذكرَ هيكلٍ في يحشوش، واثاراً في اعالي فتوح كسروان، بجوار الحائط الروماني الذي كان الحد الفاصل بين الفتوح وجبيل.

يقول الاثريون ان هذه الآثار القديمة، آثار الهياكل وما اليها من بناء، كانت محطات او مضايف لزوار الهيكل الاكبر، هيكل عشتر وادونيس بافقا في العهد الفينيقي، ثم هيكل الزهرة في عهد الرومان. فكان الزوار في الاعياد، وخصوصاً في العيد السنوي — في فصل الربيع — يجدون في هذه الاماكن بعض اسباب الراحة والضيافة. هذا رأي الاثريين.

والرفيق الحويك، العالم بتاريخ الاقدمين وآثارهم، علمه بهنته، بفنه، يقول ان تلك الاماكن المقدسة، والآثار الدينية، هي من اعمال البر والتقوى الخاصة، أقيمت اما لذكر الاموات، او لرغبة بعضُ الوجهاء الاغنياء بتخليد ذكرهم في هذه الدنيا، وتأمين خيرهم في الآخرة. والدليل على ذلك ان في جوار كل هيكل، او عند كل نصبٍ مقبرةً، او ما تبقى منها من النواويس، فالوجيه في قومه او الكاهن او المتعبد الغني اراد ان يُشيّدَ عند قبره معبداً

او يقيمَ نصباً، وَيُنقَش فيه شيء من اسطورة آدونيس، او رسمه، او رسم احدى النساء النوادب، كما يفعل المسيحيون في تزيين قبور موتاهم بالتماثيل والرموز الدينية.

وان للشبه وجهاً آخر هو ما كان يذاع عن بعض هذه الهياكل وكهانها من اخبار العجائب والكرامات. فكان يؤمها الاتقياء ناذرين النذور، يتوسلون بها لتحقيق طلباتهم، او حاملين اليها القرابين مستغيثين مستشفين، كما يفعل زوار السيدة لورد مثلاً في هذا الزمان.

ومما يؤيد رأي الرفيق الحويك ان المسافات بين الهياكل في الطريقين غير متناسبة. فدير الازرق مثلاً هو قريب من هيكل المشنقة، وليس بين المشنقة وساحل جبيل هيكل او اثر لهيكل آخر. كذلك قل في الغينة التي هي على ثلاثين كيلومتراً من جونيه، وليس في الطريق اثر لهيكل، آخر، الا ما كان في يحشوش، وهي من الغينة في القرب كدير الازرق من المشنقة.

اني اجنح الى تصويب رأي الحويك، واضيف الى ما تقدم هذه الملاحظة : في يحشوش اليوم كنيسة لمار سمعان العمودي، وهو من سورية، ديره في الجبل المشرف باسمه، شرقاً بجنوب من حلب. فهل يصح ان يقال إن كل ما شيِّد من كنائس واديرة على اسم هذا القديس من ساحل البحر الى جبل سمعان، هي محطات او مضايف لحجاج مَقرِّ العمودي الاول ؟

اما وقد بسطت الرأيين، فللقارئ ان يحكم فيهما، وقد يضيف اليهما رأياً ثالثاً. على كل حال ليست المسألة في منزلة من الاهمية عالية لنخصها باكثر مما تقدم من البحث. لنعد اذن الى يحشوش، والى ما هو اهم في نظرنا من كنيستها، وقديسها، واهم من اسمها السرياني – الآله المتألم.

أقف بك عند السنديانة العظمى – سنديانة الكنيسة، سنديانة القرية، سنديانة معلم القرية سنديانة الاديب اليحشوشي في غربته، سنديانة الذكريات اللبنانية الخالدة.

وان لهذه السنديانة قيمة بنفسها تتقدم ما لها من فضل ومأثرة. كيف لا وهي من السنديان اللبناني القديم (المسجل في اللائحة الملحقة بهذا الكتاب) بل هي تمتاز عما شاهدناه من تلك الاشجار الجبارة بما تنعم به من حسن الرعاية، فتفوق زميلاتها صحةً ونضارةً ونمواً سويا. اي انها متناسبة الاغصان والفروع، افقياً وعمودياً، وارفة الظلال، ذات محيط يبلغ خمسة امتار.

هي ذي سنديانة داود بركات رحمه الله. هي هي السنديانة التي طالما كان يتغنى بها، ويحن اليها، ويتخذها رمزاً على الوطنية اللبنانية، والمجد اللبناني. هي هي السنديانة التي قرأ داود تحت اغصانها مزامير مميه الملك النبي، وقرأ بعده الاديب بطرس معوض. والشاعر شكرالله الجر، واخوه الخطيب عقل من ادباء هذه البلدة المتنسكة بين الجبال.

وان في ظل السنديانة، امام باب الكنيسة، بركةَ ماء ذات قصة طريفة قصها علينا احد المقدمين اليحاحشه.

فاعلم اولاً أن يحشوش اقدم واكبر قرية في فتوح كسروان، أُسست في القرن السادس المسيح، او أُعيد تأسيسها بعد ان كانت قرية فينيقية. واعلم ثانياً انّ اكثر سكانها في العهد المسيحي السعيد كانوا من الشيعيين، وكان زعيمهم اسماعيل حماده في القرن الثاني عشر. واعلم اخيراً ان اسماعيل هذا كان يجلس على سدة الزعامة [1] (قال الراوي: كان يجلس على تحت روام، اي تحت روان) — التي كانت تنصب له مكان هذه البركة، فيقضي في الناس والكرباج بيده.

ثم ذهبت ايام اسماعيل وتختُ رَوانِهِ وكرباجه، وشرع المسيحيون بعده يتوطنون يحشوش، فيقل، كلما كثر عددهم، عددُ الشيعيين، حتى امسوا نفراً قليلاً، وغدت البلدة معقلاً للنصرانية، بل المارونية القحة، رمزها السنديانة

(١) قال الراوي :

والمزامير، وشفيعها القديس سمعان العمودي.

واعلم، دمت للفضل عموداً، أن القديس سمعان يتخصص في عجائبه بقتل الديدان والحشرات. وذلك بان يُنثَر من ترابه عليها.

تراب مار سمعان! ان فيه الموت الزؤام لكل ما يدب ويتحوى على هذه الارض.

تراب مار سمعان! لَشد ما كان يتمناه داود بركات لديدان الصحافة وعقاربها، بل لكل من حمل قلماً ممن لا يحسنون غير الدَب واللذع والتحوي

نقل داود بركات من تحت السنديانة الى مدرسة بعرمون، واخرى بغزير، ثم دخل مدرسة الحكمة ببيروت، وبعد ان علم سنةً فيها وسنتين في مدرسة بيرالهيت، هجر الجبل الى مصر، وتدرج في الصحافة الى رئاسة تحرير الاهرام، فاستمر فيها ثمانيا وثلاثين سنة، كان معززاً لتلك الجريدة في كل اطوارها السياسية.

لست ممن توفرت علومهم بشؤون الصحافة المصرية وسياساتها ليجوز لي البحث فيها. ولو كان لي بعض العلم في الموضوع، فالمجال في هذا الكتاب لا يتسع لغير ناحية واحدة من شخصية داود بركات، وهي الناحية اللبنانية.

حمل داود لبنانيته في قلبه وعلى كتفيه. فما فادى يوماً بها، ولا آثر خيراً على خيرها. ما قال مرةً لها : تواري، فلا اكون من الخاسرين، ولا جلس عليها ليخنقها، ويجلس بعد ذلك على الكراسي العالية.

كان في وطنيته اللبنانية «سنديانياً» وكان له في الدفاع عنها قلم شريف عفيف، تنزه عن المقاذعات والمهاترات، وما أثار في الناس الفتن والنعرات الطائفية، ولا تاجر بالمبادىء السياسية، والنهضات اللبنانية، ولا استثمر الجهل والتعصب، كما فعل غيره من الصحافيين المترحمين في المهجر وفي الوطن.

ما من لبناني عرف داود بركات، وان كان واياه في السياسة اللبنانية

العربية على طرفي نقيض، الا وكان له من المحبين المحترمين.

فقد كان ذا مثل عالٍ في لبنانيته، وكنا، كما لا نزال، من الآسفين ان يكون ذلك المثل العالي منحصراً في السنديانة والكنيسة، ومسوّراً بسور من صخور التقاليد.

هذه الوطنية اللبنانية العريقة، الضيقة النطاق، هي كيحشوش بين الجبال، وكالقروية اللبنانية بين النساء. ولكن المواصلات الحديثة الاسباب قرّبت حتى يحشوش من الثغور والامصار، وان التعليم الحديث لمدركٌ حتى القرويات في اقاصي الاغوار والانجاد اللبنانية. فهل تسلم، والحال هذه، تلك النفسية اللبنانية المتشربة روح القرية، المتظللة سنديانة الكنيسة، المحصنة بالشوامخ من الجبال.

كان ابن يحشوش في الماضي يعد العدة للسفر الى بيروت، كما يعد العدة اليوم للسفر الى مصر، فيحسب نفسه اجنبياً في الحالين. وكانت الرحلة الى مصر في نظره كالرحلة الى اميركة، فيحسب نفسه غريباً عندما يخرج من بلدته ويتجاوز في السفر نهر الكلب.

واما اليوم فان ابكر في السيارة من يحشوس يفطر في بيروت، وان واصل السير بعد ذلك الى دمشق يتغدى هناك، وان استمر شمالاً في ذلك اليوم يبلغ حلب قبيل الغروب. ثم يعود من حلب في اليوم التالي باكراً فيصل الى اللاذقية ويتناول طعام الغداء فيها، ثم يستأنف السير جنوباً الى طرابلس فالمعاملتين، ويعود مصعّدا في الجبل الى يحشوش فيصل اليها ساعة العشاء. يومان اثنان يكفيان لهذا التطواف في لبنان وسورية. وفي ذلك ما لا يخفى على اللبيب من مغريات الفكر، وموحيات الآفاق — آفاق السواحل والجبال والسهول — ان كان في الامور الاجتماعية او الوطنية.

ان افق المرء الطبيعي لمن عوامل تكوينه الروحي والعقلي. ومتى كان التعليم مثل الأفق في ضيقه او اتساعه كان العامل الافقي أشد فعلاً ورسوخاً

في النفس. فيصعب بعد ذلك التغلب عليه. وفي الاخص اذا كانت التقاليد الموروثة هي واحدة وعاملا الافق والتعليم متحدين.

فما هو افق الصبي داود بركات؟ انه قصير المدى شمالا، وقائم كالسور شرقاً بجنوب، وذو كوة غربية تريك في الجو الصافي رقعة صغيرة من البحر. اما في الناحية الشرقية الشمالية، فيكاد يكون الافق مقفلاً، الا للعقبان والنسور.

هو افق داود بركات الصبي، وقد ظل افق الرجل المفكر داود بركات. هو الافق الموحش المغم. ولكنه لا يخلو من روعة في بعض مشاهده. فان في الشرق الشمالي يجتمع وادي يحشوش بواديَ الشواية وعلمات، وتصعد من الاودية الثلاثة القنن المهشمة المسنَّمة، الشبيهة بسلات جبال سويسره، وهي تندر في لبنان. وهنالك فوق تلك المهشمات المسنمات سطح علمات والمشنقة، ودونه ذلك السند ذو العشرة الاكواع في الطريق الى قرطبة.

اما في جبال جبيل غرباً بشمال فهناك بضع قرى منتثرة بين الاحراج والصخور، منها فَتْرَة وسَنُّور ومَشَّان، وفي الصهوة على الأفق الاسحم بيرالهيت.

هو القسم المنبسط في مداه من افق يحشوش. ولكنه لا يزيل من من القلب ما يفعله به جبل موسى، ذلك الجبل المنتصب فوق القرية كالظل المجسَّد الخالد، يظللها بظلاله، من البيت الاعلى فيها (٨٠٠ متر فوق سطح البحر) الى البيت الاسفل (٥٥٠ متراً) ويرمقها بالقليل من الشمس.

انه لكالليل المدرك ذلك الشاعر. ولكن منه تنبجس العيون، وفي واديه السحيق نهر يلتقي بنهر آدونيس، وهناك في وسطه، على رفٍ من رفافه، دير للرهبان وحيد فريد، قد يكون شيده اجداد داود بركات، صقور لبنان والايمان.

يحشوش داود، طوباكِ، في قديم ثراكِ. فان اجمل ما شاهدناه فيك – بعد السنديانة – دوالي العنب تعترش اشجار البُطم والملُّول. لكل دالية عرشها. عزيزة فيه مستقلة. وفي كل المحائك، من ضواحي النهر الى مشارف الجبال، عروش زاهية، هي عروش الدوالي، وقد التفت حولها، وكللت رؤوسها، وتغلغلت في قلبها، فتدلت من جوانبها الفسائل المترنحة، المثقلة بعناقيد العنب العنبرية اللون، وبالياقوت منها والبنفسج والفيروز.

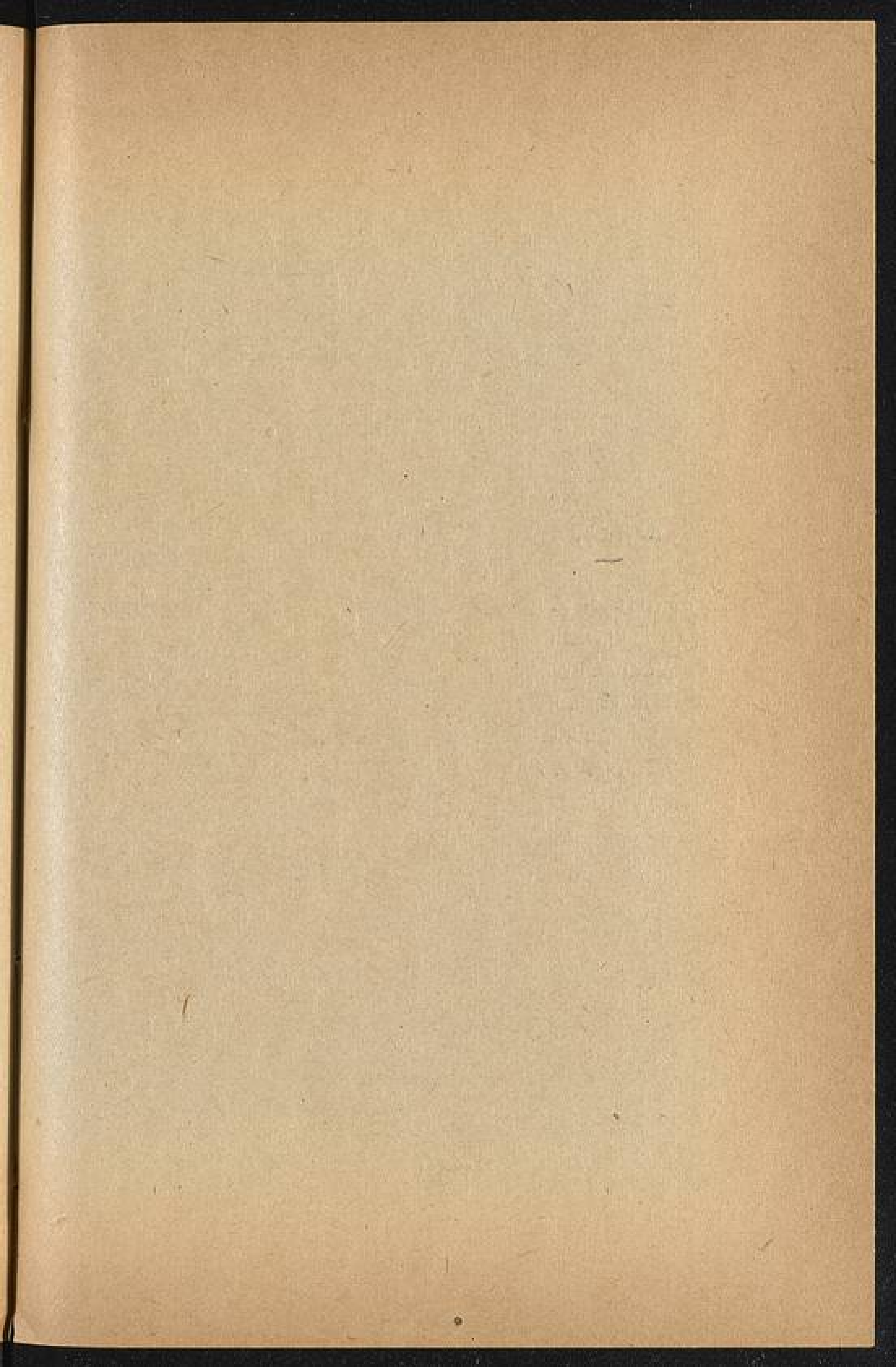
هي شعانين يحشوش، شعانين الصيف الذي لا يخلف في وعده وعَوْده، شعانين العيد الذي تقيمه الطبيعة كل عام، ان كان آدونيس المعبود، او صاحب العمود.

الرحلة السابعة

عمشيت

•

محتويات الرحلة



من يحشوش الى ترِيغيه (١)

ليس في هذا الانتقال البعيد السريع شيء من العبث في التجوال او العَبَث : لا خلط ولا هزل فيه، هو انتقال مصمَّم مرضَّن كما سنرى. فقد ختمنا الفصل الأخير من الرحلة السابقة باسمي آدونيس والقديس سمعان العمودي، وسنفتتح الفصل الاول من هذه الرحلة باسمي اله البحر نبتون وقديس من قديسي الهر اسمه تُغدُوال.

اذن بعون نبتون وتُغدوال ننتقل الآن من شواطئ فينيقية الى شواطئ فرنسة الشمالية، الى البحر الفاصل بين بريتانيه الفرنسيس هناك (Bretagne) وبريطانية العظمى. ولا بد من التاء في الاولى، والطاء في الثانية، للتمييز بين البلادين. اما العَظَمَة – بالتفضيل او بافعل التفضيل – فهي في صاحبة « الطاء » عنوانٌ وتقليد (قالوا : العظمى، فآمنا) وهي في صاحبة « التاء » روح ولاهوت. فالايمان لازم في الحالين.

ولكن الانتقال الفجائي من الشرق الى الغرب، من لبنان الى بلاد الهريتان، من يحشوش الى ترِيغيه، لا يتصل ظاهراً بشيء مما قدمت. فما الداعي له يا ترى. وهل هناك، وقد ذكرت الآلهة والقديسين، صلة خفية لاهوتية ؟

قد اعكر على القارئ صفاء صحبته، فيقف فيها عند هذا الحد، اذا

(١) Treguier, Cote - de - Nord, Bretagne

اقتصرت على الجواب ان لا لاهوت – لاعبث ولا عبث – فما انا فاعل .
واذا اكتفيت من البرهان بالقول ان صفة الانتقال ملازمة لصفة التجوال .
فان في ذلك شيئاً من خبث العبث بالكلام المركب المفيد. كما ان فيه
عظماً من عظام الحقيقة، ونسمة من روح ذلك الرحالة الاول ابليس. أفلا
تذكر الحديث بينه وبين الله في سفر ايوب ؟ قال الرب لابليس : من اين
جئت ؟ فاجاب ابليس الرب قائلًا : من التجوال في الارض.

على ان غرضنا في التجوال غير غرض ابليس، الذي انتدبه الله، ليمتحن
ايوب في بلواه. ان غرضنا لبعيد عن البلوى والابتلاء. كيف لا وهو ادبي
تاريخي فلسني شعري، وفوق ذلك انساني. وبكلمة اخص ان قصدنا
الشريف في الانتقال الى تلك المقاطعة الشمالية الغربية من فرنسه التي تدعى
بريتانيه، والى البلدة الصغيرة فيها التي تسمّى ترِيغيه، انما هو التتميم لما تقدم
من عمل ادبي تاريخي، وما يجر اليه من التنقل في العوور والبحار، تنقُّلَ
سندباد العلم في الكتب والاسفار.

واني ازيد القارىء الرفيق تبياناً. ان انتقالنا من لبنان الى بريتانيه
الفرنسية بعيد في الظاهر، قريب في الباطن. وفي الحقيقة التي تنبثق منها.
فان بريتانيه بلاد جبلية كلبنان، وان كانت جبالها دون جبالنا روعة
وعلواً، فهي تشبهها فيما تحتضنه من الاودية والبطاح، وفي من يقيم بها
من الصالحين الاتقياء، المتعبدين والمتعبدات، بل ان في ابنائها ما في ابناء
لبنان من البساطة الريفية، الا انها قاتمة الوجه، جافة الاهاب. وفيهم السذاجة
والصلابة والتشبث التي يمتاز بها اللبنانيّون .

وان بين البلدين اللبناني والبريتاني شبهاً تاريخيا. فقد احتل الرومان
بريتانيه، كما احتلوا لبنان، في قديم الزمان، واستمر ذلك الاحتلال في
البلدين اكثر من خمسمائة سنة. وقد تشبث البريتانيون بوثنيتهم تشبُّث
اللبنانيين، فما تنصروا جميعاً قبل القرن الخامس. وقد حارب البريتانيون في

سبيل استقلالهم كما حارب اللبنانيون قديماً، فكان الاستقلال الذي احرزوه لمعات في الظلمات، او ظلمات بنفسجية ناعمة، ذات هذآت وهجعات ....

وبعد تنصر البريتانيين. شيدت في بلادهم، كما شيدت في هذا الجبل، الاديرة والكنائس من حجارة هياكل الاوثان، وتطيبت حياتهم بطيب القداسة التي كانت تعبق من هالات قديسيهم الوطنيين، وفي مقدمتهم سان مالو وسان تغدُوَال [1]، كما تطيبت حياة اللبنانيين بطيب الاحبار الابرار، والنساك والطوباويين، وفي مقدمتهم مار مارون ومار سمعان ومار قزحيا، عليهم السلام. فالحق يقال ان كلا الشعبين صقرُ ايمان، له من مآثر الورع والتقوى، ما له من خنفشار العقائد والخرافات.

وقد كان البريتاني يتفانى بحب الملك والكنيسة، كما كان يتفانى اللبناني بحب الكنيسة وفرنسة. تمرد البريتانيين على ارباب الثورة الكبرى سنة ١٧٩٢، وعلى الجاكوبين، اعداء الدين، كما تمرد اللبنانيون في النصف الاول من القرن الماضي على الدولة العثمانية، فدارت الدوائر، لا على الباغين، بل على المتمردين. انتصر الجمهوريون على الملكيين في جبال فنده ببريتانيه، فنزعوا السلاح من الف مقاتل وذبحوهم جميعاً، كما فعل الاتراك بالموارنة في «حركاتنا» الاستقلالية المباركة. والغريب في حوادث البلدين ان الشبه يصح حتى في المسببات. فقد كان رجال الدين، هنا وهناك، السبب الاول، والعامل الاكبر، في نكبة المتمردين. هو حب الكنيسة لابنائها الابرار.

بريتان ولبنان، كلاهما كان حصناً لما كان حقاً في اعتقاد المرؤوسين، ومصلحة في نظر الرؤساء، في القديم والحديث من الزمان. البريتاني واللبناني كلاهما كان شديد التعصب لقوميته، ولدينه، ولقديسيه.

وقد كان للبريتانيين ديغسكلان [2] كما كان اللبنانيين يوسف بك

---

(1) St Malo, St. Tugdual

(2) Bertrand Duguesclin

كرم – بطلا الاستقلال المفقود.

وتكثر في بريتانيه الراهبات والصلات والمهرجانات الدينية، كما تكثر في لبنان

اما النوابغ فما خلت منهم البَلَدان. فقد نبغ في بريتانيه عدد من السياسيين والزعماء، وابطال البر والبحر، مثل كارتيه[1] مؤسس كندا الفرنسية، وسركوف[2] من كبار قواد الاسطول. اما في العلم والادب فالفضل للبنان. هذا اذا كان الفضل يُقدر بعدد النوابغ لا بآثرهم. اما اذا عُدّ الواحد من رجال العبقرية بمائة من ابناء النبوغ، فان الفضل الاكبر لبريتانيه الفرنسية، بل لبلدة صغيرة هناك، لا يبلغ عدد سكانها ثلاثة الآف نفس. هي هي تَريغيه، القائمة على ذلك الشاطىء الصخري الموحش، شاطىء ال «مَنش» الشمالي.

ولكنّ لِتَريغيه كنيسة كاتدرائية ذات ثلاث قباب، ودير للقديس تُغدوال، ومينا. تبحر منها الاشرعة الباسلة للصيد في اقاصي البحار، في شمال العالمين القديم والجديد – في مناطق الثلج والجليد.

وفي تريغيه هذه ولد ارنيست رنان – موضوعنا الآن.

فهو الذي حبب الينا هذا الانتقال الفجائي، وهو الذي اغرانا بما في عنوان هذا الفصل من معاني الاقتران والمقارنة. الظاهرة والمستترة، التاريخية والاجتماعية.

بل هو وشقيقته هنرييت، المدفونة في عمشيت. رحمة الله عليها وعليه.

---

(١) Cartier,

(٢) Surcouf

الشقيقة المربية

كان والد رنان من نواتي تريغيه، رزقه في الشراع — في الاتجار والاسفار. فخسر في احدى سفراته التجارية خسارة جسيمة، ما عاضه الله منها.

وكانت ابنته الوحيدة هنريبت يومذاك في الثانية عشرة من سنها، وفيما فوق ذلك من النضج العقلي والترصّن. ثم ولد له في سنة الخسارة، اي سنة ١٨٢٣ ولد أسماه ارنست. فتنازع الفرح والحزن قلب الشقيقة الصغيرة. فرحت بولادة شقيق لها، وحزنت لخسارة والدها.

وكأني بها كانت تشعر بمكنونات الايام، فتحس بالتبعة التي ستُلقى على عاتقها. لذلك كانت الكآبة تخيم حتى على سرورها. فلئن اشمل الله لها في مهد الشقيق الطفل مشمال المحبة والسلوان، فلقد كتب لها ان تكون لهذا الشقيق الرفيقة المربية المرشدة المعينة طول حياتها.

وما عتمت ان رأت الوزر امامها، وليس في البيت يد تُمد اليه غير يدها. فبعد خمس سنوات من نكبة والدها التجارية، عاد مركبه ذات يوم من البحر، وفيه الفراغ المفجع. دخل ميناء تريغيه، والشراع يحنو على خشب لا ربان له. راح رنان الى البحر وما عاد، فامسى سراً من اسراره ما عرف النواتي شيئاً مما كان. ولا جاء احد يخبر عن المختفي، او بأثر له استأثر البحر به، وسدل عليه سواد نقابه.

كانت هنريبت يومئذ في دير الرهبات بتريغيه، تتلقى مبادىء العلوم، وتتشرب روح الايمان والتقوى. وكانت تدرجت الى النعمة الخاصة، فلبست الثوب الاسود والقلنسوة البيضاء، لولا اخوها الذي احبته وهو في

المهد حباً تولته الايام، فنا والمحبوب معاً. ولقد وَدّ الشقيق بعدئذ لو ان رغبتها بالترهب تحققت، لانها كانت عروس الاحزان.

خرجت هنرييت من الدير، والقلب منها يتلفت الى جدرانه، ويرى داخل الجدران، على مذبح الكنيسة، الشموع الدائمة النور، والمصلوب الدائم الكآبة.

خرجت من الدير تحمل مزامير داود، ذلك الكتاب الذي كان النواة لغرسها الروحي. ولهذا الغرس في نشوئه ونموه اطوار خاصة، ستنكشف فيما سنقص عليك من حياتها.

في تلك الايام عاد الى ترِيغيه بعض الأُسر من اشراف الفرنسيس، الذين كانوا قد هجروا فرنسه في عهدي الثورة ونپوليون. وكان بينهم سيدة قضت ايام هجرتها في انكلتره، فتثقفت بالثقافة الانكليزية، واتخذت التعليم مهنة في بلدتها، فكانت هنرييت رنان من تلميذاتها. وَاَشدّ ما كان من نفوذ هذه السيدة على هنرييت، فازدادت اخلاقها متانة وسموا، واتسع نطاق فكرها وعقيدتها، فتزعزع الايمان الكاثوليكي في صدرها، وأخذ بالانهيار.

بيد ان الكآبة والهم لزماها على الدوام. فقد تعددت الخسائر والديون، وبدت خلالها اشباح الفاقة والعسر، وهي في كل احوالها تفكر في مستقبل اخيها. ولقد رأته ذات يوم في ثوبه البالي يحاول ان يستر خرقاً فيه، فترقرقت عيناها بالدموع.

جبهتها الحياة باقبح ما فيها، فصممت على هجر التعلُّم الى التعليم، وفتحت مدرسة في ترِيغيه.

كانت مقاطعة الهريتان في تلك الايام، اي في العهد الرجعي[1]، محط

(١) عهد الرستوراسيون La restauration اي رجوع البوربون الى الملك (١٨١٤ – ١٨٣٠).

رحال الاشراف والمَلَكيين العائدين من مهاجرهم. وكانت تريفيه، تلك البلدة الصغيرة الجميلة على شاطئ البحر، مثل جونيه عندنا، تجذب اليها الكثير من اولئك المهاجرين، الذين اقاموا فيها، فافسدوا بيئتها القروية، وصار اهلها يقلدون الاعيان في عاداتهم وادعاءاتهم. اولئك الاعيان الذين فقدوا في الانقلابات السياسية صفاتهم الطيبة، وما اكتسبوا شيئاً من حسنات الحياة الجديدة، فامسوا على غُلظٍ بارزٍ في صفاتهم الاخرى القديمة، اي في القسوة والأثرة والتعصب والصغارة والادعاء.

ولكنهم من الاعيان، فكيف لا يقلدهم القرويون؟ وكيف لا يشمخون بانوفهم على هنريت رنان ومدرستها؟ فهل يليق بالاكابر ان يرسلوا اولادهم الى غير مدارس الاكابر؟ حيث يتلقنون العلم المقترن بالدين، ويتشربون حب التصعيد في سلّم الاجتماع، الذي هو ملك الاعيان.

وما كان لهنريت من صفاتها العالية الهادئة، تلك الصفات التي تحجب عن عيون السواد جمال النفس الورعة الوادعة، ما كان منها ما يمكن من محاربة التعصب والادعاء في الناس.

لقد كانت تلك الصفات العالية السبب الاول في اخفاق مسعاها. قال رنان نفسه في كلامه على الرسول بولس: «آفاتنا تشددنا في الاعمال، وحسناتنا تضعفنا.»

أقفلت هنريت مدرستها، وعادت الى افكارها وهمومها تستخلص منها شيئاً من العزم لتجديد السعي والتدبير.

قلت ان الناس ما رأوا فيها غير معلمةِ مدرسة. ولكن شاباً مهذباً ميسوراً رأى في نعومة يديها وعذوبة ناظريها، وما وراءهما من صفاء النفس ونبلها، ما حمله على الافصاح بما نشأ في قلبه من الحب، ففضلت العسر الذي كانت فيه على يسر لا تستطيع ان تشرك فيه اخاها وامها.

بقيت وحيدة أبوده، ترشف سلواها من كأس الجهاد الشريف، وتغذي

حبها بالمواظبة على الواجب العائلي . وكان ان عُرضت عليها وظيفة في مدرسة للبنات بباريس فقبلتها . ولكنها لم تنعم بالاً في بيئتها الجديدة، وما عتمت ان نفرت منها . هذه القروية الساذجة، بنت الطبيعة الصافية الوجه والروح، ما رأت في مدينة النور بصيصاً من نور الصداقة، ولا خيالاً للكرم والحنان. ومن اين لازاهر الروح ان تنور في المدينة العظمى حيث يقضى فيها على الكثير من الاغراس الكبيرة العتيَّة .

تلك المدارس الداخلية للبنات في باريس كانت في تلك الايام مهزلة من مهازل الحياة، محورها الحذلقة والادعاء، فزادت بكآبة هنريت، وعجلت بتطور ارائها الدينية . فبان لها ما في العقائد المقدسة من الاوهام، وما في ايمان المتنطعين من الكذب والرياء . هناك بين اسوار الحذلقة والتنطع، وخلال ما اتسع من آفاق خبرها وعلومها، بدأت تنور الازاهير في روضتها العقلية . ولكنها ادخرت في اعماق نفسها هبة الطبيعة للمدركين والمدركات، وللمخلصين والمخلصات من بينها ، تلك الهبة التي تنطوي على الايمان السامي الذي لا تضيره عوادي الزمان، ولا يذهب العلم ولا الفلسفة بشيء منه .

كذلك كان حالها في باريس، يوم استدعت اخاها اليها . فجاء العاصمة في الخامسة عشرة من سنه، بعد ان تلقن في دير بتريغيه مبادئ العلوم اللاهوتية . وكان قد وطن النفس على الانخراط في سلك الكهنوت، فما سُرَّت هنريت بذلك . ولكنها احترمت في الصبي ايمانه، وما فاهت يوماً بكلمة يشتم منها رائحة الشك فيما كان يراه، او التثبيط عما اعتزم

اقامت واياه اربع سنوات في باريس، وهي تعلم في مدرستها، وتساعد في دفع نفقات تعليمه . وفي سنة ١٨٤١، بعد ان دخل ارنست جامعة سان سلپيس، سافرت الى پولونيه لتتولى في احدى الأُسر الشريفة تعليم ابنائها . هناك في قصر تلك الأُسرة، على ضفة نهر الـ « بوغ »، وفي جو قاتم كئيب كجو بريتانيه، اقامت ست سنوات . وكان ذلك القصر كالمنفى لولا

لطف أهله و كرم اخلاقهم. فقد استمتعت فيه للمرة الاولى بلذة العمل، وتعمت بما لقيته في اهله من اكيد الصداقة والتعزية.

ثم ساحت سياحة صغيرة في المانية وايطالية، زادت في معارفها، وصقلت ما كان يزين تلك المعارف من فن وادب. وبعد هذه السياحة مكثت في برلين

اما شقيقها، طالب اللاهوت في باريس، فقد كانت على اتصال به، تراسله ويراسلها بدون انقطاع. وقد علمت من رسائله اليها أن دروسه لتاريخ اللغات السامية وفلسفتها أثرت فيما كان أحوزه من علم اللاهوت تاثيراً هادئاً، فسُرَّت بذلك.

وقد ساعدت هي ايضاً، هي التي كانت تنبذ تدريجاً عقيدتها الكاثوليكية، في ازالة ما تبقى من أثر الطابع اللاهوتي في نفسه، كما انها ساعدت في تمهيد السبل الى حل المشاكل التي كانت تعترضه في دروسه. وقد كانت تمده فوق ذلك بالفي فرنك كل سنة لتتميم تلك الدروس، وتودع رسائلها كنوزاً من الحب والحكمة والارشاد.

هي ذي الشقيقة المربية في كل احوالها، وخصوصاً في هذه السنوات التي فصلتها عن شقيقها. عوناً على الدوام، عوناً متعدد الايدي، حاضرة كانت او غائبة

ولكن الشقيق، يوم زارها في برلين في سنة ١٨٥٠ شاهد المشهد المحزن المخيف. فقد جاهدت هنريت، وقاست في الجهاد ما كانت تخفيه عن الشقيق الحبيب. أهنرييت هذه في الاربعين من سنها ؟ أم هنرييت هي في الخمسين ؟!

لقد جار عليها الزمان، فأحملها فوق ما عُدَّ لها، فَعُدَّتْ عليها العشر سنوات، وسُجلت في وجهها الشاحب، وفي جبينها المتجعد.

ولكنها فازت في ذلك الجهاد فقد علمت اخاها، ودفعت الديون التي كانت لا تزال على والدها، ورفعت الرهون عن العقارات الموروثة منه، فتركتها صافية خالصة لأمها.

جميلة هي ترَيغيه بمشاهدها الطبيعية، بيساتينها وجنائنها والاحراج الغضة حولها، كما انها جميلة بقصورها وابراجها، وبالاديرة فيها والكنائس. والاصح ان يقال انها كانت في تلك الايام لا تزال جميلة بما ابقت عليه الثورة الكبرى من تراثها التاريخي الطبيعي الديني الشعري. فالاديرة والمدارس الدينية ظلت قائمة في ظلال القصور والحصون.

في احدى تلك المدارس تلقَّى الصبي رنان مبادىء العلوم الكونية واللاهوتية، وعقد النية على ان يكون كاهناً. فخرج من المدرسة يحمل الجوائز، ويطمح الى العلاء في مملكة الكنيسة الكاثوليكية.

وعندما لحق باخته في باريس دخل مدرسة لاهوتية صغيرة ما شقت غليله. فنقل منها الى دير إسِّي. ثم دخل، في سنة ١٨٤١، الجامعة اللاهوتية الشهيرة سان سُلبيس. كل ذلك بمساعدة شقيقته، التي لم تكن راضية، كما اسلفت القول، بما ظهر من قصده الكهنوتي ويقينه.

وما تحول رنان عنهما وهو في سان سلبيس. على انه احسن بعدئذ، وهو في جامعة ستانِسْلاس، بشيء من التردد في ذلك القصد، وباشياء من الشك في ذلك اليقين. فكان قد بلغ درجة عالية في العلوم التاريخية واللغوية والدينية، وادرك خلال تدرُّجه اليها ما للكنيسة من السيطرة على التفكير، والاستبداد في تكييفه وتسييره.

نفر رنان من تلك السيطرة، وابى ان يخضع لقيودها. فاستمر الشك يقرض في يقينه حتى ذهب باكثره، فحوله عن قصده الكهنوتي. وما كان رنان يخفي عن شقيقته شيئاً من اخبار ذلك النزاع العقلي الروحي فيه.

فكتبت اليه من پولونيه تفصح عن رضاها بما تطور من افكاره، وتعزز فيه الميل الى العلم الحر المجرد من السيطرة الدينية، والى التفكير المطلق من قيود المصالح والسيادات كلها.

ثم تتابعت الحوادث التي أيدت الطالب في نزعاته الحرة وحققت بعض احلامه. فقد تعرف في سنة ١٨٤٦ ببرثيلو الذي اشتهر بعدئذ بابحاثه الكيماوية فدامت الصداقة عامرة بين العالمين طول حياتهما.

وفي السنة التالية نال رنان جائزة « ڤلني » بما كتبه في تاريخ اللغات السامية.

وفي سنة ١٨٤٩ ارسلته الحكومة الى ايطاليا بمهمة علمية. فايقظت هذه الرحلة فيه حب الفن في الحياة فكراً وعملاً، في الادب كما في التصوير والموسيقى، في الانشاء والتفكير. كما في النظم والتلحين. ولقد تنازع في في نفسية الفنان والعالم، حيناً من الدهر، فكانت الغلبة للفنان. اي ان رنان الفيلسوف الباحث عن الحقيقة، غدا يبحث كذلك عن الجمال، ان كان في التاريخ، او في الاساطير، او في العلوم الدينية والكونية. وان تنازع الاثنان، الجمال والحقيقة، في مباحثه، فضل الاول على الثانية. ذلك لانه ما كان يرى الجمال في الحقيقة دائماً، وكان يحس، واصبح يتيقن، ان في كل نوع من الجمال شيئاً من الحقيقة.

عاد رنان من ايطالية مزوداً من محاسنها الشعرية والفنية، فزار شقيقته في برلين، ثم اقام واياها في بيت واحد بباريس. وما افترق عنها حتى بعد زواجه، فاستمر مقيماً وزوجته معها في ذلك البيت، واستمرت هي تساعده في اعماله وكتاباته.

لقد اشرت فيما اسلفت الى ان عائلة رنان من طبقة الفلاحين والنواتي. وما في ذلك لابناء النبوغ من هذه الطبقة غير الخير. فالبحر يغذي السذاجة والحقول تشحذ الذكاء.. والبحر يفتح الروح عيوناً تتمرن في الآفاق

الشاسعة، والحقول تبعث في الفكر النشاط وترهف في التصور الاجنحة.

على ان التراث الفكري يختلف باختلاف الامزجة والطباع؛ فيجي، مشرقاً مرناً في بعض الناس، وقاتماً قاسياً في الآخرين.

كانت هنريت ابنة ابيها، كئيبة النفس، جافة المزاج، حيية، متوارية. تكره الظهور ولألائه، والادعاءات واباطيلها. وقد كانت مع ذلك دقيقة الاحساس، شديدة الشعور، بعيدة مدى الفكر، فقيدت قلبها بالنزعات العقلية. احبت الجمال حباً ساكناً، يستشعر العزلة والتأمل. ما ورثت شيئاً من روح امها، تلك الروح التي تجسمت في شقيقها. فكما كانت هي ابنة ابيها، كان ارنست ابن أمه.

ولقد ادرك في نشأته معنى الابتسام والتهكم، او بالحرى استحبها في الادب. غمس رنان قلمه في محبرة فلتير في ايامه الاولى، فما سُرَّت هنريت بذلك. هنريت النابذة العقيدة الكاثوليكية، وكثيراً من العقائد المسيحية المطلقة، ما شاءت ان يقتدي اخوها بفلتير، وما شاء هو ان يغيظها. فاقلع عن ذلك الاسلوب في التفكير والانشاء. ولكنه في ترصّنه حافظ على حقوق الشعر والخيال، وما فادى بالعواطف في سبيل العقل المجرد. فجاء الاسلوب الذي اشتهر به منقطع النظير، يجمع بين البساطة والاناقة، والمرونة والمتانة، والعظمة والحنان، وتتمثل الطلاوة في كلماته وهمساته وسكناته، في نواحيه ومناحيه كلها.

اقام الاخوان في باريس ثماني سنوات سعيدة. كان رنان يشغل وظيفة صغيرة في المكتبة الوطنية، ويكتب في الليل المقالات الادبية والتاريخية والانتقادية لمجلة العالمين الشهيرة. وكانت شقيقته تساعد في تنقيح تلك المقالات وتحبيرها، وتقرأ بعد ذلك «مسوداتها» فلا تفوتها في التصحيح، الكلمة التي يستقيم بها المعنى والذوق معاً. كان علم البيان مهنتها، ولكنه لم يكن مقيداً لروحها السامية واحساسها الدقيق. فلا عجب اذا امتاز ادب اخيها

بالصفات الثلاث العالية، اي الاتقان في الانشاء، والصفاء في التفكير، والاشراق في الاسلوب .

ومما هو جدير بالذكر ان هذين الروحين الصنوين في التفكير الحر، والمنزع « الكفري » كانا يتيمين دائماً في ظلال الاديرة والمعاهد الدينية. فقد كان البيت في ال« رو دَنفير » مجاوراً لدير الكرمليين، بل مشرفاً على جنينته، فيسرح الأَخوان النظر فيها، ويستمتعان بطيب نفحاتها .

ليت شعري ما كان أثر ذلك في نفسيهما ؟ فهل تغلغلت تلك النفحات الطيبة في الفلسفة التي كان يزرعها رنان في تربة الاساطير، وفي الاساطير التي كان يفتح لها ابواب الفلسفة ؟ مهما يكن الامر فان ذكر ذلك البيت ظل عذباً زكياً في قلب الاخوين طول الحياة .

من مزايا الشرق الخاصة ان ينبغ فيه اشخاص منحوا شيئاً من الالوهية، ومُنُوا بالخمول والكسل . يفكرون ولا يكتبون ، بل لا يأتون عملاً . ولكنهم يوحون الى غيرهم بخطير الاعمال والاقوال .

ومن هؤلاء مثلاً جلال الدين الرومي، الشاعر الصوفي العظيم . فلولا صديقه ورفيقه شمس الدين التبريزي لَمَرَّ جلال الدين في هذه الارض وخرج منها كالاناء الروحي الفارغ .

وما كان شمس الدين يميل الى الشاق من الاعمال او الى اي الاعمال . بل كان يقضي معظم اوقات يقظته في قهوة بدمشق ، يلعب الشطرنج ويجالس الغلمان الصِباح . وكان يومىء في بعض الاحايين، الى صديقه جلال الدين ايماءة التنبيه، فيعطيه مشعلاً من مشاعيل الوحي — كلمةً او فكراً او خيالاً — ويقول له : سر في سبيلك . فيروح جلال الدين متغنياً بالالهيات ، وهو في الحال ، كما يقال بلغة المتصوفين ، ويعود شمس الدين الى غلامه الصبيح، ولوحة الشطرنج .

ان طرق الالوهية محفوفة بالالغاز والاسرار . فقد كانت هنرييت رنان ،

كما يظهر لي، على شيء من هذه الصفة الشرقية العجيبة. انما نعبر عنها بغير لغة المتصوفين. قال رنان نفسه ان شقيقته كانت العامل الاكبر في نشوءه الفكري وتكييف منازعه.

ولكنها لم تكن قط كسله، ولا رضيت بان تكون خاملة. انما سرورها الاكبر تمثل في انزوائها، وقل في اندماجها، في شخصية اخيها — فكانت العامل الحي الكامن — وقل الظاهر — في حياته وادبه.

اني اتصور هذا المفعول الروحاني كوهيج الشمس ينعكس على بقعة زاهرة بالبنفسج او الاقحوان، خلال اغصان دوحة مجاورة يحركها النسيم، فيُرى ذلك الوهيج متموجاً على الازاهير تموجاً لطيفاً، ولا يرى له منشأ يُلمَس او يُحَد.

هي العوامل المركبة المرتبكة المتفاعلة في الشخصيات الكبيرة. فهل التحقيق والتحديد لما تولده هذه العوامل من الصفات الجديدة في صاحبها ممكن يا ترى؟ ليس من الخطل ان ننسب ايمان هنريت وتقواها — ذلك الايمان الصافي، وتلك التقوى المجردة من خزعبلات التدين — الى السيدة الفرنسية الشريفة، التي عادت من انكلترة الى ترِيغيه، وتعهدت ابنة رنان بالتربية.

ولقد نشأت هنريت على غرار معلمتها، المتشربة روح تلك الطائفة من متديني الانكليز، اولئك الاتقياء الانقياء المترفضين الـ «بيورتان» (The Puritans) انما كانت تختلف عنهم في كونها فرنسية، فلا تحرِّم المسرات البشرية، ولا تتجهمها. فقد كانت هنريت ترقص في قلبها، بل كانت تدنو في ابتهاجها الروحي الباطني من الدروشة الشرقية، وان سكنت الغبطة سكوناً فلسفياً في وجهها وناظريها. فقد ورثت السذاجة والاحساس الشديد المرهف من والدها. اما المتانة في اخلاقها، النشاط في عملها والاستقامة في سلوكها، فقد جاءتها على يد القدر، بواسطة تلك

المعلمة الفرنسية الانكليزية. ثم عزتها عوادي الدهر واكداره بما كان من تمردها على الدهر. فان لمثل هذا التمرد نتيجة من اثنتين. فإما ان يودي بصاحبه، واما ان يزيد بفضله وقواه.

كان رنان الشاب يدرس هذه الاخلاق والطباع في شقيقته، فيزداد حباً لها واحتراما، وتتسع امامه سبل الفكر والعمل. وقد كان يصعد في سلم الرقي والشهرة بجزلٍ من النشاط والامل في هذه السنوات السعيدة التي قضاها وشقيقته في ال «رود نفير» اي شارع الجحيم.

ولكنه صُدم للمرة الاولى في سنة ١٨٥٩، بالسلطة الدينية، او بالحري بعداء ارباب الكنيسة واشياعهم. فقد كان مرشحاً لكرسي اللغات السامية في «كوليج ده فرانس» فقاومه الحزب الكاثوليكي، وحمل عليه حملة شديدة.

— أيعيّن لوظيفة عالية تتعلق بالدين هذا الرجل المارق الذي ارتدى ثوب الكهنوت ثم خلعه؟ هذا الرجل الكافر الملحد الخ...

وكانت الامبراطورة أوجيني تنصر الحزب الكاثوليكي ورجال الدين، ففازوا بما كانوا يبتغون.

ولكنهم لم ينتصروا على رنان الانتصار التام. فقد كان الامبراطور نپوليون الثالث يقدر العالم الفيلسوف قدره، ويعطف عليه، فانتدبه لمهمة علمية في الشرق.

ارسله إرضاء الى سورية للتنقيب عن الآثار الفينيقية.

كان رنان في تلك الايام يدرس حياة المسيح ليكتب كتابه في الموضوع. وقد رأت شقيقته ان من الواجب ان يزور البلاد المقدسة تكملة لدروسه، فاشارت عليه بان يقبل المهمة التي انتدبه الامبراطور لها، ففعل.

وكان الامبراطور يرغب رغبة مبرورة بالبعثات العلمية. اقول مبرورة، على ما هناك من دواعي الريبة والنكران. فالعالمون باساليب السياسة، وبما وراء اكماتها، يرون في البعثة ما يتعلق بسياسة نپوليون الثالث الشرقية، وعلى الاخص بحوادث لبنان المفجعة في تلك السنة. فقد ذُبح الموارنة « على عين » فرنسة، قرّة عينهم. وبعد الفاجعة، جاء الاسطول الفرنسي. أجاء للتأديب، ام للحماية، ام للتعويض؟ ام لنزهة بحرية؟ راجع التاريخ. كل ما يجب ان اقوله الآن هو ان الاسطول جاء بيروت تسوقه غضبة الفرنسيس، وتقوده سياسة امبراطورهم.

وجاء رنان لبنان الدامي في ذلك الصيف — صيف سنة الستين — لينقب عن الآثار الفينيقية!

لقد انتدب نپوليون الثالث عالماً آخر لمهمة علمية اخرى في الشرق، هو اليسوعي الخالع ثوب الرهبنة « وليوم غُفرد بلغراف » الذي سافر الى البلاد العربية، وتغلغل في بلدانها وبواديها الى القلب منها — الى نجد.

في تلك الايام كانت فرنسة تباري انكلترة في خطب ود العرب، ابتغاء الوصول الى ما وراء بلادهم — الى الشرق المتوسط. بل كانت انكلترة تبحث عن طريق الى الهند قصيرة، وكانت فرنسة تحاول ان تقطع عليها ذلك الطريق، او تسبقها الى اكتشافها وتأمينها لتحول دون ماربها.

فهل تعانق العلم والسياسة، وتجاذبا اطراف الحب، لاغراض الامبراطور السياسية، هناك في البادية، وها هنا في لبنان ؟

اني في كل حال لَأَميلُ الى رنان المؤلف « حياة يسوع » مني الى رنان المنقب عن آثار الفينيقيين. اني افضل الطالب للعلم في البلاد التي كانت مسرح الناصري، ومنشأ المسيحية، الناشد روح الحقيقة في سماء هذه البلاد، وفي جوها التاريخي الشعري — افضل هذا الرسول، رسول الادب والتاريخ، على رسول امبراطور الفرنسيس.

جاء رنان تصحبه شقيقته [1] في صيف سنة ١٨٦٠ ولقد صحبته في كل رحلاته، من غور الاردن، الى وادي اليرموك، الى انجاد لبنان — من مروج الجليل، الى سهول البقاع، الى سواحل فينيقية — فرأت ما كان يراه، وسمعت ما كان يسمعه، وشعرت بما كان يشعر به. صفت لها الحياة في هذه الرحلة الفلسطينية السورية اللبنانية، بل جادت عليها بالجزاء الارضي الاكبر.

وما كانت تؤثر سرورها على سرور اخيها وعمله. فلولا مساعدتها، كما يقول هو نفسه، لما تمكن في برهة وجيزة من الاحاطة علماً بموضوعه من نواحيه المتعددة، التاريخية والاجتماعية والاثرية والشعرية.

فقد كانت تجمع المواد وتصنفها، وتنسخ ما يكتب وتدقق النظر فيه، كما كانت تعتني بشؤونه الخاصة، وتحفظ حساب النفقات. نفقات الرحلة والبعثة معاً. اضف الى ذلك ما كانت تمده به من الاراء الصائبة في علوم التاريخ والآثار والفنون، وما كان يؤنسه منها ويعجبه في كل مكان.

رحل الاثنان الرحلة السعيدة حقيقة ومعنى. فكانت هنريت عربية في السرج، بدوية على الرجل، تراكب وتماشي الرجال. وصلت الى اماكن

---

(١) لحقت مدام رنان بهما في يناير سنة ١٨٦١، وعادت الى فرنسة في تموز من تلك السنة. وقد قيل في حب الاخت وغيرة الزوجة اقوالا ما همت غير اولئك الثلاثة وذويهم في تلك الايام، ولا تهم احدا في هذا الزمان.

تعجز دونها النساء الاوروبيات، ويعدها ابناء البلاد انفسهم وحشية منيعة. اجتازت الطرق الغائرة في ثنيات الجبال ومضايقها، المعلقة فوق المهاوي والاهاب. وكانت في اليوم الواحد تصعد ناشطة من وادٍ الى جبل، وتهبط جذلةً من جبل الى واد، فلا تروعها الاغوار، ولا تتجهمها الانجاد.

ان الخريف لابدع فصول السنة في سورية، وان الربيع لابهجها. في الاول فردوس من الالوان الرائعة العجيبة، وفي الثاني فردوس من الازاهير، وان في هذا، كما في ذاك، اسراراً روحية كونية، تتصل باعماق السكينة البليغة، وباعالي الابداع البياني. فاذا كان الكلام – الربيع – من فضة، فالسكوت – الخريف – من ذهب.

وحسبنا ذهب الغروب في فصل الخريف فقد سحر به رنان، وسحرت به شقيقة رنان. هاهنا السهل الممتنع في التلوين الذهبي، كما في الانشاء. وكما في التصوير والتفكير. هوذا الجو القدسي الذي ملك حواس الاخوين. هي ذي القداسة التي خرتْ لها روحها ساجدة.

والى جنب السهل الممتنع عظمة الجبال، ومناعة الآفاق الجبلية. ان في الضدين الروعة الخالدة، وبينهما رؤوس من الرواسي تهبط فجأة في البحر، وهضاب تنحدر انحداراً هادئاً الى السواحل الرملية. حسبك ما في هذين المظهرين من مهابط الوحي، وخصوصاً عندما يسربلها الفجر بنوره الدرّي، والغروب بنيراته الذهبية.

في مسارح هذا الجمال الطبيعي الالهي ساح رنان وشقيقته، فكانت سياحتهما نشيداً من اناشيد القلب المفعم حبوراً. وبمثل ذلك القلب نرافقهما الآن من بيت المقدس، الضاحك من تراحم آثار الاديان فيه، الى نابلس القائمة الجبين بين جبلي اللعنة والبركة، الى جبل الكرمل وبحر ازاهيره الف قدم فوق البحر، الى الجليل، « ذلك الفردوس المنتهَب » الى البحيرة التي لا تزال الحمائم تنوح على شواطئها الكئيبة، الى جبل الشيخ الناظر بعيني المحبة

والغضب الى سهول سورية، واغوار فلسطين.

اننا لراحلون. فلا تهمنا الاديان المتشاحنة المتآحنة. ولا تهمنا الاديرة والمعاهد الدينية، المشيدة لرب الاغراض الدنيوية. ولا تهمنا الاماكن التي تُقدس فيها الاساطير والخرافات.

اننا لراحلون في سبيل العلم، في سبيل الفكر الحر، في سبيل الروح غير المقيدة بغير حب الله والحقيقة، وخير الانسان في دنياه. هو هو ما كان ينشده رنان وشقيقته في كل ما يشاهدان من معالم التاريخ، وفي كل ما يعنُّ لهما من مآثر النبوءة والشعر. كانا ينصتان لهمس الزمان، ولا يسمعان ضوضاء الايام.

كانا ينعمان حيثما حلّا، وخصوصاً في لبنان، بضيافة منقطعة النظير في بلدان العالم — ضيافة شعبٍ مفطور على حب الضيف واكرامه. فضلًا عن ان هنرييت كانت ترى في البيئة اللبنانية، وعادات اهلها واخلاقهم، ما يذكرها ببلادها بل بقريتها الصغيرة. وقد احبت الموازنة على الاخص وطقوسهم الدينية، فكانت تذهب واياهم الى الكنيسة للصلاة، كما كانت تفعل في تريغيه، فيرافقها اخوها ثالوث قلبها — الاخ الابن الحبيب. (الا عد بي الى ذلك الزمان الاقدم يوم كان الرجل اخاً وابناً وحبيباً المرأةِ ربةِ الاساطير) وها هوذا في زماننا يؤم وربّته الكنيسة المارونية، وقد رفعت قباءها فوق رأسه لتقيه المطر.

واني، من هذا البعد الصغير في أرجاء الزمان، ارى تينك الروحين تحت قباء العقل الكلي، او الضمير الكوني، او القوة الروحية المكوِّنة، الازلية الخالدة، اراهما تحت ذلك القباء الالهي، وقد جلسا على سطح البيت بغزير، يسرحان البصر والبصيرة في مشاهد كسروان الطبيعية، واجواء لبنان الالهية.

ليت شعري ما تفعل الوراثة في النفس، وما تفعل البيئة والتعليم. فهل

يستطيع المرء ان يتغلب بقوة الاثنين. كل التغلب على ايمانه الموروث ؟ على ذلك الايمان الذي رضعه مع اللبن ؟ ان ذلك النور الذي يعلو وجه الام قبيل الولادة وبعدها، ذلك الوهيج الروحاني يمتزج بغذاء الطفل، فيتغلغل حتى الى ما كان مطوياً من حياة الرجل فيه، وان صار هذا الطفل، في مستقبل ايامه، فيلسوفاً او حطاباً فان اثر ذلك الوهيج، وهيج قلب الام، وقد انعكس على وجهها، يبقى هناك في قلبه يستعطفك او يستهويك.

هذا الوهيج الالهي اراه منعكساً في فلسفة رنان، وفي حياة شقيقته هنريت. فانها، وان نبذت الاعتقاد بالخوارق والمعجزات، تحتفظ ليس بروح المسيحية فقط بل بتلك التذكارات الكاثوليكية التي هي ارثها القروي الديني. وكأني بها تعيد ذكريات تريغيه في لبنان، وهي تتغلغل واخاها في صميم فؤاد الكون.

هناك على ذلك السطح في غزير، وفي المسيات المقمرة، بين اضواء الشك، واخيلة اليقين، وفي جو مقدس لاسرار الاقدمين واديانهم، كان الاخوان يتباحثان ويتناقشان في الفلسفة والدين، فيرتفع عقل الاخ في التحليل، وترتفع روح الاخت في برادها، كنخلتين سامقتين على جزيرتين متقابلتين، في بحر من الحب والسكينة. بل كسنديانتين قائمتين في جوار كنيسة واحدة، وتحت كوكب واحد، يشمل الفكر البشري بابعاده كلها والوانه — باغواره وانجاده وآفاقه جمعاء.

ما كان اعتقاد هنريت بالله الاعتقاد الذي شاع في عهد الثورة الفرنسية الكبرى وبعده. ما كان الهها اله ڤلتير واصحاب الأنسيكلوپيدي، اي الهاً خلق الكون واستقل عنه — تركه وشأنه. او الهاً تكون والكون معاً، فكان روحه الغائبة، او النائمة، او الضائعة. ولا اظن ان هذه السيدة كانت تبعد كثيراً في اعتقادها من الاعتقاد المسيحي الصافي، المجرد من شوائب اللاهوت.

لقد كان آلهها — ان آلهك، يا هنرييت، آلهنا، وان كان في حُجُبه لا يُلمس ولا يرى، بعيداً قريباً على الدوام. فان في الحُجُب الرحمة وفي البعد المحبة، وفي القرب الطمأنينة والسكينة.

واننا متيقنون، مؤمنةً كنت او غير مؤمنة، انك كنت في حياتك الدنيا، كما انك الآن وعلى الدوام من محبوبات الله

شاغلان شغلا رنان في لبنان، التنقيب في جبيل، والتأليف في غزير وعمشيت. وكان الشاغل الاول يقتضي الرحلات الأثرية، فجاب سواحل فينيقية القديمة، وصعّد في الجبال متغلغلاً فيها، فوصل الى العاقورة وتنورين.

وما كانت هنريت تفارقه في حله وترحاله، على ما قلّ في الجبال من اسباب الراحة والهناء التي كانا يتمتعان بها في بيت مضيفهما زخيا ميخائيل طوبيا بعمشيت. فقد كانا ينامان غالباً في بيوت الفلاحين، فيزيد الضنك بمشقة السفر، فيحرمان الراحة في الليل والنهار.

تلك الرحلات الجبلية خُتمت في شهر تموز من سنة ١٨٦١ برحلة الى المشنقة، فكانت الاخيرة، وكانت اولى مقدمات القدر المحتوم. حست هنريت بوهن لزمها، فنزلت واخاها في دير من الاديرة، فمرضت هناك. ومما زاد في سوء حالها الانتقال السريع من اعالي تنورين الى الحر الشديد في سهول تولا. حتى في رحلتها ما وجدت شيئاً من الراحة التي كانت تحتاج اليها. فقد تجمع حولها نسوة القرية، وهن مدهوشات مسرورات برؤية امرأة فرنجية للمرة الاولى في حياتهن. ومنهن من سارعن الى خدمتها، فأزعجنها بالسؤالات والنصائح، وبالالحاح في البقاء عندهن.

عاد الأخوان مسرعيَن الى عمشيت، وهي في الصيف شديدة الحر كالساحل القريبة منه، فنقلا منها الى غزير، وقد انعش هواء البحر هنريت، واعاد اليها الصعودُ من جونية الى غزير في ضوء القمر تلك البهجة التي كانت تشعر بها في رحلاتها اللبنانية الاولى

يقول رنان في كتيبه الجميل « شقيقتي هنريت » انه ما رأى في اهل غزير

تلك الفطرة الطيبة، والبساطة المستحبة، اللتين يمتاز بها اهل عمشيت. ذلك لان في غزير يقيم بعض ادعياء الارستقراطية، فيقلدهم الاهالي بما ساء، لا بما حسن من اخلاق الاعيان وعاداتهم.

قد كان مع ذلك مغتبطاً باقامته هناك مدة الصيف والخريف، لان شقيقته استعادت صحتها، ولانه باشر، في ذلك الجو الهادئ الجميل، تأليف كتابه «حياة يسوع»، فوصل فيه الى يوم دخول السيد اورشليم.

ولَشَد ما كان ابتهاج الاخوين في تلك الايام ايام الدرس والتأليف. ولَشَد ما كان سرورهما بتلك المشاهد من غزير براً وبحراً — تلك القرى المتشبثة بصدر الجبل، الجالسة على منكبيه، وتلك السهول والبطاح المنحدرة الى ساحل البحر، انها لاجمل ما شاهداهُ في لبنان. فاذا كان وادي حمانا قرة عين لامرتين، فان جون غزير قرة عين رنان. هذا الجمال الطبيعي لا يدركه باجمعه غير الشعراء. ولا يبلغ الابتهاج منتهاه في الاديب الشاعر الا ساعة التأليف. فلا عجب اذا هتف رنان قائلاً: «ما الذ تلك الساعات! اه، لو ان الابدية مثلها.»

ولقد كان يدأب في العمل من ساعة الفجر الى المساء، فيُشرب روحه نورَ الشروق، ويغمس يراعه في الوان الشمس الغاربة، فتجيء افكاره في حلل من سماء لبنان شفافةٍ زاهية نورانية

وكانت هنريت تنسخ تلك الصفحات وتنقحها، فتلين قساوة المنطق فيها، وتنعكس اشعة الشمس على ثلجها الطهور. اشعة الشمس في الشروق والغروب، ما ابدع فنها، وما اعجب السحر فيها وفيه. فمثلما تلوّن صخور لبنان ورواسيه، فتكسب جمالها مهابةً، وعظمتها روعةً وجلالاً، هي تنعكس في قلب المؤلف وشقيقته، وعلى صفحاتٍ دبجها يراعه، ونقحها يراعها، فغدت تتلألأ بندى القلب المسبّح، ووهيج الروح المتعبدة.

قالت هنريت لشقيقها: «سأحب هذا الكتاب لا لاننا تعاونا في

تأليفه، بل لانه يسرني » . قالت : تعاونا، دون ان تفطن الى شريكهما الثالث في التأليف، الى شمس لبنان، الى سماء لبنان — الى لبنان نفسه، فالكتاب « حياة يسوع » هو تأليف رنان وشقيقة رنان و لبنان .

وكان الاخوان يشتغلان نهاراً، ويسمران على سطح البيت في ضوء القمر، فيتحدثان، ويتباحثان، ويعدّان المواد لعمل اليوم التالي .

ان كانت السعادة في اتقان العمل، فقد طفحت كأس الاخوين بها .

ولكن الشؤم، في اعتقاد بعض الشرقيين، يكمن في الكأس الطافحة . او ان الساقي اذا طفحّ الكأس اراد بصاحبها شراً . فهل كان القدر الساقي لهنرييت ؟ ان لذة التواصل العقلي الروحي بين الاخوين، مع صفاء ساعات العمل، وبهاء ساعات السمر والتأمل، أخفت اليد السوداء التي كانت تمر بذلك الجو مر السحاب . وقد تكون بهجة العمل هي التي اخفت عن هنرييت، او انستها، ما لزمها من اثر المرض .

ودع الاخوان غزير وفي القلب اسف الوداع لنعيم اوشك ان ينتهي . فعادا الى بيروت حيث قضيا بضعة ايام أُخر .

وقد كان لا يزال في جبيل بعض النواويس التي يجب ان تُنقل منها الى الباخرة الحربية « كاتون » لتحملها الى فرنسه [1] . ما كان يستوجب هذا العمل مساعدة رنان او اشرافه . ولكنه شق عليه وعلى شقيقته ان يغادرا لبنان قبل ان يودعا عمشيت واصدقاءهما فيها . أهي الفرصة السانحة، أم هو القدر المحتوم ؟

عادا في الباخرة الحربية الى جبيل . وصعدا منها الى البلدة المحبوبة،

---

(١) هل استرضى السلطان نبوليون الثالث بامتياز للتنقيب في جبيل، وبثمار التنقيب، فكان الوفد الفرنسي متساهلاً في المفاوضات ومندوب الدولة فؤاد باشا فيا تلا فواجع سنة الستين ؟ أوَ ليس في مثل هذا الامتياز يُسخّر العلم في سبيل السياسة الدولية ؟

يرحب اهلها بها اجمل ترحيب.

وعادا الى البيت الذي اقاما فيه سابقاً، بيت زخيا، حيث كانا يحسبان انفسهما في البيت الابوي بِتِرِيْغيه.

عادا الى فردوسهما اللبناني. وهناك، امام جبيل الجالسة على الرمال الذهبية، وامام الجبال الرافعة رؤوسها في آفاق رمادية ووردية ولازوردية، شربا الثالة في تلك الكأس العجيب.

وما احد علم انها الثالة، ولا احد احس بمكنونها، او اوجس خيفة منها اني، وانا اخط هذه الكلمات، اتمثل روح الآلهة والاساطير التي كان لها يومٌ مشرقٌ على هذه الشواطئ القديمة، اتمثل روحها تذوب في تلك الكأس، فيسكر الاخوان بصفاء الليالي والايام، وبمدى ذكراها التاريخية والروحية، ذلك المدى البعيد العجيب . . . لكل شيء اذا ما تم نقصانُ . .

في العشرة الايام الاخيرة من حياة هنرييت استأنف الاخوان العمل في « حياة يسوع »، وهما لا يدريان بما يدب خفيةً اليهما.

فما عتم ان انقطع العمل في التأليف والتحبير، قطعته الحمى التي غشيت الاخت قبل ان مست اخاها.

وما هذه الحمى الخبيثة التي ترافقها آلام عصبية شديدة ؟

استُدعي طبيب الباخرة الحربية الراسية في مياه جبيل. فقطب وهز رأسه. وهو لا يدري ما نوع هذه الحمى.

أُرسلت الرسل الى بيروت. فجاء طبيب الاسطول بحراً، وسارع براً طبيب فرنسي عليم بحميات البلاد.

وكانت تلك الحمى قد غشيت رنان، فاستمر مع ذلك يحاول الكتابة، وهو جالس على الديوان بالقرب من الشقيقة المحبوبة. ولكنه ادرك بعد ذلك ان ما كتبه في اويقات السكينة كان مفككاً مضطرباً.

وكانت الحمى تشتد عليه، وعلى هنرييت في الغرفة المجاورة لغرفته.

ومع ذلك نهضت ذات يوم ساعة الغروب ومشت الى غرفة اخيها، فاتكأت على الديوان ، وارسلت يدها في الاوراق تقلب بها. حاولت العمل، فحال المرض دونه. نظرت من الشباك الى الافق الجبلي البعيد، الى جبل موسى، حيث قضى آدونيس نحبه، كما جاء في بعض الاساطير، ثم مالت بوجهها الى ارنست، وعيناها تترقرقان بالدموع. لقد كانت تشعر بدنو الاجل. ذكرت أمها، وذكرت آري الصغير ابن اخيها، وقالت انها ستكتب وصيتها.

ثم فاهت بهذه الكلمات: « لقد احببتك، يا ارنست حباً جماً. ولقد آلمك حبي في بعض الاحايين. ذلك لاني احببتك حباً يندر بين المحبين، وقد لا يجوز. »

قالت هذا وعادت الى غرفتها، فما رأته بعد ذلك ولا رآها. وقد آلمه انه لم يكن الى جنبها ساعة لفظت النفس الاخير. وظلت الذكرى تؤلمه طول الحياة.

في اليوم التالي ارسل قائد الباخرة « كاتون » سريراً لنقل هنرييت الى بيروت، ثم وصل الاطباء، فكانت ساعة مريبة محزنة، همساتها تقرن بهز الرؤوس.

انتشر الخبر في عمشيت فاصطبغ جوها بلون الساعة المكفهرة. وكان اهل زخيا واقفين في الباب وجالسين على الدرج يبكون. تحولت القرية الى عاصمة تندب اميرتها، وهي تلفظ النفس الاخير.

تشاور الاطباء. وجاء الخوري العالم بالمداواة البلدية، فشق الطريق اليهم ليشير بالفصاد. ولكنه، مثل الاطباء انفسهم، جاء متأخراً.

سأل الاخ، وهو في ذهلة من الحمى: كيف حالها؟ فقيل له ان لا امل بالشفاء.

وجاءت الغيبوبةُ رنان، فحلم حلماً محزناً، عاد وهنرييت الى افقا، وجلسا هناك على الحشيش الندي، تحت الجوزات، جنباً الى جنب. ورفعا

كأساً من الماء المثلج الى شفاهها المائتة. ثم غطسا في تلك المياه – « في ينابيع الحياة » – وهما يبكيان، ويشعران شعوراً محزناً اليماً.

وعندما استفاق سأل عن هنرييت، فعلم انها فارقت الحياة. فارقتها صباح الثلاثاء، في ٢٤ ايلول سنة ١٨٦٢

وقد صلى عليها الخوري الذي جاء ينقذها بالفصاد، ساعة كان شقيقها في تلك الغيبوبة، يحلم ذلك الحلم، على بضعة امتار منها.

واذ امسى هو في حالة خطرة لم يؤذن له بان يراها. فحُمل الى الباخرة الحربية على السرير الذي جيء به لشقيقته.

وحُملت هنرييت على النعش الى حجرة ميخائيل طوبيا، التي قدمها ابنه زخيا، على شريطة ان يكتب فوق بابها، اذا نُقلت الجثة بعدئذ، ان في هذه الحجرة كانت ترقد امرأة فرنسية.

حياكِ الله، ايتها الروح اللبنانية النبيلة. فلقد كانت هذه الروح الهيتانية السامية جديرة باكرامكِ، وحزنكِ، ودموعك.

مشت عائلة زخيا، ومشى اهل عمشيت في جنازة مارونية، حُرق فيها البخور، وسُمعت فيها اصوات الكهنة يرتلون بتلك اللغة التي كان يحسبها ويحبها رنان – بالسريانية – ترتيلة الموت.

ووضعوها في تلك الحجرة، في جوار الكنيسة، بين ظل السنديان، وظل النخيل.

بعد خمسين سنة

في مقهى من مقاهي بيروت البحرية، صغير وادع، مبني بالخشب، مسقوف بالحصائر، تلعب بين ركائزه الامواج، الى جنب المربع الفخم القائم هناك، الحافل في هذه الايام ببنات الفنون العليلة، هناك في تلك الزاوية المنخفضة من محلة الزيتونة، كنا نجلس ساعة الغروب حول زجيجات من العرق، وصُحيفات من الابازير، تقوم بينها زجاجة الـ« برنو » لشيخ الحلقة، وسيد سادات الحرية الفكرية في تلك الايام الشيخ اسكندر العازار رحمه الله.

ومن اولئك السادات — سادات الادب في العقد الاول الحميد من هذا القرن — الذين كانوا يسارعون ساعة الغروب الى قهوة البحر، ولا يتسابقون في دفع الحساب، جماعة مرحة صالحة، اعد منها بشارة الخوري [1] وشبلي الملاط [2] ويوسف ثابت [3]، وجرجي سعد [4]، وبترو باولي [5] ومحيي الدين — الغازي — الخياط، الذي كان يحوم على تخوم الحرية، وامين تقي الدين الحامل علمها في ساعة السلامة؛ وجميل معلوف العائد بها ظافراً من اميريكة.

ولا اذكر ان احداً منا كان يسبق جميلاً ساعة الحساب.

---

(١) كان صاحب جريدة البرق

(٢) كان صاحب جريدة الوطن

(٣) كان جبينه يسطو على شعره فلقب بالاقرع

(٤) كان يُعرف بشاعر الليل لارتياداته الزَبر ثانية.

(٥) كان اديب « القبضايات » فصار « قبضاي » الادباء

في تلك القهوة، تحت تلك الحصائر البالية، امام الشمس الغاربة، في يوم من الايام التي تتذبذب بين الصيف والربيع، من السنة الحادية عشرة والتسعمائة والالف، تناثرت الاشعار، وفيها السخن الخارج من الفرن، وفيها البارد المتحجر، فانقذنا شيخ الحلقة من «سائق الاظعان» وهو يقول لاحد الشعراء: «شعرك مثل التوتيا هذه، جزء من اللحم اللذيذ لتسعة وتسعين جزءًا من الصدف الاسود الشائك، الذي لا يصلح لغير». وقف الشيخ اسكندر عندها، وهو يستخلص اللحم من الصدفة، فاكله ثم كرر الكلمة «لا يصلح لغير...»

ورمى الصدفة الى البحر.

فتشجع جميل وقال: ادب المستقبل في النثر، لا في الشعر.

فقال محيي الدين: وان من النثر لشعرا.

فتفضل البطل باولي، فذكر الشعر المنثور وصاحبه، فتواريت خجلًا في موضوع بعيد من نثرنا وشعرنا.

كنت اقرأ يومئذ كتاب رنان «حياة يسوع» وكتيبه «شقيقتي هنرييت» فذكرت ما كان من فضلها على شقيقها وادبه، وقلت انها مدفونة في عمشيت، وان قبرها جدير بان يحجه الصالحون.

فتناول محيي الدين الموضوع، وتطرق من الحج الى النبي، ومن النبي الى خديجة، فذكر ما لها من فضل على محمد صلى الله عليه وسلم. ثم قال انه يحج خاشعاً ضريح السيدة الفرنسية بعمشيت.

بل اجمعت الحلقة على الحجة، فضربنا للسفر موعداً، وكان المعدون بالوعد ثلاثة لا غير، هم بترو باولي شهيد الحرية رحمه الله، وجميل معلوف[1]،

---

(1) له في الكتابة ما ينطق، بغزارة علمه، وصفاء ادبه. وكان قد كتب قبل ان نُكب باعز ما في المرء كتابين هما «تركية الجديدة» و«وصية مدحت باشا»

شهيد القدر تداركه الله برحمته، وهذا الكاتب شهيد الآلام العصبية التي حملها – تأبطها – خمساً وثلاثين سنة، وهو يبسم للحياة، ولا يستعجل شيئاً فيها .

ركبنا نحن الثلاثة عربة الى جبيل في صيف العام الثاني، من عهد الدستور العثماني، سنة ١٩١١، اي بعد خمسين سنة من وفاة هنريبت رنان.

ومن جبيل استأنفنا السير على الاقدام الى عمشيت.

جميل: « اجمل ما قاله رنان كلمة في المثل الاعلى هي انه يجب ان يكون في كل زمان اعلى مما كان في الزمان السابق له . وعلى الاحرار المفكرين ان يسعوا دائماً في سبيل هذا الارتقاء البشري الدائم . »

بترو : « أو لم يقل رنان كذلك ان الاحرار المفكرين قليلون، قليلون جداً ؟ وهل نجهل مصيرهم في بلاد مثل بلادنا ؟ والله، يا جميل، اود ان احكم هذه الامة حكماً مطلقاً شهراً واحداً. ومتى نُصبتِ المشانق في ساحة البرج [1] يسلم العدد القليل الصالح، اي الاحرار المفكرون وتنفتح لهم ابواب العمل فتتعزز اذ ذاك فلسفة رنان، ويتحقق حلمه بالمثل الاعلى . »

جميل : « ولكن الفوز في النهاية هو للاحرار المفكرين. اما الرعاع فهم في كل امة رعاع. والحكام المستبدون والسياسيون النفعيون هم في فرنسة وانكلترة مثلهم في تركيه. »

بترو : « ولكن الفرق بين رجالهم، وشبه الرجال عندنا . . . »

فقطع جميل الكلمة عليه قائلاً : « هذا هو الفرق – رجال وشبه رجال. فمهمة الاحرار المفكرين عندنا هي اصعب جداً من مهمة الاحرار المفكرين في اوروبة واميركة . علينا نحن ان نسعى السعي الصادق

(١) كان من دعاة « الاستبداد العادل » – والمشانق. فشاء القدر العابث ان يكون هو من ضحاياها في الحرب العظمى.

الحازم المستمر ليكون لنا من شبه الرجال رجال، ومن الرجال احرار مفكرون. علينا ان نقتدي برنان، ونثبت في الجهاد.»

اني فيما اكتب الآن، وفي مجمل ما تقدم من فصول هذه الرحلة، انقل من مذكراتي في تلك الايام، واترجم من مقال لي في اللغة الانكليزية كتبته لمجلة الـ« بوكمان » النويوركية [1].

منذ ربع قرن، اي يوم حججنا، كان اهل عمشيت يعجبون لمن يجيء بلدتهم سائلاً عن ضريح هنريت رنان شقيقة « ذلك الفرنسي الكافر ». وقد اجتمعنا يومئذٍ بكاهن يسكن البيت الذي اقام فيه رنان، وتوفيت فيه هنريت، وكتب فيه قسماً من « حياة يسوع ». فقلنا لاول وهلة انه ولا شك حر شجاع، او انه لا يأبه بالذكريات.

وقد قيل لنا انه متخرج من الجامعة الشهيرة التي درس رنان نفسه فيها، من سان سلبيس بباريس، وانه كاهن عصري، اي مهذب حر الفكر والضمير، كما يراد من اللفظة في تلك الايام.

ولكنه، على « عصريته » وعلى ما في بيئته، كان يدعو رنان كافراً، ولا يخفي احتقاره حتى للزائرين المعجبين به. وكأنه تخصص في دروسه اللاهوتية بعلم المقاصد والنيات

قال ذلك المحترم ان احد اغنياء اليهود استخدم رنان الكتابة كتابه الذي لا يستحسنه غير اليهود انفسهم والكفار من المسيحيين. وقال كذلك ان شقيقة رنان، التي كانت تلبس مثل الراهبات، وتزور الكنيسة مع اهل القرية، ساعدته في تأليف ذلك الكتاب. فهي واياه في الكفر سواء.

ولكن طوبيا، ابن مضيف رنان. وشقيقته، رحب بنا ترحيب لبناني كريم، فحدثنا في شتى الشؤون القروية والجبلية ليبعدنا عن موضوع حجتنا، ثم دعانا للغداء، وافصح، وهو يسكب لنا من خمره المعتق اللذيذ، عن بعض

---

(1) The Renans in Syria - The Bookman, February, 1912

اعتقاداته كماروني لبناني. وقد تكون بعض العقائد الدينية كالخمر المعتق، الا انها لا تسكر، وقلما تدخل على القلب السرور.

سألنا طوبيا بن زخيا عما عنده من تذكارات رنان الى والده، فجمجم الكلام متردداً، وهو في حيرة من اهتمامنا بالأمر، وفي خوف مما نقصد او نكنّ من قصدنا. وما الفائدة من الكتابة عن اشياء منسيَّة. او عن الأموات؟ وما الخير في نبش القبور، وبعث البِدَع من اكفانها؟

سمعنا كلام مضيفنا بما توجبه اللياقة من الاعتبار، واستمررنا في الحديث مستدرجين مطمئنين، ونحن نشعر انه يتقلقل في رفضه، ويقرب في تقلقله من قلوبنا.

ومما زاد في تغيير موقفه حديثٌ لجميل ذكرني بمقال له في «الارز وخرافاته» تمثلت فيه نواعم التهكم والظرف.

قال جميل يخاطب طوبيا: «رنان من بلاد تشبه لبنان في عادات اهلها ومعتقداتهم. في لبنان تجثو الاجراس ليلة الغطاس مع الاشجار للسيد المسيح، وفي بريتانيه، بلاد رنان، يوم خميس الغسل من اسبوع الآلام، تجتمع الناس في الجبال حول خرائب كنيسة القديس ميخائيل ليشاهدوا الاجراس تسير الى رومه ليباركها البابا.

«ومثلما نشاهد نحن الاجراس تجثو للسيد المسيح، — نشاهدها بعين الايمان طبعاً — كان الصبي رنان وشقيقته الفتية يشاهدان تلك الاجراس، وهي ترفل بقمصان العمادة، تسير في الفضا. تطير الى رومه لتظفر بالبركة الرسولية.»

ابتسم طوبيا ابتسامة ناعمة، فيها عذوبة الايمان، وقال، وهو خارج من القاعة: الله قادر على كل شي. ثم عاد يحمل بندقية وبعض الاوراق. فارانا صورة رنان مقدمةً منه الى والده — «الى صديقي القديم زخيا» وكتاباً منه ايضاً الى «صديقه العزيز» يفصح فيه عن رغبته بان يضيفه في

بيته اذا ما زار باريس. اما البندقية فهي هدية منه ومن شقيقته اعترافاً بفضله. واهم من كل ذلك، في نظر طوبيا، كتاب من الوزارة الخارجية الفرنسية يقول الكاتب فيه ان جلالة الامبراطور امره بان يشكر المسيو زخيا على ما اسداه من المعروف والمساعدة للبعثة الفينيقية اثناء عملها في سورية.

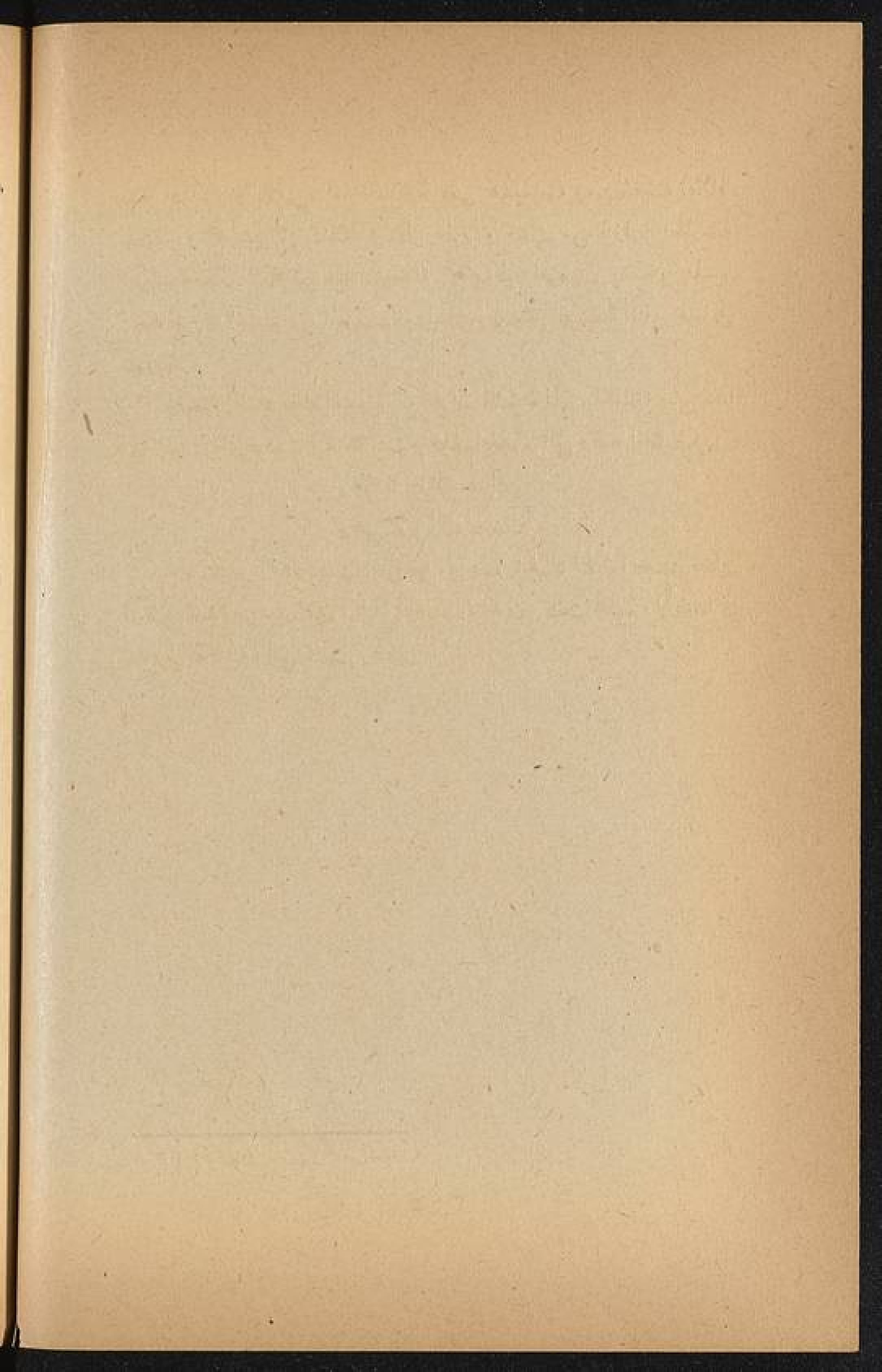
وبعد ان اعاد تلك الهدايا والتذكارات الثمينة الى مكانها، مشى معنا الى البيت الذي توفيت فيه هنريت، ثم الى الحجرة التي وضع الجثمان فيها.

وهو لا يزال هناك،

وهي لا تزال عندنا.

قال رنان: «اتردد في اخراجها من هذه الجبال الجميلة، حيث قضت اوقاتاً عذبة، من بين هؤلاء الناس الطيبين، الذين كانت تحبهم، لأضعها في مقابرنا الكئيبة، التي كانت تُرعبها [1].»

(1) «شقيقتي هنريت» صفحة ٩١

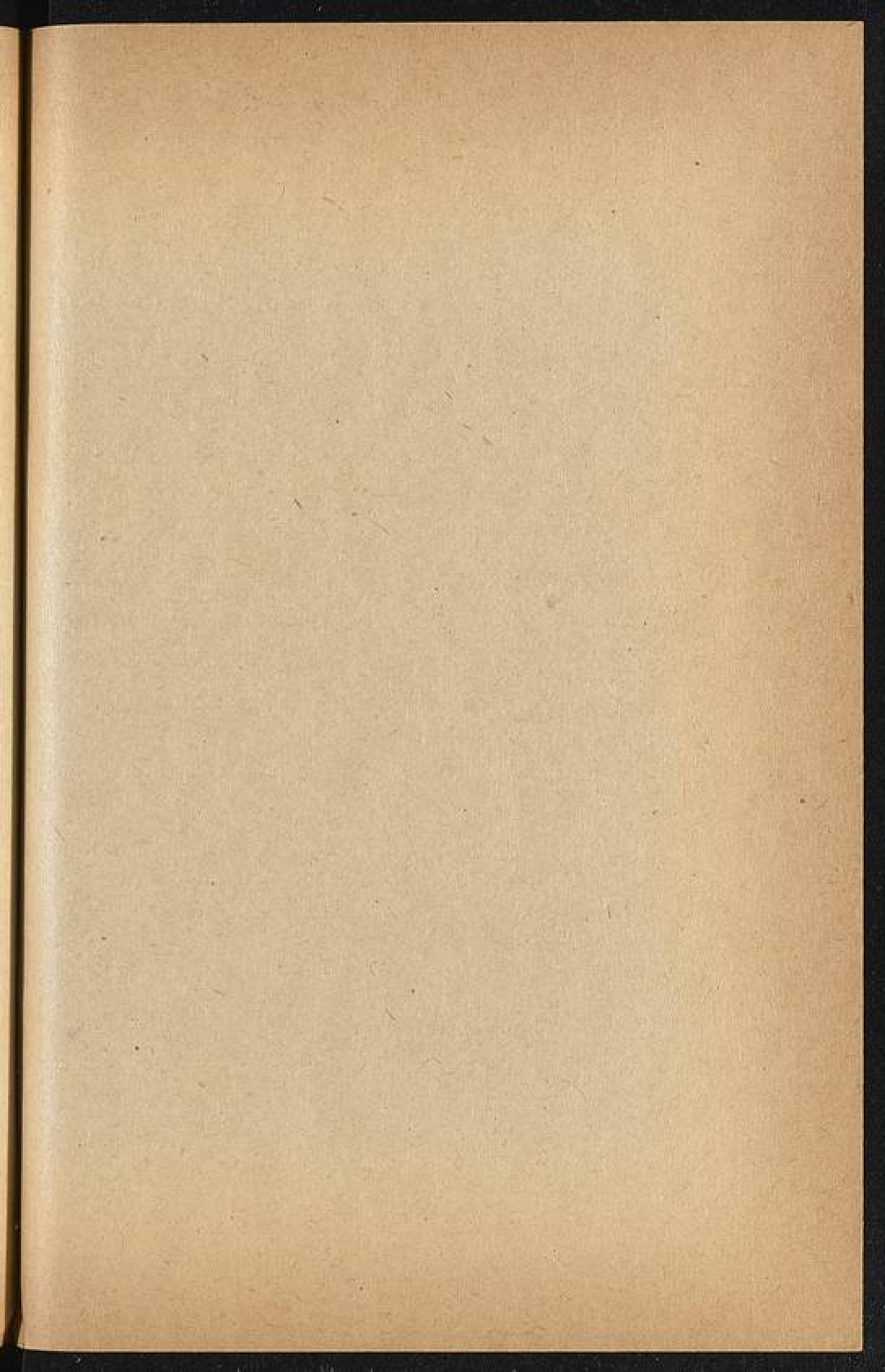


الرحلة الثامنة

غرزوز

•

محتويات الرحلة



الصبي المطوق

في العقد الثامن من القرن الماضي كان معمل الحرير بالفريكة في اوج الاقبال، عامراً بالمائة الكاملة من العمال والعاملات، تدير المائة من دواليبه المتلألأة بالخيوط الذهبية، المستخلصة من الشرانق في احواض المياه الساخنة. وكانت قوافل البغال المحملة شرانق تخب الى المعمل من كل حدب وصوب، وتحمل منه كل اسبوع بالات الحرير الى بيروت، لتُشحن الى مدينة ليون بفرنسه. وكان وكيل اصحاب المعمل ببيروت يرسل المال ثمن الحرير مجيدياتٍ عثمانيةً في اكياسٍ من الجنفيص، تحملها تلك البغال عائدة الى الفريكة.

— « تعالوا يا اولاد عدوا المجيديات. عدوها وصفوها في الصناديق. »

وفي تلك الايام الفضية السعيدة — ايام القوافل المحملة حريراً، العائدة من بيروت باحمال من المجيدياتِ كان لاحد اصحاب المعمل ولد صغير، في الربيع الرابع من عمره، رأى بغلاً ذات يوم مربوطاً بشجرة التوت امام الباب، فحدثته نفسه بالفروسية. دنا من البغل وفك رسنه، ثم صعد الى الحافة، ومنها الى ظهره. مشى البغل متباطئاً، متحققاً امره، فنتل الصغير الرسن، ففهم ذو الاربعة المذكور معنى ذلك، وراح يخب، ثم يعدو، فتقلقل الفارس الصغير، وهوى الى الارض. في تلك الفينة، وهو بين الارض وجلال البغل،

رآه احد الجيران، فصاح مستنجداً بمار انطونيوس ومار شليطا [1]، وهرع الى الصغير فلمّه، وحمله دامي الرأس الى أمه.

ما كان الجرح مهماً، فما عتم أن التأم. ولكن الولد أصيب بعد بضعة ايام بمرض في اذنه، شديد الالم، كثير الصديد، فحُمل الى طبيب برمانا المشهور في تلك الايام، الدكتور بشاره منسى، فوصف له دواء وحقنة.

كانت تلك الحقنة تزعج الصغير، وما اسرعت في الشفاء. فتناولها ذات يوم من يد الخادمة، وهي تحقن اذنه، وضربها بها على رأسها فانكسرت.

بعد يومين من هذا الحادث جاء الفريكة رجل من غرزوز، كان يشتري الشرانق للمعمل. جاء للمحاسبة، فنزل ضيفاً على والد الصغير المصاب بأذنه. فقصت الام عليه القصة المكربة، فطمأنها قائلاً: الدواء عندنا، ان شاء الله.

وما الدواء؟ اخبر ذلك الغرزوزي التقي الامّ التقية ان في ناحية البترون قديساً جديداً كثير العجائب، هو قديس كفيفان، وذكر بعض عجائبه، ثم قال: انذري لقديس كفيفان عليه السلام.

فنذرت الام لذلك القديس رطلاً من الشمع، وإقةً من البخور، وخمسة مجيديات.

وبعد ان عاد الغرزوزي الى بيته ارسل اليها طوقاً من الفضة جاء به من الدير بكفيفان للولد الصغير بالفريكة. فالبسته الام ابنها، وباتت تنتظر الاعجوبة، وهي مستمرة في معالجة اذن صغيرها بشتى الادوية.

ما خيب القديس املها. ولكنه كان، مثل الادوية، ومثل الحقنة، بطيئاً في عمله. فلم يشفَ الصغير كل الشفاء الا بعد شهرين من تطويق عنقه بالطوق الكفيفاني المقدس.

---

(1) القديس انطونيوس شفيع الاولاد، والقديس شليطا شفيع الدواب، عند بعض اللبنانيين.

وفي تلك الاثناء جاء والد الصغير كتاب من صديقه يدعوه وعائلته لزيارته بغرزوز. فتلقت الام الدعوة فرحةً وقالت: نزور غرزوز ودير كفيفان. فقال الزوج المحب: كما تريدين.

جاء اليوم السعيد، يوم السفر، فارتدت «الست» فستاناً من الاطلس الاسود، واعتصبت بعصابة من جنسه ولونه، ثم تقلدت ساعتها في سلسلة من الذهب تدلت على صدرها. ولبس «الخواجا» سراويلَ مفوسخه، من الجوخ الكحلي اللون، شدها بمنطقةٍ عريضة من الحرير المخطط، يختفي نصفها، من وراء ومن الجانبين، تحت كبرانٍ مطرّز الاطراف كجيبي السراويلِ، وتبدو من امام كالهامش الفخم لصدريةٍ سوداء، ذات عشرين زراً، مزرورة في اسفلها واعلاها، ليظهر من خلال وسطها القميص الحرير، المتمم لونه الاصفر بلون المنطقة.

اما صغيرهما المطوق بطوق قديس كفيفان، فقد كان يرفل في قمبازٍ مخطط معصفر، مشدود الوسط بمنطقةٍ من طراز منطقة ابيه. على رأسه طربوش تعلوه كوفية بيضاء، وفي رجليه حذاء لمّاع عراه من النحاس الاصفر. وكان وهو يمشي يرمق ذلك الحذاء بعيني العجب والجذل.

«وهذا رطل الشمع — وهذه اقة البخور — ضعها، يا جرجس، في الخرج»

وكان الخادم جرجس قد انجز والمكاري تجهيز البغلة والبغل بما تستوجبه راحة المسافرين وسلامتهم من رُكُب ووسائدٍ وسجادات.

رسمت السيدة شارة الصليب على وجهها، واعتلت بمساعدة جرجس ظهر البغلة، فتمكنت في جلستها، ثم اجلست الصبي المطوّق امامها. فمشى المكاري حنا الى جانب البغل مركوب الوالد، ومشى جرجس الى جانب بغلة الوالدة.

الى غرزوز — الى كفيفان!

هي رحلة العائلة المقدسة. استغفر الله. هي رحلة عائلة ترافقها القداسة،

تطوق القداسة عنق صغيرها .

ذلك الصغير هو كاتب هذه السطور، وتلك الرحلة هي اولى رحلاته في هذه الدنيا .

الطوق الاقدس

القداسة أم الايمان . والايمان حجة القداسة المقرونة بالكرامات والمعجزات. فاذا كنت من المشككين، فلا دواء لعينيك، ولا لقلبك.

واذا كنت متعصباً لدينك او لمذهبك او لطائفتك، فالطهارة تشفيك من تعصبك، ولو وقتياً، كما يشفيك القديس من مرضك.

— تعالوا اليَّ ، يا اولي القلوب الطاهرة . تعالوا اليَّ بقلوب كقلوب الصبيان .

اجل ، ان القداسة المقرونة بالكرامات والمعجزات لتعدو حدود الطوائف والاديان، فتجتذب اليها قلوب المؤمنين ، مسيحيين كانوا او مسلمين، او عبدة اشجار واوثان.

وعلى الاخص اذا كان صاحب القداسة لبنانياً ، يتقبل الله دعواته ، ويأذن بالمعجزات على يده. فان ذكره ليسري سري البرق في قرى الجبل. على اجنحة الايمان ، والسنة الطهارة ، فيجيئه ذوو الامراض المعضلة والعاهات، من رجال ونساء، مستغيثين مستشفين. يجيئون من كلِّ صوب وحدَب . ويجيء الدرزي قبل الماروني ، والشيعي قبل الدرزي ، والارثوذكسي المستقيم الرأي قبل الجميع.

فلا عجب اذا كان عازار الغرزوزي الارثوذكسي من الذين سمعوا بالقديس كفيفان، وآمنوا به، وراحوا يبشرون بعجائبه. ولا عجب، وهو الصديق الحميم، اذا سارع الى انقاذ ابن صديقه مما كان ينذر بالصمم، فارسل اليه ذلك الطوق المقدس، الحامل مع البركة والنعمة، الشفاء والعافية.

وها هوذا الصغير المطوَّق مع والديه في غرزوز . وصلوها سالمين

معافين، ونزلوا ضيوفاً مكرمين على السيد عازار، بل على آل عازار باجمعهم، بل على غرزوز العامرة جمعاء.

كانت والدتي تقول، وهي تعيد ذكرى تلك الزيارة؛ « بقينا عندهم عشرة ايام وكنا كل يوم في عزيمة. »

عشرة ايام، هي عشرة اعياد، كانت تُذبَح فيها الاغنام، وتُفض اختام خوابي النبيذ المعتق. هي الضيافة اللبنانية التي اشرت اليها مراراً فيما تقدم من فصول هذا الكتاب. شهدتها لاول مرة في الربيع الرابع من عمري، يوم كانت الذاكرة بنت سُنَيَّتِها، لا تعي غير القليل الرائع او المروّع من المرئيات والمحسوسات.

فاني فيما قلت في الفصل السابق، وفيما انا قائل الآن، انقل ما كانت تقصه الوالدة علينا في سويعات الحبور. ولكني لا ازال اذكر اربعة اشياء، واتمثلها كما كانت، او كما حدثت منذ خمس وخمسين سنة اولها ذلك البغل الذي رماني الى الارض وكاد يكسر رأسي. وثانيها تلك الحقنة التي كسرتها انا على رأس الخادمة مانه (لا ازال اذكر ايضاً اسمها: مانِه، كما كنا نلفظه)

ومما رسخ في الذهن من رحلة غرزوز ركوبي البغلة وامي، وتطويقها لي بذراعها عندما كنا نهبط او نصعد في الطريق. وما نسيت فرحي بالطوق الفضي، والحذاء الاسود اللمّاع الطويل، ذي العُرى العديدة الصفراء. اما ما سوى ذلك فالعهدة فيه على أم امين.

فقد اخبرتني ان الضيافات كادت تحول دون رغبتها الاولى، وقصدها الاكبر، اي زيارة الدير بكفيفان ووفائها بالنذر لقديسه، لولا جسارة نشأت من عزمها وشدة ايمانها. وقد لقيت في بيت عازار شريكة لها في العزم والجسارة، هي زوجة مضيفنا الكريم. فاتفقت السيدتان على الرحيل باكراً، قبيل الفجر، ساعة يكون الرجال نائمين، واوعزنا الى المكارين باعداد الزاد

وتجهيز الركائب.

ولقد شاءت رفيقة امي ان يكون الصبي المطوّق، الذي احبته كثيراً، رفيقها على ظهر دابتها. فسألتُ الوالدة : وهل رضي ذلك الصبي ان يفترق عن امه ؟ فقالت: نسي امه.

وعندما كنت اسألها : وهل كانت رفيقتك جميلةً مثلك ؟ كانت تقول مبتسمة، وبصوت فيه عذوبة الاسى : واحسرتي. انا جميلة ؟ اما امرأة صديقنا الغرزوزي فقد كانت يا ابني من الجميلات.

— وأثبتت تلك الجميلة رجلها في الركاب، ثم تناولت الرسن من المكاري بيُمناها، وعكفت يسراها على تضمّي الى صدرها

— وهذه نجمة الصبح — الزَّهرة — تشيعنا، وتدعو لنا بالخير والسلامة.

سرنا من غرزوز في طريق الجبل شرقاً بشمال، من ناحية جبيل الى ناحية البترون. سرنا سير الهون كما يقول عرب البادية، فمررنا بقريتَي معاد وصفار، ثم بدير مار يوسف جربَتّه، ووقفنا في منتصف الطريق للاستراحة والغداء. ثم استأنفنا السير فوصلنا الى دير كفيفان قبل الغروب

وبعد ان زرنا الكنيسة، ووقفنا امام تابوت القديس، المعروض فيه جثمانه كاملاً، دون ان يبلى شيء منه زرنا رئيس الدير، فقدمت له الوالدة رطلَ الشمع واقة البخور وخمسة المجيديات، فتقبلها نذراً للقديس وباسمه، ورفع يده فوق رأسي مصلباً مباركاً. ثم دعا السيدتين للعشاء، وامر بعدئذ الراهب الخادم بان يعدَّ لها غرفة النوم. ولكنها، طمعاً ببركة القديس الكاملة، ففضَّلتا الكنيسة على الغرفة، ففُرش لها فيها.

— ونام الصبي بين امه ورفيقتها الجميلة نوم الملائكة كما يقال. ولكنه حلم، على ما يظهر، بالجثمان الذي رآه في التابوت، فاستفاق مذعوراً، وسمع وهو يبكي، صوتاً لطيفاً يناديه باسمه ويقول : لا تخف، يا حبيبي، لا تخف. فظنه صوت امه، او صوت المرأة التي كان نائماً بين ذراعيها، فعاد اليها هادئ.

البال مطمئناً، ولكن امه، التي استيقظت كذلك لصراخه، قالت انها سمعت الصوت، وانه صوت القديس كفيفان عليه السلام.

وعندما ذكرت الاعجوبة صباح اليوم التالي ما انكرت الرفيقة قولها، لسبب لم ادركه يومئذ، ولا اتجاسر اليوم، بعد خمس وخمسين سنة، ان اقول اني مدركه. فهل رعت في سكوتها شعور أمي، ام شعوراً آخر يُقرَن الصغيرُ به ؟ لست ادري.

ولكني كنت اناقش الوالدة في الموضوع كلما اعدنا ذكر تلك الزيارة. فتنتهي المناقشة بقولي ان الصوت الذي سمعت هو صوت امرأة، وبقولها انه صوت القديس، قديس كفيفان، عليه السلام.

ما كنت في مخالفتي مكذباً لها، بل مثبتاً، بناء على روايتها، ظني الاول، ليلة استفقت من نومتي في الكنيسة مذعوراً باكياً.

فهل افسد القديس بطوقه سمعي، فحسبت صوته صوت امرأة، ام هل شفاني كل الشفاء فاستطعت ان اميز بين صوت المرأة وصوت الرجل ؟ انه في الحال الاولى مسؤول عن خطإي، وانه في الثانية جدير بالحمد والثناء.

اعيد في كلا الحالين ما افتتحت به هذا الفصل : القداسة ام الايمان. ولكني اسائل، وفي النفس الحائرة جمرة كاوية : اين ذهبت القداسة التي غمرتني في تلك الايام — قداسة طوق كفيفان، والقداسة التي طوقتني بها ذراعا تلك الحسناء العرزوزية في كنيسة القديس ؟ فهل لا تزال مضطجعة هناك، امام ذلك التابوت المسجى فيه الجثمان الطاهر، ام هل هي مسجاة في تابوت الزمان، بين شموع السنين المطفأة ؟

لله من هذا الزمان. يشعل في الروح شموع اليقين، ثم يطفئها. يعلِّم فيورث الاسى والآلام. يعطينا النزر من المعرفة، ويحرمنا الوفر من الطهارة والنعمة. يفتح العقل فينتفخ الرأس، ويفتح القلب فيفرغ.

وبعد ذلك الانتفاخ وهذا الفراغ الموت، الموت. هذا اذا كنت لا

تسارع الى الطبيب الاكبر – الى مستشفى الروح.

وهناك، في ذلك المستشفى – هناك، في الكنيسة الكونيَّة – تنام ليلة واحدة، مطوقاً بالطوق الاقدس، بين ذراعي الله، وتنهض في اليوم التالي باكراً لتغسل قلبك وعقلك بنور الشمس.

بعد ذلك تعود الى الحياة ظافراً بالمعرفة والنعمة. وكل النعمة في السكينة والاطمئنان.

صخرة الرويس

في جوار غرزوز، على ربع ساعة منها، غرباً بجنوب، صخرة طويلة مشرئبة، تشرف على الهر والبحر دونها، يؤمها اهل البلدة للنزهة، فاسموها المنتزه، او منتزه الرويس.

« المنتزه » ? وفي غرزوز منبت للشعر والادب وعلم اللغة ? ان ذلك لعجيب. واعجب منه ان شعراء غرزوز وادباءها واساتذتها يجهلون او يتجاهلون ما تجدد من اللغة، وطُعِم، وغُرِس في بستانها المصري العصري، الذي تُجَرُّ اليه المياه من الجامعة، ويُحمل اليه السماد من الازهر. فقد طُعِمت فيه « جيد جداً » مثلاً، فنمت جِدَّ جيدٍ، وازدهرت جدّ ازدهار. وقد جُددت فيه « فحسب »، فاعشوشبت ارض البستان بها، وتنمقت بالعوسج والبلان، وصار كل بستاني يزرع « فحسب » في بستانه، وإلا فيُنبَذ من الجمعية الزراعية العربية.

وقد قطعوا شجرة التمدن القديمة العهد، الا غصناً منها، فالقحوه بلقاح التَمَدْيُن، فنما الغصن الجديد نمواً عجيباً، وتهافت عليه الزرّاع من سائر الاقطار يبتغون المطاعيم.

وهاكم غرساً جديداً يندر وجوده في البساتين، وقد يندر حتى في مثل الروض العاطر، لنزهة الخاطر. هو الاشتقاق الحديث من هذه المادة، التي أغار عليها الكتاب المجددون، فصارت للخاطر نزهةً، بعد ان كانت عفةً وصوناً للقلوب.

اننا نحار فيما يريد اساطين اللغة. فالقاموس يقول: نزّه الابل عن الماء اي ابعدها. ويقول: تنزّه اي تباعد عن المياه والارياف. فهل اشتقوا

المُتَنَزَّه من تنزّه، وعكسوا معناها، فاطلقوها على كل مكان يطلب المرء فيه مجماً للسأم والضجر والغم ؟ ام هل يريدون التنزّه عن القبائح، والتباعد عن الاقذار ؟

ومما جاء كذلك في القاموس، نقلاً عن ابن السكيت في فصل ما تضعه العامة في غير موضعه: خرجنا نتنزه، اذا خرجوا الى البساتين. وانما التنزه التباعد عن الارياف والمياه.

فهل يجوز لارباب بستان اللغة او يليق بهم، وهم يأخذون الاغراس الجديدة من الجامعة، ويسمِّدون ارضها بالسماد الازهري، ان يغرسوا من اغراس العامة فيه، ويلقحونها لقاحاً عصرياً ؟ وهل تجد، رعى الله ذوقك السليم، شيئاً من الفرح او الراحة او النزهة في المُتَنَزَّه، الذي لا يؤمه غير المتمدِّنين، والمتمدينين جدا ؟

لست منكراً ما في القاموس، ولست طامعاً بان ازيد عليه. ولكني، وانا اتفيأ شجرة الذوق في الروض الازهري، اسأل هذا السؤآل : اذا خلت اشتقاقات نزه من انتزه، وكان معنى تنزه عكس المطلوب والمفهوم، فهل يجيز القياس او السماع انتزه، ثم اسم المكان منهما الاسم الذي اصبح معلوماً مفهوماً، وهو فوق ذلك خفيفٌ لطيفٌ، لا اثر للتحذلق فيه ؟

فيا اصحاب العصمة اللغوية، ان كل ما يجيء من احكامكم وكلامكم شريف كريم، ومزاجه من تسنيم، الا الحذلقة، والإغراب، والذوق السقيم.

ويا اصحاب الفخامة التجديدية، ان الشَدَّة في مُتَنَزَّه غيرها في منزَّه ومنتزَه. وان الفرق بين الاثنتين لكالفرق بين الورم في ظهر البعير والسنام. فهلا تفرقون بين الصحة والمرض، بين الشحم والورم ؟

حكِّموا الذوق، لا عدمتموه، في شَدَّة متنزَّه، تجدوا فيها ثلاثة عيوب. فالعين تستنكر صورتها، والاذن تستثقل وقعها، واللسان يمج اقترانها بالميم

والتناء في المتنزَّه موت الروح، وتَنزُّ الجروح. اما المُتنزه فان فيه المنَّ، وان في الحركات الثلاثة بعدها سهولةً ولطفاً وسلامةً اطالبي النزهة.

لذلك نطلب النزهة ونجدها في المتنزه، ولا نطلبها ولا نجدها في المتنزَّه ولذلك هنأت اهل غرزوز بسلامة ذوقهم، وهنأتهم بذلك المتنزه الذي يممناه مع سرب من الفتيات والفتيان.

وكان بين الفتيات فتاة يداعب الادب قلبها، مليحة فصيحة، ناعمة اليد، حادة النظرات. شمت في عينها برقاً قديماً، ذكرني بمن حدثتك عنها في الفصل السابق، بتلك الغرزوزية الحسناء، حاضنتي على ظهر بغلها في الطريق الى كفيفان، ضامّتي الى صدرها ليلة الكنيسة هناك.

بل خلتها، وقد عادت الى هذا الوجود، مجسدةً في محدثتي الفصيحة، ذات النظرات الحادة البارقة. وما الذي يهدر الخيال، او يبيح الذكرى، بعد ضياع الإكسير الذي يحوّل القبلة البشرية الى قبلةٍ ملكية؟ لقد احببت ان اضم المليحة الفصيحة الى صدري، اكراماً لتلك الحسناء ابنة بلدتها، التي ضمتني الى صدرها منذ خمس وخمسين سنةً، فاتصور نفسي في الكنيسة ثانية، اقوم بواجب الجميل المقدس، امام صورة القديس.

ولكنك مقيد يا هذا بقيود صاغها الزمان والانسان. فلو مكّنك إكسير الطهارة من شوق قلبك، فما تفعل بسُم المجتمع البشري؟ ولو قالت الطبيعة: لكم القدوة الصالحة في الطيور، ولو قالت الكنيسة: طوبى للقلوب الطاهرة، فماذا يقول العقل المتحضِر، وماذا تقول الاعصاب الهائجة، وماذا تقول العوامل الكيماوية، في الغدد الأُنسيَّة؟ ...

— ولقد قالت المليحة الفصيحة انها تحترم الذكرى التي حملتني على الزيارة الثانية لغرزوز. ولقد لزمتني كالظل — الخفيف — في جولاتي التذكارية. ولقد انتدبت نفسها للقيام بواجب الترحيب، وبفتح الابواب التي وقف القلب امام صورها القديمة، تحت سرداق التحنان والشجى.

ولكنها في احتفائها مُخفية. فكانت كل مرة تجيب على سؤآل اسأله، فتسأل هي عشر سؤآلات.

– وما معنى التجدد في الادب ؟ – ومن هو اكبر شاعر من شعرائنا اللبنانيين ؟ – وهل تفضل الشعر المنثور على المنظوم ؟ – وماذا يعني الصحافيون بقولهم شاعر المناسبات ؟

سؤآل يتلو سؤآلا. وانا في الطريق احاول ان استوعب شيئاً من المشهد حولي، فتحول نظراتها، وتحول نغمات صوتها دون ذلك.

ثم استوقفتني لتطرح هذا السؤآل :

هلا ترى في الشعر الباكي، كما تسميه، او شعر القلوب المحزونة والقلوب المكسَّرة (قالت « المطحبشة » باللهجة اللبنانية، وقالتها ضاحكة) الا ترى في هذا الشعر شيئاً من الجمال ؟ وهل تُحرم الاحزان، وحرقاتُ القلب شعراً يسليها، شعراً يعزيها ؟

كان القوم قد تقدمونا. فشعرت وانا ارمقها بنظرة، تعثَّر القلب فيها، اني على شفير هاوية. وليست الحقيقة باقل خطراً من الخيال. فقد كنا في جادة ضيقة، بين صخرتين. وفي الجادة درجة عالية، فاخذت بيد محدثتي اساعدها، فلمس زندي صدرها الناهد، فسارعت بها من ذلك المضيق. ثم قلت، ونحن في فجوة السلامة : يظهر انك ناقمة عليَّ لحملاتي على الادب الباكي.

– « لا وحياتك. ولكني احب شعر بشاره الخوري، واحب جبران، واحب كل ما يكتبه الاستاذ الريحاني ».

– كل ما يكتبه ؟ انك مجاملة. عجلي، فقد سبقنا القوم.

وكان ابراهيم حتي وجبرائيل غرزوزي قد تخلفا عنهم وهما ينتظراننا. فرماني جبرائيل بنظرةٍ خبيثة، وابتسم ابراهيم ابتسامة صريحة، فضحكت الفتاة ضحكة شرَّدت ما اضمراه، وقالت :

«فالاستاذ الريحاني يزور غرزوز مرة كل خمسين سنة. وانا، عاشقةُ ادبه، أريد ان اتزود ما استطعت منه.»

فاجابها ابراهيم — وقد مر بك انه يكره النساء. ويعبدهن، يكرههن مجموعات، ويعبدهن فرداً فرداً، ويعجب بالجزار وامثاله، وان قلوا في هذا الزمان — اجابها بصراحته المعهودة: ولكن عشق النساء واحد، وان تعددت اسماؤه واسبابه. واحد لا غير، ولا يتغير.

فاحمر وجه الفتاة خجلا، وأشاحت به عنه، تلوذ بصديقي الثاني جبرائيل غرزوزي.

وجبرائيل يجمع في شخصه اربعة اساتيذ. فهو الاستاذ الخياط، والاستاذ الساعاتي، والاستاذ الشاعر، صاحب البيت المشهور في القرنة المباركة. [1]

غرزوز يا غرزوز يا غرزوز في ناظريك مغامز ورموز

ومع ذلك هو الاستاذ الكبير في العزوبة. فهو لا يكره النساء، ولا يحبهن. ولا اظن ان احداً من اصدقائه يعرف اذا كان هناك — بين كُرهٍ واللاحب — شيء وضعي عملي.

سمع جبرائيل كلام ابراهيم ساكتاً هادئاً. وعندما مالت المليحة بوجهها اليه قال: الرجل الذي يعرف ما في قلب المرأة لم يولد بعد. فالذين يذمونها لا يختلفون كثيراً عن الذين يمدحون. والحقيقة، يا حضرة الآنسة، عند الله.

فقالت، وهي تعرض عن الاثنين: «انت يا جبرائيل شيطان في صورة انسان. وحضرته — وهي تشير الى ابراهيم — انسان في صورة شيطان.»

وكنا قد دنونا من الصخرة، فنادت الفتيات رفيقتنا، وسارع بعضهن اليها. فهمسن في أذنها كلمات، تلتها قهقهات، ورحن ينشدن جميعاً: ظبية الأنس اليَّ..

(١) غرزوز والقرى المجاورة لها تدعى قرنة جبيل.

قال ابراهيم لجبرائيل: انها جميلة.

فقال جبرائيل لي: ارتحت نفسه.

فقلت للاثنين: تستحقان ان تُرميا من رأس هذه الصخرة.

وكان واقفاً هناك ساعتئذ الاديب العصامي، اديب غرزوزي، مبيّض وجه صاحب رأس المتن، الدكتور أوليڤر، في المجلة التي يحررها له. وقف اديب على رأس الصخرة ينتظرنا ليقوم بواجب الدليل.

هوذا منتزه الرَوَيس، محط رحال الشعراء والعشاق. وهوذا المشهد الذي ينبسط امامهم، من عمشيت الى جبيل، الى نهر ابراهيم، الى بيروت.

حقاً انه بعيد المدى، يبدأ ببسطة من الارض تنحدر انحداراً هادئاً الى البحر، وينتهي بقطعة من البحر تمتد الى العاصمة اللبنانية. ويزينها اربعة رؤوس من البر يبعد الواحد عن الآخر نحو عشر كيلومترات. اولها واقصرها عند نهر ابراهيم، وثانيها، وهو اطول من الاول عند جونية، والثالث عند نهر الكلب، والرأس الاخير، وهو اطول الاربعة، يحمل مدينة بيروت.

وهناك جنوباً بغرب، على رابية اسمها المنزلة، دير قديم يعود الى القرن السابع، ويُعرف اليوم بدير الاربعين شهيداً.

هناك كانت غرزوز القديمة، يوم كان المكان حافلاً بالمياه. فنزح الاهالي عندما جفت العيون، على ما يظن، واسسوا غرزوز جديدة حيث هي البلدة اليوم.

وذلك الوادي الصغير، تحت المنزلة، يدعى زِيرَ الغزالة، اذكره لاضيف لفظة وضعية الى الالفاظ اللبنانية في وصف انواع الارض واشكالها. فالجل المعارض في واد او في سفح جبل، الى جنب ساقية او غدير، يسمى في هذه الناحية زِيرَة، تجمع على زِيَر.

جلسنا للحديث، فتنوع، وتشعب، وتكوّن كالارض حولنا. فضرب

الاديب بسهم فيه، واعادت الفتاة الادبية الكرة علي بالسؤآلات ، فكنت أجيب على بعضها بما يمكنني الصبر، واحول البعض الآخر الى مواضيع للمناقشة ، فيتناقش الفتيان والفتيات ويحتدمون ، فأُسرُّ انا بالهدنة التي كنت ارغب بها .

كان الاديب في القرن الماضي، اذا شاء التمثل ببيت من الشعر، يذكر الشعر باسمه، توكيداً واحتراماً . مثال ذلك : وعسى ان يتمهَّد لي العذر في هذا التساهل الذي ارتكبه شعر .

وقد يتزيَّا بالهوى غير اهله ويستصحب الانسان من لا يلائمه

واني احب ان احلي هذه الصفحة بتلك الحلية الادبية وأُثبت بدل الشعر النصيحة، فاقول : عسى ان يتمهد للاديب طريق السعادة في تساهل يرتكبه يوم يزور صحبه في القرية . نصيحة .

على الاديب الذي يزور بلدة له شيء من الشهرة فيها ان يعد العدة لجميع الطوارىء والمفاجآت الفكرية والوجدانية — العلمية والشعرية والسياسية والزراعية واللاهوتية والغرامية .

واول ما يحتاج اليه من ذخيرة وزاد هو الشعر . فليتزود قسطاً وافراً منه، وخصوصاً من الشعر الغزلي . وليقرأ بضع صفحات من كتاب القديس توما اللاهوتي . وليراجع قواعد التلقيح وغرس الاشجار في كتب الزراعة . وليكن له رأي صريح حاسم في السياسات الدولية والوطنية . ونظرات محدودة في الشعر، وفي سائر العلوم . فلا بد لشاعر القرية او كاهنها او فلاحها او سياسيها او لغويها او عالمها ان يشارك في الفحص ليتيقن ويقتنع ان زائرهم الكريم هو حقاً شيخ الادباء، او امير الشعراء، او العالم الفيلسوف الذائع الصيت . فيعود الى بيته، ويقول لامرأته، او لبقرته : ما اجمل العلم، يا بنت الحلال، وما اشرف وأعز صاحبه .

او انه يقول : ما اكذب الجرائد والمجلات التي تطبل وتزمر لهذا

« الاستاذ الاكبر » او لذلك « الفيلسوف الاشهر » ! فهو لا يعلم، يا بنت الحلال، اذا كانت الدجاجة ولدت البيضة، او البيضة ولدت الدجاجة. ولا يعلم اين نصف الارض. ولا يعلم من اين تجيء الدودة التي تأكل الكرمة. ولا يعلم عدد جروح المسيح – ولا – ولا ...

ليستعد الاديب الشهير لاساتذة القرية الفاحصين، اذا شاء ان يعود من رحلته ظافراً بشهادة الباكالوريا العالية.

غرزوز قائمة على ذراع جبل بين وادي العقيبة ووادي حوران . اراضيها مفرطحة، لا تتزاحم فيها الروابي – وهي جرداء في الجهة الغربية – نسبياً – خضراء في الجهات الاخرى . هواءها «صخري» كما يقول الغراززة اي انه جاف منعش، يطرد الامراض والاسقام من القرية، بل من القرنة جمعاء .

والقرنة هذه تسمى في الجغرافية اللبنانية قرنة جبيل، فيها سبع قرى قديمة، هي الريحانية وجدايل وشيخان والمنصف وبجماز والعبادة وغرزوز. وهي تعرف طائفياً بقرنة الروم، اصحاب الرأي المستقيم في الدنيا والدين منذ الازل . وهم لا يزالون محشورين في هذه القرنة من قضاء كسروان الماروني، دون ان يعوجّ فيهم ذلك الرأي المذكور .

على ان المبشرين الهروتستنت غزوا غرزوز في هذا الزمان الاخير، اي منذ ستين او سبعين سنة – يوم كان خبز المبشر ليناً هيناً – فعلق في شراكهم بعض اصحاب الرأي المستقيم، فاسس حاملو الانجيل، في جيوبهم من خلف، مدرسة لاولاد «المهتدين» بغرزوز . هي المدرسة الاميركية، التي لا تزال في قيد الحياة، تمتص قوتها من ايد ثلاث – قليلاً من الارسالية الهروتستنتية في بيروت، وقليلاً من الاسقفية الارثوذكسية في جبل لبنان، وقليلاً من اهل التلاميذ الذين يخرجون من المدارس في هذا الزمان ولا رأي لهم في الدين غير ما كان معوجاً .

وفي هذه القرنة المباركة، ذات سبع القرى، نبغ من الشعراء والادباء والصحافيين ما يكفي لتخليد مجد الملّة باجمعها . اذكر من الشعراء

سليم بن بولس جبور عازار، الذي حمل عبء العبقرية الى الولايات الاميركية المتحدة في فجر هذا الجيل، ثم عاد به الى مصر، فاراحه الله هناك — نقل سبحانه وتعالى سليماً الى جواره، وهو في ربيع الشباب، ليغرد له في قفص الفردوس.

ومن شعرائها نعمه الحاج، الذي لا يزال يغرد في سويعات الشفق، من حين الى حين، بين القندولتين، البيت والدكان، في المهجر.

ومنهم الشاعر الفردي المشهور، رشيد الخوري، المولود في العبارة، المقيم في قرية « بربارية » في البرازيل، فيغرد هناك تغريد القبرة لوطنيه العربي والشعري، ليل نهار، فلا يتعب هو، ولا يسأم سامعوه.

اما الادباء والصحافيون فان عددهم لا يحصى. منهم من جالوا جولات منهكات في ميدان الادب والصحافة، فلطف الله بهم، ومنهم من اطفوا بانفسهم، فخرجوا من الميدان غانمين السلامة، وقلبوا للشهرة والمجد ظهر المجن، ومنهم من لا يزالون في الحلبة يغالبون الاقدار، ويجددون والنبوغ عهد الجوار.

اذكر من هؤلاء يوسف شهاب الغرزوزي مؤلف كتاب « ما هو الكون ». ما هو الكون ؟ يجيب الاستاذ يوسف عن هذا السؤال بما يقصر دونه علماء البيولوجيا والجيولوجيا والميثولوجيات جميعاً. وهو فوق ذلك ينظم الشعر، فيذكِّر بالحديث الذي دار ذات يوم بين النملة والجُدجُد. قالت النملة: اين كنت يوم الحصائد ؟ فاجاب الجدجد: كنت اعمل قصائد.

والاستاذ يوسف النابذ لقب اجداده هو من آل شهاب، الذين نزحوا الى بلاد جبيل في القرن الماضي، فراراً من نقمة والي الشام عليهم.

وبكلمة تليق بدائرة معارف اقول انه في سنة ١٨٦٠ حدث خلاف بين الشهابيين ووالي الشام، فثار الامير منصور واخوه الامير علي فقتلاه، فبلغ الخبر الصدر الاعظم محمد الكبرلي يومئذ، فكبَّر وتجبَّر. ثم ارسل ابنه

احمد والياً على الشام، وسيفاً على الشهابيين. فجاء الوالي الجديد ينفذ اوامر الباب العالي الدموية في بني شهاب، ففرّ من نجوا الى بلاد جبيل، ومعهم الامير منصور الذي استوطن غرزوز، فاستمرت سلالته في ازدهار حتى يومنا، والاستاذ يوسف منها.

ومن الادباء الغراززة الدائبين في هذه المهنة المرهقة مَن ذكرت عرضاً في الفصل السابق، وهو يستحق جملةً عطفيةً لفعلةٍ خطابيةٍ فعلها يوم زيارتنا لغرزوز.

قال اديب غرزوزي، مرحباً بالزائر الكريم، ومهنئاً له، انه نجا مما كان يقاسيه الرسل والانبياء في الماضي من صنوف الاضطهاد، فيجب عليه ان يشكر الله لانه لا يزال حياً، وفي نجوةٍ من الصلب، او من النار في هذه الدنيا.

وفي الآخرة ؟ ... اننا نحمد الله، ونسأله ألا يغيّر عادته بعد ان يدعونا اليه.

ولئن راعنا ما قد نلقاه هناك غداً، فقد سرنا ما لقيناه في غرزوز من جديدٍ في اسلوب المديح والثناء. فهو الطف ما قيل، نثراً ونظماً، حول السماط الذي بُسط لنا في اعلى بيتٍ بالقرية، والمأدبة التي أُقيمت في افخم بيوتها. فقد نطحنا الزاد من كبة وشواء في بيت ايلياس نقولا الرحباني (نسبةً الى رحبه في عكار) وكنا متفرنجين، الا في الروح واللسان، في بيت نسيب بولس عازار.

ونسيب ثلاثة في واحد. فهو من ادباء غرزوز، وهو صرّافها، وزين شبابها. اضاف الى كتبه انجيل هذا الزمان، اي القواعد الذهبية، في العلوم المالية، وأقرن جاهَهُ بالادب والاحسان، فما كان من الكافرين من اهل المال.

وان كان هناك من شكوى فانها واحدة، عامة شاملة، لا يختلف فيها

الفلاح والتاجر، ولا الفقير والغني. ومَن في القرنة، في بلاد جبيل، في لبنان وسورية، لا يشكو جور شركة حصر الدخان - يشكو الى الله، بعد ان تعددت الشكاوى الى الحكام.

هذه الشركة تمطت بصلبها على صدر الامة اللبنانية السورية، فكانت كالكابوس نيرها من حديد، وضيمها من ماء صديد، واحكامها كاحكام الفُرس قديماً والميد.

- هذه الارض ارضك، فلا يحق لك ان تزرع تبغاً غير قسم منها تحدده الشركة. وهذا التبغ تبغك، فلا يحق لك ان تبيعه من غير الشركة، وبالاسعار التي تحددها الشركة. وانك تُغرَّم الغرامة اذا ما فعلت غير ذلك. وان الزيادة التي تزرع من التبغ تُحجز ثم تحرق ... هذه الارض ارضك، فلا ارادة في استثمارها لغيري، انا الذي تنفِذ الحكومة ارادتي، انا صاحبة الامتياز، بالابتزاز...

لا اعتراض على الفاء السببية في هذا الكلام. فان للشركة عقليةَ الطغاة. وهي التي امثلها تتكلم. فلو كانت الارض ارضها، لما كان للمخاطَب الحق ان يطأها. اما وانها ارضه، فيحق له ان يطأها، ولا يحق له ان يزرعها تبغاً الا برخصة من الشركة. وفي هذا ما فيه من التسامح واليسر!

انها لمن كبائر الشركات الاجنبية في هذه البلاد، نسجلها لابناء المستقبل، فيتحدثون بما كان من حال اجدادهم، كما نتحدث نحن بما كان من حال اجدادنا في ايام المظالم والمغارم العثمانية. ونحن الذين نغبط من مضوا، نأمل ألا يغبطنا اللاحقون.

وقد عهد شاعر غرزوز الزجلي خصوصاً عن حال الفلاح في هذه الايام فقال:

« يا تعتيرك يا فلاح
تقضي زمانك ما بترتاح.

قرّك والدخان ماتوا
وماعاد في الك باب نجاح»

ولكن البيادر في غرزوز لا تزال تلبي داعي الفلاح، وتحفظ للفلاح بقية من الأمل. هذه البيادر طرفة من الطرائف الجيولوجية والزراعية منقطعة النظير في لبنان.

هي ذي صخرة عظيمة، بارزة في قلب القرية، تتكون الساحة من سطحها الاملس، وفيه عشرة من البيادر، لكل بيدرٍ حافة طبيعية تفصله عن الآخر.

وهذه الصخرة ببيادرها هي في الصيف مشهد بهيج لاهل القرية المزارعين. فهم في النهار على البيادر يدرسون الحب ويذرّون. وهم في المساء يستريحون في ضوء القمر ويسمرون.

وفي القرية وجوارها غير « بلاطة » البيادر من الصخور، مما جعل هواءها جافاً « صخرياً » كما أسلفت القول. ولكن ارضها كذلك جافة ظمأى. تقل فيها المياه، بل لا اثر فيها للينابيع. فاعجب لها من ناحية تكثر الدساكر مع ذلك فيها. فالقرى التي تمر بها من الساحل الى غرزوز تشرب كلها من ماء الامطار. وبما ان التراب الحوّارى صالح لتصفية المياه، ترى الاهالي يفرشون به سطوح البيوت، التي يملاؤن الصهاريج من مياهها.

ولماذا ينزل الناس ارضاً لا مياه فيها ؟ ما الذي حمل الارثوذكسي الاول على الاقامة في شيخان او في غرزوز ؟ هل لجأ ورفقاء له من ملّته الى هذه القرنة الجبلية القاحلة، هرباً من الاضطهاد او التسخير ؟ ام هل اختاروها لانها قاحلة، فلا يطمع بها الطامعون ؟ لست ادري.

انما اذكر ان لكل قرية من تلك القرى كنيسة او كنيستين، وقديساً شفيعاً او قديسين — وان للقديسين، ان كانوا من جماعة الرأي المستقيم او المعوج، عجائب تذكر لهم في حياتهم ومماتهم. منها ما يتعلق

بالعيون والمياه. فكانوا يحملون العِصيّ الشبيهةَ بعصا موسى، فيتفجر لهم من الصخور ينابيع.

وهذه كنيسة السيدة الارثوذكسية في غرزوز، اخت السيدات الكاثوليكيات المارونيات في لبنان، تشاهد من برجها النوريّ ابناءها الاتقياء يفرشون سطوح بيوتهم بالحوّارى، ليصفُّوا مياه الشتاء، ولا تدل احداً منهم على عين في القرية، او مكمن ماء في الجوار.

زرنا مع ذلك كنيسة السيدة الغرزوزية، التي بُنيت في سنة مظلمة كثيرة الكوارث. في تلك السنة كان والي الشام كنج يوسف باشا المجنون يصدر اوامره الغريبة العجيبة، منها ألّا يجزّ امرؤ الموسى على وجهه « وكل من حلق ذقنه يُقتل ». وفيها فتك الطاعون باهل حلب، فكان يخرج من المدينة مائة جنازة كل يوم. وفيها هجم اليزبكيّة اعداء الامير بشير على جبيل فنهبوها، وقتل الامير المذكور جرجس باز فهنّأه بذلك المعلم الياس اده في قصيده مطلعها:

افاتك ايها الانسان عابر   فكن متيقظاً فيه وساهر

في ذلك الزمان، اي سنة ١٨٠٧ — سنة الطاعون وجنون والي الشام بالذقون — كان اهل غرزوز آمنين في قريتهم مطمئنين، متجهين بقلوبهم الى السيدة القديسة، وهم يبنون لها الكنيسة هذه.

مررنا، ونحن عائدون منها، ببيت متهدم، إلّا قناطره الثلاث القائمة بين الانقاض. امام هذه القناطر وقف القلب خاشعاً، يعيد من الذكريات ما أنساه الحسناء الاولى، صديقة الوالدة، في رحلتنا القديمة الى غرزوز.

نسيت ان اخبرك، ونحن في الطريق الى منتزه الرويس — ولا حرج علي في النسيان، وانا اسير الفتنة التي مشت الى جنبي — نسيت ان اقول ان هناك، بالقرب من الرويس، مكاناً يدعى أصر. اللفظة قديمة، تناقلتها الاجيال، فضاع معناها ولكن الشائع هو ان في أصرَ كان قصرٌ لابنةِ ملكٍ

من ملوك جبيل الفينيقيين.

اي نعم. هناك كان قصر بنت الملك، وها هنا كان قصر الحبيب الاول. ها هنا تحت هذه القناطر كان مولد من انفتح القلب في قربها – انفتح في روض فردوسي، بين الليل والنهار، سويعة كانت تغمض الطرف، وترفع سدوله. في تلك السويعات الفردوسية كنت اجلس الى جنبها ساكناً خاشعاً، استمع اليها، واقدم القلب في مبخرة بين يديها.

كلانا كان في سن الفتوة الكثيبة الضاحكة، الوجلة الآبقة. يحوم حول ذلك الشيء الخالد، الذي يدعى الحب، ولا يدري اين هو. ولا يجرء، إن ظن المعرفة، أن يدنو من العرش.

كنا نلعب امام ذلك العرش ولا نراه، او في فناء القصر، دون ان يذكر الواحد منا اسم صاحبه – صاحب الجلالة، الحب.

وكانت هي تعدو في الحديث، فاحاول في بعض الاحايين ان اباريها، دون ان اقول شيئاً، فادركها ضاحكاً، فتقف واجمة، وقد أغمضت عينيها.

كان ذلك في نويورك، يوم كنت اكاد انسى لساني العربي. وكانت هي قد تعلمت شيئاً من الانكليزية في المدرسة الاميركية بغرزوز. فكانت فتنتي في ثلاثة، لسانها وفمها وعينيها: كنت اشعر بلذة التغريد في حديثها، وبلذة التقييد في فمها الصامت، وبلذة الكآبة حين تغمض وتفتح عينيها.

لله من الاقدار. فقد عقدت العقدة الاولى في قلبي وانا على صدر غرزوزية حسناء، في الخامسة من سنيَّ – وعقدت العقدة الثانية وانا الى جنب غرزوزية فتانة في نويورك. وجاءت الغرزوزية الثالثة ترافقني الى منتزه الرويس، فذكَّرتُ، وأشجت، وهي لا تدري انها تحيي ذلك الماضي.

لقد اخطأت التعبير. فلا صحة لِـ « تحيي » ها هنا. ان في زاوية من زوايا القلب العقدتين، تلك التي عقدت في غرزوز منذ خمس وخمسين سنة،

والاخرى التي عُقدت في نويورك بعد ذلك بعشر سنوات [1]، وكلتاهما لا تزال كما ارادتها انامل العاقد، وثيقةً طريةً ناعمةً عاطرة، ومختومةً بخاتم الحب الطاهر.

فهل يستطيع احد ان يقول لي ماذا يحل بهاتين العقدتين بعد الموت؟ وهل يستطيع احد أن يدحض قولي ان ساجوب السموات السبع وفي حقيبة الذكريات الطيبة، ذكرى هاتين العقدتين للحب الخالد؟

رحم الله كل من عقد عقدة خالدة في قلبٍ بشري.

---

(١) ثم سافرت الى البرازيل فماتت غرقاً في نهر الامازون. وفي الريحانيات، الجزء الرابع، صفحات ٧٧ – ٧٩ قطعة من الشعر المنثور، ذكراً لها.

من سطح مار شربل

سألت الصَحب الغوازنة هل في القرنة او في جوارها بقعة مارونية تشفع بقراهم لدى كبير قديسي هذا الجبل، فقالوا نعم، وذكروا معاد. تباركت معاد! فهي وبَجّة ثلثا البلاد، كما يقول المثل اللبناني. وهي على نصف ساعة من غرزوز، فوقها لا تحتها — ذلك عدل — وان كان الفرق في العلو لا يتجاوز المائة من الاقدام.

صعدنا الى معاد في الطريق الذي نرى منه، شمالاً بغرب، قرية بجماز، وتحتها العبارة، مسقط رأس الشاعر القروي المشهور المحبوب. ولكن الطريق يصل الى اعلى بلدة في هذه الناحية الجبيلية، وهي صُلَيّب غلبون، ثم ينحدر الى بَجّة، اخت معاد في العظمة فالسُبَيل، ومنها في احد فرعيه الى لحفد، وفي الثاني الى ميفوق، ثم جاج.

ان الافق ليتسع في نواحيه الاربع، وهذه معاد نقطة الدائرة. وهذا دير مار عبدا، عليه السلام. عدنا الى الايمان الصحيح، في دين المسيح. وهذا راهب من رهبان الدير يرحب بنا، ويفتح لنا الابواب القدسية كلها. ولقد أدّى بنا احدهم الى السطح الفسيح، المفروش بموسم السنة من القمح، المفروش للشمس المصلحة الواقية.

كل ما تُنتج ارض اللبناني من الحبوب، او من التين والخرنوب والزيتون والتبغ، يُشمَّس على السطوح اذا كانت البيوت من الطراز القديم ذات سطوح ترابيَّة، لا ذات اهرام من القرميد، يشمَّس لييبس خصوصاً، فلا تفسده الرطوبة في التخزين. واهل لبنان جميعاً يتمونون للشتاء، او لفصول السنة كلها. وعدو المؤنة السوس والعفونة. وغذاء العفونة

والسوس ما في الحب من زيادة الهيدروجين، اي الرطوبة. لذلك يبسطونه في الشمس بضعة ايام، فيقطعون رزق السوس، ويأمنون شر التعفّن.

اما التبغ فانهم، بعد تشميسه، يضعونه في الآبار، التي لا ماء فيها، لاغراض فنيّة — وغير فنية على ما اظن. لقد علمتُ ما هي شركة حصر الدخان — المونوبول — وما هي اساليبها في الحصر والخنق والتجريد. فهل يُلام الفلاح اذا ما خبّأ قسماً من موسمه؟ وقُل الحمد لله الذي لا يُحمد على المونوبول سواه.

ان دخان معاد، بشهادة اهلها، لاحسن انواع الدخان في جبل لبنان. انه لكذلك لصفاته الطيبة كلها، وباطراًدها في كل ما يزرع منه في هذه الارض الحمراء الحامية. كذلك يقول راهب الدير، ومعلم الاولاد، وصاحب الدكان في القرية. لقد سمعنا مثل هذا القول في وادي علمات، وسمعنا انه يقال ايضاً في أسمَر جُبيل. دخان وادي علمات، دخان اسمر جبيل، دخان معاد — كلٌ يمجد دين دخانه!

ولكن الكاهن الذي اضافنا في مدرسة القرية اصلح هذا التمجيد، فقال ان دخان أسمر جبيل هو مثل دخان معاد، وقد يبزه في بعض صفاته. هذا الكاهن المحترم هو مدير الدروس الفرنسية في مدرسة الحكمة ببيروت، فلا عجب اذا كان المحقق المدقق فيما يقول. وهو الذي اعلمنا بعلو معاد عن سطح البحر: «٥٦٠ متراً في ساحة البلدة، و ٥٨٠ في ساحة الكنيسة لا اكثر ولا اقل.» ان مثل هذا العلم واهله لمن محاسن السياحة التي يريد صاحبها ان يستنير وينير.

ومن فضل اهل معاد — علمناه بالمشاهدة — انهم يرعون سنديانة كنيستهم، ويرغبون بان تكون اكبر واقدم واجمل سنديانة في لبنان. فقد بنوا لها جداراً علوه ثلاثة امتار، وردموا داخله بالتراب، فاصبح مجموع جذع الشجرة تحت الارض، وقد بدا منه فرعان، دائرة كليهما نحو مترين،

يرفعان عالياً اغصانها النضرة الوارفة.

اما الكنيسة فهي اقدم جداً من السنديانة، وقد قيل انها اقدم الكنائس المارونية في الجبل. هندستها مزيج من القديم والحديث. معقودة البناء، ومدعومة بعمد، ذات تيجان يونانية. ليس اقبح من العمد، مهما كانت هي جميلة، تحت سقف معقود.

وفي هذه الكنيسة صورة لفنان ايطالي، تشهد الوانها واسلوبها بما مرّ عليها من الدهر. وقد قال احد المستشرقين انها من القرن التاسع او العاشر. ولكن العلامة رنان عثر في الكنيسة على كتابة يونانية يعود تاريخها الى ما قبل المسيح.

اما انها قديمة فالشاهد الاكبر على ذلك هو في الحجرة التي وراء المذبح، وقد صوّرت على جدارها صورة مار يوحنا مارون والقديس إيريانوس. وهناك حجرة أخرى وراء الكنيسة، مهدوم جدارها الشرقي، ومصوّر على اثنين من الجدران الثلاثة الباقية صور الرسل، وصورة للمريمات يندبن يسوع. كل ذلك باسلوب بيزنطي قبيح. ولكن الشمس تشرق على هذه التصاوير كل يوم لتنسخها، وسيتم النسخ — ستُمحى باجمعها — بعد قليل من السنين.

هذه الكنيسة المختلطة العهود والمذاهب في هندستها وتصاويرها هي اليوم بيت القديس شربل — لا شربل اللبناني — بل شربيليوس الروماني، الذي تنصر على يد اسقف الرها في عهد الملك تريانوس. اما شربل اللبناني فاتحفك بشيء من سيرة حياته في فصل القديسين.

ان اجمل ما نشاهده لمن سطح مار شربل، لا في كنيسته. هلم نصعد الى السطح، فنشهد مشهداً رائعاً من آفاق لبنان. من هذا السطح نشرف على البعيد والقريب من ناحيتي جبيل والبترون.

هناك غرباً بجنوب شامات، قرية المطران بولس عقل ومنسكه في

الايام البكركيّة المضطربة. وغلبون دونها .

وهناك على ضلع الجبل، غرباً بجنوب، بَجّة، نصفها على رأس الضلع، والنصف الآخر في وسطه، وبين الاثنين غابة غضة.

وفي مقدمة المشهد، تحت نظرنا، قريتان على ربوتين متقابلتين – كولدان الجنة – الواحدة حبالين، والاخرى عين كفاع . قلت على ربوتين، والربوتان في جفنة من الجبال حولها. وفي سفح الجبل، من الجهة الشمالية، نهر فوعيّة المعروف بنهر المدفون. تمر على جسره في الطريق الى البترون.

حتى ذلك النهر نحن في ناحية جبيل، ومنه شمالاً تمتد ناحية البترون . اولى قراها صُغار، التي مرّ ذكرها في رحلتنا من غرزوز الى دير كفيفان، وهناك شرقاً بشمال جِربْتا فعَبدِلّي فتُولا، ثم الدير المدفون فيه قديسي الكريم، وتحته جران حيث مولد خيرالله خيرالله ومدفنه، الجديرين بالحجة. وستحجها معنا ان شاء الله.

اما الآن فاني استوقفك عند قلب هذا المشهد، تحت انظارنا، عند عين كفاع .

يلذ لي التغزل، وانا على سطح مار شربل معاد، بعين كفاع، وبصاحبها اللوذعي مارون ابي محمد عبود. اقول اللوذعي على سبيل الاكتفاء، لما بينها وبين قلمه من المناسبة، لفظاً ومعنى . والشاهدون، على لذعات قلم مارون، كثيرون.

عين كفاع لفظة سريانية، كما يقول صاحبها، سريانية مركبة، تعريبها العين المخفية. وهي لا تزال كذلك بالرغم من فانوس مارون السحري.

اما ان البلدة وصاحبها شبيهان بتلك العين المخفية، مما حمل مارون على التمثل بابي نواس، القائل

تحجبت عن دهري بظل جناحه فصرت ارى دهري وليس يراني

فذلك غير صحيح.

وكيف يصح التشبه والتمثل، ومارون مثل لبنان ملءُ عين الزمن؟ فالتواضع ضائع، والصوت «الماروني» شهيد.

اني في تغزُّلي بعين كفاع – من بعيد استعين بمارون نفسه، وهو المعين الكريم.

في سالف الزمان، كانت هذه القرية المليحة المظهر والمخبَر، القبيحة الاسم، «معبر القوافل القادمة من جبيل وجونيه وبيروت وصيدا ودمشق، مثقلة بالبضائع الى بنادر الشمال: دوما بشراي اهدن، وغيرها من دساكر لبنان. فكانت الطريق ثرثارة ابداً، لا تخلو من الرِجل والحافر – اجراس بغالٍ وجمالٍ تدق، وجلاجلُ حميرٍ تهمهم، ومكارون يغنون العتابا... ويرتلون «صلاتك معنا – ويسبون مع ذلك بالدين».

اما اليوم فالطريق خرساء، قلما يُسمع فيها صوت انس او جن او حيوان، الا يوم يكون اديب عين كفاع عائداً الى خورنقه فيها، او خارجاً منه، راكباً اتانه الوادعة مثله «وفي القلبين، قلبها وقلب صاحبها، اصداء لا صوات الحضارة الممقوتة، او لاصوات الشعراء والادباء الذين يئنون من اسواط النقد «الماروني».

وعين كفاع، من سطح كنيسة معاد تبدو كجزيرة بريّة، على رابية مخروطه، تعلو مائتين وخمسين متراً عن الاودية التي تطوقها. وهذه الاودية تعلو مائتي متر عن البحر. وفيها الهوى العديدة، مثل هِوى وادي الفريكة. كان مارون في صباه، كما كنت في صباي ووادي الجميل، يدهور الحجارة فيها، ويصغى الى صوتها وصداها، وهي تتساقط وتتحطم على الصخور، ثم تهبط في الاراضي المزروعة، فتهدم الدكات، وتهشم

الاشجار. وكان الصبي مارون مثل الصبي امين يفرح ويهلّل لذلك التهشيم والتخريب. – هَيْ هَيْ ! دربك يا صنوبر، دربك يا خرنوب !

وبعد بضعة ايام كان يجيء « الضابطي » من قبل المدير، حاملاً شكوى صاحب المُلك المجتاح، فكنت ادفع التعويض (لست ادري ما كان يفعله مارون في مثل هذه الحال) واعود، ومعي نجدة من صبيان القرية، الى دهورة الصخور، فنختار منها الاكبر، ونتعاون في دحرجته، ثم – هَيْ هَيْ ! أفتح الدرب، يا خرنوب !

ولعين كفاع قديس هو مار روحانا، له مثل مار شربل عجائب كثيرة، يذكرها مارون ذكر المؤمن الذي يغصّ بايمانه. فما استطاع في مناجاة القديس. ان يقنعه بحاجة البلدة اليوم الى اعجوبة من اعاجيبه.

– اعجوبة واحدة، يا مار روحانا، نيقظ بها عين كفاع، ونحييها.

– اسكت، يا مارون، واقنع. مَن استحق العجائب رآها. أوَلست انت من عين كفاع وفيها ؟.

ولكن مارون يذكر غير ذلك من عجائب هذا القديس. فقد انقذ ذات يوم صبيّين من اسد هاجم عليهما. اوقف مار روحانا الاسد وحال دون الهجوم، بماذا ؟ بالسيف ؟ لا وربك. ليس مار روحانا كمار جرجس قاتل التنين بالرمح الطويل. مار روحانا من دعاة السلم والمحبة، وله في سبيلها، وفي الانقاذ من اعدائها، حِيَل مبتكرة مهدورة، يغبطه فيها السياسيون. فقد انقذ الولدين من الاسد بنهر اجراه بينهما وبينه. مكانك تُحمدُ، ايها الاسدُ ! مسكين الاسد. وقف على ذلك الشاطئ. حائراً بائراً. قلت : وقف، ومارون المدقق اكثر مني يقول انه اقعى هناك وطفق يعوي كالكلب بالمقلوب.

ثم يسأل، وهو يلطم بكفه جبينه العالي، وأين ذلك النهر، يا مار روحانا ؟ ألم يبقَ منه ساقية او سوَيقية، او عين او عُيينه، او نبع او

نُبَيِّع ؟

هذه هي عين كفاع المتعبدة لك، ولا عين لها. هي ظمأى، يا صاحب الطوبى، هي ظمأى. واهلها منذ القدم يفتشون عن العين المخفية، ولا يزالون. فهل هي مغطاة، كما تقول الاسطورة، بسبعة لُحُف ؟ واين تلك اللُّحف ؟ ان مارون الكشاف كريم. دلّه عليها، يا مار روحانا، فيكشفها — يكشِفها، ولا يبالي.

يومئذ تسعد عين كفاع، تسعد بعينها، وبمارونها، وبطريقها. وستجيئها تلك الطريق بثروة جديدة، هي غير ثروة الدواب والمكارين — هي ثروة الحديد والبنزين، وابواق السواقين.

الجبابرة

عدنا من غرزوز الى سيف، البحرفمررنا بشيخان، فَجدَّايل، فالريحانية، ثلاث من قرى القرنة، اسماؤها – الا واحداً – تهزأ بجهل الناس، وتحتفظ بغموضها منذ القدم والى ما شاء الله، فما معنى جدَّايل يا استاذ؟ الله اعلم.
وما الصلة بين شيخان هذه وشيخان اليزيديَّه في العراق بالقرب من الموصل؟ الله اعلم. هل في هذه الشيخان أثر لملك طاووس، او للشيطان اليزيدي المعظم؟ اعوذ بالله من الشيطان الرجيم. وهل من بأس بالتأويل؟ لا بأس.

اقول اذن، بعد الاتكال على الله، وان غضب ملك طاووس، ليس من المعقول ان يكون قد رحل بعض ابناء شيخان، ذوي الرأي المستقيم، الى الموصل، فنزلوا ارض اليزيديين في جوارها، واعتنقوا مذهبهم الشيطاني، وأسموا المكان الذي استوطنوه باسم القرية اللبنانية التي هجروها. هذا غير معقول.

اما ان يكون بعض اليزيديين نزحوا الى لبنان، واسسوا في قرنة جبيل هذه القرية، فاسموها باسم قريتهم العراقية، ونبذوا الشيطان وعبادته ظهرياً، اتقاء بطش اولي الرأي المستقيم بهم، وصاروا مثلهم مستقيمين، فذلك ممكن.

يقول الشيخاني ان في بلدته آثاراً قديمة مطمورة وظاهرة. فلا يُستغرب ان يُعثر فيها، بعد ان تُكتشف وتدرس، على اثرٍ لملك طاووس، او خبر من جبل سنجار، يثبت القول بالاصل الشيطاني لهذه القرية.

اما اليوم فكنيستها عامرة، والسيدة قديستها، عليها السلام، تُطرد الشياطين من شيخان.

ولكنَّ في جدَايل أثراً ظاهراً ناطقاً بوجودهم وعملهم. يستوقفك في الطريق عند كنيستها. ليس الأثر في الكنيسة معاذ الله. بل هو في سنديانتها الجبارة، على هرمها وبؤس حالها. فقد قطع الشياطين، اعداء الاشجار خمسة من فروعها الكبيرة، ونقروا في جزعها طاقة من الشرق الى الغرب، وجوّفوا ذلك الجزع وملأوه بالحجارة! فهل ينكر وجود الشيطان في هذا المكان؟

اسرعنا من جدَايل، آسفين على سنديانتها، مستنزلين اللعنة على شيطانها، فبلغنا الريحانية، ولا جميل فيها غير اسمها. هي اول قرية في الطريق من الساحل الى غرزوز، تعلو اربعمائة قدم من سطح البحر، ويعلو بيوتها واشجارها وآكامها الغبار الكثيف، الذي تثيره القوافل والرياح من ارضها الكلسية.

ان مَن اختاروا الإقامة في هذه الارض لجبابرة، وان كانوا من اليزيديين. وان في اهل هذه القرى، حتى في زماننا، من يستحقون ان يُعدوا من سُلالة اولئك الفاتحين، المذللين الارض وعقابها. فما برحت هذه الارض، على قحلها، تنبت الجبابرة.

حدثنا الخياط الشاعر الاستاذ جبرائيل قال: «كان نوفل الغرزوزي جباراً. طُعن ذات يوم في احدى المعارك طعنة في بطنه نجلاء، فاندلقت مصارينه، فراح يحملها بيده الى البيت، فعلقت مصرانة منفلتة بغصن من القندول، فنتلها واعادها الى ركمة المصارين بيده، واستمر في سيره. فلما وصل الى البيت ضم المصارين بعضها الى بعض، واعادها الى بطنه، ثم طلب مسلّة وخيطاً من المصيص. لا حكيم، ولا ادوات جراحه، ولا تطهير. قطب نوفل بطنه بتلك المسلّة، مسلّة المكارين، وبعد ثلاثة ايام شفي تماماً وعاد الى عمله، يحمل الرباطات والعتبات الطويلة للبناء.»

ليس الاستاذ جبرائيل ممن يبالغون في الرواية او يوسلون الكلام على

عواهنه. فقد استوقفنا عند جدار في بيت بغرزوز، فيه الى رباط ذو ثلاثة امتار، من الرباطات التي يحملها نوفل على ظهره، ويمشي بها البناء، ويصعد بها درجتين او ثلاث درجات عند الحائط، ليضعها في مكانها على المدماك.

قال احد اقارب الاستاذ، وهو يدور صوبنا من مكانه الى جانب السائق، قال يزكي الشهادة: وكان نوفل يأخذ المجيدة بين اصابعه ويبعجه (يقعِره) ويوقف البيضة من رأسها عليه.

قلت: هذا من مألوف كل جبار. واني اذكر رجلاً من رجال الفريكة كان يحمل الرباطات الطويلة الضخمة، كأنها كيس من التبن، او حمل من الشيح. ورأيته يأخذ المجيدة بالابهام والسبّابة، فيطويه طياً كأنه قطعة من التنك.

وجاء في تاريخ العاقورة ما يلي: كان عماد بن عبد الله الهاشم من الجبابرة. قطع بضربة سيفٍ واحدة لُباداً مطوياً سبع طيات، وضمنه قضيب من حديد.

لا اثقل الحمل على ايمانك، بقصص جاءت في الكتب، او سُمعت على البيادر، او تحت اروقة الدكاكين في القرى. ساعود الى من عرفتهم وشهدت فيهم آيات القدرة والشجاعة

لقد ذكرت في فصل سابق، في رحلتي الى الحصون، «شريكنا» زخيا، زخيا الجبار في قدرته، وفي ايمانه. سمعته ذات يوم يقول لامي: بقوة مريم العذراء اقتلع هذه الشجرة (شجرة توت كبيرة) بيدي. وبقوة مريم العذراء اطيح من هذا السطح، وامشي الى عملي بخير وسلامة.

ورسم زخيا شارة الصليب على وجهه وهم بالقفز من سطحٍ علوه خمسة عشر متراً، فأوقفته الوالدة، على ما كان من ايمانها بقوة مريم العذراء.

كان زخيا مشهوراً في بلاد كسروان وجبيل والبترون. يتحدث الناس باعماله وبتقواه كما يتحدثون بعجائب القديسين. وممن عرفوه من

الجبابرة، وشهدوا انه منهم، وفي مقدمتهم، نوفل الغرزوزي نفسه. فقد رُوي عنه قوله : كان زخيا الحصوني يحمل العتبة كانها عُمد (غصن) توت.

كل هذا في نظر الجبابرة بسيط مألوف. ولكن لزخيا آية منقطعة النظير في ايات القدرة والمروءة كلها جمعاء، هي آية الحمارة، حمارته المحبوبة المدللة.

كانت هذه الحمارة تشتغل يوماً او يومين لا غير في الاسبوع. وما كان حتى في ايام عملها ليثقل حملها. بل يمشي وراءها، او الى جنبها، في الطريق من الحصون الى الساحل، ومن الساحل عائداً الى الحصون. وكان يخاطبها كأنها من بنات حواء المحبوبات، يخاطبها بلغة العشاق المدلهين.

اشدد حقوي ايمانك، واستمع الي. كان زخيا عائداً ودابته من جونيه، وقد حمّلها كيساً من الطحين. كان عائداً من جونية « بطحنةٍ للبيت » كما يقول ابن الجبل. والطحنة العادية لا تتجاوز الستين رطلاً.

وكان ماشياً على عادته الى جنب محبوبته، وبيده قضيب من التوت يدغدغ به رقبتها من حين الى حين. فوقفت في منتصف الطريق عند عقبة كأداء، كأنها تعرفها. وقفت هناك. وقد عقدت النية على الوقوف كل ذلك النهار، او يحقق الله رغبتها.

ناداها زخيا، استفزها، ودغدغ رقبتها، ثم كفلها، بقضيبه اللطيف، فما حركت حتى ذَنبها، ولا اذناً من اذنيها. «امشي، يامباركة. شدي حيلك، يا حبوبة». فما كانت المباركة المحبوبة المدللة تسمع او تجيب.

وقفت هناك كانها صخرة بين الصخور. فوقف زخيا امامها، وجها لوجه، وخاطبها قائلاً : « هذه عادتك يا مقصوفة العمر. كلما وصلت الى هذه العقبة يخطر على بالك ظهر صاحبك ظهر زخيا. تقبري صاحبك اللي علمك الدلال . »

قال هذا وهو يركع امامها وظهره اليها. ثم تناول يديها بيديه،

فرفعها الى كتفه، ونهض بها يحملها وحملَها على ظهره، ويمشي مصعِداً في تلك العقبة، وهو يخاطب المدللة قائلًا : تعودتِ على الركوب يا مقصوفة العمر !

أشدد حقوي ايانك، واستمع اليَّ : فاني محدثك بما شهدت، لا بما سمعت او قرأت في الكتب. كان لي صديق في قرنة الحمراء المجاورة للفريكة، صديق عزيز وفي، احببته حباً لا يقل عن اعجابي به، وكلاهما كثير. وكان يقول لي، بعد ان سمعني مرةً اخطب : احب ان ترثيني يوم اموت، يا امين. فوعدته بذلك.

ولكني كنت غائباً عن الجبل يوم وفاته، فكان حزني عليه مضاعفاً.

رحم الله عبد الله نصر، المعلم عبد الله، وهو المعلم الكبير، استحق اللقب بما كان يحسن من الاعمال، وان كان أمياً. فقد كانت النجارة مهنته الخاصة، وكانت كل صنعته تتعلق بالبناء، وبالحياة الجبلية، مهنةً له مستحبة. عينه تراقب ادق الاشياء، وذهنه يدرك اصعب الامور، وقلبه يسبق يده للخدمة.

كان المعلم عبد الله من اولئك اللبنانيين الذين يلبون دعوة كل طالب في الخاص والعام من الاعمال.

— انكسر قسطل المياه في القرية — نادوا المعلم عبد الله.

انسدّتِ المجاري الى الصهاريج — اخبروا المعلم عبد الله.

مذبح الكنيسة في حاجة الى اصلاح — اين المعلم عبد الله ؟

ثور فلان تفلت من مربطه، (ثور شرس فتاك) — دونكم والمعلم عبد الله.

المضخّة في البيت معطّلة — عجلوا بالمعلم عبد الله.

وكان فوق ذلك طبيب اسنان يقلع الاضراس بالكماشة التي يستخدمها في النجارة.

فان انا ذكرت رجلَ المروءة والمعروف، والحذق والدقة في العمل، والشجاعة وشدة البأس، كان المعلم عبد الله مَن ذكرت.

وما كان يطمع بحطام الدنيا. بل كان في سنواته الاخيرة يقضي حاجات الناس، وحاجات القرية، مجاناً لوجه الله.

اما في بيتنا فقد كان المراقب على كل عمل، المساعد في كل عمل، المستشار الصديق، المشرف المحاسب المدقق في كل شيء..

هذه المقدمة هي بعض ما يجب علي من القول فيه، براً بوعدي له. وهي في مكانها، من قلب الموضوع الذي نحن بصدده — موضوع الجبابرة فقد كان المعلم عبد الله جباراً، كما كان حاذقاً في كل الاعمال. وكان في شجاعته مثله في المروءة والمعروف. سمعتَ قصة العملية الجراحية التي عملها نوفل الفرزوزي لنفسه — لبطنه. فقد عمل عبد الله عملية مثلها ليدٍ هشمتها بندقية قديمة، كان يطلقها في حفلةٍ من الحفلات الجبلية.

وقد وقف ذات يوم لثورٍ ثائر في ساحة البلدة. فأمسكه بقرنٍ من قرنيه، ثم بذَنَبه، فوثب الثور وثبات يحاول التفلت، ثم اخذ يرفس برجليه ويديه، ويدور ثائراً هائجاً ثم يدور، والمعلم قابض على قرنه وذنبه، يدور معه واثباً حيناً وحيناً زاحفاً ليتقي هجماته، كأنه من مَهَرة الاسبان، في محاربة الثيران، وما كان لاحد المتحاربَين ان يهن او يلين، حتى تقضقضَ القرن بيد الرجل الجبار، فنزت بالثور نزوة جديدة هائلة، فانطلق من يدي خصمه كالحجر من المنجنيق، وراح المعلم مستلقياً على ظهره، والقرن بيده.

ومن آياته في الشجاعة والمروءة صليبُ القبة. ان لقرنة الحمراء كنيسة فخمة ضخمة، علوها عشرون متراً، وعلو القبة فوقها يدنو من العشرين. وهي من القباب الهرمية، يُصعد اليها في سلم من سطح الكنيسة. اراد الاهالي ان يركِبوا فيها صليباً، فنادوا شباب القرية، فما تقدم احد منهم.

وكان المعلم عبد الله حاضراً، وهو يومئذاك في السابعة والسبعين من

سنه. فخلع حذاءه، وتناول الصليب الكبير بيده المشوهة، وصعد الى سطح الكنيسة، ثم في سلّم من الخشب، كان يلوي ويهتز تحت رجليه، الى رأس القبة، فركّب الصليب هناك وأوثقه، بين كان الرجال والصبيان في الساحة يرقبونه صامتين، والنساء في الكنيسة يصلّين من اجله

ونزل المعلم عبد الله من رأس القبة في ذلك السلم المترعزع، كانه نازلٌ درجاً في بيته. فلبس حذاءه، وشد المنطقة على وسطه، ثم نفض الغبار عن قمبازه، وعاد مسرعاً الى بيته ليحلب العنزة.

ليس هذا الزمان بزمان قداسة وبطولة. وان ظهر شيء منهما، ولم يُغنّه الطبل والزمر، يظل في مُنتأى عن الناس، فلا يُسمع صاحبه ولا يُبصر. وان سُمع او أُبصر، فلا يُؤْبَه له. فهو يحيا ويموت كالدودة في الحقل، او كالزنبقة في الوادي.

ويقول الجاهل في قلبه، كما يقول العالم في كتابه: ليس آله. وبالتالي ليس في الانسان ألوهة. وبالتالي المكررة ليس في هذا العالم عالمنا — عالم النفط والحديد والكهرباء — انبياء او قديسون.

فان نحن انكرنا هذا القول، وقلنا ان الانبياء والقديسين لا يزالون معنا، يظهرون اليوم كما كانوا يظهرون في الماضي، دون ضوضاء، وبأتم معاني الوداعة والحياء، قال لنا المشكك: واين هم؟ وان سرنا به الى واحد منهم، ورفعنا عن رأسه القلنسوة الخداعة قال: هات غير هذا البرهان — هات الاعجوبة ان كنت من الصادقين.

خذوني بحلمكم ايها المشككون الافاضل، وتعالوا نزور احد القديسين اللبنانيين في هذا الجبل. فالقديس اليوم، مثله فيما مضى، يفر هارباً من المدن، الا في اوقات التضحية، ويفضل الجوع بين الصخور، على الشبع في القصور.

لقد حدثتك في الفصل السابق عن بعض جبابرة هذا الجبل، وان محدثك عن بعض قديسيه. اننا في الطريق الى كفيفان، نصعد اذ ندنو من البترون في جبل يتراجع بلطف امامنا، فلا يشمخ علينا كجبل كسرواني الذي يظلل جونيه، او كجبل المسيلحة الذي يثب وثبةً واحدة من البحر.

وفي هذه الجبال المتواضعة التي نيمّن اليها من جبيل الى اللاّلوء او الى عمشيت فَجاج، ومن بعشته الى غرزوز، ومن البترون الى كفيفان، ومن بِشكّا الى اميون، في هذه الجبال المتواضعة تَبَيْض الارض، فتبور. اي انها كلسية حصوية قاحلة موحشة. تقل فيها القرى، ولا تتجاور.

فمن البترون الى دير كفيفان مثلاً تمُرّ بقرية صغيرة هي المكمَل، فنبلغ من العلو خمسمائة متر عند إدّه بعدها، ثم نهبط قليلاً الى جران، ومنها صعوداً الى الدير محجتنا، فنجتاز نحو ثلاثين كيلو متراً من سيف البحر، وليس غير ما ذكرت من القرى، وليس ما بينها غير غبار الطريق، والصخور، وشجيرات مبعثرة متنائية من الخرنوب والسنديان.

ساحدثك اذن عن القديسين لِأنسيك الطريق اليه، ولِأهيّيء نفسك لما ستلقاه في المزار من البركة والنعمة.

نعمةالله الحرديني، نسبة الى حردين، مسقط روحه ورأسه، هو الذي يُعرف بقديس كفيفان. وهو اشهر القديسين اللبنانيين. صنع العجائب في حياتهوفي مماته، بشهادة كثيرين من اهل القرى الدنية والقصية في لبنان. وستشاهد بعينك الاعجوبة الكبرى عندما تقف امام تابوته، فتراه تحت غطاء الزجاج بشراً كاملاً، لا نقص ولا فساد في جسمانه. كأنه في غيبوبة القداسة الراقدة، وقد مَرّ على رقدته هذه ثمانون سنة.

سازيدك مع ذلك علماً به، فاذكر من عجائبه ثلاثاً صنعها في حياته، وثلاثاً بعد موته.

من مواهبه الخارقة انه كان يشعر ببعض الحوادث قبَيل حدوثها. اي انه كان ما يدعوه علماء النفس كليرڤويان Clairvoyant فقد رأى ذات يوم، من نافذة غرفته في الدير، بيت الماشيه في حالٍ مقبلٍ مسرعٍ ارتاع له. فنادى احد الخدم وامره بان يخرج الماشية من ذلك البيت في الحال. فائتمر الخادم الامر، وما كاد يخرج الماشية حتى سقط البيت بسقفه وجدرانه

دفعة واحدة .

ومن كراماته التي تذكر ببعض اولياء المسلمين انه دخل ذات يوم الى الكنيسة يقدِّس، فما رأى الشماس هنالك، فطلبه، فقيل له انه مريض. فبادر اليه، فلقيه على الفراش محموماً، فقال، وقد وضع يده على رأسه: لقد شفيت، باذن الله. قم واتبعني. فنهض الولد من فراشه بهمةٍ صادقه، ولا حمّى به ولا وهن. ومشى الى الكنيسة مع القس نعمةالله، وخدم خدمة القداس، وصلّى النوافل بعد ذلك حمداً لله على الشفاء.

ليس في الحادثين ما يقبل علماء النفس بانْ يسمّى اعجوبة. فالاولى هو من باب الا Clairvoyance والثاني من باب الايهام Suggestion

آمنا بما يقوله علماء النفس. فهل في علمهم ما يكشف السر في الحادث الثالث، او ينفي الاعجوبة التي لا تختلف عن اعاجيب القديسين المعروفين ؟

قلَّتِ المؤونة في الدير، فسأل الرئيس القس نعمةالله ان ينظر فيها، ويخبره بما نقص ليجلب اللازم منه . فجاء بيت المؤنة وقال للوكيل : أعطني ابريقاً من الماء، فجاءه بالابريق، فصلّى عليه، وَرَشَّ الماء في البيت، وعاد الى الرئيس يقول : المؤنة كافية، ولاحاجة الى زيادة والحمدلله. فراح الرئيس يتحقق ذلك، فوجد كل ما في البيت زائداً فائضا. فمن اين جاء الفيض ؟ أمن الماء، ام من السماء ؟

اشدد حقوي ايمانك واتبعني. لقد مات القديس، ونُقل جثمانه السليم بعد اربع سنوات الى الكنيسة. فذاع صيته في لبنان، وكان ذلك الصبي، وفي عنقه الطوق المقدس، ممن حُملوا اليه للاستشفاء، كما اسلفت القول.

ومن هؤلاء مَن كانوا في حال من المرض لا ريبَ فيها — مقعدين، مصروعين، مشلولين. هذا رجل من المتن الاعلى، مقعدٌ منذ ثلاث عشرة سنة، يَمرُّ مُحمَّلاً على بغلٍ ببكفيا، فيبصره طبيبه الشيخ ابو علي الجميل، ويسأله: الى اين ؟ فيقول المريض : الى كفيفان لزيارة القديس. فيقول

الشيخ الجميل : اهون على القديس ان يصنع رجلاً جديداً من ان يصلحك ويشفيك .

وبعد الزيارة عاد ذلك الرجل في الطريق نفسه، وأوقف بغله امام بيت الشيخ ابي علي، فلما رآه الشيخ اعاد ما قاله سابقاً. فوثب الرجل عن ظهر البغل الى الارض، وشرع يركض، فكاد الشيخ يُجن مما رآه .

وهوذا راهب صريع من جاج يحج دير كفيفان، وينام ليلة في الكنيسة امام تابوت القديس، ويخرج في اليوم التالي سليماً معافى. هذا الراهب عاش بعد ذلك ثلاثين سنة في وفرة من الصحة والعافية تندر حتى في الاديرة.

وفي ذلك الزمان جاءت امرأة درزية عاقر من برمانا تستغيث بالقديس، فرُزقت في السنة التالية ولداً ذكراً. فاستأذنت زوجها بزيارة الدير ثانيةً براً بالنذر . فاذن الزوج بذلك وكان رفيق الام وطفلها ابنها الوحيد. فلما وصلوا الى أسمر جبيل توفي الطفل وهو على صدر امه، فأخفت الامر عن زوجها، خوفاً من نقمته. وعندما وصلت الى الدير، وضعت ذلك الطفل عند جثمان القديس، وخرجت من الكنيسة تخفي ما بها، وتأمل ان يستجيب القديس طلبتها. وكان زوجها ينتظر خارج الكنيسة، فسألها اذ رآها وحدها عن الطفل، فما أحارت جواباً، ولا ملكت دموعها. فصاح الزوج بها وَهمَّ بضربها. ولكن احد الرهبان جاء في تلك الفينة يقول للمرأة : تعالي خذي طفلك . فقد ملأ الكنيسة صراخا .

قد يسأل ضعيف الايمان هذا السؤآل: أمن المؤكد ان الطفل كان ميتاً عندما وضعته الام عند تابوت القديس ؟ أوَ ليس من المعقول ان يكون قد اصيب بسكتة قلبية في أسمر جبيل، فزالت بُعيد ذلك في الدير ؟

اننا لفي الارض الحرام، نجتاز حرجاً غضاً من السنديان، لا تليق فيه سؤآلات المشككين. وها هوذا الدير، قائم على هضبة جميلة، تحيط بها بساتين الزيتون ، ويتسع الافق، فتلطف الرواسي الشمالية قرَّ الشتاء. هناك،

وتخفف الشرقية حرّ السموم في الصيف والربيع .

وهوذا الرئيس الذي عرفناه في احدى رحلاتنا، فكانت المفاجأة هاهنا، مثلها في دير الروميّة بالقُليعات ، ذات بهجة وحبور، فان في طلعة القس انطونيوس نعمة من السكينة والجلال والانس ما يتصف به القديسون . وان في صدره من الرحابة ما يشبه الافق القائم في قلبه ذلك الدير .

رحّب بنا القس انطونيوس ترحيب الاخ الحبيب، على ما نُعرف به من جفوة الاديرة والرهابين. فحق علينا الشكر له، والاعجاب به، نسجلها حباً وكرامة.

وها هنا حد الفرح والحبور . فعندما اعلمنا حضرة الرئيس بقصدنا من زيارة الدير، ماشانا الى الحجرة التي فيها ضريح القديس، فدخلناها مدهوشين، وأجلنا النظر فيها غير خاشعين، ووقفنا امام ذلك الضريح آسفين محزونين .

اين القديس الذي رأته عيني الصبيّةُ في تابوته منذ خمس وخمسين سنة ؟ واين الكنيسة التي كان يشرفها بجثمانه القديسي ، تلك الكنيسة التي غنا فيها انا وامي والغرزوزية الحسناء ؟

اتحت هذه الفخامة المرمرية هو ؟ وعلى مَ يوارى في هذه الحجرة ، تحت هذا الرخام القبيح، رخام العجب والكبرياء ؟ ما هذا بضريح قديس، بل هو اشبه بضريح رئيس من الرؤساء، او وجيه من الوجهاء، ما كان شيئاً في الدنيا - ما كان غير رئيس او وجيه في قومه.

كل هذه السؤآلات والخواطر تزاحمت في نفسي المنكمشة ، عندما وقفت امام ذلك الضريح اقرأ ما كُتب عليه :

الاب نعمةالله الحرديني
ولد سنة ١٨٠٨
ترهب في دير قزحيا سنة ١٨٣٠
سيم كاهناً سنة ١٨٣٣

نقل من المقبرة (الى الكنيسة) بامر الرؤساء سنة ١٨٦٢
(زاره امين الريحاني مع امه انيسة ورفيقتها الفرزوزية سنة ١٨٨١)
وبعد ذلك ماذا ؟

نُقل من الكنيسة الى هذه الحجرة، ووضع تحت هذه الثقالة من الرخام، سنة ١٩٢٦ — بامر من ؟ بأمر رومه — بأمر سيد الفاتيكان والكثلكة.

ولماذا، لان رومة لا تعترف بقديسينا الوطنيين اللبنانيين الا بعد احقاب من السنين. ولماذا هذا التردد والابطاء ؟ لست ادري، ولا المنجمون من الرؤساء يدرون.

الا انهم يقولون ان هناك لجنة باباوية تدعى لجنة فحص القديس المزعوم (قد يكون اسمها الرسمي الطف في غموضه) تعمل عملها بكل ما يقتضيه الامر من التدقيق والتحقيق، على مهل، على مهل.

وان ذلك العمل ليقتضي الكثير الكثير من النفقات. ابشروا ايها الفضوليون والمشككون. فقد ادركنا السر الاقدس — المال ! لا تطويب[1] بلا مال. والقديس الذي لا اهل له اغنياء، ولا جمعية او رهبنة او طائفة تهتم بامره، فتبذل ما تتقاضاه سدة العصمة والقداسة من المال، يموت — يموت — يموت ويدفن كما يموت ويدفن اي راهب، واي اسقف، واي بطريرك

---

(١) ولا تطويب في القاموس. لا في مادة طاب يطيب، ولا في مادة الطوب اي الآجر بلغة المصريين والعراقيين. على ان في اشتقاقات طاب تجيء الطوبى اي الغبطة والسعادة الخ فهل بنى علماء الكنيسة المارونيه فعلاً منها، وبالغوا في البناء، من اجل القديسين، فقالوا: طوّبه تطويباً اي جعله من اهل الطوبى، اي الغبطة والقداسة؟ ام هل توغلوا في درس هذه المادة، فوجدوا فيها الطيّب اسم احد ابناء نبي الاسلام، وحِلفَ المطيّبين بمكة، وكان النبي منهم، فقلبوا الياء واواً كي لا يشتبه العربي الكريم والماروني الصالح ويلتبسان ؟. ان بيننا وبينكم واواً، وكل العلة في حرف العلة.
فهل يجمع الله ما فرقته اللغة ؟!

من رؤساء واحبار هذه الطائفة المارونية المُتَرَومنة. فلا يُطوَّب قديساً، ولا يؤذن بان يذكر اسمه مع القديسين .

ليس القديس كفيفان الاسير الوحيد لارادة رومية الذهبية . فهناك ايضاً مار شربل اللبناني . هو شربل بن مخلوف من بقعكفرا، عاش وترهب وتقشف وتنسك وصنع العجائب في عهد البطريرك يوحنا الحاج ، وتوفاه الله يوم توفي صاحب الغبطة المذكور .

حدثني العالم بقديسي لبنان واعاجيبهم قال : دهم الجراد الجبل ، فوصل الى ارض مار مارون عنايا ، فامر رئيس الدير بالماء يُؤخذ الى «الحبيس» شربل ، الذي كان يومئذ ساكناً في المحبسة . فصلّى الحبيس على ذلك الماء ، فَرُشَّ منه في املاك الدير ، فتقهقر الجراد ، وارتد عنها جائعاً مدحورا . فهل في اعاجيب القديسين الاوروبيين اعجب منها ؟

وهذه أخرى . كان لرجل من آل لحود بعمشيت ولد مريض ، اشرف على الموت . فارسل الى دير مار مارون يدعو الحبيس . فامره رئيس الدير بان يذهب مع الرسول ، دون ان يعلمه بقصده . فلما انتصفا الطريق قال الحبيس للرسول : يا اخي ، لا لزوم بعد هذا لذهابي معك . فقال الرسول : لماذا ؟ فاجاب الحبيس : لان الولد مات .

قال هذا ورجع الى صومعته . فارسل الرئيس راهباً الى عمشيت يتحقق الخبر ، فكان صحيحاً . مات الولد ساعة وقف الحبيس في الطريق ليعود الى الدير . فهل تنقص هذه في اصولها عن اعاجيب القديسين الاوروبيين ؟

وهل في قبور اولئك الابرار الاجانب غير ما في قبور ابرارنا ؟ بعد وفاة الحبيس شربل كان النور ينبثق من قبره حيناً بعد حين . فتُتح القبر بعد بضع سنوات من وفاة صاحبه ، فأُلفي الجثمان سليماً لا أثر فيه للبلى او الفساد . بل هناك ما هو اعجب من ذلك . فبعد ان نُقل القديس من القبر الى الكنيسة ، كان يعرق كأنه حي ، وكان اذا جُرح يسيل الدم من جرحه .

فهل تستغرب لجنة الفحص البابوية هذا وتنكره، وفي كنائس ايطالية صور قديسات وقديسين تندى بالعرق والدم امام المؤمنات والمؤمنين؟ هذه اللجنة التي أمّت لبنان في سنة ١٩٢٦، شاهدت هذا اللبناني البار في رقدته القدسية، وجمعت اخبار اعاجيبه كلها، وامرت مع ذلك بان يواري الى ان يحين وقت تطويبه.

ولا يزال الموارنة يبنون الكنائس لمار شربل الروماني «شربيليوس» الرّها، وقلما يبالون بمار شربل ابن مخلوف البقعكفري اللبناني، ذي الجروح الطرية الدامية. فاين التقوى والغيرة؟ اين الانصاف؟ اني لا آمل في تطويب ابن مخلوف لان ليس له من اولي اليسر والمعروف من يبذلون المال لسدة العصمة والقداسة.

• • •

– وهذا، ايها المحترمون اعضاء اللجنة الموقرة، القس دانيال، الراهب البلدي، من حدث الجبة. ما كان ظاهر حاله لينبئ دائماً بباطن امره. فقد كان يركب الخيل كالامراء، ويداوي بالاعشاب كالمغاربة، ويعمل في الدير، يكنس ويغسل، كالخدم، فارتاب الناس في امره. فعاداه البعض، وقدسه الآخرون. توفي القس دانيال في دير مار سركيس بقرطبة، فبدا ما كان يخفيه – مسح طويل كان يستشعره، هو مسح النساك الاطهار.

وبعد وفاته بقليل غدا النور يشع من قبره. ابصره اناس من القرية، فاخبروا رهبان الدير، فأخرج دانيال من ذلك القبر ووُضع في الكنيسة. وكانت الاعجوبة الاولى، التي اذن الله بها على يده، او بواسطة شخصه المسجّى الى جانب المذبح، انه منح امرأة عاقراً ما كانت تبتغيه.

احد اعضاء اللجنة: حبل العاقر شيء مألوف لدى كل طامع بالتطويب. فلا يُعد من الخوارق.

– لقولكم وزنه، ايها المحترم. ولكننا نسترعي نظركم الى شهادة هذه

الامرأة. هي من فقراء الفلاحين، من قرية المغيرة، بالقرب من العاقورة. اصيبت برض في عينيها، وصداع في رأسها. عالجها الدكتور شقير في بيروت عشرة اشهر، ثم قال لها انها لا تشفى بدون عملية جراحية، وان العملية لا تخلو من خطر.

رئيس اللجنة: أبعد علاج دام عشرة اشهر تأتيه المعرفة؟! وما دخل المرشَّح للقداسة في امره؟

– اني باسط للجنة الموقرة الامر باجمعه ان شاء الله. فبينما كانت تلك الفقيرة عائدة الى بيتها، أُلهمت وهي مارة بقرطبة بان تزور القديس دانيال في دير مار سركيس.

– قُل المرشح للقداسة.

– العفو، ايها المحترمون، العفو. جثت المرأة امام تابوت المرشَّح للقداسة تصلي وتبكي وتقول: انا فقيرة، وانت طبيب الفقراء في حياتك وفي موتك. إشفني، يا مار دانيال، إشفني.

بعد ثلاثة ايام شفيت هذه المرأة من كل اوصابها، وجاءت تحجّ رئيس الدير، فاقسمت اليمين، واستشهدت الله ومريم العذراء على ما قالت.

رئيس اللجنة: الكلام لوكيل الشيطان [1] اين وكيل الشيطان؟

– لا شيطان، يا صاحب السيادة، ولا وكيل له في قضايانا القدسية المارونية.

الرئيس: لا بد منه. فالفحص لا يتم بدون شهادته.

---

(1) **Advocatus Diaboli** هو اسم الموظف في المجمع المقدس برومه، الذي يتولى الحملة على المرشح للتطويب. مثال ذلك ان يقول وكيل المرشح ان موكله كان قديساً يصنع العجائب، فيذكر بعضها ويأتي بالشهود. فيقول الـ «أدفوكاتُس ديابولي» اي موكل الشيطان ان هذا المرشح للقداسة كان يسرق او يزني او يسكر او انه دس السم في القهوة لرئيسه فمات. ويستشهد على ذلك من عرفوه، او كانوا متواطئين واياه.

— هذا عندكم، يا صاحب السيادة. اما عندنا في لبنان فلا الشيطان ولا وكلاؤه يتدخلون في شؤوننا الطائفية.

الرئيس يخاطب المسجل : ارفع هذا الكلام من السجل. ثم يقول للمحامي : لا تسمح بالهذي والهراء. فأرعو . هل عندكم غير هذا المرشح؟

— « عندنا امرأة قديسة. »

— « مرشحة للتطويب ! مرشحة !! »

— « اسمها رفقا الريّس من حملايا، القريبة من الفريكة. انخرطت في سلك رهبنة القلبين الاقدسين. وبعد ان حلّ الرؤساء هذه الرهبنة ... »

الرئيس : وما السبب في حلّها؟

— « لست وكيل الرهبنة. فالرؤساء ادرى بشؤونها مني. »

— « وحُلّت الراهبات من نذورهن ؟ »

— هو الواجب في هذه الحال

— « وما كان بعد ذلك من امر المرشّحة ؟ »

— « ذهبت الى معاد تعلم فيها الاولاد، فسئمت التعليم، وطفقت تصلي الى الله لينقذها مما كانت فيه، او يهديها الى دير تفرّ من المدرسة اليه. ولكنها كانت فقيرة، فهداها الله الى رجل دفع عنها راتب الدخول في دير مار سمعان للراهبات. فأقامت فيه بضع سنوات تخدم وتتقشف وتصلي. فبلاها الله في عينيها، فاذنت لها الرئيسة بان تذهب الى بيروت مستشفية. ولكنها اجتمعت بطبيب عند احد الرهبان في جبيل، فاستشارته، فعمد الى آلة يفحص بها عينيها، ففقأ احديهما، فخرّت رفقا الى الارض مغمياً عليها. »

الرئيس : يظهر أن اطباءكم مثل رؤسائكم المرشّحين للتطويب.

— « لست وكيل الاطباء، يا حضرة الرئيس. »

— « وهذا من حسن حظك. »

— « لا يهمني من حظي حسنة اوسيئة في الدفاع عن قديسينا الوطنيين. »

— « عن مرشَّحيكم — مرشحيكم !! وعسى ألاَّ تحوجني الى اصلاح هذا الخطأ مرة اخرى. ماذا حدث للمرشَّحة رفقا بعد ان فقأ الطبيب عينها ؟ »

— « غفرت له ذنبه. نعم غفرت لذلك الطبيب ذنبه. وراحت تستشفي في بيروت ولكنها لم تتوفق. فبعد العلاج في مستشفى احد الاختصاصيين عادت من العاصمة اللبنانية بعينٍ واحدة. »

الرئيس : لماذا لا ترشحون احد اطبائكم للقداسة ؟

— «استغفر اللجنة الموقرة: هذا التهكم من حضرة الرئيس لا يليق بمقامها العالي.

احد اعضاء اللجنة : إمضِ في القضية. ماذا جرى لرفقا بعد ذلك ؟

— «عادت الى الدير، وبعد سنة فقدت عينها الاخرى. فنقلت، وهي ضريرة، الى دير مار يوسف جربتا في ناحية البترون. وشرعت تغزل، وتحوك الاجربة للراهبات. فبلاها الله بشللٍ في جسمها كله الا اللسان. »

الرئيس يومي، بيده ان اسمع، فيفكر قليلًا ويستمر ساكتاً. ثم يقول للوكيل : « كمِّل. »

— « ما بقي لرفقا غير لسانها تحركه في الصلوات والتراتيل. فكانت تصلي دائماً، وترتل بصوت عذب، وهي تحمد الله على نعمة الحياة والايمان. عاشت وهي في هذه الحال ثلاثين سنة، ثلاثين سنة وهي عمياء كسحاء، قضتها في الصلوات والتراتيل والشكران. ثم بعد وفاتها أخذت تعمل العجائب. »

الرئيس : وما صنعت اعجوبة واحدة في حياتها ؟

— « اني أجل اللجنة الموقرة عن مثل هذا الجهل، والتجاهل. أفلا ترى في الترتيل مع الكسح والعمى اعجوبة الاعاجيب. »

— « الزمِ الموضوع واذكر واحدة من اعاجيب المرشَّحة بعد موتها. »

— ساذكر ثلاثاً. الاولى . . .

الرئيس : انبثق النور من قبرها ؟ هذه نغمة قديمة. وهل ذلك النور

غير الفسفور الذي يخرج من بعض القبور ؟

الوكيل (بصوت فيه شي من الغضب) : اذا كان حضرة الرئيس اقام نفسه وكيلًا عن الشيطان، فما الفائدة من القول، وان كان القول وحياً منزلاً. على اني اصارح اللجنة الموقرة بما يخالج قلبي. لقد عاشت رفقا الريس فقيرة، وماتت فقيرة. وان اهلها لمثل رهبنتها، ولمثل طائفتها. لا مال لديهم يبذلونه في سبيل تطويبها. فان شاء الله هذا التطويب، ألهم اللجنة الموقرة خيراً، فتطوب رفقا. وان لم يشأ سبحانه وتعالى، فلا إلهام، ولا تطويب، ولا قيمة للكلام مني او منكم. والسلام.

قال هذا وهمَّ بالخروج. فاستوقفه رئيس، اللجنة وخاطبه قائلًا : وهو كما تقول. لا قيمة لدفاعك عن ابناء وطنك المرشّحين للتطويب. فقد أضعت وقتنا، وما كنت متأدباً.

فقال الوكيل (بلهجة الغضب والازدراء) : قبل ان تخرجوا من هذا المجلس، ازودكم بكلمة تحملونها الى بلادكم. كل قديس[1] من قديسينا الوطنيين يساوي عشرة وعشرين من قديسيكم المطوَّبين. اني اعرفهم جميعاً. قرأت السِنكسار من الجلد الى الجلد.

فاخرج كلٌّ من اولئك المحترمين سيكاراً اسود طويلًا من جيبه، واشعله، وراحوا يهزّون برؤوسهم، ويدخنون.

---

(١) في عهد المسيحية الاول كانت اللفظة « قديس » تطلق على كل مؤمن من النصارى. وفي القرن الرابع شرعت الكنيسة في تقديس الشهداء لتميزهم عن سائر المؤمنين. ثم في القرن السادس اخذت تميز المتنسكين والمتقشفين عن الشهداء والمؤمنين فتطوب منهم القديسين. ومنذ ذلك الزمان والصالحون الابرار يزدادون في الغرب والشرق، فيطوّبون قديسين هناك، ويحالون عندنا الى « ادنوكانس ديابولي » اي وكيل الشيطان.

جران وصاحبها

عدنا من دير كفيفان في الطريق الذي سلكناه اليه. وبعد عشر دقائق اشرفنا على بساتين الزيتون والسفرجل في كف الوادي، ثم على الصخرة المزدانة باشجار السنديان، وقد نبتت في نخاريبها، فاذا نحن في جران، حيث القينا جرانَنا.

استغفر الله والقارئ.. إن في هذا الجبل اللبناني من اسماء الدساكر والقرى ما يغيظ السائح طالب العلم. وان الغيظ ليبلغ أشدَّه في مواقف الشرح والتفسير، اذا ما كان اربابها من اساتيذ السريانية، او المشغوفين بها. فهم لا يترددون في رَدِّ اسم كل ضيعة وقرية، نستكشفهم السر فيه الى لغة الكلدان، التي أخنى عليها الذي أخنى على بني عثمان.

كأن الكلدان والاشوريين، وكل من اقاموا بارض الفراتين، هم وحدهم استوطنوا هذه السواحل والجبال، فاستقلوا بتسمية قراها — أحملوها كل حوشيٍّ من الاسماء. أو كل هذه الاسماء سريانية؟ ألم يكن للحثيين والعموريين والفينيقيين والفرس واليونان وابناء الرومان السنةٌ يفاخرون بها، ولغات يغرسون الفاظها بين صخور هذه الجبال؟

أوَ ما عندك نبأٌ من مضر وربيعة؟ أوَ ما سمعتَ هذه السواحل الفينيقية لغة الضاد في الِحقب الحوالي؟ ها هنا في جوار بيبلوس (جبيل) قرية تدعى الحلوه، واخرى العقَيبة، وثالثة هي الريحانية (مررنا بها في الطريق الى غرزوز) ورابعة هي الصفرا، وخامسة هي البوار.

فهل بارت في البوار العربية؟ وهل فقدت حلوها وريحانها في الحلوة والريحانية؟ وهل للسريانية او الفينيقية أثر في زعفران الصفرا، او في

تصغير العقبة – العُقَيبة – او في الجَرين والجِران ؟

انما نضرب ها هنا بجراننا؛ ونستأذن القارى. بالكشف اللغوي المبرّد ان شاء الله هذه الفعلة. كأني بالقارىء يقول : عهدناك حكيماً، فمتى صرت لغوياً ؟ ليقل القارىء ما يشاء، وليسمع لمن طالما استمع الى الاساتيذ المتسرنين.

ليس في مادة جرَن اثر للعجمة. فهي من طائفة جرَم وغيرها من المواد التي اولها ج ر، كجَرَز – ومنها جارزه اي فاكهه مفاكهة تشبه السباب – وجرس – ومنها المجرّس اي الخبير المجرّب، والمجرّس من يشهر عيوب الناس. لغة الضاد هي لغة الاضداد.

ومن طائفة جرم جَرَش يجرُش جرشاً عدا عدواً بطيئاً، وجَرَش رأسه حكّه بالمشط حتى اثار هِبْرِيَته. الهبرية! ما اكثرها في رأس هذه اللغة. فمن يجرشه لنا ؟ كيف السبيل الى تنظيف كل مادة من مواد القاموس، فتزول القشرة – الهبرية – من رأسها ؟

هذه مادة جرن، وفيها مثل غيرها اللطيف والسخيف، والقديم والقيم، من المعاني. فالذي يهمنا منها في هذا الزمان هو هذا :

جرن الحَبّ جرناً طحنه

اجترن الحب جمعه في الجرَين

اجترن الرجل اتخذ جريناً

الجُرْن ومن لا يعرفه من أكلة الكبّة في لبنان ؟

الجرْن ج اجران وجِران البيدر

كل هذه الالفاظ متقاربة المعاني متجانسة. وهي مستعمله. اما جَرن الرجل جروناً تعود الامر ومرن عليه، فان هو الا الاغراب الممقوت. فاي كاتب من كتاب هذا الزمان، مهما وان اشتد شغفه بالاعراب والتحذلق، يفضل الجرون على التعود والتمرين ؟

واما جرَن الدرع لان واملاسَّ من كثرة الاستعمال، فسوآلي الاول فيها يتعلق بالدرع نفسه. فما محله من الاعراب اليوم في حروبنا الميكانيكية الكيماوية ؟ وما الفائدة من الجارن والجارنة، اي الدرع البيّن الجُرون ؟ ومن منا يستهويه التمثل ببيت لبيد العامري، المشرّف القاموس ؟

وجوارنٌ بيض وكل طِمِرَّةٍ (فرس)

يعدو عليها القرّتين (الصباح والمساء) غُلامُ.

هذا من الامثلة التي يجب ان تجرش جرشاً من القاموس.

بقيت الجِران، وهي لفظة وضعية لجزء من رقبة البعير. فلا بد منها، ولو من باب المحافظة على الآثار القديمة الطريفة. اما القصة التي تتعلق بها، فهي اجدر بان تذكر في الاغاني، لا في القاموس. اني ارويها لما فيها من طرافة، وللكناية التي نشأت عنها.

الجران مقدم عنق البعير من مذبحه الى منحره، تُعمل منه السياط. والسياط لا تزال من الادوات التي تُصنع للزينة او للتحذير. وقد يكون في الالمان الذين يقرأون «نتشه»، القائل بالسوط للمرأة، مَن يشبهون ذلك العربي عامر بن الحرث النَمري، الذي لُقب بجران العَوْد (الجمل) لقوله يخاطب امرأتيه :

خذا حذراً ياجارتيَّ فانني رأيت جران العَود قد كاد يَصلحُ

فقد اتخذ الحرث لزوجتيه اللتين كانتا تعصيانه سوطاً من الجران — من اعصاب رقبة البعير — «ووضعه في الشمس، فانذرهما بجفافه وقرب ضربهما به»

ومن باب الكناية قال العرب القى فلان جرانه، وضرب الاسلام بجرانه، كما قالوا القى المسافر عصاه، اذا وصل الى مكان قصده.

اما المِجْرَن البيدر فلا حاجة الى اكثر من الجرن والجرين من المترادفات. واما رجلٌ مجرن اي اكول، فهي من الطفرات اللغوية التي تكثر في القاموس. او انها من النكات الباردة التي تلذ للفيروز بادي.

فقد ذكر الرجل المِجْرَن – الاكول – وألحقه بالمُجَرَّن اي المرن من السياط ! خذوا حذركم، ايها الاكولون.

لقد اكثرتُ. وما كان لقصد غير ان أُوَدّي مثلاً من مواد القاموس التي تحتاج الى من يجرشها، وقل الى مجمع لغوي، لا لتوسيع نطاق اللغة فقط، فيضاف اليها من الجديد والحديث ما يعوزها، بل لتنظيفها ايضاً من الهبرية، ومن كل قديم عقيم.

وهذه مادة جرَن اخترتها مثالاً للجرش، لان اسم القرية جران، حيث ولد خيرالله خيرالله، مشتق منها. فهو اذن عربي لا سرياني.

وان خيرالله لجدير بهذه الجولة اللغوية، وبهذه التبرئة من السريانية. فقد كان، رحمه الله، عربياً في حياته الباريسية اللبنانية، عربياً صافي النزعة، صادق اللهجة، بعيد مدى النظر والامل. حراً طموحاً كريماً.

ولد خيرالله في هذا البيت الصغير، الجميل بايوانه وصحنه وعُلّيته، القائم فوق الصخرة المزدانة بالسنديان. وقد لبس في صباه الثوب الاسود، فتعلم شيئاً من اللغة السريانية، ليلبي الدعوة الروحية للكهنوت. غير انه علم بعدئذٍ، وهو في بلجيكا، حيث ارسله البطريرك ايلياس الحويك ليتمم دروسه اللاهوتية في جامعة لوفان، أنه أخطأ ظنه بتلك الدعوة، فكتب الى البطريرك يقول انه ليس لها، وانه عدل عن قصده. فاحترم البطريرك حرية ضميره، وأقام على محبته له مدة حياته.

عاد خيرالله من بلجيكا الى باريس في سنة ١٩١٠، فتعرف الى آندرِه تارديو الذي كان يومئذ رئيس تحرير جريدة الطان، وحدثه بالسياستين الفرنسية والالمانية في الشرق الادنى، مبيناً ما ضعف من نفوذ الاولى، وما قوي من نفوذ الثانية هناك، فأعجب تارديو بالشاب اللبناني وحديثه، وقال له : اكتب لي مقالا في الموضوع.

كتب خيرالله المقال، فكان مطلع حياته الكتابية السياسية بل كان

باكورة عمله في جريدة فرنسية كبيرة، التي تولى بعدئذ فيها تحرير القسم الشرقي، واستمر في تلك الوظيفة يحرر اخبار الشرق الادنى، ويكتب المقالات في السياسة العربية واللبنانية، عشرين سنة .

كان خيرالله ذا شخصية فذّة، مؤلفة من العلم والتصور، ومن الاباءة والطموح . أحب الحقيقه، وشغف بالخيال . غمس قلمه في محبرة الواقع الجاف من حقائق السياسة، والبس قلبه ارجوان التجلة والجاه . فكانت عظمة نفسه تتخطى دائماً امام نبوغه في المضايق السياسية، والعقبات الاجتماعية، عرف الفرنسيس بكل ما فيهم من ضعف وقوة، فكان يخاطبهم بلهجة الند للند – اني انا خيرالله لمن سلالة امراء لبنان، لي قصر في ذلك الجبل الأشم – واني حر مستقل مثلكم .

كان يقول هذا، وهو جالس في غرفته الصغيرة، في ادارة الـ « طان » الى منضدة حقيرة عارية، يغربل اخبار الشرق الادنى، ويحررها، فيقدم منها كل يوم فقرة او فقرتين لإثارة اذهان الاوروبيين .

حدثني الاستاذ يوسف الحويك قال : ما عرفت السر في خيال خيرالله الاميري – فقد كان مثل جبران يهوى الامارة وجاهها، ويتمثل نفسه من ابنائها – ما عرفت السر في ذلك الوهم الخلاب، الا يوم زرت بيت صديقنا في جران، ووقفت على السطح امام تلك العليّة الصغيرة، المشرفة على الاودية والربى، التي رآها خيرالله الصبي بعين الصبوة، فكانت كبيرة فخمة عالية . فالولد الذي تصور نفسه اميراً في قصره هذا، حمل تلك الصورة في قلبه طوال حياته، فصارت حقيقة رائعة، خصوصاً في باريس . ومن المضحكات انه عندما كان يحدث الفرنسيس عن قصره في لبنان، وعن سلالته الاميرية، كان يستشهدني انا على ما يقول .

لا ريب في ان هذا الوهم، او هذا الخيال الذي غدا حقيقة في نظر خير الله وحسِّه، ولّد تلك العنجهية التي كانت تساعده في صموده، فيلقى

الفرنسيين بوجهٍ لا رَوْغ فيه، ويعاملهم معاملة الاكفاء. ومما لا ريب فيه ايضاً انه عاش في باريس حراً كريماً، متين العقيدة، صلب العود، بالرغم عما كان من ضيق اسباب المعيشة لديه في اكثر الاحايين.

اما اجتماعياً فقد كان على جانب عظيم من دماثة الخلق، ورحابة الصدر، تزينهما ثقافةٌ جامعةٌ مشرقة. ومع ان منزله بباريس، فيما يُسمّى الحي اللاتيني، لم يكن حتى في علوه يشبه قصرة بجران، فقد كان يكرم فيه اخوانه الادباء الذين يؤمون عاصمة فرنسه من المهجر او من عبر الاوقيانوس، يكرمهم بما يثبت خياله الاميري، يكرمهم كرماً لبنانياً وثنياً، يشمل طيبات الحياة الباريسية، ويكثر في ضيافته من ذكر ذلك اليوناني المضياف المتهتك ألسيبياد، مشيراً الى ان الضيافة الكاملة هي التي تشمل الاطيبَين. اما المشروب فما كان يقدم منه لضيوفه غير العرق، رمز حبه واخلاصه للبنان.

وماذا بعد تلك الايام الصحافية الجافة، في زاوية وضيعة من ادارة الـ « طان » ؟ وماذا بعد تلك الليالي «الألسيبيادية »، في الطابق الخامس، من الرقم الرابع، في شارع ليوبول روبر مُنْپَرناس (جبل الالهة) ؟ ماذا بعد ربع قرن من الجهاد العقلي، والعبث الـ « بوهيمي » في مدينة النور ؟

ما غلبني الغم مرة في رحلاتي اللبنانية، فَوَرَّى عني محاسن الحياة كلها، غَلَبَتْهُ يوم وقفت في تلك العِلِّيَة التي فتحت بابها شقيقة خير الله، ريا الحزينة، الوحيدة يومئذ في ذلك البيت بِجِران.

ها هنا في هذه العِلِّيَة نشأ خيال خير الله الاميري، فحمله الى باريس، يدفىء به روحه المقرورة، وينعش طموحه واحلامه. ولقد حمل مع ذلك الخيال الارثَ اللبناني الخالدَ في نوابغ هذا الجيل، وليدَ الآفاق الرحبة، والصخور المشمخرة، ومع الارث بيتين من الشعر،

الواحد للمعري —

ألاَ في سبيل المجد . . .

والثاني للمتنبي –

أروم من زمني . . .

فجال جولات في ذلك الميدان المزدحم بالجائلين والجائلات، وغزا غزوات، وفتح فتيحاً هنا، وفتيحاً هناك، فكان موفقاً في بعض ايامه، ترفيقه في لياليه، الى ان حان يوم الرحيل – حُمَّ القدر – فغَصَّ اخونا ببيت المتنبي، وما أكمل بيت المعري.

ثم شُحن من باريس في صندوق مصفَّح، وشُحنت غنائمه في صناديق من خشب.

وما الغنائم ؟

الكتب، الكتب. الكتب !

خيال نشأ في هذه العُلَيَّه، فراح محلقاً في فضاء المدنية المضطرب المتوهج، وعاد مجسَّماً في الفي كتاب.

هي الغنائم – هو الخيال : غنائم يأكلها السوس، وخيال تكفّنه المغونة.

• • •

وهذا صاحب الخيال والغنائم في كنيسة القرية، تحت باع من التراب، عند الباب، يدوسه كل يوم المتعبدات والمتعبدون.

في ظلال الاديرة

خرج الناسك من صومعته، فالتقى بالقافلة بقارعة الطريق، فخاطبها قائلاً :

تتساقط النجوم من السماء، ولا تصل الى الارض.

يحلِّق الشعراء في الفضاء، ولا يصلون الى السماء..

فالى اين، يا اخواني، الى اين ؟

مقر الساقطين عميق، وهدف المحلِّقين سحيق — كلاهما ليلٌ لا يُدرَك آخره.

فما الجهاد عبر البحار في سبيل المجد، او في سبيل المال ؟

وما الجهاد في الاوطان، في سبيل الحرية والاستقلال ؟

وما الوطن اللبناني، وما الوطن العربي، في عين الشمس، وفي نظر الليالي ؟

لقد شهدتم مأساة النبوغ في جِران. وان في كل قرية من قرى لبنان مأساة.

ولقد شهدتم ولَمَستم اشعة النعيم، خلال ظلال السكينة والاطمئنان، في الدير. وان في لبنان على كل رابية ديراً يناديكم.

الى الدير، يا اخواني، الى الدير.

ولبس قلنسوة ومداس، خير من لبس الشفوف والافلاس. فلا يغرَّنكم قول شاعر المعرَّة :

ألا في سبيل المجد ما انا فاعلُ...

وهو الذي كشف حجب الحياة كلها، فما رأى وراءها غير الافلاس —

افلاس العقول، افلاس القلوب، افلاس الارواح، افلاس الاخلاق، افلاس الاحكام والاديان.

وقد رآها قبله اجدادنا الحكماء الاتقياء، فبنوا الاديرة واناروا فيها سُبلَ الحياة العليا، والمجد الاعلى.

فما السياسة والسيادة، وما الشهرة والمجد، وما المال والجاه والبنون، اذا ما انكشف الحجاب، وانفتحت الابواب ؟

الى الدير، يا اخواني، الى الدير.

تعالوا الى الاديرة ترتاحوا من تكاليف الحياة، وتنجوا من مآسيها.

تعالوا الى الاديرة، تنفتح لكم ابواب النعيم الخالد.

وسكت الناسك، فانبرى له واحد من القافلة وخاطبه قائلاً:

تتساقط النجوم من السماء، فتغور في الفضاء، ثم تختفي.

ويحلّق الشعراء في الفضاء ليدركوا النجوم فينقذوها، ويشعلوا بنارها العالم.

ولا نور بلا احتراق، ولا حياة بلا نور.

وما الحياة اليوم غير هاوية يرسب فيها كل جبان، ويحوم حولها الكهان، كالغربان، ويحلِّق فوقها امراء الفكر واسياد الزمان.

عُد الى صومعتك، ايها الناسك. فالليل اخوك يناديك، والعناكب بناتك تناجيك، وكل خيال في الباب يحييك.

• • •

ومشت القافلة، فالتقت بفلاح في الوادي، فخاطبها قائلاً:

هذا معولي يعرف قلب الارض وكل اسراره.

وهذا منجلي يقرأ الزرع، وما بين سطوره.

ولكنها معرفة مريرة محزنة. فان في الزرع الافاعي، وان في الارض القبور.

انكم راحلون – هاجرون – هاربون.

احب ان اكون رفيقاً لكم. ولكن المعول والمنجل يثقلان عاتقي. وفي القلب كذلك معاول ومناجل.

انكم راحلون. فهلا تذكّرون ؟ وهلا تفكرون ؟

لقد فكرت كثيراً، وهممت بتحطيم كل ما في القلب، الا السبحة والذكرى.

فقد كان آباؤنا اتقياء صالحين، دون ان يدخلوا الاديرة. وابناؤنا اليوم يدخلون الاديرة ليصيروا صالحين اتقياء.

او ليهربوا مثلكم من متاعب الحياة – من العمل، من القنوط، من الاخفاق.

اقول، وحق ما اقول، ليس في الدير صلاح وتقوى، وليس في الحقول تقوى وصلاح.

اقول، وحق ما اقول، ان الصلاح والتقوى لفي خمول الذكر والقناعة. ولكن القناعة نفسها تخاف الظمأ والجوع. والخمول يخاف من الفاقة والامراض.

ان الخوف لفي كل مكان، الا في الاديرة.

انبذوا ما قاله الناسك، واصغوا الي.

انكم انتم ايضاً تخافون من الجوع، ومن الفقر والامراض.

ولا تجدون في المنكرات ما تجدون في الفضائل المصطنعة – بنات الخيال، او الرياء والادعاء.

تجنون يوماً جنون القديسين، وتطفرون.

ترقصون ساعة رقص الدراويش، ثم تنامون مطمئنين مجبورين.

ثم تستيقظون مذعورين مروّعين.

فما الذي جرى ؟

كذبتم على انفسكم في قولكم انكم لا تخافون الجوع، ولا تخشون الفقر والامراض.

فليرجع الصادق فيكم الى المدينة.

وليدخلِ الكاذب فيكم الدير.

اني ارافقكم، واكون دليلكم.

ما بالكم تسكتون. وما بالكم لا تتحركون — لا ترجعون، ولا تتقدمون؟

اتحول الاباطيل دون الرجوع الى المدينة؟

أتحول الاحلام دون الوصول الى الدير؟

ان احلامكم لمثل اباطيلكم. وانكم لجبناء.. تحلّقون في فضاء الخيال، ولا تجرؤن ان تدخلوا الاديرة.

أفتخشون العزلة؟ الجبال بقراها وضياعها كلها لكم.

أتخشون برد الشتاء؟ هاكم الاحراج، تقطعون منها للدفء ما تشاؤن.

أتخشون الجوع الذي اخشاه انا؟ ان لكم في بساتين التين والزيتون، وفي جنائن الخوخ والتفاح والليمون، ما ينسيكم الحمص والفول في المدينة.

وهناك الكروم، فلا تُحرمون الخمر.

وهناك الحقول المزروعة تبغاً، فلا تُحرمون الدخان.

هيوا بنا. لنمشِ كلنا الى الدير.

ومشى الفلاح يتقدم القافلة، فخاطبه احد رجالها قائلاً:

انك اخونا، واننا نعلم ما يشجيك، وما يثير النقمة فيك.

ولكننا نقول لك ان للعبودية اجلاً ينقضي، وان للفقر اجلاً قريب الزوال.

ان ثمار الارض لمن يحرثون الارض، وان طيبات الحياة لمن يعرفون في

سبيل الحياة .

احمل النبأ المبهج الى اهلك وجيرانك: إن الغد لكم . ان الغد بخيره الاكبر للفلاحين، وللعمال اجمعين.

• • •

واستمرت القافلة، فالتقت باديب جالس في رواق الدكان بالقرية، وبيده خيزرانة و كتاب، فخاطبها قائلًا :

هذا جناه ابي علي .

ادخلني المدرسة ليبعدني عن المعول والمحراث. ادخلني المدرسة لاصير من الافندية، فخرجت منها احمل هذه الخيزرانة، وهذا الكتاب.

فماذا اصنع بهما ؟

ان جئت المدينة قالت لي: لا خبز عندي لاهل الكتب والخيزران.

وان عدت الى الحقل قال لي: لا خبز عندي لغير المعول والمحراث.

وصاحب المحراث والمعول يشكو الى الحكام امره، فلا يسمعون، ويشكو الى الله فلا يجيب.

فان لبّته الارض، فالعدل في انتاجها لا يلبيه.

وها انا ذا بين المدينة والحقول، لا منها، ولا لها.

احاول ان اخفي ما بي، فيراني الدير.

ابكي في سري، فيسمعني الدير.

اهيم في الوادي، فيناديني الدير.

الحق اقول لكم، ان خير لبنان لفي الاديرة، وان ابناء لبنان خارج الاديرة لمحرومون. فلاحهم واديبهم على السواء.

اننا جميعاً لمحرومون.

فيا ايها المتفانون في حب الاوطان، ويا ايها البائسون المشاغبون، ويا ايها المتفلسفون بحقوق الانسان والمساواة — يا ايها المحرومون، المنبوذون،

ان الاديرة تناديكم.

فلاخير يدوم في غير الاديرة.

ولا حقوق تقوم لغير الاديرة.

الحق اقول لكم ان عمران لبنان، ومجد لبنان، واستقلال لبنان، لفي اديرته.

وان شرف اللبنانيين وفخرهم لفي طغمة الرهابين.

فلنكن جميعنا من الطغمة المباركة.

لنحتل الاديره! لنحتلها متقلنسين.

وان ضاقت بنا، اقتدينا بالاجداد الذين شيدوها.

لنبنِ كما بنوا، ونزيد.

ان في الجبل اماكن كثيرة جميلة لا اديرة فيها:

فلنتوج كل هضبة وكل رابية بدير، فيصير لبنان اعجوبة الدنيا في اديرته — يصبح لبنان الفردوس الارضي الوحيد في العالم. ويصبح اللبنانيون جميعاً من ابناء الورع والتقوى، بل من القديسين، فلا يجوعون، ولا يحزنون..

وان في الدير، خصوصاً للشعراء والادباء، كل ما يبتغون في هذه الدنيا — خبزاً وتيناً وزيتوناً وخمراً ودخاناً، وفراشاً وثيرا.

وان فيه اتساعاً من الساعات للتقبيل — للكتابة والنظم والمطالعة.

وان فيه، فوق ذلك كله، قبراً كريماً مثل قبور الناس، بل مثل قبور الامراء والملوك. فها هنا رخام يضم رفات عبقري، وهناك المرمر المشيد لعظام زعيم سياسي.

ومن جميل حظنا بعد الموت، أن في الاضرحة كما في الاديرة، تحدث العجائب. فالعبقري تحت الرخام يصير نبياً، والصحافي، في قُصَيْره المرمري، يصبح من القديسين.

ألا في سبيل القداسة ما نحن فاعلون.

والحق اقول لكم لو عاد خيرالله خيرالله الى هذا الوجود اللبناني، وخُيّر بين غرفة صغيرة في دير حقير، ومكتب فخم في ادارة الـ « طان » بباريس، لفضل الاولى على الثاني، لعلمه انه سيكون مكرماً في وفاته على الاقل، فيرقد في قبر لا تدوسه ارجل الناس .

ووقف الاديب يهز خيزرانته، ويحمل كتابه، فخاطبه شيخ القافلة قائلاً :

الكتاب باب، والخيزران للبهلوان. فمن نبذ الخيزرانة، وولج الدار من الباب، ادرك معاني الحياة كلها بأتمها، وأحسن العمل الذي فيه الخير لنفسه وللناس .

والمعول باب مثل الكتاب .

والخيال جادة الى لُب الالباب .

فالفلاح بمعوله، والاديب بكتابه، والشاعر بخياله، يعلمون الناسك، ويعظون الرهابين، كما يعلمون ويعظون غيرهم من الناس .

ومن لا يتعلم يشقى، ان كان في الدير او خارج الدير، ومن لا يتعظ يهلك هلاكاً ابدياً .

أفرخ روعك، ايها الاخ الاديب، واحمل النبأ العظيم الى اخوانك وجيرانك : لا عبودية غداً، لا عبودية جسدية، ولا عقلية، ولا روحية .

أخواتنا القانتات

لا نزال في الجوار القدسي. وراءنا عُلَيّةُ خير الله، وبساتين السفرجل والزيتون التي تشرف عليها، والى يميننا هضاب يشرّف احداها ضريح قديس كفيفان في ديره، وامامنا القرية نفسها، وهي على نحو اربعة كيلومترات من الدير.

في هذه الروابي والبطاح، بين الجبال القائمة حولها من الجهات الاربع، فتحجب قُنَنُها الغربيةُ البحر، وتُلمَح من منازلها الشرقية غيمةٌ سوداء هي غابة الارز، في هذه الاروقة الخضراء الصفراء الدكناء، المعطرة الجوانب، الناعمة مطالع النور، الهادئة الوادعة مثل اهلها، ها هنا حَرَمٌ لم تمسسه مدنية الاصطياف بشيء من الضر او الخير.

وما كنا مع ذلك آسفين. ولا كنا في صخبة من الابتهاج. غشيتنا روح المكان، فاصبحنا فيه كالنساك لا نشعر بغير النعمة الالهية. وماذا يهم بعد ذلك ان كان الطريق معبّداً بالتراب او بالزفت؟ وماذا يهم ان كانت مياه الشرب في كفيفان من السطوح او من الينابيع؟ وما ضرّك ان نسيت اسم القرية المفرشحة على تلك الرابية؟ هو اسمٌ منكرٌ، وقد يكون من الاسماء السريانية.

اما القرية التي دونها، على بضعة كيلومترات من كفيفان، فان اسمها خفيف لطيف، هو عِبرين. وعلى الهضبة المجاورة لها يقوم الدير الذي نقصد، دير الراهبات اللبنانيات، اللواتي اشتهرن باسم القرية، واشتهرتِ القرية باسمهن — راهبات عِبرين.

بعد ان نبلغ رأس الرابية، يستمر الطريق في وسط بستان من الزيتون، حديث الغرس، بادي النعمة، فينتهي الى الساحة امام صرح ذي ثلاثة

طوابق، متصلٌ اسفلها، منفصلٌ في الوسط اعلاها.

يندر في اديرة لبنان الدير المبني على تصميم. فان اكثرها نشأت نشوءاً طبيعياً، وقُل شاذاً. دعت اليه الحاجة، فلبت الدعوة السلطةُ الادارية واليدُ العاملة، بمعرفةٍ فنيَّة أبجديَّة، ان صح التعبير، وبجهلٍ يتراوح بين الأبجد والالهام. فكانت في البدء النواة — بيت مستطيل او مربّع وكنيسة مثل البيت. فنشأ فوقها، او الى جنبها، او حولها من كل جانب، بيوت عدة، بأقبيتها وأروقتها وأواوينها، فامسى الدير كالنزل القديم الحديث، لا يُعرَف مخرجه من مدخله، أوّله قبوٌ معقود، وآخره ايوان مشيَّد بالسِمَنت! يضيع الزائر في ارجائه المتداخلة، ويُؤخذ مع ذلك بفوضاه الهندسية.

اما دير عجين فقد بُني اولاً على ورق المهندسين، بناه باجمعه المهندس الرسام. ثم شُيِّد على هذه الهضبة الجميلة بموجب الرسم، فاذا هو صرح ذو واجهةٍ مديدة الجناحين، في وسطها باب بدرجٍ الى الدير، ولا نكران، وفي كلا الجناحين باب مثله، الواحد الى الكنيسة، والآخر الى المستشفى.

ولهذا الصرح المربّع صحن فسيح، تحيط به اربعة اروقة بقناطرها، فيه جنينة زاهرة، يقوم في وسطها تمثالٌ من الرخام الابيض للقديس ايلياس، صنع الفنان المعروف يوسف الحويك. وفوق الباب الخارجي تمثال آخر من نحته، يمثل العائلة المقدسة، التي تدعى هذه الرهبنة باسمها.

ان هندسة الدير اوروبية كما ترى. ولا تتميز، من الوجهة الفنية، بغير التناسب في الخطوط، والاتقان في البناء.. هي بناية صريحة في معناها، انيقة في مبناها، ذات ايوان خارجي، واروقة داخلية. في الطابق الاسفل مخازن الدير، وجناح تحت الكنيسة مخصص لضريح البطريرك ايلياس الحويك، وفي الطابق الثاني الكنيسة والمستشفى، واماكن التعليم والادارة والمعيشة، مع ردهة استقبال. وفي الثالث دور اخرى، وغرف للراهبات.

هي ذي الطريقة الاوروبية بروحها وهندستها. وهي ذي حدودها.
اما ما دون ذلك فهو كله لبناني عربي، لبناني القلب، عربي اللسان — على الاقل — اليوم. بيد ان هناك نزعة عربية تبدو في اتساع نطاق المدارس التي تنشئها الرهبنة. فان رسالتها في التعليم، وان انحصرت مبدئياً في لبنان، اخذت تنتشر في غير الجبل اللبناني، فتدنو من الجيران شمال طرابلس، وفي سهل البقاع.

وصلنا الى الدير الظهر، وبنا جوعة غير حيية، جوعة مهلكة. فاستقبلتنا احدى الراهبات بلهجة لبنانية، وبلطف تباريه البشاشة، فشعرنا أننا في بيت لبناني، وأفصحنا عما بنا. فسُرّت الاخت الكريمة بهذه الحرية، وسارعت تخبر الرئيسة.

وما كانت الرئيسة باقل منها لطفاً وبشرا. جاءت تؤهل وترحب بنا. ثم امرت بتحضير الطعام، بعد ان اعتذرت عما تقضي به المفاجأة.

قالت : لا تؤاخذونا، كما تقولها امرأة لبنانية في بيتها، فأنستنا اننا في دير. وما كنا لنحس، لولا الثوب الاسود والإسار الابيض حول الوجه، ان السيدة التي نخاطب هي راهبة، رئيسة راهبات. وبالتدقيق هي الأم جوزفين حويك [1] الرئيسة العامة لجمعية العائلة المقدسة المارونية.

قد أُسس هذه الجمعية البطريرك ايلياس الحويك، في سنة ١٨٩٥، اذ كان اسقفاً، « لتقوم بتربية الفتيات على الروح الوطنية . » وقد بوشر بناء هذا الدير بعد ثلاث سنوات، فتمّ في سنة ١٩١٣، بهمة الرئيسة الأم اسطفاني، وبفضل البطريرك الحويك الذي قام بالنفقات كلها.

هذه الجمعية الحديثة العهد، التي لم يكن لها، في مطلع هذا القرن، غير

---

(١) الأم جوزفين هي الرئيسة الثالثة لهذه الجمعية. خلفت الأم اسطفاني سنة ١٩٢٧، التي تولت شؤون الرهبنة سنة ١٨٩٩، بعد وفاة الرئيسة الاولى الأم روزالي.

دير واحد ومدرسة واحدة، هي اليوم اكبر جمعية من نوعها في لبنان، لها دير ومستشفى ببيروت، واربعة اديرة أُخرى، فيها مائة وثلاثون راهبة. اما المدارس الابتدائية للبنات، فقد بلغ عددها، سنة زيارتنا للدير بعجين، سبعا وعشرين مدرسة، منها اثنتان في ناحية بعلبك، وواحدة في بانياس، وفي كل منها نحو مائة طالبة.

سألت حضرة الرئيسة: هل تدفع البنات كلهن راتب التعليم؟ فابتسمت وهزت رأسها. ثم قالت: من الاربعين الى الخمسين في المائة «مجانيات» والباقيات يدفعن رواتب تختلف باختلاف مقدرة اهلهن.

سبع وعشرون مدرسة، تضم اليها نحو الفين وخمسمائة من بنات هذا الجبل، منهن الف على الاقل يتعلمن مجاناً. وما أفلست الجمعية. بل هي مستمرة في توسيع نطاق عملها، فيزداد فضلها واحسانها في ازدياد مدارسها.

ان في لبنان رهبنات اجنبية عديدة، ومدارس تعد بالعشرات. فأية مدرسة يا ترى من مدارس الراهبات الاجنبيات تعلم عشراً او خمساً من الطالبات مجاناً؟ وهذه الرهبنات التجارية تَمُنُّ على اهل البلاد وتحسب نفسها من المعاهد الخيرية، التي تكاد تنحصر في دير الراهبات العازاريات ومدرستهن لليتامى.

أفلا تشاركنا اذن في الاعجاب بمؤسسة عجين الوطنية؟

واني ازيدك علماً بها، وبراهباتها المهذَّبات المحسنات. يتهمنا الاوروبيون بالعجز في تأسيس الشركات وتنظيمها. وفي هذه الشركة الخيرية التهذيبية — النسائية — البرهان والدليل على فساد التهمة.

لست، كما تعلم، ممن يحبذون الرهبنات والتعليم الرهباني. ولكني مقيد باحترام الحقيقة، وحب الانصاف. وهما يوجبان عليَّ الإشادة بذكر هذه الرهبنة الوطنية، التي لا تقصر في التنظيم وحسن الادارة عما اتصفت به رهبنات الاجانب. هي على الاقل مثل تلك الرهبنات. واني ارضى بألّا

لكونها احسن منها في غير الروح الوطنية، والعاطفة الانسانية.

بل اقول فوق ذلك ان راهباتنا لَاخواتنا، وانهن الفاتنات الفاتنات — الفاتنات بلطفهن القروي، وببشاشتهن اللبنانية، وبشيء من صفاء الروح يبعدهن عن القداسة المصطنعة. فلا الروح القدس، ولا الآب والابن، ولا العائلة المقدسة تريد، على ما يظهر، ان تغيّر في طباع هؤلاء اللبنانيات. لا قناع للتقوى ها هنا — لا وجوه كالحة، ولا اصوات مالحة.

دخلنا غرفة الطعام المعدَّة للضيوف، قبل ان نُدعى اليها. وما كان على المائدة غير الخبز والجبن والزيتون، فنطحناها كما لو كانت خروفاً محشواً وعندما دخلت الاخت الموكلة بنا، وابصرتنا في تلك الهجمة، هتفت قائلة بلهجتها القروية الضاحكة: «تقبروا اماتكم! صحيح انكم جوعانين.»

ثم جاءت الخادمة — احدى الطالبات المبتدئات — تحمل الطبيخ. وأعادت الكرة، والراهبة تلزمها ذاهبة آتية، فجاءتنا بالحلوى من تين مطبوخ وبقلاوة، ثم بالفاكهة، ثم بالقهوة. فكانت تضعها على مائدة صغيرة في زاوية الغرفة، فتنقلها الراهبة بيدها الى مائدتنا. اعجبني هذا الاسلوب المقتبس من النُزُل الكبرى: خادمة تحمل الطعام، وراهبة تقدمه لنا بيدها. هي الضيافة باسلوبها الانيق. هو الاكرام في غايتهِ القصوى.

وهو فوق ذلك في دير راهبات لبنانيات، أخواتنا الفاتنات الفاتنات.

صحبتنا ثلاث منهن الى الطابق الاسفل لزيارة الضريح الكريم، ضريح مؤسس هذه الرهبنة الوطنية المغفور له البطريرك ايلياس الحويك. فاذا نحن في قدس اقداس الدير، امام «داربزون» من حديد، يفصله عن الباقي من المكان. وفي القسم المفصول، المربع الشكل، مذبح تعلوه صورة مصورة بالدهان الزيتي على الحائط، تمثل المرحلة الاخيرة من مراحل المسيح الى الجلجلة. وليس على المذبح شيء من الزينة القدسية المبتذلة. ليس هناك غير الانجيل، وشمعدانان فيهما شمعتان.

وفي الجهة اليمنى من هذا الحرم ضريح البطريرك، المصنوع من المرمر الاحمر اللبناني، في مصنع وطني بطرابلس. والى جانبيه قبران مستويان والارض، الواحد للأم الرئيسة الاولى، والثاني للأم اسطفاني خلفها. وفي الوسط، قبالة الضريح المرمري، تمثال من الشبه، يمثل البطريرك جاثياً يصلّي، وقد ضمّ يديه الواحدة الى الاخرى. وعلى الجدارين المصفّحين بالمرمر، فوق قبري الأمين، مصباحان من الحجر نفسه، محكما الوضع، مشتعلان على الدوام

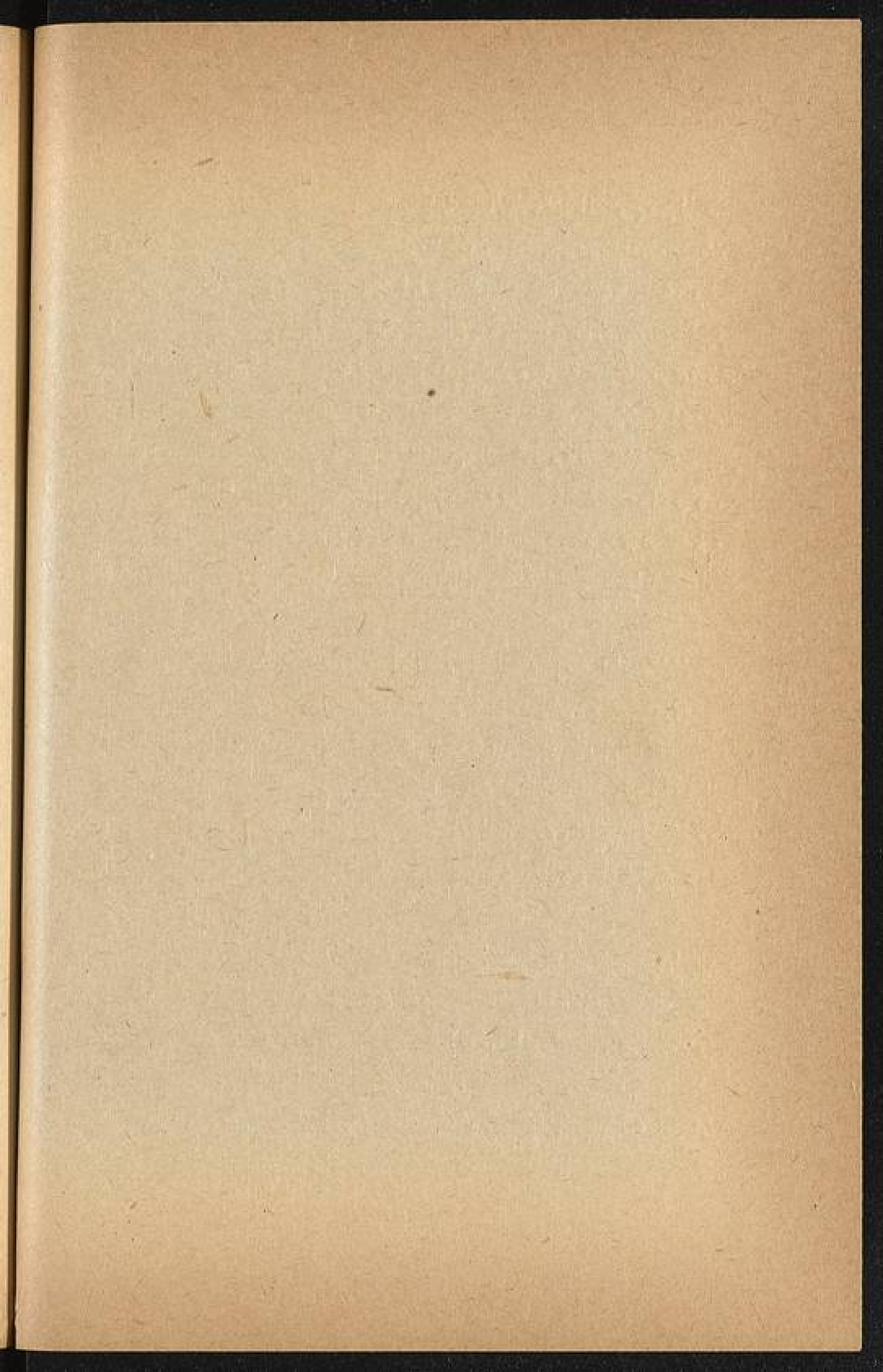
اما التمثال، وهو اقل قليلاً من القياس الكامل، فانه ليشفع بكل ما صنعه الاستاذ الحويك من التماثيل العامة، التي كُلّف بصنعها، وكان مقيّداً بذوق المكلّفين، الذين لا يعرفون من الفن غير الصورة الظاهرة، او الذين لا يريدون من الفن غير ما يخدم اغراضهم السياسية، او عنجهيتهم القروية.

اما في هذا التمثال، فقد برّز الاستاذ يوسف عبقريته، اذ كان حر الفكر والنظر، مطلق التصور والعمل، فما رضخ لغير الفن، وما جامل غير الروح فيه والعقيدة، فكان صادقاً كل الصدق، ومجيداً كل الاجادة.

هوذا الفنان، وقد تغلغل في صميم موضوعه، إحساساً وفكراً وفناً، فمثّل الورع والتقوى في وجه البطريرك، وفي طرفه الساجي، وأنطق بالاستسلام الروحي الاتم حتى الانامل منه، التي تبدو في تماسّها الهادىء اللطيف، كانها تردد ما ينطق به قلبُ المصلّي.

وانك لتلمس عبقرية الحويك، ليس في التمثال فقط، بل في الحرم باجمعه، وقد تولى هو ترتيبه، واشرف على كل عمل واشارة فيه، فجاء حتى نوره الخارجي الضئيل، الذي يكاد يصل الى نور المصباحين عند الضريح، آيةً في الفن الباعث على الخشوع والاعجاب.

ولا غرو. فان عمّه البطريرك الصّديق لجدير بهذا التكريم، كما ان عبقرية الفنان لجديرة بهذا المقام.

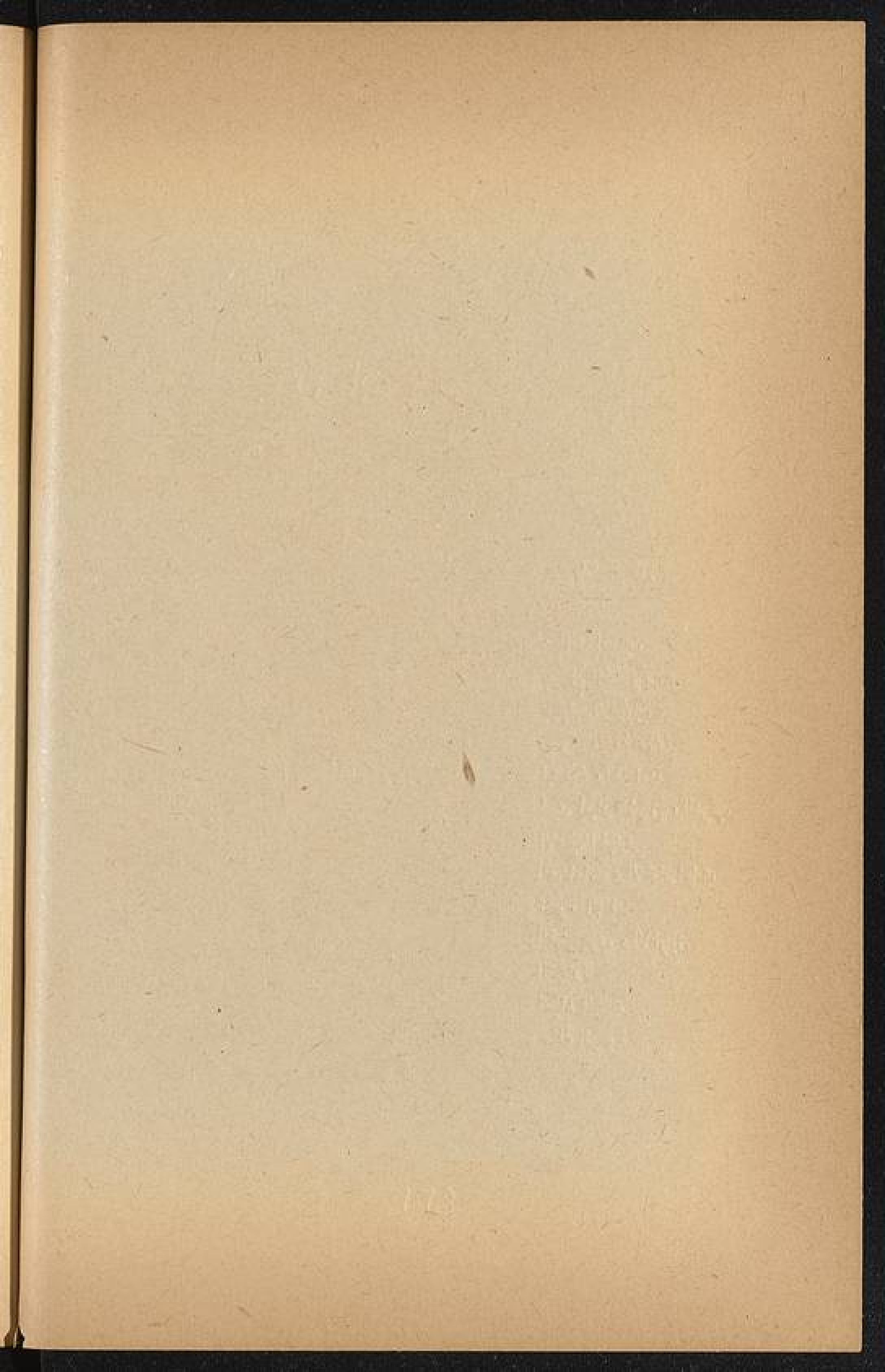


الرحلة التاسعة

في غياهب الزمان

•

محتويات الرحلة



محطات السنين

من آفاق لبناننا الى آفاق لبنانِ الشعوب اعود بالقارى، عودةً طويلة المدى – اربعة الاف سنةٍ الى الوراء . هي رحلة لا كالرحلات الارضية او الجوية، نستعين بها بمصباح التاريخ وان ضَؤُل نوره، وبالخيال المثقف القويم، فنشق بهما غياهب الزمان الغابر، ونمر بالمحطات التي وقف فيها التاريخ مئة بل مئاتٍ من السنين، وهو ينتظر الانسان ليخرج من ظلمات الجمود والجهل، ومن غمرات المظالم والحروب. هَلُمَّ نطير، ايها القارى، العزيز، طيران النور من كواكبه. انفض عن جناحيك غبار الخمول والاستسلام، وانسَ ما ورثته من عقيدةٍ ويقينٍ، وما اكتسبته من علم وشكوك، وما يشغفك من تقاليدٍ وخرافات، وتَعالَ نطير من موحلات هذا الزمان السياسية، ومستنقعاته الاجتماعية والدينية، –تعال نطير من خنوع الاهالي واحزانهم – من سراب الامال وبيداء الاعمال – تعال نطير في اجواء الزمان، الى المحطات الكبرى في مأساة المدنية، الى فجر التاريخ الذي يهمنا الآن. تعال نطير ولو للذة الطيران والاستكشاف.

وهانحن في المحطة الاولى، اقرب المحطات من حاضرنا. هي المحطة الزرقاء في التاريخ الحديث لهذا الجيل، وقد تقدمتها المذابح البشرية، وتلتها الفاجعة العالمية الكبرى. نعم – نُعَيمةٌ – بين كارثتين. واللبنانيون

آنئذٍ، وقد نسوا الماضي وجهلوا المستقبل، بعيدون عن السياسة مكبون على الاعمال المثمرة. إلا شيوخهم وكهانهم وقناصل الدول الحامية لهم، اولئك القناصل العابثون بمقدرات الجبل، اللاعبين لعبة الشطرنج بكرامة زعمائه. فما كان نعيم اللبناني ليحول دون الهجرة، فهاجر الفلاح والاديب — وشُيِّدتْ بعد ذلك صروح في الجبل، وصروح من العلم والادب في مصر واميركة. هي ذي المحطة الزرقاء، محطة المتصرفية

وهاك، على مسافة قصيرة منها، المحطة الشهباء، وقد كُتب فوق بابها: الإقطاع، والسيد الواحد المطاع. هو بشير اليمن، وخفير الامن، والحاكم المستبد العادل في اكثر الاحايين. فنام اللبنانيون في زمانه مِلءَ جفونهم، وما كانوا ليحلموا بالثروات والقصور، ولا بالحرية، ولا بالاستقلال التام او غير التام.

لقد كان ذلك اللبناني سعيداً في جهله، وقناعته وطاعته. الا انها لم تكن صافية في لونها الاشهب الهادئ، فقد تخلل الطاعة شرر من نار الفتنة، ودخان من نار الطموح، ولاح في فيافي الجهل شعاع من مصباح العلم. هي المحطة القائمة على تخوم الهول من الجهة الواحدة، وتخوم الأمل من الجهة الاخرى. هي بين المحطتين، الزرقاء والحمراء كالنجمة المترجرج نورها بين أُفقي الشتاء والربيع.

المحطة الحمراء، هاهي. الحمراء الدامية. وقد طالت فيها إقامة الزمان. اربعمئة سنة كامله، نُسِجت ايامها على المنوال الواحد، منوال السلاطين القائم على ارواح العباد، المسنَّد بالمظالم المنقطعة النظير في تاريخ الامم. ياله من عهد مشى الناس فيه الى قبورهم بين ظلَّيِ الجزع والقنوط. يأكلون خبزهم مغموساً بالدم والعلقم، وهم مع ذلك يدفعون الخراج، ويهتفون للباديشاه.

وفي فترة من ذلك الزمان أضرمت في لبنان نار العصيان، وتلألأت انوارٌ عربيةٌ مغنيَةٌ للاستقلال اللبناني — انوارٌ متقطعةٌ، ما لبثت ان

انطفأت، كما تطفأت في اصحابها الحياة .

وقد كان الجهل في كل احوال الملك طامياً، فعم البلاد العربية جمعاء، من جبال طورس الى جبال اليمن، ومن ارض الكنانة الى وادي الرافدين. فامسى الظلم والارهاق، والسفه والفساد، اشياء مألوفة، يمارسها الناس قويهم وضعيفهم، بعضهم على بعض، في سُلمٍ من الشرور معمور : رجلي على رأسك يا هذا، ورجلك على رأس من هو دونك، فقل الحمد لله وَادْعُ بالعز والتأييد للباديشاه . هو سُلَّم المساواة في المنكرات، اسفله في صميم الامة، واعلاه في يلديز . وهو خالد الذكر في المحطة الحمراء المصبوغة بالدماء البشرية .

هَلُمَّ نطير — نطير . هاك محطةً اخرى من محطات السنين، وقف الزمان فيها حائراً، لا يدري ما الافظع في تاريخ هذه البلاد، أحروب الفاتحين ام حملات الصليبيين . هي المحطة السوداء لمئتين من السنين، وقد ضاع فيها كل شيء مقدس في الديانات السامية الثلاث . هي الظلمات الكاسفة لوحي السماوات، وقد سطع فيها، وما شفع بها، نجمان اثنان فقط، واحد للهلال، والآخر للصليب .

وقد ظهرت فيها المخزيات في التحالف والتخاذل، فانكر بعض الملوك والامراء اخوانهم المجاهدين، ومشت النُصيرية والمارونية في أخوةٍ غريبة تنصران الصليب على الهلال . الصليب ! الهلال ! ان ذلك الذي صُلب وذلك الذي حطم اصنام الكعبة ليبرآن الى الله من اصحابها ومن حروبهم السياسية التجارية .

وما القبر المقدس، وما الارض المقدسة ؟ عاد الفرنجة الى بلادهم يحملون من الشرق العلوم الصناعية والفنية، وعادت الممالك الاسلامية الى التخاذل والتطاحن، ففتحت الطريق للتتر والترك الزاحفين عليها من اواسط آسيه . .

لِنستأنفِ الرحلة في اجواء الزمان .

بعد ان تختفي المحطة السوداء من الابصار ندخل منطقةً من الغيوم

كثيفة فوق قنن لبنان، وقد رَقَّتْ ها هنا وهناك فتخللتها خيوط من اشعة الشمس المشرقة فوق غوطة دمشق .

وها نحن في المحطة الخضراء المخطوط في احدى زواياها هذه الكلمات الثلاث : السلام لاهل الكتاب .

واللبنانيون النصارى من اهل الكتاب . والجبيليون من صميم لبنان .

بيد ان هناك من كان لهم في لبنان اغراض وحاجات . اعني ملوك الروم ، وقد أبوا ان يخرج اللبنانيون من حوزتهم ، فيوالو العرب كما والى اهل صور وطرابلس الخليفة معاوية ، وبنوا له السفن ، خمسمئة منها ، ليحارب اولئك الاجانب .

وهل يستوي في عين الله المؤمن والكافر ؟ وهل يخرج المؤمنون من حوزة مليكهم واخيهم في الدين ، ليدخلوا في حوزة الكافرين من العرب ؟ ليُنقذهم المرَدَة !

وجاء اولئك المردة (المعروفون عند العرب بالجراجمة نسبة الى مدينتهم جرجومة في جبل اللُكام) يفسدون ما أرادَهُ العرب سلماً ووَلاء .

والمردة — بشهادة المؤرخين المدققين ، هم هم الجراجمة الذين ارسلهم اللحياني قسطنطين الى الشام للدفاع عنها ، فاحتلوا لبنان ، وظلوا يحاربون العرب ، الى ان صالح الخليفة عبد الملك ملك الروم ، فامرهم بالرجوع الى وطنهم .

ومما رواه البلاذري أن الوليد بن عبد الملك ارسل الى الجراجمة مَسْلَمَة اخاه ، فافتتح مدينتهم ، وعاهدهم على ان ينزلوا حيث شاءوا في بلاد الشام ، وألاّ يُكرهوا على ترك النصرانية ، ولا يؤخَذَ منهم جزية .

وجاء في معجم ياقوت ان الخلفاء اجروا الارزاق على هؤلاء الجراجمة ، واستعانوا بهم في حروبهم . ولا عجب والامويون اشتهروا بِرَوْز الامور وبُعد النظر . فكانوا يقدرون اولي البأس ، كما يقدرون اولي الحجى قدرهم

ويستعينون بهم في ادارة المُلك، والدفاع عنه.

ومما هو محقق كذلك ان اكثر اللبنانيين، بعد ان سكنت حركة الجراجمة، شرعوا يؤدون الخراج لخلفاء بني اميه، ولبثوا في ظلهم آمنين مطمئنين. هي برهة من الزمن مشرقة يسجلها التاريخ في المحطة الخضراء.

وها قد مرّ الف ومائتا سنة في رحلتنا هذه من عهد الجمهورية اللبنانية السعيد الى العهد العربي المجيد. فلا يزال امامنا — او بالحري وراءنا — ضعفاها من السنين. بارجائها المدلهمة وآفاقها ومحطاتها.

وانك لتسمع وانت تدنو من جبيل الحديثة — نسبةَ الى ماضيها البعيد القديم — صليلَ الرماح، وعويلَ الناس، يتزجان بصوت الارض وقد زلزلت زلزالها، فَتُنكب مدن الساحل الفينيقي، ويُجهز على ما أبقت حراب الفرس وسيوف البيزنطيين، وهم يقتتلون للاستيلاء على البلاد السورية وجبال لبنان.

وما ان وضعت تلك الحرب اوزارها، وهجعت في الارض زلازلها، فاستراح الناس من ويلات الاولى واهوال الثانية، حتى قام ملك الروم باسم الدين يعمل السيف في رقاب اهل البلاد المتمردين.

المجمع الخلقيدوني المقدس! مَن لا يؤمن بتعاليمه يُقتَل وقد قتل البيزنطيون الملكيون كثيرين من «الكفرة» المسيحيين! ومنهم ثلاثمئة وخمسون من رهبان مار مارون في ديرهم على نهر العاصي!

تعال نطير الى المحطة التالية — المحطة الرقطاء، محطة البدع الدينية. وأنكرُ تلك البدع، في نظر علماء الكنيسة المقدسة، التي تمخض بها مجمع خلقيدون، أنكرُ تلك البدع البدعة الآريوسية التي تقول ان للمسيح ناسوتاً، وليس له لاهوت. ثم النسطورية القائلة بأقنومين للمسيح، آلهيٍ وانساني. ثم الاوطيخية وهي تناقض النسطورية بقولها ان المسيح اقنوماً واحداً. ولكنها تقول ايضاً ان له طبيعة واحدة:

وقد نشر التعاليم الأوطيخية (نسبةً الى صاحبها اوطيخوس) يعقوب البرادعي فعُرفت الشيعة باسمه اي اليعقوبية، ودعي أبناؤها باليعاقبة. وكانت الموارنة منهم في بادىء عهدها

وهناك المنوثليون وقد انكروا على اليعاقبة قولهم في الطبيعة الواحدة للسيد المسيح، وجاروهم في العقيدة بالعقل والمشيئة عقل المسيح، طبيعة المسيح، مشيئته، ناسوته، لاهوته – تعددت الاقوال والخيالُ الديني واحد!

ابسط جناحيك واتبعني. هوذا الروماني في خوذته ودرعه، يتبختر في ساحة المدينة ويقول متبجحاً: اني روماني، وانكم لمن البرابرة. وهذه هي القلاع والحصون، وهذه القصور والمعابد للرومانيين، وهم يصلون يوماً للمشتري، ويوماً للناصري يسوع.

بيد أنهم في كل احوالهم رومانيون ماديون متعسفون، غليظو الرقاب والاكباد، لا يهمهم من الدين غير اسباب السيادة فيه والراحةِ والمال. قال المؤرخ غِبون: «تعددت الاديان في الممالك الرومانية، وكانت كلها صحيحةً في نظر الشعب، وكلها فاسدةً في نظر الفيلسوف، وكلها في نظر الحاكم نافعة.»

وقد اشتهر الرومانيون كذلك بسلمهم الموطد الاركان. انعم به من سلمٍ شديد الويل في مقدماته ونتائجه! فقد كان يبسط اجنحته السوداء فوق اطلال المدن، وبين بقايا الشعوب. السلم الروماني – بعد خراب البصرة! بعد الاكتساح الروماني، واستعباد رومة للشعوب المغلوبة – سلام، سلام.

فلا عجب اذا كانت الاديان كلها كاذبةً – ونافعة – في نظر الحاكم الفيلسوف. اعبدوا من تشاءون وما تشاءون، وقدموا اطفالكم وبناتكم الابكار قرابين للآلهة، وألِّهوا الفروج والشياطين، بشرط ان تدفعوا الخراج لرومة، وتذعنوا للحكام الرومانيين.

وكان كذلك. فقد دامت نار الوثنية - الأغريقية والفينيقية - مشتعلة في لبنان حتى اوائل القرن السادس المسيح.

وكان القديس سمعان العمودي يسعى لهداية اللبنانيين الوثنيين. وقد هدى منهم الكثيرين، كما يقول المؤرخ، بما كان يصنعه امامهم من العجائب. ومنها، ولا غرو، جلوس القديس سمعان على رأس ذلك العمود، جلوسه السعيد المديد، الذي دام اربعين سنة!

التساهل الروماني - السلم الروماني - الاستعباد الروماني!

وكان قد تقدم كل ذلك انتشار الثقافة الاغريقية في البلدان السورية والسواحل الفينيقية. تلك الثقافة القائمة بالجدل والفصاحة، المزدهرة بالشك والاستهتار، المجلببة بجلباب الكسل والرفاهية، فمهد افلاطون وأبيقور السبيلَ لأغسطوس قيصر.

وها نحن في المحطة السابقة للمحطة الرومانية. هي المحطة اللازوردية وفيها النبأ الفينيقي المحزن. هاك الفينيقي متأغرقاً، يقلد اسياده السلوقيين، خلفاء الاسكندر، في عاداتهم وعباداتهم، ويتكلم ويكتب بلغتهم، وينسى ان اجداده هم الذين علموا اجدادهم الالفباء، وانهم كانوا كذلك اسياد البحار، وارباب التجارة في الامصار.

هلمَّ نطير الطيرة الاخيرة، طيرةً واحدةً وان بَعُدَ مداها، من الفتح الاسكندري الى ما دونه بالف وخمسمئة سنة - الى ذلك العهد الفينيقي الاول، عهد إبشُمُو أبي وأبي شُمُو في مدينة جبيل.

جبيل الشموية

أقيمت المناحات في قرى المملكة، على ضفاف النهر المقدس، نهر آدون، وفي الجبل تحت اغصان السرو والارز. وأمَّ المقدَّمون العاصمة ليشتركوا في المأتم العظيم، مأتم الملك أبي شُمُو ملك جبيل، وكاهن رِشَفَ البعل.

فجئت انا معهم. وانضم الينا رهط من ابناء السبيل، فيهم الندّاب والشحاذ، وبائع الحلوَى، وبائع الالاعيب والتعاويذ. مشينا الى العاصمة جميعاً، المحزونون والمتفرجون والمرتزقون واللقاطون، وكنا نقصِر الطريق بالاحاديث عن الملك الراحل، فنذكر حسناته وسيئاته، ونرفع الاصوات، كلما دنونا من احدى القرى، بالندب والنحيب.

كان غنياً، كان تقياً، قوياً بين الملوك.

آهِ واهِ اواه!

تبكيه المدن، تبكيه القلاع،

تبكيه السفن، وارباب الشراع

آهِ واهِ اواه!

كان غنياً، كان تقياً، كان قوياً بين الملوك.

وبعد ان مشينا يوماً، وادلجنا نصف ليلة، وصلنا الى المدينة في مطلع الفجر، فجلسنا تحت النخيل خارج السور نستريح، وننتظر المتخلفين من قومنا. ثم مشينا جميعاً الى الباب البَرِّي من السور، فدخلناه وتقدمنا صامتين تحت صفين من الجنود فوقنا، وراء الحصون الى جانبي الممَرّ الطويل، بين البابين الخارجي والداخلي.

وعندما اشرفنا من الباب الثاني على المدينة، رفعنا الصوت بالندب والبكاء، فكانت الوقفة مفجّعةً مرهبة.

كان حكيماً، كان كريماً، كان حبيب جميع القلوب.

آهِ واه اواه!

كان لقصرهِ مائة بابٍ، تؤدّي اليه جميع الدروب

آهِ واه اواه!

ثم نزلنا، بعد نَدْبةِ التسليم، في درج طوله خمسة ابواع، الى الساحة الكبرى، وقد غصت بالجموع المتفجّعة، فبادرونا بندب الراحل العظيم، فرددنا عليهم باحسن من ندبهم، فملأنا السماء بالنحيب، والساحة بالدموع.

بعد ذلك مشينا جميعاً من الساحة، بين صفوف من البيوت المربعة، المشيدة بالحجر الابيض الكلسي، المسقوفة بخشب السرو. وكانت النساء يقفن في الابواب وقد حللن شعورهن، والمناديل بايديهن يحيّيننا بها، ويولولن باصوات رفيعة جارحة.

مشينا نخترق المدينة الى الهيكل الاكبر، المشيد على ربوة بالقرب من قصر الملك. وكان الزحام يشتد، واصوات النداببن والندابات تخفت، كلما دنونا من الهيكل. فلما وطأنا الارض الحرام امام الباب، وقفنا فيها هنيهةً خاشعين خشوع الغنم في الحظيرة، ثم دخلنا الهيكل صامتين صمت الجبل في ليالي الصيف.

تبارك البعل رِشِفْ

وتباركت عَشْتَرَ البعلة الكبرى

ومن الناس من حملوا الاواني ملأى بالعطور الى الهيكل، فوضعوها في طيقان الانصاب، القائمة في الاروقة الاربعة، حول السدة العليا، سدة البعل، حيث وقف الكهان امام النصب الاقدس.

ومن ذلك المكان ارتفع صوت بالترتيل، هو صوت الكاهن الرئيس،

وكان الكهان الآخرون يزمّنون عند كل وقفة من وقفاته المترجرجة. ثم هتفوا جميعاً قائلين:

بذمتكِ مليكنا، ايتها الظلمات الابدية،
بعنايتكَ أبي شمُو، ايها البعل العظيم،
المجد والسمو لملكه بعده.
العزُّ والبقاء لخلَفه،
واليمن والاقبال لجبيل.

فرددت الجموع هذه الدعوات، دعوةً دعوةً، كلما نطق الكهان بها.

بعد ذلك أضرم احد خدام الهيكل النار في موقد كبير امام البعل، ونادى الكاهن صاحبة الضحية. فافسح المصلون لامرأةٍ تحمل طفلاً رضيعاً قدمته وهو يبكي قائلة: من اجل ابي شمو، ومن اجل جبيل.

تناولَ الكاهن الطفل بيديه، وتقدم به الى البعل، فرفعه، وهو يبكي امامه. ثم دار به فرفعه امام الناس. وكان صراخ الطفل يزداد ويشتد، كلما تحرك بين يدي الكاهن، فضج الهيكل بهتاف الهاتفين:

من اجل ابي شمو،
من اجل خلفه.
العز والسمو لجبيل.

فغرق صراخ الصغير في لجة من التهليل زاخرة، فكان اثناءها يُرى، وهو في جزعه وتشنجه، ولا يُسمع. ثم ارتفع صوت الكاهن فوق اصوات الجموع، فساد الصمت والخشوع، فقال وهو واقف امام النار:

تقبّلْ الضحية، ايها البعل العظيم —
من اجل مليكنا الراحل،
ومن اجل خلفه الطويل العمر،
ومن اجل جبيل والجبيليين.

كانت الأم واقفة بالقرب من سدة الهيكل تسمع وترى، وعندما قذف الكاهن بطفلها في النار، افترّ ثغرها ببسمة الرضى والايمان.

تبارك رِشف البعل،

تباركت عَشترَ البعلة

العز والسمو لجبيل

خرجنا من الهيكل بقلوب مفعمة حبوراً واطمئناناً وتوجهنا الى القصر الملكي، فطفنا به مراراً، ونحن ننبهر في الندب والنحيب.

وقد تمكنتُ من الدخول وبعض القوم الى البهو الكبير حيث كان الملك مسجّى على سريره، وحوله العدة للقبر، والزاد للرحيل. دُهشت بما شاهدت عيناي، سُحرت. فما اجمل تلك الكؤوس والآنية، وقد مُلئت طعاماً وشراباً وطيباً. ما في العالم مثل فخارها شكلاً وصقلاً – ولا في العالم مثل الوانها ورسومها. وما ابدع تلك الملاعق الذهبية، والسكاكين الفضية. وسلاح الملك من خناجر وحراب، وحليّه وتعاويذه، انها لمنقطعة النظير. وقد وقفت متضعاً امام صولجانه المصنوع من جيد الشبه، المزين بافعى من الذهب الابريز، وقد كُتب عليه: ابي شُمُو ملك جبيل، وكاهن رِشف البعل.

صلى الكهان على الراحل العظيم صلاتهم الاخيرة. وجاء رجال القصر فحملوا العدة والزاد، وحملوا الجثة على الاعواد، فمشوا بها، في موكب مديد مهيب، الى مقرها الاخير في مقبرة الملوك، وراء السور، في سفح الربوة المطلة على البحر. وهناك وضعوه في ناووس من الحجر الصلد، ومعه زاده وحليّه وسلاحه، وقفلوا الناووس واحكموا الغطاء. ثم ادلوه بالحبال الضخمة المقيّرة في حفرة عمقها ثلاث قامات.

وفي ذلك النهار، بعد الدفن، مُدت في القصر، وفي بيوت العظماء، الاسمطة للزائرين، فاكلوا اللحوم وشربوا الخمر، وتطيبوا بالطيب، على ذكر

الراحل العظيم، ودعوا الخلفه بالعز والسمو، ولجبيل والجبيليين بالخير والاقبال مدى الدهر.

وقد شاهدت بين الزائرين الجبيليين عدداً غفيراً من الغرباء. قيل لي انهم جاءوا من الممالك المجاورة، من ارواد وقبرص، ومن صيدا وصور، ومما وراء التخوم الفينيقية، من آرام وموآب ويهوذا. ولا عجب، فقد كان الملك ابي شمو علي ولاء وجميع الملوك، محبوباً معظّماً في جميع البلدان.

دام عزك، يا جبيل، في عهد الملك الخلف، وفي كل الدهور. مات الملك، عاش الملك! فقد خلف إبشمُو ابي اباه ابي شمو، فاحتفلت جبيل بجلوسه على العرش. وقد وزع الملك الشاب في ذلك اليوم النقود فضةً وذهباً على الناس. واطعم الفقراء والمساكين. واضاف الزائرين عشرة ايام.

اما انا فقد اقمت وبعض قومنا في العاصمة شهراً كاملاً. فكنا نزور الهيا كل كل يوم، ونطوف بعدئذ بالمدينة، نشاهد صناعاتها، ونسرّح الطرف والقلب في مخازنها ومصانعها. رأينا الناسج ينسج على نوله الكتان والحرير. ورأينا الصابغ يصبغ الانسجة بالاصباغ البهيجة، الارجوانية واللازوردية.

وقد زرنا مصنع السفن خارج السور، فرأينا العمال ينشرون الاخشاب ويقيّرونها، ويصقلون السواري الضخمة الباسقة، وقد قطعت من غابات الارز. ولقد أعجبني خصوصاً حذق القلافين ومهارتهم. فلا شك في ان سفننا احسن السفن في الدنيا — اجملها شكلاً، امتنها صناعةً. اخفقها شراعاً، اسأل الرياح. اسأل البحار. اسأل الاعاصير.

وما كانت المشاهدات باعجب مما سمعنا. فقد تحدثنا الى الصانع والتاجر والنوتي، فأثارت كلماتهم فينا الشوق الى الاسفار والإتجار. واني انقل بعض تلك الكلمات فلا تضيع قيمتها. قال مدير المصنع: الجبل كسل، والبحر

عمل. وقال نقيب النساجين : الخشب في الجبال، والذهب في الامصار.
وقال صاحب معمل الاصباغ : الحياة تجارة، والتجارة عروة الاخاء والسلام.
وهاك حكمة نطق بها احد الصاغة : الحياة مثل هذا القالب بين يدي.
فهي حسنة اذا انا احسنت العمل، وهي سيئة اذا اسأت.

أَحسَنَتِ الآلهة الى صناعك، يا جبيل، والى بَحارتك وتجارك. فقد اشعلوا في صدورنا مشاعيل العمل والمغامرة، وحببوا الينا الاسفار والإتجار.
أَحسَنَتِ الآلهة الى حكمائك، يا جبيل، فقد تلقينا الحكمة من افواههم.

وانا لنتوسل الى الربة عَشتَر لتكلأ نساءك، يا مدينة السرور، وتسبغ عليهن النعمة، فيزددن عافية وحسنا. فقد بذلنا من مالنا فرحين، في اسواق المدينة، وفي معابدها ومهرجاناتها، فوجب علينا البيان في الشكر والثناء.

وَعَشتَر العالية! ان الجبيليات لجميلات، لطيفات، ناعمات. وانهن فوق ذلك لوديعات، طائعات، قانعات. فلقد أعطيننا الكثير بالقليل، وحمَّلننا الذكريات الطيبات، تسكب من طيبها في عزلة الجبال على الشفاه الجافة، وفي القلب الحرّان.

وقد حملنا من مصانع جبيل ومخازنها الاقمشة والفخار والتعاويذ والحُلَى الى الاهل والاصحاب في القرية.

• • •

هذا ما كتبه الاديب الفينيقي عبدُ إشمون بن بشعال. وقد نقله عن الاصل هِپُتُرقُس الاغريقي، الصُّوصي المولد، الانطاكي الاقامة، الشاهد الفتح الاسكندري، المدرك عهد الملك السلوقي الثاني انطيوخوس الاول. وقد ترجمه من اللغة الاغريقية احد علماء جامعة أُكسفورد الشهيرة، فترجمناه نحن عن الانكليزية الى لساننا العربي الشريف، ترجمة دقيقة تكاد تكون حرفية. وذلك في الحادي عشر من شهر ايار من السنة الثامنة والثلاثين

والتسعمئة والالف مسيحية، الموافق لليوم الحادي عشر من ربيع الاول من السنة السابعة والخمسين والثلاثمئة والالف هجرية، على واضعي التقويمين السلام.

وقد رأينا من الواجب البيان عن الترجمات المختلفة، دفعاً لما في الاهمال من ممكنات الخطأ والخداع. فقد تستغوي هذه القطعة من النثر احد العلماء الادباء، فيترجمها الى الانكليزية، او الى غيرها من لغات الفرنجة، ظناً منه انها عربية الاصل مبتكرة. وحسبها ما قاسته من مشقات الاسفار في رحلتها اللغوية الطويلة من الفينيقية الى الاغريقية، ومنها بعد الفي سنة الى الانكليزية فالعربية!

يدفِن بعضنا بعضاً وتمشي   اواخرنا على هام الاوالي

كلمة مَزجيّة، نصفها نثرٌ مبتذل، ونصفها من الشعر المرير. فقد رأى المتنبي، بكبرٍ مجردٍ من الاسى، وبقسوةٍ لا يلطفها حنان، ارجلَ الاحياء على هام الاموات، فقصر عما جاء به المعرّي بعده، اذ قال في الموضوع نفسه كلمةً كلها من الشعر الذي يستوي فيه الخيال الرائع والاحساس الرقيق.

خفِّفِ الوطء ما اظن اديم الـ   أرض الا من هذه الاجسادِ

وكان ابعد من المتنبي خيالاً، واحسن منه بياناً في البيت الآخر :

رب لحدٍ قد صار لحداً مراراً   ضاحكٍ من تزاحم الاضدادِ

وقد فاق ابو العلاء ابا الطيب في اشتمال فكره واحساسه على المتحتم في مصير الانسان ومصير ما يبنيه في هذه الدنيا، فقال :

كل بيتٍ للهدم ما تبتني الور   قاء والسيد الرفيع العمادِ

كل بيت الا القبر في نظر شكسبير :

— من هو امهر البنائين ؟

— حفّار القبور . فالقبر يدوم الى يوم القيامة.

ولو كان للشاعر الانكليزي ان ينظر، خلال الدهور المقبلة، الى اليوم الذي سيقف فيه العالم الاثري الاول بين خرائب نينَوى او الاقصر، ويأمر عماله بنبش قبورها، وبقايا قصورها، لكانت كلمة حفّار القبور، في رواية هَملِت، ابلغ واصدق مما هي.

اننا في تطوُّر الحياة، وتلوُّن صفحاتها الحديثة، لهدامون حتى فيما يبنيه الشعراء. فالذين يحرقون موتاهم يسخرون من قول المتنبي والمعري معاً.

والذين يشاهدون بعض اعمال بعثة أثرية في هذه الايام، ومن تلك الاعمال القبور المبعثرة، والتوابيت الفارغة، ينكرون على شكسبير كلمته البليغة.

كل بيت للهدم حتى القبور، وعلى الاخص قبور الملوك. وكل مدنية من مدن الشعوب البائدة شبيهة باهلها — يدفن بعضها بعضاً، ويبنى الاحدث على الاقدم، تُشيَّد الواحدة بحجارة اخواتها الدوارس. تهدمها الحروب، تهدمها الزلازل والاعاصير. تهدمها الكوارث البشرية. فيهجرها الانسان، ويكفنها الزمان بكفن ثقيل من الحجارة والرمل والتراب.

هي ذي ربوة من الربى الغنية بما فيها، الحافلة بالمدافن، مدافن المدن من العهد المسيحي الاول الى العهد الاول من التاريخ. وهي ذي الادلة والبراهين على اقوال الاثريين تكشفها معاول العمال، وهم يحفرون في التل، الطبقةَ تلو الطبقة، حتى بضعة امتار تحت سطح البحر.

هذه الطبقات ينيرها الاثري بنور العلم، فيريك في الطبقة الاولى خرائب كنيسة بيزنطيَّة، وفي الثانية السُرُج الرومانية، وفي الثالثة النقود الاغريقية، وفي الرابعة التماثيل السمجة الحثيَّة، وفي الخامسة آنية خزفية فلسطينية، وفي السادسة خُتُمٌ اسطوانيةٌ نُقشت فيها أحرف مسمارية، وفي فيما دونها تماثيل صغيرة لربَّة حوريَّة، وفي الطبقة الثامنة امثلة من الاواني المعدنية. وبعد الطبقات التالية — آخر المعادن واول عهد الصوان — نصل الى الالف الثالثة من السنين السابقة لعهدنا. ويستمر العمال في الحفر، والأثريون في التنقيب، فتكشف آثار البيوت الاولى — هي اول ما بنى الانسان — ثم الكهوف، وفيها آثاره من الخزف والعظام.

اربعة عشر عهداً من التاريخ البشري، ننزل في شبه درج من آخرها، ثلاثةَ امتار من سطح الارض (٦٠٠ — ٣٠٠ م) الى نحو من اثني عشر متراً تحته (٣٨٠٠ — ٤٥٠٠ ق م)، ومنه، مترين تحت سطح البحر، الى الارض التي لم يطأها بشر، الى الارض البكر. هاك خمسة آلاف سنة من

التاريخ، تزاحمت خلالها آثار الانسان، في تلك البقعة السورية الشمالية، تزاحمت بقايا الشعوب وآثارها، بعضها على بعض.

ودفين على بقايا دفين   في طويل الازمان والآباد

ليس في جبيل ما يضاهي، في تعدد الآثار وفي القِدم، ما تقدم ذكره مما اكتشفته البعثة الاثرية الاميركية في تل جُدَيْدَه بجوار انطاكية. ولكنَّ في جبيل آثاراً لشعب واحد من شعوب هذه البلاد، امتاز عن سائر الشعوب الساميَّة في نزوعه الى السلم، وانكبابه على الصناعة والتجارة، وفي اقتحامه اهوال البحار، فرفع شراعه فوق امواجها الصاخبة، شمالاً وغرباً، متحدِّياً الاعاصير، مستسلماً الى الرياح، تسوقه الى حيث شاءت من الجُزُر القريبة والقصية، بل الى اقصى شواطىء البحر المتوسط، الى مضيق هِرَقل (جبل طارق)، بوابةِ بحر الظلمات، وما دونها، الى الجزر البريطانية.

وقد كانت هذه السواحل عامرة بالمدن التي شيدها ذلك الشعب الباسل المقدام، فازدهرت ازدهاراً بهيجاً، وكانت تُعد في زمانها من اعظم مدن العالم. ألاَ إن اهل ارواد وقبرص، وجبيل وصيدا وصور، لرواد الحضارة، ومشعلو انوارها في البلدان الاسيوية والاوروبية، في العهود السابقة لعهد الاغريق الذهبي.

ومن هذه المدن جبيل الآن موضوع بحثنا. فقد عدنا بالقارىء في الفصل السابق الى عهدها الاول، فطوفناه بالمدينة، وجلنا به في مخازنها ومصانعها، وأسمعناه احاديث اهلها، وشهدنا واياه مأتم الملك ابي شمو – وقفنا هناك عند ذلك القبر، الذي دُلِّيَ فيه الملك الراحل، لا نرى من الزمان الا يومه، ولا نشعر بغير النكبة الواقعة، وقفنا هناك آمنين في جهلنا مطمئنين. فما كان في الحسبان أن الدهر مدرك حتى الملوك الراحلين، وحتى بعد آلاف من السنين، وأن يد الانسان سَتُمدُّ الى قبورهم، باسم العلم، وتعمل فيها عملها، فتمسي تلك القبور كما كانت قبل ان شرفتها الرفات الملكية، خالية خاوية. وما

كان في الحسبان أن مصير جبيل نفسها، وان طال الاجل، هو كمصير غيرها من المدن التي سبقتها في مضمار الحضارة، والى ظلمات الفناء — فتدفن كما دُفنت ملوكها وبنوها، ويجيء الانسان الكشاف في القرن العشرين، فيمزق كفنها باسم العلم، ويعيد هيكلها الى نور الشمس.

ألا في سبيل العلم ما نحن فاعلون. وجبيل الاثريين اليوم قصدنا. انما سنعتاض عن دليل الخيال دليلاً من لحم ودم، ومن اولي العلم والفضل، هو الامير موريس شهاب، امين دار الآثار في الجمهورية اللبنانية.

سرنا من بيروت في يوم من ايام الربيع، في طريق ظللته اشجار الكينا، بين بساتين ناضرة من الموز و الليمون، فانكشف لنا البحر عند نهر الكلب، وما توارى بعدئذ عن الابصار. ان اجمل طرق الساحل اللبناني لهذا الطريق، نجتازه في اجمل الايام، والبحر الى يسارنا زَهْوٌ، والجبل الى يميننا رَيان. ما اقبح السيارة، وكل شيء امامنا في بهجة العيد يقول: مهلاً، مهلاً. ان الربيع لعيد السنة. ولكن الانسان، لا يعيِّد والاقحوان، والسيارة لا تأتمر الا بامر النفط المحترق سراعاً.

نمر بجونية مَرَّ السهم، ونلمح لمحاً في المعاملتين الجسر الروماني، ويدلُّنا الامير موريس على صخر عند منعطف الطريق فيه «مغارة ابينا آدم» ثم على «برج هيلانة» (هل هي القديسة أم الملك قسطنطين ؟) بين الطريق والبحر، اساطير تباري الآثار في طلب الخلود، وآثارٌ تجاري الاساطير في طرافتها.

اما طَبَرجا فانها تجمع بين الاثنين، فتحدثك عن بولس الرسول، وتريك في جونها الصغير، وعلى ضفته، مصنع السفن. هل الطَبَرجي ومراكبه الشراعية كل ما تبقى من الحياة الفينيقية على هذه الشواطىء الوسنانة ؟ اما ما يُروى عن بولس الرسول فقد يكون تاريخياً، وقد يكون من الاساطير. هاكه، ولا اعتراض، من طبرجا هذه، اكترى بولس مركباً يوم أبحر الى

افسوس. وبعض الذين يروون الخبر يدلون باصبع الاعجاب والاحترام على صخرة من صخور الشاطىء الطَبرجي. هي هي الصخرة التي قفز الرسول منها الى مركبه!

وهذا نهر ابراهيم (نهر ادونيس يحيينا قبل ان نصل اليه – يطل علينا من البحر. انه لنهر لطيف كريم. وانه لذو اسرار طبيعية ودينية. اما الطبيعية فلا يستحيل ولا يصعب كشفها. في هذا الفصل من السنة يذوب الثلج في الجبال، فتطوف الانهار. وعندما يطوف نهر ادونيس يحمل، لانحداره الشديد، كثيراً من التراب، فيصطبغ بها، ويجري احمر اللون الى البحر وفيه، فيبدو على مسافة ميل من الشاطىء. كجزيرة من الرمل الذهبي، او كنهر احمر في البحر الازرق. اما اسرار النهر الدينية فسنحدثك عنها في فصل آخر. لقد وصلنا الى جبيل.

ان اظهر ما فيها قلعة صليبية كانت مقر المديرين في ايام المتصرفية هي قائمة بين الجُبَيلَين، جبيل الاحياء، وجبيل الاموات،هذه غرباً بجنوب من القلعة، وتلك شرقاً بشمال.

دخلنا المدينة القديمة، فكان للأمل الذي حملناه اليها خيبات ثلاث. اولها بحجارة البناء، فهي كنها صغيرة غير منحوته. والشائع ان الفينيقيين كانوا يبنون معابدهم على الاقل بالحجارة الضخمة.

وثاني ما كان من الخيبة صغر المدينة نفسها، بدليل السور الذي اكتُشف اساسه وقسم منه. فان مساحتها لا تتجاوز مساحة حيٍّ من احياء بيروت. وهي المدينة التي كانت تعد في الماضي من المدن الفينيقية الكبرى.

وثالث خيالات الأمل ان ليس فيا اكتُشف شيء من الآثار الضخمة الفخمة العالية. هي كلها، عدا النواويس الملكية وضيمة ممجة، ليس عليها مسحة من جمال، حتى ولا على هيكلها الاكبر، وهو لا يدنو في حجمه من كنيسة في احدى قرى لبنان.

ذلك الهيكل بناء مربع باربعة اروقة. في داخله، حول مصطبة في الوسط نصب الآله الاكبر رشف البعل. وفي الاروقة انصاب ومسلات شبيهة بالمصرية، الا انها صغيرة، على احداها كتابة هيروغليفية واسم الآله رشف.

ليست الانصاب والمسلات بالدليل على تعدد الالهة الفينيقية، التي لم تتجاوز الاربعة والخمسة – رشف وعشتر وأدون وملقرت. انما كان لها اسماء جلالة، فيدعى الآله بها. كأن نقول: الرحمن الرحيم. العلي العظيم[1] اما المسلات والانصاب فهي تقدمات – نذور – من الناس لآله الهيكل. وفي انواعها المختلفة، من كبيرة وصغيرة، ومن خشنة ومصقولة، البرهان على انها مقدمة من اناس اختلفت اقدارهم واحوالهم في الحياة.

مشينا في سوق من الاسواق القليلة لهذه المدينة، التي اسست في الالف الثالثة من السنين قبل عهدنا، نتأمل بيوتها المربعة الصغيرة، اللاحق بعضها ببعض، وقد ابقى الدهر على ثلاثة او اربعة مداميك من جدرانها.

قيل لنا ان الارض التي نطأها هي الارض البكر. فاذا كان هذا التعبير الاثري ينحصر في الارض التي لم يطأها انسان، كالارض التي اكتشفت في العراق، او في سورية الشمالية، وهي تحت آخر طبقة من طبقات التاريخ، فلا يصح ان تدعى ارض المدينة، مهما كان قدمها، بالارض البكر.

لقد كانت جبيل مدفونة تحت اثني عشر متراً من التراب والحجارة. يثبت ذلك مستوى ارض القلعة الصليبية، القائمة على التل الى جانبها الشمالي.

---

(١) بلسامين (رب السماوات) ابل (الاله الواحد) ايليون (الاعلى) الخ فصارت الصفة اسماً لاله جديد، فتعددت الآلهة. مثال ذلك في زماننا تعدد نعوت السيدات عند النصارى الكاثوليك للسيدة الواحدة مريم العذراء، فهناك سيدة الغابة، وسيدة الجوزة، وسيدة الحبل بلا دنس، وسيدة الوردية الخ – تعددت الاسماء والخرافة واحدة.

وقد اكتشف الأثريون سور المدينة، وما تبقى من علوه يتراوح بين الاربعة والخمسة امتار. هو مبني، مثل البيوت، بالحجارة الصغيرة غير المنحوتة، الا القسم العالي منه المضاف اليه في عهد حديث هو الاغلب عهد الرومان. ومن بابي السور يمتد درجان، الاول من جهة البر نازلاً، والثاني صاعداً الى المدينة من شاطىء البحر.

لفت الامير موريس نظرنا الى لون الحجارة الاسود في البيوت وفي قسم من السور، وهي كلها كلسية. فاما ان تكون بيضاء، واما أن تصير في طويل الازمان، دكناء. اما هذا اللون الاسود فهو اثر الحريق. فقد اشعلت في المدينة نار الثورة في القرن الالفين، على اثر ثورة اجتماعية اقتصادية حدثت في مصر، فنهض الجبيليون على حكامهم وكهانهم، يحذون حذو المصريين.

ولكن مصر في ذلك الزمان، اي في مطلع الدولة الثانية عشرة، كانت آمنة مطمئنة، يسود فيها السلام، واليسر والفلاح. فقد كان النظام الاقطاعي سائداً في تلك الايام، هو النظام الذي وضعه الفرعون امنحوطيب الاول وعمّمهُ في مصر. قال العلامة بريستيد في كلامه على الامراء الاقطاعيين: «كانوا يعلّمون عمالهم الصناعات والفنون، ويشرفون هم على الاعمال، فغدا ذلك العهد عهداً عمرانياً لم يسبق له مثيل في البلاد.»

ان الثورة التي اشار اليها المدير هي في الاغلب ثورة الفرعون امنحو طيب الرابع الملقب بإخناطون. فما الصلة بينها وبين ما حدث في جبيل؟

الجواب على هذا السؤال يشتمل على بيان الصلة كذلك بين البلادين. وهذا ما يهمنا الآن من الموضوع. اني اذن ملخصه لصفحات من التاريخ. في عهد الامبراطورية الاول (١٥٨٠ — ١٧٣٥ ق. م.) كانت الممالك الاسيوية، من اورشليم الى قرقميش، ومن سواحل فينيقية الى وادي الفرات خاضعة للفراعنة. فكان لمصر في كل مملكة او امارة وكيل، او ما

نسميه اليوم المقيم العام، او النائب العام، او المندوب السامي.

وقد كان لذلك المندوب السامي ما لمندوب هذا الزمان من السلطة التي تكاد تكون مطلقة، ومن السياسة المقرونة بها. فيجامل الملك او الامير واهل البلاد في كل ما يتعلق بالعادات والتقاليد الاجتماعية والدينية، ويشرف على الشؤون السياسية والاقتصادية، فيصون فيها مصالح صاحب الجلالة الفرعون. واهم تلك المصالح المال المفروض سنوياً على كل ملك او امير، مع مراقبة شؤونه الخارجية وضبطها، فلا يفاوض او يعاهد احداً من الملوك دون استشارة الفرعون واذنه.

وقد بلغت هذه السيطرة اوجها في الدولة الثامنة عشرة، في عهد ططموس الثالث، فدخلت بعده في دور الانحطاط حتى عهد اخناطون، فاوشكت في ايامه ان تضمحل. والسبب في ذلك هو ان اخناطون، ذلك الملك الصوفي، روح الاله اطون وكاهنه الاكبر، كان منشغلاً عن شؤون الدولة الخارجية بثورته الدينية على الآلهة والكهان. فاضطربت العلاقات بين مصر والملوك الخاضعة لسلطتها، وكان اول من اغتنم فرصة الاستقلال والتوسع عزيرو ملك الحثيين، صاحب أموري، فخرج بجيوشه غازياً فاتحا. زحف من الشمال على البلاد السورية، سهلها وساحلها، فاكتسح مدنها حتى صور وصيدا، فقلب امراؤها ظهر المجن لفرعون، واستسلموا لذلك الحثي.

وعندما احتل البلاد التي هي اليوم بلاد العلويين، ووصل الى سميرا، تلك البلدة التي كانت قائمة في السهل، بين طرابلوس وطرسوس، شمالا من نهر الكبير، خاف امير جبيل ريب عَدِي على امارته، فكتب الى الفرعون مستنجداً، فما جاوب الفرعون على كتابه. ولما سقطت سميرا في حوزة عزيرو، وذُبح المندوب المصري فيها، صرخ ريب عدّي صرخته الثانية، فالثالثة مستغيثاً، فذهبت صرخاته ادراج الرياح. لقد كان اخناطون في غمرات ثورته يجاهد الآلهة القديمة وكهانها، ويشيّد المعابد للآله الجديد، الآله الواحد،

آله الشمس أطون، المكوَّن هو اخناطون من نورها. تلك الثورة الهت الرجل اخناطون وأضعفت اخناطون الملك الحاكم.

وعندما رفض ريب عَدّي، بالرغم من ذلك، ان يخضع لعزيرو، كما فعل امراء المدن الفينيقية الاخرى، ارسل ذلك الحثي عليه بقبائل من بدو الحبيري، وكان الجبيليون قد تمردوا على اميرهم لموقفه السياسي، فمُنيت المدينة بالغزو والفتن. ومع ان ريب عدي كان شيخاً مسناً مريضاً، فما لان ولا وهن.

ضرب عزيرو حصاراً على جبيل دام ثلاث سنوات، صمد فيها الامير الجبيلي، بالرغم عما كان يقاسيه من الفتن ومن وطأة السنين والداء. وهل يستطيع غيره في مثل نكباته ان يقاوم اكثر من ثلاث سنوات؟ جاهد وما استسلم، ولا فر هارباً الى بيروت. بل كان سفره اليها من باب الجهاد. راح يستنجد المرة الثالثة او الرابعة [1] ملك مصر بواسطة مندوبه فيها.

— أغثنا، أغثنا، يا ملك الارض. نمد يدينا الى رجليك. الحثيون نهبوا بلادنا، والحبيريون مرابطون تحت اسوارنا...

لقد أسمعت، يا عَدّي، لوكان الفرعون طُحطُموس من تنادي. ولكن إخناطون، وهو نفسه على شفير الهوة، لا يسمع ولا يجيب.

عاد ريب عدي من بيروت يحمل اوزار الخيبة والمرض والشيخوخة، والاخلاص لفرعون، فعندما وصل الى جبيل لم يؤذن له بالدخول الى المدينة، وعلم فوق ذلك ان اخاه اغتصب الامارة، وان ابناءه رهائن بيد عزيرو. سلمهم اليه المغتصب الخائن اخوه.

وصلنا الى ظلمة في تلك الحوادث ما انارها المؤرخ. فقد استعاد عَدّي

(١) في رسائل ملوك بابل وسوريه وفلسطين وفنيقيه الى ملوك مصر، تلك الرسائل المكتوبة على الطوب التي اكتشفت سنة ١٨٨٣ في تل العمارنه، ستون رسالة من هذا الامير السيء الطالع امير جبيل.

زمام الامارة، ولا يقول المؤرخ كيف استعادها. على أنه ثبت في اخلاصه لملك مصر، بالرغم عن الحاح زوجته واسرته في مسالمة الحثيين. ان في امره العجب العُجاب. ان في الاخلاص للعاجز البعيد عنك، مع العداء للقوي الشاهر سيفه في وجهك، والعلم أن هلاكك في اخلاصك — ان في ذلك سراً سياسياً، او شيئاً هو ابن المرض والشيخوخة، او ان فيه مظهراً من مظاهر الاخلاق الشريفة العالية. فهل نحن امام المثل الاعلى في الولاء والاخلاص متجسداً في ذلك الفينيقي، ام المثل العادي في ذلك الشي. الذي يدعى الخرف؟ لا نستطيع، ولا نريد ان نحكم في الامر. حسبنا المأساة نكملها. فقد اعاد عزيرو الكرة على جبيل بعيد عودة الامير الى الحكم، ففتحها، وأعمل فيها السيف والنار، فقتل الامير عدي مع من قتلوا من اهلها.

هذه الكارثة وقعت في آخر عهد الفرعون اخناطون، اي بعد نحو من اربعمئة سنة من عهد الملك إبْشمُو ابي، وقبل عهد الملك احيرام بنحو من خمس وسبعين سنة. ففي عهد احيرام (١٣٠٠ ق. م.) كان الفرعون رعمسيس الثاني قد جدد صلات مصر بجبيل، وعززها بالولاء لمليكها، والمجاملة لاهلها، من ذلك انه رقّم المعبد فيها، واهدى احيرام الهدايا الثمينة[1].

احيرام — نُبش قبره وأُخرج منه اكبر واجمل النواويس الجبيلية. فقد نُقش عليه من الجهات الاربع رسوم وكتابات رمزية وتاريخية. فالأُسد التي يرتكز الناووس عليها هي في فنها حثيه، والمشاهد التي تزين جوانب الناووس هي مصرية. هوذا مغزى السياسة الجبيلية الجديدة. فقد كان

---

(١) ومما يدل على ان نوعاً من السيادة المصرية على فينيقية كان سابقاً لعهد الامير ريب عدي كتاب من هذا الامير الى الفرعون يقول فيه:

« ان الملك كان سابقاً يرسل الى اجدادي دراهم وغير ذلك مما كانوا يحتاجون اليه. وكان يسيّر لهم جنودا. اما انا فارسلت الى سيدي الملك ساعياً ليساعدني بيمئة من الجند فلم يرسل الي احدا.»

المصريون والحثيون يتنافسون في الاستيلاء على البلاد الفينيقية، فوقعت واقعة قدش بين الفريقين، فاتخذت جبيل خطة الحياد، ونصر الاموريون رعمسيس، فكُتب النصر، مع ذلك، للحثيين.

وقد اكتشف الاثريون في مدفن الملوك، وراء السور، غير ناووس احيرام، منها ناوسا الملكين الاب والابن ابي شمو وإبشموابي، فوجدوا فيها الصوالح الفضية والشبهية، والسكاكين والملاعق الذهبية، والتماثيل والحليّ والتعاويذ، وغيرها من التحف المعروضة في ثلاثة صناديق من زجاج في المتحف اللبناني.

هذه هي توابيت الملوك، وفيها ما كانوا يعتقدون انه من حاجات الرحلة في الظلمات الابدية. وجدت في حُفرها التي حفرت منذ آلاف من السنين، احد عشر متراً تحت الارض. من تلك التوابيت ما هو من الصخر الصلد، ومنها ما هو من الخشب المزين بقطع من القيشاني الملون.

اما توابيت السواد من الناس فهي جرار من الفخار كبيرة وصغيرة، كان يطوى الميت فيها طيّاً، كما يكون الطفل قبيل الولادة في بطن امه. وقد وُجد في الجرار ايضاً كثير من الاواني الخزفية والمعدنية، ومن السلاح والتحف والتعاويذ الفضية والذهبية. لقد كانت العقيدة الدينية واحدة تستعبد الملوك والصعاليك على السواء.

ومن اغرب ما شاهدنا في مدفن الملوك نفق بين قبريّ الشمُوَّين الاب والابن. فقد شاء الاب ان يُحفَر هذا النفق من قبره الى قبر ابنه بعده لغرض في نفسه. أَلِغرض روحاني، ام لغرض من اغراض الحياة الدنيا؟ ما كان الفينيقيون كالمصريين في البيان والشرح كتابة عن اغراضهم وعقائدهم بعد الموت. فكانت تدفن العقائد الفينيقية مع اصحابها، برموزها واسرارها، وتختم بخاتم الصمت الابدي.

على ان للاثريين آراء في هذه الاسرار، وهي وان تكهنوا، جديرة

لطرافتها بالذكر والتدوين. قال احدهم ان الغرض من حفر ذلك النفق انما هو روحي، في نظر الملك الاب، فتتصل الروحان الواحدة بالاخرى وتتزاوران. وقال آخر، وهذا القول على ما اظن اصح، ان الغرض من النفق محض مادي. فقد شاء الاب ان يكسب مما سيحمله ابنه من القرابين، ويشارك فيما سيجيء به بعده من الطعام والشراب والعطور.

ايه، ابناء الظلمات. كأين من خرافة تفترشون، وتلبسون، وتأكلون، وتشربون، وتنكحون او كأين من خيبة، ان صدقت الانبياء بعدكم، ستقاسون مضضها، وتغصون بحلوها ومُرّها.

فلو كان لكم ان تشاهدوا الخلود في الطبيعة، يجدده الربيع كل عام، لو كان لكم ان تضمخوا الارواح بطيب الرياحين والازاهير التي تزين مدينتكم، وتفرش بساط الحب والحنان على قبوركم، لاستغنيتم في الحياة وفي الممات عن ترهات الآلهة، وخرافات الكهان.

ولو سُئلت انا ما اجمل ما شاهدت في جبيل الاثريين، لقلت: الربيع في مجده. واجمل ما في ذلك الربيع تينة نضرة اختصت بها الطبيعة قبر ابي شمو. هناك، حيث كان راقداً في ناووسه، هناك الاثر الحي، الاثر الانور، هناك اجمل الآثار. فقد حملت الرياح الى تلك الحفرة بذرة من بساتين جبيل، فوقتها جوانبُ القبر القرّ والصقيع، وسيقتْ اليها الغيمة الهامية، فنبتت تلك البذرة ونشأت تينة غضة نضرة مُخضلة، ترفع اغصانها الى ما فوق القبر لتستنشق الهواء في النهار، لتشم النسيم في ضوء القمر، لترتشف نور الشمس وطيب الليالي.

الخلود في الطبيعة! وانك لتشاهد رموزه منورة في تلك المدينة الدارسة وفي مدافن ملوكها يحييك في المعبد الشقيق والخندقوق، ويبهجك المنثور والاقحوان حيثما وقفت، وحيثما وجهت النظر.

ازاهير الاقحوان الصفراء التي يسميها الاهالي الباسوم والفرنجة مرغريت

وازاهير المنثور الارجوانية، انها لفي كل مكان، وانها في كل مكان لغزيرة بهيجة على حافات القبور، بين خرائب البيوت، عند أُسكُفةِ باب المعبد، في ظلال السور وعليه — في كل مكان، وبنضارة لا يصفها بيان.

الباسوم ينثر الذهب بين قبور من احبوا الذهب حباً جماً.

والمنثور يفرش الطنافس الارجوانية لارواح من اكتشفوا الارجوان.

رسول الاله عمون

قلت في الفصل السابق ان لسور المدينة باباً على شاطىء البحر ودرجاً يؤدي الى الرابية، حيث كان القصر الملكي. هناك يقف الدليل ليقص على الزائر قصة الرسول الذي جاء يطلب من ملك جبيل خشباً لملك مصر. وبما انه جاء صفر اليدين، يدعي ان المال سُلب منه في الطريق، رفض الملك طلبه قائلاً: لا مال، لاخشب. فقال الرسول: ساكتب الى جلالة الفرعون ليرسل الي المال، وانتظر الجواب. فقال له الملك، وهو يريه من نافذة القصر مقبرة جبيل: لقد جاء غيرك من اخوانك المصريين يطلبون خشباً، ولاذهب معهم ولا فضة – مثلك، ايها الغريب. فكتبوا الى بلادهم يطلبون المال، وباتوا ينتظرون الجواب، فماتوا وهم ينتظرون، فدفناهم هناك في تلك المقبرة.

هذي هي القصة التي يقصها الدليل، وفيها تتمثل سجية الفينيقي الاولى، سجيته البارزة، اي وُظوبه على اصول التجارة، وبالاحرى حبه للمال. على انَّ في القصة، وهي تاريخية، اشياء فاتت الدليل، وفيها، كما يقصها، بعض الغموض. فمن ذا الذي ارسل الرسول؟ ولماذا لم يُصحبه المال، او البدل بضاعةً، على الطريقة التجارية في تلك الايام؟ وماذا جرى بعد ان كتب ولبث ينتظر؟ هل جاءه المال فظفر بالخشب؟ ام هل حل به ما حلَّ باخوانه، فدُفن الى جنبهم في تلك المقبرة؟ ومن هم اولئك المصريون المقبورون في جبيل؟

قد استنطقنا التاريخ، فأحطنا علماً بالشؤون السياسية والتجارية في مصر وفينيقية، وبالصلات الولائية وغير الولائية بين البلدين في ذلك الزمان، فبدا ما يبرر مجيء الرسول صفر اليدين، يطلب خشب الارز مجاناً لوجه الاله

عمون، ويبدو كذلك موقف ملك جبيل التجاري، وَوُظوبه على الاصول التجارية الفينيقية التي لا تعرف المهاودة، مهما كان من مشيئة عمون وفرعون – الا اذا أيد تلك المشيئة جيشٌ واسطول!

واين كان جيش مصر، واسطول مصر، في تلك الايام؟ ليست القصة، على ما يظهر، قصة خشب، بل قصة دولة ومستعمرات. وان فيها كذلك من طريف الاخبار لاحوال مصر وفينيقية، السياسية والدينية، ما يُدنيها من عقلية زماننا، بل يجعلها مستساغة في كل زمان ومكان. سنقصها اذن بما تستحقه من التفصيل والتحقيق.

في ذلك الزمان كان الجبيليون قد جددوا صلاتهم الحسنة بفراعنة مصر، كما جددوا بناء المدينة التي دمرتها قبائل الحبهري، وعساكر عزيرو الحثيّ، في عهد الملك ريب عدّي، – راجع الفصل السابق.

وكان الفرعون الكبير، رعمسيس الثاني، قد قطع لأمراء جبيل – كما يُدعون في تاريخ مصر – عهداً في الحماية عزّزه بالعمل، فاطمأنت جبيل الجديدة، ورحبت كذلك بالآله المصري عمون، الذي شيّد له الفرعون معبداً فيها.

وعادت السفن الجبيلية تمخر البحار على سالف عهدها، واستعادت التجارة الجبيلية سابق خيرها وازدهارها، فحمد الامير ورعيته الآله الغريب في مدينتهم حمدهم للآله رِشف وللربة عشتر، وحمل الملاحون والتجار صورهم جميعاً في اسفارهم. وقدموا لهم جميعاً القرابين.

لِعمون وفرعون العز والسمو! وقد شمل العز والاقبال الآلهة والناس في جبيل طوال عهد رعمسيس الثاني، ذلك العهد السعيد المديد، اي سبعا وستين سنة، والى ما بعده بنحو من ربع قرن، حتى عهد الفوضى في تلك الحقبة من تاريخ مصر. ذلك العهد الذي طغت فيه الاشراف والكهان، وتطاحنت الاحزاب، واشتد نفوذ الاجانب في بلاط الملك، فسقط الفرعون

سطي الثاني بعد حكم دام سنتين، و« تَفرَعنَ » بعده احد السوريين الذين كانوا سائدين في البلاط، فتفاقت الشرور في عهده الذي استمر خمس سنوات وضعفت شوكة مصر في الخارج بل كادت تضمحل، لولم يتداركها رعمسيس الثالث.

فقد اصلح هذا الفرعون بعض ما افسده ذلك السوري المختلس، وحاول ان يوطد السيادة المصرية في الخارج فما توفق كل التوفيق. عاد «ملوك الشرق» الحثيون والفينيقيون الى سابق عادتهم، يصطنعون الطاعة والاخلاص، فيدفعون الجزية السنوية، ويترقبون طالع الفراعنة في وادي النيل.

وما كان اسرع ذلك الطالع بالهبوط. فقد خلف رعمسيس الثالث ثمانية من الاسرة الرعمسنية، توارثوا العرش الواحد بعد الآخر، فكان كل منهم يرث من السيادة والعز اقل من سلفه، حتى امسى الارث اثراً بعد عين.

في هذه الجهة على، ما يظهر، ارسل الفرعون وفداً من قبله الى الشرق — لجنة ملكية! — لاستطلاع شؤون امرائه، وتوطيد الصلات بينهم وبين مصر، وعلى الاخص لجمع ما تأخر من اموال الجزية السنوية.

نحن الآن في عهد رعمسيس الثاني عشر (١١٢٣ — ١١٤٢) نشهد اجتماعاً في القصر للبحث في امر اللجنة التي انقطعت منذ زمن اخبارها.

وقد كانت اللجنة يومئذ في جبيل بضيافة اميرها — وبحراسة ثلة من جنوده ! شرفتم ايها الاعيان بلدنا، نورتم قصورنا. ولكنهم أنزلوا في قصر واحد، موصد الابواب. ومرت السنة الاولى، والثانية، والثالثة وهم في ذلك القصر أسراء.

وكان الفرعون قد شُغل عنهم بما تجدد في بلاده من عوامل الفساد والخراب. انقسمت الدولة في السنة الخامسة من عهد رعمسيس الثالث عشر، وهو الاخير من هذه الاسرة، فقام في الشمال احد اخصامه نَصُو بَنعَبدَد يدعي الملك. وما لبث ان « تفرعن » فاستقل بالحكم فيما يعرف اليوم

بالوجه البحري.

اما الفرعون الاصيل فقد نقل عرشه الى طيبت، وجمع الكهان ليستشيرهم في امر الملك، فأجمعوا على ان حالة البلاد ناشئة عن حالة الآلهة: — ان الآلهة، يا نور الارض، ناقمة على مصر!

وهوذا الكاهن الاكبر للآله عمون، يشكو الفقر والمذلة وليس لعمون العظيم سفينة تليق به. ولا لغيره من الآلهة. ردد الكهان الآخرون الشكوى: وكيف تتفقد الالهة رعاياها في وادي النيل؟ اننا، يا نور الارض، لفي حاجة الى خشب الارز لبناء السفن القدسية.

— ارسلوا الى جبيل مَن يجلب الخشب.

— والمال، يا ملك الملوك

— المال؟ ليذكر امير جبيل تقاليد اجداده. وليذكر انه لم يدفع الجزية منذ سنوات عديدة.

وقد فوض الفرعون هُرْهُرَ الكاهن الاكبر ليرسل رسولاً الى الامير لجلب الخشب.

فانتدب هُرهر للامر رجلاً من رجال البلاط يُدعى وِنعمون.

فطلب ونعمون المال. فاجابه الكاهن قائلاً: يا وِنعمون، ان لالهنا هيكلاً في جبيل، ومال الهيكل لرب الهيكل. ورب الهيكل عندنا في مصر. ومنذ سنين لم يصله شيء من اموال هيكله بجبيل.

فقال ونعمون: لست من رجال الهيكل، يا صاحب الغبطة، لاجبي امواله. انا من رجال البلاط.

فقال هُرهر: وعلى الامير من الجزية للفرعون مال كثير لم يدفعه بعد

فقال ونعمون: الامير الذي لا يدفع ما عليه متخيراً، لا يدفع مكرهاً الا اذا شرفته بكتيبة من الجيش. انا اعرف امراء الشرق.

— توكل على عمون، يا ونعمون. وهذه صورة الآله — عمون السبيل،

مانح الحياة والعافية – احملها الى امير جبيل، فتدخل على قلبه الورع والتقوى، فيذكر تقاليد اجداده، ويعطيك الخشب من اجل عمون، له المجد .

وقد أعطى الكاهن الرسول، شيئاً من المال يستعين به في سفره، وأصحبه كتاباً الى ذلك « المتفرعن » في الوجه البحري، صاحب الاسم الفخم الطويل، ليمهد له السفر الى جبيل .

وصل الرسول بسلام الى مقر تَصُوبَنْعَنْبَدَ، وأبحر من هناك بسلام . ولكنه عرج في طريقه على بلدة بفلسطين، فسطا عليه اللصوص فيها وسلبوا ماله . فراح يستأنف السفر، وليس معه غير صورة الآله عمون، فوصل الى جبيل يصحبه آله « الحياة والعافية » .

وفي ذلك الزمان كان زكر بعل امير جبيل – زكر بعل الملك والكاهن الاكبر لِرِشف البعل . وكان اهل جبيل قد بدأوا « يقاطعون » الآله المصري، فدخل رسوله المدينة دخول الغريب المرغوب عنه . ما رحب احد به، ولا منحه الملك شرف المثول بين يديه .

يا لِذِلة رسول عمون ! ولكن الصبر من شيمة الرسل . ولا بد ان يفعل الآله فعله بقلب زكر بعل فيدخل عليه، وان ابطأ، الورع والتقوى، فيأذن على الاقل بالمقابلة .

وكان قلب زكر بعل كقلب فرعون المذكور في التوراة . فقال غاضباً : لا اقابل المصري . لا اقابله . ليرجع الى بلاده .

وفي ذلك الزمان كان في جبيل رجل صالح يخلص العبادة للاله عمون . فجاء الامير ناصحاً، بل جاءه منذراً، فخاطبه قائلاً : قابله واصرفه بالحسنى . قابله لوجه عمون العظيم . قابله ولا تستنزل عليك نقمة ربه الذي لا يزال من ارباب هذه المدينة .

وكان لكلام الرجل الصالح أثرٌ مَتِينٌ في قلب زكر بعل، فاذن بالمقابلة .

جاء ونعمون الى القلعة، حيث كان الملك جالساً بالقرب من نافذة تشرف على البحر . جلس هناك جلسة ملكية، وجهه للباب، وظهره للبحر : انا زكر بعل ملك جبيل والكاهن الاكبر لرشف البعل، ادير بظهري للبحر. فهل الفرعون اعظم من البحر ؟ وهل الاله عمون اعظم من البحر ؟

دخل الرسول فسلم سلامه المألوف : المجد والعز لعمون .

فلم يرد الملك السلام عليه . بل سأله قائلا : كم من الزمان قضيت في السفر من مصر ؟

— خمسة اشهر ويوماً واحداً.

— ان كنت رسول عمون فاين خطه ؟ الا تحمل الينا خطاً منه ؟

— أخذه نَصُو بَنْعَبْدَد .

— أتستهين بخط عمون الينا، فتسلمه الى غيرنا ؟ . . .

ثم قال وهو يتميز غيظاً : وماذا كنت تفعل لو هاج البحر عليك وحطَّم مركبك ؟ أتستعين بعمون وقد أهنته هذه الاهانة ؟ وهل يعين عمون من لا يحترم خطه ؟ نحن لا نلوم نصو بنعبدد، ولا يهمنا ما بينه وبين الفرعون. هو يشتري منا، ويدفع ثمن ما يشتريه. في الميناء اليوم عشرون مركباً للتجارة بيننا وبينه . وانت ماذا جئت تطلب منا ؟

— جئت اطلب خشباً لسفينة عمون، ملك الآلهة. والدك اعطانا خشباً وانت فاعل ما فعل والدك.

— انا افعل ما فعل والدي، اذا انت فعلت ما فعله رسول فرعون قبلك . اني اذكر ذلك. فقد جاء يومئذ رسول فرعون بستة مراكب مشحونة بالبضائع من صناعات مصر ومحصولاتها. فافرغت في مخازننا قبل ان انزل الخشب اليها. اتريد البرهان ؟

أمر زكر بعل الكاتب بان يحضر دفاتره، فجاء بها وقرأ ما كان مسجلاً فيها من الحسابات بين اجداد زكر بعل وفراعنة مصر. قرأ على

مسمع ونعمون: الف قطعة من الفضة. الفا قطعة من النحاس. خمسمئة قطعة من الذهب . . .

فقطع الملك على الكاتب قراءته قائلاً: لو كانت ارزاقي لحاكم مصر، وكنت انا خادماً له لقطعت لك الخشب بيدي. واذكر ايها المصري، ان والدي لم يدفع الجزية لفرعون. ولا انا ادفع الجزية. لست خادمك ولا خادم من ارسلك. انا صاحب المال. اذا ناديت لبنان سمعت الغابات ندائي، وجاء الخشب الى شاطئ البحر. وما الذي جئت انت به؟ اين مراكبك تحمل الخشب؟ اين حبالك توثقه فلا يسقط في البحر اذا هاج البحر عليك؟ بئس الاسفار اسفارك. اتجيئنا صفر اليدين حاملاً الينا صورة عمون؟ نحن لا ننكر عظمة الآله ونعمته. ولكننا نقول انه اله عادل محب العدل.

ونعمون: ليس على وجه اليم مركب لا يملكه ملك الآلهة. ان له البحار وما عليها، وان له لبنان وما فيه. كل شجرة في لبنان لعمون، ولمراكب عمون القدسية. هكذا قال لكاهنه الاكبر، سيدي هرهر، وهكذا يقول هرهرك انت. ويقدم لك صورة عمون القدسية. فماذا فعلت بها وبحاملها رسوله اليك؟ رددتني خائباً. وما باليت ان انتظرت في بلدك عشرين يوماً قبل ان اذنت بالمقابلة. وجئتِ بعد ذلك تساوم في خشب لبنان، وتقول ان لبنان لك، وان ملوك مصر ارسلوا ذهباً وفضة الى اجدادك. اولئك رسل الفرعون، وانا رسول الآله ملك الآلهة، ومانح الحياة والعافية.

— آمنا، يامصري، بعمون. وبعمون السبيل. وحمدناه ونحمده ابداً على نعمائه. ولكننا نقول: اذا كنت انت مؤمناً به مثلنا، فلا تسخرنا باسمه. وكن في المعاملة معنا كصديقنا نصو بنعبدد. اتريد ان تكتب الى من ارسلك؟ اكتب.

وكان ان كتب ونعمون يطلب بضاعة ومالا لشراء الخشب. فجاءه

بعد ثلاثة اشهر بضعة مراكب مشحونة بالمنسوجات، وورق البردى، وجلود الجواميس، وبقطع من الذهب والفضة والنحاس. فاستعملها عمال زكربعل، ووضعوها في مخازنه، ثم سلموا ونعمون خشب الارز.

ويوم جاء يستأذن بالرحيل قال له زكربعل: انت في حظك احسن ممن تقدمك من اخوانك (اي اعضاء الوفد المصري الذين أسروا وماتوا في جبيل) هم مدفونون في تلك المقبرة (دلّ عليها من نافذة القصر) فهل تريد ان تزور قبورهم؟

فاجاب ونعمون ان حسبه زيارة الامير.

وكان ان جماعة الثِكِل (اي الفلسطينيين بلغة ذلك الزمان) اولئك الذين سلبوا ونعمون ماله، علموا بما جاء جبيل من اجله، فتتبعوه باحد عشر مركباً، ولبثوا يترقبونه في عرض البحر.

وفي ذلك اليوم، يوم اقلع ونعمون من ميناء جبيل، احاطت مراكب الثِكل بمراكبه، فاستولت عليها، فنجا هو بمركبه، وعاد يشكو امره الى زكربعل. فغضب الامير غضبة فينيقية، وارسل اسطولاً من سفنه على اولئك القرصان. وقد كان من احسانه، فوق ما كان من عدله، انه ارسل الى ونعمون في محنته زاداً وخمراً، و«دعشوقة» مصرية تخفف من بلواه.

وكان ان اسطول الملك زكربعل ادرك مراكب الثِكِل، فاستولى عليها، وساقها الى الميناء الامين. فسجن الامير القرصان ليؤمن البحر لونعمون.

ولكن البحر غير قرصانه. وهو، وان ادار الملك الفينيقي بظهره له، يعصف عواصفه ولا يبالي. ويكمن ويغدر، ويفتك فتكه الذريع. فبعد ان اقلع ونعمون للمرة الثانية من ميناء جبيل، واختفت عن نظره شواطىء فينيقية، هجم البحر عليه هجمة رهيبة، قذفت به الى جزيرة قبرص.

رسول الآله العظيم، عمون ربِ البحار! فقد نجا من البحر كما نجا من قرصانه، والقى مراسيه في مياه الجزيرة. ولكن كيد الزمان لزمه كالظل.

فما كاد يطأ ارض ألاسا (قبرص) حتى هاج عليه رعاع اهلها، ففر منهم هارباً الى قصر الملكة حطيبا، فادركوه هناك وهم يصيحون، ويتوعدونه بالذبح .

وحدث ان الملكة كانت عائدة الى القصر، فاستغاث ونعمون بها ، فنادت اللغوي في حاشيتها، وامرته بان يفك لها اللغاز الغريب. فقال ونعمون يخاطب الترجمان :

قل لمولاتي ان شهرتها جابت البحار والامصار، فوصلت الى المقر الاقدس للاله عمون. فعلمنا وتيقنا ان المظالم موجودة في كل البلدان الا في ألاسا .

فضحكت الملكة حطيبا، ثم تكلمت: ماذا تقول، ايها المصري ؟ ان المظالم لفي هذا البلد — كل يوم مظلمة.

فضرب ونعمون على وتر آخر: لقد هاج البحر علي، وساقتني الرياح الى مدينتك، اليك ايتها الملكة الذائعة الصيت عقلاً وجمالاً ، اليك ايتها الجالسة على عرش الرحمة، فهل يؤذى اللاجىء اليك ؟

حمحمت الانوثة في الملكة حطيباً، فطيبت خاطر الرسول، وارسلته ورجاله، بحراسة شرطي، الى المضيف.

« شكراً لعمون، وللملكة ألاسا ! فقد نمنا تلك الليلة آمنين مطمئنين.»

هي الكلمة التي يختم بها ونَعمون تقريره الى حُرحُر الكاهن في طيبت المحروسة . فلا ندري ماذا جرى له ولمراكبه المحملة خشباً في الفجوة التي كانت بين ليلة الاطمئنان، وظلمات الزمان.

فينيقية[1] والفراعنة

في منتصف القرن الواحد والعشرين من العهد الاقدم كانت البلاد الفينيقية المسالمة المطمئنة – نظن خيراً اذا جهلنا الخبر – كانت هذه البلاد محاطة بشعوب همجية حربية. وبدولتين استعماريتين هما بابل ومصر. فيوم كان حمورابي، البابلي الاكبر (٢٠٦٧ – ٢٠٢٥) يشن الغارات على سومر وعيلام ليدخلها في حوزته، والفرعون منطو حطيب الرابع كبير الاسرة الحادية عشرة، ومعاصر حمورابي، يسير الجنود على بلاد النوبة ليبسط سيادة طيبت عليها، كان الفينيقيون منكبين على الاعمال السلمية، الصناعية والتجارية، تسير قوافلهم شرقاً الى ما وراء الفرات، وتجري مراكبهم الى الجزر والثغور الدانية والنائية في البحر المتوسط.

كان الملاح الفينيقي سيد البحر في مهارته ومغامراته، والتاجر الفينيقي امير التجار في حنكته واقدامه، والصانع الفينيقي كبير الصناع في الحذق والذوق والاجتهاد. فتأسست على السواحل المدن الفينيقية التي عززت الشراع، ورفعت التجارة واسبابها، والصناعة واربابها، الى المنزلة العليا في الحياة.

---

(١) جاء في أثر من الآثار المصرية، المكتوب باللغتين الهيروغليفية واليونانية، ان البلاد الفينيقية كانت تدعى قديماً كفت (keft) وهي في اللسان الفينيقي شجرة النخل، لكثرة النخيل فيها، وكان المصريون يسمون البلاد السورية والفينيقية كلها زهي او زخي (Zaki) وكان الفلسطينيون يعرفون بالثِكِل (Thekel) وهو اسم قبيلة من القبائل التي نزحت الى فلسطين من جزيرة كريت. فما الصلة بين هذه الاسماء القديمة والاسماء المعروفة اليوم ! لا ندري. وكل ما يقال في تفسيرها وتعليلها هو من باب التكهن. انها لمن احاجي التاريخ.

وما كان الحكام والكهان ليستنكفوا من تعاطي التجارة. بل كانوا في الغالب من اربابها، يتنافسون في الثراء، وفي امتلاك الاراضي والماشية والعبيد. فنشأت فيهم جميعاً صفات الحرص والطمع — والدماثة، يدمثون للمكسب الخُلق والسبيل. وكانت المصلحة الخاصة تسود لذلك المصلحة العامة، فيتزعون الى الاستقلال بعضهم عن بعض، ويستأثر كلٌ بما ملكت يداه.

ومن هذه الصفات الشخصية نشأت الصفات المدنية. فكانت المدن مثل الافراد يستقل بعضها عن بعض، وتتبارى كلها في العمران والجاه، وفي الترف والرفاه، «شعبٌ محبٌ للسلام والراحة والرفاه» وهي كلها من طبائع الاثراء. وكانت تشيَّد حول تلك المدن الاسوار، لتقيها صولات الصائلين، واغارات المتوحشين من الشعوب.

في هذه المدن كان الحكام يدعون بالملوك، وكانوا فوق ذلك ينتسبون الى الآلهة، فيشركونها في حكم المدينة وملحقاتها من القرى، ويشاركون في الحفلات التي تقام لها والقرابين التي تقدم على مذابحها، كما يشاركون كهانها بما تدره المعابد عليهم من المال. بل كان الملك، في بعض الاحايين، يجمع في شخصه منصبي الحاكم والكاهن الاكبر. هذه المدن كانت تحكي انتفاخاً صورة الممالك. هي هي التي نشأت من نزعات الاثرة والاستقلال المحلي والفردي. هي هي «الممالك» الحرة المستقبلة في ايام السلم والاطمئنان، والمساومة الخافقة في ايام الخطر والحروب.

كذلك نشأت «الممالك» الفينيقية على ساحل البحر المتوسط، من جبل الكرمل الى ما يعرف اليوم بخليج الاسكندرونه. في هذه المساحة من الارض التي لا تتجاوز ثلاثمائة ميل طولا وعشرة أميال في العرض اسس الفينيقيون ست ممالك، وست مدن كبيرة، هي صور وصيدا وبيروت وجبيل وارواد وسميرا.

وقد اختاروا السواحل البحرية لانهم لم يعنوا بالفلاحة والزراعة، وفضلوا من السواحل الاماكن التي تصلح للمرافئ، ومصانع السفن، عند الخلجان غالباً، والرؤوس الهرية. اما اذا كان الاختيار القديم يبدو في هذه الايام اقرب الى الخطأ منه الى الصواب، لما نراه من مسارح الرياح حول مدينة كصور او جبيل، فان تفضيل الفينيقيين لها على اماكن آمنة، كخليج الاسكندرونه مثلاً، او ذرا شمّه، انما هو الحق من وجهة نظرهم الخاصة. فان رواسي لبنان، وراء ما اختاروه من الاماكن، لأحصان منيعة تحمي تلك المدن من غزوات القبائل وهجمات الشعوب الصائله، كالحثيين والبابليين والاشوريين. فلو أسست مدينة فينيقية حيث هي اليوم الاسكندرونة، وهي اجمل مركزاً، واكثر حصانة، من جهه البحر، من المدن الاخرى، لما طال عهدها. ذلك لان الجبل وراءها يتقطع وينفرج لجيوش الغزاة والفاتحين. هنالك الطريق الاقصر والاسهل من قرقيش وبابل الى ساحل البحر عند ذلك الجون العظيم. اما جبيل وصيدا وصور فان وراءها احصاناً حصينة، وبين كل حصن وحصن طريقاً جبلية الى داخل البلاد، تسهل لقوافل التجار، وتصعب على الجيوش والغزاة.

مع ذلك ما كانت هذه المدن في عوَذ من الاخطار على الدوام. فقد ادركتها يد الفاتحين الناهبة المدمّره. فكان تاريخها المعروف يسكت دهراً — دهر الامن والاطمئنان — ثم ينطق بكارثة من كوارث الزمان، تحل بجبيل او بصور، فتدمرها تدميراً. ثم يعاد بناؤها، وتجدد فيها الحياة والعمران. لو اتحدت تلك «الممالك» الفينيقية، او كانت، على الاقل، متحالفة للدفاع عن كيانها لقلّت تلك الكوارث التاريخية، فرُدّ الصائلون مدحورين من هذه السواحل الهادئة.

قال المؤرخ جورج رولنسون: «ما تأسس حلف من الولايات الفينيقية كلها مرة واحدة، حتى ولا حلف موقت. وما كان يجيء الولاية المقاومة

العدو صائل أي اسعاف من الولايات الاخرى شقيقاتها . الاعتزال على الدوام .
فالتنافس والتحاسد، والمصالح الخاصة المتضاربة، وضعف الحس القومي،
كانت كلها تحول دون توحيد الكلمة والعمل في ايام الخطر والشدة.
فكانت كل ولاية تسقط وحدها، فتتبعها الولايات الاخر، واحدة واحدة.

هي الحقيقة بعينها. فما كان اولئك الفينيقيون ليدركوا معنى التعاون
القومي، ولا مالوا يوماً الى التضامن العام الذي فيه خير الجنسية الواحدة
والوطن ولنا ان نقول ما كان هناك وطن واحد، ولا حس قومي واحد،
حتى ولا آله واحد يجمع شملهم، ويربطهم برابطة وطنية واحدة، كالمصريين
مثلاً او الاشوريين. كان لجبيل ملكها وقسم من غابات لبنان يتصرف
بخشبها كيف شاء، وشاءت مطامعه وسياسته. وكان لها الهها الخاص
يُعبد، ويقام له الحفلات، ضمن سور المدينة، وفي القرى التابعة لها. كذلك
قل في صور وصيدا وارواد وسميرا.

هي المدن المسوَّرة بالاسوار الدينية والسياسية، كما كانت مسوَّرة
بالحجارة. فما عرف ابناؤها المتحدرون من نسل واحد معنى الاخا. القومي،
ولا ادركوا مغزى الحياة الوطنية. وقل فوق ذلك انهم كانوا متخاذلين
متعادين — متعادين في بعض الاحايين، متخاذلين على الدوام.

عندما غزا عزيرو الحثي البلاد الساحلية، فاكتسح سميرا، واخضع
ارواد، استعان باهل هاتين المملكتين على ريب عَدّي ملك جبيل فاعانوه.
وبعد ان استسلم زَمريدا ملك صيدا لعزيرو عاونه، طمعاً بالغنيمة، على
ابي مِلكي ملك صور. ولما زحف الاسكندر على بلدان فينيقية، خرج
حكامها وكهانها ووجهاؤها يحملون اليه الهدايا، ويرحبون به، خلاصاً من
الفرس الذين كانوا مسيطرين على البلاد، الا صور العاصية. فضرب
الاسكندر عليها حصاراً دام سبعة اشهر. وكاد الصوريون يردونه عن
سورَي مدينتيها الهية والبحرية خائباً مدحوراً لولا الاسطول الفينيقي الذي

المجده به ملكا جبيل وقبرص.

على ان هذا الشعب السامي، النازع الى الاستقلال، بل الى الانفصال بعضه عن بعض والعزلة، شأن القبائل والشعوب في بدأتها، الطامع على خلافهم بحطام الدنيا، المسترسل الى الجاه والرفاه، يمتاز عن سواه من الشعوب الاسيوية الصغيرة بما احرزه من اسباب الصناعة والتجاره، وبما سجله له التاريخ من الاعمال الجبارة في جوب البحار، وتأسيس المستعمرات في الثغور القصية، وبما نشره من الحضارة الشرقية، البابلية المصرية الفينيقية، في البلدان الاوروبية والافريقية.

فقد عاصر هذا الشعب في اوائل عهده الحثيين والميتانيين في سورية، والعيلاميين والحوريين في ارض الرافدين. وما كنا لنعلم شيئاً عن اولئك الشعوب الصغيرة، الآرية والسامية، لولا الاعمال الاثرية التي يقوم بها الاثريون في هذا الزمان. بيد ان ما علمناه من اخبارهم لا يرفع بهم الى مستوى الفينيقيين، ولا يجعلهم من الشعوب التي اقتبست عن غيرها، ديناً او فناً او صناعة، وأضافت الى مقتبساتها شيئاً من التحسين والابداع.

فقد استقل الميتانيون [1] عن آشور، وكان من ملوكهم أرتطاما وطُوزَزْما وشُوطَرْنا وأرطاروزما — نعم الاسماء! —

— فزوج أرتطاما ابنته زواجاً شرعياً من الفرعون طحوطُمُس الرابع، وقدم شوطرنا ابنته جيلوخيبا خطبة للفرعون امنهو طيب الثالث، واصحبها حاشية من النساء هائلة — ثلاثمائة وسبع عشرة امرأة ميتانية!

— وتحالف الملك الحثي سبِّلولِيُوما (١٣٥٠ ف.ب) والملك الميتاني ماتيعوذا على عاهل آشور، فكُتبت المحالفة باللغة المسمارية التي كانت اللغة الدولية في ذلك الزمان.

---

(١) كانت المملكة الميتانية فيما بين الفرات والخابور، حيث اليوم حسجه والقامشلي، وكان المصريون يدعون ملوكها بملوك النهرين.

وما هي الآثار الاخرى لهؤلاء الميتانيين والحثيين ؟ ما الذي كان من مجدهم غير اخبار الغزوات والاعراس الملكية؟

— وجلب سوزرطا ملك الميتانيين ابواباً لقصره من الفضة والذهب، جلبها من بلاد آشور .

— وكتب ارتطاما الى صهره الفرعون يعلمه بانه في احسن حال، كالشمس في السماء، وأن جيشه وعجلاته على ما يرام . ثم يطلب منه فضة وذهباً وخيلاً وعجلات، « يقولون لنا ان الذهب عندكم كتراب الارض كثرة . » ارسلوا ذهباً الى حميكم المحب لكم . ارسلوا ذهباً وفضة .

لا، وربك . ما عثر الاثريون على شيء لاولئك الشعوب يُذكر اذا ما ذكرت امجاد الاقدمين، الا بعض التماثيل الحجرية، السمجة الشكل، الرديئة الصناعة، القبيحة الصورة والمعنى . أرني قطعة منحوتة لشعب من الشعوب البائدة اقل لك ما هي منزلة ذلك الشعب من المدنية .

وهذا حجر منحوت، مثال من الفن الميتاني، يمثل الههم أنكيدو، وهو نصف ثور ونصف انسان . انما النصف الانساني هو اقرب الى الحيوانيــة من الانسانية . هذا الآله ومعاونٌ له قبيح الصورة مثله — مسخان منكران بلحية آشورية — يحملان مظلة او ما يشبه مجلة، فوقها قرص الشمس المجنحة المصرية !

يقلدون المصريين والاشوريين، ويمسخون ما يقلدون . اما الفينيقيون فانهم يبدون بالمقارنة في مقدمة الشعوب المثقفة المتحضرة . فقد كان الفينيقي يقتبس عن الصانع البابلي، والفنان المصري، فيحسن الاقتباس، ويضيف اليه شيئاً من الابداع، يسمه بميسمه الخاص، فتخرج التحفة من بين يديه وهي فينيقية الشكل والصنعة، ان لم تكن فينيقية الروح والمغزى . ساعطيك في فصل آخر المثال والبرهان .

انما اقول، قبل ان اعود الى موضوع هذا الفصل، ان في هذه السجية

العقلية احد الادلة على ان الفينيقيين من العرب . فان بينهم وبين من جاءوا بعدهم من ابناء الجد الواحد، من بني يعرب، اولئك الفاتحين المقتبسين لمدينتي الفرس والرومان، المضيفين الى محاسنها من محاسنهم، ان بين الفينيقيين وبينهم صلات الرحم والإرث، مع المقدرة على الاقتباس والابداع .

ولك ان تسأل مع ذلك : من هم الفينيقيون الذين اسسوا هذه المدن الساحلية في ظلال لبنان وغاباته ؟ ومن اين جاءوا ؟ وفي اي زمن هجروا المنازل الاولى ؟

مما اجمع عليه المؤرخون، وايدهم في ذلك علماء الآثار، ان الفينيقيين مثل العرب ساميون. بل انهم عرب الاصل، نزحوا من الشواطىء العربية الشرقية على خليج فارس، ومن جزيرة البحرين، الى سواحل البحر المتوسط في قديم الزمان .[1]

اما ما هو بالتحقيق قديم الزمان، فلا المؤرخ ولا الأثري يستطيع ان يقول قولًا جازماً . على اننا نستنتج من درس الآثار التي وجدت في احد قبور المقبرة القديمة في البحرين، أن هجرتهم كانت قبل عهد الشبه، في اواخر العهد الصواني، يوم لم يكن الانسان يحسن شيئاً من الكتابة . اذ لا كتابة البتة في مقابر البحرين الفينيقية .

ومما يقوله المؤرخون ان اقدم الدول الاسيوية تأسست عند فم الخليج الفارسي . فأيد الاثريون هذا القول في اكتشافاتهم السومرية التي تثبت ان السومريين في دولتهم الاولى (٣١٠٠ ق م) بلغوا درجة من المدنية عالية[2] وقد اثبتوا كذلك بالبرهان والدليل ان فم الخليج الفارسي كان في قديم الازمان حيث اكتشفوا مدينة اور الكلدانيين ، مائة وعشرين ميلًا شمالي

---

(١) راجع « ملوك العرب » للمؤلف . الجزء الثاني : صفحات ١٨٩ — ١٩٢
(٢) راجع « قلب العراق » للمؤلف صفحة ١٧٦

البصرة[1] فلو كان الفينيقيون، وهم من الشعوب السامية الذين توطنوا شواطىء الخليج، قد ظعنوا في عهد الحضارة السومرية لحملوا شيئاً منها الى هذه السواحل. ولا أثر، على ما نعلم حتى الان، لتلك الحضارة، الا ما جاء منها بعدئذ مختلطاً بحضارة بابل وآشور. اذن، ينبغي ان تكون هجرتهم قبل العهد السومري، ببضع مئات او بألف من السنين.

ومنذ تلك الهجرة الى ان يجيء ذكرهم في التاريخ لا نعرف عنهم شيئاً البتة. فقد يكون مرّ على «جاهليتهم» الف سنة، قبل ان عرفهم المصريون وذكروهم في انصابهم، وقبل ان ذكرت البلاد السورية وسواحلها في اثر لسرجون العقّادي، المنتصر على الدولة السومرية. فقد غزا الملك سرجون الاول (٢٧٥٠ ق م) سورية، ووصل الى ساحل البحر، ثلاث غزوات.

ولكن خبر الفينيقيين الاول المثبوت جاء من مصر في عهد شنفرو، احد فراعنة الاسرة الثانية (٢٩٨٠ — ٢٨٠٠)، وارسل شنفرو اربعين سفينة الى الشاطىء الفينيقي لتجلب له خشباً من ارز لبنان. ليس في هذا الخبر، المسجل في آثار ذلك الفرعون، غموض او ابهام. ارز لبنان الذي شهره سليمان بن داود في اغانيه، ها هوذا، بين ايدي صناع مصر، الفاً وتسعمائة سنة قبل عهد سليمان.

وها هم الفينيقيون في مدينتهم جبيل التي تأسست، كما يقول الاثريون، في اوائل القرن الثالث من العهد التاريخي الاقدم، اي منذ خمسة الآف سنة.

وكانت مصر في ذلك الزمان، قد بلغت، مثل أور الكلدانيين، درجة من الحضارة عالية. بل كانت تبز سومر بعمرانها وفنونها وثقافتها. وخصوصاً في عهد شنفرو، الفرعون الكبير الاول. فقد بلغ من مهارة وجسارة صناع السفن في عهده انهم بنوا له عمارة بحرية طول احد مراكبها مائة

---

(١) = «قلب العراق» صفحات ١٦٩ و ١٧٦

وسبعون قدماً .

وقد تضاعفت اعمال التنجيم في مناجم الذهب في بلاد النوبه، وفي مناجم النحاس في جزيرة قبرص وشبه جزيرة سيناء. فتضاعفت معها الصناعات وانتاجها، واتسعت اسواق التجارة، ومشاريع الري، فعم البلاد الخير والاقبال. فلا عجب اذا رحب امير جبيل وتجار الخشب فيها باولئك المصريين الاغنياء، وواظبوا على الولاء لهم، والاتصال تجارياً بهم، برهة من الزمن استمرت نحو مائة سنة .

ثم ايقظت المعاملات التجارية في ملوك مصر الاطماع السياسية . ففي سنة ٢٧٥٠ جهز الفرعون شيهور، من الاسرة الخامسة، اسطولا غزا به السواحل الفينيقية. ولفرعون هذا اثر وجد في هرمه بابي صير مزبورٌ فيه رسم اربعة مراكب ببحارتها، وبينهم اربعة من الاسرى الفينيقيين. هذه الصورة هي اقدم ما في العالم من نوعها. فهي اقدم صورة لمركب بحري، واول صورة تمثل اولئك الفينيقيين بشكلهم وقيافتهم .

ان اول ما نعرفه من تاريخهم اذن هو ما تنبيء به الآثار المصرية، لا الآشورية كما كان يزعم المؤرخون. ومما لاريب فيه انهم كانوا معروفين في الجزر والبلدان الشمالية والغربية من سواحلهم قبل عهد الفرعون شنفرو، معروفين بتجارتهم وبسفنهم، كما كان لبنان معروفاً بغاباته، وخصوصاً منها غابات الارز. انه من المحقق في كل حال أن التجارة بخشب الارز تعود الى القرن الثلاثين من العهد الاقدم. اي ان الارز كان يُقطع من غابات لبنان منذ خمسة آلاف سنة .

ومن المحقق ايضاً أن اول من صال على الفينيقيين ، وحاول الاستيلاء على بلادهم من اجل الارز ؟ انما هم المصريون. فَهَبْ انهم كانوا مستقلين طوال السنين السابقة لعهدالفرعون شيهور، فقد بدأوا منذ ايامه (٢٧٥٠) ان يعانوا متاعب العلاقات الاجنبية في بلادهم .

على ان هذه العلاقات لا تعرف، اسوء الحظ، في تطورها، من تجارية الى سياسية فاستعمارية، الا بما نشره الأثريون من اخبار الفراعنة، وانك لترى، حتى في هذه الاخبار، سلسلة متقطعة، بين الحلقة والحلقة منها فراغ يستمر في بعض الاحايين مأتين بل ثلاثمائة من السنين.

فقد علمنا أن اول من جلب خشباً من شاطىء فينيقية هو الفرعون شنفرو، وان اول من غزا الشواطىء الفينيقية هو الفرعون شيهور. اما في عهد بيبي الثاني، الذي ملك سعيداً تسعين سنة (هواطول عهد ملكي في في التاريخ) فقد كانت العلاقات التجارية بين مصر وفينيقية في حال حسنة، وكان خشب الارز يجلب من لبنان.

فلا حرج في القول ان من عهد شنفرو الى عهد بيبي، وبالاحرى من الاسرة الثالثة الى الاسرة السادسة، اي في خلال اربعمائة سنة، كانت مصر سوق الفينيقيين الكبرى للتجارة المجردة من عوامل السياسة والاكراه. هذا اذا استثنينا الغزوات البحرية التي كان يقوم بها بعض الفراعنة، لوفرة الدم الحامي في عروقهم، او لقلة المال في خزينة الدولة.

وما دخلت السياسة في دورها الجدي قبل عهد الاسرة الثانية عشرة (٢٠٠٠ — ١٧٨٨) الذي هو عهد مصر الذهبي. ففي هذه الحقبة السعيدة من الدهر شرع الفراعنة يفكرون في الاستيلاء على الممالك الاسيوية، اي الفلسطينية الفينيقية السورية، ويمهدون لذلك بما يجوز ان نسميه البعثات الاستخبارية. فقد كان يرسل الفرعون رسله الى سورية وفينيقية مستطلعين مستخبرين. وكان اللسان المصري آخذاً بالانتشار في هذه البلاد.

هي سياسة الاستعمار باسبابها واساليبها — وما اقدمها! أفنستغرب أن يكون لها غير النتيجة المعروفة — الحرب؟! في النصف الاول من القرن التاسع عشر غزا سورية للمرة الاولى الفرعون شيزسطروس الثالث، غزوة

مشرّدة، ما تلاها استيلاء.

ثم تنقطع سلسلة الاخبار، فيحدث فراغ طويل الأمد – في تاريخ فينيقية – اي نحو ثلاثمائة سنة، سقط خلالها عرش فرعون بمصر، فاستولى عليه الملوك الرُعاة. ثم طُرد الرعاة من مصر، وأُسست الدولة الثامنة عشرة، التي جددت مجد مصر الغابر، وعززت شوكة الفراعنة في داخل البلاد وخارجها.

اما الفاتح الاول لسورية وفينيقية وفلسطين، الباسط السيادة المصرية على البلاد كلها، من غزة الى قرقميش والى ما دونها شرقي الفرات، فهو كبير هذه الاسرة الفرعون طحوطُمُس الثالث [1] (١٥٠١ – ١٤٤٣) الذي غزا هذه البلاد سبع عشرة غزوة!

– وجاء حكام البلاد الساحلية يحملون الجزية الى الفرعون، ويقدمون له الطاعة.

وفي دَرْج من ادراج البردي قصيدة للاله عمون يثني فيها على فرعون، فيقول:

جئت اشد ساعدك لتضرب امراء زهي (سورية) وقد قذفت بهم، في اعالي جبالهم، الى تحت قدميك. وفتحت عيونهم لتبصر ضياءك، انت امير الضياء، فسطعت امامهم كانك صورة جلالي.

سبعون سنة من السيطرة المصرية المستمرة – اي الاستقلال الفينيقي النوعي والجزية – كما اسلفت في الكلام على حوادث جبيل في عهد ريب عدي، سبعون سنة من هذه السيطرة، تلتها ثورة الفرعون الفيلسوف المتصوف امنحو طيب الرابع، واخناطون، فضعفت شوكة مصر في الخارج، ففك امراء الشرق وملوكهم قيود السيطرة الاجنبية، وقتل بعضهم المستشارين

(١) يختلف الاثريون في كتابة اسماء الفراعنة. مثال ذلك طَحوطُمُس – ططموسس – طَحُطْمِس – وامنحوطب – أَمُنُوطِس – أَمُنُوطف.

المصريين في بلادهم، وامتنعوا – وهذا اهم ما في الامر – عن دفع الجزية.

على ان النير المصري لم يكن ثقيلاً. فقد كان الفرعون يرسل مفوضاً او سفيراً من قبله، يقيم في عاصمة الامير، فيراقب ماليته، سياسته الخارجية، ويرضى بان يدفع الامير الجزية السنوية، ويعمل بعد ذلك ما يشاء – الّا ان يقتل السفير.

ولكن اولئك الامراء والملوك كانوا يعملون فوق ما يأمر به الفرعون، عندما يكون قوياً، ودون ذلك عندما يكون ضعيفاً، او يكون ملكه في اضطراب. فما كانوا في حمل ذلك النير الخفيف كبار النفوس أباة، ولا كانوا في خلعه على شيء كبير من البطولة. انه لسلوك العبيد، يرفعون الصوت على الفرعون المنكوب، ويخرون ساجدين امام ذي الصولة الفرعونية والاقتدار. وهاك مثالاً من رسائلهم الى الفراعنة مأخوذاً من كتابات تل العمارنة.

الى سيدي والهي ونوري – الى شمس السماء ونور الارض –
انا عبدك، وتراب قدميك، وسائس خيلك، اخرّ على اقدام
مولاي سبع مرات، وانطرح سبعاً على صدري وظهري...
ما انا غير كلب يطأه مولاي تحت قدمه. وكانوا يوقعون
رسائلهم بـ فلان عبدك، او فلان كلب الملك.

وما كان احد منهم يلقب بملك او امير، بل كانوا يعرفون باسم «خزانو» اي الحاكم او الوالي

وهاك رسالة من احد ولاة بيروت اسمه عمونيرا، كان معاصراً لـ«خزانو» جبيل ريب عدي.

بعد السجود والانبطاح على بطنه وظهره سبع مرات، يقول:

لما وصل امر مولاي وشمسي الي انا عبده وتراب قدميه قائلاً:
اذهب الى مساعدة انصار سيدي الملك، للحال اطعت أمره،

وها اناذا لاحق باصحاب مولاي الملك مع خيلي وعجلاتي وكل مالي .

وفي رسالة اخرى يذكر عجلاته الحربية، وما بينه وبين ريب عدي من الصلات الودية. ولكنها، على ما يظهر، لم تدم طويلا . فبعد ان استسلمت بيروت لغزيرو الحثي، انقلبت على جبيل التي كان غزيرو محاصراً لها واغارت اغارة بحرية على اسطولها فاستولت عليه . فينيقي يحارب فينيقياً، والغنيمة للاجنبي .

والعز والمجد للفرعون – وأخرُ ساجداً عند قدمي مولاي – وانطرح على بطني وظهري سبع مرات – عندما يكون الفرعون ذا صولة واقتدار . وعندما تضطرب احوال مصر الداخلية، وتتزعزع اركان الملك، فيعلو عرش الفراعنة عاجز او سفيه ، « يتفرعن » « خزانو » قدس، ويستأسد « خزانو » جبيل .

ولقد اسمعناك كلام زكوبعل للرسول ونعمون: لست خادمك ، ولا خادم من ارسلك. ما دفع والدي الجزية لصاحب مصر ولا انا ادفعها . . .

فهل كان يتجاسر، يا ترى ، لو كان صاحب مصر طحوطمس الثالث، او رعمسيس الثاني ؟

كان المؤرخون، حتى أواخر القرن الماضي، يستشهدون هيرودوطُس، الملقب بأبي التاريخ، في اخبار الاقدمين، ويزكون شهادته بما جاء في التوراة، وقد أيد علمُ الآثار الحديث بعضَه، وذهب بقيمة البعض الآخر.

اما هيرودوطُس، فان في تاريخه عمن تقدم الاغريق من الامم اشياء لا يثبتها علم الآثار الحديث. فمن اين لابي التاريخ المحترم ان يعلم من اخبار المصريين الاقدمين مثلاً ما نعلمه نحن اليوم ؟ وكيف نعلم نحن، بعد خمسة آلاف سنة، ما لم يعلمه من تقدمنا بخمسمائة والفين من السنين ؟ في ظاهر الامر ما يدعو للعجب، وليس في حقيقتِهِ شيء من ذلك.

لقد زار هيرودوطس مصر في منتصف القرن الخامس قبل المسيح، ووقف مدهوشاً عند آثارها الناطقة بما كان لاولئك المصريين من حضارةٍ وفنٍ وعلم وعمران. ولكن العلم بتاريخهم، العلم المحقق المثبت، كان في ايامه مدفوناً مع رفات العباد — موميات الملوك — في أضرحة هي اشبه بالقصور، واهرامات هي كالحصون في ارجاء الزمان.

وكذلك قل فيما كان مدفوناً من اخبار غير المصريين، من اولئك الشعوب الذين كانوا « الاقدمين » لإغريق ذلك الزمان. فنظر هيرودوطُس خلال الظلمات التي كانت تكتنفهم، فادرك شيئاً من ذلك الماضي الاقدم، وفاته اشياء، ما اغناه التكهن عنها.

واليك بالمثل. قال هيرودوطُس ان الفينيقيين نزحوا من شواطئ الخليج الفارسي في اواخر القرن التاسع عشر، بناء على ما جاء من ذكرهم في الاشعار الهومرِيّة. ويقول المؤرخ الحديث، المستعين بالأثريين. ان في

في عهد الفرعون شنِفرو، اي في أواخر القرن الثلاثين ، جاءت مراكبه الى الشواطىء الفينيقية لتجلب له خشب الارز. فقد كان الفينيقيون اذن متوطنين هذه السواحل، التي دُعيت باسمهم، في القرن الثلاثين وقبله.

وما كان هيرودوطُس ليعلم شيئاً عن مدافن البحرين الفينيقية التي اكتشف احد الأثريين بعضها في اواخر القرن الماضي.

هكذا يصحح علم الآثار علمَ التاريخ، لا اقول ان الأثري معصوم عن الغلط. ولكن الصخور والآجر وادراج البردي الناطقة باخبار الاقدمين هي اجدر بالتصديق في اكثر الاحايين من الاخبار المنقولة.

واليك بمثل من عجيب النقل. قال هيرودوطُس في القرن الخامس قبل المسيح ما قاله في هجرة الفينيقيين، فنقله عنه المؤرخ اللاتيني جُستين، بعد سبعمائة سنة، فنقله عن جُستين، بعد الف وستمائة سنة، رولنسون ورِنان وغيرهما، فنقله الكتاب، ولا يزالون ينقلونه، عن هؤلاء المؤرخين المحققين، والعلماء المدققين الخ، كانه من الحقائق الرياضية، لا يقبل الشك ولا التأويل.

ولا فضل لهذا الكاتب بمعارضة نقلهم المغلوط بنقله الثابت المحقق، بل الفضل لاولئك العلماء والاثريين الذين اكتشفوا، في النصف الاخير من القرن الماضي، اكتشافاتهم القيمة في بلاد آشور ومصر، [1] وخصوصاً منها

---

(١) مفتاح اللغة الهيروغليفية هو حجر رشيد الذي اكتشفه قرب القرية التي دعي باسمها بمصر الضابط الفرنسي بوسار في جيش نابوليون (١٧٩٩)، واستولى عليه الانكليز بعد واقعة الاسكندرية (١٨٠١) فنقلوه الى المتحف البريطاني. هذا الاثر مكتوب باللغات الثلاث الهيروغليفية والعامية منها **demotic** والاغريقية، وهو الذي فتح للعالمين الفرنسيين شمبوليون ومريات كنوز الآثار والكتابات المصرية القديمة.

ومفتاح اللغة المسمارية هو حجر بِهِستون الثابت في ارضه في جبال فارس. هناك في سفح جبل سنجير بالقرب من كرمنشاه قرية بِهِستون. وبالقرب من

كتابات تل العمارنة. فعلى ضوء تلك الاكتشافات نصحح الاغلاط، ونزيل الاوهام فيما هو شائع عن الفينيقيين.

لقد اسلفنا البيان في الفصل السابق عما كان من الصلات الولائية وغير الولائية بين فينيقية ومصر في عهود الفراعنة شنفرو وبيبي وسِزَسطُرُس وطحوطُمُس واخناطون ورعمسيس، الى الزمن الذي انقسمت فيه الدولة بين نَصُوبَنعَبَدَد وهُرهُر الكاهن الاكبر، اي الى القرن الحادي عشر قبل المسيح

وقد كان نصوبنعبدد معاصراً لملك آشور تِغلَط بلاسر الاول، الذي كان يطمح الى الفتح والتوسع الآشوري، فغزا سورية ووصل الى سواحلها، فخشي نصوبنعبدد ان يستمر زاحفاً الى مصر، فارسل اليه الهدايا تزلفاً واسترضاء، فقبلها صاحب آشور، وعاد الى بلاده ظافراً — ناهباً — راضياً.

بل عف عن الغزو، على ما نعلم، واستمرت العفة الآشورية زمناً طويلاً، البسها التاريخ ثوباً من السكوت، فلا ندري حقيقة حالها، الى ان يظهر على مسرح الغزو شَلمَنصر الثاني، وذلك بعد مجاملة نصوبنعبدُ لِتِغلَط بَلاسَر بمائتين وخمسين سنة.

مشى شلمنصر الثاني بجيشه الجرار من نينوه، وما كاد يصل الى الفرات

القرية مكان يشبه في نحره وصخوره وآثاره التاريخية نهر الكلب بلبنان. هناك آثار مزبورة في الصخور فوق النهر، آثار ساسانية وعربية وأشكانية (برثيّة) واهمها الأثر الذي كان يظنه الاقدمون، ومنهم المؤرخ هيرودوطس انه لملكة آشور المشهورة سميراميس. ولكن علم الآثار الحديث كشف حقيقته، وحل رموزه واسراره الناطقة باخبار الملك دارا وفتوحاته باللغتين المسمارية والفارسية التي كانت تدعى قديماً بازند. والفضل في الدرس الاول لهذا الاثر والترجمات الاولى منه يعود الى السفير البريطاني في بلاد فارس العلامة السير هنري رولنسون الذي زار ذلك المكان وتسلق تلك الصخور لنسخ الاثر. ثم باشر الترجمة فانجز بعضها ١٨٤٣ وقد ترجم العلامة الفرنسي الدكتور اوبيت الباقي مستعيناً بترجمة زميله الانكليزي. وفي الترجمتين مفتاح اللغة المسمارية واساس العلوم الآشورية البابلية.

حتى قام ملوك الدويلات غربي النهر يتحدون – للمرة الاولى في تاريخهم – ليدفعوا عن البلاد شر آشور. وقد رأى فرعون ذلك الزمان، صونا كذلك لملكه، ان ينجد الدويلات في حلفهم على الآشوري الصائل. ولكن النجدة لم تنفع، ولا الحلف.

عاد الاشوري الى بلاده ظافراً، ناهباً، راضياً. واستمرت آشور في طموحها الى ما وراء الفرات من الممالك والغنائم. فجاء تغلط بلاسر الثالث غازياً، فوصل في غزوته الى حدود مصر!

وكانت مصر الهرمي تحاول ان تشدد الدويلات على آشور، فاخفق مسعاها، الا في فلسطين حيث ثار العبرانيون على السلطة الاشورية، فجاء سنحريب يؤدب الثائرين، فوطد سلطته في البلاد الساحلية كلها، الا صور. ثم زحف على عسقلان فالتقى هناك بجيش من اخلاط المصريين والفلسطينيين فتغلب عليه، وضم فلسطين الى سورية وفينيقية، الا اورشليم. وصور اورشليم – رَدَّه عن الاولى استبسال ابنائها، وحال الوباء الذي فتك بجيوشه دون استيلائه على الثانية.

وكانت بابل قد ثارت على نينوه، فعاد سنحريب مسرعاً الى بلاده لقمع الثورة.

تلك الاضطرابات في ارض الرافدين ايقظت ما تبقى من قوة في وادي النيل. فقام الفرعون طَحَرْكا يجدد لمصر عهداً مضى، ومجداً انقضى. فاتحد وملك صور على أصرحدُّون، خلف سنحريب، فرُدَّ في غزوته الاولى خائباً مدحورا، فاعاد الكرة في السنة التالية (٦٧٠) وقصده الاكبر الاستيلاء على مصر.

وكانت صور هدفه الاول، فما استطاعت هذه المرة المقاومة، فاستولى عليها، واستمر زاحفاً الى مصر، فوقعت هناك واقعة الدلتا التي انكسر فيها المصريون، ففر الفرعون طَحَرْكا هارباً الى الصعيد. فاكتفى صاحب آشور

بذلك النصر، وبما غنمه من الغنائم، وقفل راجعاً الى بلاده، فعرج على نهر الكلب ليفاخر من تقدمه من الفاتحين. هناك سجل اسمه وخبره في صخرة قريبة من اثر رعمسيس الثاني! هناك بين تلك الصخور، المشرفة على ذلك النهر الوديع، يتفاخر الفاتحون، ويتبجحون.

وكأن طَحَرْكا قد علم بما نُقش في ذلك الصخر، او انه رأى في عالم الغيب ذلك الآشوري، وهو يتبجح امام روح رعمسيس العظيم، فغضب غضبة فرعونية، وراح يلم شعث العصاة، ويقودهم في ثورة ثانية على السلطة الآشورية. فجاء آشور بنيبال بن اصرحدُّون يؤدب الثائرين، ففر طحركا ثانية من ساحة القتال، فلحق به دون ان يدركه حتى طيبت.

ثم عاد عاهل آشور الى بلاده ظافراً غانماً، وعاد المصريون الى العصيان بزعامة طحركا ومعه الداهية نيخو، الذي كان يومئذ حاكماً لاحدى الولايات. فحمل آشور بنيبال حملته الاخيرة (٦٦١) على المصريين، ففتك بهم وشردهم، ولحق بفلولهم وفرعونهم الى طيبت. وما كان ليدرك ذلك الفرعون الطيار. الذي لجأ الى البادية، وقضى نحبه فيها.

— ودخل آشور بنيبال بجنوده العتاة مدينة طيبت، فختم تاريخها المجيد المديد بالنهب والسبي والتدمير.

— وجاءت ملوك الدويلات — فينيقية ويهوذا وسورية وغيرها — عشرون ملكاً — يقدمون الطاعة صاغرين لـ « فاتح الممالك، وقاهر الملوك» — قدموا الطاعة « وقبلوا رجل » عاهل آشور.

— واستمر الاستيلاء الاشوري، الاستيلاء التام، نحواً من مائة وخمسين سنة (٨٧٠ — ٧٢٧) تلتها مائة سنة من الاضطرابات والفتن.

— وضُربت الجزية على البلاد، جزية آشورية فظيعة، كانت على قسمين، قسم معين من المال، ذهباً وفضةً ونحاساً يدفع سنوياً، والقسم الآخر من كل منسوج ومنتوج ومصنوع — ثياب الصوف والكتان والحرير

والاسلحة والخشب والاصباغ، والطيور والاسماك وجلود الجواميس، والحجارة الكريمة والتحف وما شاء ملوك آشور من البنات الفينيقيات، جوار وحظيات، وقد كان لهم الحق، فوق كل ذلك، ان يرسلوا رجالهم الى لبنان ليقطعوا لهم ما يريدون من خشب الارز!

يقيناً، ان نير آشور لنير فظيع، فلا عجب اذا ترحم الفينيقيون في العهد الآشوري على الفراعنة.

ولا عجب ولا لوم اذا كانوا يهللون لأية محنة تحل بآشور وملوكها، ويترقبون الفرص لخلع ذلك النير وتحطيمه.

— وها هم برزوا في اثواب العيد يهتفون بالتهليل والتسبيح. فقد هبطت على آشور برابرة من الشمال، جيوش غزاة، اثخنوا في البلاد، وزعزعوا اركان الملك، فضعفت في الداخل وفي الخارج شوكة نينوه.

— وها هي ذي المدن الفينيقية الثائرة، تخلع انيارها، وتعلن استقلالها!

خمساً واربعين سنة من هذا الاستقلال (٦٣٠ — ٥٨٥) استعادت فينيقية فيها الحرية، وبعض الازدهار والرفاهية.

ويح لهذا الكاتب. فقد حدت الحماسة يراعه، فعجل في خط كلمتي الحرية والاستقلال، فوجب عليه التصحيح. ان ذلك الاستقلال، في نظر المؤرخين، لنوع محدود، او ما نسميه نحن اليوم استقلالاً نوعياً ادارياً.

فقد كان الفينيقيون في تلك الايام يتذبذبون بين مصر وبابل، يوالون القوي من ملوك احد البلادين الى ان يضعف، فينتقلون بولائهم الى الآخر القوي. وقد قال سنحريب لوفد من وفود البلاد: من اتكأ على قصبة واهية انكسرت بيده، وخرقت الكف منها.

حكمة باهرة ما ترددوا في اقتباسها. فكانوا يتزوون ويلينون بحسب هبوط ميزان السؤدد وصعوده في وادي الرافدين ووادي النيل. فكانوا لبناً وعسلاً لنبوخذنصر، وكانوا مراً وخلاً للفرعون. وغداً تنقلب الآية،

فيحمل العسل الى عرش مصر، والخل الى عرش بابل.

وها هوذا فرعون من الطراز القديم، هو الفرعون نيخو (٦٠٩ — ٥٩٣) وقد قام يجدد سؤدد مصر في البلدان الشرقية، فبنى عمارتين حربيتين، الواحدة في البحر المتوسط، والثانية في البحر الاحمر، وخرج فاتحاً باسم آلهة المصريين، فاستولى على غزة وعسقلان بل على فلسطين والمدن الساحلية كلها (عُثر في صيدا على بقية أثر مسجل فيه بالهيروغليفية نصر الفرعون نيخو)

وكانت صولة آشور قد انتقلت الى بابل، فارسل مليكها ابنه نبوخذنصر على الفرعون، فالتقى الجيشان في شمال سورية، قرب قرقميش، وكانت الواقعة (٦٠٥) التي انهزم فيها المصريون، ولكنها لم تكن حاسمة، فقد اضطر نبوخذنصر، اذ جاءه نعي والده، ان يعود الى بابل ليخلفه على العرش.

وباتت البلاد في حيرة واضطراب، لا تعرف الى اي من الملكين تقدم العسل، والى ايهما الخل.

ثم عاد نبوخذنصر يساعدها في تقرير مصيرها. عاد يكمل العمل الذي باشره في السنة الماضية، فدخل البلاد فاتحاً، ومشى ظافراً الى سواحلها حتى صور — صور العتية، صور الأبية، صور العاصية الثائرة! ضرب البابلي عليها ذلك الحصار الذي دام كما جاء في التواريخ، ثلاث عشرة سنة! وانتهى بان سلمت عروس المدن الفينيقية، فخارت قوى الفينيقيين في كل مكان، وختم الاستقلال النوعي بالنير البابلي. انما كان في بادىء الامر متغلغلاً، فجاء حفيد نيخو أبريس، يعيد الكرة على حاملات ذلك النير، ويثأر لجده من نبوخذنصر، فضرب اسطوله بعض مدن السواحل، واحتلت جنوده صور الوهنة المتلاشية من ذلك الحصار الطويل، فاستسلمت له المدن الاخرى.

فينيقية بين ابليس والبحر كما يقول المثل الانكليزي. فينيقية بين شاقوفين كما يقول اللبنانيون. ويحك يا مصر، ويحك يا بابل. فما الشمس المجنحة، وما الاسد المجنح، والنار والعرين واحد لا فرق للفريسة فيهما.

وها هوذا الاسد يزأر، ويثب وثبته الثالثة. وها هي ذي جيوش الشمس المجنحة تحت اسوار اورشليم. وهاكم الفينيقيين، وقد تحطمت بين ايديهم اواني الخل والعسل، فثابوا الى ملقرت وعشتر وتموز يستغيثون ويسترحمون.

حاصر نبوخذنصر اورشليم، فعجزت جيوش مصر عن فك الحصار. فتحققت نبوءة النبي صموئيل الذي انذر العبرانيين الا تبكوا على مصر. سقطت اورشليم، وسُحق العبرانيون، فزحف بعد ذلك نبوخذنصر الى مصر، ودخلها فاتحاً ظافراً.

وعاد الفينيقيون يصنعون قوارير التقرير – تقرير المصير – فملأوها عسلاً، وقدموها الى عاهل بابل، صاحب النير الجديد، الذي حملوه ثلاثين سنة.

ومن يحكم بالنير بالنير يحكم، ولو بعد ثلاثين سنة.

فقد دهم بابل عدو من الشرق (٥٣٩) هو قورش ملك فارس، فأثخن في اهلها، واذل مليكها نبونيدوس، ووضع النير الآري على رقبة الكلدان الساميين.

فاي مسلك يسلكه اخوانهم الساميون في فينيقية؟ هل تأبى رقبتهم ما قبلته رقبة ابناء بابل، وهي من اصلب الرقاب واغلظها؟ وما الفرق عند فينيقية بين نير ونير، وهي التي اعتادت خلع الانيار وحملها، كما يخلع المرء ثوباً بالياً ويلبس ثوباً جديداً.

– وجاء قمبيس، خلفُ قورش، يرتّن ذلك النير، فالفاه متيناً مكيناً، والفى حامليه من اطوع الطائعين واسرعهم الى العمل.

– ألا ان مصر قصدنا، وانا لفي حاجة الى السفن.

فبنى الفينيقيون اسطولا لقمبيس، وشحنوه بالمقاتلة، ففتح مصر بمساعدتهم، وبسط عليها سيادة فارس في السنة الخامسة والعشرين

والخمسمائة قبل المسيح.

— والدنيا بما فيها لفارس. ولكل نصر نصر يتلوه ويعلوه اذا ما قاد قمبيس الجيوش. هيوا بنا. هنالك في المغرب بلاد غنية عظيمة هي قرطجنة — لكل نصر نصر يتلوه — هيوا بنا.

— ولكل عمل نهاية ياذا الجلالة والبهاء. ولكل صبر حدود مجرورة، ياصاحب الصولة والاقتدار.

عجيب امر هؤلاء الفينيقيين. فما كانوا هذه المرة من اطوع الناس، ولا كانوا من الطائعين. بل هم القائلون لعاهل الفرس! لا نحارب ابناء قومنا، لا نحارب اخواناً لنا هناك.

ولقد سجل التاريخ للفينيقيين هذه المفخرة القومية، وكان قمبيس محترماً لها، مكبراً اصحابها، فعدل عن قصده وعاد الى بلاده.

ومما هو جدير كذلك بالذكر أن نير الفرس على فينيقية كان اخف من نير الآشوريين والبابليين. فقد ضُمت الى سورية تحت مستراب واحد في التنظيم الاداري، وَضُمن لها الاستقلال الداخلي، وَفُرض عليها نصف قيمة الخراج، مائةٌ وخمسة وسبعون وزنه، اي ما يوازي اثنين واربعين الف ليرة انكليزية.

فاذا اعتبرنا تقدير المؤرخ رونسون في توزيع هذا الخراج، علمنا بالتقريب عدد سكان البلاد الفينيقية في تلك الايام. فقد كان المكلف يدفع ما يوازي شليناً وثلثي شلين، اي كل اثني عشر مكلفاً يدفعون ليرة واحدة. فالقيمة كلها اذن، اي الاثنان والاربعون الف ليرة يدفعها خمسمائة الف مكلف. اضف الى هذا العدد ثلاثة اضعافه للنساء. ومن هم دون سن الرشد من الذكور، يكن المجموع مليونين من النفوس.

اما استقلال فينيقية النوعي فقد كان مقيداً بهذه الشروط : لا يحق لملوك فينيقية ان يشهروا الحرب على دولة اجنبية او يعقدوا وإياها عقوداً

سياسية . وعليهم، فوق الخراج، ان يقدموا قسمتهم من المراكب للاسطول الفارسي. وقد كانت هذه القسمة اكبر من اقسام غيرهم من الامم لمهارتهم في صنع السفن.

في هذه الحدود ما يشبه المعاهدات الحديثة المعقودة بين حكام المقاطعات التسع المحمية في البلاد العربية وبريطانية العظمى، مع هذا الفارق الجوهري وهو ان سلاطين وشيوخ تلك المقاطعات لا يدفعون خراجاً، بل يتقاضون الحكومة البريطانية المسانهات، ذهباً وفضة، مقابل ما يتعهدون به من الانفصال بعضهم عن بعض، فلا يكونون حلفاً عليها.

اما الحكومة الفارسية فقد كانت في ذلك الزمان اكثر عدلاً وحكمةً من الحكومة البريطانية في زماننا. كيف لا وهي لم تعتبر الممالك الفينيقية مستقلةً بعضها عن بعض، او اجنبيةً بعضها لدى بعض، فلا يحق لها ان تتفاوض وتتفاهم وتتعاقد سياسيا، كما هي الحال في المقاطعات التسع المحمية. بل هي وحّدت تلك الممالك وسورية، فكانت القدوة في التضامن والاتحاد، فاقتدوا بها.

مما يثبت ذلك رواية تتعلق بتأسيس مدينة طرابلس. فان ممثلي الممالك الثلاث، صور وصيدا وارواد، اجتمعوا حيث هي الميناء اليوم للنظر في شؤونهم المختلطة، ومصالحهم المشتركة، فنزل ممثلو كل مملكة في مكان خاص بهم، فَأُطلق على المنازل الثلاثة اسم تريپولي، اي المدن الثلاث [1]

---

(١) كان هناك ثلاث مدن او قرى قديمة، ذكرها العلامه ابرستيد في كلامه على حملة طحوطمس الثالث السورية في النصف الاول من القرن الخامس عشر قبل المسيح . فتكون هذه المدن (Yenoam, Nuges and Herenkeru) قد تأسست، ليس في القرن السابع، كما جاء في دائرة المعارف الانكليزية، بل تأسست قبل ذلك بسبعة او ثمانية قرون. والمرجح انها كانت تعرف بهذه الاسماء يوم اجتماع الفينيقيين فيها، كل فريق في مدينة، فأُطلق عليها جميعاً، تذكارا لتأسيس الحلف الثلاثي، اسم واحد هو تريپولي.

وكانت طرابس عاصمة هذه الممالك، ومقر المجلس النيابي، او الحلف الفينيقي، الذي هو الاول من نوعه في تاريخ فينيقية، والفضل في تأسيسه، او جلُّ الفضل انما هو للاستقلال الداخلي التام الذي كانت تتمتع به الممالك الفينيقية في العهد الفارسي.

وجاء بعد الفرس الاسكندر المقدوني صائلاً فاتحاً. جاء يتوسل بمحاربة الفرس ليحقق حلماً كان يحلمه في يقظاته وسكراته، وهو ان يستولي على العالم وبأعرق الامم.

فعندما وصل الى شمال البلاد السورية، وقف الفينيقيون موقف المتفرج، موقف الحياد. فظلوا موالين للفرس، وما جهروا بالعداء للاسكندر. وقفوا موقفهم التقليدي في مثل هذه الحروب، وهم ينتظرون النتيجة لينتفعوا بها. لا تخضع لغير القوي الغالب.

وقد علموا من هو الغالب القوي بعد واقعة إيسوس وفرار الملك دارا. وعلموا كذلك ان الاسكندر لا ينوي ملاحقة الفرس المدحورين، ومتابعة فتوحاته الاسيوية، قبل ان يستولي على سورية ومصر والشواطىء الغربية. فارسل قائداً من قواده الى دمشق يحتلها، وزحف هو الى المدن الفينيقية، فاستسلمت له أرواد بلا مقاومة، ثم جبيل، ثم صيدا.

اما صور فقد ارسلت مثل المدن الاخرى رسلها يستقبلون الفاتح المقدوني، ويقدمون له الهدايا. فقبلها الاسكندر وجامل الرسل مجاملة مريبة، اذ

وللقارىء ان يسأل كيف سُميت بلدة فينيقية باسم يوناني؟ اننا نرجح — وليس في التواريخ ما يبرر الجزم — إن الاسم هذا أُطلق عليها في العهد السلوقي التابع للعهد الفارسي. اطلقه الاغريق او الاهالي المتأغرقون في ذلك الزمان، عملاً بالتقليد الذي كان شائعاً بخصوص الحلف الثلاثي الذي عُقد في مكان القرى الثلاث. وقد يكون محرفاً من دُرُبْلي اسم طرابلوس القديم كما جاء في رسائل تل العمارنة. وخير ما نختم به هذا البحث كلمة العرب العاصمة: والله اعلم.

افصح عن رغبته بزيارة معبد الآله ملقرت .

— وهل يزور الاسكندر وحده المعبد ؟

— وهل تتحرك ركاب الفاتح العظيم، ولا يخف بها الجيش الظافر؟

لقد خشي الصوريون ان يكون للتقوى موكب حربي، وهم الذين كانوا يمنعون حتى الجنود الفارسية من الدخول الى المدينة . فلا عجب اذا رفضوا طلب الاسكندر، ولا عجب اذا هو غضب غضبة الفاتحين، فأنذر وتوعد، فأبت صور وتمردت، فضرب عليها الحصار .

وهل تخشى الحصار من اكلت حنظلة، وشربت مرة مرات عديدة ؟ من طالما قاومت الفاتحين، وصمدت للمحاصرين، وشرفت الاسم الفينيقي غير مرة في جهادها واستبسالها — هل تخشى النزال والطعان ؟

شرع الاسكندر يردم البحر بين المدينتين، مدينة البر والجزيرة المجاورة لها، فدافع الصوريون عن صوريهم دفاعاً مجيداً، سجله التاريخ بمداد الفخر والاعجاب .

وكادوا يكونون هم الظافرين، المذلين للطاغية المقدوني لولا العمارة البحرية التي أمده بها، كما اسلفنا القول، ملكا قبرص وجبيل .

سقطت صور بعد حصار دام سبعة اشهر، فدخلها الاسكندر بعد ان هدم معظمها، وقتل الالوف من اهلها . دخلها منتقماً مذلاً مبيداً، فجاء المجد يندب عروس المدن الفينيقية، وقام النبي نبي اسرائيل، يرثيها .

وانت يا ابن آدم فارفع مرثاة على صور

ايتها الساكنة عند مداخل البحر، تاجرة الشعوب، بناؤك تمموا جمالك .

الواحك من سرو سنير،

سواريك من ارز لبنان،

مجاذيفك من بلوط باشان،

مقاعدكِ من العاج المطعَّم في البقْسَ مِن جزائر كتيم ·
شراعك من كتان مصر المطرّز
غطاؤك من الاسمانجوني والارجوان ·
ملاّحوك من اهل صيدون وارواد
ربابينك ياصور، من حكمائك
قلافوكِ شيوخ جبيل ·
جميع سفن البحر وملاحوها كانوا فيك يتاجرون بتجارتك ·
فارس ولود وفوط كانوا في جيشكِ ، رجال حربك ...
وكان الابطال في بروجكِ ...
علقوا اتراسهم على اسواركِ ...
تجار ترشيش اقاموا اسواقك بالفضة والحديد، والقصدير والرصاص ·
بنو دَدَان وآرام والجزائر تاجروا في اسواقك بالبهرمان والمرجان والياقوت ·
يهوذا واهل اسرائيل تاجروا في سوقك بحنطة بَنِيتَ وحلاوى وعسل وزيت وبَلَسان دمشق تاجرتك بكثرة صنائعك، وبخمر حلبون والصوف الابيض ·
ودان وياوان قدموا غزلاً في اسواقك
العرب وكل رؤساء قيدارهم تجار يدك بالخرفان والكباش والاعتدة ·
تجار شَبا وكنّة وعدن، وحران وكلمد وآشور تجاركِ ....
ثروتك واسواقك وبضاعتك وملاحوك وربابنك وقلافوك والمتاجرون بتجرك، وجميع رجال حربك، وكل جمعك، يسقطون في قلب البحر يوم سقوطك ..

والتجار بين الشعوب يصفرون عليك، فتكونين اهوالاً،
ولا تكونين بعدُ الى الأبد . حزقيل : ٢٧

.... وكانت المدن الفينيقية، في العهد اليوناني، نهباً للدولتين الاغريقيتين، مصر وسورية . فانتقلت من حوزة البطالسة الى حوزة السلوقيين غير مرة . ثم استقرت فيها سيادة ملوك انطاكية . وانتشرت الثقافة الاغريقية بين اهلها ودامت في ازدهار حتى آخر العهد السلوقي وبداية الفتح الروماني، في النصف الأخير من القرن السابق للمسيح .

لست ادري ماقد يكون فعل الاسكندر لو عاش ليتولى بنفسه حكم هذه البلاد . اما سياسة من خلفوه فقد كانت تقضي على روح الوطنية في كل من قاوموهم، بل على كل من استولوا عليهم من الشعوب .

— أفينيقي انت ؟

— نعم، انا، بنعمة مِلقَرتَ وعَشتَرَ، فينيقي .

وَعشترُ وَملقرتُ، يا هذا، هل سلمت نعمتها الفينيقية في عهد الاغريق ؟ ولسانك وعاداتك وتقاليدك وثقافتك، يا هذا، اليست كلها إغريقية ؟

بلى . لقد تَأغرَقتْ فينيقية في تلك الايام، كما تتفرنج دعاتها في هذا الزمان ...

ثم جاء آشورو الغرب — الرومان — فقضوا على الأثر الباقي من الفينيقية في هذه السواحل القديمة .

قال المؤرخ رولنسون : سُحقت فينيقية تحت نِعال الرومان الحديديّة، فلم تعُد تُعرَف لا سياسياً ولا اجتماعيا . بل امست اسماً جغرافياً لا غير .

الادب الفينيقي

يقول غُلاة الفينيقية العلماء الاورويبون انه كان للفينيقيين ادب ماتع دُرست معالمه، او ان ثقافات الاعداء، وخصوصاً منهم اليونان والرومان، طغت عليه، فجرفته في تيارها، وان النزر الباقي مُسخ في النقل والترجمة.

ويقول غُلاة الفينيقية اللبنانيون ان الفينيقيين نبغوا في الادب والشعر والعلوم الطبيعية والدينية نبوغاً باهراً، وان لوسيان احد كتابهم العظام، وطَاليس احد علمائهم الاعلام، وزِينو احد فلاسفتهم المزيّنين فكر الانسان، في كل زمان.

وان لهؤلاء الغلاة غيرةً عظيمة الصدى، وخيالاً بعيد المدى، فلا يكتفون بنوابغ الادب والشعر والعلوم، بل يضيفون اليهم نوابغ الموسيقى ! — وان الفضل يعود الى الفينيقيين اجدادنا نحن اللبنانيين باكتشاف الابجدية الموسيقية، وانتشار الاراغن الكبيرة الاولى في الغرب بحسب اصول التكنيك.

فاذا كانوا هم المكتشفين لما يدعوه صاحب هذا الاكتشاف « الابجدية الموسيقية والاراغن والتكنيك » فاين اسماؤها الفينيقية ؟ ولماذا لا يستعملها هذا « الفينيقي » بدل الالفاظ الفرنجية ؟

تالله ما يفعل الحب، وما تُبدع المخيّلة ! فقد رأيت آلات الطرب السومرية والآشورية والبابلية، والمصرية، وما رأيت اثراً لآلة او ربابة فينيقية، لا في متحف بيروت، ولا في المتحف البريطاني بلندن، ولا في الـ« لوفر » بباريس. ومع ذلك لا انكر ما يقوله ذلك « الفينيقي » الموسيقي المحترم الذي نقلت لك قوله. فهل له ان يزيدنا علماً؟ ما اسم «الاراغن

والتكنيك » باللغة الفينيقية؟

اما تجارة العلم، اولئك الادباء الذين يريدون ان يخطفوا لوسيان وطليس وزينو من بلادهم ويجيئوا بهم في المراكب الفينيقية الى جبيل وبيروت وصور، ويضربوا عليهم في متاحفها نطاق القومية المحبوبة، فاليهم اتقدم ببعض الحقائق الاولية، وقد جاءت في الكتب التي لا جدال فيها، كمعجم لاروس ودائرة المعارف .

لوسيان : ولد في عاصمة مقاطعة محج، على الضفة الغربية من نهر الفرات (١٢٥ – ١٩٥ م) ومارس المحاماة في انطاكية عاصمة السلوقيين، ثم زاول الكتابة، وساح في آسية الصغرى وبلاد اليونان وايطاليه، واقام عشرين سنة في آثينا، وتولى في اواخر ايامه وظيفة في حكومة مصر. الف هذا الكاتب كل تآليفه باللغة اليونانية، وكانت البلاد السورية كلها في زمانه في حوزة السلوقيين، وكان اليونان قسماً كبيراً من سكان البلاد. فهل الفرنسي الذي يولد من ابوين فرنسيين مقيمين في سورية او لبنان يُعد سوريا او لبنانياً ؟

طليس : ولد في ميليتُس، على شاطىء بحر الارخبيل، عند جزيرة كوس ، من ابوين يونانيين – أكراميُوس وكليوبولين. ويُظن انه من اصل فينيقي. نقلته دائرة المعارف ثم قالت : ولكنه يوناني وليس فينيقياً. وقد زار طليس مصر وكان اول اطلاعه فيها على علم الهندسة. قال الرودُصي هيروغنُس : ماقرأ طليس العلم على احد من العلماء، الا ما اقتبسه من كهان مصر اثناء اقامته هناك. وهذا العالم الف كتبه باللغة اليونانية، وكان يُعَد من حكماء اليونان السبعة. [١]

---

(١) قال فكتور برار في كتابه **La resurrection d'Homène** صفحة ٢٥٣ : « يقول هيرودوت ان طليس، الفيلسوف اليوناني الاول، متحدر من أسرة فينيقية الاصل . فما هو اذن من اسرة فينيقية هاجرت الى آسية الصغرى، بل من

اما زينو فالى القارىء ما جاء في معجم لاروس الشهير. انقله اليه بالفرنسية :

Zenon, né a Citum philosophe grec, fondateur de stoicisme.

وجاء ايضاً في لاروس :

Thales, né a Milet, philosophe grec de l'ecole ionienne Lucien, ecrivain grec, né a Samosate.

اما غُلاة الفينيقية من الاوروبيين، وهم من العلماء المحققين، مثل برار

تلك الأسر القدموسية (نسبة الى قدموس) ذات المنزلة العالية بين اليونان بآسية.»

وقال في صفحة ٢٥٥ : «كان القدموسيون يفاخرون بسلالتهم الفينيقية، بل بسلالة عالية الهيبة، قالوا انهم من ابنائها. وربما كانت لغتهم كذلك لغة الآلهة، كما يقوله الشاعر.» انتهى

وجاء في لاروس ودائرة المعارف : قدموس بن فنقيس، ملك فينيقيه، واخو اوروبه، التي شغف بها زوس آله الآلهة، فتحول الى ثور ابيض، فحملها على ظهره، وذهب بها الى بلاده. فراح اخوها قدموس يبحث عنها، فاستشار احد الكهان، في بلاد اليونان، فثناه عن البحث وقال : اذهب في طريقك تلتق ببقرة، فاتبعها الى حيث تضطجع، فابن هناك مدينة. فالتقى بالبقرة، فتبعها، فمشت الى بورثيه، واضطجعت في مكان هناك، بنى فيه قدموس مدينة طيبة. وارسل رفقاءه ليجلبوا له ماء من عين قريبة، فسطا عليهم تنين وقتلهم، فقتل قدموس ذلك التنين، وزرع اسنانه، باشارة من الربة مينرفا، فانبتت رجال حرب اشداء، فاحتال في قتلهم، فقتلوا جميعاً الا خمسة منهم. وينسب الى قدموس اختراع الكتابة، وادخال الالفباء الى بلاد اليونان (١٦٠٠ ق. م.) وقد تزوج هناك جرمونيا، ابنة الآله أريس والآلهة افروديت، فولد لها اربعة اولاد. ولكن حياتها الزوجية كانت محتفة بالبلايا، فتحولا قبل موتها الى حيتين. انتهى

فاذا كان طليس الذي عاش في القرن السادس قبل المسيح من نسل قدموس بن فنقيس بن « اساطير » الذي عاش في القرن السابع عشر، فان بينه وبين جده الاول احدى عشرة مئة سنة ! فاية اسرة من أسر زماننا المعروفة - الشريفة او الملكية - تستطيع ان تعود الف سنة الى اصلها، اللهم اذا كان مجردا من الاساطير.

القدموسيون - الالهة - الاساطير : هل من الممكن ان يكون مجموعها حقيقة « تاريخية » راهنة ؟!

ومَايَر ورولنسون، فليس فيهم من يقول ان زينو ولوسيان وطليس هم فينيقيون.

ولكنهم يقولون انه كان للفينيقيين آثار ادبية ذهبت عوادي الزمان بمعظمها، وان احدى المدن التي نزلها الفينيقيون، قبل ان جاء العبرانيون الى فلسطين، كانت تدعى قرية سفر (كتاب) لحب اهلها للعلم، ولكثرة من نشأ فيها من الكتّاب. وقالوا ان كثيرين من تجار فينيقية كانوا حكماء وفلاسفة، وان ملوك نوميديا كانوا يتثقفون بالثقافة الفينيقية، ويقتنون المكاتب وفيها كثير من تآليف الفينيقيين.

واين تلك التآليف ؟ لم يصل الينا شيء منها. وما وصل الينا من كتاب اليونان، لسوء الحظ، غير اسماء ثلاثة من ادباء فينيقية هِبسِكراطُس وثيودوطُس وموخُس. وقد تُرجم الى اليونانية تاريخٌ لموخس في الخليقة، فلم يُبق الزمان على الترجمة، ولا على الاصل، فامسى ذلك التاريخ، مثل المؤلف نفسه، ومثل الاديبين الآخرين، ذكراً يردَد في متن كتاب او حاشية.

على ان هناك شذوراً. قيل انها فينيقية الاصل، عثر عليها المنقبون في تآليف يونانية لِكلُودِيُس ودَايُس وهيرونيمُس وغيرهم، فاختلف فيها العلماء. قال فريق منهم، وفيهم إوَلد والبارون بُنصُن، انها فينيقية الاصل، فانكر ذلك الآخرون وفيهم ددوَل وفان دايل.

اني اجهل تلك الشذور والكتب. اقول الشُذور لطفاً وكرماً. فقد لا يكون فيها ما يجيز هذا المجاز الشرقي الذهبي. ولكني انقل خبرها، واسماء ناقليها، [1] والمختلفين في حقيقتها [2] لمن يريد التقصي في المسألة من القراء العلماء.

---

(١) Claudius, Dius, Hieronymus chaitus, Menander

(٢) Dodwell, Van Dale, Ewald, Baron Bunson.

بقي الأثر الادبي الفينيقي الوحيد، الذي ذُكر مراراً، ونقل تكراراً، في الكتب التاريخية الحديثة، اعني تاريخ سنقون يَتن. لقد مر ذكر هِبسِكرَاطُس، احد الادباء الثلاثة الذين وصلت الينا اسماؤهم دون آثارهم. فينبغي ان اعلمك ايضاً ان بعض العلماء يظنون انه وسنشوناطُن واحد. فاللفظتان اليونانية والفينيقية هما نعت واحد لذلك الكاتب المشهور، معناه : السماء عرشه. كأن تقول : فلان العالي العرش، كما تقول : فلان ابن فلان الملقب بأبي العلاء.

وقبل ان اقدم للقارىء نموذجاً من ادب « العالي العرش » — هِبسِكرَاطُس سنشوناطُن — يجب ان اقول ان هنالك، في المغرب، كاتباً آخر لا ريب فيه، ولا في كتابه. هو قرطجني، وقد كان قائداً مشهوراً، اسمه ماغو، وكتابه في علم الزراعة كتاب عظيم في موضوعه، على ما يظهر، وفي تعدد اجزائه [1] فقد ترجمه دَيونِيسُس الى اليونانية، وترجمه سيلانُس، بامر من مجلس شيوخ رومه، الى اللاتينية.

وهنالك، في المغرب ايضاً، اول البحّارة المكتشفين، حَنّو القرطجني، وقد دون اخبار رحلته الشهيرة في الاوقيانوس غربي القارة الافريقية، في صفحات قليلة، ستقرأ بعضها بلغة هذا الكتاب في فصل آخر ان شاء الله.

اعود الآن الى « العالي العرش » سنقون يتن فاقول ان اول من كتب عنه، وترجم بعض تاريخه من الفينيقية الى اليونانية، رجل اقام في جبيل في القرن الاول للمسيح، اي بعد سنشوناطُن بنحو من الف سنة، هو فيلو الجبيلي الوثني. قد يكون هذا الكاتب اليوناني الفينيقي ترجم تاريخ سنشوناطُن

---

(١) جاء في الكتاب الناقل عنه (Corey's Ancient Fragments) ان القائد العظيم ماغو الّف في الزراعة ثمانية وعشرين كتاباً ! كتاباً ؟ — فصلاً ؟ — كراساً ؟ — والله اعلم.

بأجمعه، ففقد معظم الترجمة ولم يصل الينا غير نُبَذٍ منها.

وقد نقل بعضها الى اللاتينية يوزيبُس (٢٦٤ – ٣٣٨ م) الكاتب المسيحي المشهور بعلمه، وبحملاته على الوثنيات كلها، اللاتينية والاغريقية والفينيقية.

ليس في المصدرين ما يحمل على الثقة التامة بهما. فقد يكون اليوناني الجبيلي المتحيز لإغريقيته، والروماني المسيحي المتعصب للمسيحية، نقلا عن ذلك الوثني الفينيقي ما لاقيمة له ادبية او تاريخية، فجاآنا بمزيج تافه من الاساطير اليونانية والفينيقية التي كانت شائعة في ايام فيلو الذي عاش بين العهدين اليوناني والروماني. وهاك امثلة مترجمة عن الترجمة الانكليزية:

وكانت في البدء ريح قاتمة كدرة عاصفة منتشرة في كل مكان. وبعد حقب من الدهر شغفت تلك الريح بروح الحياة فيها، فاقترنت بها حباً بوصالها، فنشأ عن ذلك الاقتران مادة هلامية، او سائل كدِر. ومن هذا السائل الكدر ولدت جرثومة الحياة، ونشأ الكون.

وكانت منذ البدء الغيرة في الحب، والشقاء في الزواج. قال الكاتب الفينيقي في سفر التكوين سفره:

وفي ذلك الزمان ولد رجل سُمّيَ إليون (الاعلى) وامرأة أُسميت برُوث، فاقاما معاً بالقرب من جبل (جبيل) وولد لهما أُتكتُون الذي دعي بعدئذٍ اورانُس (السماء) واخت له دُعيت جي (الارض)

وعندما ورث اورانُس مُلك ابيه اقترن باخته جي، فرزقا اربعة اولاد هم كرونُس وبيتولُس وداجون [1] واطلس [2]

---

(١) داجون (حوت بري بحري) آله الفلسطينيين – صموئيل الاصحاح الخامس.
(٢) اطلس آله من الهة اليونان القديمة

وقد رزق اورانُس من زوجاته الاخريات اولاداً كثيرين، فهاجت الغيرة في صدر زوجته جي، فنقمت عليه، فتخاصم الزوجان وافترقا.

وكان اورانُس، مع ذلك، يزورها غباً، ثم يهجرها. وقد سعى لقتل الاولاد الذين ولدوا له منها فما افلح سعيه. وكانت جي تستعين بالجيران على زوجها الظالم. وقد قام من بينها كرونُس ينتقم لها من ابيه.

وقعت الواقعة بين الاب وابنه واشياعهما. فانتصر كرونس الابن على اورانس الاب، وطرده من المملكة. ثم خلفه على العرش. فشيد كرونس سوراً بعدئذ حول بيته، واسس اول مدينة فينيقيه، فدعاها جبيلا.

يظهر ان اورانس كان يعيد الكرة من حين الى حين على ابنه المغتصب ملكه، فيدُحر، فيهرب، فينجو بروحه. «وما كل مرة تسلم الجرة.»

... وفي السنة الثانية والثلاثين من عهد كرونس حمل اورانس حملة شعواء على ابنه، فكمن الابن للاب، وقبض عليه، وقطع آلته، قطعها بالقرب من نهر فوّار، فجرى الدم من اعضائه التناسلية في النهر فاحمر، وفارقت روحه الجسد هناك، فتقدس النهر لذكره.

وصار كرونُس آله الفينيقيين، الآله ايل الواحد، فتطور شكله في الاساطير المخلوقة والمقتبسة. قال سنقون يتن، نقلها فيلو:

وكان إكرونُس ثماني اعين، اربع من امام، واربع من وراء رأسه. وكان له اربعة اجنحة كبيرة. فكان يرى وهو نائم، وينام وعيونه مفتوحة. وكان يطير وهو جالس، ويجلس وهو يطير ...

مثلنا في هذا الزمان. نجلس في الطيارة، فنطير ونحن جالسون. اما العيون فان لنا منها، نحن اللبنانيين، اكثر مما كان لكرونس آله الفينيقين. ان لنا من الخيال، ومن الاحلام والاوهام، مائة عين وعين، فنرى الفراديس ونحن نائمون، وننام ونحن ماشون الى الهاوية!

حسبنا من هذا التطفل على مائدة فيلو الجبيلي. فالحق في الكلام حقه الآن. وقل الحق في الطبخ، فهو يطبخ ما يشاء من اساطير الاغريق والفينيقيين والفلسطينين والاشوريين، ويقدمها الواناً باردة باسم المؤرخ الفينيقي « العالي العرش » سنقون يتن.

وفي ذلك الزمان ولد ولدان أخوان، تِكْنِيتُس وجِيْنُس. فاخترعا صناعة الآجر، بأن مزجا القش بالطين، ثم بَنَيا السطوح للبيوت

وكان من سلالتهما أغرُس وأغرورُس، فبزاهما في الاختراعات فعُدّا من الآلهه. وكان أغرورس اعظم الاخوين، فبنى له الفينيقيون هيكلاً كان يحمله من مكان الى مكان زوج من الثيران

ومن اختراعات هذين الآلهين انهما جعلا للبيوت ابوابا باقفال — وساحاتٍ امامها. ومن سليلاتهما تحدر اولئك الذين يحرثون الارض، ويصطادون كلاب البر وحيتان البحار

ومن نسل الفلاحين والصيادين نشأ أميتُس ومامُس، فعلما الناس تربية المواشي.

وأميتُس ولد ميصور وصادق، اللذين اكتشفا الملح. وميصور ولد تُوتَ مكتشف احرف الكتابة. ومن نسل صادق تحدر اولئك الذين اخترعوا السفن، واكتشفوا المداواة بالاعشاب، وعلموا الناس علم التعاويذ

وكان الفينيقيون يقدسون ثمار الارض، فيؤلهونها — ويأكلونها. قال احد حكمائهم: قِوامُ الحياة ثمار الاشجار.

وكانوا في ازمنة الحرب يرفعون ايديهم الى الشمس، وقد اسموها بعل شمين (ربة السماء) فيستمطرونها بالصلوات.

وكانوا يقدمون الاطفال ذبيحة للأله ايل الآله الواحد. رواها فيلو ويوزيبُس. على ان هذه العادة لا تخلو من الاسرار الدينية الشبيهة ببعض الاسرار اللاهوتية في الدين المسيحي.

قال فيلو: ومن عادات الاقدمين انهم كانوا في نكباتهم يقدمون الاطفال قرباناً للالهة، يسترضونها ويسترحمون. فلا تهلك النكبةُ الواحدةُ جميع الناس. فالملك كرونُس (المشتري) الذي صار بعد موته آلهاً، وأُنزل في السيارة التي سُمِيت باسمه عندما كان ملكاً في الارض، ولد له من فتاة تدعى أنوبَرِيت ولد واحد سمّى بَأُوُد (الوحيد) وَقدم بعدئذ ذبيحة له. وعندما كانت الاخطار تحيق بالبلاد كان الملك يزين الهيكل، ويلبس ابنه الوحيد ثوب الملك، ويقدمه ذبيحة للآلهة

وفي رواية يوزيبُس بعض التفصيل:

لهذه الذبيحة السرية التي كانت شائعة عند الفينيقيين حدّان: يجب ان يقدمها احد امراء البلاد، ويجب ان تكون الذبيحة ولداً وحيداً. ومنها نشأت العقيدة الدينية بالفداء. فمن تقاليدهم انه سيولد للآله ايل ولدٌ يُدعى الوحيد، يولَد بالنعمة الآلهية بلا دنس، وَيُقدَم ذبيحة لابيه، كفّارة عن ذنوب البشر، ودفعاً للمظالم والبلايا، فلا تعم العالم، ولا يهلك بها جميع الناس.

ولكن الناس في جهلهم، وفيما يلزم الجهل من المخاوف، يفسدون العقائد السرية، وينسونها، فينقادون عماية للكهان، اصدقاء الامراء

والملوك، بل حلفائهم في الارهاق والاستعباد . وكان كهان فينيقية يقبلون بابن احد العامة من الناس ذبيحةً، ويتساهلون في الشرط الثاني، فلا يكون الولد دائماً وحيداً، فاستحالت العقيدة السرية عادة عامة . وهذه العقيدة في الفِداء والخلاص هي، على ما يظهر، فينيقية الاصل، كما انها سامية.

– وقد هَمَّ ابراهيم بتقدمة ابنه اسحق ذبيحة للرب...

– وارسل الله ابنه الوحيد الفادي مخلصاً للعالم .

ومثل فكرة الفداء فكرة البعث، روحاً وجسداً. فقد كان الفينيقيون، يعتقدون بها، ويعدونَ لها العدة، فيتزودون لذلك اليوم، يوم القيامة، يوم ينهض الملوك من قبورهم في الاثواب الملكية، والزينة والسلاح، ومعهم ما يحتاجون اليه من المال ذهباً وفضة .

كل ذلك كان يدفن معهم في القبور المرصودة . وخوفاً من ان تُفتح تلك القبور، وتُسلَب كنوزها، كانوا يكتبون على نواويسهم كلمات فيها تحذير وانذار، وفيها كذلك الكذبة الاخيرة الخالدة : لا مال في قبري ولا كنوز . اني اختم هذا الفصل بمثالين من تلك الكتابات .

انا تَبنِيت كاهن عشتروت وملك صيدا اقول : لا تفتحوا قبري ولا ترعجوني . ليس فيه كنوز، ولا ذهب ولا فضة . من يفتح قبري لا يفلح في حياته، ولا يلق في قبره الراحة .

وقد فتح الاثريون القبر، بعد ثلاثة آلاف سنة، فوجدوا فيه من المال ذهباً وفضة، ومن التحف والحلي الفضية والذهبية والشبهية شيئاً كثيرا .

وقد كُتِب على ضريح اشمونازار ملك المدينتين الصيداويتين، بعد مقدمة التعريف، ما يلي :

هذا القبر بنيته لنفسي . لا كنوز فيه، ولا ذهب ولا فضة . فلا تفتحوه، ولا تنقلوا ضريحي، ولا ترعجوني، ولا تدفنوا احداً فوقي. كل من يفتح قبري ويزعجني او ينقل ضريحي يُحرَم ضريحاً

لنفسه، ويحرم البنين في الدنيا . . . .

وعسى ارباب الملوك ان يعطونا في المستقبل يافا و الارض الخصبة في سهل شارون، فتُلحق بارضنا، وتبقى تابعة المدينتين الصيداويتين الى الأبد.

— وفي ذلك الزمان كان الملك اشمونازار من ارباب الاستعمار !

الصناعات والاختراعات

اني عارض لك في هذا الفصل اشياء فينيقية، صناعية وفنية. فلا سبيل ها هنا للحدس والتكهن، او للشك والنكير، ولا للتأويل والاجتهاد. هذه آثارنا تدل علينا...

وهوذا الفينيقي الراسخة قدمه في التاريخ، العاملة يده في بستان الحياة، البارزة اعماله فيما تبقى من آثاره. فهاك في المعرض آثار الحائك والصائغ والرسام والحفار، وصانع التحف والرموز والألاعيب

هو معرض الفن لا الفنان. ترى الحقيقة كلها في التحفة، ولا ترى، ولا تعرف، صاحبها او صانعها. لا شخصية مظللة ها هنا، ولا أنانية مضللة، لا طالب شهرة او مجد او مال. لكل شيء قيمته منه وفيه، مجردة من العوامل البشرية الفانية. فما العامل، وما الصانع، وما الفنان؟ ان هم الا خدامٌ مسخرون، سخرتهم الآلهة.

وان في ذلك ما يدعو للتأمل والتفكير. فان فنان هذا الزمان، وهو ناشد شهرة، او طالب مال، يسيء الى العبقرية بما في انانيته من النزعات المادية الفانية: وهو يكرهنا بالفنون لما تسببه تلك الانانية من التنافس والتضاغن بين الفنانين. هذا خد الحقيقة الايمن. اما خدها الايسر فهو ان الفنون الجميلة لا تنتشر وتزدحم بالسرعة التي تطلبها روح هذا الزمان، اذا هي جردت من شخصيات بشرية معروفة مشهورة.

فهل للحقيقة خدٌ آخر، او جبين يضيء بنور الخدين؟ وهل من مجال للتفضيل اذا نحن وازنا حسنات الشخصية في الفن بسيئاتها؟ حبذا الانسان الذي يحسن النقد والتذوق والتمييز، فيجرد الأثر الفني من شخصية الفنان،

وينظر الى ما صُنع، لا الى من صنع. وحبذا الفنان الذي يقرن الابداع الحديث بتلك الوداعة القديمة.

من دواعي الاعجاب بالفنان الفينيقي المجهول، حبه للاتقان في كل اعماله، وشغفه بالجمال في كل احواله، مع ميل الى المجون في منعطفات الفن، ومقدرة على التهكم في اغواره وانجاده.

ساقف بك عند تماثيله الفنية المصنوعة من الحجارة والخزف، ومن الفضة والشبه والذهب، واكثرها صغيرة، واهمها في نظري تلك التي تمثل الحيوانات. فان فيها تجتمع محاسن الفن صنعاً وشكلا ومعنى. فيها من دقة الصناعة والنظر، ومن رقة الذوق والشعور، شيء كثير. والكثير من هذه الحسنات، وخصوصاً الاولى منها، يندر في التماثيل الصغيرة، التي لا يسهل على الفنان الاتقان والكمال في صنعها.

ولا يفوتنك ان الرقة في الذوق والشعور تستحيل مع جهل الموضوع، او الفتور في معالجته. فقد كان الفينيقي محباً للحيوانات، عالماً بطبائعها فجاءت هذه التماثيل، على انواعها، وفيها الاسد والنمر والسعدان والغزال والحصان والثور والماعز والارنب والكلب والثعلب والحية والعقاب، جاءت تثبت مقدرته في النحت والابداع، وفي التصوُّر والتصوير.

خذ المثال من فرس البحر وهي في شتى الاشكال، واقفة ماشيةً مضطجعةً هادئةً هائجةً صارخة، تحمل على ظهورها التماثيل، وتنطق بمهارة الفنان، وبنظراته الصادقة البليغة.

قف عند هذه السعادين، المطربة المضحكة في اشكالها وحركاتها، وطموحها. هوذا السعدان الموسيقي، وقد حمل القيثارة، وحلق البصر في عالم الخيال والجمال.

وهوذا موضوع القصيدة العربية المشهورة – أفاطم لو شهدت ببطن خبت . . .

هو موضوع قديم قديم. يعود الى العهد الصواني الاول، يوم كان

الانسان زميل الاسد وعدوه، يقطنان الغاب الواحد، ويطردان الطريدة الواحدة، فيتصادمان ويتصارعان ويقتتلان. وهذه الجولة الفينيقية في الموضوع، انها لجولة موفقة، تريك الصراع البشري الحيواني الاول، وعلى الدوام الصراع الشعري — صراع الاسد والانسان.

وهذه السلاحف والضفادع والارانب والغزلان، لقد عرفها الفينيقي معرفة الرفيق المحب، فراقب حركاتها، وشغف بها. لولا ذلك لما استطاع ان يمثلها هذا التمثيل الصادق البليغ.

اما التماثيل البشرية فهي دون الحيوانيه في التصوير، وما هي دونها في التصوُّر. يظهر ان المرأة الفينيقية، مثل الاسرائيلية والعربية، كانت تخفي جسدها بالاثواب الصفيقة الفضفاضة. فحالت تلك التقاليد الساميَّة في اللباس، دون درس الفنان للجسم العاري، فقلّت التماثيل للمرأة العارية في الآثار الفنية الفينيقية، وجاء ذلك القليل منها سمجاً مشوهاً تافهاً.

على اننا نجد في مجون الفينيقي وتهكمه، وخصوصاً ما ظهر منها في تماثيل الرجال، بعض التعويض عما ينقصها جميعاً من فن وابداع. فما اختلفت حياة الاقدمين عن حياتنا اليوم في المواضيع التي تستذرف الدمعة الباسمة، وتثير الضحكة الحاسمة، في صفحات رائعة من الادب، وتحف نادرة من الفنون.

وهاك احد المواضيع التي تستوقف فتستوحي المجان، كاتباً او فناناً في سائر الامم الراقية — اعني ابا كرش. ذلك الفيلسوف الأمي، ذلك الظريف الخفيف الظل، الذي يمثله الفنان الصيني ضاحكاً ساخراً، ضاحكاً للحياة، ساخراً من قنطار اللحم اللاحق بعظامه، الحاجب عن ناظريه موطىء قدميه وظل جنبَيه.

وهوذا ابو الكرش الفينيقي، بتماثيل من الحجر والشبه والقيشاني، في اشكال شتى، آكلاً شارباً ماشياً مهرولاً، وحاملاً على كتفيه حمل الحياة — حِمل الحياة — خروفاً حولياً، كما يحمل الأطلس الكرة الارضية.

وهاك طائفة من الرجال في هيئات طريفة مضحكه : يتبختّرون، ويتصارعون . . . اين انت، يا ابن الاسبان، الفنان المجان — اين انت يا غُويَا من هذا الفينيقي، وقد سبقك الى ما مثلت في رسومك من اقفية قابضة، ووجوه متقبّضة .

اما الآية الكبرى في الفن والتهكم معاً فهي في هذا الفينيقي العاري، المتأبط خنجراً، الحامل سيفاً بيمناه، ورمحاً بيسراه. ولكنه فينيقي يأبى القتال، ويكره الحروب، ويتسلح لها ! كأنه من دعاة السلم في هذا الزمان.

لقد بلغنا في التطواف معرض الصاغة، وفيه انواع الحلي والتحف والاواني والتعاويذ، مصنوعة من المعادن الثمينة، والحجارة الكريمة، وهي تفصح عما كان لاولئك الفينيقيين من مهارة وذوق في الصياغة، وفي الحفر والتنزيل، ان في المعادن او الحجارة او العاج .

هذه الآنية من حجر الشطوط (الابستر) ومن الشبه والذهب والفضة، اللطيفة الاشكال، الناعمة الخطوط والتعاريج، الدقيقة الاجزاء، الأنيقة التكوين، للطعام، للخمر، للعطور، هي اجمل ما صنعه الفنيقيون في اوطانهم وخارجها. فقد وجد الأثريون منها في كل مستعمرة فينيقية عبر البحار .

واليك بمجموعة من الحلى باهرة — قلائد من ذهب، في اطرافها رؤوس الاسود المزئره، وقلائد كالحيات كانت تلتقي رؤوسها فوق صدور النساء، واساور من حجارة الجزع والعقيق المسلسلة، المزدانة اوساطها بالتعاليق من زبرجد وَجَمَشْت في اشكال هرمية وكروية. وهذه الخواتم الدقيقة الصَوغ، المرصعة بالزمرد والياقوت، وهذه الاقراط التي كانت تطاول اعناق من لبسنها، فتلمس الأكتاف منهن . . . وما نسيت المرأة الفينيقية ان تطلب من الصائغ ان يصنع الملاقط لشعرها، والمكاحل للعيون.

كل هذه الحلي والتحف والاواني وجدت في خرائب جبيل، في بقايا المعابد والبيوت، وفي مدافن الملوك والسواد من الناس — في نواويس من

الصوان، وجرار من الخزف .

ومن اجمل هذه التحف واغنها صوالج الملك، وهي فؤوس ذهبية[1] وفضية بقبضات من خشب الارز او السرو، وقد نقش في الفؤوس اشكال من الصبير الشمعداني، وخطوط مسنّنه، كانها مسلسلة من المددين ٧ و ٨ (هو نوع من الوشي قديم حديث، عرفه الفينيقيون، ولا يزال العرب يستعملونه في تطريز صدور القمصان والعباءات .

يقول بعض الأثريين والمؤرخين ان الفينيقي اقتبس الصناعات والفنون عن المصرين والاشوريين والبابليين، وانه مقلّد لا مولّد. اما الاقتباس فان فيه شيئاً من الحقيقة. واما التقليد فليس على شيء منها .

قد اشرت في فصل سابق الى الفينيقي المقتبس، والى طريقة الاقتباس التي امتاز بها عن جيرانه الشعوب المقلّدة. ومما لا ريب فيه أن ذكاء الفينيقي رافق عينه في كل جولاته وصولاته، فارسل فيما شاهد واستحب فكرة ثاقبة، ومخيلة وضاءة، فلانت الاشكال المستعارة لروحه، وانفرجت القوالب لرموز دينه، وتقاليد أمته .

ان اكثر ما كان من اقتباسه يتعلق بهذه الرموز والتقاليد، وللآلهة فيها يد مرنة منعمة : نحن مع الملك فيما تقتضيه سياسة البلاد، وخصوصاً منها السياسة الخارجية، الدائمة التحول والتبدل والتغير . فاليوم محورها مصر، وغداً بابل، وبعد غدٍ اشور وفارس. يقول الملك : المجد والسمو لفرعون . فيقول الآله اشمون قولاً يردده الكاهن الاكبر، فيزين الفنان هيكل الآله وتمثاله بقرص الشمس المجنحة ! المجد والسمو لمصر. وهذه بعلة جبيل تفوق الآله اشمون غيرةً ولطفاً وكرماً – تخلع ثوبها الفينيقي وتلبس ثوب الآلهة المصرية إيزيس !

---

(١) اخبرني مدير المتحف اللبناني الامير موريس شهاب ان في المتحف اليوم في بيروت اكبر مجموعة من الاسلحة الذهبية في العالم .

وقد اخذ الفينيقيون العجل عن المصريين، ونقشوا فيه التعاويذ والطلاسم الفينيقية، كما اخذوا الكركدَّنَ والفقنس من الحيوانات الخرافية لتحرس هياكلهم ، وتتعاون وآلهتهم، فتكون لهم خيراً في الاتجار، وسلاماً في الاسفار على الدوام.

هذه بعض الامثلة الدينية في الاقتباس. وان لهم في الصياغة كذلك، وفي صناعة الطلاسم والألاعيب، جولات اقتباسية وصولات. فيجيئون من مصر بورق الهردي وزهره، وبعقاب الاله را، ومن آشور بالاسد المجنح، ومن بابل ببعض الرسوم المسمارية، فيدمجونها في اختراعاتهم فتزداد الاعيبهم طرافة، وحليُّهم جمالا.

وهل من ضرر او عيب فى الاقتباس اذا قرن بالمعرفة والذوق والابداع ؟ ما انصف العلامة أبرِسْتِد في قوله ان الفينيقيين كانوا مقلدين فقط، يأخذون عن الاجانب كل ما يساعد في اتقان صناعاتهم وانتشارها. فهل يصح هذا القول فيما تقدم وصفه من الآثار التي، وجدت في جبيل ؟ وهل يصح في افانين النقش والهندسة والحفر والتلوين التي جمَّل بها أحيرام الصوري هيكل سليمان ؟ [1] وهناك شهادة اخرى ناصعة – شهادة الخصوم – وقد سُجلت في الاشعار الهومرية.

– وعندما وقف أخيل، في مأتم بَطْرُوقْل، يقدم اجمل كأس في العالم جائزة للمجلِّي في العدْو، قال ان تلك الكأس من صنع الفينيقيين.

– وعندما قدم منيلاوس الى تلياك اجمل واثمن ما يملك من التحف، كانت تلك التحفة كأساً فضية، ذهبية الفم، جاءته هدية من ملك صور

– وكانت الملكة هَكُوريا زوجة الملك أبرايَم « تتيه دلالا » في الاثواب التي جاءها بها باريس من البلاد الفينيقية.

---

(١) اقرأ وصفها الرائع في التوراة . الملوك الثاني ، الاصحاح السابع : ١٣-٤٥

تلك الاثواب، الفاخرة الباهرة، حسبها البطل الاغريقي جديرة بان تهدى الى ربات العروش. ولا غرو، فهي فينيقية الالوان، ومن صنع ايدي النساء الصيداويات.

كانت المنسوجات الفينيقية مشهورة في الشرق والغرب، في كل البلدان التي وصل اليها الفينيقي في قوافله او في مراكبه. تلك المنسوجات، من كتان وصوف وحرير، الباهرة الفتانة باصباغها الارجوانية، وما نشأ عنها، بفضل المخترع الفينيقي، من جميل التلون، ولطيف الشعاعات، تلك المنسوجات التي نظمت لها الاشعار، ودُبجت بها الاقاصيص في كل الازمنة، انما هي الركن الاول في تجارة الفينيقيين.

قلت انها من الصوف والكتان والحرير. اما الصوف فمعظمه كان من البلاد – وطنياً. واما الكتان والحرير فقد كان يجاب الاول من مصر، والثاني من بلاد فارس، ثم ينسج في صيدا وصور وجبيل على انوال فينيقية، ويُصبغ بتلك الاصباغ التي جاء بها الفينيقي من قعر البحر! اجل من قعر البحر. هي ذي الاعجوبة، وفيها اكتشاف، فيه اختراع.

اني اقص عليك القصة كما رواها المؤرخون والشعراء. كان احد الفينيقيين يمشي على شاطئ البحر، بين صور وعكا، ساعة الغروب. فرأى كومة من الاصداف، سال منها سائل اسود يشوبه احمرار.

تلك الاصداف، قذف بها البحر ساعة المدّ، وتركها بعد الجزر للشمس والرمال، فماتت الحيوانات فيها – ذبحها الظمأ.

وقف ذلك الفينيقي يتأملها، وقد صبغ دمها الرمال الجافة، فانبثق منها نور الوحي.

عاد الى بيته، يحمل بعض تلك الاصداف، ويرسل حلمه سابحاً في بحر، من الوان الشمس الغاربة.

تلك الالوان، ما فائدتها للانسان؟ تلك الالوان، ما اجملها في الحُلل، ترفل

بها الرجال، وتشتريها النساء بأثمن ما عندهن . هي ساعة الوحي التي تتقدم ساعة الاختراع .

لا نعلم الاسم الذي اطلقه الفينيقي على ذلك الحيوان، وليس في كتب الأثريين والمؤرخين غير اسمه العلمي اللاتيني — **Murex trunculus**

فهل المورِكسُ هذا من اقارب الاخطبوط **octopus** الذي يُستخرج من حبره في زماننا لونٌ بنيٌّ يُضع منه الـ« سپـِيا » للفنانين ؟ لا، يا سيدي. الاخطبوط حيوان كبير عارٍ فظيع الشكل، والموركس حيوان صغير وادع مختبئ في صدفة كالحلزون. وان له تحت رأسه غدةً تحتوي على مادة مائعة صفراء، شديدة الرائحة الشبيهة برائحة الثوم . فاذا استُخرجت هذه المادة، وصُبَّت على قطعة من قماش ابيض، ثم عرضت للشمس، فانها تتلون تباعاً باللون الاخضر، فالازرق، فالاحمر، فالارجوان .

هوذا الاكتشاف الذي تلاه الاختراع. فقد كان الصوريون يصطادون الموركس بالشباك والسلال، وفيها طعم من الدود او الضفادع. اما الغدد فكانوا يستخرجونها والحيوان حي، لان اللون يفسد بعيد الموت.

بعد ذلك تغلى الغدد، ومعها شيء من الملح، في آنية من رصاصٍ (الحديد او النحاس يفسد بما يذوب منه اللون الارجواني) تغلى الغُدد حتى يعقَّد الصباغ.

وان في تلك الطائفة من الحيوانات الصدفية انواعاً تختلف في غددها مادة الصباغ بعض الاختلاف، فاختبرها الفينيقي — في معمله الكيماني؟ — وهو يمزج بعضها ببعض، ويوالي التجربات، حتى اصبحت الاصباغ الفينيقية مشهورة في الشرق والغرب، وخالدة الذكر في التاريخ.

ان اختراع الاصباغ الارجوانية وما اليها هو اختراع فينيقي لاغبار عليه.

اما قصة اختراع الزجاج فهي لا تخلو من غبار الاختلاف. ان الزجاج نفسه على نوعين، المغبَّر والشفَّاف. فالاول قديم جداً، وُجد منه في مصر في

عهد الفراعنة الاول وقبله (٣٥٠٠ ق‌م) والثاني اي الشفاف اخترع بين القرنين الرابع عشر والخامس عشر، كما كان يظن العلماء.

وكانوا يقولون ان اول من اخترعه الفينيقيون. ثم قام منهم من انكروا ذلك، ونسبوا اختراعه الى المصريين، لكثرة ما في بحيراتهم من الصودا، وفي بلادهم من الرمال.

فانبرى المتشيعون للفينيقيين يقرعون الدليل بالدليل: ان في السواحل السورية وفرة من الرمل الصافي، الخالي من الحديد، الصالح لصنع الزجاج، وقد ادرك ذلك الفينيقيون في قديم الزمان، واستثمروا آمالهم. الا انهم كانوا يجلبون القلي من مصر او من داخل البلاد السورية.

وتشبث كل من الفريقين برأيه حتى هذه السنة (١٩٣٨) فجاءت البعثة الاثرية الاسوجية المصرية تؤيد اصحاب الرأي الاول بما عثرت عليه من الزجاج الشفاف في حفرياتها بالدلتا، وتصحح علمنا حتى اليوم— فالزجاج كان معروفاً في مصر في القرن العشرين. اذن المصريون، لا الفينيقيون، مخترعوه.

هذي هي الكلمة الاخيرة، الكلمة الحاسمة، اليوم. وقد يجيء الاثريون باكتشاف اخر غداً، وكلمة أخرى حاسمة.

على ان الأواني الفينيقية — ولا خلاف — هي من اجمل ما صنع في ذلك الزمان. وصلتنا منها تلك القوارير الرفيعة الأنيقة الاشكال، التي كانت تدعى قوارير الدموع، لظن خطأ لست ادري ما منشأه، وهو ان الفينيقيين كانوا يملأونها من دموعهم على موتاهم، ويضعونها معهم في القبور.

ولكن الأثري اليوم يصحح ظننا. فان تلك القوارير الجميلة، الملونة بالوان الفجر والغروب، كانت تستعمل في قديم الزمان، كما تستعمل امثالها في هذه الايام، للعطور، فتُقدم الى الآلهة مع القرابين، او تنثر على ضريح الميت، ثم تُضم الى ما يدفن معه من عدة وحلي، او من ادوات العمل.

ومن هذه الادوات المنشار، والفأس لقطع الاشجار، وادوات النقش

والصياغة، التي وجدت مع الطلاسم والتعاويذ في تلك التوابيت الخزفية – الجرار – وقد حوت، يوم اكتشافها، عظام خير الناس في كل الازمنة، عظام العمال، والصناع، والفنانين.

اعود الى موارد الفينيقيين في صناعاتهم. قلت انهم كانوا يجلبون الحرير من بلاد فارس، والكتان من مصر. وانهم اخترعوا الاصباغ، فكانت من تجاراتهم المهمة، فضلاً عن انها فتحت لمنسوجاتهم اسواقاً في كل مكان، وابواباً للتوسع في الاستعمار عبر البحار.

بقيت المعادن للصناعات والفنون. فمن اين جاءوا بها؟ من قعر البحر استخرجوا الاصباغ. وقد علمت الحقيقة، فانكشفت لك الاعجوبة ومن قلب الارض وصخورها انتزعوا المعادن الثمينة. اذن ساختم هذا الفصل بكشف الاعجوبة الثانية.

وصل الفينيقيون في اسفارهم الى الجزائر البريطانية – قبل ان وصلوا، على ما اظن، الى قلب الارض – فعادوا منها بالتنك. وجاءوا بالنحاس من قبرص وشبه جزيرة سينا. وقد صنعوا الشبه (برونز) من المعدنين على القاعدة التي لا تزال متبعة في زماننا: تسعة اجزاء من النحاس لكل جزء واحد من التنك.

ولكن اعمالهم الجبارة، بعد جوب البحار، انما هي في التعدين. قال بوصيدون الاغريقي الصوري، الذي عاش في القرن الاول قبل المسيح، انه في اسفاره في بلاد الغرب وصل الى اسبانية الجنوبية، حيث شاهد المعادن التي كان قد فتحها الفينيقيون، واستثمرها بعدهم القرطجنيون والرومان.

واشد ما كان اعجاب ذلك الصوري الاغريقي بتلك الاعمال الهندسية. كان الفينيقيون ينقبون في الارض حتى الصخر الصلد، ثم ينقبون افقياً من الاعماق التي يبلغونها، فتمد منها الدهاليز في الجهات المختلفة الى حيث يظهر المعدن. ومن هناك، او من بعض الدهاليز، كانوا يثقبون اثقاباً الى سطح

الارض للهواء، واثقاباً اخرى في ارض الدهاليز لتشرب منهـا المياه إبان الامطار .

اني اجنح الى الاعتقاد ان تقاليدهم في حفر القبور — قبور الملوك في جبيل وصور، ومثلها في البحرين — مع الحُجُرات في جوانبها والسراديب من بعضها الى بعض، أوحت اليهم بالتنقيب في الارض عن معادن الذهب والفضة. حفَّار القبور صار معدِّنا .

وبعد ان يخرجوا المعدن من قلب الارض، كانوا يحمونه في النار الى درجة معلومة من الحرارة، ثم يُجرون اليه المياه بقوة من الضغط معلومة، فتعجنه عجناً، ثم يُغسَل ويصوَّل،فيُفرز المعدن من المادة الحصوية التي احتوت عليه .

اما القوة المائية فقد كانوا يحرزونها بما يبنون في اعالي الجبال من الاحواض، التي تمتد منها القني الى مصانع الجرش والتصويل .هي، على الاجيال، الطريقة التي لاتزال متبعة في زماننا الحاضر .هذا اذا استثنينا قوتي البخار والكهرباء اللتين اعتضنابها عن القوى البشرية، وعن اختراع ارخيميد في رفع المياه .

وما حاول الفينيقيون ان يفرزوا المعادن المختلطة بعضها من بعض،فجاء ذهبهم وفيه احياناً شيء من الفضة، وكان يتخلل الفضة، الرصاص .

وفيما سوى ذلك فانهم في التعدين من الرواد . بل هم ابعد الرواد مدى، وامهرهم يداً، واكثرهم شجاعة واقداماً وتجلداً .

ولقد وصلت اخبارهم العجيبة الى ايوب الصديق . فردد ذكرهم في صرخاته، ومرير كلماته (٢٨ : ٤ — ١٠)

حفروا المناجم بعيداً عن السكان .

بلا موطىء للقدم، متدلين .

بعيدين من الناس، يتدلدلون .

وما كان يعني غير ذلك المعدِّن الفينيقي بقوله :

الى الصوان يمد يده،
يقلب الجبال من اصولها،
ينقر في الصخور سرباً،
وعينه ترى كل ثمين .

نشوء الالفباء

قبل ان نقص قصة نشوء الالفباء، التي مكنت الانسان من تدوين افكاره واخباره، واديانه وشرائعه، واساطيره وخزعبلاته، على الانصاب والاطواب، على الواح الشبه والخزف، على ورق البردي، على الرق، على القرطاس، هذه الالفباء التي ملأت الدنيا كتباً مفيدةً ومفكهةً ومبلبلة — نفيسةً، تافهةً، بليدة — وهذا الكتاب من احد الانواع الثلاثه — يجب ان نستعرض ما تقدمها من الكتابات التصويرية والمسمارية والهيروغليفية .

في العهد النيوليتيك، منذ نحو اثني عشر الف سنة، اي عندما كان الانسان يحسن ويصقل ادواته الحجرية، من صوان وغيره، بخلاف ما تقدمها في العهد الصواني الاول اي الپليوليتيك، بدأ يرسم على الصخور والعظام ما يراه، ويتأثر به، من حيوان ونبات وجماد، ليعبر عن بعض ما يريد من فكر، او يحتاج اليه من قوت او اداة او ماعون .

وقد شاعت هذه الكتابة التصويرية وأتقنت في الصين قديماً، وفي اميريكة الوسطى في عهد حضارة المايا (Maya)، وظلت حتى القرن الماضي تستخدم في بعض مدن المكسيك، وبين هنود اميريكه الشمالية .

اخبرني احد المعمّرين في مريدا عاصمة اليوكاتان أن شوارع المدينة حتى النصف الاخير من القرن الماضي كانت تسمى باسماء الحيوانات، وتعرف برسومها، كالديك والثور والهر والكلب الخ، المعلقة تحت المصابيح او على الجدران .

وقد رأيت مثالا من كتابات الهنود باشكاله وصوره، كالدائرة للفم، والدائرة ذات الخطوط الخارجة منها للفم الناطق. ورأيت رسماً لمركب ،

بوسطه خطوط عمودية هي عدد الرجال فيه، والى جنبه قوس يمثل السماء، وتحته نقط هي عدد ايام الرحلة.

هذه اللغة بالاشارات والرموز استعملها الاولون كما تستعمل اليوم لغة الاشارات باليد والانامل بين الصم البكم من الناس.

ولكن بعض الاقدمين ما احسنوا الكتابة بالصور والرموز – ما احسنوا التصوير – كالسومريين مثلاً في وادي الفرات، الذين اتخذوا الخطوط ذات الرؤوس والتيجان، الشبيهة بالمسامير، وسيلة للتفاهم، فكانوا يركبونها تراكيب مختلفة ليعبروا عما يريدون، فسميت طريقتهم اللغة المسمارية.

اما في وادي النيل فقد نشأت من التصاوير والرموز الاولى اللغة الهيروغليفية، اي لغة الكهان التصويرية (هيرو كاهن. غليف – صوره)

وقبل ان بدأ الانسان «يسمر» افكاره واخباره في وادي الفرات، «ويُهَرْلِف» في وادي النيل، مرّ على محاولاته في الرسم والتصوير نحو خمسة آلاف سنة.

اما اللغتان المسمارية والهيروغليفية فكلتاهما تعود الى الالف الرابعة او الخامسة من العهد السابق للمسيح. ولا يمكن التحديد بغير المئات من السنين، فنقول مثلاً: بدأ السومريون يكتبون بالمسمارية في القرون الثلاثة او الاربعة من أواخر الالف الرابعة (٣٩٠٠ – ٣٦٠٠ ق.م) ومَن من الامتين، السومرية والمصرية، كانت السابقة في هذا المضمار؟ وبكلمة اخرى اية اللغتين اقدم؟ هذا السؤال يشمل كذلك الحضارتين في وادي الفرات ووادي النيل، وفي الجواب عليه يختلف الأثريون.

سألت صديقي الاستاذ اليوغرَنت، الذي قضى بضع سنين ينقب في العراق، هذا السؤال، فاجابني في كتاب انقل منه ما يلي:

«مما لا ريب فيه ان الاقتباس والمقايضة في الحضارتين وبينها يعودان الى اقدم الازمنة الحضارية في وادي النيل ووادي الفرات.

الا اني اميل الى الاعتقاد، وقد يكون ميلي ناشأ عن اختصاصي بالآثار العراقية، ان حضارة الفرات اقدم من حضارة مصر. ولكن الاختصاصي بالآثار المصرية يؤكد لك ان حضارة مصر اقدم الحضارات في الدنيا. وفي الاثنين تحيز. فقد يكتشف غداً في وادي الفرات ما يفسد زعم الاثري المصري، او في وادي النيل ما يحمل الاثري العراقي على التراجع، اما الحقيقة اليوم فهي ان الحضارتين متساويتان في القدم. ومن المضحك ان نتعصب لاحداهما ضد الاخرى.»

اللغتان المسامرية والهيروغليفية اذن نشأتا في زمن واحد، مقداره مئة سنة او مئتان او ثلاثمئة من السنين، نشأتا مما تقدمها من الرسوم والرموز ومقاطع الكلام.

ثم تطورت المسمارية، فبدّل واسقط منها، في انتقالها من السومريين الى العقاديين، فالبابليين، فالاشوريين، فالايرانيين. وقد نشأ عنها في العهد الايراني طريقة اولية في الكتابة الهجائية، تلتها تجربات في اوضاع الالفباء. كما سترى.

وقد كانت المسمارية العقادية في الألف الثانية من العهد السابق للمسيح شائعة في الشرق الادنى، تُكتَب بها الحسابات والعقود كما تبين في رسائل ملوك آشور وبابل الى الفراعنة ومنهم، وتسجل بها المعاهدات الدولية، كما في الكلام على المعاهدة بين ملكي ميتاني وآشور.

وكانت الهيروغليفية على نوعين، الهيراتيك اي لغة الكهان، والديموتيك لغة الشعب. وهذه الاخيرة اختلطت بالمسمارية العقاديّة في بعض اوضاعها كما تختلط الفرنسية بعربية اللبنانيين، والانكليزية بعربية اهل عدن والبصرة، في هذا الزمان وظلت الشعوب الاسيوية، من سومر الى مصر، تستعمل اللغتين المسمارية والمسمارية الديموتيكية حتى القرن العشرين. فما

تغير فيها غير اللهجات، وبعض الاصطلاحات المحلية.

مما يثبت ان اهل جبيل مثلاً كانوا يستعملون اللغة هذه الهيروغليفية المسمارية ما وجده الاثريون في قبر الملك ايشمو ابي (١٩٠٠) وهو صولجانه المصنوع من الشبه، وقد حفر فيه اسم الملك بحروف هيروغليفية.

واهم من ذلك ما اكتشفه الاستاذ دونان في جبيل، وهو لوح من الشبه بحجم صفحة هذا الكتاب محفور في صفحتيه كتابة ظاهرة جلية، اخبرني مدير دار الآثار انها هيروغليفية مسمارية، وان فيها بعض حروف لا تزال مجهولة. هذا اللوح يعود في القدم الى نهاية الالف الثالثة (٢٩٠٠)

ومهما اختُلف في تحديد الازمنة، فمما لا ريب فيه ان لغة الهجاء، او بالاحرى الالفباء، لم تكن تعرف قبل القرن العشرين. ومن المرجح ان اولي الفكر الرواد في كل الامم بدأوا في مطلع القرن العشرين يفكرون في تأليف لغة بسيطة من اللغات التي كانت شائعة في تلك الايام، فضلاً عن ان التطورات الاجتماعية والسياسية واتساع نطاق المواصلات والتجارة، كانت تتطلب ذلك. وقد افلحت المساعي الاولى في شبه جزيرة سيناء في القرن التاسع عشر.

كانت تلك البقعة من البلاد بين سورية ومصر محط رحال الرواد والمغامرين في عالم المشاريع والذهب! كانت هناك المناجم — كانت هناك الارض الغنية بالنحاس والذهب والحجارة الكريمة. فلا عجب اذا كان سكان سيناء الساميون على جانب عظيم من النشاط والاقدام، والمغامرات الصناعية والتجارية والفكريـــة. ولا عجب اذا كانت التجربات والمحاولات في الاوضاع الالفبائية نجحت اولاً هناك. فقد اكتشف السر فلندرس پتري سنة ١٩٠٤ في جبل سيناء، بالقرب من معادن الزمرد المصرية، احرفاً هجائية هي الاولى من نوعها في تاريخ الكتابة هي احرف الالفباء. ومما لا ريب فيه ان الذين اخترعوها هم ساميون، وانهم استعملوا

ما وجدوه في الهيروغليفية من الاحرف التي تلتئم وغرضهم، شكلاً ولفظاً، ومن تلك المؤلفة من مقطع واحد الصالحة للهجاء، كما انهم اقتبسوا اجزاء من بعض الصور الحيوانية، واكتفوا بجزء واحد من البعض الآخر، فوضعوا ثلاثين حرفاً هجائياً عدوها كافيةً للكتابة.

وهذه الالفباء السينائية هي أم الفباءات النبطية والعبرانية والآرامية والفينيقية، التي تحورت وتغيَّر فيها وفقاً لحاجات اهلها المتجددة، ولهجاتهم المتعددة، وتقاليدهم المحلية التاريخية والدينية.

هذا ما يقوله المتشيعون لهذه الالفباء من الأثريين والعلماء. وقد خالفهم العالمان الافرنسيان دوسو ودونان. فقال دوسو ان البحث عن اصول الالفباء الفينيقية لا ينبغي ان يكون في شبه جزيرة سيناء، بل في آثار الفينيقيين انفسهم: من ذلك ناووس احيرام الذي كان معاصراً لرعمسيس الثاني. أضف اليه حاجة الجبيليين التجار الى لغة بسيطة يتعاملون بها، وحاجة مدرسة الكهان في جبيل الى لغة تصلح للتعليم.

اما الاستاذ دونان فقد اكتشف ماهو اقدم من ضريح احيرام — اكتشف كتابة الفبائية يعود تاريخها الى القرن الرابع عشر، اي قبل رعمسيس واحيرام باكثر من مائة سنة، وبعد الاكتشاف السينائي بخمسمائة سنة. وهو يقول قد يكون اللوح (الذي اشرت اليه) الهيروغليفي المسماري أمَّ الالفباء الفينيقية. ولكنه، وان لم يقرأ بعد، بعيد عما يميل اليه الأثري المحترم. فان ظاهر اشكاله الكتابية تنفي هذا الظن.

من الواجب عليَّ، في كل حال، ان اعلمك برأي الفريقين. فقد قال المستشرق الاميركي الاستاذ آلبرَيت ان التقصي في درس الآثار الكتابية الفلسطينية يصل بنا الى جسر فيها يمتد فوق الفراغ بين الالفباء السينائية وما سبقها من محاولات وتجربات في العهود السابقة. فلاشك اذن في ان مصدر الالفباء الفينيقية هو في الالفباء التي اكتشفت في جبل سينا.

ويقول المكتشف السرفلندرس پتري اكثر من ذلك. فهو يزعم ان مصدر الكتابات الالفبائية كلها كامن فيما اخترع قديماً من احرف الهجاء في جزائر الارخبيل.

لا يهمنا، ولا يفيدنا، هذا التوسع الان في الموضوع. انما يهمنا ان تنجلي الحقائق للقاري. وتتضح النظريات، فلا يرسخ في ذهنه غير المحقق الثابت منها اذن سنحصر الكلام فيها الآن.

فمن الثابت المحقق ان شعوب آسية الصغرى، الآريين والساميين، كانوا يحاولون، في النصف الاخير من الالف الثانية، اي بين ٢٠٠٠ و ١٥٠٠ قبل المسيح، ان يغيروا ويحسنوا في لغاتهم المعروفة المسمارية والهيروغليفية والمختلطة، ليتوصلوا الى لغات اصلح منها للكتابة. وذلك لسببين اولين، احدهما انتشار التجارة الخارجية بين هذه الشعوب واحتياجهم في المراسلات والحسابات الى لغة كتابية سهلة. والسبب الآخر هو مستوى الرقي العقلي وانبثاق الفكر الرواد منه. ابتغاء للاكتشاف والاختراع.

وان انصع الادلة على ذلك لفي الحركة الالفبائية في الزمان المختص بهذا البحث. فقد اكتشف الأثريون كتابة الفبائية اخرى، مؤلفة من ثلاثين حرفاً ونيف، تشبه الفينيقية في انها خالية من حرف العلة، وتختلف عنها في انها ناشئة عن اللغة المسمارية.

هي الالفباء المسمارية التي اكتشفت سنة ١٩٢٩ في راس شمرا (سورية الشمالية) والتي تعود في تاريخها الى ما بين القرنين السابع عشر والخامس عشر، اي بعد الالفباء السينائية بمئتي سنة. كل ذلك بالتقريب.

ومن اكتشافاتهم الالفبائية كذلك ما اكتشف في النصف الثاني من القرن الماضي (١٨٦٨) وهو أثر الملك ميشا يدعى حجر موآب، لانه أكتشف هناك. هو اول الاكتشافات الاثرية الالفبائية، واحدثها عهداً (٩٥٠ ق م) وهو يحتوي على اوضح واتقن كتابة هجائية موجودة حتى

اليوم. هي اللغة الالفبائية التي كانت تنسب الى الفينيقيين، وهي اول الآثار التي يهتدي بها الاثريون في عودتهم الفاً وخمسمئة سنة الى زمن المحاولات والتطورات الكتابية الذي انتهى بالالفباء السينائية .

ومن ذلك الزمان استمر الفينيقيون وجيرانهم في الجنوب يحسنون في الالفباء هذه حتى اصبحت بعد الف سنة صالحة للتعبير عن فكر اول الشعراء هوميروس وخياله في ادق مواقف التفكير واقصى مرامي الخيال .

يقول الاستاذ جان فَلَيت : [1] « الرأي الراجح اليوم هو ان الالفباء اختراع سامي، وان الالفباء السينائية هي اول الاختراعات الالفبائية . »

وقد اكتشف الأثريون في سورية وفلسطين، في السنوات العشرين الاخيرة، غير ما ذكرت من هذه الكتابات، اثبت اهمها بتواريخها الاركيولوجية :

الكتابة السينائية	١٩٠٠ — ١٨٠٠ ق.م.
الالفباء المسمارية (دير شمرا)	١٦٠٠ — ١٤٠٠
الالفباء الجبيلية	١٥٠٠ — ١٤٠٠
ناووس احيرام	٩٠٠ —
اثران لأبيبعل وَإليبعل (جبيل)	١٠٠٠ —
حجر موآب (فلسطين	٩٠٠ —
رسائل تل الدوير (فلسطين) [2]	٦٠٠

اذن في قصة الالفباء مظهر من مظاهر النشوء والارتقاء وليس فيها ما يصح ان يدعى اكتشافاً او اختراعاً . فالخلاصة مما تقدم هي ان الفينيقيين

---

(1) The Haverford Symposium on Archeology and the Bible صفحه: ١٢٨

(٢) هي ثماني عشرة رسالة كتبت بالحبر على قطع من الخزف، كتبها بعض المرابطين على الحدود، في غزوة الكلدانيين لفلسطين سنة ٥٨٩ ق . م ، الى قائد الحامية في تل الدوير .

على عهد الملك ابشموابي (١٩٠٠) كانوا يستعملون احرفاً ورسوماً في الكتابة هي خليط من الهيروغليفية والمسمارية وغيرهما من لهجات الشعوب المجاورة لهم. وان الالفباء السينائية تقدمت الالفباء الجبيلية بنحو من اربعمائة سنة. وان في الاثنتين احرفاً شبيهة بعضها ببعض. وان الرغبة في التخلص من اللغات واللهجات المسمارية والهيروغليفية والمحاولات الالفبائية التي صحبتها، ظهرت في النصف الأخير من الألف الثانية قبل المسيح — ظهرت في الشعوب السامية والآرية في جنوب البلاد وشمالها.

فالقول ان الفينيقيين هم الذين اخترعوا الالفباء لا تثبته الاكتشافات الكتابية التي مر ذكرها. وليس له من الانصار، في علم الآثار الحديث، غير ثلاثة او اربعة من العلماء منهم العالمان الافرنسيان دوسو ودونان اللذان ترأسا الحفريات بجبيل. وانهما لمن الاختصاصيين. وانك لتذكر ما قاله الاستاذ غرنت فيما نقلت من كتابه عن الاختصاصيين وتشبثهم بنظريات تتعلق بموضوع اختصاصهم.

فقبل هذا الاختلاف، وقبل اكتشاف الكتابة السينائية، كتب المؤرخ رولنسون المحقق، المدقق، المعجب، بالفينيقيين كل الاعجاب، ما يلي[1]

« ليس من الثابت ان الفينيقيين اخترعوا الاحرف الهجائية المنسوبة اليهم وقد يكونون المخترعين. انما من المؤكد انهم حسنوا ما كان شائعاً في تلك الايام. »

لا ريب في انهم حسنوا الالفباء السينائية، فجعلوها اقرب منالاً، واسهل استعمالا. وجدير بهم ان يفعلوا ذلك، وهم التجار المشهورون في العالم القديم. والتجارة تحتاج في اسبابها وحساباتها ليس الى الارقام فقط، بل الى الكتابة ايضاً.

والتجارة والعلم يمشيان معاً، ففي عهد بابل المجيد كانت الاسبقية في التجارة للبابليين، فراحوا غرباً يتاجرون، ونشروا معهم حيثما حلوا علم

---

(١) الفينيقيون صفحة ٣٢٩

الكتابة المسمارية.

وكذلك فعل الفينيقيون. فقد نشروا الالفبا. في إبان عهدهم التجاري. وكان اول من اخذها عنهم الاغريق، لانه لم يكن هناك غيرها، ونسبوها اليهم لانهم لم يعرفوا غيرهم آنئذ من تجار الشرق.

بعد ان اكتشف السر فلندرس پتري الكتابة الالفبائية السينائية، شرع يدرسها ويتقصى في البحث والاستقراء، بما لا يخلو من الحماسة الاكتشافية والتصور، ثم ادلى بنظريته الشاطّة، وهي ان للكتابة الالفبائية كلها مصوراً واحداً هو جزائر الارخبيل . وبالاحرى جزيرة كريت التي كان قد اكتُشف بعض آثارها في مدينة كْنُوسُس (Cnossos) البائدة . وخصوصاً في قصرها المعروف بهذا الاسم . تلك الآثار الهندسية والفنية والثقافية تمثل حضارة قديمة، تعود الى عهد الحضارة المصرية الاول، وتجاريها في الرقي والعمران . وقد دعاها الأثري العلامة إڤنس، رائد الأثريين في تلك الجزيرة، الحضارة المينوسية نسبةً الى آله الجزيرة مينوس[1] او الى ملك من ملوكها اتخذ اسم ذلك الآله .

ولكن الاثريين، وقد استمروا في البحث والتنقيب هناك، واستأنفوا اعمالهم بعد الحرب العظمى، اكتشفوا من العاديات ما يدل على اتصال بين الحضارتين المينوسية والمصرية، وفيه من الاقتباس والتقليد ما هو جدير بالاعتبار . من ذلك اختام نُقشت فيها كتابة هيروغليفة، وآنية رُسم عليها زهر الهردي . فهل يصح ان نقول، لمجرد هذه الآثار، ان الحضارة المينوسية هي الاصل والحضارة المصرية فرع منها ؟

تراني في هذه الفصول اكثر الاشارة الى اعمال الأثريين، واهميتها في تصحيح التاريخ . فيجب عليَّ ان احدد كلماتي، فاحصرها في الاعمال دون

---

(١) جاء في الاساطير ان مينوس مخترع الاحرف الهجائية .

الآراء. ان الأثر الكتابي او الفني او الثقافي، الذي لا يختلف الأثريون في قراءته او تحديد معناه وتفسيره، هو من الحقائق الجديرة بالاعتبار. ولكني احذرك من الاستقراءات والنظريات الخاصة. فقد اسلفت القول في مبالغات الاختصاصيين، وتحيزهم لموضوع اختصاصهم، فذكرت واحداً منهم، ونقلت لك ما صارحني به، حباً بالحقيقة[1].

ومن تلك المبالغات نظرية السر فلندرس پتري في مصدر الكتابات الالفبائية، وادعاء بعض المشتغلين في البحث والتنقيب في جزيرة كريت، ان الحضارة المينوسية هي اقدم الحضارات، او انها والمصرية والسومرية واحدة في القدم!

واني احذرك كذلك من النظريات المبنية على كتابة في أثر او صورة في تحفة، او شكل في ماعون، اللهم اذا كان الاثر فريداً لا شبيه له. فقد اكتشفت في قصر كُنُوسُس درعٌ فينيقية، فهل يستنتج منها ان الفينيقيين احتلوا في قديم الزمان، او حاولوا ان يحتلوا، جزيرة كريت؟

ومن الآثار الكريتية آنية من الخزف ملونة ورسومٌ على جدران القصر موسومة بالاصباغ الجميلة. ومن تلك الآنية اناءٌ منقوش عليه رسم الحيوان البحري « موركس » فهل يستنتج من ذلك ان الكريتيين اكتشفوا هذا الحيوان، واخترعوا من المادة فيه الارجوان!

هذه الطريقة في البحث يلجأ اليها العلامة الافرنسي ڤكتور برار، الاختصاصي في الفينيقية والفينيقيين، ليثبت نظريات له شبهية بنظرية السر فلندرس پتري في مصدر الكتابات الالفبائية. ولكن العلامة برار يقلب الآية: « في فينيقية ومصر مصدر الحضارة الاغريقية »!

قرأت كتاب برار **Le Resurrection d'Homère** الحافل بالاجتهادات الادبية والعلمية والشبه علمية — اجتهادات يهلل لها غلاة الفينيقية، ولا

---

(١) راجع صفحتي ٥١٠-٥١١

يستطيع ان يحصها غير من كان عالماً بلغات الأقدمين — الفينيقية والعبرية والآرامية والهيروغليفية والمسمارية واليونانية واللاتينية!

فهل ينبغي ان اقول للقاري، اني لست هذا الرجل العالم؟ ولكني وقفت عند بعض نظريات العلامة برار، وقد جرَّته الى ذكر اللغة العربية، ففهمت ودُهشت. وقبل ان اجيء على ذكرها انقل بعض ما في الكتاب من سديد القول، وسلامة الفكر والنظر.

« جرت العادة خلال عشرين سنة ولت (١٨٩٠ — ١٩١٠) ان ينكر العلماء كل ما نسبه الاقدمون الى الفينيقيين. وهو نوع من التعصب العلمي ضد السامية، تزعَّمه في فرنسه سلمون ريناخ وايزيدور ليفي. فطرد ريناخ الفينيقيين الممدِّنين من بلاد الاغريق القديمة، وبشطحة قلم أغرقهم ليفي في البحر المتوسط — محاهم من لوح الوجود. »

لا أثر لهذا التعصب في المباحث الفينيقية الحديثة، على ما اعلم. فان في الكتاب[1] الذي بين يدي الان مقالات لنخبة من الأثريين، وكلهم مجردون من التحيز، يثبتون الحقائق بالدقة التي يستوحيها العلم، ولا يتطوحون في الاستقراء. فهم يرون مثلاً ما يراه العلامة برار في كلام المؤرخ هرودوت على الفينيقيين. «كانت المراكب الفينيقية تحمل الى بلاد الاغريق احمالاً من البضاعة، نصفها مصري، والنصف الآخر اشوري». والبضاعة الفينيقية، ياابا التاريخ!؟ ان هيرودوت متحامل على الفينيقيين الذين علموا الاغريق اشياء كثيرة، وفي رأسها الملاحة.

الملاحة، واشياء أُخرى كثيرة — الكلام لفكتور برار. فهم الذين سبقوا الاقدمين جميعاً الى اكتشاف واستيطان البلدان اليونانية، هم الرواد، وهم المعمّرون. فقد اطلقوا على الثغور والجزائر التي اكتشفوها اسماء فينيقية، وقد حملوا الى تلك البلاد بضاعتهم وثقافتهم وحضارتهم

(١) The Haverterd symposium

واساطيرهم التي كان يقصها النوتيون. يشهد على ذلك شيخ الشعراء هوميرُ. في شعره الخالد وهذا الذي حدا العلامة الفرنسي الى تأليف كتابه « بعث هوميرُ ».

اما علم الملاحة فالارجح انه فينيقي الاصل. وهناك اسطورة تتعلق بابراهيم الخليل وهذا العلم، ارجئها الى فصل آخر. اما الحقيقة المعترف بها اليوم فقد يكتشف الاثريون غداً ما يثبتها او ينفيها. يثبتون او ينفون ما قاله قديماً اسطرابون، وهو ان الصيدونيين اول من اهتدوا بالدب الاكبر في الملاحة. وعنهم اخذ اليونان هذا العلم.

ولكن العلامة برار يسترسل تارة في حماسته الفينيقية، وطوراً يقيدها بالاستدراكات. مثال ذلك قوله، بعد الحصر والاطلاق، ان الفينيقيين والمصريين والحثيين هم الذين علموا اليونان الاقدمين وحضروهم —فالمراكب التي كانت تحمل البضاعة الفينيقية والمصرية والآشورية الى البلاد اليونانية حملت كذلك الحضارة المركبة من الحضارات الثلاث.

ومن اقواله ان البحر المتوسط كانت له في مختلف الازمنة صفات استعمارية خاصة. هي الفينيقية واليونانية والعربية (في عهد الامويين في الشام وفي الاندلس) والطليانية (مدينتا البندقية وجنوا) ثم الاتراك صبغوه بصبغتهم المغولية التترية، ثم الفرنجه في زمانا.

اذن كان الفينيقيون اسياد الارخبيل قبل اليونان. واين كان المصريون — المصريون الذين غزوا فينيقية الغزوة الاولى في القرن الثامن والعشرين قبل المسيح — المصريون الذين بنوا الاساطيل البحرية في القرن التاسع والعشرين؟ اسياد الارخبيل؟ انها لا تزال من غوامض العلم. وقد تُكتشف غداً الحقيقة الراهنة، فنعلم اذ ذاك مَن مِن الشعوب الثلاثة — المصريين والفينيقيين والكنُوسيين — كان الاول في جوب البحار.

قلت ان العلامة برار يعود الى اشعار هوميرُ وخصوصاً الاودِسّي، ليثبت

نظريته ان كثيراً من الاساطير الاودسية، واسماء الاعلام فيها، هي فينيقية الاصل. واحياناً يقول : فينيقية سامية ليتسع له باب الاجتهاد. فالبطل برو ُتس في الاودسي مثلاً هوبروتي، اي الاسم الذي اطلقه كهان مصر على الفرعون. اذن لمصر كذلك فضل على هومير.

وهاك مثالاً من مباحث برار التاريخية اللغوية — الاجتهادية : بين الجزائر السبع اليونانية جزيرة فقدت اسمها القديم، واسمها الاقدم السامي. اما اسمها اليوم فهو كر ُفو. اما اسمها القديم فهو كركير وهو غير يوناني. وان له قصة طريفة جاءت في الاودسي.

يوم كان عولس عائداً الى أثيكا نقم عليه آله البحر، فحول مركبه الى صخرة عند الشاطىء، فسميت الجزيرة باسم ذلك المركب، تذكاراً للحادث المفجع. ثم قال العلامة برار ان معنى كركيرا المركب السريع، وان الاسم فينيقي سامي. « فقد كان العرب والعبرانيون يسمون المركب السريع والناقة السريعة كر ُكر ُ او كر ُكور. »

لست، كما قلت، ممن يستطيعون ان يجاروا العلامة برار في علومه اللغوية. ولكني من الكتاب الذين يقتنون قاموساً، ولا يزدرون اصحاب القواميس وها هوذا الفيروزبادي — فصل الكاف، باب الراء — وفيه : « الكَركَر وعاء قضيب البعير والتيس والثور. » وفيه : « كركر في الضحك » !

وقد يكون العلامة الفرنسي يريد قرقر، لا كركر. فالى فصل القاف — باب الراء — اذن، وفيه ما يلي :

« قرقر البعير هدر وصفا صوته. القَرقَر. إناء، وهدير البعير، القَرقر ارض مطمئنة لينة — والقاع الاملس، ولباس المرأة فاين المركب السريع في المادتين، واين الناقة (الطيارة) » ؟

وهناك مثال ٌ آخر من الالفاظ الفينيقية او السامية الاصل في الاودسي. zephyr بالانكليزية والفرنسية هي من zephuros اليونانية.

معناها في الشعر الهومري الريح العاصفة فوق البحر. اما في الفرنسية والانكليزية فهي الريح اللطيفة الناعمة. واما في العربية – السامية – فهي اخراج النفس بعد مدّه. والزفير اول صوت الحمار، والشهيق آخره.

ومن اغرب ما نقله من النشيد الخامس في الاودسّي، ما يلي: « وصل (الى جزيرة سيروس) النوتيون الفينيقيون النهابون، الحاملون في مراكبهم السوداء الوفاً من التحف والالاعيب. وكانت تخدم في احد بيوت الاشراف فتاة فينيقية، هيفاء دعجاء، وفوق ذلك مهذبة متفننة « artiste en beauxouvrages

يقف ها هنا العلامة برار ليهتف قائلاً: « لقد كان اذن لابناء ملوك الجزر مربيات فينيقيات، كانكليزيات زماننا.»

ثم يستأنف القصة وفيها ان تلك الفتاة الفينيقية المهذبة اجتمعت بابناء قومها الفينيقيين، فطلبوا منها، وألحّوا عليها، ان تعود معهم الى بلادها، فقبلت. ولكنها، قبل ان فرّت هاربةً من بيت سيدها، سرقت كل ما وصلت اليه يدها من الذهب – « المربية » الفينيقية!

ارادها بركةً فجاءت من اللعنات السود. وهناك غيرها من ملتويات المقاصد، وصرود السهام. قرأت مرة، في جريدة افرنسية لبنانية، مقالاً عن الفينيقيين صوّره الكاتب بكلمة للعلامة برار، قد تكون صحيحة الترجمة، وقد تكون ممسوخة. جاء فيها ان الحضارة الفينيقية هي للاغريق كالحضارة الاغريقية للاوروبيين. معنى ذلك ان الثقافة الاوربية بما فيها من ادب وفن وعلم وفلسفة، مستمدة من الحضارة الاغريقية. فهل يصح ان نقول، ليتم القياس، ان الثقافة الاغريقية بما فيها من ادب وفن وعلم وفلسفة مستمدة من الحضارة الفينيقية؟

ان في تاريخ اوروبة عصوراً مجيدة تشبه عصر برقليس، وتمت اليه بانواع الفنون والعلوم. فأين في فينيقية العصر الذهبي الذي يصح ان نقول فيه انه مصدر ما ازدهر من العلوم والفنون في العصر الاغريقي الشهير؟

اين الاجداد الفينيقيون للمؤرخ هيرودوت، وللشاعر صُفُوكْل، وللفنان فيدياس، وللفيلسوف أنكزَا غوراس، وللسياسي برقليس؟ اين الأثر في كل ازمنة التاريخ الفينيقي لذلك الينبوع، بل لتلك الينابيع التي تفجرت في مكان واحد من هذا العالم هو مدينة آثينا، وفي زمن واحد، لا تتجاوز مدته الخمسين سنة، هو زمن النوابغ في السياسة والادب والفن والشعر والحكمة والفلسفة؟

انه لمن اعجب الازمنة وامجد العصور . ليس في كل الحضارات السابقة السومرية والبابلية والآشورية والمصرية والفينيقية ما يشبهه ولو في اصوله واسبابه، او يدنو منه فيما اشتمل عليه من مظاهر الرقي والعمران كلها. فكان قد مر على الانسان المتحضر اربعة آلاف سنة، وعقله في شبه قالب صنعه واستولى عليه الكهان . فما كان من فنونه وعلومه غير ما انحصر في ذلك القالب ولم يكبر عليه .

جاء هيرودوت مصر طالباً للعلم، الحامل مفاتيحه الكهان فابوا عليه ذلك . وما فتحوا له غير بعض الكوى الصغيرة مدة اقامته بينهم ثلاث سنوات . وقد كان الجمود صفة ذلك العقل الخاص عقل الكهان . وكان العقم صفة علومهم .

اما العقل البشري العام، العقل الصامت المقسور المكبوت، كان تحت ارض تلك الحضارات ينمو ويتغذى بما في التراب دون الشمس من الاغذية، وظل كذلك في مصر وبابل وآشور، ينمو نمواً بطيئاً، الا في طفرات، من حين الى حين — وما اطول الاحقاب بين الحينين — تمثلت في شخصيات ملكية كبيرة.

الفان وخمسمائة سنة — من عهد مِسكَلَمْ دوغ السومري وشِنِفْرُو المصري الى عهد اليوناني برقليس — ثم حقت الحاقة. خرج الامر من يد الكهان. تكسرت القوالب قوالبهم والقيود. فبُعِثَ الفكر البشري من

كوامنه من ظلماته، وانطلق في فضاء الامة، مُجنَّحاً في نبوغ ابنائها، مُحلّقاً في سماء التفكير الحر – الفكر البشري الذي عاش كالحلزون، او ابث الفي سنة في بطن الارض، ازدهر في نصف قرن من الزمن ازدهارا عجيباً. نورت في بقعة صغيرة من المعمور انواره، بعد ان اظلمت مصر، وعقمت فينيقية، وتصلبت شرايين بابل وآشور.

هذا ما وددنا لو كان قد قاله العلامة فكتور برار. فلا بد، وقد قلناه عنه، ان نصله، دون ان نطيل البحث، بما تقدم من اسبابه. لقد اخذ الاغريق عن المصريين والفينيقيين، وبواسطتها عن البابليين والآشوريين، كما اخذوا كذلك عن الفرس، وظلوا يستمدون بذور الثقافة والعلم. من هذه المصادر حتى آخر القرن السابع قبل المسيح. وكان القرن السادس قرن التغذية والنمو، والقرن الخامس قرن الازدهار والانتشار. اي ان الاغريق استدانوا فاستثمروا، وشرعوا بعد ذلك يصدرون الى خارج البلاد من ثمارهم. وقل انهم بدأوا في اواخر القرن الخامس، واوائل القرن الرابع – عهد افلاطون وسقراط – يدفعون ديونهم. وممن وصل اليهم شيء من الدين الفينيقيون.

قال العلامة وليوم آلبَرَيْت: «بدأ الفن اليوناني ينتشر في فينيقية في القرن الرابع، كما يظهر في نحت نواويس الرخام التي اكتُشفت في صيدا. ومما لا ريب فيه ان صناعات اليونان وتجارتهم كانت قد انتشرت في مدن السواحل الفلسطينية والفينيقية قبل الفتح الاسكندري بمائة سنة على الاقل.»

هذه الحقيقة في الأخذ والعطاء تشمل كذلك الالفباء السينائية الفينيقية الاغريقية، التي اخذها اليونان من الفينيقيين باليد اليسرى، واعطوها باليمنى الى الاوروبيين. اما القول الذي يستخرجه غلاة الفينيقية من اجتهادات العلامة برار بخصوص هذه الالفباء، وان خسارة العالم، لولا عمل الفينيقيين كانت جسيمة، فهو قول مردود. فلو لم ينقل الفينيقيون الالفباء،

ولو لم تخترع في جزيرة سيناء، او في جبيل، او في موآب، لاخترعها شعب آخر في بلد اخر اسيوي، ولما خسر العالم شيئاً. ذلك لان العالم الشرقي كان قد بلغ درجة من الرقي تتطلب كتابة هجائية راقية.

هي سنة العمران. فعندما يبلغ مستوى الامة العقلي درجة تؤهله لعلم من العلوم — ولك ان تهمل الاشارة الصوفية في « تؤهله » وتقول: تستوجب لقضاء حاجاته، او لاستمرار رقيه الفكري، علماً من العلوم، او اكتشافاً من الاكتشافات، يظهر لذلك العلم او الاكتشاف اناس مفكرون مغامرون في شتى البلدان — يظهرون جميعاً في زمن واحد، ويعملون، دون ان يعلم بعضهم بالبعض الآخر، عملاً واحداً.

مثال ذلك اكتشاف الكهرباء والمسكنات (anesthetics) ودورة الدم واختراع اللاسلكي والراديو في زماننا

فقبل ان صار اسم اديسون مرادفاً للكهربا، كان قد اقدم على بحث هذا الموضوع، وكشف اسراره، رهط من العلماء في القرنين الثامن والتاسع عشر وفي شتى البلدان ومن اولئك العلماء موشنبروك في المانيا، وفرانكلن في اميركة، وكولم في فرنسه، وغلفاني في ايطاليه، وفارادي في انكلتره.

وقبل ان اكتشف الدكتور هَرفي (١٥٧٨ — ١٦٥٧) دورة الدم كان يبحثها قبله وفي زمان فَبْرِيقُس استاذ هرفي، وسِرفيتُس وفُلشَر كايتر وفِزاليوس. ولنا في زماننا امثلة من هذه الاتجاهات الفكرية، والمباراة الاكتشافية في الابحاث اللاسلكية كماركوني ونقولا تيسلا، وفي اختطاط الطيارين الاوروبيين والاميركيين الخطط الجوية، كما كان يختط النوتيون المكتشفون في الماضي خطط البحار.

وهل تظن ان اميركة، لولا كولمبوس، كانت اليوم قارة مجهولة ؟

وهل تظن اننا كنا لا نزال نكتب بالهيروغليفية او المسمارية لولا الالفباء السينائية او الجبيلية ؟

ولو لم يحملها الفينيقيون الى الاغريق فهل تظن انها كانت قد دفنت مع احيرام في ناووسه ؟

اعمل الروية في سنة العمران، بارك الله فيك .

التجارة

ما كانت العلوم العقلية، المجردة من اسباب العمل والمنفعة، لتشغل الفينيقيين. فما اهتموا للنظريات الفلسفية، ولا للظاهرات الشعرية، ولا استغواهم مرة طيف من اطياف الروح او الخيال. ما نبغ فيهم واحد من اولئك الذين يُشغفون بفراش الحقيقة، ولا من اولئك الذين في كل وادٍ يهيمون. كانوا، رعاك الله، عمليين حسابيين ماديين — كانوا الاميركيين في زمانهم.

ولا أثر في اشتات ادبهم، التي نقلنا بعضها في فصل سابق، لشيء من العلوم الاجتماعية او السياسية او الصحية او الفلسفية. لاعلم لنا بما كان من رقيهم في الطبابة او في الفقه، او في التشريع السياسي والاجتماعي. كل ما نعلمه مما يتعلق بالاسرة والزواج مثلا هو ان البنات الفينيقيات كن يتعاطين الدعارة قبل زواجهن، لا حباً بالمال، على ما يظهر، بل حباً بالزواج. فقد كانت الفتاة تقدم قسما مما تجمعه للهيكل تيمناً، وتدخر القسم الآخر لتشتري به (عريساً) على الطريقة الفرنسية الشائعة بين نصارى الشرق اليوم، اي الا «دوته» الا ان دوتتها كانت من عرق جبينها، من مالها، لا من مال ابويها. وكانت تطمع بان تكون الدوته كبيرة لتظفر بعريس من البيوتات، او بشاب من صفوة الشباب. هو الطموح لا الطمع، وهو فيما اصطلح القوم عليه طموح مهجور.

بيد ان قوامه الفلسفة العملية المؤسسة على المنافع المتبادلة. فقد امتاز الفينيقي امتياز الاميركي اليوم، في مضمار العمل، وفي عالمي الصناعة والتجارة. فما تقدمه شعب من الاقدمين في بناء السفن وجوب البحار، ولا في الاكتشافات البحرية ولا في فتح المناجم والصناعات، ولا في انشاء

الجوالي والمستعمرات. وهذه كلها من اركان الحضارة الحاضرة .

فالفينيقيون، ولا نكران، هم رواد الحضارة في قديم الزمان. وقد مهدوا السُبل، بما أُوتوا من حذق وذكاء، ومن شجاعة واقدام، لمن جاء بعدهم من الامم التي فاقتهم رقياً وعمراناً. والفضل للمتقدم .

ومما هو جدير بالذكر انهم نجوا من عوامل الفساد، التي تصحب الغناء ورغد العيش، بما امتازوا به من الحكمة الزمنية، والهمة والاقدام يقيناً، انهم لاميركيو زمانهم !

ولذلك كانوا من المفلحين، وفي المقدمة. فقد ازدهرت فينيقية، بفضل رجالها العمليين، وفلسفتها العملية، وحافظت على مركزها في حقب من الزمن بين الامم الصغيرة والكبيرة .

وكان لها ما يسمونه عصراً ذهبياً، بل عصوراً. يقول المؤرخون ان العهد الفينيقي المجيد استمر تسعمائة سنة، اي منذ بداية القرن الثالث عشر قبل المسيح الى العهد الاغريقي، فيكون المجد الفينيقي معاصراً لمجد رعمسيس الثاني، ومجد سليمان بن داود، ومجد سرجون البابلي وسِنَخريب .

على ان للمسئلة وجهة نظر أُخرى. فاذا اعتبرنا السياسة منفصلة عما يعد من اسباب العصر الذهبي في امة ما، فالمؤرخون فيما يدَّعون على صواب. اما اذا كانت امجاد الامة لا تنفصل عن احوالها السياسية والوطنية، وهي فيما يدعى العصر الذهبي مغمّة مذلّة – مثلها في هذا الزمان بلبنان – فالفينيقيون لم يكن لهم غير حقب من الزمن، تتراوح بين الخمسين والمائة سنة، يصح ان تعَد عصوراً ذهبية .

ليس لدينا من العلم ما يبرر الجزم فيما كانت عليه احوال التجارة في مختلف الازمان – زمن الاستقلال التام، وزمن الاستقلال النوعي، وزمن الاتكال والحماية فهل كانت تتأثر التجارة بما يفسد على البلاد استقلالها ؟ ثم هل كانت تستمر انتشاراً واقبالاً مهما كانت احوال البلاد السياسية

والاجتماعية ؟

لا ندري. ولا علم لنا ببعض شؤون المستعمرات التجارية التي اسسوها في اقاصي البلدان، وبصلاتها على الاخص بالوطن. فهل كان هناك غير الحس القومي بين المهاجرين وبين اخوانهم المتخلفين ؟ هل كانت تلك المستعمرات عبر البحار تدفع شيئاً من الخراج للحكومة في الوطن الاول ؟ من المعلوم المحقق انهم كانوا ينقلون آلهتهم معهم، او يشيدون لها هياكل في المهجر، فيرافقهم لذلك الكهان. الكهان في كل الازمنة — الكهان على الدوام! فقد كانوا يرافقون رعاياهم، ويقيمون معهم، حراساً على ارواحهم وشركاء لأكياسهم، حيثما حلوا — وكان اولئك المهاجرون الفينيقيون، مثل المهاجرين اللبنانيين اليوم، يرسلون الى اهلهم في الوطن، والى هياكلهم — والى كهانهم واساقفتهم — وكاهنهم الاكبر — والى رجال حكومتهم ايضاً — مما كسبوا من مال، واستحبوا لهم من متاع. هدايا سنيَّة لوجه الله والوطن!

ومما هو معلوم كذلك ان الروح الفينيقية كانت تتلاشى في ظل الفاتحين، وتنبعث فتزدهر كلما مستها اشعة من شمس الاستقلال. وما اقل هذا التماس بين تلك الممالك والشمس.

اما انهم ما جاهدوا في سبيل استقلالهم — الا قليلا — ولا اسسوا حلفاً عاماً مثل المدن الاغريقية إِبان نهضتها — الا الحلف الطرابلسي، المشكوك فيه — فذلك هو الامر العجيب، لقد كانوا مستقلين بعضهم عن بعض، في مدنهم التي كانت تدعى ممالك، وخاضعين جميعاً، في اكثر الاحايين، لحكومة اجنبية — مثل العرب اليوم في المقاطعات التسع المحمية.

فلا شك اذن في ان التجارة تغلبت على الوطنية عندهم؟ ليست التجارة، اذا استثنينا هذا الامر في تغلبها، من المنكرات. بل هي في اصفى احوالها من دعائم السلم والعمران. بل هي والعمران يسيران معاً، كما

اسلفت القول. فقد حمل التاجر الفينيقي بضاعته الى الشعوب التي كانت لا تزال بعيدة عن الحضارة، والى الشعوب التي كانت واقفة في بابها، والى الشعوب التي بلغت منها الدرجات الاولى. فايقظ ذلك الفينيقي الناغين، وحرك الجامدين، وشجع الناهضين، وانار المتقدمين سبلاً جديدة في مضمار الحياة المادية.

هوذا التاجر الفينيقي الدمث الاخلاق، الحلو الشمائل، المحب للسلم ورغد العيش، الحامل من اسبابها كل مـا يبهر العيون، ويبهج القلوب، ويدخل على العقول محركات الفكر ومشحذات الذكا.. خذوا عنه، ايتها الشعوب المتقهقرة في الجزر والثغور النائية، واقتدوا به، ولا تصدقوا ما يقوله فيه الشعراء.. وخصوصاً شيخهم الضرير هوميرٍ. ذالك الشاعر الذي يعود اليه العلامة فكتور برار ليستشهد بما جاء في اشعاره على مآثر الفينيقيين المجيدة في فتوح البلدان، واقامة المعالم للعمران — ذلك الشاعر يطعن على الفينيقي، فيسميه ذئب التجارة...

وهاكه في احدى رحلاته التجارية، وقد رست مراكبه « السوداء » عند شاطىء الجزيرة، فانزل بضاعته منها، وعرضها على رمال الشاطيء صفاً صفا ثم جاء الناس من الجزيرة زرافات، راغبين بالشراء ومتفرجين رجالا ونساء واولادا يطوفون بتلك البضائع، والتاجر الفينيقي واقف في مركبه يرقب وينتظر. فمن رجل يرغب بفأس منقوشة بالذهب، الى امرأة ترغب بمرآة من النحاس المصقول، الى شاب يختار قارورة من العطر. فيضع كل شار او شارية الى جنب الحاجة المختارة قطعة من فضة او ذهب، او شيئاً من محصولات او مصنوعات الجزيرة [1] ويعودون القهقرى فيقفون

---

(1) كانت المتاجرة اجمالا بالمقايضة. وما ظهرت النقود المسكوكة، من ذهب وفضة وغاس قبل القرن السابع السابق لعهد المسيح. جاء في الالياذة امثلة من هذه المقايضة منها ان ثمن الدرعين رأس من البقر

بعيدين منها .

وبعد ان ينتهي الناس من اختيارهم ووضع المقابل لما يختارون، ينزل الفينيقي من مركبه، وينظر فيما وضع هناك، فاذا كان المطلوب اخذه واخذ الشاري السلعة، واذا كان قليلاً تركه مكانه. ثم يعود بعد ان ينتهي من هذا العمل، الى المركب، فيعود الشارون والشاريات الى الاختيار والمساومة فمن كان قد قُبل ما قدم مقابل ما ابتغاه، اخذه، ومن كان قد رُفض زاد اذا شاء بالدفع وهكذا يتقدمون ويتقهقرون، ويدفعون ويزيدون، وينزل التاجر من مركبه ويعود اليه مراراً، وقد تمت صفقات، وأخفقت أخرى، طوال ذلك النهار، فيعيد الى مركبه عند غروب الشمس ما تبقى من البضاعة ويرفع الشراع مبحراً الى ثغر آخر.

هذه ما كانت تدعى التجارة الصامتة . وليس السبب الوحيد فيها ان الفينيقيين لم يكونوا يحسنون لغات اهل البلاد التي يؤمونها . هو من الاسباب وما هو باهمها . فالدافع الاول الى الصمت، والى هذه الطريقة الصامتة في البيع والشراء، هو ما خبره الفينيقي وقاساه من اضرار المساومات. سلام يجر كلاما، كلام يجر بطيخ - وبطيخا يجر نار الكلام - والسيخ! اذن الصمت اولى، وطريقة الصمت في البيع والشراء هي من اختراعات ذلك الفينيقي .

فاين الذئب منه؟ اين من هذا التاجر الفينيقي ذئب التجارة . انها لنزوة شاعر، ما ترفع عنها، ولا سلم منها، حتى شيخ الشعراء، هوميرِ .

فهل من المعقول ان يرافق الاقبال التاجر الفينيقي حيثما رحل وحل، ولو لم تكن الاستقامة رائده، والصدق رفيقه، وجودة البضاعة اعلانه في كل مكان؟ وهل يستغرب حب الشعوب له، واعجابهم به، فيترقبون مجيء مراكبه، ويهرولون الى الشواطئ. مرحبين بها، مبتهجين، ابتهاجهم بالعيد، وراغبين لما هو عندهم اعز والذ من كمكاته والاعيبه؟

وللفينيقي في هذه الاسفار التجارية، التي بدأت قصيرة، واستمرت تبعد، فبلغت مضيق هرقل وما دون في الاقيانوس الشمالي حتى الجزر التي تدعى اليوم الجزر البريطانية، للفينيقي، اقول، الفضل الاكبر في انشاء المواصلات بين الحضارة المصرية وحضارة الارخبيل والأغريق . هو هو الفاتح للمصريين الطريق الى الجزر والثغور الشمالية .

رحل الفينيقي رحلته الاولى الى قبرص، فالجزر دونها، اي رودس وكوس، فالثغور الاسيوية، فجزر الارخبيل، فاليونان الجنوبية . فانشأ فيها الجوالي الفينيقية، واسس المستعمرات . ثم ابحر غرباً فدخل الى مرسيلية، وبعد ان انشأ في مكانها مستعمرةً أسس المدينة التي هي اليوم اكبر الموانئ الفرنسية .

اما مستعمرات المغرب فقد اسسوا منها في اواخر القرن الثاني عشر مستعمرات صقلية، وأوتكا على الشاطئ الافريقي بجوار تونس اليوم، وقدَس على الشاطئ الاوروبي الاسباني بالغرب من النهر الكبير . هذه المدينة لا تزال تحمل اسمها القديم الفينيقي Cadiz . وفي بداية القرن التاسع قبل المسيح نزح جماعة من ابناء صور الى الغرب، وأسسوا هنالك اكبر المستعمرات، التي اصبحت بعدئذٍ دولةً ترهبها رومه — اسسوا قرطجنة .

وعندما بلغت قرطجنة درجة من القوة رفيعة، وكانت الحضارات الشرقية قد اندمجت في حضارة الاغريق، فصارت هذه تنافس الدول الفارسية والآشورية قوةً وعمرانا، فكثرت مراكبها الحربية والتجارية في البحار، انكمشت التجارة الفينيقية وتقهقرت، فاصبحت السيادة في المغرب للقرطجنيين، وفي الشمال والشرق للاغريق .

اما تجارة البر فقد كان فيها للفينيقيين مناظرون من بابل وآشور، وعلى الاخص في الازمنة القديمة، اي بين القرن الخامس والعشرين والقرن الخامس عشر .

— وجاءت قوافل بابل تقصد مصر . فنهبها ملك عكا الذي كان يومئذ يدفع الجزية للفراعنة، فكتب برا بوزرياش صاحب بابل الى الفرعون اخناطون يطلب التعويض، ومعاقبة المجرمين، تأميناً لطرق القوافل التجارية بين مصر وبابل .

ولكن الفينيقيين، على ما كان من مناظرة البابليين والآشوريين لهم في اسواق التجارة، اختطوا لانفسهم الخطط الى الشرق براً وبحرا . فكانوا من ابطال تلك الخطط في عهد سليمان بن داود، ومن اسيادها في العهد الفارسي .

ومن تلك الطرق التجارية طريق الى ارمينيا، حيث حملوا صناعاتهم ومنسوجاتهم، وعادوا منها بالخيل والبغال والعبيد . وكانت احدى طرقهم تمر بتدمر، فتصل شمالاً الى نينوه، وجنوباً الى بابل، فالخليج، فالهند .

وكانت لهم طريق برية بحرية الى الهند في ايام الملك سليمان . طريق الى يافا، فالقدس، فشاطىء إيله (خليج العقبة اليوم) ومن هناك في البحر الاحمر الى البحر العربي، الى ارموز على الخليج، الى ثغر هندي هو اليوم كراتشي .

وعمل الملك سليمان سفناً في عصيون جابر التي بجانب إيله، على شاطىء بحرسوف، في ارض آدوم . فارسل حيرام في السفن عبيده النواتي، العازفين بالبحر، مع عبيد سليمان، فأتوا الى اوفير، واخذوا من هناك ذهباً، اربعمئة وعشرين وزنة، واتوا بها الى الملك سليمان .

الملوك الاول ٩ : ٢٦ — ٢٨

وعادت السفن الفينيقية (التي رافقت سفن سليمان فوصلت الى ثغر الهند الغربي الشمالي كراتشي) مشحونةً بخشب الصندل، وبكثير من الذهب، والحجارة الكريمة .

اسياد البحار

قال يوزيبوس، برّد الله مثواه : كان في قديم الزمان رجل عالم صالح يدعى ابراهيم، فاق جميع الناس بما أوتي من علم وحكمة. فاخترع علم النجوم، والسحر البابلي. وكان مقرباً من الله. فأوحى اليه بان ينقل الى فينيقية، فنقل من بلاد الكلدان اليها، واقام بين اهلها، وعلمهم علم النجوم، ودورات الشمس والقمر، فأحبه ايملكي ملك صور، وقربه منه.

واجمع المؤرخون على ان الفينيقيين كانوا يهتدون ليلاً في اسفارهم البحرية بنجمة القطب الشمالي ...

وقال العلامة برار ان اول من اختطوا الخطط في البحر المتوسط، ودرسوا الاحوال الجوية، وتحققوا بعض مظاهر المد والجزر، ووضعوا الاصول للملاحة، انما هم الفينيقيون، انكليز ذلك الزمان ...

وقد علموا اليونان ما تعلموه من ذلك الفلكي الساحر ابراهيم...

اما علم السحر فما رغب به الفينيقيون، على ما يظهر، فاهملوه. او انهم تلقوه من ابراهيم، ونقلوه تواً الى كهان مصر، فاستعملوه في مهنتهم الآلهية.

هذه طائفة من الاخبار التاريخية الميثولوجية تتعلق بالفينيقي صاحب الشراع، وبعلم الملاحة الذي امتاز به، وفاق جميع الشعوب الاقدمين في استخدامه لاغراضه الاستعمارية والاستكشافية.

لقد سبق فوصفنا هذا الفينيقي بدماثة الاخلاق، وبحبه لطيبات العيش، والترف والرفاهية. فهذه الصفات قلما تتفق وصفات النوتي، اي شدة البأس، والشجاعة، والصبر على المكاره، وفي رأسها شظف العيش. ولكنها وغيرها من الصفات المتناقضة اجتمعت في الفينيقي، فكان تاجراً مترفاً، وكان

نوتيا. امتاز بالاناقة، والاخشيشان، بالاسترسال في الملذات والنشاط في العمل، بالمرونة وصلابة العود، بالعذوبة مع التنعم، والتجلد مع الاقدام. وكانت له معدة قوية ونهامة، مع ارادة الناسك في الصبر والثبات.

من الحقائق الطبيعية ان المحروم يحب ما حُرِمَه، ويرغب دوماً به. فعرب البادية يألفون المشقات وشظف العيش. ولكنهم في الامصار يسترسلون في الملذات، ويستهترون. ولا تذهب صلابة عودهم الا بعد جيلين او ثلاثة اجيال منهم في البيئة الجديدة، بيئة الترف ورغد العيش.

والفينيقيون النواتيّ مثل عرب البادية. الا انهم كانوا في كل الازمنة ابناء البيئتين، تجاذبهم البحار باخطارها، والامصار بما فيها من رغد العيش والرفاهية. فتولدت فيهم المتناقضات الخَلقية والخُلقية. فكانوا تجاراً متنعمين، وكانوا النواتيّ المغامرين المخشوشنين.

وهل تظن ان كل من اقلعوا من ميناء فينيقي مستكشفين متاجرين، مؤسسي الجوالي والمستعمرات، كانوا يعودون الى الاهل والاوطان، او انهم كانوا دائماً يعودون سالمين غانمين؟

ان للبحار تاريخاً قديماً كُتب على امواجها بالدم والدموع. فكم من مركب فينيقي، طاحت به العواصف، وهاجت عليه الامواج، فقذفت به الى الشاطىء العتي وحطمته على صخوره؟ وكم من مركب مَزقت شراعه الرياح الهوجاء، وكسّرت صواريه الامواج الصاخبة، فامسى ومن فيه بقبضة البحر كالفار بين براثن الهر يداعبه حتى الموت؟ وكم من اولئك النواتيّ الابالسة قضوا الايام والليالي على خشبة من سفينةٍ محطّمة، تتقاذفهم الرياح، ثم تمن عليهم التقادير، فتسوقهم الى شاطىء جزيرة جديدة، او ثغر قصي، فيصبحون بعد النجاة من المكتشفين؟ وكم من مرة ضلوا السبيل في بحر الضلال فامسوا تحت رحمة العواصف والانواء، وقد نفد الزاد والماء، فأجهز عليهم الجوع والظمأ؟ وكم من مرة سطت عليهم القرصان — وما كانوا

هم مقصرين في القرصنة – فاشتبكت المجاذيف في القتال، والتهبت النيران بايدي الرجال، وغرقت حشرجة الموت في اصطخاب الامواج والابطال، وما بقي في النهاية على وجه اليم غير شظايا المراكب المشتعلة والمحطمة ؟ !

هذه الناحية من حياة النوتي الفينيقي والتاجر المترف لا تعرفها غير البحار. فما نبغ في الفينيقيين شاعر يشيد بها، ويخلد ذكراها. وليس بين شعراء الاقدمين من اشاد بمغامرات ابناء فينيقية النواتيِّ، وباعمالهم الجبارة، او ضمخ على الاقل قوافيه بطيب الرثاء عند تلك النكبات البحرية.

لقد ذكر المؤرخون والأثريون اسفارهم، واتجارهم، ومستعمراتهم، ذكروها بالقلم الجامد، والكلمة الجافة. وقد دون هيرودوت، بحجم الشك والاستهجان، خبر رحلتهم الاستكشافية الاولى حول القارة الافريقية تلك الرحلة التي يثبتها المؤرخون والأثريون في هذا الزمان،

هي اول رحلة استكشافية في التاريخ البشري، قامت بها بعثة فينيقية في عهد الفرعون نيخو، آخر الفراعنة العظام (٦٠٩ – ٥٩٣ ق. م.)

ولا يُقدح في عظمته اندحارُه في محاربة البابليين في شمالي سورية. فقد وجه اهتمامه بعد ذلك الى المشاريع الزراعية والاقتصادية والعلمية. ومن تلك المشاريع الترعة التي تصورها ليصل البحر الاحمر بالبحر المتوسط. وقد امر بمباشرة المشروع من النيل، فعمل في الحفر، بل ضُحِّي في العمل، على ما يظهر، بضعة آلاف من العمال.

يقول هيرودوت ان مئة وعشرين الف عامل هلكوا في المشروع (وهيرودوت، مثل مؤرخي العرب بعده، تستهويه الارقام فلا يدقق دائماً بتعدادها. ولمّا يتم ذلك المشروع.

فقد حذر المهندسون الفرعون قائلين ان البحر الاحمر اعلى من النيل، وان فتح ترعة اليه تحمل الى وادي النيل سيلاً فيه خراب البلاد. انه، في كل حال، من ابرز المقاصد الاقتصادية الزراعية التجارية في تلك الايام.

واني اقول فيه ما قاله بلوترك في كلامه على مشروع المجلس النيابي العام الذي باشر تأسيسه برقليس العظيم، ولمّا يتم. قال بلوترك: مع ذلك ارى من الواجب ذكره لما فيه من الدليل على عظمة برقليس فكراً وعملاً.

وقد كان الفرعون نيخو مولعاً، مثل برقليس بعده، بالمشاريع العامة وعلى الاخص منها البحرية. وكان محباً للفينيقيين، معجباً بتجارتهم، فاختار منهم بعثةً استكشافية، تطوف حول القارة الافريقية، لتتحقق ما كان شائعاً في تلك الايام، وهو ان الاوقيانوس محيط بالبلاد المصرية.

أبحر الفينيقيون من السويس، فاجتازوا البحر الاحمر، وبعد خروجهم من باب المندب سافروا غرباً بجنوب في البحر العربي، فالبحر الهندي، فمروا ببلاد الصومال، وبعدها قطعوا خط الاستواء، فابحروا بين الشاطىء الافريقي وجزر مَدغَسقر، واستمروا جنوباً بغرب حتى بلغوا رأس القارة، الذي يدعى اليوم رأس الرجاء الصالح، ثم ولوا شراعهم شطر الشمال، فمروا بالشواطىء الافريقية الغربية (التي جابها بعدهم مواطنهم حَنّو من الشمال الى الجنوب) ووصلوا الى مضيق هرقل (جبل طارق) فعبروه الى البحر المتوسط، وعادوا سالمين الى مصر.

استمرت هذه الرحلة ثلاث سنوات. ومما وصل الينا من اخبارها، غير ما ذكرت، هو انهم كانوا ينزلون في بعض الثغور، فيستميلون اليهم قلوب اهلها بما كانوا يحملونه من البضائع، ويقيمون في تلك البلدان، فيزرعون القمح ويحصدونه، فيجددون مؤنتهم ويرحلون.

والخبر الثاني الذي يثبت الرحلة وينفي شكوك هيرودوت، هو انهم، بعد ان اجتازوا خط الاستواء، رأوا الشمس تشرق عن يمينهم، ثم، وهم يعودون شمالاً، رأوها كما كانوا يرونها سابقاً، اي فوق رؤوسهم. هي الشمس الشاهدة على تطوافهم حول القارة الافريقية في اواخر القرن السادس قبل المسيح. رحلة حَنّو The Periplus of Hanno [1]

(١) بريلوس كلمة يونانية مركبة معناها الطواف حول (الشيء).

وبعد مئة سنة ونيف من هذه الرحلة الفينيقية الاستكشافية الاولى، رحل حَنُّو القرطجني رحلته الشهيرة (٤٧٠ ق م) فسُجّلت اخبارها في تقرير رسمي، وعُلقت نسخته الاصلية في هيكل الآله ابل (المشتري) بقرطجنة، فترجمه الى اليونانية، ومنها الى اللغات الاوروبية، فترجمنا نحن الترجمة الانكليزية المثبتة في كتاب Corey's Ancient Fragments وقد اثبتنا الاسماء المعروفة اليوم لما نظنه مقابلاً للاسماء القديمة، اسماء البلدان والانهار، المذكورة فيها .

تبدأ النسخة الاصلية بتمهيد صغير يتضمن قرار القرطجنيين بان يقوم حنُّو بهذه الرحلة فيما وراء مضيق هرقل (جبل طارق) ويؤسس هنالك مدناً ومستعمرات فينيقية ليبيَّة . فأبحر من قرطجنه باسطول مؤلف من ستين موكباً شراعياً، مجهزاً كل منها بخمسين مجذافاً، تحمل كلها ثلاثين الفاً من رجال ونساء، مع حاجاتهم من زاد وعتاد . ثم يسرد حَنُّو او احد اعوانه اخبار الرحلة فيقول :

بعد ان خرجنا من المضيق، وأبحرنا يومين جنوباً، اسسنا اول مدينة واسميناها (Thmiaterum) ثِمْيارتيروم [1] ثم تقدمنا في الجهة الغربية فوصلنا الى سولويس [2] (Soloeis) وهو رأس البر في ارض مكسوة بالاشجار، حيث شيدنا هيكلاً للآله نبتون .

ومن هناك أبحرنا نصف يوم تجاه الشرق، فوصلنا الى بحيرة قريبة من البحر [3] وفيها مقاصف كثة كثيرة، ترعى في جوارها الفيلة والحيوانات البرية، وبعد يومين من السفر جنوباً [4] اسسنا مدناً قريبة من البحر ،

(١) الصويرة اليوم (Magadore) وهي على خط مستقيم غرباً من مراكش .

(٢) رأس بوجادور Cape Bojadore

(٣) سبخة من السبخات عند سواحل غمبياء

(٤) شرقاً بجنوب

خمساً منها [١]

ثم استأنفنا الابحار فبلغنا النهر الكبير لِكسوس [٢] (Lixus) الذي تقيم على ضفافه قبيلة من الرعاة، فأقمنا بينهم على ولاء مدة من الزمن.

وما دون بلاد اللِكسوسيين [٣] يقيم الاحباش الوحشيون، في ارض موحشة، تحيط بها الجبال، التي يجري منها كما يقال النهر لِكسوس. وبالقرب من تلك الجبال كهوف يقيم بها اناس مختلفو الاشكال، يصفهم اللكسوسيون بالعَدو، ويقولون انهم يسبقون الخيل

توفقنا الى من يترجم لنا لسان الشعوب هناك، فاصطحبنا المترجمين.

وبعد ثلاثة ايام من السفر بالقرب من سواحل قاحلة، بلغنا خليجاً فيه جزيرة صغيرة، اسسنا فيها مستعمرة اسميناها كِرني (Kerne) [٤]

وقد تبين لنا من المسافة التي قطعناها، وهي طول المسافة من المضيق الى قرطجنة، اننا في كرني على خط مستقيم منها.

سافرنا من كِرني في نهر كبير يدعى كريتس (Chretes) [٥] فوصلنا الى بحيرة هناك فيها ثلاث جزر اكبر من جزيرة كرني. وبعد يوم من السفر في النهر، جئنا على آخر البحيرة، القائمة عندها جبال كبيرة يسكنها قوم وحشيون، يلبسون جلود الحيوانات البرية، فرشقونا بالحجارة ليمنعونا من

---

(١) ذكر الكاتب اسماءها وهي اليوم من المدن البائدة

(٢) ريوده اورو – نهر الذهب – في البلاد المعروفة بهذا الاسم، وهو اليوم سمي باسم عربي: الشط. وريوده اورو التي كانت تدعى يومئذ ليبيا (Libya) هي اليوم في حوزة الاسبان.

(٣) نسبة الى النهر لِكسوس.

(٤) جزيرة اغادير عند رأس بلانكو (Cape Blanco) مشجرة في الدرجة العشرين من خط الطول. وهناك ايضاً Port Etienne في افريقية الغربية الفرنسية.

(٥) النهر سان جان او النهر سان لويس

النزول الى البر .

عدنا ادراجنا فوصلنا الى نهر آخر كبير [1] تسبح فيه التماسيح والافراس النهرية، فعدنا منه الى كِرني .

ومنها واصلنا السفر جنوباً، قريبين من السواحل التي يقطنها الاحباش فكانوا يجزعون لقدومنا، ويفرون هاربين. وما كنا نفهم لسانهم، ولا فهمه الادلاء اللكسيسيون .

وبعد اثني عشر يوماً من السفر دنونا من جبال عالية مشجرة بالاشجار الجميلة الشكل، الطيبة الاريج. فابحرنا بالقرب منها يومين، فبلغنا من البحر جوناً واسعاً، الى كلا جانبيه سهل فسيح. رأينا النيران تشتعل ليلاً في شتى النواحي منها. وقد تزودنا من هناك الماء، واستأنفنا الرحيل، دون ان نبعد عن السواحل. فوصلنا بعد خمسة ايام الى جون عظيم، قال لنا المترجمون انه يدعى الرأس الغربي [2]، وفيه جزيرة كبيرة، فيها بحيرة مالحة، وفي البحيرة جزيرة أخرى، ما رأينا فيها نهاراً غير الاشجار [3]

ولكننا في الليل شاهدنا النيران تشتعل في اماكن متعددة. وسمعنا اصوات العزف على القصب والصنوج والطبول، تصحبها اصوات ثجاجة عجاجة. فعرانا الخوف، وأمر المنجمون بان نخرج من الجزيرة. [4]

فسارعنا منها مبحرين، فمررنا ببلاد تشتعل فيها النيران، ويفوح منها الطيب. وكنا نرى الشرر واللهيب يسريان من النيران الى البحر. فاقلعنا منها والذعر مستولٍ علينا. فجئنا بعد اربعة ايام الى بلاد أخرى تضطرم فيها

---

(١) نهر السنغال R. Senegal

(٢) سيراليون (Sierra Leone) الرأس والجون وعندهما مدينه فريتون (Freetown)

(٣) جزيرة شربورو (Sherboro)

(٤) جزيرة مَكُولي (Macaulay)

النيران. فبدت كأنها شعلة واحدة عظيمة، في وسطها علم كذلك مشتعل[1] يتطاير الشرر واللهيب منه، فتحسبها وصلا الى النجوم. وفي اليوم التالى علمنا انها ربوة تُسمى عربة الآلهة.[2]

وفي اليوم الثالث، بعد ارتحالنا من ذلك المكان، اشدة ما كان من الحر، وصلنا الى جون يدعى القرن الجنوبي[3] فيه جزيرة مثل التي مررنا بها، فيها بحيرة، وفي البحيرة جزيرة أخرى، يقطنها قوم برابره، اكثرهم من النساء. يكسو الشعر اجسامهم جميعاً. اسماهم الترجمان الدليل: «غِرِلاً».[4]

طلبنا الرجال منهم ففروا هاربين، فطاردناهم وما ادركنا احداً منهم. كانوا يعدُون بين الصخور، ويقفزون فوقها، وهم يرشقوننا بالحجارة.[5]

اما النساء فقد ظفرنا بثلاثٍ منهن. ولكنهن سطون على حراسهن باسنانهن وايديهن، وهن يحاولن التفلت والفرار. فقتلناهن، وسلخنا جلودهن، فحملناها الى قرطجنة، وعلقناها في هيكل جونو هناك.

وما تقدمنا بعد ذلك في السفر لنفاد زادنا.

• • •

من جبل طارق — في اللغة الجغرافية الحاضرة — الى سان لويس وَدَكَر، الى غمبيا وغينه الفرنسية، الى كوناكري والسنغال، الى سيراليون — الى شواطئ العاج والذهب، الى سِكوندي وأكرا — هذه اسماء يعرفها اللبنانيون، ابناء الشمال والجنوب، اولئك الذين هاجروا الى تلك الاصقاع

(١) في هذه البلدان « التي تشتعل فيها النيران » كان الاهالي يحرقون على عادتهم الحشيش اليابس في ذلك الفصل من السنة.

(٢) رأس بلماس **Cape Palmas**

(٣) **Cape Three Points**

(٤) هي طائفة من الشمبانزي او الغُرلاً من السعادين.

(٥) كما فعلت طائفةمن الرباح لغيناها في جبال اليمن. راجع ملوك العرب الجزء الاول

في اوائل هذا القرن العشرين، بعد الفين واربعمائة سنة من رحلة حَنّو القرطجني. فكان اولئك القرطجنيون المكتشفين، وكان هؤلاء اللبنانيون المستثمرين !

خاتمة الرحلة

درج العلماء والمؤرخون في هذا الزمان على عادة في نشر المصادر والمستندات التي تتعلق بمواضيعهم المعينة، فيثبتون، بعد المقدمة للكتاب، او قبلها، او ضمنها، اسماء ما طالعوه من الكتب في مختلف اللغات، قبل ان باشروا التأليف، فيستغنون بذلك عن الشروحات، وتبقى الهوامش لكتبهم نظيفة خفيفة لطيفة .

وفي هذه العادة، عدا الناحية الفنية في خلو الهامش من الحواشي، أو في ذكر المصادر والاسانيد دفعةً واحدة، عوامل في الاقناع سيكولوجية. هاك، ايها اللبيب، اللائحة، وهي كما ترى طويلة جليلة، ومتنوعة اللغات . فهل يُحتمل معها الخطأ او الشطط او الجريزة ؟ انها لغلابة الشكوك، وانها لأمّارةٌ بالثقة والايمان .

وقد رأيت – وقرأت – احدى هذه اللوائح لتاريخ عربي حديث، نشرها المؤلف في خمس وثلاثين صفحة من جزئه الاول، بعد المقدمة، فاشتملت الكتب العربية والتركية والفرنسية والانكليزية والالمانية، وبلغ عددها ستمائة وخمسة وتسعين مؤلفاً بالضبط . ومن هذه المؤلفات ما هو في جزئين، ومنها ما هو في ثلاثة او اربعة اجزاء .

فلو فرضنا ان المؤلف المحترم يحسن هذه اللغات كلها، ثم فرضنا انه طالع تلك التآليف كلها جمعاء، ثم فرضنا ان معدل المؤلف الواحد منها جزءان فتبلغ الفاً وثلاثمائة وتسعين مجلداً، ثم افترضنا الأخير وهو انه، دام نشاطه، كان يطالع مجلداً واحداً في كل ثلاثة ايام فالعمل هذا بكامله يستغرق احدى عشرة سنة ومائة وخمسة وخمسين يوماً . . . .

هي عادة حميدة، درج عليها العلماء والمؤرخون في هذا الزمان الاقتصادي، زمان السرعة والاختصار . وانهم لجدير بهم، وهم العلماء الحكماء، ان يقاوموا التيارات المنكرة، ويقطعوا على الاتجاهات اللاسلكية والسينمائية طريقها الغرار الخداع، فيقرءون الف كتاب، على مهل، وبامعان علمي، قبل ان يكتبوا كتاباً واحداً .

ولقد أهاجت بي هذه العادة نزعة الاقتداء والمباراة. فجئت احشر نفسي في صفوف اولئك العلماء المحققين، والمؤرخين المدققين، فاقدم للقارىء لائحة بالكتب التي طالعتها، قبل ان باشرت كتابة هذه الفصول الفينيقية.

أأقول لائحة ؟ ويلاه، ليست بشيء منها. فالكتب فيها لا تعد بالألوف، ولا بالمئات، ولا بما دونها من العقود. لائحتي، وآسفاه، لا تبلغ العشرة من الكتب الانكليزية، وفيها كتاب واحد افرنسي.

ولكني قرأتها كلها قبل التأليف وخلاله. وجئت الآن، ولا فخر، اثبتها ها هنا في آخر الرحلة، علّ فيها بعض الفائدة لاحد القراء الراغبين بالتحقيق، او لغيرهم من اصحاب « الاصبع التوموي ». عليهم السلام اجمعين . آمين .

وبعد هذه الرحلة في غياهب الزمان، وفي كتب التاريخ والآثار، نعود الى مرابع الشمس، والى الكتاب الاوحد الخالد — الى فصل من اجمل فصوله — الى لبنان

المآخذ

فينيقية التاريخ القديم } جورج رولنسون	Phenicia Ancient History } George Rawlinson
تاريخ مصر : جامس آبرِستِد	A History of Egypt: James Breasted
مجموعة مقالات في الآثار القديمة	The Haverford Symposeum on Archeology
نبذات قديمة	Corey's Ancient Fragment
السومريون : لينَرد وُلي	The Sumerians: C. Leonard Woolley
رسائل تل العمارنه	The Tell Amarna Tablets, C. R. Conder
بعثُ هوميرِ : ڤكتور برار	La résurrection d'Homère: Victor Berard
تسرع الابصار في ما احتوى لبنان من الآثار – الأب لامنس اليسوعي	Le Liban: H. Lammens, S. J.
دائرة المعارف	
التوراة	

الرحلة العاشرة

الينابيع من بسكنتا الى فاريا

•

في هذه الرحلات التي لم يتممها المؤلف نماذج عن اسلوبه في وضع التصاميم الكتابية . واما الرحلات الثانية عشرة والثالثة عشرة والرابعة عشرة فلم يترك سوى اسمائها .

صنين . انابكيش . نبع اللبن . قلعة فقرا . نبع العسل . فاريا . ميروبة . عين الجرن . فيترون .

رحلة كلها مشي

المعامل:

معمل السبيرتو – انطلياس
معمل النسيج – ضبيه
معمل الجلود – نهر الكلب
معمل الشمنتو – شكا
معمل الغزل – طرابلس

الشوف

•

بدأ المؤلف هذه الرحلة ولم ينهِ منها سوى ما ننشره هنا
وننشر كذلك ما وضعه من مذكرات لها

ما دون القصور . شملان — خيمة شملان — آل حتي . ميتم شملان — الامير حيدر الشهابي — كنيسة عين عنوب في منخفض بين الجبلين وبساتين من الزيتون — بشامون قرية قديمة على الربوة المقابلة ووراءها ربوة عليها خلوة. هي خلوة بشامون والمنظر من بعيد شبيه « بجردبة » سنام الجمل وعلى رقبة الجمل قرية سَرحَمُول، اهلها دروز ولا طريق لها. ومن بشامون فوق هذه التلال ترى عرمون وخلواتها، وفوق عرمون عبيه

الشويفات

الامراء الارسلانيون — آل شقير — آل جريديني صحراء الزيتون واخضرارها الادكن — يمتد من عمود خلدة اي محطة بيروت اللاسلكية الى رمل بيروت.

عيناب

بيت الدكتور فنديك — غابة الصنوبر — من الصخرة التي تشرف على وادي الصفا. كفرشيما واليازجيون وآل كسباني.

عبيه

ما وراء القصور — بخشتيه — شرتون — عين تراز — رشميا — وادي

نهر الصفا – بيت الدين – السراي – كرسي المطران اوغسطين البستاني ، مطران صيدا ودير القمر .

ما وراء الوراء

ضهور ...

بعقلين – شيخ العقل – الجديدة – شيخ العقل – المختارة – قصر الست نظيرة جنبلاط – المياه – الرياض الجمال الخالد في الوادي وعلى صدور الجبال رياض الشوفين – عماطور – باتر – الشيخ ملحم حمدان قاضي المذهب الدرزي – الباروك نهر الصفا – السنديان العتيق . ال ابو عزالدين – ال تقي الدين – ال نجار

ما دون القصور

دع الموائد الخضراء والبيضاء التي يتهافت عليها الاعيان وشبه الاعيان من الناس . دع المرابع الحمراء والزرقاء التي يتزاحم فيها شبان هذا الزمان ، ويراق على جوانبها ماء الحياة والحياء .. دع الاوانس المنعمات يلثغن بالفرنسية في صدى الالحان الافريقية ، بين لآلآت المراقص الفرنجية .

دع عنك ذكر العالية والدانية ، والغاربة والشارقة ، والتي تتهادى في ظلال الحور والصفصاف عند ينابيع الاصطياف ، تلك ينابيع المرهونة للتمدن فيباري العرق والوسكي مياهها الجارية .

هجراً لمجالس الانس والجن ، هجراً لمدن الاصطياف وبهرجاتها وضجيجها ولو ليوم واحد – ولو لنصف يوم وتعال اريك لبنان في مجده وهوله وجلاله ، تعال اكشف لك عن مشاهد فيه ما رأتها من قبل عيناك ، واقف بك فوق مطال تلثم الانهر اقدامها ، واحلق واياك فوق اودية تختبىء القرى في ثناياها وتنساب السواقي بين اضلعها . تعال اريك ما وراء الصخور الشامخة وما

دون الرواسي والربى تعال اريك قلب لبنان في المطوي والمنشور من الروائع السندسية والفضية واللؤلؤية.

وما انا يبعدك عن دور الاصطياف وظلال الحور والصفصاف. سنمشي – اذا كنت من محبي المشي – نصف ساعة في طريق السيارات المزفت من عاليه الى سوق الغرب ومن السوق الى شملان.

ها نحن الآن في خيمة شملان – الخيمة القائمة فوق الصخرة على عمد من الصنوبر وهي مسقوفة باغصان من الدلب – وقد تغير في الجفاف لون اوراقه فامسى ذهبياً غامقاً كلونها عندما تتساقط في الخريف.

ولكنها تثبت في اغصانها المقطوعة وان يبّستها وحوات لونها الشمس. بخلاف غيرها من اغصان الاشجار. فالصنوبر طيب الرائحة وهو في اخضراره جميل لسقف الخيام الجبلية ولكنه عندما يجف تتساقط اوارقه – إبَره – فينكشف سقف الخيمة. وكذلك اغصان الغار والخروب وغيرهما من اشجار الغاب اللبناني.

ملحوظات: بدأ المؤلف هذا الفصل وحال القدر دون اقامه على ان ما يلي هو بقية المذكرات

الشوف

الشيخ رشيد الشرتوني. الشيخ سعيد الشرتوني. توفيق الشرتوني. الشيخ نصيف اليازجي. الشاعر محبوب الشرتوني توفي في المكسيك. زخور عيسى احد «كاخية» المير بشير.

نزح سكان شرتون من العاقورة منذ ٢٥٠ سنة وهم عائلتان ابو نادر من سلالة بني الغيث جدهم مالك ابو الغيث. وابو ناهض من سلالة بني قصيب.

وعندما نزحوا (بعد حوادث الحربين : بني غيث وبني هاشم) — نزلوا على امراء علم الدين واحتموا بهم في عين دارا — وبما انهم يمنيون اقطعوهم شرتون وما يليها . اكثر نصارى البلدان المجاورة لشرتون كانوا شركاء عند الدروز . الا نصارى شرتون فقد كانوا ملاكين منذ البدء — اي منذ ان اقطعوا الاراضي من قبل امراء علم الدين .

طريق من شرتون الى جسر القاضي

اكواع قديمة . وطريق اقدم . تمر بين غابات من الصنوبر . سلفايا (رجالها اشداء) . في جسر القاضي فاخورة . من جسر القاضي الى بشتفين بين غابات الصنوبر والشربين . وبساتين زيتون وسفرجل . يكثر السفرجل في هذه الناحية وقد شرعوا يزرعونه في بساتين التوت

قرى المناصف

دركوشة . بشتفين . كفرفاقود . دير بابا

البستانيون وآل شمعون . المنشية بدير القمر غرباً : كفرحيم وقبالتها بنويتي . جنوباً : دير دوريت . وادي الدير جنوباً بعقلين .

سراي بيت الدين . خرائب وترميم الهندسة والترتيب وصحون الدور والنقش والترصيع . والحمامات كلها تذكرني بقصر الحمراء بالاندلس . الا ان البذخ والنقش والفخامة هي في الحمراء اكثر منها في السراي . وديع كرم الموكل بالقصر كان دليلنا وكان كريماً لطيفاً . كرسي الاسقفية المارونية علوها الف متر كانت مسكن المير بشير . وقبالها قصر المير امين .

المياه المجرورة من نبع القاع بالقرب من نبع الصفا علو (١٠٣٠ متراً)

مجرورة اليوم بقساطل سيمنتو طولها (١٦) كيلو متراً.

الكنيسة بناها المطران اوغسطين البستاني، هندستها اوروبية. عضادتها الخارجية غوتية. داخلها غامض. مزيج من البيزنطية الرديئة والطليانية في الزخرف: بنوكة الكنيسة (مقاعدها) صنع نجار درزي. المطران اوغسطين مطران الدروز.

في الكرسي ساحة متقنة وفيها غرفتان للضيوف مجهزتان بالنور الكهربائي والمياه الجارية As comfortable as a first class hotel

شجر السرو والدلب والنبك والجوز والحور في السراي وفي الكرسي هي من عهد الامير بشير وقبله.

مشهد وادي الدير من سطح الكرسي جميل بديع يصل الى البحر ويتصل بالجبل الاعلى. وغرباً بجنوب بعقلين وجنوباً جبل الشوفين. وهو من سلسلة جبل الباروك.

المياه غزيرة والبساتين غضة. والجبال من اسفلها الى قرب رأسها مكسوة بالاخضرار.

من بيت الدين الى المختارة. ضهور السمقانية بطاح وربى حدث فيها معارك بين الامير بشير والشيخ بشير. وعين السمقانية والقرية بهذا الاسم ثم نمر بالجديدة. مركز شيخ عقل الدروز، الشيخ حسين طليع (— : جنبلاط) وفيها صعدنا الى المختارة وتغدينا على عين مرشد. ومنها الى عين قني. أصلها اقنية لكثرة ما فيها من العيون. وند فيها الشاعر نجيب حداد. في عين قني القاضي سعيد بك زين الدين. وابنته الاديبة نظيرة وفيها بيت الست نظيرة جنبلاط.

سنديانة عين قني طول جزعها نحو ثمانية امتار ويتفرع منها اربعة فروع ضخمة. علوها نحو خمسة وعشرين متراً. قطرها نحو ٦ امتار.

من عين قني الى عماطور الى اليمين مرج بسري. مياه. مياه. مياه وغياض. رياض. رياض.

ومن عماطور الى باتر علو ٨٢٠ متراً مركز قاضي المذهب الشيخ ملحم حمدان. الزيتون يوافق الطريق بين عين قني وباتر فيظللها هو والجوز ويجعلها في منتصف النهار مأنوسة. والزيتون في باتر قديم وفيه اشجار يقدر عمرها بالف سنة غرائب تكون الجزوع الضخمه وتثقبها. والتفافها كالحيات.

نبع باتر يصب في مرج بسري ويجري الى شمالي صيدا. فوق باتر نيحا وفوقها جبل نيحا من سلسلة الباروك. الاشجار في شمال الجبل فوق نبع الباروك هي من الارز نوع غير معروف في الشمال. وفي الجنوب فوق عماطور وباتر ونيحا، هي من السنديان. من باتر نشرف على بكاسين وجزين وتبعد هذه ١٢ كيلومتراً من باتر

قبال عماطور في الجبل الغربي الشمالي مزرعة الشوف. يَبقون فوق المختاره بُطْنه — شاهين بك جرجس Civil Secretary of the gov. gen. of Suden. He to handle King Hussein's gold from the English during the war

فوق عين قني بَعْذران — فؤاد علامه.

الست نظيرة جنبلاط. ومن دارها نشرف على مزرعة الشوف وعلى بساتين من الزيتون ويتخللها الحور والدلب والجوز.

نهر الباروك يقسم الشوفين الى قسمين، القسم الشرقي: الشوف الحيطي، لقربه من الجبل، والقسم الغربي: الشوف السُوَيجاني، ويقال سويجاني نسبة لبني سويجان الذين سكنوا رأس الجبل.

نهر الباروك ونبع باتر ونهرجرش تصب مياهها في موج يسري وتجري الى المتوسط ومصبها بقرب صيدا وهناك سمي نهر الاولي.

من الشوفين الى العرقوب، من عقر دار الدروز الى مسرح البطولة والشقاوة. من بعقلين، (بين عقلين اي جبلين تفسير الشيخ حسين حماده شيخ العقل : يزبكي) الى عين زحلتا . تمر معاصر بيت الدين . كفرنبرخ بتلون . الفريديس وقبالها الباروك

في الجبل المقابل ترى عندما تصل الى كفرنبرخ :

مجدل معوش والبيره . وادي الست ورشميا، مشايخ بيت الخوري. وعين تراز، بيت السعد

ارض الشوفين ممتازة في خصبها واخضرارها لا تكاد تجد بقعة من التربة عارية. وهي بين الجبال الاخرى حولها، مثل الواحة في الصحراء.

السبب في ذلك انها تحت رف متسع من الجبل. وذلك الرف هو تحت الجبل الاعلى جبل الشوفين ونيحا. فتصب المياه منه وتترشح في الرف وتسقط رهواً في التربة التي تحته، في ارض الشوفين، فتمكث فيها وتزيد في اخضرارها واثمارها

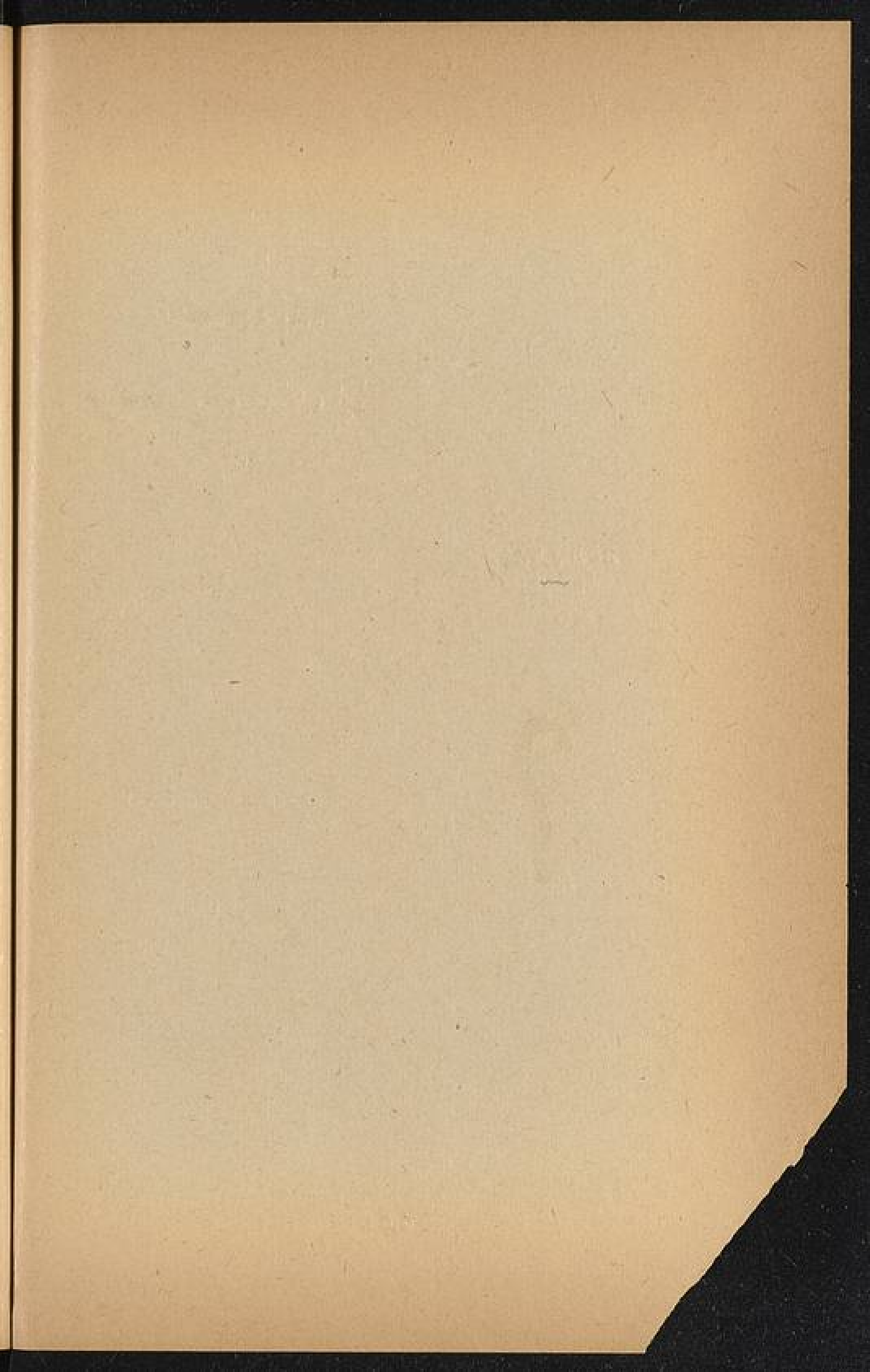
الرحلة الثانية عشرة

جزين وما دونها

•

محتويات الرحلة

?



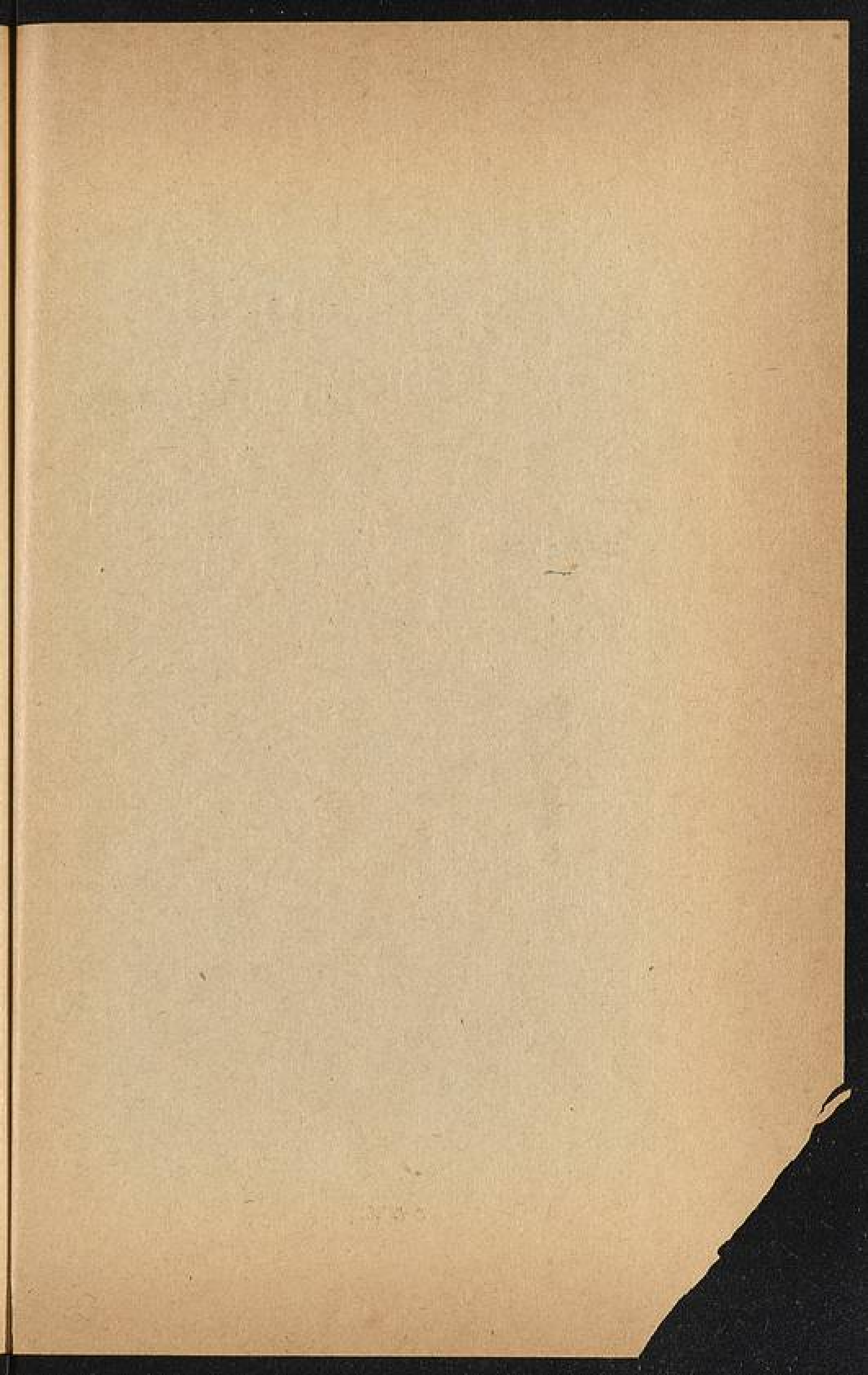
الرحلة الثالثة عشرة

مرجعيون وما وراءها

•

محتويات الرحلة

؟



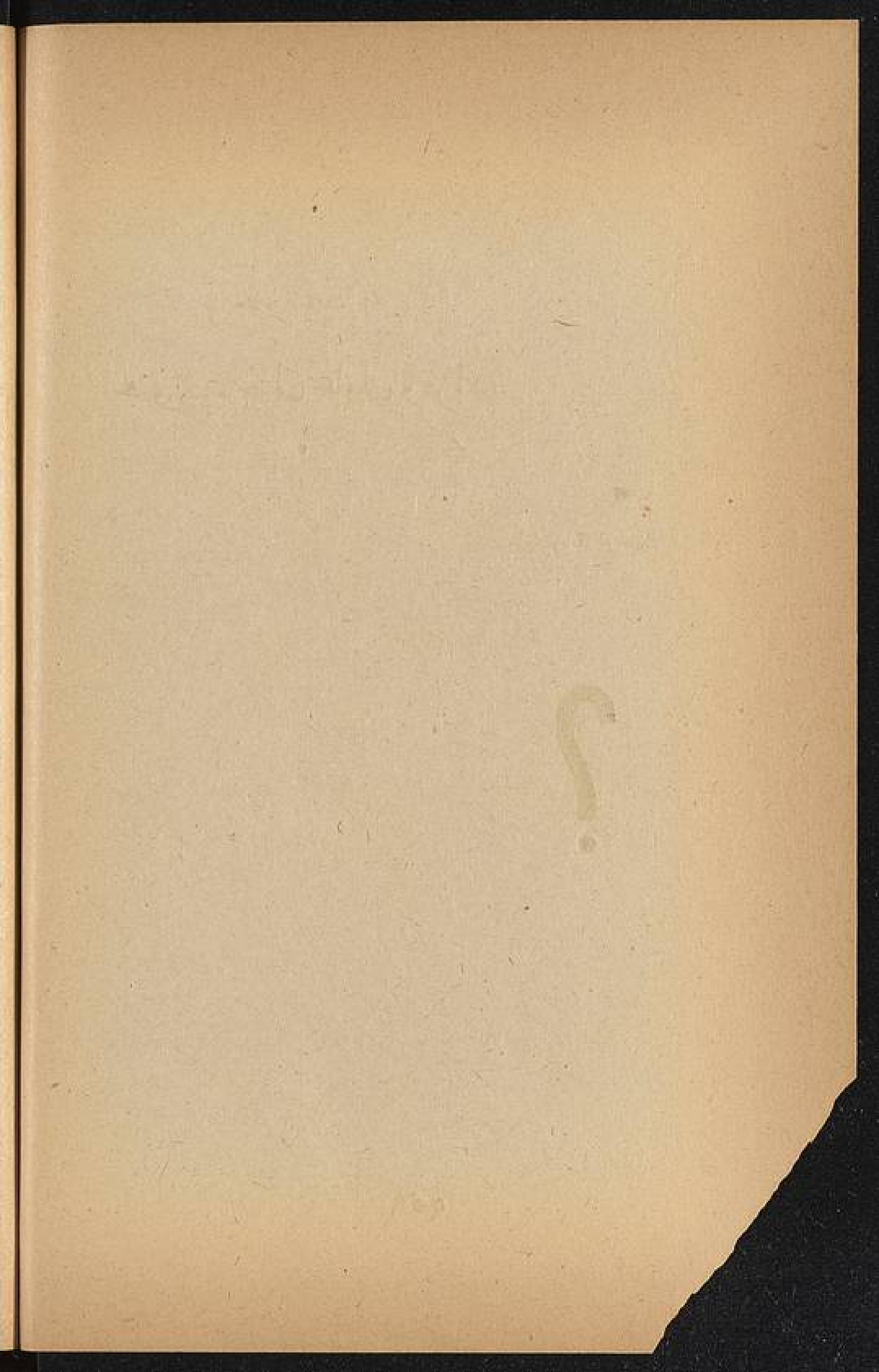
الرحلة الرابعة عشرة

الجنوب، جبل عامل وقراه

•

محتويات الرحلة

؟



وادي الفريكة

•

يمر المسافر بعد جورة الزيتون في الطريق من بيروت الى الفريكة بسلسلة من القرى ذوات الاسماء الشعرية : المُطَيلب – مزرعة الشعّار – ديك المحدي – مزرعة ياشوع – قرنة الحمراء، وفي هذه الاخيرة آل طعمه ومعاصر النبيذ التي تنشر طيبها المسكر في الليالي المقمرة. ثم تأتي الفريكة ومن بعدها الشاوية حيث اقام آل عبد الاحد في بيت نبت بالقرب منه شجرة آس اكسبته الاسم فلقّب ببيت الريحاني

الوادي

الرجمة . الطريق . زيتون القرية – عجائب الحدود . كل يعرف كونَه . حجر او حافة او دغل او رجمة . هذي هي حدودي . هذي هي زيتونتي ورثتها عن جد جدي .

ملتقى الجبال في قعر الوادي

جبل بيت شباب . وفيه الطريق المنسابة الى احراج الصنوبر والى القمر وفيه الساقية التي عمرها مليون سنة . والساقية التي بدأت تتكون منذ ؟؟

كم تظن عمر هذه الساقية ؟ من يوم رأيتها لاول مرة وانا صبي لم تتغير جبل الشاوية وعلى رفّه القرية . الساقية بين الجبلين، جبل الشاوية وجبل بيت شباب

جبل الفريكة . والساقية بينه وبين الشاوية

ثلاثة جبال قائمة من الوادي تحمل على مناكبها القرى الثلاث وتصعد

فوقها لتسند جبل بكفيا .

الصخور في الجبل الواقف بين الجبلين . جبل الفريكة وجبل بيت شباب . وفي هذه الصخور غارات ، نقرتها الرياح والامطار وكونت فيها بيوتا لها اروقة ، وللاروقة عمد وقناطر كأنها من تشييد الانسان . والقباب المغرنطة — هي ذي قصور الجن الف قدم فوق النهر والف قدم تحت بيوت الانس . والفحامون ، يعرفون الطريقة العلمية ولا يدركون السر فيها . يأكلون خبزهم لا بعرق الجبين فقط بل مغموساً بالدم .

الفلاح يقطع الاشجار الاتون وللفحم هو كالمعزى بين الصخور المعلقة الهاوية .

اشجار الوادي : الصنوبر البطم الخروب العفص والسنديان الفرق بين العفص والسنديان . قشر السنديان املس اغرش وقشر العفص ابكم خشن — ورق السنديان صغير وورق العفص كبير — بلوطة السنديان صغيره بلوطة العفص كبيره .

الادغال — القويسه العرنوص والقيقب — شبيهان .

ولكن للقويسه رائحة زكية قوية ولا ريحة للقيقب . وورق القيقب من شكل ورق القويسه ولكنه صغير وغير مشرق . القيقب يحاول ان يقلد القويسه فلا يفلح لا بورقه ولا برائحته .

الغار العوسج القندول البلان .

اوكار النسور تحت الصخور — فوق الادغال — هل يستطيع النسر ان ينقر غاراً في الصخر ؟ اذا كان رملياً او كلسيا ؟

الازهار — في تشرين الثاني يبدأ الوادي يقول شعراً — اول قصائده زهر الزعفران — النحيف الصغير اللاصق بالارض . واوراق دويك الجبل الجميله والطيون المكروه يزهر قبل الجميع . السوسن . الزنبق بدأت تظهر اوراقه . الصخر الابيض الناتي — الخارج من بين صخرين لونها ابكم . في

الساقية — كانه شلال ماء — حدقت فيه فظننته يتحرك فقلت ان في الساقية ماء ولا ماء هناك غير ان الصخر الهاوي المقنطر شبه شلال ماء متجمد

آثار الفريكة

آل ملاح . حنيبال ملاح فاتح الاقليم الغربي ومقهر البلان والطيون . هدروبال ملاح فاتح الاقليم الشرقي واول من زرع زيتونة في الوادي . الملاح الاكبر ، بنى البيوت ونقب الكروم وبساتين التين وعلم السكان الفلاحة والزراعة . الملاح الاصغر ، الملقب بابي كرش اول من علق لبقرة خرزة عين كان محباً للمواشي ولبطنه ولذاته ، اكل الكروش وشرب النبيذ .

a break in the line

انواع الطيور

السماني . الصفاري . ابو زريق . وروار . دويك الجبل

معاصر الدبس . كيف كنا نشرب الزبد بورق التين . خلقين الدبس الفائر والزبد على وجهه مثل حبب الشمبانيا . اصوات الجنادب تتلو صوت جرس المعزى وهي عائدة الى الحظيرة —

في قرى المتن القشعة ورق الصنوبر اليابس . وجمعه في المزارع قشاقيلي . القشبورة خشبتان طويلة وقصيرة في شكل صليب تجمع بها القشعة . او غصن بشعبتين بدل القشبورة .

متفرقات

يُستنتج من سير الكتاب ان المؤلف جمع هذه المعلومات لرحلات حال القدر دون اتمامها .

من عاليه الى شرتون

بِخَشْتَيه، ولد فيها ابراهيم حداد. نبع بخشتيه يروي اراضي وبساتين في الوادي . بُحُوَّارا بيت **Magnolia Churchil** — نبع بجواره . كَفَرعَميه (حقل الاعمى) ؟ ولد فيها ايلياس شبل الخوري . الغابون . نهر الغابون وجميع اراضيها سقي واهم ينابيعها نبع الوادي . شرتون . علوها ٧٦٠ متراً. مرج شرتون . ما تبقى من مياه بخشتيه وبجوار والغابون يصب في نهر الصفا .

وراء سوق الغرب ينفتح الوادي وفي ارحب بقعة يدعى وادي ذهابا، وهو في خصبه يذكرني بوادٍ في اليمن يُدعى وادي الذهب . وفي هذه القرى كلها خرائب الحرب العظمى لا تزال ظاهرة —

من بيت توفيق الشرتوني شمالا : الجبل الذي وراءه عاليه، ثم الجبل الذي وراء سوق الغرب وعلى رأسه بيت مراد البارودي . قبالنا غرباً لشمال بَيْصُور في فيض من الاخضرار . وتحت بيصور، تحت رف الجبل قرية درزية أخرى : مِجدليَّا، بيوتها مسطحة بدون قرميد تقطع الجبل طبقة صخرية تحتها ارض مجدليا المزروعة، وفوقها بطاح بيصور. ويقال ان في مجدليا آثاراً لقبور صليبية .

غرباً دفون ورُمحالا ووادي نهر الصفا وصخرة البنيَّة التي نظرنا منها

الى شرتون. مرج شرتون يتصل شمالا بوادي ذهابا وجنوبا بوادي نهر الصفا.
الدوير تحت شرتون، قبالة مجدليا ومن شرتون طريق رجل الى الوادي.
مرج شرتون الى مجدليا، الى مصيف في الجبل بين سوق الغرب وشملان

من امثال العدب عند الدروز

« انهزت اقطاب العوالي
وانكسف قطب الشمالي »

« يا جبل عالي ورَاسي
يا مطفطف عَل كِرَاسي
كيف حالو بعد منك
رسم قانون الاساسي »

« يا جبل عالي وهايل
با مطفطف عَل قبايل
حالة القانون بعدك
مثل حالة برج بابل »

« خزقوا روب المحامي
واقفلوا ابواب الشريعة »

كرسي البطريركية الكاثوليكية في عين تراز منذ ١٨١١. السنديانة
ذات سبعة فروع كل فرع قطره من متر ونصف الى مترين ونصف وطوله
افقياً ١٠ الى ١٢ متراً

تخيم السنديانة على مربع مرصوف بالبلاط ومحاط بمجالس من حجر
قطر السنديانة ٤ امتار و٢٠ سنتي متراً، بعد عين تراز رشمياً وبعدها
سلفايا، قرية ادمون وهبه

عميق نصارى ودير الروم الكاثوليك تحت الرف . كفر قَطْرة نصارى ودروز فوق الرف جبل دير القمر فوق الرف. بشتْفين كفرحَمَل نصارى فوق الرف . الكنيسة تحت الرف . در كوشه فاخورة، فخار عادي . كفر فاقود دروز . فخار عادي

وادي الدامور يختفي وراء وادي نهر الصفا. الجية والبستانيون الشمس تغيب وراء جبل فيمسي هذا الوادي في الظل من ساعتين الى ثلاث ساعات Twilight مَطْيَر عبيه ومطير عين كسور Grace and quiet

في الطريق من الدامور الى دير القمر دير سيد على رأس الجبل فوق رشميا. الجوزات نصبها المير بشير على العين تحت الدير وكان المير يصطاد في هذه النواحي.

آخر رشميا طريق بتاتر وبسوس وتحتها بيروت . جبل الباروك شرقاً . فوار كفرنيس وتحتها فوار شوزيت . الكهرباء . بحيرة الشركة ١٠٠ متر (٦٠ عرضاً ٢٠٠ متر عُلواً) . مزرعة النهر . معمل الكهرباء على النهر لجدل معوش، نصارى . وتحتها على الصخرة دير مار مارون

كسروان

آل عساف هم التركمان الذين وُكلت اليهم حراسة ساحل كسروان (في عهد المماليك) نسبوا الى اميرهم عساف الذي اشتهر بفروسيته وغناه .

وجرى ابناؤه على مثاله في خدمة وطنه الى عهد الدولة العثمانية.
وكانت مواطنهم في ازواق كسروان، زوق مصبح وزوق مكائيل وزوق الخراب، وسكنوا عين طوره وعين شقيف. ثم انتقلوا الى غزير. حدود ولاتهم من نهر الموت (بيروت) الى نهر البارد. مشايخ آل خازن

لا شك في ان الشيعيين (في لبنان) هم منحدرون من شيعيي الجاليات الفارسية التي انزلها معاوية في السواحل الفينيقية وحافظت على مذهبها العلوي الاصلي.

القرامطة. وصلوا سورية. اختلطت معهم شيع علوية. منهم النصيرية

الدرزية: الحاكم بامر الله استقدم اليه رجلين من بلاد فارس هما محمد بن اسماعيل الدَّرزي وحمزة بن علي. كلاهما قام بالدعوة الى المذهب القائم بوادي التيم

وكان النصيرية قد اقاموا بوادي التيم ولا بد ان يكون في المذهب الدرزي شيء من مذهب النصيرية. الذين غلب عليهم بعدئذ الدروز وطردوهم في اوائل القرن الحادي عشر من وادي التيم.

وادي قاديشا

في اواسط لبنان وادي بعيد الغور تتناحر الشواهد على اختصاصه بنساك لبنان القدماء، هو وادي قزحيا، حيث يجري نهر قاديشا. قدسه العبّاد في عهد دولة الروم.

«هناك كهوف احتلها النساك وعاشوا فيها بالصلاة والشغل».

بالصلاة؟ نعم. بالشغل؟! اي شغل؟

علو	متر
نبع الحديد	١٥٩٠
نبع صنين	١٦٨٠
نبع اللبن	١٦٩٠
نبع العسل	١٦٦٠
نبع قنابكيش	١٨٦٠

جسر الحجر صخرة عظيمة، طولها ٣٠ متراً بعرض ٥ امتار وعلو قنطرته نحو ٦٠ متراً . وجسر الحجر في يوطا Bryce Canyon Utah من الولايات المتحدة الاميركية قنطرته (١٦٥) قدماً اي ٥٠ متراً وهو اوطى واطول من هذا الجسر . ١٦٥ قدماً The open is

---

سير

سير ٢٥ كيلو متراً من طرابلس وتعلو عن البحر (٨٥٠) متراً . سكانها (٢٠٠٠) . ثلاثة ارباعهم سنيون وربعهم مسيحيون . يقال ان اكثرهم موارنة . النبع . حرج السنديان . السنديانة نابتة في شق الصخر ونمت وشقته فصار هو قسما من جزعها . حول مقهرة القرية نحو ٣٠ سنديانة وقد تكون هذه اكبر غابة سنديان من الشجر الكبير (عمر الشجرة من ١٥٠ الى ٢٠٠ سنة). ودائرة جذعها من ٣ الى ٤ ١/٢ امتار. وهي سامقة ووارفة الظلال. الغابة الثانية في رأس الضيعة وفيها كذلك مقهرة. بيت نصوح آغا الفضل رعد، اعلى بيت في سير (٩٨٠ متراً)

فوق سير جبل الاربعين. جرد ووراءه اراض تزرع حبوباً. التربة جيدة. يزرعون القمح في تشرين فتنام الحبة تحت الثلج في اشهر الشتاء ثم

تبعث في الربيع وتنمو. الحصاد في ١٥ آب .

ارض آل رعد في الجرد مزُرَّبين وكذلك ارض الأجاص. من سير طَريق تصل جنوباً الى زغرتا واخرى شمالا الى جبال عكار . ثمار هذه الناحية تمتاز على الثمار في النواحي الأُخرى من الجبل . اهل سير كانوا يضربون المسيحي الذي يشرب الخمر. ويكثر في الناحية قطاع الطرق. مياه نبع سير تصل الى دير رشراش الموارنة. بيت عبد الحميد كرامه في بقاع سفرين ويعلو ١٠٥٠ متراً. بدأ فيها الاصطياف، مثال آخر من رجل فرد يعمر ضيعة — ويطل على مجموع الاودية والجبال والبطاح . ترى منه طرطوس وارواد وتتراءى في الجو الصافي ظلال هي اللاذقية. عاصون قرية في رأس جبل بين الصخور، مسقط رأس جزار محمد سعد الدين رعد، واليها عاد فبنى فيها بيوتاً ونقب بساتين التفاح والأجاص والخوخ والدراق . جر اليها المياه من نبع السكر في سفح جبل الاربعين اي من مسافة ٤ كيلو مترات. عاصون، وقد يكون اهلها قديماً عصوا الدولة — هو التقليد المحلي — فسميت البلد عاصون. وهي تمتاز بكونها اسلامية مسيحية. والمسيحيون روم ارثوذكس ، يعيشون واخوانهم المسلمين على اتم حال من الإخاء. يشتركون جميعاً في الاحزان وفي الافراح . عندما يموت مسلم يشارك المسيحيون اهله بواجبات المأتم فيطعم احدهم الناس كما يطعم اهل الميت . عندما تشرف على سير من الطريق المقابل لجبلها تبدو لك ككتلة من البناء. تمتد في شكل لسان أنفه في بحر من الاخضرار . وينتهي اللسان بمأذنة الجامع .

طرابلس

الثكنات العسكرية الجديدة في طرف الناحية العالية. آل مقدم . استقلال لبنان. وادي الريحان. مين الريحان— الريحانية انطاكية الاسم شمال المعوه شائع مشهور قبل «حضرتنا» الى هذا العالم) . علو ١٠٠ متر . الرملية

علو ١٢٥ متراً. بساتين الزيتون . التربة الكلسية غالبة . مرياطه (ضيعة عبد الحميد كرامه) . دير عشاش تنتهي عنده مياه ينابيع سير ٢٠٠ متر علواً. كفرحبو ، مسيحية اسلامية ، في مرج اوطى من الطريق الى الشمال للصاعدين من طرابلس . قبال كفرحبو جبل أحمر تغلب التربة الرملية فيه ويقل الاخضرار . اسمه جبل تربُد . في رأسه قلمة صغيرة . كان في الماضي معقلاً كبيراً لقطّاع الطرق . وهو لا يزال مشهوراً اسمه (علي خُديجي) . عصى على السلطة مدة من الزمن

مراح السراج ٦٠٠ متر .

بخعون مشهورة بجوخها ، وهي على ربوة . بيوتها كلها مسطحة . وشبيهة برجمة . — علوها نحو ٦٠٠ متر . بيوت حديثة البناء على الطريق وفوقها ٧٠٠ متر . خط واحد للتلغراف في ناحية الضنية . من طرابلس في طريق دوما ضهر العين . طراطيش ، مسلمة ، الى يمين الطريق ، ضيعة البكرات عابا فيها مدرسة يعقوب صمعان علوها ٢٤٠ متراً — بطران علوها ٣٠٠ متر . كانت شهيرة بكراخينها ، بلدة بولس الحولي .

أميون علوها ٣٦٠ متراً . بزيزه علوها ٥٠٠ متر . فيها هيكل روماني . مقابل بزيزه على ربوة غرباً بجنوب دربعشتار . وراء بزيزه شمالا بجُبوش وهي مجموعة بيوت شيعيين . دير بِلّا (٦٥٠) متراً من دير بِلا ننزل الى بستان العصي ، مرج خصب عرضه نحو نصف كيلو متر وطوله نحو ٣ كيلومترات . ملك الاهالي من فلاحي القرى المجاورة مثل بستان كفرحلدا وبيت شلالا ودوما . شلالات نهر الجوز تصب قرب كُبّا ، البترون ومنها الى داعل ٦٠٠ متر . ومنها في شعبة خاصة الى عوره . في رأس جبل عوره بيت يوسف الحويك ٧٥٠ متراً . في الجبل تحت البيت زيتون وتوت وحرج سنديان على جبل متوسط جنوب غرب بقصميا وطريق البترون تمر بدار يوحنا مارون . طريق الوسط من شكا الى الارز تبدو للعيان بتعبورا وكفرحاتا ، في

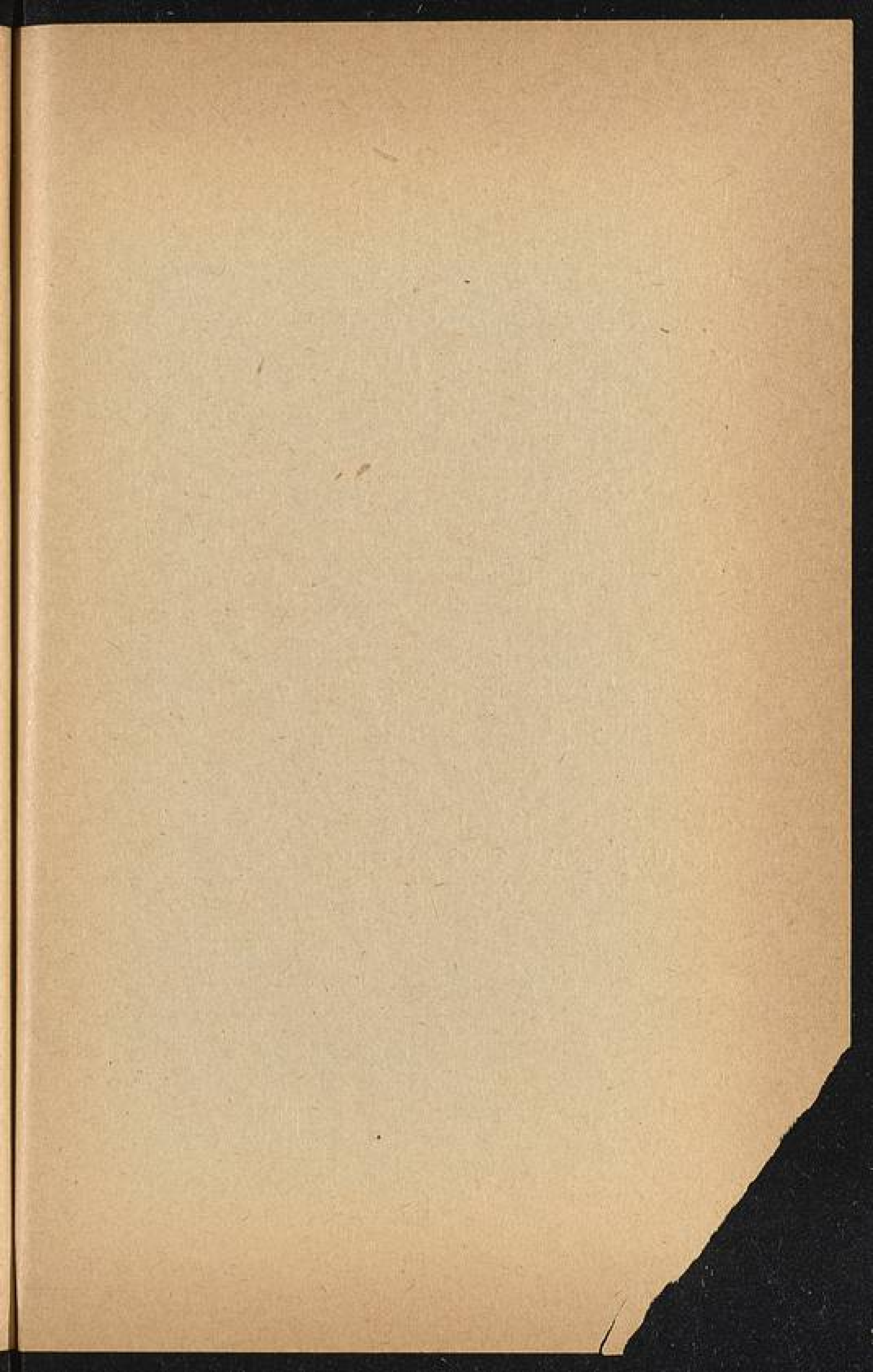
الجبل القريب من وادي نهر الجوز. الجدل موارنة. دربعشتار يبدو بين الجبل البحري وجبل الداخل، صحراء. زيتون الكورة مقابل انفه الى طرابلس طولها نحو ٦٠ كيلومتراً. مدرسة جبران مكاري بانفه. بشمزين والى الشمال منها بطران واميون وتبدو كفرحزير وراء دربعشتار والى الشمال طرابلس.

جبل الشمال ثم الفُنَيْدِق ووراءه جبل الارز والزاوية من السنديانة شمالا ارز نيحا جنوباً اللالو. وراء جبل هرمي على رأسه آثار ابنية قديمة كلها اليوم مهدمة. وفي النواحي نواويس ومعاصر كثيرة منقورة في الصخور. صخور كبيرة ملساء. — حرج سنديان جديد حجارة مبعثرة لبناء روماني قديم — حوض ماء وعليه حجر طوله متران في شكل جسر سُمّي حجر (ابو ضفر) فيه حيوانات بحرية وصدف متحجر. وعندما يُصقل يمسي رمادي اللون وضع هناك منذ الفي سنة.

يبدو البحر من الجنوب الى الشمال مثل هلال ازرق.

اهل زغرتا يصطافون في اهدن. اهل ضهر العين يصطافون في بزعون. اهل عمشيت يصطافون في لحفد. اهل طرابلس يصطافون في سير. اهل جونيه يصطافون في ريفون وفيترون

زغرتا. اهدن. بشري. جبل المكمل. الريحان. حصرون. قاديشا. نبع مار سركيس. جبران خليل جبران. آل كرم. آل فرنجية. آل عواد.



فهرس اعلام

«قلب لبنان»

•

ملحوظة :

– تدل على وجوب تعداد الارقام ما بين الرقمين . مثلاً ١ – ٥ يعني ١، ٢، ٣، ٤، ٥

حرف الالف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال والذال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الضاد

حرف الطاء والظاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف اللام الف

حرف الياء